المكتبة الصوفية

الرحلة الورثيلانية

الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار

تأليف

سيدى الحسين بن محمد الورثيلانى

المجلد الأول

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨
حقوق الطبع محفوظة للناشر
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد ـ القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الورثيلاني، الحسين بن محمد السعيد ، 1713-1779
الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار /
تأليف سيدى الحسين بن محمد الورثيلاني
ـ ط 1 ـ القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية 2006
ج1: 24 سم
تدمك :3-371-341-977
ا ـ التصوف الاسلامى
بـ العنوان

ديوى : 260

رقم الايداع :22519 /2007

كلمة للمصحح

الحمد لله الذي جعل الرحلة لبيته الحرام من قواعد الإسلام، وأمر بالسفر في البرور والبحور، فقال الله عز وجل ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾. وجاء في الخبر أنه صلى الله عليه وسلم قال: «سافروا تصحوا وتغنموا». والصلاة والسلام على خير الأنام سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه والذين جابوا البسيطة من المغرب الأقصى إلى بلاد الصين.

أما بعد فالرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار للإمام العلامة والأستاذ الفهامة الشريف النوراني الشيخ الحسين ابن محمد الورثيلاني نسبة إلى بني ورثيلان قبيلة قرب بجاية. أنفس تصنيف رصعت جواهره في وطن الجزائر. وأعلق تأليف اشتهر بين البوادي والحواضر؛ لاشتماله على عوارف المعارف، وظرائف الطرائف، وأوابد العوائد، وفرائد الفوائد، ونسق كالأوصاف الكاملة، وحل المسائل الشاكلة تارة راتعا في رياض الفقه والحديث والتوحيد، وتارة واردا حياض التفسير والتاريخ والتجويد، وآونة طامحا إلى التصوف والنصح والوعظ. باذلا في ذلك كله غاية الجهد والنكظ. فاصلا جمانه بمرجان الحكايات الأنيقة، ومرصعا وشاحه بياقوت الأشعار الرقيقة وغير ذلك مما هنالك. ولما كان هذا التأليف الحسن الترصيف مطمح الأنفس، وغاية التأنس، أمر سمو الوالي العام بطبعه، لتعميم نفعه.

وقد اعتمدنا في التصحيح على أربع نسخ:

١ - نسخة مخطوطة بخطوط مغربية مختلفة مقابلة على نسخة منقولة من مسودة

المؤلف بمجموع صفحاتها ٦٤٢ في كل صفحة من ٢١ إلى ٣٢ سطرا وكل ٣٣ كراسة غير مخيطة متخللة بأوراق مورقة طولها ٢٧١ مليمترا في عرض ٢١٠ مليمترا.

٢- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية غالبها جيل مقابلة كالتي قبلها على مسودة المؤلف بمجموع أوراقها ٢٥٣ في كل صفحة ٢١ سطرا و٣١ كراسة غير مخيطة متخللة أيضا بأوراق مورقة طولها ٢٠٧ مليمتر في عرض ١٩٠ مليمترا وهي أصح النسخ وأقل بياضا.

٣- نسخة مخطوطة بخطوط مغربية غالبها غير جيد مؤرخة بيوم الجمعة الفاتح لشهر شعبان عام ألف وثلاثمائة وثلاثة عشر (١٣١٣) بمجموع صفحاتها ٦٤٠ في ٣٧ كراسة غير مخيطة متخللة بأوراق مورقة في كل صفحة ٢٠ سطرا وطولها ٢٦٥ مليمترا في عرض ١٩٥ مليمترا.

٤- نسخة مطبوعة على الحجر في حاضرة تونس سنة ١٣٢١ بتصحيح الشيخ علي الشنوفي والشيخ الأمين الجريدي وهذه النسخة مشتملة على ثلاثة أجزاء في الأول ٢٥٠ صفحة وفي الثاني ٢١٤ صفحة وفي الثالث ٢٦٠ صفحة غير أنه يمكن أن تعتبر نسخة مخطوطة بخط مغربي كاد لا يقرأ في بعض المواضع لانطماس الحروف وتعثر القلم والتمجمج أو تفشي المداد وزيادة على ذلك لم ينبه في غير موضع عن البياض الموجود في الأصل.

هذا وقد بذلنا في التصحيح غاية الجهد مع أننا معترفون بأننا لم نبلغ منزلة تسمو عن النقد. ولا سيا كون الأصول التي راجعناها عند الطبع مختلفة الروايات مضطربة العبارات. وقد تعذر علينا كثيرا إصلاح التصحيف والتحريف بعد مراجعة عدة من التآليف. وما العصمة والكمال إلا لذي القدر والجلال.

محمد ابن أبي شنب

ترجمة المصنف

الحمد لله وجد مكتوبا في آخر صحيفة من رحلة الشيخ البركة سيدي الحسين الورثيلاني ما نصه:

يقول زابر هذه الأسطر الفقير إلى الله القدير، عبد القادر بن محمد الصغير، وفقه الله لما يحبه ويرضاه، اعلم أيها الواقف أن مؤلف هذه الرحلة وجامعها هو مولانا وقدوتنا إلى الله تعالى المحقق الكامل، العالم العامل، العارف بالله تعالى أمام المحققين والمريدين، ذو الرتبة الإلهية والعلوم الربانية، والمنح الرحمانية، المقتفي لكتاب الله تعالى والسنة المحمدية، وهو الولي الصالح، والعالم الرباني، سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني، رحمه الله تعالى ونفعنا به كان إماما محققا بارعا في العلوم وتفقه حتى وصل الغاية في مذهب المالكية، ولا سيما قد فتح الله عليه بالافتتاحات الربانية، وله تصانيف عديدة، وتآليف مفيدة.

منها شرحه على القدسية للإمام المحقق، والفهامة المدقق، سيدي عبد الرحمن الأخضري وهو شرح حسن إذ لم نعلم لها شرحا غيره.

ومنها شرحه على وسطى الإمام السنوسي.

ومنها شرحه أيضا على محصل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكري التلمساني غير انه مات فيه قبل تمامه.

وشرح أيضا خطبة شرح الصغرى للسنوسي.

وله حاشية جليلة على حاشية المحقق السكتاني التي وضعها على شرح السنوسي.

وقد وضع رسالة عجيبة على قول بعض الأولياء وقفت على ساحل وقفت الأنبياء دونه لعله أبو الحسن الشاذلي والله اعلم.

وله رسالة أخرى في بعض قول الأولياء نسجت برنسا من ماء وغطيت به من الأرض إلى السماء الخ.

ورأيت له حاشية على صغير الخرشي مزبورة على هوامش الشرح.

وقد شطر البردة.

والقصيدة التي للبوصيري أولها «يا رب صل على المختار من مضر» تشطيرا عجيبا بحيث لا تفرق بينه وبين الكلام الأصلي وغير ذلك من القصائد والتآليف والتقارير مما يطول تتبعه.

ولد رحمه الله تعالى على ما أخبرني به أبي عام خمسة وعشرين من الثاني عشر (١١٢٥) وتوفي على ما ذكره لي بعض تلاميذه في شهر رمضان عام ثلاثة وتسعين من القرن (١١٩٣) وبعضهم قال عام أربعة وتسعين فعلى هذا عاش المؤلف ثماني وستين أو تسعا وستين سنة انتهى.

هذا وقد ترجمه أيضا العلامة المحقق والفهامة المدقق الشيخ أبو القاسم محمد الحفناوي في القسم الثاني من كتابه الموسوم بتعريف الخلف برجال السلف المطبوع بالجزائر فقال هو الإمام العالم العامل العلامة الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد المتبع لأثر الرسول الجامع بين المعقول والمنقول بحر الحقائق وكنز الدقائق مفيد الطالبين ومربي السالكين وقدوة العلماء العاملين وبقية السلف الصالحين محيي السنة والطاعن في نحور مخالفيها بالأسنة نادرة الزمان

وبركة المسلمين في كل عصر وأوان الجامع بين العلمين والكامل في النسبتين حامل لواء الشريعة والحقيقة ومعدن السلوك والطريقة ذو التأليف المفيدة والتصانيف العديدة العالم الرباني والقطب الصمداني والشريف النوراني الشيخ سيدي الحسين الورثيلاني نسبة إلى بني ورثيلان قبيلة بالمغرب الأوسط قرب بجاية التابعة للجزائر كان رحمه الله مجاب الدعوة شديد السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم ليله قائم ونهاره صائم.

تـــراه يـــصلي ليلـــه ونهـــاره   يظـــل كثـــير الـــذكر لله ســـائحا

متعلقا برب الأرباب متوكلا على الكريم الوهاب قد استوى عنده الذهب والتراب فهو ممن ترك الجيفة للكلاب ورأى المصطفى في المنام فاحتضنه فأول ذلك بزهده في الدنيا والحطام ظهرت على يده الكرامات وخوارق العادات وشهد له أهل الصدق بالولاية الكبرى والمكاشفات ونصر الله به الدين وقطع به دابر الملحدين ولم يزل متضرعا لله في السر والنجوى يصدع بالحق ويقيم السنة صادق اللهجة واضح المحجة مستقيم الحجة قصد بيت الله مرارا وحجه طاهر الجنان رطب اللسان ناشط الأعضاء في العبادة والأركان.

حلـــف الزمـــان ليـــأتين بمثلـــه   حنثـــت يمينـــك يـــا زمـــان فكفـــر

كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما رآه أكثر من ثلاثمائة مرة وفي بعضها قال له عند تعلقه به:

تـضلع مـن علـم الـشريعة بعـد مـا   تـضلع مـن علـم الحقيقـة[1] وتـدرعا

أخذ العلم عن والده وأشياخ وطنه ثم رحل إلى المشرق فحج واجتمع بالخضر

---

(١) هكذا بالأصل.

عليه السلام بمكة المشرفة واجتمع بالشيخ الهاق[1] صاحب الطريقة المشهورة بالمدينة المنورة ودخل مصر القاهرة فوجدها طافحة بالعلم والعلماء نيرة زاهرة فركع واستفاد واخذ العلوم العالية عن أولائك كالأسود والأسياد فممن أخذ عنه الصعيدي والحفناوي والجوهري والنفراوي والعفيفي والسيد البليدي والملوي والصباغ والعمروسي وخليل الأزهري وعمر الطحاوي والزياتي والأشبيلي وأبي القاسم الربيعي والهاشمي وابن شعيب الكردي والفيومي وأجازوه في العلمين ثم رجع من المشرق بعد أن امتلاء وطابه وفاض عبابه بعلم وأفاد وألف وأجاد ودعا إلى الله العباد وقهر الجهلة أهل التعصب والعناد فمن تأليفه الرحلة السنية التي سارت بها الركبان وقد دعا لناسخها ومالكها وناظرها فهي حصن حصين ودرع متين ومنها شرحه على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف وحاشية على الكستاني وكتاب المرادي وقصيدة فيها خمسمائة بيت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم كالهمزية لكنها ميمية وشرح على خطبة الصغري ورسالة جوابا على قول بعضهم خضت بحرا وقفت الأنبياء بساحله ورسالة في حل اللغز الذي أرسله سيدي أحمد بن يوسف الملياني إلى علماء فاس فعجزوا عنه وأما وفاته رحمه الله فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه يعيش إلى السنة العاشرة من القرن الثالث عشر فتكون وفاته كما أخبر به الصادق المصدوق لأنه لا ينطق عن الهوى ورؤيا النبي صلى الله عليه وسلم حق ومن رآه فقد رأى الحق كما في صحيح البخاري اهـ.

---

(١) هكذا بالأصل.

نزهة الأنظار

في

فضل علم التاريخ والأخبار

المشهور بالرحلة الورثيلانية

للشيخ العالم الرباني والشريف النوراني

سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني

قدّس سرّه

آمين

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه

قال الشيخ الفقيه العالم الورع الزاهد شيخ الشريعة والحقيقة، وإمام أهل الطريقة، العالم الرباني، والفقيه النوراني، سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني[1] رحمه الله تعالى ورضي عنه وأعاد علينا من بركاته وأفاض علينا من بحر أسراره وأنواره بمنه آمين.

الحمد لله الذي خلق الإنسان[2] أطوارا، وجعل الشمس والقمر والنجوم أنوارا، وسيرها من كون إلى كون بحيث تقطع أبراجا ليلا ونهارا، فيا عجبا من رحلتها بسوق الأملاك إياها فهي آية النهار حقا مشهورا. خُلِقَ الإنسان[3] من نطفة أمشاج لِيُبْتَلي وجُعِل سمعيا بصيرا، فَيَهْدِي إلى السبيل أما شاكرا وأما كفورا، ثم كالأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا، عينا يشرب بها المقربون أعني زمزم وذات المحبوب يفجرونها بالشوق[4] تفجيرا، نعم يوفون بما به كلفوا من المناسك وما به عرفوا من الحقائق تذكرا وتذكيرا، يسمى[5] العهد القديم والنذورا، ويخافون يوما كان شره مستطيرا، ويطعمون الطعام في البر والبحر على حبه والرغبة فيه لقلته وغلائه جائعا وضريرا، بحب وشوق وعشق في الله ونبيه ورضاهما لا يريدون جزاء ولا شكورا، فوقاهم الله شر ذلك اليوم بسعيهم سعيا مقبولا مشكورا، وتجارة لن تبورا، ليوفيهم الله تعالى أجورهم ويزيدهم من فضله النظر إلى وجهه وقد حجوا

---

(١) في جميع النسخ الورتلاني.

(٢) في نسختين للإنسان.

(٣) في نسختين بإسقاط الإنسان.

(٤) في نسخة بإسقاط بالشوق.

(٥) في ثلاث نسخ سيما.

حجا مبرورا، ولقاهم أيضا نظرة ورحمة وعزا ورفعة ومعرفة وزهدا وبصيرة وسرورا، وجزاهم أيضا بما صبروا لتعب السفر ومشقته حرا وبردا وسقيا[١] جنة وحريرا، فلا يرون في ظل العرش عذابا أصلا ولا شمسا أيضا ولا زمهريرا، فما أحسنها من رحلة وظعن من الخلق إلى الخلق وان إلى ربك المنتهى وسواه لم يكن شيئا مذكورا، فسبحان من وفق[٢] وخذل آخرين مع استوائهم في البشريات ألا له الخلق والأمر تبارك الله يقول للشيء أخسا فيكون مذموما مدحورا، والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرمدا دائما بكرة وأصيلا ليلا ونهارا، وعلى آله وأصحابه أجمعين صلاة نحوز بها غدا حجابا عظيما من شر كل ذي شر مع لواء الحمد في حضرة القدس منشورا، وذلك مع الآباء والأمهات والأزواج والذرية والأحبة وفي جنة الفردوس تكون قصورا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نشأت من صميم القلب و خلوص الاعتقاد خالية من الامتراء تكون لنا يوم القيامة فوزا ونورا، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله ونبيه وقريبه صلى الله عليه وسلم إذ كان مؤيدا منصورا.

وبعد فأني لما تعلق قلبي بتلك الرسوم والآثار، والرباع[٣] والقفار والديار، والمعاطن والمياه و البساتين والأرياق والقرى والمزارع والأمصار، والعلماء والفضلاء والنجباء والأدباء من كل مكان من الفقهاء والمحدثين والمفسرين الأخيار، والأشياخ العارفين والأخوان والمحبين المحبوبين من المجاذيب المقربين والأبرار، من المشرق إلى المغرب سيما أهل الصحو والمحو إذ ليس لهم من غير الله قرار، أنشأت رحلة عظيمة يستعظمها البادي، ويستحسنها الشادي، فإنها تزهو

---

(١) في نسخة بإسقاط وسقيا.

(٢) في نسخة وفي.

(٣) في نسختين والربع.

بمحاسنها عن كثير من كتب الأخبار مبينا فيها بعض الأحكام الغريبة والحكايات المستحسنة والغرائب العجيبة وبعض الأحكام الشرعية مع ما فيها من التصوف مما فتح به علي أو منقولا من الكتب المعتبرة سيما وان اعتمادي في ذلك على رحلة شيخنا وقدوتنا ومن على الله ثم عليه اعتمادنا سيدي أحمد بن [محمد بن] ناصر [الدرعي الجعفري(١)] هذا وأني أنقل أيضا من بعض كتب التاريخ كنبذة(٢) المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة ومختصر الجمان في أخبار أهل الزمان(٣) وكذا حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة وغيرهما(٤) مما يناسب المحل جعله الله خالصا لوجهه وعملا متقبلا بين يديه وحصنا حصينا من كل بلاء دينا ودنيا لمؤلفه وناسخه ومالكه وناظره آمين يا رب العالمين وكذا قلت وعلى الله اعتمدت.

اعلم أيها الأخ لما أراد الله المشي منا إلى الحج وقد سبق في علم الله أن يكون حجنا في عام تسعة وتسعين ومائة وألف (١١٧٩) مع إجابة وتلبية للخليل عليه السلام حين قال له الله تعالى وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق الآية حدث لنا العزم بإذن الله تعالى.

وسببه أن الفاضل العالم الكامل الصالح أخانا في الله والمحب من أجله سيدي أحمد الطيب الزواوي نجل الولي الصالح سيدي محمد السعدي من بني العزيز من وطن بني منجلات قدم إلينا زائرا وواقفا علينا وطالع أحوالنا لعل الله يفرج ما بنا من الفتنة مع بعض المخذولين الخارجين عن طاعة الله ورسوله في الأحكام الشرعية بعد إعطاء البيعة والأذعان في جميع الأحكام الشرعية ونبذ العوائد الردية والبدع

(١) طبعت هذه الرحلة في فاس بغير ذكر السنة.
(٢) كذا في جميع النسخ.
(٣) لعله كتاب الجمان في مختصر أخبار الزمان.
(٤) كذا في جميع النسخ.

الشنيعة كقطع الميراث وأكل أموال الناس بالباطل وأموال اليتامى ولين الجانب كالأرامل فلما وصل إلينا فرج الله عنا ذلك بعد أن وقع النصر من الله العزيز لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ ولقوله تعالى: ﴿ تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ ﴾ فيوقع الصلح بين الفريقين وأظهروا التوبة والذل والمسكنة والندم بعد أن كانوا ممتنعين منها ظاهرا وباطنا الفضل لله تعالى والشكر له جل جلاله.

فلما كان ذات ليلة من الليالي إذ[1] اجتمع سيدي أحمد الطيب مع أخينا في الله سيدي أحمد بن حمود[2] وسيدي مهنًا وكلهم ذوو الفضل والعلم والصلاح في دارنا فأخذوا في حديث الانتقال من الوطن فتوفي بهم الكلام إلى التحدث على الحج سنة إذ مع أننا سمعنا أن الشيخ الفاضل الكامل شيخ الركب سيدي محمد المسعود نجل الشيخ البركة سيدي الموهوب نجل الشيخ الولي الصالح والبدر الواضح سيدي محمد الحاج قد ضرب طنبله[3] في المدينة المحروسة الجزائر على عادة الأمراء في ذلك نعم كنا تواعدنا معه قبل على السفر جميعا وفق الله الكل إلى صالح القول والعمل وذلك عام مشينا لزيارة النبي سيدي خالد عليه السلام على القول بنبوته وقد شهر غير واحد من المتأخرين رسالته بجبل الرس[4] الملقب الآن أوراس وكانت معجزته نارا[5] وكانت رسالته قبل رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بمدة قريبة إلا أن رسالته صلى الله عليه وسلم نسخت جميع الرسائل والشرائع إلا ما بقي[6] عن كونه لم ينسخ والذي شهر رسالته صاحب التآليف المشهورة والتصانيف المذكورة المتفع

---

(١) إذا.

(٢) في نسخة حمودي.

(٣) في نسخة طنبه.

(٤) في نسختين الرص.

(٥) في نسختين نار.

(٦) في نسخة بإسقاط عن.

بها غربا وشرقا وجوفا وقبلة سيما بمحروسة مصر في الجامع الأزهر إذ قد اقبلوا على تلك التآليف إقبالا كليا تدريسا وبحثا وشرحا وتعليقا بالحواشي وتطريزا سيدي عبد الرحمن الأخضري نفعنا الله ببركاته وأفاض علينا من بحر أنواره رضي الله عنه وأنا سمعنا أنه هو الذي أظهر قبره بعلم التربيع وهو مقام عظيم والوفود تأتيه من المشرق والمغرب للزيارة وأما على قول بولايته فواضح لأن قبور الأولياء لا تكاد أن تخفى وكذا نص على رسالته الخفاجي على الشفاء فما أحسنها من زيارة وقد اجتمع فيها أكابر الفضلاء وأعظم الصلحاء وتلاقينا في تلك الزيارة مع أفاضل الزاب ونجبائه ولا شك أن أكثرهم مجاب الدعوة كالشيخ الفاضل الفقيه المدرس في مسائل المختصر للشيخ خليل بشرح القدوة صاحب الأنوار الشيخ التتائي مع حاشية الشيخ مصطفى سيدي محمد الشريف من بني جلّال وأهله من الأشراف والسيد عبد الباقي والفضلاء من الطلبة والفقيه الأديب سيدي عبد الباري واجتمعنا أيضا بالزاهد في الدنيا المتخلي عنها رأسا سيدي المبروك وسيدي المبروك هو تلميذ الولي الصالح الورع الزاهد سيدي أحمد بن باباس[١] ونجليه سيدي المحفوظ وسيدي الطيب وسيدي المحفوظ كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم ويرى الله تعالى أيضا حسيا تراه في مرائيه وكان أخا لنا[٢] نفعنا الله ببركاته أمين.

وقد كان سيدي المبروك رضي الله عنه حينئذ متبتلا منقطعا للعبادة وقد رأيته رضي الله تعالى عنه كأنه خارج من قبره تعلوه صفرة وقد ظهر أثر التراب على وجهه فبتنا عنده في قريته وتكرم علينا غاية ودعا لنا ولإخواننا ومن تعلق بنا فلما أردنا الانفصال صبيحة تلك الليلة ذهب عائدا لزيارته سيدي أحمد الطيب وكثير من الناس فلم أذهب أنا معهم قصدا مني أن لا أمنعه من العبادة في تلك العودة وما

(١) بباس.
(٢) خالنا.

حصل لنا قبل كأبي وذلك شأني مع كل مشتغل بالله تعالى فأن كنت بطاء فلا أعوق الغير عما يعنيه.

وقد دخلنا طولقة فاجتمعنا بها أيضا مع أهل الفضل والعلم وزرنا أيضا الشيخ المذكور والولي المشهور سيدي عبد الرحمن الأخضري في قريته المشهورة فلما وصلته وجدته كأنه حي في قبره وذقت[١] منه أمرا عظيما يكاد الجاهل أن يحيله وقد زرت والحمد لله النبي سيدي خالدا مرة أخرى قبلها مع الجم الغفير والجمع الكثير نحو الألف وفيه من الأفاضل ما لا يحصى كالسيد الفاضل الشيخ سيدي علي بن المبارك نجل سيدي علي الطيار وفي ذلك السفر زرت الشيخ الغوث أبا جملين في المسيلة أفاض الله علينا من بركاتهم وأعاد علينا من أنوارهم.

هذا وأن العهد مع سيدي محمد المسعود موثوق[٢] فعقد الجميع النية وعزموا على الحج جزما وكان عزمي بعزمهم غير أن عزمي لم يتفو[٣] ذلك العام إلا إذا ذهبوا فاذهب معهم قطعا إن شاء الله تعالى وبعد ذلك أظهر الجميع عزمه إلى الحج وأنا أقول عزمي على عزمهم فأعان الله الكل فحجوا وقضوا مناسكهم حال الحياة تقبل الله من الجميع.

نعم علامة القبول موجودة ودلائل الخير حاصلة إن شاء الله تعالى وكيف لا إذ لم يسافروا إلا حبا في الله ولله ومن الله[٤] وشوقا في رسوله صلى الله عليه وسلم

---

(١) تقت.

(٢) بإسقاط موثوق.

(٣) لم يتفق.

(٤) بإسقاط ولله ومن الله.

ودلائل الخير[١] لا يمكن فشوها كان ذلك في الكعبة وعند المواجهة علمها بعض الفضلاء وقد شاهدنا[٢] ما لا يصح تخلفه بفضل الله تعالى وناهيك بزيارتهم وحبهم والأخذ منهم وإلا فالمحروم شقي ومن لم يحسن الظن غبي.

وبالجملة فلما سمع الناس من عمالة الجزائر بحج هؤلاء الفضلاء ونخبة العلماء حركهم ذلك إلى شد الرحال إلى بيت الله الحرام من كل بلد ووقع الضجيج من عامة المسلمين ومن خاصتهم وذلك من الحاضرة والبادية حتى ذهب جميعهم بنسائهم وأولادهم.

نعم زاد عزمي وقويت[٣] همتي للمشي غير أنه عارضني أمر أوجب السفر مع الأخ في الله سيدي أحمد الطيب إلى ناحية زواوة وقرية تدلس [دلّس] لزيارة الشيخ الولي الصالح سيدي أحمد بن عمر إذ سمعت به في صباي أنه من أهل التصريف وقد أخبرني بذلك البعض من أهل الخير ممن يوثق بهم وكان رضي الله عنه يعرف أهل عصرنا ويطالع أحوالهم ويعلم من كان من أهل التصريف منهم من المشرق والمغرب وأنه اخبرني بأن سيدي احمد الزروق بن مصباح وسيدي الحسين بن أعراب من بني يرذان وسيدي أحمد ابن باباس[٤] الفليسي وسيدي أحمد بن عمر التدلسي أنهم من أهل الوقت وهو غير بعيد بل هو الحق إن شاء الله تعالى.

نعم هؤلاء فقهاء مدرسون متبعون للسنة وقد ظهرت عليهم آثار الفضل

(١) ودلائل أخر.

(٢) شهد.

(٣) قوت.

(٤) بباس.

وأنوار الحق مشرقة عليهم وقد صحبتهم وأحببتهم وشهدت[١] من جميعهم ما يدل على ذلك على أن سيدي ابن أعراب كان يحدثني عن رجال الغيب ويقول أنهم قالوا ذا ويكون ذا ولولا الإطالة لذكرت من كلامه ما فيه العجب العجاب من اطلاعه على بعض المغيبات.

نعم أحوال الكشف فيه ظاهرة وقد روينا من أسراره[٢] رضي الله عنه وكذا من الجميع في محالهم وقد زرتهم مرارا مع اطلاعي على بعض أسرارهم والحمد لله تعالى.

فانفصلنا من مقامنا بنية الزيارة وقضاء الحوائج لبعض المسلمين من إصلاح ذات البين إذ القتال بين المسلمين في وطننا كثير والفتنة بينهم قل أن ترتفع والهرج بينهم قوي أزال الله ذلك بمنه وكرمه وحكم السلطان غير نافذ فيهم إذ لا يقدر عليهم وان كانوا قريبا من الجزائر لكونهم تحصنوا بالجبال فلم يفد فيهم الأئمة الصالحين وأهل الخير فيجب على من يقبل منه أن يذهب إليهم ويصلح حالهم ليرتفع ما فيهم من المعصية وهي قوله صلى الله عليه وسلم القاتل والمقتول في النار الحديث وقد نص علماء بجاية على أنه يجب على أهل الخير والصلاح ممن يقبل منه أن يصلح بين هؤلاء المسلمين وإلا عصى الله تعالى وقد نُصَّ أيضا على أنه لا يجوز حال قتالهم النظر إليهم ولا النزهة[٣] فيهم لأنها معصية فلا تجوز مشاهدتها وهو شريك بالنظر أنظره في الأسئلة تره بالعيان.

وبالجملة فذهبنا لبعض القرى قد خربت من أجل ذلك وعلها ترجع للعمارة وكان ذلك في يد متولي أمرهم سلطان مجانة بتخفيف الجيم كما سمعته من بعض من

---

(١) كذا في جميع النسخ.
(٢) في نسخة من بحره.
(٣) التفرج.

يعرف ضبطه من الحذاق ويوثق به في اللغات وهو المعظم الأجل محب الصالحين الشريف المبارك محمد بن أحمد بن القندوز المقراني ثم العباسي متوجهين إلى تلك النواحي.

ومررنا على قبر الشيخ الولي الصالح والقطب الواضح رحمة وطننا وغيث بلدنا(١) سيدي يحيى العيدلي نفعنا الله به آمين وقد شهد بقطبانيته الشيخ الولي الصالح ذو التصانيف المفيدة سيدي عبد الرحمن الصباغ شارح الوغليسية وقد شرح البردة أيضا بان اختصر شرح الإمام ابن مرزوق التلمساني عليها بعلوم سبعة ورثاه عند موته بقصيدة عظيمة وشهد له أيضا بالعلم الظاهر والباطن وان له كرامات عظيمة(٢) وشهد له بذلك(٣) أيضا بحر الولاية والعلم سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه ومثله في العلم والولاية سيدي التواتي البجائي وكان حكمه وفتواه لا يردان من بجاية إلى تورز [ومثله طود العلم وشمس الحق والعرفان السيد الشيخ زروق وكفى بهم علما وديانة ونصحا للمسلمين(٤)] أما سيدي عبد الرحمن الثعالبي فانه رد(٥) رسالة للشيخ سيدي يحيى بان شاوره على أمور ثلاثة أحدها من أزواج ابنتي والثانية من يكون وصيا على أولادي والثالثة تجعل تأليفا لأصحابي فأجابه الشيخ الثعالبي عنها بان بنتك زوّجها من تلميذك فلان وأما الوصية فأنت الوصي عليهم حيا وميتا وأما التأليف فقد ألفت ما فيه كفاية والآن قد كبر سني ووهن عظمي فلا أقدر على التصنيف وهؤلاء كلهم في القرن التاسع رضي الله عنهم

---

(١) رحمة بلدنا وغيث وطننا.

(٢) وان له من الكرمات شيء عظيم (هكذا).

(٣) بإسقاط ذلك.

(٤) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ.

(٥) وردت [عليه].

وأرضاهم وأما سيدي التواتي فقد عظمة غاية التعظيم بان كتب الشيخ سيدي يحيى بعد السلام والرحمة والبركة أنك ذكرت شيئا من أحوالنا في الصلاة متقدا أو قادحا فيها فأجابه رضي الله عنه بان قال له بعد تعظيمه بما يستحقه من التعظيم والله ما ذكرنا أحوالك إلا تبركا بها فقط وكيف لا وأنك أحييت أمورا درست وطرفا ذهبت وأنت المحق الفاضل صاحب الوقت أو كلاما يقرب منه وإما الشيخ زروق فقد ذره في كناشه وأنه ألف بعض تآليفه في مسجده المعلوم في تَمُقّرا[1] رضي الله عنه ونفعنا به حاصله ذكره الشيخ زروق وعظمة غاية التعظيم بحيث أخذ عنه العلم الباطن وقال بعض العلماء هو الذي ملك للشيخ زروق أقطارا من البلدان وإلى ذلك أشار بقوله «وملكنيها بعض من كان مالكا» وقد سمعت ممن يوثق به أيضا أنهما اختلفا في لفظ الجبروت هل هو بهمز أو بغير همز [فقال الشيخ زروق بغير همز إذ لم يوجد في اللغة فعلوت هكذا بهمز[2]] وقال الشيخ سيدي يحيى إنما هو بهمز فلما أصاب الشيخ الريب قال له الشيخ سيدي يحيى أنظره في اللوح المحفوظ بان مسح وجه الشيخ زروق فأزال الله الحجاب عه فراه كذلك ومن كرامات سيدي انه لما بنى مسجده المعلوم اختلفوا في القبلة فلما اختلفوا فيها قال الشيخ سيدي يحيى لجبل فوق قريته انخفض فانخفض فتبينت لهم الكعبة ورآها كل من كان هناك وهذا والله أعلم وان لم يرمى الكتب غير انه[3] تواتر عنه ذلك ومن كراماته رضي الله عنه أن الشيخ سيدي التواتي بعث بعض طلبته لسيدي يحيى ليرسل له شيئا من الزيت لأن بلد الشيخ بلد الزيتون إلى الآن فبعث الشيخ سيدي يحيى للطلبة معزا أي عددا منه وقال لهم سوقوا المعز من غير كلام لأحد حتى تصلوا الشيخ فلما وصلوا أثناء الطريق بان وصلوا

---

(١) تمغرا وتموقرا.

(٢) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ.

(٣) عوض قوله غير انه ورد في بعض النسخ فقد.

سوق الثلاثا لبني هارون وجدوا بعض إخوانهم من الطلبة فسألوهم عن الخبر وقالوا بعث معنا[١] عددا من المعز وغفلوا عن وصية الشيخ رضي الله عنه فلما ذهبوا لذلك المعز وجدوه جلودا من زيت وقد أسقط عليهم الكلفة [فلما فضحوا سر الشيخ رجعت لهم الكلفة[٢]] ثم أنهم حملوها جلودا كذلك إلى أن وصلوا إلى بجاية إلى الشيخ فاخبروه القصة وقال لهم لو سكتم لوصلوا كذلك ثم يرجعون زيتا فلما خالفتم وقع بكم ما وقع من الكلفة وبالجملة من كتم سر الأولياء وكذا سر الله انتفع به ودام له ذلك وكراماته رضي الله عنه كثيرة وقد كتبنا منها نبذة في شرحنا لوظيفته عند ختمه ولم أذكر فيها كرامة عظيمة لم أرها مسطرة غير أنها تواتر أمرها واشتهر وهو انه لما رجع من سياحته وقد مكث فيها مختفيا عن الناس نحوا من عشر سنين وأمه في حال حياتها وجد أهل قريته أخذوا ثورا لحما فقسموه ولم يجعلوا نصيبا لأمه من غير اكتراث بها فلما علم بذلك تغير من أمرهم حيث لم يسهموا لها شيئا والحالة أن اللحم لم يبق منه شيء بل جعلوه في القدور ولم يجد شيئا باقيا إلا الجلد والرأس فعند ذلك ورد عليه حال عظيم بان أمسك الجلد من الذيل وقال له قم بإذن الله فقام الثور يمشي كما كان أول مرة فلما شاهدوا منه ذلك خضعوا له وتواضعوا وذلوا واستكانوا وظهر أمر الشيخ بينا بحيث أن من تعدى عليه هلك بغتة وقد كان له زرع في امالوا[٣] وبات فيه جماعة من الناس بخيلهم من غير علم أن الزرع للشيخ فلما أصبح الله بخير الصباح مات جميع خيلهم وحملوا سروجهم على أعناقهم ثم إن ذلك في آخر عمره ارتفع وسئل الشيخ عن ذلك فقال فعل الله ذلك ابتداء ليعلم بحالي الخلق وليظهرني فلما حصل المقصود من الظهور والنفع للخلق وظهرت الخصوصية

---

(١) في ثلاث نسخ لنا.

(٢) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ.

(٣) ونسخة المحال و.

الخصوصية وثبتت ودامت ارتفع ذلك والله اعلم.

ولما زرنا قبر الشيخ وسألنا الله بجاهه أن يمن علينا بما فيه رضاه من السفر وأن ييسر علينا أمره وان يجعله مقبولا مع الأخذ في الاستخارة الشرعية وبالجملة فقبر الشيخ ترياق مجرب ذهبنا لبني عباس وبتنا عند الفضلاء الأشراف المحبين لنا جميعهم الصغير والكبير والذكر والأنثى وتكرموا وفرحوا بنا فرحوا شديدا ثم بعد ذلك لقرية المحب كل الحب إذ داره يد أهل الخير فيها يدا واحدة الفاضل الفقيه الصالح الكامل سيدي محمد السعيد بن الطالب وانه فرح بنا أيضا فرحا شديدا وبعده ذهبنا لزيارة الشيخ الولي الصالح والبدر الواضح ترياق وطنه وأمير[١] بلده سيدي أحمد بن عبد الرحمن جدا أولاد مقران والله اعلم تلميذ الشيخ سيدي يحيى وقد سمعت أنه قال للشيخ سيدي يحيى أني رأيت في النوم النار تخرج من بولي فعبرها له الشيخ بان قال يصير منهم أي من أولاده ما يصير[٢] من أهل الظلم والجور وكان الأمر كلما ذكر ولعل بركة جدهم تعمهم وكذا الشرف وقد رأيت طبقات ابن فرحون انه نص على شرفهم والله اعلم قلت وقد نص الشيخ عبد الباقي على أن الشرف يثبت بالشهرة عند قول المصنف ومصرفها بكسر الراء فقير الخ والأجهوري بضم الهمزة قال الناس على ما حازوا من أنسابهم كحيازة الأموال يصدق الإنسان شرعا في نسبه كما يصدق بان ما بيده ماله إلا إذا كان مشهورا بالعداء والظلم فلا بد أن يكلفه الحاكم بأي وجه تمليكه وإلا أخذه من يده لعل صاحبه يأتي إليه نص عليه الشيخ إبراهيم الشبرخيتي.

هذا ولما زرنا الشيخ وسألنا الله حوائجنا الدينية والدنيوية وأمر السفر أيضا

---

(١) في نسخة أمين.

(٢) بإسقاط ما يصير.

حسبنا عند الشيخ سيدي يحيى ذهبنا لقضاء حوائج المسلمين فلما قضيناها من أمير بجانة وغيره من عرفاه نبي عباس ذهبنا لمحل الولي الصالح والشريف الواضح سيدي بهلول بن عاصم نفعنا الله به وبذريته وقد اشتهر أمره انه تلميذ الشيخ سيدي يحيى كما كنا نسمع ذلك(١) والله اعلم وانه أيضا تزوج بنت الشيخ المذكور وكراماته كثيرة وحال أولاده مع الناس كذلك.

نعم بدأنا بزيارة الذاكر لله كثيرا الفاضل الصالح الفقيه المحلى بحلية القبول سيدي محمد بن سعيد الشريف البابوري وقد اجتمعت معه حيا وزرته مرتين وقد سمعت انه تلميذ الشيخ سيدي أحمد بن عبد العظيم وسيدي أحمد هذا كان من المحققين في كل علم وشهد بولايته كل من رآه من أهل عصره وقد سمعت ممن سمع سيدي إبراهيم الحاج البجائي انه سمع الحيتان في البحر تقول سبحان الله أحمد بن عبد العظيم ولي الله.

وسيدي إبراهيم هذا كان صاحب الوقت في زمانه وأني سمعت ممن يوثق بخبره أن السيد أبا القاسم الحاج صاحب قُراية في بجاية انه رأي السيد إبراهيم في السماء الرابعة يجذب(٢) الشمس مع الملائكة وكفى به وأني سمعت العدل المبرز الكامل الصالح سيدي علي بن عبد الرحمن البجائي انه سمع من الفقيه الصالح سيدي يحيى الصنهاجي انه قال سمعت من سيدي إبراهيم هذا يقول لا يقف عند قبري شقي وتواتر عنه هذا الخبر وقبره معلوم وذلك داخل السور عند باب اسيور(٣) قرب قبر الشيخ أبي حامد الصغير أبي علي المسيلي.

---

(١) في بعض النسخ بإسقاط ذلك.

(٢) بحذاء ويحيد.

(٣) في نسخة ميسور.

وسيدي علي هذا سمعت منه انه قال رأيت فاطمة الزهراء في النوم فقالت أنت من جيراننا ثم إنه ذهب إلى الحج ومات في المدينة المشرفة ودفن في البقيع بلغنا الله ومن تعلق بنا ببركة جميعهم.

وكذلك زرنا سيدي الهادي وأولاده كان رضي الله تعالى عنه مقبلا على الله وله بسطة في الدنيا وأقبلت عليه الناس ثم بعد ذلك امتحن ونجا بفضل الله تعالى بان تعدى عليه طلبة الشيخ سيدي أحمد بن إدريس إذ بلغ أمرهم الظلم والتعدي والفتنة للناس وهلاكهم وقطع شجرهم وأصابتهم غيرة من الشيخ وحسد فعادوه وحرقوا قريته وأخذوا ماله وقتلوا ولده ولما أحاطوا بداره ولم يتركوا فرجة له يخرج منها ظنا منهم يمسكونه بأيديهم ركب فرسه وهي طويلة جدا وهو رجل طويل بلغ فيه الغاية فلم أر رجلا مثله إلا النادر وخرج من باب صغير بحيث لا يخرج منه إلا الطفل المراهق أو ربعة من الناس نعم لا يخرج من ذلك إلا بعسر فخرج بفرسه على حاله فكل من رأى ذلك وعلم بحاله تعجب من ذلك كثيرا فنجاه الله تعالى وسلم ثم أني رأيت له قصيدة كبيرة في شأن هؤلاء الطلبة المتعدين وان خصها بعض الأوزان الشعرية فان مذهب المتقدمين لا يشترطون ذلك وإنما هو مذهب المتأخرين على أنه إن استقامت حالة الإنسان وكانت همته عالية متعلقة بالله تعالى لا يضره مخالفة القوانين الأدبية ولا غلبة العجمة ولا قلة العلم وقد ذكر فيها انه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم انه قال له سيهلكهم الله بان قبلت فيما طلبته(١) فيهم وكان الأمر كما ذكر بان شتت الله جموعهم وفرق أمرهم تفريق أيدي(٢) سبا وان بقيت منهم حثالة فقد رق حالهم وضعف أمرهم غير انه إن بقي منهم ولو واحد لا يخلو من

---

(١) تطلبه.

(٢) يد.

التعدي والظلم نعم بركة الشيخ سيدي أحمد بن إدريس تتوب[١] عليهم ولعل الله يهديهم أو يهلكهم إن لم يعلم ذلك منهم وبركة الشيخ سيدي الهادي هذا ظاهرة على ذريته أرشدهم الله تعالى.

وزيارة هذا الشيخ بعد أن زرنا مقام الشرفاء في بو جليل[٢] فأنهم أهل فضل وبركة وعناية وقد اجتمعنا معهم في الجد الأعلى والشرف على ما كنا نسمعه من أعالي أسلافنا فلما وصلنا قرية أولاد الشيخ سيدي بهلول فعلوا ما أمرناهم به من الصلح مع أعدائهم وردهم إلى محلهم لأنهم حرقوهم بالنار[٣] وأخذوهم وقتلوا منهم ثلاثين وأولاد الشيخ كثيرون غير أن فيهم من يقرأ القرآن ومن يفهم العلم وكثير منهم على طبع العامة من تقليدهم سيف الفتنة وأحكام العوائد نعم غلب عليهم الكرم.

ثم بعد زيارتهم وقضاء الحوائج منهم ذهبنا لزواوة فزرنا وطنهم الحي والميت والظاهر والخفي على الجملة إلى أن بلغنا بيت الفاضل الأخ سيدي أحمد الطيب واجتمعنا بفضلاء من الناس.

وبعد ذلك عزمنا على زيارة الولي الكبير والقطب الشهير سيدي علي بن موسى ومررنا على بني منجلات وبني بترون وبني عيسى وغيرهم فلما وصلنا الشيخ سيدي علي بن موسى بتنا في مقامه المشهور وضريحه الترياق[٤] وقد ظهر من أمره نفعنا الله به أن من قصده لحاجة دنيوية أو دينية يعطي لوكلائه وطلبة مقامه شيئا

---

(١) تتوب.

(٢) بجليل وبجليل.

(٣) بالترك.

(٤) كذا.

معلوما إذ كل حاجة بها تشترى من القدر المعلوم تقضى بإذن الله تعالى وفضل الله عليه عظيم وصبغة الله عليه جالية وزائره مقبول وقبره دواء رباني وطب إلهي وقد كان في القرن التاسع معاصرا للشيخ سيدي يحيى العيدلي وصديقا له كراماته باهرة وأحواله ظاهرة قلت قال الشيخ سيدي يحيى العيدلي علي بن موسى فيه خاصية الرقية لم تكن في أحد من أهل عصره قال وقد رقي لي عكازا أي عصا وكنت أرقي به للناس فيظهر آثارها وقيل انه ذهب لبني يَمَّل[١] في وادي بجاية[٢] وأتوا له بولد كبير بلغ حد المشي وتجاوزه ولم يقدر على المشي بان صار مقعدا لا يقوم أصلا فمسح عليه ورقاه فمشى من حينه نفعنا الله به ومن كراماته ما اشتهر عنه أنه أقام بقرة بعد ذبحها وقسم[٣] لحمها وسببه أنهم لم يسهموا له الطلبة لأنه كان خديما للطلبة وغير ذلك من كراماته وكان له مزود إذا امتلأ يكفيه ثمانية أيام بلغ الضيوف ما بلغوا ألفا أو أكثر أفاض الله علينا من بركاته وجعلنا في زمرته بمنه وكرمه.

ثم ذهبنا بعد الزيارة وطلبنا عنده ما طلبناه عند الشيخ سيدي يحيى إلى قرية تدلس المحروسة لزيارة سيدي أحمد بن عمر إذ كنت صغيرا وقلبي متعلق به حتى جمع الله بيننا وبينه عام تسعة وسبعين ومائة وألف (١١٧٩) فلما وصلنا فرح بنا فرحا عظيما وسر بنا سرورا قويا ودعا لنا بعزم وقوة همة من صميم قلبه وخلاص الاعتقاد وأقمنا ثلاثة أيام فيها مع كرم عظيم وطيب ضيافة وإحسان تام من أهلها عمرهم الله وجعل البركة فيهم.

ثم أن فضلاءها ونجباءها سألوني عن قول بعض الأولياء وقفت بساحل

---

(١) في نسخة يمل.
(٢) في نسخة زيادة ونواحيه.
(٣) في نسختين وقسمة.

وقفت الأنبياء دونه فزبرت عليه رسالة حسنة بما فتح الله به ارتجالا وكتبت فيه رسالة نحو كراسة صغيرة وقد قلت فيها ما حاصله انه وقف بساحل يعلمه الحقائق وزوال الحجاب عنه بان وقعت له شطحة من شطحات أهل المحو فوقف في ذلك الساحل لعدم تمكنه ورسوخه في علم الشريعة ولا في علم الحقيقة إذ هو متلون لا متمكن من الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا لا من المتمكنين الذين اطمأنت قلوبه بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب فوقف في ذلك الساحل وقوف اضطراره لا وقوف أدب لأن صاحب هذا المقام محمول لا حامل وهو ممن ملكه الحال لا انه ملكك حال فكان وقوف الأنبياء دونه أولى وأمكن وأليق لتمكنهم واشتغالهم مع السفرة والوحي هذا بمنزلة الخضر مع موسى عليه السلام وقد كانت علوم عنده لم تكن لموسى عليه السلام مع أن موسى أفضل منه بالإجماع غايته أن تلك مزية والقاعدة المقررة أن المزية لا تقتضي الأفضلية فموسى قد اشتغل بما هو أعظم والخضر خصه الله تعالى بهذا الأمر فلا يكون أولى ولا شك أن الخضر وقف بساحل من العلوم اللدنية والمواهب الكشفية لم يقف موسى بها إذ وقف دونها وهي علم الشريعة ولا شك أن ما يفعله الخضر في بادي الرأي أنه ممنوع شرعا في ظاهر الحال ولذلك قال له لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا فإذا علمت هذا علمت مثله في هذا القول من غير شك وقد قررته بوجهين آخرين فاستحسنوا ذلك مني غاية قل بفضل الله تعالى.

ثم ودعونا وفقهم الله وهداهم نحو مسيرة نصف يوم وفي تلك الجماعة عمنا العلامة المحقق الفهامة سيدي محمد الصغير بن رقية والفاضل الكامل سيدي محمد السعيد بن الطالب والمحب للخير وأهله سيدي أحمد بن علي نجل الشيخ سيدي يحيى العيدلي وسيدي أحمد الطيب والشيخ الفاضل سيدي مهنا وخديم الصالحين الحاج علي البتروني وغيرهم وتلميذ سيدي محمد السكلاوي الجزائري إذ كان يقرأ

عليّ كبرى الشيخ السنوسي بالشيخ اليوسي قراءة تحقيق في أيام الزيارة وغيرها وشاورنا سيدي أحمد بن عمر على الحج فقال توكلوا على الله.

ثم رجعنا وأخذنا على بنيْ فراوسن بلد الشيخ ابن معطي صاحب ألفية النحو الذي قال فيه ابن مالك «فائقة ألفية ابن معطي» وسيدي محمد الزواوي صاحب المرائي المعلومة صديق سيدي سعيد السفري القسنطيني وصاحبه فنزلنا قرية الجمعة اعني الصهريج وهي قرية عظيمة ذات بساتين وعيون في وسط العمارة نحو مائة عين كما قيل.

ونزلنا عند المعظم سيدي محمد بن القاضي الشريف سلطان زواوة وعاهدنا على الحج ومشى معنا ثم مات رحمة الله عليه بعد خروجنا من المدينة المشرفة ودفن بين الينبع ونقب علي في شهر محرم سنة ثمانين ومائة وألف (١١٨٠) ثم أتينا بني بو شعايب[١] وزرنا جلتهم ثم مررنا على بني يحيى وزرنا جلتهم أيضا وتلاقينا مع بعض فضلائهم أولاد الفقيه من قرية ثوقة[٢].

وزرنا سيدي علي بن الطالب وهو ولي مشهور كان صبغة في عصره وكان يأتيه الرجل فيبلغ لله تعالى ساعتئذ وزرت قبره مرارا وأني أدركت أصحابه المنورين جلة منهم سيدي أحمد بن عمر وسيدي الموفق ابن أم رزق[٣] الصغير إلا أني صغير وهو قد تجرد للعبادة وخدمة طلبة العلم وله كرامات كثيرة وورع شديد صاحب انقباض والمرابط سعيد بن ثيفرين[٤] وأني أدركت منه المنى وأنا صغير والولي الصالح سيدي

---

(١) بُشعايب.

(٢) توقة وتق.

(٣) في نسخة زروق.

(٤) تفرين وتيفرين وتفترين وتفترين.

يحيى بن حمود[١] وكلهم أصحاب وقت في عصرهم.

ثم نزلنا قرية الشيخ الفاضل ذي التصانيف الجيدة الولي الكبير والعالم الشهير صاحب وقته المحب للنبي صلى الله عليه وسلم وخليله سيدي أحمد بن مزيان وهي وَرْجَة قرية عظيمة طيبة فيها بساتين وعين جارية وسط داره وله خلوة معلومة له اليد العليا في العلوم كلها المنقول والمعقول وقد خمس البردة[٢]] بحيث لا تفرق بين كلامه والكلام الأصلي[٣] وألف كتابا في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لم يوجد له نظير لأنه ذكر تصاريف اللغة وحاز يد السبق فيها وغير ذلك وله سر عظيم وانفعال جسيم فأين توجه إلا والناس حافون به كلامه له حلاوة وطلاوة[٤] وقد تمكن في علم الأوفاق تمكنا كليا مع الكشف التام وقد أخبر عنه أنه لا يفعل شيئا حتى يستأذن النبي صلى الله عليه وسلم وله كرامات مشهورة وهي أنه أتاه فقير في أيام الحج فقال له والله أن أحج في هذه الأيام فلما ألح على الشيخ وذلك في زمان الخريف أعطى له عنقودا فكمل أكله في مكة المشرفة ثم لما كمل حجه وجد نفسه في داره نفعنا الله به ووله حي أخ لنا وصديق لدينا وهو لا ينتبه لأكثر أحوال الدنيا.

وزرنا[٥] صاحب الفضل والفواضل سيدي العزلي جعل الله البركة في أولاده بمنه وكرمه وله أحوال سنية وكرامات ظاهرة سيما إجابة الدعوة وأبوه أقوى وأعظم وقد عمت بركته الداني والقاصي نعم زرنا قبره وبتنا في خلوته وتوضأنا[٦] من عينه

---

(١) في نسخة حمودي.

(٢) ما بين القوسين ساقط في بعض النسخ.

(٣) في نسخة الأصيلي.

(٤) بإسقاط وطلاوة.

(٥) في ثلاث نسخ بإسقاط وزرنا.

(٦) في جميع النسخ توضينا.

وقد سمعنا أن ماء زمزم يخرج إليها وانه أيضا لم يبن تلك القرية إلا بإذنه صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد ذلك رجعنا إلى دار الشيخ سيدي محمد السعدي والد سيدي أحمد(١) الطيب كان فاضلا عالما عابدا زاهدا ورعا آكلا من عمل يديه طالبا للحلال لأن من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى أو كما قال صلى الله عليه وسلم وهو تلميذ الشيخ سيدي أحمد بن مزيان وانفعلت فيه سريرته وظهر عليه آثار أنواره وقد سمعت ممن يوثق به أنه قال لو شئت أن تصير لي الجبال ذهبا لفعلت ولكني اخترت ما اختاره النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه من التقلل في الدنيا ونفض يد القلب منها قطعا والحمد لله على محبة آثارهم ومعرفة أحبابهم رضي الله تعالى عنهم.

ثم بعد زيارته(٢) في محله رجعنا إلى بلدنا مارين على الشيخ سيدي يحيى العيدلي عطفه الله علينا وعلى أولادنا وطلبتنا وكل من ينتمي إلينا من الإخوان وغيرهم بمنه وكرمه.

فلما بلغت البيت حدث لي العزم التام ثم أخذنا في التأهب إلى السفر والأخذ في أسبابه واشتهر أمر سفرنا وبلغ أمره أطراف نواحي عمالة الجزائر فقامت لذلك فضلاء الخاصة والعامة ثم وقع النداء في أسواق بلدنا فيمن عزم للسفر.

ثم بعد ذلك عرض لي أمر أوجب لي السفر لوادي بجاية فلما ذهبت إلى الوادي سمع بي جماعة من فضلائها العلامة الفاضل قاضيها تلميذنا سيدي أبو القاسم نجل

---

(١) في نسخه بإسقاط أحمد.

(٢) في نسخة زيارتنا.

الكامل سيدي إبراهيم والفقيه المفتي سيدي محمد والمعظم الأجل قائدها أحمد السطمبولي[1] محب الخير وأهله وكان والده السطمبولي[2] تاب على أيدينا رحمه الله آمين.

فلما وصلت إلى أولاد الشيخ سيدي محمد أمقران في محلهم إذ هم أنسابي نويت زيارة الشيخ الصالح والأستاذ الواضح سيدي إبراهيم بن ثابت في بني مسعود فوجدت تلك الجماعة قاصدين ملاقاتي فاجتمع كلنا عند السيد إبراهيم المذكور فبعد زيارتنا له ألحوا علي في الذهاب إلى بجاية إذ كنت متغيرا عليهم قبل غير أنهم لما أكدوا على ذهبت معهم إلى زيارتها لأني محب فيها غاية وذلك قبل بلوغي وكنت كل عام أصوم فيها رمضان ناويا للرباط مع تعليمي الطلبة[3] راجيا أن يكون لي حظ وافر منهم ونصيب كامل من عندهم حقق الله رجائي بمنه وكرمه.

فلما وصلت بئر السلام متشرفا على المدينة المذكورة[4] توجهت إلى زيارة الشيخ سيدي أحمد بن معمر الولي الكامل والليث الفاضل لما كنا نسمعه أن من زار بجاية ولم يزره لم يذهب بشيء منها والعياذ بالله تعالى وان لم يكن كذلك في نفس الأمر غير أن أسباب الحرمان[5] كثيرة فالحذر الحذر والأدب الأدب ألا ترى ما وقع لبعض الأولياء في زمان الشيخ سيدي عبد القادر الجيلي حين قال قدمي هذه على رقبة كل ولي لله فكل من سمعها[6] طأطأ برأسه تواضعا لله تعالى وتسليما للشيخ إلا واحدا من

---

(١) اصطنبولي.

(٢) اصطنبولي.

(٣) في ثلاث نسخ للطلبة.

(٤) في ثلاث نسخ المشهورة.

(٥) في ثلاث نسخ الحرمة.

(٦) في نسخة إلا طأطأ.

أولياء العراق لم يسلم للشيخ حاله ولم يصدق مقاله فسلب من حينه والعياذ بالله تعالى وكذا رجل تغير عليه الشيخ وقال لا يدخل بغداد فكان إذا وصل إلى[١] بابها لا يقدر على الدخول لما يجده من المنع الإلهي نعم شفعت[٢] عنده أمه في الاجتماع معها فقبلها[٣] غير انه أذن لها أن تجتمع معه في طريق تحت الأرض في بغداد وأما الطريق المعلومة[٤] فممنوع منها وكذا ما حكي عن أبي يزيد البسطامي الذي من عرف اسمه دخل الجنة واسمه طيفور بن عيسى وهو أنه قال لصائم تطوعا كل يوما[٥] بيوم فقال أنا صائم فقال كل يوما[٦] بشهر فقال أنا صائم فقال كل يوما[٧] بعام فقال أنا صائم فقال كل يوما[٨] بدهر فقال أنا صائم ثم سكت عنه الشيخ فقام بعض الناس إليه قائلا له أن الشيخ يأمرك بالأكل وأنت تمتنع فقال له الشيخ دعه فانه سقط من عين الله تعالى انظر هذا مع انه موافق لمذهب مالك أنه يحرم على الصائم المتطوع الفطر من غير وجه والوجه الأبوان وذو التربية من الشيوخ ولابد أن يكون الصائم مديما للصوم والحق البعض شيخ التعليم قلت قال المحلي حديث الصائمُ أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر رواه الكتب الستة فكان المختار عند غير مالك الفطر من غير منع بل هو مباح ويحتمل حينئذ المأمور بالأكل أن يكون تلميذا للشيخ ويحتمل أن يكون الشيخ مذهبه الحديث أعني جواز الفطر.

---

(١) في نسخة بإسقاط إلى.

(٢) في نسخة تشفعت.

(٣) معها فقبله.

(٤) بإسقاط المعلومة.

(٥) بوم.

(٦) يوم.

(٧) يوم.

(٨) يوم.

تنبيه إياك أن تتعرض لأحد من أهل الله ممن ثبتت له الخصوصية من الأولياء في زمانك فيما فيه الوسع شرعا فتنزل قدمك بعد ثبوتها وقال الحطاب في حاشيته على الشيخ خليل أن مذهب المخالف أعي الفطر من غير وجه أقيس فإذا فهمت هذا علمت أن الاعتراض على من ثبتت له الخصوصية حرمان والمنازعة شقاوة وامتثال أمره غنيمة فالكيس بن الكيس إذا اجتمع مع أحد من أولياء زمانه ينظر ما يستحسنه منه[1] بقلبه فعله من غير كلفة من الشيخ فتأخذ مكانا في صدره فينظر الله إليك بعين الرحمة لأن الله ينظر إليه بعين الرحمة فمن نظره في قلبه أفلح ولا تعترضه ولو في غيبته إذ ربما كان ذلك سلبا لإيمانك لأن الله يحارب عنه وقال أبو يزيد المذكور أعلى الولاية التصديق بأحوال أهل الله وأدنى الولاية التسليم لأهل الله فلا تنازعهم أصلا بقلبك ولا بقالبك فيموت قلبك إلا ما أنكره الشرع إجماعا[2]. حاصله. هم أبواب الله والله يقول وأتوا البيوت من أبوابها فمن اعترض أحدا بحظ نفسه رد عن باب الله وكان مطرودا بين العباد فيراه كل أحد من الناس بعين الازدراء حتى انه لا يجد شفيعا إلا التوبة الصادقة فحسن الظن وتسليم الأمر لأهل الله غير قادح شرعا بل هو سلم يرقى به إلى حضرة الكمال فإياك أن تنظر إلى كثرة العبادة من الإنسان بل انظر إلى خبرة الصدق وحسن الاعتقاد وعدم المنازعة فذلك الشأن وخمر عقلك به تفز كما فازوا وحينئذ[3] لا تسرع لإنكار ما يحكى عن الشيخ سيدي أحمد بن معمر نفعنا الله به وأفاض علينا من بحر أنواره بمنه وكرمه أن ثبت عنه ذلك.

وبعد زيارتي له توجهت لزيارة رجال النخلة المدفونين في مسجد الخميس

---

(١) في نسخة بإسقاط منه.

(٢) بإسقاط إجماعا.

(٣) في نسخة بإسقاط حينئذ.

[أعني السوق وكذا من في مقبرة السوق][1] نفعنا الله بهم فقد سمعت ممن يوثق به أن بعض الناس من بجاية وصل إلى عرفة فصار يستغيث بالصالحين فيما أصابه فاتاه بعض الأولياء فقال له إن رجعت إلى بجاية فاستغث برجال النخلة فمن استغاث بهم يغاث بإذن الله تعالى.

وبعده توجهت بوجهي إلى المدفونين في جبل خليفة بعد ما زرت سيدي الصديق وزيارة سيدي عبد الحق الفجيجي ولم يثبت عندي شيء في حقهما نعم أهل بجاية يعظمونهما غاية التعظيم إلا ما سمعت عن بعض طلبة بجاية بان قال الشيخ عبد الحق هذا هو ألي قتله السلطان ظلما وعدوانا وسبب ذلك أن بعض الزنادقة كان يتعبد[2] في الظاهر في الموضع المسمى المضيق فلما اشتهر أمره صار الناس يأتونه أفواجا فمكر به والعياذ بالله تعالى فكان من أمره أن كل امرأة لا تلد في بجاية تأتيه فيختلي[3] بها فتلد طفلا فَعَلِيّ صيته بهذا الأمر فذهبت زوجة سيدي عبد الحق هذا إليه وهو معها فلما وصلته طلبها للخلوة على عادته ليطأها فتلد ولدا فامتنع الشيخ من ذلك فقال هذا ممنوع شرعا فرجع هو وزوجته وكانت امرأة السلطان قد فعل بها ما فعل قبل بالنساء ولما رجع الشيخ عبد الحق نادى بالويل على الرجل وقال انه زنديق وتبه على فعله الخسيس وافتضح أمر الرجل وأصابت السلطان المعرة العظيمة فطلب سيدي عبد الحق على مقالته فقتله وجعل رأسه عند باب المدينة وإنما فعل ذلك امتثالا لقوله عليه الصلاة والسلام إذا رأى العالم منكرا ولم يغيره فعليه لعنة الله نعم بقي رأس الشيخ هناك مدة غير انه إذا جاء البواب عند الغروب ويقول الباب الباب ليدخل من كان خارجا فيقول الرأس لم يبق إلا عبد الحق الذي مات على الحق

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسختين.
(٢) في ثلاث نسخ يعبد.
(٣) في نسختين فيخلي.

بلسان فصيح يسمعه الناس كلهم فبعد ذلك رأوا الشيء عيانا وظهر الحق وزهق الباطل رفعوه وعظموه وجعلوا روضة على قبره وقد قيل فيه أنه ولد الشيخ سيدي علي المظلوم المدفون عند الحلق بان قيل أنه مظلوم في قتل ولده هذا.

وبعده توجهت لزيارة من في الجبل وقد قيل فيه اثنا عشر ألف قطب وانه ينيخ بأهله في الجنة كما ينيخ البعير بحمله وتوجهي[1] إنما هو على القنطرة التي عند الباب إذا سمعت أيضا من بعض الصالحين انه يقول من وقف على تلك القنطرة وتوجه للجبل فسأل الله شيئا إلا[2] أعطاه إياه.

وبعد ذلك دخلت بجاية وزرت الشيخ سيدي الصوفي ولم أحفظ من أمره شيئا إلا أن أهل بجاية يعظمونه غاية التعظيم وانه من أهل التصريف في بجاية نفعنا الله به آمين.

وبعده زرت خلوة الشيخ سيدي أبي مدين الغوث وقد زرت قبره والحمد لله في العباد في تلمسان أرض الجدار وزرت معه الشيخ السنوسي والإمام ابن زكري والعقبانيين والإمام ابن مرزوق وولدي الإمام وهؤلاء كلهم مؤلفون نفعنا الله بجميعهم وأبو مدين كان في القرن السادس في بجاية حتى سعى به بعض الشياطين من الحساد إلى أمير مراكش فبعث إليه فلما سمع أهل بجاية عزا مرة عليهم وأرادوا الخروج عن طاعته وقال خليفة بجاية لا تذهب فأني أخرج عن طاعته من أجلك فقال اذهب والله غير أن الناس لا يروني[3] ولا أراهم وذهب فلما قرب تلمسان أشار بموته فقال احملوني على بغلة فالموضع الذي تبرك فيه فذلك قبري فبركت في العباد

---

(١) في نسخة توجيهي.
(٢) هكذا في جميع النسخ.
(٣) ●●●●●●

ودفن فيه فصار رحمة لأهل تلمسان ومن زاره نفعنا الله به آمين.

وكان أصحابه كثيرين منهم الشيخ أبو محمد صالح الدكالي[١] فانه ذات يوم أتى الشيخ أبا مدين فقال له أردت الفقر إلى الله أما أنت أو أحد يبلغني فقال له لما أر لك مثل الشيخ عبد القادر في بغداد فذهب إليه فلما وصل قال له أردت الفقر إلى الله فادخله الخلوة فمكث فيها أربعة وعشرين يوما فدخل عليه الشيخ عبد القادر فقال ما أردت فقال أردت الفقر إلى الله فقال عليك بكذا وكذا فقال له هذا كله أعرفه من الكتاب والسنة فقال ما تريد فقال أريد أن تدخل يد قلبك لقلبي قال فنظر في نظرة فامتحن قلبي من حينه ثم قال انظر الكعبة فنظرت الطائفين بها ثم قال لي انظر المغرب فنظرت شيخي في المغرب ثم قال له ما أردت مكة أو المغرب قال فقلت شيخي في المغرب فقال لي في خطوة أو كما جئت قلت كما جئت فأغناني بتلك النظرة دنيا وأخرى أنفق فيهما اهـ.

ثم إن أبا محمد قيل أنه قدم بلادنا واستقر عند أمير وادي أقبو وهو وادي بجاية فرغب فيه السلطان فزوجه بنته فولد معها ولدا فمكث غير بعيد قال دعني أرفع ولدي فانه ستظهر شمس في القرن التاسع في بني عيدل تغيب النجوم كلها معها فمنعه السلطان منه وذهب وتركه نعم قيل أولاده هم أولاد سيدي محمد صالح الآن عندنا والله اعلم وقد قيل انه هو الذي طلع بدابته عمود السواري بالإسكندرية حين قال لهم أين يبيت الغريب فقالوا[٢] له استهزاء به في عمود السواري فبات فيه وهو لا يمكن عادة المبيت به نفعنا الله به آمين.

وأما الشيخ عبد القادر فكان في القرن الخامس أخذ منه خمسين سنة وأخذ من

---

(١) في ثلاث نسخ الدلكي.

(٢) في نسخة فقال البواب له استهزاء به.

السادس تسعا وأربعين سنة.

ثم بعد زيارة خلوته توجهت لزيارة خلوة الشيخ أبي محمد المرجاني المعلوم الذي ينقل كلامه صاحب المدخل ويعتمد عليه ولا يشكك أيضا أحد في ولايته فقال ابن عرفة قادحا والله اعلم في الشاذلي وأصحابه اثقل شيء علي قولهم قيل لي أو علي فقال فلا أقبله ولو من المرجاني المقطوع بولايته اهـ فقد جزم بولايته ولا شكك في ولاية الشاذلي والشيخ عبد القادر قلت نقل كلامه هذا الشيخ زروق ورده بقوله النقل ليس بحجة وقوله أيضا المرجاني المقطوع بولايته فإن أراد القطع بحسب الكرامات فالشاذلي والجيلي أظهر منه كرامة وأن أراد ذلك بحسب نفس الأمر فلم يقطع لأحد الآن بذلك إلا بعد دخول أهل الجنة الجنة.

ثم توجهت لزيارة خلوة الشيخ عبد القادر وخلوة الشيخ سيدي أبي العباس السبتي الكائنتين في برج اللؤلؤة وقبر سيدي أبي العباس في مدينة مراكش وأما قبر الشيخ سيدي عبد القادر فمعلوم في بغداد أفاض الله علينا من بحر أنوارهما.

وزرت الجامع الأعظم القديم القريب من تلك الخلوة ومن البرج المذكور الذي كان فيه تسعون مفتيا [إذ قال الشيخ أبو علي المسيلي دخلت بجاية فوجدت فيها تسعين مفتيا][1] أي في الجامع الأعظم وكان كل واحد لا يعرف أبا علي من أي ناحية كان.

ثم بعد ذلك توجهت إلى الشيخ عبد الحق الأشبيلي ويقال له اليماني ويقال له أيضا البجائي وهو الذي ألف العاقبة وقبره خارج باب المرسي القديم طريق[2] أبي

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.
(٢) هكذا في جميع النسخ.

زكرياء الزواوي وكان رضي الله تعالى عنه لوذعيا فاضلا كريما لا نظير له وكانت تأتيه أمته مرارا في يوم واحد لمجلس درسه تطلب منه دراهم فلم يجبها قط ثم قال بعض تلامذته هذا شيء كثير يا شيخ فقال له استحي أن تجتمع في ثلاث شينات شيخ وشحيح وأشبيلي اهـ وأيضا كانت رخامة عند قبره فيها تاريخ موته فأتى بعض النصارى إلى قبره[1] فرفعها فلما وصل بها إلى بلده تشاءم بها وردها بنفسه إلى قبره نفعنا الله به آمين.

ثم زرت من دفن في تلك المقبرة وانه دفن فيها أيضا قرب السور الشيخ عبد الحق بن ربيعة وقد ذكره صاحب عنوان الدراية بما يحرك قلب الناظر إليه وقد قيل أن في تلك المقبرة الغافقي.

ثم توجهت لزيارة الشيخ أبي زكرياء يحيى الزواوي وقد كان في القرن السادس وقبره مشهور أقول قال صاحب عنوان الدراية ما نصه أربعة قبور يستجاب الدعاء عندها قبر معروف ببغداد وقبر أبي مروان في بونة أي عنابة وقبر أبي زكرياء يحيى الزواوي الذي هو هذا وقبر أبي مدين في تلمسان وقد زرت والحمد لله الثلاثة بلغني الله إلى الرابع وهو قبر معروف بجاه من ذكرته من الأربعة آمين ومن أوصافه رضي الله عنه أنه كان لا يأكل إلا السمك يصطاده بنفسه طلبا للحلال وكان كثير التردد إلى[2] المساجد يتعبد فيها بنواحي بجاية وكان رحمه الله له مجلسان في العلم مجلس في الحديث ومجلس في التفسير إلا أن التفسير كان يقرئه بعد صلاة الجمعة على المنبر لكثرة الناس وازدحامهم عليه إلى يوم موته فكان يكرر قوله تعالى عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ففهم أكثر الحاضرين أن الشيخ يموت وكان رحمه الله سخي

---

(١) في نسخة بإسقاط إلى قبره.

(٢) في ثلاث نسخ بإسقاط التردد إلى.

الدمعة يبكي ويبكي أكثر الحاضرين معه إلى أن قربت صلاة العصر فذهب لزاويته قرب الجامع فسمعه من في المسجد له حركة اغتيال ثم رجع إلى صلاة العصر فلما فرغ منها رجع إلى زاويته فمات بعد صلاة العصر من يوم الجمعة فدفن صبيحة يوم السبت وخرج الناس لدفنه وخرج أمير بجاية وقد انكسر كذا كذا نعشا تحته رحمة ورغبة فيه ومن كراماته رحمه الله تعالى انه كان يعبد الله في خلوة بشاطئ البحر فإذا سفينة من النصارى فأخذوه ورفعوه في السفينة فلم تتحرك بهم فأمرهم صاحبها برده إلى مكانه وقال انه من رهبان المسلمين فلم تتحرك أيضا فقال لهم أبقي من حوائجه شيء فوجدوا سجادة فردوها له فلم تتحرك حتى أخرجوا عصاه وأبريقه فتحركت حينئذ[١] ومن كراماته أيضا لما ذهب إلى الحج كما ذكره الغريني[٢] لم يحج من عامه ذلك بان بقي بالشام عامه ثم أنه دخل على بعض الأولياء من رجال الغيب فقعد معهم مدة وكان لا يكلمه إلا واحد منهم غير أنهم إذا وصلوا المغرب قام واحد منهم يأتي[٣] بمائدة من طعام ثم أنهم لا زالوا كذلك إلى أن وصلت نوبته فأمره مكلمه بان يذهب ليأتي بما يأتون به فذهب فلم يخيبه الله فأتى به أو أحسن[٤] فكان معهم كذلك إلى أن وصل وقت الحج فودعهم وخرج معه صاحبه ومشى معه ساعة فأوصاه فقال له بلغ سلامي لفلان الساقي في زمزم وأمسكه من إصبعه السبابة أو الإبهام فلما وصل بلغ وصيته ومسكه من ذلك الاصبع فقال الساقي أن فرغت من مناسكك فارجع إلى فلما قضى مناسكه رجع إليه فقال الآن صلينا على صاحبك الذي ودعك وأوصاك إلينا ثم مسكه فأصبحه في وطنه أي بوادي شوشوان كأنه متيقظ من النوم فوجد راعيهم عند رأسه فذهب معه إلى البيت اهـ وهو حسناوي

---

(١) في نسختين بإسقاط حينئذ.

(٢) في نسخة صاحب العنوان بدل الغبريني وفي نسخة بياض هنا.

(٣) ليأتي.

(٤) في نسخة اولا حسنا.

من بني عيسى وبلدهم معلومة بقرب الجزائر ودفن معه الولي الكبير ابن عربي غير الحاتمي وغير الحافظ وإنما هو أمي على صورة البله يلعب بقصبة وقد قال صاحب عنوان الدراية ما نصه انه ضربها يوما من بجاية فوقعت في وجه النصارى في الأندلس فانهزموا بإذن الله تعالى إذ أرخوه فوجدوه كذلك والله اعلم ومن كراماته انه كان بالشام فجاءت سفينة لبعض النصارى تريد بجاية فأعطى صاحبها مزودا يبلغه إلى بجاية أعطاه إياه يوم الجمعة إلى الجمعة الأخرى وصلت السفينة بجاية ببركته نفعنا الله به آمين فوجدوه في بجاية فقال النصراني هذا أعطاني مزوه يوم الجمعة وخلفته في الشام وقت كذا من ذلك اليوم فأخبره أهل بجاية بأنه يوم الجمعة ذلك الوقت كان هنا فتعجب صاحب السفينة من أمره فأسلم ببركته وحسن إسلامه نفعنا الله بجميعهم بمنه وكرمه آمين.

وأما الشيخ سيدي المليح فلم أحفظ من أمره شيئا إلا أن أهل بجاية يعظمونه غاية التعظيم ويعدونه من أهل التصريف وكذا سيدي عيسى وجده سيدي علي البكاي إلا أن جده والله أعلم قد ذكر فيه صاحب عنوان الدراية كلاما في طبقته وان له زاوية عظيمة الخ ما ذكره والله اعلم.

وأما الشيخ سيدي أبو علي المسيلي فقد كان حجة في بجاية وتولى القضاء فيها مع كونه مدرسا للعلم وكان يقرئ الجن من الليل والإنس في النهار وكان معظما في بجاية ومن تعظيمه أنه لما دخل الموارقة(١) بجاية وكانوا يلثمون وجوههم فطلبه السلطان [في المبايعة فأبى وقال والله لا أبايع شخصا لا أعرفه رجلا أم امرأة](٢)

(١) في نسخة لمتونة.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

فكشف[١] السلطان عن وجهه ليعرفه فلما رآه بايعه حينئذ وتولى القضاء بعده[٢] ابن الخطيب وأبو علي مشتغل بتدريس العلم فغار منه فبعث له رسولا ليخرج من بجاية فلما جاءه الرسول وجده في مجلس العلم وقال لحفيده قبل أن يكلمه الرسول خذ مصحفا وأقرأ لنا شيئا بعد التعوذ فأخذ المصحف وتعوذ ثم قرأ وأتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إلي ولا تنظرون الآية فانتقع وجه الرسول ورجع وفي أثناء الطريق وجد رسولا من القاضي ليرده بأن لا يخبر الشيخ بذلك لأنه أتته ضربة من الله كادت أن تهلكه فلما وصل الرسول أخبره أمر الشيخ مع حفيده فتعجب ابن الخطيب ثم استرده إليه ليجعله في حل بصرة من الدراهم فرجع ووضعها بين يدي الشيخ وقال له يطلبك أن تجعله في حل فقال الشيخ جعلناه في حل وأمره برد الصرة وأبى أن يأخذها اهـ ومن كراماته بعد موته أيضا أن شخصا من تونس له صديق في بجاية مات يراه دائما في النوم يعذب ولما مات أبو علي المسيلي رآه في نعيم وسرور وسأله عن السبب وكان مدفونا في جبل خليفة فقال له لما مات الشيخ غفر الله لمن كان بين أطراف المدينة من قبره إلى الجبل ضيافة له وهدية نفعنا الله به آمين.

ثم إن ذلك الرجل احتمل من تونس إلى زيارة الشيخ فلما وصل إلى بجاية سأل عن قبر الشيخ وهو يتصبب عرقا وقبره متلبس بين أربعة قبور فينبغي للزائر أن يعينه بالنية فلما زاره أخبر بالقصة اهـ والدعاء مستجاب عند قبره ويسمى أبا حامد الصغير ومن تآليفه التذكرة والنبراس في الرد على منكر القياس وقد رأيت الشيخ عبد الباقي يقول قال صاحب النبراس وهو من أواخر القرن السادس.

---

(١) في ثلاث نسخ فأزال.

(٢) بعد.

وأما الشيخ سيدي التواتي فهو من القرن التاسع أيضا ولي صالح كبير الشأن عالم على الإطلاق وله مؤلفات كما كنا نسمع وهو عند أهل بجاية من أهل التصريف وقد سمعنا أن فتواه لا ترد إلى توزر وهو المعاصر للشيخ سيدي يحيى العيدلي وله زاوية وطلبة إلى الآن وخدام في الجبل وغيره نفعنا الله به آمين.

وأما سيدي سعيد العلمي فلم أحفظ من أخباره شيئا إلا ما ذكره عنه سيدي عبد الرحمن الثعالبي وعن الشيخ سيدي عبد الرحمن الوغليسي صاحب التأليف المعلوم في الفقه الذي شرحه سيدي عبد الكريم الزواوي شرحا كبيرا فيه من العلوم ما يغني الناظر عن غيره وطريقته رضي الله تعالى عنه طريقة ابن أبي جمرة وصاحب المدخل وشرحه سيدي عبد الرحمن الصباغ أيضا وسيدي عبد الكريم هذا كان ينقل عنه الشيخ عبد الباقي وغيره وقد زرت قبره في بلده أعني بني يتورغ من زواوة إذ قال رجع سيدي سعيد العلمي من بعض نواحي بجاية إليها فلما قرب وجد الباب مغلقا فرجع إلى قبر سيدي عبد الرحمن الوغليسي فبات عنده وإذا الشيخ سيدي عبد الرحمن قام من قبره وأصحابه من بجاية مجتمعون عليه يقرئهم ويعلمهم إذ مات رحمه الله تعالى وترك ختمة لم تكمل فكملها لهم في قبره بعد موته وهي كرامة عظيمة للشيخ سيدي سعيد وللشيخ سيدي عبد الرحمن ولتلامذته نفعنا الله بجميعهم وجعلنا في زمرتهم ورزقنا العافية وجمع شملنا بأهلنا ونصرنا على السنة وإظهارها بمنه وكرامه آمين.

وقال الشيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي دخلت بجاية في أواخر القرن الثامن فوجدت أصحاب الوغليسي متوافرين.

وأما سيدي محمد امقران فكان من أكابر الأولياء وهو من القرن العاشر يعني آخره وأخذ من الحادي عشر وكراماته ظاهرة وأحواله باهرة فلا يحتاج لذكرها.

وأما سيدي عبد الرحمن الصباغ فتآليفه تنبئ عنه وكلامه[١] يدل عليه فليس إلا من أهل الشأن والتصريف وهو من القرن التاسع نفعنا الله بكلهم بمنه وكرمه آمين وبالجملة ففضل بجاية مشهور وعلم أهلها مذكور قال الشريف التلمساني دخلت بجاية في القرن الثامن فوجدت العلم ينبع من صدور رجالها كالماء الذي ينبع من حيطانها فرت أكتب في كل مسجد سؤالا وأتركه هناك حتى وصل أمره إلى السلطان.

وقال الشريف بعد أن خرجت من بجاية دخلت تونس فوجدت ابن عبد السلام يقرئ ما رأيته قط ولا رآني نعم لما سألته قال أظنك أنت الشريف التلمساني قلت له أظنك أنت ابن عبد السلام فتصفح معرفتي من كلامي وتصفحت معرفته من كلامه وقد سمعنا[٢] أن بجاية فيها خمسمائة صبية يحفظن المدونة وإما اللاتي يحفظن ابن الحاجب فلا يحصى عددهن إلا الله تعالى حاصله جعلنا الله في زمرتهم وأفاض علينا من بركتهم بمنه وكرمه آمين.

ولما ودعت أهل بجاية رجعنا إلى دارنا عازما على السفر وجاءنا الركب من جبل زواوة نحو الثلاثمائة رجل واشتغلنا بهم إلى أن ذهبوا إلى قسنطينة ثم إلى تونس ليذهبوا في البحر وفيه أفاضل وأكابر وساعدهم فضلاء الركب نعم صرنا في توديع الناس من كل بلد من حمزة وواتوغة ووادي بجاية وغيرها وبالجملة فوطننا طيب فيه العلم وبعض الكرم للغريب وفيه الزيتون والعنب والتين بكثرة والحرث غير أن الوطن عزيز غال[٣] وسبب ذلك كثرة الناس غير أنه خال من السلطان وأحكامه

---

(١) كلا وكل وكلها.
(٢) في نسخة سمعت.
(٣) غالي.

فالوطن سائب عمره الله بالأحكام الشرعية وأزال منه الفتنة وبدل ذلك بالعافية الدائمة وكذلك الغالب عليها البرد والثلج وبالجملة فنسأل الله تعالى أن يعمره على يد سلطان عدل فلما حان السفر وآن جمعت طلبتي وأمرتهم بالاشتغال بالعلم والمودة بينهم والطاعة لله تعالى عمرهم الله تعالى على الدوام بالعلم والعمل مع أولادنا الذكور إلى غابر الدهر بجاه من ذكرناه آمين.

ولقد علمت أن من أراد مثل هذا السفر إذ سفر الحج سفر يشبه طريق الآخرة فينبغي أن يعتني به غاية الاعتناء لما فيه من كثرة الحسنات سيما فعل المعروف فإنها طريق للمحسنين والله يقول ما على المحسنين من سبيل يحتاج إلى نية عظيمة وصدق قوي وهمة عالية وإخلاص كبير لأن عمل الطاعة كله إلى الإخلاص لله تعالى لأن الله يقول إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء نعم الحج أقواها في طلب الإخلاص إذ كثير ما يدخل الرياء فيه لما علمت من كثرة خوف الأهوال فيه والمسافة البعيدة وملاقاة الناس فتجد الحاج يحكي للناس في وطنه وغيره أنه وقع في الدرب كذا وفي مكة [وفي المدينة وفي مصر كذا وفي برقة كذا وفي البحر كذا وفي الموضع الفلاني][(١)] كذا [فيقع فيه السمعة والعجب والرياء وبعض الكذب إذ لا يخلوا المخبر بالوقائع الماضية عن][(٢)] الزيادة والنقصان فيقع في الكذب قطعا والغالب أنه ينوي[(٣)] بحجه المفاخرة وليقال انه حج [فغالب عامة الحجاج يقصدون ذلك فيغلب عليهم الرياء ولهذا][(٤)] قال الله تعالى وأتموا الحج والعمرة لله ولم يقل في الصلاة ذلك ولا في الزكاة ولا في غيرها من الأعمال الصالحات نعم من فتح الله عليه

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة يحكي الأحوال الماضية من الزيادة الخ عوض ما بين القوسين.

(٣) في نسخة يروم.

(٤) ما بين القوسين ساقط في نسخة وفيها وقد قال عوض ولهذا قال.

وسبقت له السعادة إذا وصل إلى بيت الله الحرام ورأى تلك الأماكن الشريفة ودخل تلك الجموع المباركة يغفر الله تعالى له لكثرة المغفورين إذ لا يخلو الموسم العظيم أعني عرفة عن رجال الغيب وأهل التصريف كالقطب وغيره والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والخضر وإلياس فمذهب أهل[١] الفضل الغفران لجميع الحجاج وأما قول خليل وصح بالحرام وعصى فمذهب فقهي قلت في الحجة الأولى اجتمعنا مع الشيخ الولي الصالح العالم الواضح الورع الصدر العارف بالله تعالى الزاهد العالم بالمذاهب كلها المربي لأصحابه بحسن التربية الموافقة للشريعة والحقيقة وما أحسنه معرفة وأدبا وورعا وزهدا وصحبة وكان متقشفا سيدي محمد المغربي[٢] الطرابلسي رحمه الله ونفعنا به آمين قال لنا عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف (١١٥٣) العام الذي قبل العام الأول لم يقبل الله من الحجاج إلا سبعة وباقي الحجاج رجع خائبا غير أن السبعة المقبولين أقبلوا على الله بالتوجه بالطلب والسؤال والمغفرة لأهل الموسم[٣] إلى دخول رمضان فأول ليلة منه تقبل الله منهم وغفر لأهل الموسم وأما العام الأول فقد خرج من فاس رجل لأجل أهل الموسم ليغفر الله لهم فلما وصل إلى عرفة فقال والله ما خرجت من هنا حتى تغفر[٤] لجميع أهل الموسم فلم يخرج منه حتى غفر الله لهم فعمت المغفرة الذين لم يحجوا بأن جاءوا للتزهة[٥] أو للسوق فقال قول خليل وصح بالحرام وعصى مذهب فقهي وأما مذهب أهل[٦] الفضل فيغفر الله لجميع من حج وبالجملة فالعناية حاصلة لمن وصل إلى حرم الله وحرم رسوله وكيف

---

(١) بإسقاط أهل في أربع نسخ.

(٢) العربي والمعربي والمعزي.

(٣) في نسخة وأما العام الأول إلى دخول رمضان.

(٤) في نسخة يغفر.

(٥) في نسخة للتنزه.

(٦) بإسقاط أهل في أربع نسخ.

لا و[١] أن الصلاة في مسجد مكة ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم تعدل ألف صلاة في غيره أو كما قال صلى الله عليه وسلم وأن الدعاء في عرفة ومزدلفة والمشعر الحرام ومنى ومسجده وعند الرمي وعند الملتزم وعند الحطيم وزمزم وعند الحجر وغيرها مستجاب وبالجملة فينبغي أن ينوي بسفره رضى الله تعالى وأن يشغل نفسه بالتوجه إلى الله وإلى بيته ومواجهة نبيه صلى الله عليه وسلم ومواجهة أصحابه وآله وعترته ومواجهة أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام وأن ينتظر شفاعتهم بأن يتعلق بهم بحيث ينوي الانتقال من أوصافه المذمومة إلى الأوصاف المحمودة والسفر من الخلق إلى الخلق ومن طبائعه الردية إلى السجايا السنية وإن كانت غير مكتسبة إلا أن أسبابها مكتسبة وينوي أيضا أن يكون من وفد الله تعالى وضيوفه وإن يقصد أيضا إجابة الداعي الذي هو الآذان وأن يحمد الله ويشكره لما أن جعله من أهل الإجابة ومن الذاهبين لبيت الله تعالى ألا ترى إذا ذهب الإنسان إلى بيت قريبه يفرح فرحا عظيما ويسر سرورا كبيرا[٢] فكيف ببيت ربه سبحانه وينوي إغاثة المضطر ما أمكنه بماله أو جاهه وأن يعلم الجاهل إن كان من أهل العلم أو يسأل العالم إن كان جاهلا وأن ينوي الزيارة لأحباب الله الأحياء والأموات في كل وطن يدخله سواء من يعرفه أم لا وإن يعتبر ويوحد الله فيما يراه من عجائب المخلوقات ولذا اختار الأكابر سكنى المدن الكبار من الأمصار للتوحيد والاعتبار [وأن يكف لسانه عن القيل والقال إذا أكثره فيه معصية الله تعالى][٣] وأن يشغل جميع أعضائه بما فيه رضى الله تعالى وأن يختار من الأخوان ما يزداد به إيمانه للصحبة وأن لا يشترك إلا مع من كان كنفسه بحيث إذا تصرفت في ماله لا يتغير كما إذا تصرفت في مالك

---

(١) بإسقاط الواو في أربع نسخ.

(٢) في نسختين فرحا شديدا ويسر سرورا عظيما.

(٣) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

وإلا فلا وأن تتولى شراء ما تستحقه بنفسك لتسلم من المعاملات الفاسدة أو توكل من لا يتساهل في الأحكام الشرعية وأن يكون عالما وان تجعل من كان في الركب[1] كنفسك بان تجعل الكبير أبا لك والصغير ولدا لكل والمساوي أخا لك فلا ترضى لأبيك ولا لأبنك ولا لأخيك إلا خيرا وان لا تخالط الأغنياء أصحاب الترفه بان تستحقر نفسك ما عندها من المال فلا تحمد الله على ما أعطاك ويتعلق قلبك بمعالي الأمور حتى ينسى ما ذهب إليه بل من كان أدنى منك لتشكر الله على ما أولاك إذ من السنة في نفسك أن تنظر في أمور الآخرة من هو أعلى منك لتغبط حاله وتحمل نفسك على ذلك وأما أحوال الدنيا فتنظر من كان أقل منك لتشكر الله تعالى فتتموا أحوالك بإذن الله فيستقيم أمرك وان تعتمد على الله في جميع أحوالك ظاهرا وباطنا وان تودع من تركته من الأهل والأخوان والجيران لله تعالى لأن وديعته لا تضيع وان لا تذهب من بيتك حتى تقضي جميع ما كان عليك من حقوق الخلق لأن من أكل لأخيه المسلم ظلما دانقا [وهو][2] سدس الدرهم أعطى فيه يوم القيامة سبعين صلاة مقبولة وقيل سبعمائة صلاة مقبولة فمن ظلمته أخذ من حسناتك وأن لم تكن لك حسنة أخذت من سيئاته لسيئاتك فلا تترك شيئا عليك وان ظننت أنك غفلت شيئا مما هو عسى أن يكون عليك فاجعل نائبا يتعاهد أمورك ويقضي ما كان عليك كما يقضي ما هو لك على الوصف المتقدم من العلم وعدم التساهل وان تترك ما يكفي من تجب نفقته عليك فتغسل ظاهرك عند سفرك وباطنك بالوجوه السابقة مع التوبة من كل مخالفة صدرت منك في الماضي لتكون صالحا لدخول حضرته هذا في الحقوق المالية.

---

(١) في نسخة المركب.

(٢) ما بين القوسين ساقط من أربع نسخ.

وأما الأخرى[١] كهتك الأعراض وغيرها مما لا يتمول[٢] فلا بد أن يجعلك صاحبها في حل إن كان لا يتغير إن ذكرت له ذلك وعينته وإلا فاطلبه على الجملة إن كان لا يفهم التفضيل وإلا فاطلب له من الله المغفرة والإحسان إليه وكذلك إن كان ميتا فادع له بالرحمة ليتولى الله ذلك عنك وان تختار من مالك الحلال لتتزود به إن وجدته وأن تزجرا أصحابك عن الجدال والمنازعة عند الماء والنزول بان يصبروا ويتخلفوا فيجدوا ما كتب لهم فالذي يختاره الله للعبد أولى مما يختاره لنفسه ولعل الله ينظر إليه بعين الرحمة دائما أنظر للشيخ عبد الكريم الزواوي على الوغليسية فانه أجاد في نصح العبد وأعانته على ما فيه رضاه.

وكذا يصحح توبته ويقيم طريقته ليستقيم الإنسان كما أمر فإذا عزم الإنسان على الحج فلا بد أن يعلم فضله لتنشط نفسه لذلك ويسهل عليه أمر ماله إذ يصعب على النفس مفارقته وكذا تعب النفس في السفر ولذا ينبغي له أن يختار زمان البرد لشدة زمان الحر عليها فإذا علمت هذا علمت أن الحج من أفضل الأعمال وأولاها عند الله تعالى.

ولذا قال الشيخ خليل في مناسكه ما نصه ورد في الصحيحين عنه عليه الصلاة والسلام انه قال من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه والرفث هو الجماع وقيل الفحش من القول والفسوق المعاصي وفي الصحيحين عنه عليه الصلاة والسلام انه قال العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة والمبرور هو الذي يخالطه مأثم وقيل المقبول وقيل ما لين فيه الكلام وأطعم فيه الطعام ومشى في مناسكه ومشاعره اهـ.

---

(١) في نسخة غيرها.
(٢) في نسخة ينمو.

وقال أيضا ما نصه الفصل الثاني في آداب السفر فإذا وجب عليك الحج فيجب أن تعرف أحكامه وما يلزمك فيه لأن الإجماع أنه لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه فأول ذلك يستحب له أن يشاور من يوثق به في دينه وعلى من يشيره أن يبذل النصيحة له ويتخل من الهوى وحظوظ النفس ثم يستخير الله عز وجل وهذه الاستخارة لا تعود إلى نفس الحج لأن الاستخارة في الواجب والمكروه والمحرم لا محل لها وإنما تكون الاستخارة هنا هل يشتري أو يكتري وهل يرافق فلانا أم لا وهل يكتري مع فلان أم لا وغير ذلك وهل يسير في البر أو البحر أو في هذه السنة أو في غيرها على القول بالتراخي.

وصفتها يصلي ركعتين من غير الفريضة قال بعضهم فيقرأ في الأولى بقل يأيها الكافرون وفي الثانية بقل هو الله أحد وإن قرأ بغيره جاز ثم يقول اللهم إني أستخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن ذهابي إلى الحج في هذه الحالة ويذكرها خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فأقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه وأقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به، ثم ليمض بعد الاستخارة لما انشرحت له نفسه ويبدأ بعد تحققه بالعزم بالتوبة من جميع المعاصي ورد التبعات من الديون والودائع والعواري والاستحلال من غيره فإن عجز عن الاستحلال من بعض الناس لموته أو لخشية زيادة الفتنة فليلجأ إلى الله تعالى فإنه يرجى من كرمه لمن لجأ إليه في ذلك أن يرضي عنه خصمه يوم القيامة ويستحلب له أن يكتب وصيته ثم ينظر في أمر الزاد وما ينفقه فيكون من أطيب جهة لأن الحلال يعين على الطاعة ويكل عن المعصية وكان السلف رضي الله

عنهم يتركون سبعين بابا [من الحلال خوفا من الحرام][1].

ولما كان الضمير متعلقا بمن تعلق بالرب الكريم وتاقت نفسي إليهم غير أن صلحاء بلدنا لم يتعرض لهم أحد قبل ولا بعد لعدم الاعتناء وضيق المعيشة أردت التنبيه عليهم على سبيل الإيجاز والاختصار مع البيان والاستفسار نعم أذكر ما دون وادي آقبو.

وأما جبل زواوة فهو منفرد وأولياؤه شهرتهم تغني عن ذكرهم وتعظيمهم يقوم مقام بيانهم وتبيانهم وجميل[2] آثارهم فلم يبق إلا ذكر هؤلاء ليتم المقصد الرحماني والنور الرباني فأقول وعلى الله أعول.

منهم الولي الصالح والبدر الواضح الذي يستجاب الدعاء عند ذكره وانه ممن يبر الله قسمه وكذا أولاده المنورون يبر الله قسمهم ويقبل دعاءهم سيدي أحمد بن يحيى نفعنا الله به وجعلنا من أهل وده ونسبه يتصل مع نسب أهل عروس من بلد زواوة وهم مشهورون وكذا فرقة في أتُوجَة جبل بقرب بجاية وانه من قبيلة مزينة وكان في أواخر القرن التاسع وهو تلميذ ابن غازي هكذا تصفحت أخباره رضي الله عنه وكراماته كثيرة ينبغي للعاقل أن يزوره ويزور من دفن معه فان أكثرهم صلحاء وقد سمعت الفاضلة الصالحة المنورة زوج سيدي محمد بن قَرّي تقول إني ذهبت غيبا مع رجال الغيب لقضاء حاجة من أهل التصريف فلما وصلت إلى قبر الشيخ قام معي الشيخ ومن دفن معه للاجتماع مع أهل التصريف وكان الذي يتكلم في ذلك الديوان هو الشيخ سيدي أحمد بن يحيى إلى غير ذلك نفعنا الله به وأما شرفه فإنهم

---

(١) ما بين القوسين ساقط في أربع نسخ وفيها ما نصه سقط من الأصل هنا نحو ورقة ونصف وتخلف بياضا.

(٢) في ثلاث نسخ فحصحص.

يقال أنهم شرفاء والله أعلم.

وكذا أولاد الشيخ أم رزق وجدهم صالح ومنهم الشيخ سيدي الوفق صالح زاهد ورع خديم الطلبة وكان ينفق عليهم وهم يشتغلون[1] بالعلم بان يأتي لهم بمدرس وكان محبا لوالدنا وجدنا نعم يحب الجانب العلي أعني الأشراف بحيث لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا معهم بل أنه مملوك لهم وقد غلب عليه القبض نفعنا الله به وهو تلميذ سيدي علي بن الطالب وأوصافه الطيبة وأخلاقه السنية لا تكاد تحصى رضي الله عنه وأرضاه بمنه.

وكذا ابن عمه الفاضل العالم الفقيه الفرضي[2] سيدي علي بن أم رزق من أجل أهل وقتنا وأهل عصرنا فقد نفع وانتفع نفعنا الله به.

ومنهم الشيخ سيدي أمزال قبره في قرية الجمعة وعليه مسجد وأهل إمتين يعظمونه وهو في الصمعة[3] نفعنا الله به وأما تاريخ فلا علم لي به ونسبه والله اعلم من جملة من هو معه غير أنه أقبل على الله فأقبل عليه وهو أظنه قريب.

ومنهم الفاضل الكامل المجرد عن الخلق واعتزلهم طرا بل الذي اعتقده انه اعتزل الخلق واتصل بالحق وهو فقيه متكلم فقد انفرد في زماننا بالتسجيل وجودة الخط سيدي أحمد زروق بن الحاج نفعنا الله به وكان صديقا ملاطفا لأبي تخلف عنه ثم بقيت صبحته لنا كذلك إلى أن مات في مصر بعد رجوعه من الحج وقد سافرنا معه إلى تونس نريد الحج فلم يتيسر لنا ولا له ذلك العام وبقي هو في زاوية الولي

---

(١) في نسختين يشغلون.
(٢) في أربع نسخ الفرائضي.
(٣) كذا في جميع النسخ.

الصالح الزاهد في الدنيا على الإطلاق الكريم كل الكرم سيدي أحمد المجذوب الزموري وقد دفن في جبل افريقية عند ولده الفاضل ونخبته الكامل سيدي ابن الحاج إلى العام القابل فحج نفعنا الله به.

ومنهم بُدّيان[1] على ما قيل انه ولي صالح وضريحه يزار دائما وظن أهل وطننا أن ممن ذهب إليه تقضى حاجته وان فيه رجال الغيب حسبما اتفق عليه أهل وطننا وأني سمعت في صغري من بعض الصالحين من أهل السياحة يقولون ذلك حق وصدق.

ومن العامة المرابط سعيد بن هارون فأني سمعت من أبي انه كان يعلم الفجراي طلوعه وهو في بيته مدة طويلة وكان لا يفتر عن ذكر الله تعالى وهو صديق له وانه إذا ذهب إلى الخلاء امسك لسانه وقد تخلف في الحياة بعد موت أبي وصاحبني مدة وهو رجل كبير السن كبير الشأن وكذا ابن عمه يقرب من سنه وشأنه.

وكذا المرابط علي بن درار وهو من شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو كان كلامه بالعربية لكان يكتب بسواد العين لما فيه من العلم اللدني وقد كان يرى النبي صلى الله عليه وسلم وهو أعمى رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

ومنهم سيدي علي بن جاب الله كان صديقا لأبي وكان رضي الله عنه في غاية الترقي في العبادة والذكر وتهذيب الأخلاق وغير ذلك من أوصافه.

ومنهم سيدي يحيى الشريف ابن رقية في قرية ويزران هاجر من بني عمه وفر بنفسه من قرابته ليكمل أمره ويظهر سره وهو من شرفاء العش شريف النسب وهو

---

(١) في نسخة بديياي.

من أهل العلم والصلاح مجاب الدعوة خديم العلم وأهله من القرن الحادي عشر نفع الله به وبأمثاله جميعنا.

ومنهم الشيخ الولي الصالح والغيث السائح الشريف نسبا كما هو عند ابن فرحون في طبقات الشرفاء سيدي أحمد بن عبد الرحمن نفعنا الله به وهو من تلامذة الشيخ سيدي يحيى العيدلي وأولاده الآن معلومون بالجور والتعدي والظلم في مجانة بتخفيف الجيم أمراء ومحاربون ولعل جدهم يشفع فيهم وفينا وهو في القرن التاسع وولده هو الذي بنى قلعة بني عباس وأقام المملكة فيها بان أسس العساكر[1] وجيش الجيوش وأخذ المغرم في القرن العاشر بان وصلت عساكره عمالة تونس ووادي ريغ في الصحراء ومن جهة المغرب مزاب وبلد الأغواط وهم كذلك في المملكة ثمانون سنة كما سمعته من بعض الفضلاء من علماء القلعة وآخرهم في مملكة القلعة سيدي ناصر هو فاضل عالم زاهد وقد قيل انه من زهده يلبس الغرارة شعارا على لحمه وقد رتب طلبة العلم نحو الثمانين طالبا فحسده مناحيس بني عباس على ذلك فقتلوه مكرا وخديعة فمزق الله جيوشهم وأضل عسكرهم أعني عسكر بني عباس فلم يبق فيهم ذلك بل أضلهم الله بسببه وأهلكهم من أجله وكان بعض علماء فاس يقول في مرثيته قصيدة رائية[2] وهي عندنا في الزاوية [في العقل انه عمر][3] ويقول في بني عباس:

فلعنة الله ثم الخلق قاطبة ... على المجوس بني عباس ما ذكروا

أن عاهدوك فقد خانوا على ثقة ... أو حالفوك[4] فأيقن أنهم فجروا

---

(١) في نسختين عساكر.

(٢) في نسختين رأيتها.

(٣) ما بين القوسين ساقط في نسختين وفي نسخة في العدل أنه عمر.

(٤) في نسخة واحلفوك.

وعدد أوصافهم من الخيانة والغدر والخديعة ما يحمل السامع على الفرار منهم والنفرة من ساحتهم إذ هم على تلك[١] الأوصفا إلى الآن بل زادوا ضلالا ومكرا وخديعة في العهود وقلة الحياء والهيبة في الحدود وأولاده على المملكة في مجانة تحت ولاية الترك غير أن حكمهم عليهم ضعيف نفع الله به جميعنا وأمور أمراء القلعة معلومة عند أهلها ومنهم جد أولاد الطالب[٢] فانه من أولياء الله الصالحين ولا اعلم من أخباره شيئا إلا أن أولاده فضلاء لا يخلون من العلم وجميعهم فيه البركة نفعنا الله بهم.

ومنهم الولي الصالح الرباني سيدي محمد ابركان قبره عند أولاد[٣] السيد أحمد بن عبد الرحمن في الوادي معلوم يزار ويعظم وأولاده أين ما كانوا في بني عباس وغيرهم علماء فضلاء أجلاء يقتدى بهم ولهم العلم الصحيح والصدق الصريح.

ومنهم سيدي أحمد زروق المذكور وغيره.

ومنهم أولاد تبونداوث فضلاء نجباء فقهاء مفتون وفيهم البركة إذ العلم كله بركة وقد سمعنا أنهم من بجاية نفعنا الله بهم وبأمثالهم وأنهم قضاة من العهد الأول إلى الآن بارك الله فيهم.

ومنهم أولاد سيدي عبد الحليم الساكنون في قرية من قرى بني عباس فضلاء كرماء علماء صلحاء إلى الآن نفعنا الله بهم وبأمثالهم من ذرية سيدي عبد الحليم.

ومنهم شرفاء بوجليل من الزمان الأول هم على الخيرة والبركة القوية والأنوار

---

(١) في نسختين إذ على تلك الأوصاف وفي نسخة وهم على تلك الأوصاف.

(٢) في نسخة الطيب.

(٣) في نسختين والد وفي نسخة ولد.

السنية وهم شرفاء نسبا وهم من قرابتنا بان اجتمعنا في الجد الأول ما تسمعه من أعالي(١) أسلافنا فبركتهم معلومة وبرهانهم مشهور وكرمهم مأثور رضي الله عنهم ونفعنا بهم وكان لنا ولهم بمنه وكرمه.

ومنهم المعظم بالاتفاق(٢) سيدي أحمد بن يوسف الولي على الإطلاق يعتقده العام والخاص نفعنا الله به وهو في حنديس قرب الوادي ولا أعلم هذا وأولاده معظمون عند أهل وطنهم ولا يخلو بعضهم من العلم والبركة في جميعهم رضي الله عنهم وقد سمعنا من بعضهم أن جدهم يقرب من الشيخ المعلوم صاحب الفتح والخرق الواضح سيدي أحمد بن يوسف الملياني الذي كان حجة الله في أرضه إلى الآن والله اعلم.

ومنهم سيدي محمد بن محرز قبره بالقلعة ظاهر البركة قوي التعظيم قبره يزار وأهل القلعة يظنون أنه سترهم والله اعلم.

ومنهم أولاد معمر فضلاء علماء صلحاء ذوو بركة عظيمة ونتيجة قوية نفعنا الله بهم.

[ومنهم أولاد أبي جمعة(٣) فهم فضلاء صلحاء محل العلم وأهله فقهاء أئمة خطباء نفعنا الله بهم](٤).

ومنهم المرابط سليمان وكان صالحا متعبدا في زماننا لا نظير له زاهدا معلوم

(١) في نسخة بإسقاط أعالي.
(٢) في نسخة بإسقاط المعظم بالاتفاق.
(٣) في نسختين أولاد بو جمعة.
(٤) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

البركة رضي الله عنه ونفع به جميعنا آمين.

[ومنهم ومنهم أولاد أبي ذئب صلحاء علماء ذوو بركة نفعنا الله بهم](١).

ومنهم سيدي سعيد وهو والد(٢) سيدي أحمد بن يدير ذو بركة قوية ومن أجلها خرج ولده طيبا صالحا عالما فقد انتفع به أهل زمانه أي انتفاع.

ومنهم سيدي سراج ذو بركة عظيمة ورحمة مشهورة معلوم الذكر صيته منتشر في وطنه كراماته مشهورة وأولاده فضلاء كرماء فقهاء علماء يقع بهم الخير والصلاح والنفع والنجاح نفعنا الله بهم.

ومنهم أولاد ساسي معلومون بالبركة والصلاح والاعتقاد والتعظيم نفعنا الله بهم.

ومنهم سيدي أحمد بن علي صالح صاحب اتكال ولي معلوم البركة والتعظيم وقبره يزار وانه منور انتفع به العام والخاص رضي الله عنه.

ومنهم سيدي المسعود قوي البركة ولي صالح أولاده صلحاء فيهم بركة عظيمة نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم سيدي سليمان ولي صالح كبير الشأن عظيم الحال ولي معظم عند أهل وطنه وقبره يزار وأولاده صلحاء معظمون فضلاء كرماء رفع الله قدره ونفعنا به آمين.

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة ومنهم والد سيدي أحمد بن يدير وفي نسخة ومنهم والد سيدي سعيد وهو سيدي أحمد بن يدير وفي أخرى سقط جميع ما ذكر في شأنه.

ومنهم سيدي عمر في قرية ترق هؤلاء كلهم قرب مجانة وهو ولي صالح كبير الشأن عظيم في الأعين أولاده معظمون راغبون في العلم وأهله وهم على العهد الأول من القراءة والأخلاق السنية والأوصاف الحميدة فأكثر أولاده[1] يتعلمون علينا نفعنا الله بهم وبأمثالهم.

ومنهم الولي الصالح سيدي أبو التقي معلوم البركة قوي النفع معظم عند أهل مجانة نفعنا الله به.

ومنهم سيدي موسى الولي الصالح كبير الأمر عظيم السر أولاده فضلاء معظمون عند أهل مجانة وأهل جبل عياض وأظن أنه من القرن التاسع كما وجدته في بعض الرسوم نفعنا الله به.

ومنهم أولاد العياض ومن معهم رضي الله عنهم علماء كرماء أدباء فضلاء محبون للعلم وأهله وأولاد سيدي أحمد مثلهم في الفضل والصلاح والشوائرة علماء أيضا صلحاء لا يخلون من العلم يرثونه خلفا عن سلف نفعنا الله بهم وبمن كان في ذلك الجبل.

ومنهم سيدي يدير الحاج ولي صالح معظم معتقد في بني يعدل أولاده معظمون صلحاء ذوو بركة وخير ونجاح نفعنا الله بهم.

ومنهم أولاد سيدي خروف معظمون فيهم العلماء والصلحاء والقضاة والمفتيون وهم شرفاء على ما اشتهر عندنا من كان في زمورة وبني يعدل نفعنا الله بهم.

---

(١) في نسختين أولادهم.

ومنهم سيدي سعيد القرطاس ولي معتقد فيه وأولاده ذوو بركة عظيمة وهو من أخيار أهل زمانه وهو من القرن الحادي عشر [معاصر لسيدي لوهر][(١)] نفعنا الله به آمين.

ومنهم أهل تعروسين[(٢)] معلومون بالبراكة وكذا أولاد ابقورة[(٣)] فهم على كتاب الله عز وجلب والصلاح سيا سيدي لي فهو شيخ جدي وقد قيل انه لا يخرج منهم الأولياء وقد انتفع بهم العام والخاص.

وكذا سيدي أحمد صالح معلوم الولاية والبركة.

وسيدي أحمد أعشاب معلوم الولاية.

وكذا سيدي محمد بن صالح من أولاد سيدي الجودي فقد ظهرت كراماته في وطنه وغيره وانه مجاب الدعوة نير السيرة قوي البركة نفعنا الله بهم وبأمثالهم.

ومنهم الشيخ الفاضل الولي الصالح المعلوم النجاح سيدي محمد بن مصباح ذو العلم المتين والسر المبين وكذا أولاده فضلاء نجباء رضي الله عنهم وأرضاهم سيا من أدركنا سيدي أحمد زروق وسيدي أحمد بن المبارك فقد كان فيهم العلامة الفاضل المحقق الكامل محيي السنن سيدي الحسين نفعنا الله بهم.

ومنهم الولي الكامل والعالم الفاضل مقيم السنن ومنشر العلم سيدي محمد بن عبد القادر وأولاده فضلاء علماء أدباء جمعا فاوعوا سيا سيدي محمد بن عبد القادر

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

(٢) في نسختين تاعورسين.

(٣) في نسخة القورة وفي أخرى ابغورة.

وولده سيدي الموهوب فإنهما من فضلاء الوقت يقصدان للفتيا رضي الله عنهم وأرضاهم ونفعنا بهم وبأمثالهم آمين.

ومنهم الولي المشهور والطود المنصور صاحب الزاوية ذو العناية سيدي أحمد اغوية ظاهر البركة قبره مزار معلوم لدى الخاصة والعامة يقصده الزوار من بعد وله طلبة إلى الآن وروضته بينة نفعنا الله به وأفاض علينا من بحر أنواره آمين وأظنه من القرن السابع كما سمعته من البعض والله سبحانه اعلم وله كرامات مشهورة ومناقب وقد سمعت من بعض من يوثق به انه يتصرف كما كان حيا فانه يغيث من استغاث به.

ومنهم الولي سيدي إبراهيم صالح مشهور عظيم الشأن معظم عند الناس بركاته ظاهرة ونوره قوي وسره صمداني وأولاده علماء صلحاء من لم يكن منهم عالما كان صالحا نفعنا الله به وبأمثاله والله اعلم انه كان في القرن الحادي عشر معاصرا لسيدي موسى الوغليسي ولا اعلم انه أخذ من العاشر أم لا والله اعلم.

وأما أهل ايلمان[1] على ما تقرر من رسم الأشراف انهم شرفاء من شرفاء ايلمان الوانوغي كذا رأيته مزبورا فيها فانه نص على أولاد عنان وهم ايلمان والحمد لله لا يخلون من أهل الخير رجالا ونساء وذلك معلوم عندنا فقد شاهدنا ذلك منهم نفعنا الله بهم وان كان فيهم أهل جرأة وتعدّ وقد ورد في الخبر أن الله ينظر إلى قوم فيهم الصالح نظر رحمة نقلته بالمعنى وأما لفظه والله اعلم فقد نسيته والحديث يجوز نقله بالمعنى بشروط انظر الشهاب في الآيات البينات على المحلي نعم ما وجد منهم عما[2] لا يخل من اجتماعه الرجال والنساء عند الرقص والبكاء والتباكي والصياح وذكر

---

(١) في نسخة ايلماين.

(٢) في نسخة بإسقاط عما.

الشوق من غير اشتياق والعشق من غير عشق والحب كذلك وغيرها من الزهد فأنها من دسائس اللعين الشيطان الرجيم حرام باتفاق لا يقول أحد بحليته لما في ذلك من الفتنة ومخالفة السنة وإنما السماع المباح أن يكون مع أهله بشروطه الخالية من المحرمات ومع ذلك أنه دواء للمرضى من أهل الوله[1] وأما غيرهم من أهل البدايات كالمتمكنين فلا يكون ولا ينبغي في خقهم فهذه الفرقة غير معتبرة عندنا وإنما المعتبر من شد أزار الحزم والعزم للذكر والعبادة والاعتناء بنفسه وليس من هذا المجموع وهم موجودون والحمد لله وقليل ما هم.

ومنهم الولي الصالح الفاضل الناجح صاحب البركة قوي النتيجة[2] سيدي يدير بن صالح الجمهوري أصلا والعيدلي مسكنا التمغراوي[3] مدفنا تلميذ الشيخ سيدي يحيى العيدلي قد دفن معه في روضته نفعنا الله به فانه معظم غاية التعظيم وحبه ظاهر وأولاده ذوو بركة قوية وخيرهم مشهور وصلاحهم منثور وأمرهم مذكور، فان الناس ينتفعون بهم ويعتقدونهم إلى الآن ولا يخلو البعض منهم عند الوجد الصحيح، والحب الصريح، فتجده انه يتواجد حقا، ويحب صدقا، وأنهم أهل السماع دائما على كل حال فمن طلبهم وافقوه وساعدوه على أي وجه فيه الرجال والنساء غير أن سماعهم في الغالب أولى من غيرهم والناس يأمنون شرهم ويعتقدونهم وان دلائل الشر خالية منهم غالبا إلا من قل منهم وندر وأنهم لا يفرون من العلم وأهله بخلاف غيرهم فهم أسعد حالا مما سواهم كما شاهدنا ذلك منهم وان الكل مخالف للسنة النبوية وأنه ليس بشروطه غير أن غيرهم يقصد البعض منهم

---

(١) في نسختين أهل الود وفي نسخة بإسقاط من أهل الوله وأما غيرهم وفي نسخة بإسقاطهم من أهل البدايات.

(٢) في نسخة السجية.

(٣) في نسخة التمقراوي وفي أخرى التمغروي.

التوصل إلى الأغراض الفاسدة وهم والله اعلم سالمون من تلك المفاسد وان كان على غير الشروط نفعنا الله بهم حاصله جمعهم لا يخلو عن أهل الخير والبركة تحقيقا وبركة جدهم وشيخه القطب تتوب عليهم.

لطيفة لو أنهم انسلخوا عن ذلك رأسا أولى بهم وأجدر وأنور وأستر وأفقر وأحظ وأشعر وأذكر وأكثر واشهر وأقدر وأنصر وأعمر وأحذر أو أنهم فعلوه بشروطه مع أهله ومن أهله من غير حضور الشبان والنساء ومن لا يلاء له بذلك لوصلوا إلى الحضرة القدسية والأنوار الإلهية نور الله قلوب الجميع ما كدّر القلب إلا مخالفة السنة وكون الشيء على غير شروطه وعلى غير بابه والله تعالى يقول: ﴿ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾.

ومنهم أخوه في الله ومن شيخه الولي الصالح والفاضل الناصح ذو البركة البينة والأحوال المزينة والأمور المستحسنة المجاهد نفسه حق الجهاد سيدي إبراهيم بن عمار وقد قيل انه في محله المعلوم ما فاتته صلاة الصبح مع شيخه سيدي يحيى صيفا وشتاء وغيرهما اغتناما بركة الشيخ وان ذلك من خوارق العادة إذ لا يمكن ذلك في النهار دائما فضلا عن الليل وقد قيل أن الشيطان يصنع النار له لعله يعوقه عن اللحوق به فشعر به ولم يلتفت له أصلا ولعنه واستعاذ من شره نفعنا الله به آمين وأولاده أهل بركة وخير وفق الله الكل إلى صالح القول والعمل وحفظ جميعنا من الزيغ والزلل.

ومنهم الولي عند الناس بلا شك وهو كذلك والله اعلم وقلوبنا تشهد بذلك الشيخ سيدي إبراهيم الساكن في ناحية حنيف مشهور معلوم أحواله مرضية ونفائسه زكية ولطائفه وهبية أولاده مشهورون بالصلاح إلى الآن وقد أدركت منهم فضلاء كالفقيه سيدي أبي القاسم محب ذو ود وصدق وكذا أولاد سيدي الحاج نفعنا

الله ببركاتهم ونفعنا بسر جدهم وكذا سيدي عبد الحليم مثله وأظنه من آخر التاسع أو من أوله العاشر.

ومنهم من بركاته كالأمواج وأحواله كالأبراج الولي ذو البركة الظاهرة والخوارق الباهرة الشيخ سيدي عيسى بن محمد قد انتفع به العامة والخاصة وقد رد ببركاته عينا من ماء قطرانا لحيوانه وانه صبغ[1] كل من أتى إليه وقد مسح على عين الأعور فرجعت أحسن مما قبل فقال من لا معرفة له عين عيسى خير من عين الله ولم يعلموا أن الكل من عند الله وغير ذلك من كراماته رضي الله عنه ونفعنا به وحفظنا من كل جبار عنيد بجاههم وجاهه وله قبران قبر في أطراف وانوغة أعني المسيلة[2] والآخر في فرواو وبينها نحو اليوم وقد زرتهما معا والحمد لله.

ومنهم الشيخ عمرو الأشهب فان وانوغة يعظمونه غاية التعظيم وأولاده معظمون أيضا وقد بقي منهم الفاضل سيدي الطيب نفعنا الله ببركته آمين.

ومنهم أولاد سيدي عمر في وادي الخميس من هذا العرش وان جدهم هو المؤلف المعلوم في الكتب المتداولة أعني الوانوغي وأولاده فيهم البركة نفعنا الله بهم.

ومنهم شرفاء القصبة دار علم وبركة وشجاعة وقد زرت الجميع والحمد لله سبحانه.

ومنهم الولي الصالح والقمر الواضح سيدي علي الطيار معظم في الصحراء والتل وأولاده كذلك إلى الآن سيما الشيخ سيدي محمد بن المبارك وأولاده نفعنا الله بهم آمين.

---

(١) في نسخة سبغ وفي نسخة يشبع.

(٢) في نسختين آمسلي.

ومن زمورة أولاد أبي شيب[١] وأنهم شرفاء أهل فضل وبركة وقد رأيت في بعض رسوم الشرفاء وأظنه كلام ابن فرحون أنه قال ما نصه ولا شريف في زمورة أعني بني فرقان إلا طائفة يقال لها أبو شيب نفعنا الله بهم.

ومنهم أولاد سيدي أحمد التواتي فضلاء كرماء أهل خير من العهد الأول نفعنا الله تعالى بهم.

ومنهم الولي الصالح البركة سيدي عمر العجيسي فان الناس يعظمونه غاية التعظيم وهو جد سيدي أحمد المجذوب وقد رأيت أيضا أن عجيسة شرفاء نفعنا الله به.

ومنهم ذو الفضل والفضائل أخونا في الله سيدي محمد بن زيان كان رحمة لنفسه وللمؤمنين وضع الله البركة في أولاده نفعنا الله به.

ومنهم أولاد البواب أعني الزياتنة فإنهم أهل فضل وكرم وقراءة نفعنا الله بهم.

ومنهم الشيخ الولي الصالح ذو البركة العظيمة سيدي مبارك السماتي وأولاده على الفضل والكرم والهمة نفعنا الله به.

ومنهم ظاهر الفضل والنجاح والصلاح سيدي عمر بن عباشة وأولاده كذلك وان أصابهم بعض الذل وقد علمت أن درهم المغرم لا يعدله شيء رزقنا الله بركته آمين.

ومنه الشيخ الصالح المجذوب الذي فاض عليه بحر الأنوار وطلعت عليه

(١) في نسخة أولاد بوشيبه وفي جميع الأخرى أولاد بشيب.

شمس الأسرار سيدي محمد بن المبارك الشريف من أولاد سيدي أبي زيد(١) وأولاده من لم يكن ذا علم فهو ذو فضل وبركته ومآثره مشهورة من القرن الحادي عشر نفعنا الله بهم وأفاض علينا من بركاتهم.

ومنهم سيدي سعيد الموسخ والولي الصالح سيدي أبو ناب والشيخ الولي الشهير سيدي عطاء الله هم أولو الفضل والصلاح والخير والفلاح أولادهم أهل فضل نفعنا الله بهم وبأمثالهم آمين.

ومنهم الشيخ الزاهد الورع الولي الصالح سيدي علي بن أبي زيد كان في الحادي عشر وقد بلغ الغاية في العبادة ومجاهدة النفس وقد انعزل بأهله في الجبل طلبا لخفة الأشغال وتفريغ سوى الله من البال وذلك شان الصديقين وقد نص العلماء أن آخر الزمان لا يسلم ذو دين بدينه إلا من فر من شاهق لشاهق وأظنه حديثنا والشيخ استعمله بنفسه وأهله نفعنا الله به آمين.

ومنهم ذو الفضل العظيم والخير العميم الولي المشهور ذو السر المأثور سيدي الجودي العلمي من آخر القرن العاشر وأولاده أهل جد واجتهاد وصلاح سيما سيدي علي ابنه تلميذ الشيخ سلطان العارفين سيدي علي بن المبارك ذي(٢) السر القوي والنور السني فأني رأيت بعض مرائيه من أعجب العجاب تكاد أن تكون مرائي الثعالبي أو ابن جمرة نفعنا الله بهما وقد رأيت سيدي الجودي نوما فيما مضى وصورته لم تزل عني إلى الآن ومسكني من يدي فقال(٣) إلى جدك سيدي أحمد الشريف من بني عشاش إلى قبره فلما وصلناه قال سيدي أحمد الشريف ما دام يبقى

---

(١) في ثلاث نسخ بزيد وفي نسخة بوزيد.

(٢) في نسخة ذو.

(٣) في نسخة وقال لي جدك سيدي أحمد الشريف ما دام يبقى يزيد حرارة الخ.

يزيد حرارة كالسمن العتيق أو كلاما هذا معناه نفعنا الله به آمين وبأولاده[1] ولا شك أنهم أحياء عند ربهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ومنه الزاهد الورع المتخلي عن الدنيا الذاكر لله كثيرا من الحادي عشر وقد قيل التقط حب البلوط من كل شجرة في وطن الخميس[2] إلا أنه ذكر الله عند كل حبة وانه أول أمره كان يؤاجر نفسه ويقتات من ذلك حتى منعه بعض الناس من أداء الصلاة فسلم في الأجرة[3] وذهب ولم يرجع ففهم أن الله لم يقمه في الأسباب وإنما أراد به التجريد عنها والتجريد واجب عند تعذر الأسباب الشرعية أنظر ابن عباد عند قول ابن عطاء الله أرادتك التجريد مع أقامة الله إياك في الأسباب من الشهرة الخفية وأرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العالية فرجع للتجريد وهو سيدي محمد بن يحيى من أولاد الشيخ سيدي مالك وجده هذا كان صاحب حال عظيم قيل انه صبغ تسعة وتسعين رجلا من جملتهم سيدي موسى الوغليسي ولم يجد أحدا يزيده فزاد شجرة الزان والله اعلم ومعنى صبغها محتمل يحتمل أن الله جعل فيها إدراكا كما جعلها في الذي نطق للنبي صلى الله عليه وسلم حتى ذاقت حلاوة الإيمان وشهدت مشاهد الخير والبركة ثم تصير بركة للناس بعده [ويحتمل][4] أنها محل بركة إلى يوم الساعة فتصير أثارها لغيرها من العقلاء رحمة لأهل بلدة ومن يمر عليها وسيدي محمد هذا مجاب الدعوة وهو في جبل بني يعلى ضريحه مشهور يزار ومن أراد قصم عدوه الظالم فيسأل الله بجاهه عند ضريحه وقد جربت ذلك مرارا فوجدته كذلك أحيا قلوبنا الله بجاهه آمين.

---

(١) في نسخة بأمثاله بدل بأولاده.

(٢) في ثلاث نسخ بوخميس وفي نسخة بخميس.

(٣) في ثلاث نسخ وسلم الاجرة.

(٤) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

ومنهم الشيخ العارف بالله تعالى الزاهد في الدنيا رأسا المتخلي عنها نفسا سيدي محمد بن قري وقد اعتزل بأهله وسكن القلعة في غيضة عظيمة لا يسكنها إلا الوحوش(١) لعدم الماء فيها ومع ذلك انه بنى دوره(٢) في الأوعار من الجبل مع بعدها من الوادي إلى رأس الجبل وبنى فيها مساجد بفضل الله سيا الجامع الكبير فقد بناه بناء معتبرا إلا إذا كان مثله في تونس وأشار رحمه الله إلى أنها تصير مدينة قاهرة آخر الزمان وقد تحمل(٣) المشاق العظيمة في مجاهدة نفسه وأهله وأولاده وأصحابه وكان لا يفتر عن ذكر الله تعالى طريقه صعب لا يسلكه إلا من نبذ نفسه وراء ظهره وقد أدركته صغير وقد سمعت من بعض الناس أنه قرأ على شمهروش الطيار من الجن وهو قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أحياه الله أحد عشر قرنا وكذلك قرأ عليه الشيخ سيدي أحمد الحبيب صاحب السر العظيم والصراط المستقيم الفملالي وكذلك الشيخ البقال المصري وقد سمعت أنه يصلي كل جمعة في جامع الزيتونة في تونس فلما مات قال مجاوره أظن أن الشيخ توفي لما لم يعمر محله وكان الأمر كذلك والله اعلم وزوجته كذلك وقد سمعت منها أنها كانت تنازع الشيخ في بعض الأمور عند رجال الغيب ونصها أنها قالت أنا أريد أطعام الطعام والشيخ يمتنع ليس بخلا [بل] لما في ذلك من كثرة الخلق وهو يريد السلامة منهم والفرار من أجلهم قالت ذات ليلة والشيخ بات عند بعض الناس خارج القلعة فذهبت إلى المسجد الكبير فصحت برجال الغيب فأتوني من مصر ثم ناديت برجال المغرب فجاؤا من فاس أعني أشياخ زوجها قالت وناديت رجال الصحراء فأتوني كالجراد وناديت رجال بجاية فأتوني سيدي أبو القاسم الذي في قُراية وغيره من رجال بجاية فلما استقر

---

(١) في نسختين لا يسكنها الوحش.

(٢) في نسخة طرقه وفي نسختين طروقه.

(٣) في نسختين احتمل.

الجمع والتفت البصر والسمع لم أجد الشيخ يمتنع أو يتبع ثم أن بعض الحاضرين قال إن أردت أن يحضر الشيخ فنادى بأهل الجزعة وهم سبعة وهو واحد منهم قالت فناديت بذلك فحضر ساعتئذ فقال ما شأنك بهذا الجمع وأنت امرأة فقلت له منعك من غيرهم وأما هؤلاء فلا ثم قام واحد من هؤلاء الجموع وأتى بجمرة تضطرم نارا أي اضطرام في أحدى يديه وخبزة في يده الأخرى يقول لي أطعمي هذه ولو جلست على هذه فقلت لا والله ما يرضاه بي زوجي ثم بعد ذلك زجروه وأمروه بموافقتي فوافق وساعدني بعد وتفرق الجمع الخ الحكاية رضي الله عنها وأولاده ذكور وأناث ظهرت عليهم آثار الأسرار وشوارق الأنوار سيما الولي كأبيه ذو الصدق والوفاء والحلم والنصيحة والصفاء المتواضع لكل الخلق وقد حاز في كل خير السبق سيدي بركات وقد شاهدنا منه ما لا يمكن التعبير عنه نفعنا الله به وجعل البركة في أولاده وأظهر عليهم آثار الفضل بمنه وكرمه وقد حج من لا نظير له أصلا في زماننا سيدي عبد الرحمن ولده.

وأما سيدي محمد السعيد فضله عن أهل وطننا وكذا علمه وصدقه لا يخفى وقد زوجني سيدي بركات بنته كما زوج أبو بكر رضي الله عنه بنته النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها من غير كلفة ولا مشقة وقبر الشيخ معلوم في القلعة.

وأما ضريح ابنه سيدي بركات فهو مع ضريح سيدي محمد بن يحيى السابق وكذا قبور الفضلاء الصلحاء أولاد قري ومن أولياء الله سيدي عبد الرحمن وسيدي التواتي والأستاذ السبعي سيدي الحسين وسيدي أبو عبد الله وكذا جميع أولادهم على الخير والبركة في كل سكون وحركة نفعنا الله بهم.

ومنهم الشيخ سيدي عمر بن موسى فانه ولي من أولياء الله تعالى وقبره مشهور

يزار وأولاده على الخير والبركة والعلم والصلاح والفلاح ومن بركاته أن أهل محله يقسمون به صغيرا وكبيرا وان قريته والله اعلم ما وصلت إلى خراب في الظاهر وهلاك إلا شفعها فقد سمعت(١) أن الولي رحمه الله في قومه ما دام يعظمونه ويبجلونه مع مراعاة أولاده أن كانوا على وفق العلم قال تعالى وكان أبوهما صالحا قيل الجد التاسع ولا أعلم تاريخ وفاته رحمه الله ونفعنا به وبأمثاله.

ومنهم سيدي سعيد بن شتوان(٢) أدركناه أستاذا في القرآن مشتغلا بالله مقبلا عليه مع تعليم القرآن وقد ورد فيه الخير الكثير وأولاده على الخير والبركة رضي الله عنهم ونفعنا بهم.

ومنهم شرفاء تمنقاش من أخيار الناس وليس أحد يذم منهم بل كلهم أو جلهم على الخير والاستقامة بحسب الزمان وأهله وأصلهم والله اعلم من الرابطة وأهل الرابطة ذوو فضل وخير وهمة وصلاح وكرم وعلم وقرآن وحياء سيما الشيخ سيدي السعدي وغيره منهم نفعنا الله بالجميع بمنه وكرمه.

ومنهم سيدي سعيد الزيتوني فانه ولي كبير وأمره عظيم وحاله جسيم وأولاده كذلك ذوو علم وحلم وفضل خصوصا سيدي سليمان وكان حبيبا لنا وأولاده. وسيدي الحسين وولداه الفاضلان الكاملان سيدي محمد وابوه وقد رأى البعض النبي صلى الله عليه وسلم قال فسألته عن الأشراف فأجابني بقوله الزياتنة ولا أدري زاد(٣) وما نسبهما أم لا ولا أدري تاريخ سيدي سعيد وأظنه من أواخر التاسع أو أول العاشر نفعنا الله به وبأمثاله آمين.

---

(١) في نسختين وقد علمت.

(٢) في نسخة شتران.

(٣) كذا في جميع النسخ.

ومنهم الولي المعلوم ذو البركة العظيمة والخيرات الجسمية سيدي إسماعيل الفملاني وكذا أولاده فهم على الخير والبركة والعلم والفضل والرحمة نفعنا الله بجميعهم ولا اعلم تاريخ وفاته وقد سألت البعض عنه فقال من القرن السابع غير أني لم أثق به.

ومنهم أولاد محجوبة فهم أهل الخير والفضل والقرآن والعلم والحلم سيما والد سيدي علي بن محجوبة وكذا سيدي علي وولداه الفاضلان الكاملان سيدي عبد الله وسيدي محمد السعيد وقد حضرت مع سيدي الحسن[1] بن مصباح أن سيدي محمد السعيد طار في الهواء ساعة زمانية مع جماعة من أهل الخير أدركنا الله من بركاتهم بمنه وكرمه وكذا سيدي علي بن محروش وولده وكذا شيخنا الذي هو ظاهر الصلاح والخير والنجاح سيدي يحيى اليعلاوي في قسطنطينية وقد شهدت منه أمرا عظيما من الكشف غير مرة وجدهم هو الولي الصالح سيدي الحاج عيسى ولا أدري تاريخ نفعنا الله بجميعهم آمين.

ومنهم سيدي سليمان الحربيلي فانه ولي من أولياء الله تعالى وهو واسع المعنى رحب البناء عند أهل حربيل وأولاده كذلك أهل فضل وخير نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم الأخيار والسادات الأبرار ساداتنا زواوة وهم أهل سداد وصواب وخدمة رب الأرباب أولو[2] فضل وعلم وأدب وحلم أنوارهم ساطعة وأحوالهم مرتفعة وضمائرهم خاشعة ونفوسهم لله خاضعة جلة وتفضيلا وعلهم على الخير من الله تفضيلا ونسبهم على ما اشتهر لديهم وكذا الشواثرة إلى الولي الصالح سيدي يحيى أبي زكرياء الزواوي الذي ببجاية مدفون ضريحه الدعاء عنده مستجاب

---

(١) في نسخة الحسين.

(٢) في نسخة ذوو.

والناس في أنسابهم مصدقون حسبما صرح به الأجهوري بضم الهمزة وغيره إذ الأنساب كالحيازة في الأموال انظره.

وقد قلت:

سريـــرة الجســد تحـق في الولـــد ونـــوره حقـــا عليـــه يعتمـــد
فخيرة الخلـــق مـــن أصـــل طيـــب شـــذا معطـــرا أني مـــن أعجـــب[1]
وحـسن أخـلاق[2] كـذا قـد ينتخـب وأمـــره غريـــب لـــيس يحتجـــب

نفعنا الله بجميعهم آمين.

ومنهم المحيي لما درس من حق قد بخس المحاسب منه كل نفس وأغلى حقا ما قد رخس وأعلى طريقا أنس الشيخ على الحقيقة شيخ الطريقة ولايته ظاهرة وأحواله فاخرة وأسراره بينة وأنواره قدسية سيدي الجودي بن الحاج كراماته وأحواله مشهورة وعلومه منشورة وقد بلغ رحمة الله عليه حالة التربية إذ سمعنا أن طالبا كان يتعلم عليه ذات يوم غلبته نفسه فتبعها في غير شيء بان شوغف بامرأة أجنبية وتعلق بها وأراد الزنى بها وحين وقعت المعصية بحيث أراد مباشرتها فوجد الشيخ بينه وبينها فاستحيى وأصابته حشمة عظيمة ولم يرجع بعد ذلك له نحو خمسة عشر يوما حتى بعث إليه رضي الله عنه وقد سمعت من المبرز العدل الصالح من أهل الفضل المرابط سعيد بن تقرين يحكي عن أبيه أو عن جده عن الشيخ سيدي الجودي أنه سرق لبعض أحبابه سرقة ولم يعلم بها إلا الله تعالى فوقعت الشكوى من أربابها له فبعث لكل من أتهم بها وكنت في جملتهم نعم لما وصلنا إليه أمرنا بردها ووعدنا بالخير العظيم والفضل الجسيم على ذلك فأبى الكل عنه وكنت السارق فلما انفصل

(١) في ثلاث نسخ فشذا عطرا أيتا من أعجب.
(٢) في ثلاث نسخ وأحسن الخلق.

الجمع عنه مسكني وقال أنت الذي سرقت ردها فما تريده فأنا متكفل به فقلت له نعم أنا على ما تريده فرددتها ثم قال لي كلما وقعت بك شدة فاستغث بي فأنا أغيثك أين ما كنت وبعد ذلك ذهبت إلى الجزائر أريد المعيشة وتحصيل أسبابها فركبت في السفينة مع من يحارب النصارى فأسر جميعنا فوقعت عند رومي لا حلم ولا شفاعة له أصلا وصار يعذبني تعذيبا شديدا فلما كان ذات ليلة خرجت هاربا إلى شاطئ البحر مختفيا في الشجر فلما علموا بأمير صار الصياح والنداء ورائي إلى أن وصل الجمع(١) إلى محلي غير أني حجبني الله عنهم بعد أن وصل كلبهم إليّ يبصبص بي ثم يرجع إليهم غير أني معتمد على الشيخ ومستغيث به فرجعوا خائبين وبقيت أنا ثم ملتجئا إلى الله ثم إلى الشيخ فمرت عليّ سنة وإذا بالشيخ يقول مد يدك إلي فمددت يدي إليه فمسكها ورفعني فاستيقظت فوجدت نفسي في الجزائر وغير ذلك من الكرامات رضي الله عنه ونفعنا بعلومه وأحواله وأنواره بمنه وكرمه وأولاده إلى الآن على الخير والفضل والعلم والحمد لله تعالى وهو من القرن الحادي عشر أعني لوله لوم أدر هل أخذ من آخر العاشر أم لا وقد حشى على الصغرى حاشية لطيفة وكلامه رأيته لا بأس به لأنه محقق في عصره.

ومنهم سيدي عمر الواصلي رجل من الأكابر وصلاحه وولايته معلومة في الضمائر فان أهل وطنه بني سليمان يعظمونه غاية التعظيم وأولاده على الخير خصوصا الأجل المنير ذو الخير الشهير سيدي الموهوب كبير السر عظيم الشأن والحمد له حبيب لنا نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم سيدي عمر الخلادي شيخ معظم وولي معتقد فيه أولاده على الخير والحمد لله تعالى نفعنا الله به.

---

(١) في نسخة الجميع.

ومنهم الولي الصالح والنجم الواضح سيدي علي بن سليمان البرباشي[١] معظما عند أهله ومحترما[٢] عند أهل وطنه قبره يزار وأولاده فيهم والحمد لله العلم والصلاح وخدمة الخير وأهله ومحبة العلم وذويه سيما سيدي علي بن الصالح وكان حبيبا لجدي ولوالدي وهو قد ظهرت أنواره وقويت أسراره وعلمه وفضله ظاهران قد درس وأسس وعلم وأنس نبراس زمانه وعبقري أوانه وليث مكانه وكذا سيدي عبد الله تفقه على جدي الحسين الشريف واغتنم منه البركة والعلم يحكي ذلك الوالد عنه وكذا أخوه سيدي الموهوب بن علي بن سليمان وأولادهم على الخير والبركة والحمد لله نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم سيدي زيان صالح زمانه وولي أوانه وأولاده كذلك نفعنا الله به.

ومنهم السادات الأفاضل والأخيار الأكامل أولاد سيدي بهلول القائمين بالحق الظاهرين على قدم الصدق والسالكين[٣] سبيل الجد والرفق وهم شرفاء خصوصا سيدي علي وسيدي المهدي ومن نحا نحوهما على أن أولادهم إلى الآن على ما يحسن فلم تسكن نفسي لأحد مثلهم لفضلهم وجودهم وحيائهم وأحسانهم وعلمهم بقدر من له القدر زادهم الله رفعة وتعظيما ومهابة نفعنا الله بهم أجمعين آمين.

ومنهم ذو العلم والمهابة، والحلم والأنابة، والسطوة والاستجابة، والتحقيق والإصابة، ذو العلوم الفاخرة، والأحوال الصادقة الظاهرة، والأنوار الباهرة، والأسرار الحاضرة، الزاهد بالتحقيق، بعد التمكين من الدنيا كما يليق، قد نبذها وراء

---

(١) في نسخة البربشي وفي أخرى البرباشي.

(٢) كذا بنصب معظما ومحترما في أربع نسخ وفي نسخة برفعهما وهو الأظهر.

(٣) كذا في جميع النسخ بنصب القائمين والظاهرين والسالكين.

ظهره، دفعا لنفعه وضره، عند جميع الأفاضل مرغوب، الولي الكامل سيدي الموهوب، نجل الشيخ القدوة والدرة الثمينة سيدي محمد بن علي اليعدلي[1] كراماته ظاهرة، ودعواته قاهرة، وأسراره ليست مستترة، مكنه الله فتمكن، وبذكره قد أطمأن، قلت فيه وفي أمثاله.

شمس النهار أشرقت بحضرتها … عند الظلام متجل من نورها
فجرها[2] أحيانا ما كان قد يبس … من ريح أهل جرأة بل من نفس[3]
أحسن جوهر من المعالي … قد رصعن[4] وطنتنا في الجبال
قد أقبل المآل[5] بالسعود … من طلعة الغر على الوفود
وكل ظلم قد جرى من العجم … على ذوي الشرف والخير إلا تم
أزاله بحق من حلاه … بحلية من عزه علاه
وكل ما[6] أتاه من أوساخ … فرقه إذا بلا تراخ
من غير أن يقبض[7] شيئا أبدا … لنفسه وأهله معتمدا
على الذي من رزقه قد انقسم … على العباد ليس ضيزى في القسم[8]
إذ حلمه قد عم أهل مصره … وبره مدخر لوقته

---

(١) في نسخة العيدلي.
(٢) في اربع نسخ نفيس.
(٣) في أربع نسخ فجرها.
(٤) في نسخة رصعت.
(٥) في نسخة الآمال.
(٦) في نسخة من.
(٧) في أربع نسخ ينقص.
تنبيه في هذه القصيدة واللاتي بعدها من قول المؤلف خلل كبير من جهة الوزن ومن جهة المعنى فليحرر ذلك بنسخ أخرى.
(٨) في نسخة ليس للغير القسم.

فدهره يثني عليه باتفاق — وحاله وسيره[١] بالارتفاق
هذا وإن صيته قد ارتفع — ورسمت أحواله لتتبع
وأم حقا أرعوت لأمره — وافتقرت إذ ذاك قُنّة بره
مدرس الفنون في المقام — كذا القرآن أضحى للأنام
محل سر وانتفاع بالدوام — قواعد العلوم تقرا بالتمام
على قانون[٢] العلم من غير اختلاط — ولا التباس وانتقاص باغتباط
تأتيه الأفواج من كل بر — لأمور اضطروها لضر[٣]
أصابهم[٤] جائحة الفقدان — لرفع معضلات عن أخوان
علمه كالمصر للحجاج — وعلمه أجلى بلا احتياج
كالنحو والتفسير مع علم الحديث — ولغة وأدب ليس الخبيث
منتفعا بها كل انتفاع — بصيرة عمياء[٥] باقتطاع
أولاده حقا عليهم ما أبدى — من علوم وأطعام وما ارتدى
به من التقوى وحسن الزاد — وأبحاث العلوم في ازدياد
هذا وإن بحرا فيه مستقر — من العلوم والأسرار يعتبر
شريعة حقيقة مع العمل — فخشية وخضوع منه أقل
حال الهوى عن قلبه قد انقشع — عن سره كل السوا منه اندفع
وكله بربه قد انخشع — وحبه بقلبه قد انصدع

---

(١) في نسخة سره.
(٢) كذا في جميع النسخ.
(٣) في جميع النسخ تأتيه وفي نسخة بدل الشطر الثاني لجلب خير أو لدفع ضر.
(٤) في نسخة أصابتهم والبيت جميعه كذا.
(٥) في أربع نسخ عميت.

وأنوار العلوم منه تشرق   وأبحاث التحقيق منه تبرق
مدده قد مده الإله   وحلاه بسره مولاه
قد شهدت بقربه حيتان   من ربه اسمعها الرحمان
صديقه إبراهيم صوان(١)   ديدانه(٢) من ربه القرآن
هو الذي يجذب مع ملائك   شمس العوالم سرا وذلك
ليس غريبا أبدا على الحبيب   لربه وقربه من الرقيب
قد ابان بانه لا يقفن   عن قبره شقي حقا ويا من
وهو الذي يقرأ في الكتاب   في مسجد الشيخ المتقي الأواب
بجاية قد اسعدت بسره   وانتشرت أنواره بقبره
مدفنه يقرب من أبني علي   أبي حيد(٣) الصغير المسيلي
كتابه النبراس والتذكيره   وأمره وحاله شهيره(٤)
فعند قبره الدعاء يستجاب   مدده يحظي به من قد أناب(٥)
الغبريني في عنوان الدراية   نص عليه وخذ العناية
أحيا علوما من علوم الدين   في وقته بالجد والتبيين
بلمحة يصبغ(٦) كل من أتى   بنية خالصة مستثبتا
قد كان يا أخي إذا من البله   أحوال دنياه لها لم يتنبه

---

(١) في نسخة ديوانه.
(٢) في نسخة الصوان.
(٣) في نسخة بالقرب وأبي حامد.
(٤) في ثلاث نسخ تصديره وفي أخرى التذكير وحاله شهير.
(٥) في ثلاث نسخ مدده وداده قد يرتقب.
(٦) في نسخة بلهجة وفي كلها يسبغ.

هذا الذي تعلق القلب به ... ياأحد[١] عبد العظيم ينتهي
لجبه النظم أتى مرتجلا ... لسنة وقرآن ممتثلا
فارضنا قد اخضرت بعلمه ... وكل صعب لين بحلمه
أرواحنا قد حيت بوابل ... من غيثه قد عمنا بحلل
من أزهار وأنوار من العلوم ... فمن سقاه شربة بها يقوم
بأنواع من المواهب عجب ... في حضرة قدسية قد انتخب
لنصح من أتاه حقا قاصدا ... يعلو به منازلا وزائدا[٢]
بأسماء وصفات من ربه ... لسالك يسعى به لحزبه
وخمره[٣] قد شاع في الأقطار ... سلافة من كأس ذي الأسرار
فنظرة مسكرة على الدوام ... شاربها عن حسد من الهوام[٤]
خردلة من الهوى[٥] تنفعه ... كذاك ضره وما يدفعه
فمثله أمان العباد ... كذا بسد[٦] ثلمة الفساد
بجاهه حققنا رب بالهدى ... مع الرضى مفوضا معتمدا
وأسلك بنا بجاهه كل نمط ... من طرق الحق بعلم يغتبط
بقربه يا رب زول الحجاب ... عن الضمائر بحب وارتقاب[٧]

---

(١) في نسخة لاحد.
(٢) في نسخة وراثدا وفي أخرى روائدا.
(٣) في نسخة وخرة وفي أخرى وحده.
(٤) في نسخة شاربها غاب عن حسه وهام.
(٥) في نسختين من الورى.
(٦) في نسخة يسد.
(٧) في نسخة بحيث لا ترتاب.

وكلنا[١] برحمة مع عافيه — وزد لنا تصفية وتوفيه
وجد لنا بالعفو والغفران — وجنة الخلد مع الرضوان[٢]
وأمح لنا جرائما قد سبقت — بتوبة صادقة منك أتت
في حضرة القدس مع البنين — وأسعد بناتنا ومن يلينا[٣]
إلى انتقال وارتحال يا فتى — عجل لنا توسعة مما أتى[٤]
من خيرة الدارين والسعادة — كذا التوفيق مع الاستفادة[٥]
واجعل لنا ودا من العباد — والخير والورق بالازدياد
وكف عنا يد عدو بالدوام[٦] — من كل جبار عنيد بالسلام
أنت الذي تكفنا من الأذى — وأقصمه[٧] يا رب عند العزم إذا
أرادنا بسوء فعل منك رد — في نحره كيده قهرا بالأشد[٨]
ما رماه ونراه قاصدا — ورده ذلا بعادا ما أعتدى[٩]

---

(١) في نسخة وعمّنا.
(٢) في أربع نسخة من الرحمان.
(٣) في أربع نسخ مع اسعاد البنات مذ خلقن وفي نسخة ومن الينا.
(٤) في نسخة

كل خلقنا لانتقال وارتحال — عجل لنا توسعة مما ينال

(٥) في نسخة مع الاستقامة.
(٦) في نسخة يد العراعي الروام.
(٧) في نسخة الذي تكفينا من كل الأذى وأقصمهم.
(٨) في نسخة أرادونا- كيدهم في نحرهم قهرا أشد.
(٩) في نسخة

بما رواه وذووه قصدا — رده عنا كافي شر الأعدا

دعـا يعـم الوالـدين والأزواج ومنـتم لنـا مـن الأفـواج[١]
مـن قريـب ومحـسن كـذا المحب واشـياخ وآخـوان ومرتقـب[٢]
بأمثـال المزبـور فـيما قـد سبق وآخـذ وطالـب ومـن صدق
في حبنـا وودنـا مـن العباد وكـن لنا بجمع شمل واجتهاد
في العلـم[٣] بالجـد والتمكـين لنفـع مـسلم ودفـع ريـن
وشر ذي شر عـلى الإطـلاق والختـم بالحـسنى مـع ارتفـاق
نبينـا وذخرنـا يـوم الحساب بجاهـه حقـق لا عـين انتساب
ثـم الـصلاة والـسلام دائـما عـلى الرسـول صادقا معظـما[٤]
وآلـه وصـحبه ذوي التقـى والمجـد والفخـر وكـل متقـى

وبالجملة فقد تشرف مقام الشيخ سيدي الموهوب بإشراق حضرة الولي سيدي أحمد بن عبد العظيم أشراقا تاما، وطلوع نجم السعود فيه طلوعا عاما، وكذا بأولاده سيما ذو المجد الأنيف، والفاضل الشريف، وهو من النوادر سيدي عبد القادر رحمه الله تعالى ورضي عنه وفيه قلت

ومعـه الحـبر الهـمام في الـوغى مكافحـا مناضـلا وقـد بغـى
عـلى المعـالي كلهـا أو جلهـا ملتقطـا لـدرر مـن أصـلها
قـد حازهـا بـسيفه منعطفـا همـم الأمـور غـدا واقتفـى[٥]

(١) في نسخة بالأزواج وفي أخرى كل متمم.
(٢) في نسخة مرتعب.
(٣) في ثلاث نسخ في علوم.
(٤) في نسخة الصادق المعظما.
(٥) في ثلاث نسخ عزا وفي كلها انتقى.

من أرجاء الملك مع السياسه   وفر بالنفس عن الرياسة[١]
وحظه[٢] جواهر مع الأدب   وعلمه نار القرى كذا الحسب[٣]
وعبد قادر تسمى في الورى   وجوده وخيره بلا امترا
فقد عما عصرها ككوثر[٤]   وظل عز منها كشجر
من شجر الضخم وذي الأوراق   لعابر ذي حاجة إطلاق

هذا وأن فضل الله عظيم، وبره عميم، وأولاد الشيخ سيدي الموهوب فيهم الخير والعلم والأدب خصوصا سيدي عبد الله نجل الشيخ سيدي عبد القادر المذكور وسيدي عبد الله بن محيي الدين وتلميذنا سيدي عبد القادر بن أحمد وكذا غيرهم.

ومنهم من أشرق بالكرم والجود، في سماء السعود، بحر السخاء من الودود، سيدي المسعود، وفيه قلت:

سدده قد يغني كل[٥] من سأل   وجوده قد عم قطرا واشتمل
على كل من المعالي واستقل   بسجيه[٦] عن غيره بها احتفل
خداته بسيرة حميده   قد أخبرت عنه بها سديدة

(١) في أربع نسخ أشخاص ضده مع العناية.
(٢) في نسخة
وحظه الأدب في كل أرب   نتيجة العلم كريم ذو حسب

(٣) في اربع نسخ وخطه.
(٤) في نسخة فضلها قد عم مثل كوثر.
(٥) في نسخة لكل.
(٦) في أربع نسخ بشجايا.

لا عيب فيه أبدا سوى السخى لقاصد من عدو موبخا
ألسنةُ من عصره متفقه على الثنا بحمله معتبقه[1]
فحله السرب من المعارف تمده مدا بلا تخالف[2]
أعني الذي في عهدنا محمدا فلم يعد عن مثلهم مستمدا[3]
مقتبسا من أمور قد سبقت من أجداد له بها قد صدعت[4]
من خدمة العلم وأهل الأدب ذويها بكل ما قد اكتسب[5]
فحظه من كلهم لم يختلف نصيبه من مجدهم لم ينحرف
فأولاد الشيخ على الإطلاق لم يعدموا الكل من السباق

---

(١) في ثلاث نسخ معتنية وفي نسخة
سنته في عصره متبعه ثناؤهم عن حلمه كل رعه

(٢) في نسخة:
فحله رب من المعروف تمده مدا بلا عكوف

(٣) في نسخة:
أعني به الذي عهدنا أبدا نجم سعودة تسرى محمدا

(٤) في نسخة:
مقتفيا لأمور قد سلفت من أجداد له قد صدرت

(٥) في نسخة:
كخدمة العلم... ومن بفضله اتى محتسب

وأصلح الكل بحق المصطفى ... وصاحب وتابع ممن[1] صفا
ثم صلاة الله مع سلام ... على رسول رحمة الأنام
محمد أفضل كل من أتى ... من رسول ونبي مثبتا

وكذا الفاضل المحسن والحليم ذو المعروف والمآثر ظهري وذخري سيدي الموهوب بن محمد لا يأتي الزمان مثله وفيه قلت:

فإنه يحاكي أبريز الذهب ... والبحر من فنونه قد ارتقب
فعزه مبجل ممن أحل ... في قطره ممن علا ومن سفل[2]

قدس الله ضريحه، وعطر ناشذاه وريحه، وأما قرابة سيدي أحمد بن عبد العظيم فهم على الخير والحمد لله جعلنا الله في زمرتهم آمين يا رب العالمين.

ومنهم شيخ والدنا الفاضل النحوي اللغوي المحدث المفسر الأديب الفقيه الجامع بين المعقول والمنقول الولي الصالح والبرهان الواضح ذو الأحوال الفاخرة شيخ شيوخنا المعرب الغربي سيدي محمد العربي[3] المتوطن في جبل سيدي الموهوب وقد أسعد الله باستقراره كل الأماكن من وطننا وتأنسوا به أي تأنيس في زماننا وكان إذا أحل بقوم نزلت عليهم الرحمة والسكينة وكيف لا وهو بحر الله في عالمنا وغيث بلدنا ورحمة لمن كان عندنا وعلمه مبذول عند من سبقت له السعادة والحمد لله وقد تعلمت[4] الألفية على تلميذه العلامة الفاضل سيدي علي بن أحمد وطريقه ناصرية شاذلية وكان رضي الله عنه يفجي الغمة على من وقع عليه في العلم وغيره رضي الله

---

(1) في نسخة ومن.
(2) في نسخة من أهل قطره.
(3) في نسخة الغربي.
(4) في نسخة تلقيت.

عنه وكذا سيدي عبد الملك وان لم يكن مثله في العلم غير انه ذو فضل قوي وفي سيدي محمد هذا قلت:

بحر الندى والعلم من شيخ برز — شيخ الحقيقة لدينا مكتنز(١)
وجوده كعلمه فيما دنا — من قطرنا على الذين به اغتنى
نار القرى في علوم لم تستتر — وشمسه مشرقة على الدرر
وأنه طود في كل من علوم — ورحمة على الذي به يؤم
والله ان نعمة قد أهديت — من الرحيم عاجلا لمن أتت
بدرا إذا رأيته يا من قصد — زيارة أو سلوكا لمن أراد(٢)
إن مات قلب قسوة أحياه في — لحظة من وقت ومنه قد شُفِي(٣)

وبالجملة فالله يتداركنا بفضله وجوده وإحسانه توفي في هذا القرن الذي نحن فيه وأما سيدي الموهوب فانه من القرن الحادي عشر وسيدي أحمد بن عبد العظيم بعد الشيخ سيدي الموهوب. وقرية أمُولة(٤) جامعة لأهل الخير والفضل والعلم نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم الولي الصالح سيدي عمر القموني(٥) وأهل محله يعظمونه ويعتقدونه غاية التعظيم ولا أدري تاريخ نفعنا الله به آمين.

---

(١) في نسخة قد ركز.
(٢) في نسخة أو سلوكا فاغنَمْ تُفَدْ.
(٣) في نسخة
فان مات القلب من القساوة — هو الذي يحيى مع العناية
(٤) في نسخة أصوله.
(٥) في نسخة المقوني وفي أخرى القمري.

ومنهم الولي الصالح والقمر الواضح له بركات ظاهرة وأحواله باهرة وأسراره مشتهرة سيدي الصادق ضريحه في الوادي معلوم يزار وهو من القرن العاشر أعني أواخره ولا أدري هل بلغ الحادي عشر أم لا وأولاده رضي الله عنه بدور أهلة وأعلام أجلة كالفاضل الولي والصالح الولي والفقيه العلي سيدي يحيى بن الموهوب ومثله في الفضل سيدي محمد الموهوب وسيدي التواتي الفقيه سيدي يحيى بن الواثق وهو في غاية الفقه تلميذ جدنا وقد سمعت منه أنه رأى الشيخ خليل في النوم وأخذ بيده إلى أن وصل إلى الصندوق المملوء بالكتب قال فأخذ منه كتابا وأعطاه لي فوجدته الشيخ بهرام فعلمت أنه أذن لي في مختصر الشيخ خليل ففتح الله علي بما لم يفتح على غيري وقد أخبرني عمي سيدي محمد الصغير إذ هو علامة زماننا أنه كان يتعلم عليه المختصر وكان يقرئ من الأجهوري وأنا وبعض الطلبة أعني سيدي محمد بن باب الملقب بالأوجه[1] [وهو فاضل محقق أيضا وأولاده][2] في أيدينا الشيخ عبد الباقي والشيخ إبراهيم فكان قدس الله ضريحه يحمل[3] الشيخ المذكور ويهذبه ويحرره بان يترك المكرر منه كالشيخين بعلمه سواء بسواء إلا في عين اللفظ ومآثر سيدي الصادق وأولاده كثيرة وقلت فيهم:

يا أيها الإنسان فاعلم قدرهم ... لأنهم سحابة مع غيثهم

قد اخضرت أشجار أهل العصر ... وأثمرت فواكها بتمر

فهم كحصن مانع يلوذ من ... له الجناية بحق أو ضمن

رحمتهم تعم كل بلد ... وسرهم من سر فضل أحد

قد سكروا بحبه وقربه ... فمنحوا من عزه وحلمه

---

(١) في نسخة محمد امزيان.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٣) في نسخة يحصل.

فاسكنوا قلوبهم دار الوصول بجذبة الإله صرفا بالحلول
في جمع الجمع بالتجريد وسيفهم للقهر بالتهديد[١]
بحليه الإله قد جلهم وشرحه الصدر فقد زينهم[٢]
فأنهم على الهدى من ربهم أيدهم قدسهم عرفهم[٣]
يا الله رب عصمة منك لنا هداية أمانة لمن دنا
بجملة الأشياخ والأبناء وأزواج والنسل بالسراء
وآخذ العهد وكل طالب ترزقنا عافية يا غالب
مع التجلي دائما على القلوب بركة معرفة لمن يتوب
من أحباب وجيران مع الخدام وكل ذا لنسلنا على التمام[٤]
ثم الصلاة والسلام كالمطر على النبي دائما كمن حضر

نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم محيي الفنون ومجدد العلم والدين، بعد إندراسه على التعيين، المتصف بعلم اليقين، اتقى المتقين، بل انه شرب من عين اليقين، حتى صار من أهل التمكين،

---

(١) في نسخة
جمع الجمع حلوا بالتجريد وربطوا القلوب بالتفريد

(٢) في نسخة:
بفضله حلاهم إلا هنا بحلية التجريد فازوا بالهنا

(٣) في نسخة بدل الشطر الثاني ويرحم الخلق جميعا لأجلهم.
(٤) في نسخة على الدوام.

علامة زمانه، وقدوة أوانه، بركة الأوائل، قد زحلق وآخر لقابل، لحكمة ربانية يعلمها مرسل صاحب الشمائل، الولي الواضح سيدي محمد صالح كاد أن يجدد الدين في وقته وعلمه مشهور وفضله منشور توفي في القرن الحادي عشر ضريحه معلوم يزار في قرية اجلميم من عرش بني اجمات من عرشنا بني ورثيلان وهو في غاية الصدق والوفا، وعن كل مشتبه أو شبهة قد حفا(١)، رحمه الله وقدس ضريحه، وأفاض علينا خيره وريحه، ونور قلوبنا وقلوب أولادنا باليقين والتمكين، وحلانا بحلية المتقين، في كل تحريك وتسكين، وهذا الشيخ كان مدرسا للعلم قائما بأمور الطلبة بنفسه مع قلة ذات يده ويهاجر من كل بلدة لا تأخذهم الأحكام إليه وقيل ليس على الأحكام الشرعية إلا جيرانه بنو اجمات من بلدنا فقد أنتقل من قرية بيكتي وسكن متين من بني عيدل وكانوا يمنعون الميراث أيضا فأمرهم بإعطائه وحرضهم على ذلك فلما رآهم امتنعوا وتوانوا ورأى هجرته واجبة وعلم منهم انه إن انتقل بحضرتهم يمنعونه فتركهم إلى أن ذهبوا إلى الزيتون زمانه بحيث لا يبقى أحد في العمارة إلا الضيف أو كبير السن فلما آن زمانه وحان وقته ذهبوا إليه فرفع زوجه وشئونه فوقع النداء من العمارة والصياح ليجتمعوا على الشيخ إذ لا قدرة لهم على فراقه فتسابقوا إليه من كل فج عميق ليمسكوه فلما ألحوا على رجوعه وأقامته معهم حلف أن لا يرجع إليهم إلا بالرجوع إلى الأحكام الشرعية وقد علم الله صدقه في ذلك فامتثلوا أمره بجد وصدق فرجع فيهم على الأحكام الشرعية إلى الآن والحمد لله تعالى على ذلك وقد تحقق له الحديث فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

لطيفة أقول إنما هاجر رحمه الله وقدس روحه لما علم عظيم عصيانهم وكبير جرمهم إذ بعض المواضع سالمة من ذلك وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم انه قال

---

(١) في نسخة خفي.

من قطع ميراث مسلم قطع الله ميراثه من الجنة ذكره ابن مرزوق في شرحه لفرائض خليل فإذا علمت هذا علمت انتقال الشيخ لوجوبه عليه وقد نص علماؤنا رحمة الله عليهم أن المعاصي إذا كثرت في موضع وقلت في آخر فيجب على العبد أن ينتقل لمحل قل فيه ذلك. وأما عند عموم الشر فلا بل يلزم مكانه ويكون حلسا من احلاس بيته إذ رب موضع انتقل إليه أكثر مما انتقل عنه فيرجع إلى الذي انتقل منه فيجده قد تغير أيضا ثم يرجع إلى الذي انتقل منه فيصير كحمار الرحى فالموضع الذي انتقل منه هو الذي يعود إليه ذكر هذا صاحب المدخل والشيخ هذا الذي حمله فان قلت لو كان الشيخ هذا قصده لانتقل إلى الجزائر أو قسنطينة أو تونس لأن هذه الأوطان سالمة من ذلك قلت حب الوطن من الإيمان كما روي عنه صلى الله عليه وسلم ولعله يتيسر له ذلك في بعض وطنه والسنة حب الوطن وقد يسر الله له ذلك والحمد لله وقد سكن مواضع عديدة ولعله يجد موضعا تيسر له فيه العبادة ومن جملة ذلك صحة المعاملات وبفسادها يتكدر الوقت خصوصا على ما ذكره الشيخ زروق أن المعقود عليه يحرم بحرمة العقد والمذهب خلافه فالمعقود عليه لا يحرم بفساد العقد.

انعطاف نعم أولاده على طريقة من العلم والحلم والفضل والإحسان والأدب والحياء والبركة رضي الله عنهم سيما الورع الزاهد المقتفي آثار النبي صلى الله عليه وسلم المتمكن في طريق الله عز وجل الجامع بين الحقيقة الشريعة قدس الله روحه ولي ظاهر سيدي الحسين نجل الشيخ المذكور المتبع للسنة النبوية والشريعة المحمدية كادت أوصاف سيد الخلق أن توجد فيه وقد تخلق بمعاني الأسماء والأوصاف الإلهية ظاهره راغب في الدنيا وباطنه خال منها فالجاهل من الناس إذا رأى حرصه في الظاهر يقول سيدي الحسين يحب الدنيا وليس كذلك بل الدنيا في يد العارف أمانة والأمين لا يضيعها وإنما يترقب بها أمر صاحبها أو يردها لصاحبها ومن أحاط علما

بذلك فلا يتغير لفواتها فقدانها لأنها ليست له فان قلت ربما يتغير العارف على فقدانها ولا يتكدر وقته ما الحكمة فيه قلت العراف أن يتغير عنها أي بفقدانها ليس تغيره لأجل حبه لها وتعلق القلب بها إذ لو كان كذلك لما كان عارفا وإنما تغيره لأجل تفريطه وتقصيره في حفظه إياها فتغيره راجع إليه وإلى معبوده ومحبوبه فكان بربه لا بنفسه فالعارف لا يزول اضطراره ولا يقر مع غير الله قراره وقد ذكر بعض أصحابه لنا أن الشيخ ذهب له ثور بان سرق له فلما أخبرناه بذلك تغير وتحير اشد التغير وغضب علينا أشد الغضب حتى ظننا أن الشيخ إنما غيره حب الثور وحزنه لذلك وقمنا نبحث عليه البحث العظيم الذي فوق الطاقة فوجدناه مذبوحا في بني وجهان فرجعنا بقيمته لما علموا انه للشيخ فلما وصلنا إليه وأخبرناه بذلك ليس فغضب غضبا شديدا وتغير تغيرا عظيما أكثر من الأول بما لا نسبة له فقال من أمركم بالبحث عنه هذا فضول منكم فالله صدقة علي فكيف لا أرضى بصدقته وأنتم تردونها وتغيري أولا إنما هو لإضاعة المال والله لا يحب ذلك فتغيرت لتغير الله وكان رضي الله عنه يطعم الطعام لليتامى والأيامى من النساء والمحتاج كل يوم كأنه وليمة عنده وأخبرن الولي الصالح الأستاذ تلميذه سيدي أحمد بن الحسين انه سمع من الشيخ يقول وجدت تحت الديار زيرين من ذهب أزال عنهما الستر السيل إزالة فهمت نفسي أن ترفعهما فمنعتها ذلك ورددت التراب عليهما فلما أخبرنا بذلك ونحن طلبة عنده فقلت له يا شيخي لو أتيت بذلك فان المحتاج عندك كثير فأجاب بأني لو أتيت به وربما قالت نفسي هذه الدار لا تصلح وكذا الفرس ابن غيرها واشتر أجود منها إلى غير ذلك من شأني كله فلما علمت حالها كان ترك ذلك هو أولى بي وأجدر والإتيان به أمكر وأغدر فتركت ذلك ولقد سمعت من البعض أنه أتي له بمزود صغير من ذهب فقيل له أن أولياء الله يسلمون عليك ويقولون لك استعن بها فامتنع فقال أعطوها للشيخ سيدي أحمد بن عبد العظيم فامتنع أيضا فاتوا إلى بعض

الصالحين في عروس فقال أعطوها لفلان فصاروا يترادونها إلى أن رجعت إلى هذا الشيخ فردها ولم يأخذها ومن كراماته أني سمعت العدل المبرز الصالح سيدي محمد بن الحاج العشباني ثم التفرغوني انه قال مرض الشيخ وذهبت لأعوده فلما وصلت إلى غنمه وإذا بالذئب معها قال فقلت للراعي أتترك الذئب مع غنم الشيخ فقال دعه فانه معها مدة طويلة يرعى معها قال فذهبت وتركته كذلك وكان رضي الله تعالى عنه يلبس المرقعة وذات ليلة ذهب لزيارة بجاية وذهب معه ركب كبير وصيته في الأرض عال فلما وصلوا إلى بني عبد الجبار عزم عليهم الشيخ يوسف بن مهنا رجاء في بركة الشيخ واغتناما لدعوته إذ كان يسمع به من غير معرفة شخصه وكذا جل الناس فلما حان وقت الطعام جمعوا الناس ورتبوهم على حسب عادتهم فاقعدوا المرابطين وذوي الهيآت من الملابس الفاخرة على جهة وكان الشيخ بمرقعته معهم ولرثة هيأته قالوا له قم أنت لا تأكل مع هؤلاء بل كل من أوباش الركب وأسقاطهم فقام من ذلك وقال والله حق ما تقولون ثم وقع النداء والصياح بأن الذي قام هو الشيخ الذي صدر الإكرام من أجله فألحوا عليه بالرجوع فامتنع فأكل مع من ذكر رحمه الله وقدس روحه وأني سمعت أيضا من بعض أولاده أنه قال كان ينهانا إذا سوغنا الخبز بالزيت أو غيره عن وضع الخبز من جهة باطنه فيقول إن ذلك إضاعة للمال وإنما يصلح وضعه من ظاهره اليابس إذ يحصل به المقصود من غير إضاعة المال وكان رحمه الله يصلح للتربية وتهذيب الأخلاق وقال والدي أني لزمته ولم يكن الخير إلا منه فاغتنم بركته وصار في اتباع السنة والورع والتقشف أكثر منه وكان صديقا ملاطفا لجدي والولي سيدي يحيى بن حمودي وسيدي على الصافي وغيرهم فذهبنا إليه ذات ليلة فلم تجد عنده طعاما فلم يتكلف شيئا بل أتى بخضرة الصحراء بعد طبخها وجعل عليها شيئا من السمن والزيت فلما أتى لنا بها لم يعتذر ولم يقل شيئا وقال الوالد والله لم يكن شيء أحلى منها عندهم إذ لولا الحياء لاعتركوا عليها قالوا

وأتينا مرة أخرى فأتى لنا بزير من عسل فوضعه بيننا فعلمنا صدق الشيخ وأخلاص نيته وسمعت أيضا انه أتى لزيارته فرحات بأي وعادة البايات بزارون ولا يزورون وان اعتقدوا أحدا بعثوا إليه ليزوروه في محلهم خوف الازدراء والنقص في حقهم فلما وصلوا أتى لهم بخبز وأظنه من شعير فكسره في الزيت وشيء من التوابل يقال له اجعجوع والزيت لا يأكله إلا الخماس والراعي ومن هانت عليه نفسه فأتى به هو إلى الملوك ثم قام الباي لما أتى به الشيخ ظننا أنه لا يأكله أحد منها فلما بداناه حياء منه وأكلنا منه شيئا وجدناه والله خيرا من سائر الأطعمة التي كانت في الدنيا ولولا الهيبة والحياء لتقاتلنا عليه وغير ذلك من أموره نفعنا الله به وقيل له أصلح بين القبائل الذين بينهم الفتنة فقال والله أحمد الله وأشكره حين عصمني الله منهم بحيث لا يمنعوني عن الصلاة في المسجد فضلا عن أن أصلح بينهم ومع هذا إذا كان العرس ركب فرسه ولعب بها للسنة النبوية وكانت والدة أبي من الصالحات شريفة كوالدتي أيضا وكانت تقسم الليل أثلاثا ثلث للصلاة وثلث للنوم وثلث للذكر وجدي كان عنده الزيتون وسيدي الحسن لا[١] قالت فجعل حظا من الزيتون للشيخ تلتقطه بطهارة وتعصره بطهارة أيضا لتتم معارف الشيخ ونوره ولتغتنم[٢] بركته أيضا رحمه الله ونفع به وأما أولاده فلا تجد فيهم ناقصا بل كلهم على الكمال وكذلك أولاد الشيخ سيدي محمد صالح جل أحوالهم على الهدى وسيدي عبد الله من الصالحين وترك ولبيين صالحين سيدي عبد الرحمن وسيدي أحمد وهما مفترقان في السكنى وقد سمعت أنه قال لي لما تحيرت من أمر السكنى رأيت قائلا يقول لي فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته الآية فسكن موضعا كذلك[٣] وهو المسمى اتروش مستندا

---

(١) في نسخة ليس عنده.

(٢) في نسخة يلتقطه ويعصره وليغتنم.

(٣) في ثلاث نسخ فيكني موضع كذلك.

إلى الكهف كما رآه في النوم كذلك فظهر له الفضل وولده صالحان سيدي عبد الوهاب وسيدي على قد قرأت على سيدي علي الألفية حاصله أولاد سيدي محمد صالح لم يعدموا الفضل وإن كان بعضهم أولى من بعض وكذا أهله أولاد سيدي محمد صالح من قرية بيكني كلهم على الفضل والعلم والحلم والخير خصوصا العالم الفاضل الخطيب المحقق في علم الكلام وقد سمعت ممن سمع من تلميذه سيدي محمد العياضي أنه قال أن الشيخ قرأنا عليه شهرا بتمامه من قوله فعلى العاقل إلى الختم من غير تبطيل دائما إلى الليل نصا واحدا وقد سمعت أيضا أنه قال رأيت الشيخ السنوسي في النوم يضرب برأسي ويقول أنت أولى بكلامي يا مسعود وهو العالم الفاضل سيدي المسعود بن عبد الرحمن آية من آيات الله تعالى وقد تزوجت بنتين من ولده سيدي السعدي وسيدي علي ولده محقق في علم الكلام غير انه لا يصل مرتبة أبيه وكذا سيدي محمد بن الفقيه محقق في الكلام فاضل صالح مشتغل بنفسه وقد أخذ عني الصغرى بأن قرأناها قراءة تحقيق بحاشية المحقق المراكشي وكذا أخذ مني الفقيه الفاضل العالم الأديب الحسيب(١) وهو ليس منهم فنبهنا عليه لأنه من أجل الفضلاء وقد رأى الكاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له يحيى بن حمزة من أحبابي وكفى به ومن الصالحين سيدي الحسين بن حمزة إذ اشتغل بربه ونفسه إلى أن مات نفعنا الله بجميعهم ومن هذه الفئة الأديب سيدي محمد بن حمو وأولاده مثله.

انعطاف بقي واحد من أولاد سيدي محمد صالح سيدي علي بن محمد ظاهر الصلاح لا شك فيه إذ خصاله كلها محمودة ودعاؤه مستجاب كريم على الإطلاق اللهم ارزقه بذكر من صلبه يعمر محله بالعلم والسر والولاية والزهد والكفاف

---

(١) في نسخة الحبيب.

والعفاف نفعنا الله بجميعهم آمين بمنه وكرمه وقد قلت فيهم:

جـــدوا حقايـــا ذا الفـــضل فـــيض ... إذ شهر أنواركم تعطي لنا حلمكم
فقـوت قـربكم يـدي لنـا دررا[٢] ... وحـق أكـرامكم يحظـي لنـا غـررا
فكلهـم أخلـصوا الأعـمال مـن حبـه ... وأظهـروا فـضله كـل قربـه[٣]
أهلـة أقمـر في ظلمـة مـن دجـى ... وعلمهـم أنـوار للـصبح منبلجـا[٤]
فـإنهم في أنهـار العلـم يلتقطـوا ... مـن در عرفـانهم فالكـل ينبسطوا[٥]
قد ركبـوا مـن مطايـا العزمـا وجـدوا ... وحازوا سبقا مضى في كل ما شهدوا[٦]
بالفضل منهم زالت رعونة الأنفس[٧] ... بتمكـين الله حقـا غـير ملتـبس
ونـورهم بـالتقى فغـير مـنعكس ... وجـدهم بالوفـا فغـير منـتكس[٨]
فاسـلموا حـالهم في أيـدي رب المـلا ... وخلـوا حقـا لهـم في كـل مـا يـتلى
فرفعـوا جملـة لكـل مـن قـد أتـى ... بحضرة العز سعيا لـيس مـن قـد عتـا
عـن جـادة وطريـق الحـق مـشرقة ... قد عد ذو القصر حزما كل مقصورة[٩]

---

(١) في نسخة جودوا حقا ذوي فضل بفيض إحسانكم.
(٢) في ثلاث نسخ وشيء من قربكم.
(٣) في نسخة فضله من سطوة قربه.
(٤) في نسخة وعلمهم مثل نور الصبح.
(٥) في اربع نسخ من درر عرفان.
(٦) في ثلاث نسخ

قـد ركبـوا مطايـا مـن عزمـا وجـدوا ... وحازوا سبقا أيضا في كـل مـا شـهدوا

(٧) في أربع نسخ فازالت منهم رعونة الأنفس.
(٨) في نسختين وجدهم بالعز وفي نسخة بالعز جدهم ع غير متكس.
(٩) في نسخة جزما وفي أخرى كل مقصدة وفي أخرى إذ بالخيرات يفوز تابع السنّة.

ومد كلا من الممدود فيما علا وساروا من سرها يدنون من حوقلا[١]
فازالوا حجبا عن لك مستورة فرأوها عيانا في كل مرئية[٢]
فمنهم أحد مؤيد من سما ومنهم من سلب العقل ليس عمى[٣]
فأذهبت قوة لكل ذي صحة واحزنت جذلا لكل ذي قوة
وحركت ساكنا بسطوة الهمة وطيرت أرواحا بريح عاصفة[٤]
وحيرت ثابتا بكل ما قد دهش فأبصرت جاهلا بل ما دق خدش
حتى أوتوا كلهم حكمة رب العلا وصيروا آمنا في ذروة قد خلا[٥]
سواهم معدوم ولن يرموا قل[٦] لمخلوق أبدا خصوصا من قد علا
قد عم ويلهم تحقيقا من في الوطن وكلهم بالرضى من ربهم مؤتمن
عزهم محبوب بكل ما حققوا[٧] وأعلنوا صدقهم بما به وفقوا
وأظهروا مظهرا لنوره كل ما قد ضاق منهم رحب فناؤه قد سما
من صغرهم أجادوا فحققوا ما أتوا[٨] من أوصاف إلى غير أنهم بغتوا
رضى المولى عنهم في كل مسألة سم الخياط أتى أوسع دائرة

---

(١) في نسخة وصاروا من سرها يذوقون من حوقلا وفي نسخة يدنون أهل الملا.

(٢) في نسخة:

أزالوا حجبا جا عن كل مستورة فريت عينا لهم في كل مرئية

(٣) في نسخة فمنهم آخذ من يد من قد سما وفي نسخة ومنهم مسلوب عقل ؟؟ قد هام.

(٤) في نسخة وصيرت رائجا بريح عاصفة.

(٥) في ثلاث نسخ في درة وفي نسخة قد منحوا منا يا خسر من قد خلا.

(٦) في نسخة من سواهم.

(٧) في نسخة من عزهم.

(٨) في نسخة أوتوا.

دمهم شيم يطفى اشتعال نار أحوالهم في الوغى ترد سخط جار[١]
يا رب جد سيدي قبل نزول العذاب بحق من قد سما في كل من انتساب
وان تعفو رجلا[٢] يرعى خواطركم لعل من نفحة أرقى بها إليكم
وجد لنا بالرضى والفوز بالمقعد للنسك متصل والكل في مصعد
في جنة الخلد حقا منه أن ينظروا لوجهه بالرضى مع منحه اعتبروا
للوالدين وللبنين مع من أحب من أخوان وجيران حق من اقترب
علاقة الأزواج[٣] وكل من انتمى من أشياخ آخذ من طالب النعما
ثم الصلاة على محمد ما في السما كذا السلام عليه ماجدا أفخما[٤]
وآله شرفا وصحبه حججا ما دام شمس النهار تقطع الأبرجا

ومن أولاد هذا الشيخ نفعناه الله به آمين سيدي علي بن محمد حي فاضل ذو ظن وحب في الله وفي كل منتسب إليه أفاض الله علينا من بركاتهم آمين.

ومنهم الشيخ الفاضل العالم كبير السن عظيم الشأن سيدي علي الصافي من ذرية الولي الصالح سيدي موسى وسيدي علي هذا أدركناه كان عابدا أقبل على مولاه ضريحه في قريته وأما جده فضريحه عند بني إبراهيم معظم قبره يزار وأولاد سيدي علي هذا أفاضل إلى الآن وهم على خير إلى قيام الساعة إن شاء الله نفعنا الله بكلهم آمين.

ومنهم الولي الصالح والبدر الواضح سيدي السعيد بن الحبيب ومن قرابته

---

(١) في ثلاث نسخ فيا هم شيم وفي نسخة في الوغى تريك.
(٢) في نسختين واجلا.
(٣) في نسخة وللأزواج لنا.
(٤) في نسخة ما جرى فاخما وفي أخرى ما سار في السماء نجما.

الفاضل الصالح سيدي يحيى بن الحبيب وكذا من حلاه الله بحلية القبول وقد غلبت عليه صحبة الرسول منّ الله بفضله قريب سيدي عيسى بن الحبيب وقد أدركته صغيرا وكان عالما فاضلا كريما مهد الله له خلقه ونصره على ملوك زمانه بحيث لا يتعدى الغالب منهم كلامه وقد كان صغيرا طالبا عند الشيخ سيدي الحسن وأشار بولايته وكان إذا أراد أن يذهب إلى بيته يعطي له فرسه يركبها دون سائر الطلبة قيل له في ذلك قال عيسى مرابط وكان كذلك لأن أنفاس سيدي الحسن ما كذبت قط وسيدي عيسى هذا أعطى من الحلم ما لا يمكن أن يعبر عنه وكذا كرمه وقد سمعت من عم أبي قال إني بت عند سيدي عيسى هذا ليلة فلما حان وقت صلاة الفجر وإذا بالشيخ يقول أرأيت بني يعلى فقد انكسروا وأصابتهم جائحة الفتنة وكان الأمر كما ذكر وقال أن بني أحمد أيضا قد أتاهم ذل وفتنة عظيمة وسببهم الشيخ الفلاني الذي حرمه الله من نعائم الدنيا إذ كان يصوم الدهر كله غير أنه من العرفاء [أعني عليا ابن جني إذ قال صلى الله عليه وسلم أكثر العرفاء للنار وأما قليلهم فالمجنة والعراقة المشيخة][1] وقال أيضا أن جميع الرؤساء من الشيوخ أتوا إليه وكل واحد يسره بكلام فإذا قام لي يا سيدي أبا القاسم الشريف كل واحد من هؤلاء إلى النار إلا واحدا أتاه من الشيوخ كلم الشيخ بالجهر ورفع الصوت بين يديه والشيخ كالمغضب عليه فلما انفصل عنه قال هذا من أهل الجنة يا شريف والشيخ هذا [هو عبد الرحمن بن أحمد بن امقدس][2] حاصله كلما قال كان إلا إن البعض في حياته والبعض بعد موته وهو نفعنا الله به يحب الأشراف غاية المحبة يعمل بقوله تعالى قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى وقال صاحب المواهب اللدنية من المعاصي التي لا بد أن يعذب عليها بغض الأشراف واستدل بقوله تعالى قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة مقداش أو مقديش وما بين القوسين ساقط في نسختين.

إلى قوله أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين يعني نفي الهداية عن هذا الفاسق وهو مبغض الأشراف فكان حينئذ الغضب قطعا وهذا سيدي عيسى نصره الله على الخلق زمانه وقد قال بعض العارفين إذا كان المرء عبد الله تعالى أن أظهره نصره وإن أخفاه ستره إذ عبد الظهور عبد الظهور وعبد الخفاء عبد له واللائق أن يكون عبدا لله تعالى أظهره أو أخفاه غير أن الإخفاء هو الكثير إذ الظهور هذا من أوصاف الإله سبحانه لا يشاركه فيه أحد غير أن الخلق عيال الله فلا بد من أحد يصلح شأنهم وشأنهم وذات البين طوبى لمن كان كذلك فيظهر الله بعض عبيده لذلك بأن يخلقهم لمصالح خلقه ويكسوهم من هذه الملابس لتبدو هذه الحكمة النورانية والفائدة الروحانية ليصح نظام العالم الصمداني وليتم الوعد الرباني وسيدي السعيد ذا له قبران قبر عندنا وقبر في برباشة[1] والمدة بينهما نحو من مسافة يوم بالإجمال المثقلة في الأيام القصار أو نصف يوم في غير ذلك ولما تنازعوا على دفنه وكل منهما يسرقه ليلا فيقظ الله كلهم فوجد كلا الفريقين الشيخ في قبره فحصل المقصود للكل والشيخ سيدي السعيد تاريخه من أول الحادي عشر وأولاده وقرابته على الفضل والخير نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم سيدي ناصر الخلقي كان فقيها مفتيا حافظا للأنقال وهو من قرننا هذا ومن الحادي عشر معاصر لجيد والد والدي وأولاده على الفضل والحلم والعلم والحمد لله نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم سيدي أحمد بن سعيد ولي معظم عند بني عقيف ضريحه مشهور يزار وأولاده أفاضل على الخير والطاعة ومن أولاده محب النبي صلى الله عليه وسلم

(١) في نسخة في رباشة.

وأصحابه به الشغف القوي من أجله حتى ظهر ذلك للعامة والخاصة بحيث لا يشك أحد في ولايته وهو من قرننا هذا من الحادي عشر وهو سيدي علي بن حصانة نعم الزوار وفقراء زماننا انتفعوا به أي انتفاع وسمعت من بعضهم انه قال الشيخ علي كان يجتمع مع رجال الغيب ويحضر ديوانهم والله اعلم وكان كريما إذا لم تأته الضيوف يبعث إليهم إذ مهمي ابطؤا عليه ضاق وحزن وان أتوا إليه سر وفرح وقد سمعت حكاية عنه أن صحت وهي مشهورة لدى العامة ونصها أن الشيخ على المهاجري كان زمارا في الأعراس بأن بلغ الغاية في صنعته بحيث يشترطه أهل الأعراس دائما فقد فاق أهل صنعته وهذه صنعة محرمة لأن مثل زمارته تلهي كل اللهو على ما حكوا عنه ولو على قول ابن كنانة الذي يقول بجوازها أن لم تله كل اللهو سيما مع انضمام مفاسد إليها كحضور النساء والشبان والرقص وذكر الخدود والقدود فان كان كذلك فحرام فلا يقول أحد بحليته أبدا أتى إلى هذا الشيخ في حاجة عرس أو غيرها فقضى الحاجة للشيخ على حسن المراد وإذا هو عطفه الله عليه وقال أن مررت بمحل كذا من طريقك تمرغ بالموضع الفلاني فلما وصل إليه تمرغ فيه وكان قبله اجتمع الأولياء ديوانا هنالك فأثر فيه الحب لله بأن صبغ حينئذ قال وبعد ذلك لا أحضر إلا عند رفع العروس لزوجها وأما بعد فاذهب إلى المسجد فاشتغل بالصلاة والعبادة إلى أن يطلع الفجر أو ما شاء الله والناس يظنون انه هو الذي يرقص ويشطح ويغني وليس كذلك وإنما خلق الله صورة شيطانية مثل صورته (مع أنه لا آثم عليه فضل منه) ودليله خلق الله الملائكة على صورة الإنسان تفعل الطاعة ويكون الثواب للإنسان فقد قال صلى الله عليه وسلم أن الإنسان إذا اغتسل من حلال يخلق الله من كل قطرة منه ملكا يعبد الله تعالى إلى قيام الساعة وثواب ذلك للمغتسل أو كما قال صلى الله عليه وسلم أي تفعل ما يفعل وهذا أن صح عنه فغير بعيد غير أنه واقع والله أعلم ويدل عليه أني صغير في بني عيدل فذهب كلب إلى قبره

فاستخرجه منه فلم يتغير منه شيء والمدة التي بين إخراجه وأقباره سبعون أو ثمانون سنة فالغالب من ذلك أنه من الذين يحبهم الله ومن أحبه فلا سبيل للأرض عليه وأحوال الشيخ كثيرة نفعنا الله به آمين وولداه على الطاعة والخير والحمد لله وقد أدركتهما أحدهما سيدي إبراهيم وهو كبير السن والناس يعتقدونه ويعظمونه والآخر قد مات وكانت طريقه كأبيه سيدي محمد السعيد نفعنا الله بهم.

ومنهم الولي الصالح ذو الكشف الواضح سيدي محمد ومثله في ذلك مع زيادة في العبادة سيدي محمد[1] بن علي ومثلهما في ذلك أو أعظم سيدي يخلف إذ كلهم في القرن الحادي عشر متعاصرون نفعنا الله بهم غير أن طريقهم مختلفة أما الشيخ سيدي محمد بن علي يتبع لسان العلم وكثرت عليه المجاهدة حتى أثرت فيه تأثيرا قويا إذ غلب عليه حال الخوف وأما سيدي محمد امشالي[2] فقد غلب عليه الجمال وأما سيدي يخلف فقد كثرت عليه الخلوة والاعتزال بحيث إذا بقي في موضع مرئي للناس جازوا عليه ولا يرونه أصلا وهو صاحب كشف عظيم لا يكاد يخفى عليه أمر كما أخبرني من رآه وصحبه وهو أمي لا يقرأ وهو من المغرب ومثله ولده سيدي الطاهر في الخلوة والاعتزال ورؤية رجال الغيب وقوة الكشف وأما امشالي فانه من بني يعدل أي بني جعفر وأما سيدي محمد بن علي فمن بني يعلى وأولاد الجميع على الخير والطاعة والحمد لله.

تتمة أما سيدي محمد صالح فجده أبو محمد صالح الدكالي المعلوم وأما سيدي أحمد ابن سعيد وأولاده فمن أولاد دراج لأن طائفة من بني عفيف منهم وأما سيدي السعيد بن الحبيب فمن وانوغة وأما سيدي علي الصافي فلا أدري ذلك والله أعلم.

---

(١) في نسخة أحمد.

(٢) في نسخة امشامي.

ومنهم سيدي يدير الحاج فولي من أولياء الله تعالى شريف وأولاده فحول وذوو فضل وعلم وحلم وعبادة منهم سيدي علي بن الطيب وسيدي محمد بن الطيب وغيرهما وسيدي محمد السعيد بن أبي القاسم وسيدي الموفق وأولاده وغيرهم فهم أهل خير وعبادة وجد فيها وهم من بني يعدل نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم سيدي محمد الشريف وأولاده سيدي عبد الله وغيره فهو رجل صالح وهم قرباء لسيدي الصادق وإنهم من بجاية وكذلك سيدي الصادق من بجاية أيضا.

ومنهم أولاد صالح فهم على الخير والفضل والقراءة وهم من جبل عياض نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم الولي الصالح والبدر الواضح سيدي يحيى بن موسى فقد ظهر أمره ظهورا فاشيا يزار دائما وسيفه ماض لمن يتعدى على أولاده وذلك مجرب صحيح لا يكاد يخفى على أوباش العامة فضلا عن الخاصة وقد علمت من أهل بلدنا أن دعاء سيدي يحيى بن موسى هو سبب الشر الذي أصابهم حتى افتتنوا ومات من جميعهم نحو الثلاثمائة من غير حق وإنما هو أمر الشيخ جار عليهم وهو من تلامذة الشيخ سيدي يحيى العيدلي وسببه انه ذهب للشيخ ليسرقه فدخل موضعا مختفيا وأظنه موضع الدواب ظنا منه أن دار سيدي يحيى مملوءة بالأمانات ولعله يتصل بشيء منها وهو ممن سبقت له السعادة والعناية فلا تضره حينئذ الجناية فبعد العشاء اجتمع الأولياء عند الشيخ على واحد من الأولياء مات لينظروا من يرجع في محله ومقامه ولما استقر بهم المجلس وقربهم الأنس سألوا الشيخ سيدي يحيى عمن يصلح فقال ايتوني بذلك الذي كان مختفيا فاطلعوه وعقدوا له ذلك فوصل من حينه لأن الولي إذا أراد ؟؟ وقالوا أيضا عزم الولي اقطع من السيف وقال أبو الحسن الشاذلي نعم الرجل

أبو العباس المرسي يأتيه الرجل البدوي يبول على ساقيه فلا يمر عليه يومه حتى يبلغه لله فكذلك عمل الشيخ سيدي يحيى لهذا الشيخ قيل انه لما رجع صبيحة تلك الليلة كان كل من لقيه من الرعاة أو غيرهم قبل يده وطلب منه دعوة الخير بعد أن كانوا اليوم الذي قبل ذلك يتحاذرون منه ويتنافرون من أجله بالكك سي يحيى بن موسى والله سبحانه يفعل ما يشاء نفعنا الله به آمين وهو من القرن التاسع وأولاده على القراءة وإطعام الضيف والطاعة والفضل سيما العالم الفاضل الولي الكامل سيدي يحيى بن حمود[1] وقيد قيل انه يجتمع مع رجال الغيب وانه يشتري لهم قدرا معلوما من الثياب وهو تلميذ سيدي علي بن طالب وهو طامة كبرى وكذا أولاد سيدي يحيى بن حمود سيدي أبو القاسم وسيدي أحمد كلاهما على العلم والفضل والكرم والنصيحة والأخلاق السنية نفعنا الله بهم.

ومنهم أولاد العقاري[2] فيهم العمل والعلم والصلاح غير أنهم قد انقرضوا فهم من أولاد سيدي عمر العجيمي.

ومنهم أولاد سيدي على امداح ظاهر الصلاح أيضا وولد ولده فيه الفضل والقراءة والنجاح نفعنا الله بجميعهم آمين.

ومنه الشيخ الولي الصالح العلامة الواضح سيدي محمد الصغير صاحب جد واجتهاد في العبادة أولاده وقرابته على الخير والطاعة والصلاح وكان رحمه الله تعالى يحب الأشراف حبا قويا بخلاف غيره وهو من الحادي عشر.

ومنهم الولي الصالح العلامة الفاضل والمحقق الكامل والنقاد الأبريز سيدي

---

(١) في نسخة حمودي وفي أخرى حمودة.

(٢) في نسخة الغفاري.

علي بن عبد العزيز من ذرية سيدي أبي الحسن الشاذلي كما كان بخط الجم الغفير والعدد الكثير انه من ذريته وهو نجل الشيخ الولي الصالح سيدي عبد العزيز الخراز أما قبر سيدي علي فهو في بني إبراهيم وأما ضريح أبيه سيدي عبد العزيز فهو في الزاب أي في الصحراء وهو معلوم في بلد الدوس نفعنا اله بهم وكراماته ظاهرة وأسراره باهرة صاحب العناية وقد سمعت أنه أخذ علمه عن الشيخ الولي سيدي عمر الوزان القسنطيني وكان رضي الله عنه بنى دارا واسعة عظيمة بحيث لا يكفيها جذوع الأرض والذي رآها يتعجب بما يكون به السقف وقد رأيت رسمها فلما كملت أصبحت الجذوع على الدار أي القناطيس من جبل الزان[1] وبيننا وبينه يوم كامل وقد عملوا ذلك من خرق العادة وقد رأيت المورد العذب لابن الجوزي بخطه وأولاده أفاضل على الخير والطاعة والحمد لله وهو من القرن العاشر أي أوله ولا أدري هل أخذ من التاسع أم لا نفعنا الله ببركته وجعلنا في زمرته آمين.

ومنهم الولي الصالح جدنا سيدي أحمد الشريف نسبا إذ ثبت ذلك وهو الشريف الحسني والذي سمعناه من أعالي أسلافنا انه من شرفاء تفلالت وأما مقره ومقر أوائله فمن بجاية وجدنا هذا نجل الشيخ سيدي علي البكاي وكانت له زاوية عظيمة وقد سمعنا انه قدم بخمسمائة طالب إن صح وقد ثبت عن بعض الثقات من بني يعلي أن طلبة الشيخ في محله إذا قرءوا الحزب سمعوهم من بني يعلي يعني من مدشر الخميس وهو الكدية ومدشر الذراع وكان رحمه الله يجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم والمحل الذي يجتمع فيه إلى الآن معروف بعلامة ظاهرة وقبره يزار وقد سمعت العدل الصالح بلا شك سيدي محمد الحاج حين بتنا معه ليلة الجمعة في روضته فلما أخذنا النوم واستولى علينا ولا أدري جاز الليل على النصف وهو الظاهر

---

(١) في نسخة الزاب.

مع جماعة من الطلبة فاستيقظنا من النوم وأتينا إلى محل الافتراق[1] ثم إن بعض الطلبة سأله عن الحكمة في إتياننا نصف الليل وثلث الليل الأخير أولى فقال أعلمكم غير أنكم لا تخبروا أحدا إلا بعد موتي فعاهدناه على ذلك فقال لما نمتم وإذا برجال الغيب يجتمعون إلى أن امتلأ الموضع ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وسيدي عبد القادر الجيلاني أيقظتكم والحمد لله على ذلك وقد سمعناه أن الديوان يكون ليلة الاثنين والجمعة غير أن الاثنين بالشيخ سيدي عبد القادر وليلة الجمعة بالنبي صلى الله عليه وسلم ولما بنى داره قال لبانيها أرسل نفسك من غير سلم فأبى فقال له والله لو أرسلت نفسك لوقعت في الكعبة وقد سمعنا أيضا إن من بات عنده في روضته سبع جمعات متواليات قضيت حاجته أي حاجة كانت دينية أو دنيوية ومن كراماته أن سيدي محمد الجوادي أعني الذي كان في صدوق المشهور ولايته أخذ عنه وكان شيخا له فلما قربت وفاته قال له إذا مت من أشاوره بعدك فقال له أنا قبل وبعد فلما مات كان الأمر كذلك فصار يكلمه من قبره إلا مرة واحدة أتى إليه ليشاوره في أمر فنادى الشيخ على عادته فلم يستجب له أي لم يجبه فبكى من ذلك وظن أن المانع منه فمكث غير بعيد وناداه مرة أخرى فأجابه فقال له أين كنت قال كنت عند الشيخ سيدي يحيى كان غائبا أمدا طويلا عن الأرض فلما رجع ذهب الأولياء إليه فذهبت إليه وكان ولده سيدي يحيى في بجانة. [أما بنو عشاش من بقية عبيد جدنا وقد خرجوا عن طاعتنا وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرجت طائفة باغية من بني إبراهيم وهي وسر وأولاد الخلف ومن[2] أراد الحرابة والزنى والسرقة فليتحصل بهؤلاء العروش أخلى الله منهم الأرض وقد أعانني فيهم المجاهد في سبيل

---

(١) في نسخة الافتراء.

(٢) في نسخة من بني إبراهيم وهي قرية وأولاد خلف لمن أراد.

الله القامع للمتمردين سيدي أحمد باي إذ نصرني وأعطى[1] أمر المحلة في يدي وأحرقت أولاد الخلف وقرية وسر وسكانها وبني عشاش وفي تلك السنة جعلت عليهم وأمرت الخليفة أن يأخذ منهم مائة وسبعين إلى أن يتوبوا لله ولرسوله ويرجعوا إلى الأحكام الشرعية أزال الله منهم ذلك ولنرجع إلى ما كنا بصدده وكان جدنا سيدي يحيى في مجانة][2] بأهله مكث فيها عشرين سنة وكان يركب معه من مماليكه ثمانون عبدا فأرادوا غدره فقال الشيخ له قل لولدي يحيى أنت نائم وأرادوا قتلك فأنا الذي أيقظتك حتى ركبت فرسك ونجوت منهم وكان يقول أن يحيى يحيى الدار ثم بعد ذلك رجع إلى وطنه لما قضى[3] الله أمرا كان مفعولا وكانت عنده بنتان كل واحدة منهما نسخت التوضيح وقد سمعت سيدي الطاهر الشريف انه قال أحد المنسوخين في فملال[4] إلى الآن وكانت عنده خزانة عظيمة بحيث لا توجد عند غيره ولما سلط عليهم الوباء ولم يبق إلا ولدان صغيران ضاعت الكتب والأملاك البرانية التي في بني عبد الجبار وسلالته أولاد عيسى بن عبد الله فأن بقية منها في الزاوية[5] وادعوا بعد ذلك أنها لهم نفعنا الله بهم ومن أولاده الفاضل الكامل الفقيه الورع سيدي الحسين جدي إذ كان مدرسا دائما يحفظ الشيخ سالما ينسخ منه كل ليلة نصف كراسة في القالب الكبير أخبرتني بذلك زوجته والدة أبي وهو يدرس إلى أن مات وكان يفتي ولا يقبل الهدية من أحد وكان النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أمره بالفتيا على لسان بعض من يراه يقظة من المحبين له وكذا والدي في غاية الاتباع

---

(١) في نسخة وأعظم أمر المحلة في يدي.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسختين وفي نسخة موجود بين قوله قضى الله أمرا كان مفعولا وقوله وكانت عنده بنتان.

(٣) في نسخة رجع إلى وطنه إلى أن قضى الله.

(٤) في نسخة ملال وفي نسخة عملان وفي أخرى فعال.

(٥) في نسختين وسالته وأولاد سيدي عيسى بن عبد الله أن بقيت في يد الزاوية.

أكثر من أبيه تؤخذ السنة من كلامه ومن أفعاله فالمدخل والشيخ عبد الله بن أبي جمرة وابن عطاء الله والشيخ زروق أمامه وقد علمت من جعل واحدا منهم قدوة كفاه فكيف بالجميع قلت وقد أخبرني بان قال رأيت جدي هذا قال فقلت له أعطني سرك فقال سري مقسوم بين أولادي ولا أدري هل زاد له وأنت لك الحظ الوفر أم لا نفعنا الله بهم آمين.

ومنهم الولي الصالح سيدي محمد بن علي إذ كان هو المتصرف في الأوطان بإذن من له الحكم من بجاية وهو الذي مسك جدي في هذه البلدة وزوج بنته له وهو الذي أمر الناس بأن بنوا له وهم بنو يعلى قيل أنه هو الذي تسبب في إزالة الميراث بان كانت البلاد في أيدي الخوارج فلما حاربوهم وقاتلوهم أجلوهم من بلادهم فبقيت في أيديهم فجعلها للرجال فقط فلما سمع الشيخ الفقيه الولي الصالح سيدي محمد بن مصباح أنكر ذلك إنكار كليا وقال الشيخ يبقى هذا سنة إلى قيام الساعة فقال الذي قاتل هم الرجال فالآن لهم ويكون بعد على فرائض الله تعالى والحق ما قاله الشيخ قدس الله روحهما ونفعنا بالجميع بمنه وكرمه.

لطيفة فان قلت وكل ما ذكرته من الأولاد على خير وفضل وعلم وحال وحلم مع أن في ذلك أمورا لا تليق وأكثرهم على المخالفة والبدعة بل ربما على ذلك(١) قتل النفس بغير حق فما وجه صنيعك قلت الأمر كما ذكرت غير أني قصدت أمرين أحدهما الستر على سبيل الجملة لأنك إذا سئلت عن قوم فيما بينهم وبين الله فقل هم بخير خصوصا أولاد الصالحين وأيضا أردت زيارتهم بالثناء عليهم فهم أحياء في قبورهم ومن ذم ولدك وأنت تسمع تغيرت عليه وإذا تغيرت لا ينتفع منك من تغير عليه وأيضا مرادي من كان على طريق الجد المذكور والابن الخارج عن نمط الأب

---

(١) في ثلاث نسخ ربما زاد إلى المجمع (وفي نسخة الجميع) عليه سيما قتل النفس.

ليس بابن قلب الآن ولد القلب يرث الباقي وولد الصلب يرث الفاني وإذا كان ولدك على طريقتك فانه يرثهما معا وان كان ولد الصلب فانه يرث الفاني فقط وبالجملة فاني ذكرت أولياء الله في وطننا ولعل الله بذكرهم يزيل الحجاب عنا ويرزقنا الوهب الرباني لي ولذريتي ولمن تعلق بي وان يحفظني من العوائق عن الوصول إلى الله وإن يجمع شملنا ويرزقنا ما زرق به أهل وده وليس لك إلا بالتسليم لهم مع محبتهم وكذلك بالتعظيم لأولادهم لقوله تعالى وكان أبوهما صالحا قيل الجد التاسع ونسبة المفضول للكامل من باب نسبة ما للجزء للكل مجاز كما ذكر(١) اهـ

انعطاف بعد ذكر أهل وطننا فإن فيه زيادة وتنبيها على بعض أوصافهم الحسنة لتزداد النفس رغبة فيهم ورجاء أن تكون همتك كهمتهم فإن الرحمة تتنزل عند ذكرهم.

فلما حان السفر وآن حاله ذكرنا بعض ما ورد ذكره وصلينا الصلاة الواردة وختمنا بالصلاة في المسجد ثم أتينا أهل البيت والخدام والطلبة والجيران ومن أتى يودعنا ودعوا لنا ودعونا لهم وعند ذلك رفعنا ما يحتاج الرفع وانفصلنا على حسن الانفصال ووقع البكاء والصراخ من أهل البلد لما كان من أنسهم بنا إذ اعتقادهم ما دمنا معهم لا يقع بهم إلا الخير والبركة وكل ذا بعد التحيل على المنع من السفر أصلا ورأسا فلما امتنعت كل الامتناع لم يبق إلا الصبر والتسليم لله في حكمه وإبرامه وقدرته وأرادته وعلمه لأن القلوب قد تعلقت بالمصطفى صلى الله عليه وسلم فسهل عليها الفراق من أجل ذلك قال تعالى النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم الآية فإذا كان النبي أولى من النفس فكيف يبقى التعلق بالأزواج والذرية والمال بل المتروك كالعدم بالقياس إلى المطلوب إلا ما ألزمتك به الشريعة من الوصية على

---

(١) في نسختين ونسبة الفضل للكلي من باب نسبة ما للجزء للكل مجاز لما ذكر.

الأولاد والنفقة على من تلزمك نفقته لأن الذي ذهبت إليه هو الذي ألزمك بها فلما جهزنا الأمور، ووفينا المسطور، أخذنا في الظعن والذهاب، ومع ذلك كثر من الناس الارتقاب، وبعضهم لا ريه بعضهم لزوال الأرتياب، فأكثرها بالإحالة إن شاء الله على الاياب، فحينئذ نمشي خطوة بعد خطوة مع التوديع جملة وتفصيلا وقد قلت:

حقـي عـلى الأوطـان بالرعايـة وحقهـم عـلي بالهدايـة
مـا أصـعب التوديـع للأحبـاب وعنـده بـالحزن واكتئـاب
وكـل نفـس تـزعج للافـتراق لفقـدان المـألوف باختنـاق
حبيبكم بويـل منـه قـد رجـع[١] وسـمه للعظـم مـنكم قـد قطـع
فـالعين قـد تبخـل[٢] بالـدموع والكبـد محـروق مـن المـودوع
دمـوع يخشى عليـه منـذ فـرق[٣] كـالمجنون المـصاب حقـا بـالقلق
ونفـسه كأنهـا في النـزع وقلبـه منـصدع بـالروع
فأشـد النيـران نـار بـافتراق لعمـركم قـد هبـت[٤] نـار باحتراق
فتحويـل الوجـه عـن[٥] الـوداع بـشدة يرجـع بانـصداع
أيتهـا الـنفس تحمـلي واصـطبري لتوديـع الـصحب لخـير وخـير[٦]

---

(١) في نسخة حبيكم اليوم منه وفي نسخة حبيكم بومل سنة.
(٢) في نسخة تهمل.
(٣) في نسخة يغشي وفي نسخة دموعي وفي أخرى عليه متدفق وفي أخرى دموع غاشية عليه قد فرق.
(٤) في نسخة:

فاشـتدت النـيران بـافتراق لعهدكم

وفي ثلاث نسخ هانت نار وفي نسخة هابت أو هافت.
(٥) في نسخة عند.
(٦) في نسخة لتوديع المحب وفي أخرى أيتها النفس بالله فاصبري * لتوديع المحب وكل خير.

فموتهم أحـــل بالاتفــاق ... وسيرهم يسير بارتفاق
لاكنه الحبيب منك قد نسخ ... ما قد عسى يكون مما قد رسخ[١]
بل حبه اشغلكم على الدوام ... فانه غيبكم عن الآلام
فلم ترض الأزواج غير من قصد ... ولم تسع لغيره مما تريد[٢]
وإن طال العهد عن المودوع ... فلم يضرنا هذا المتبوع[٣]
وكيف ذا منا لنا مما ذكرا[٤] ... من أولياء وصلحاء قد يعتبر
فناه محبوب من الإرسال ... فانه الكل بالابتهال
بجاهه وجاه من زبرته ... من عالم وفاضل قيدته
بنصيب وحظ[٥] منه وافر ... وعودة عديدة وناصر
على الذي أحييته من سنة ... وانشرن لواءها بعزة[٦]
على ساق الجد تكون قائمه ... مع شدة الحزم تكون دائمه[٧]
بحقه مما بنا قد اعتلق[٨] ... من أولاد ومن بنا قد اتسق
خالدة تليدة لا تنتزع[٩] ... كلية العلوم حقا تتبع

---

(١) في ثلاث نسخ ما عسى أن يكون.
(٢) في نسخة غير مقصد ولن تسعى لغيره مرتدي وفي نسخة ولم تسع لغير ما تريد.
(٣) في نسخة هذا المتزوع وفي نسخة فلم يضرها من هذا المتبوع وفي أخرى عن الموعود.
(٤) في نسخة لنا حنا مما ذكر في نسختين ذا لنا منامما ذكر.
(٥) في نسخة أجعل لنا نصيبا.
(٦) في نسخة وانشر لنا لواءها.
(٧) في نسخة الجد كي تكون.
(٨) في نسخة التصق.
(٩) في ثلاث نسخ خليدة وتنتزع وفي نسخة خالدة تليدة تكيدة.

مــن أبنــاء وأبنــاء الأبنــاء　لغــابر الــدهر مــن أولاء[١]
واغفــر لنــا ربنــا ثــم الوالــدين　وأخــوان وجــيران والمــسلمين[٢]
ثــم الــصلاة والــسلام مــا طلــع　شــمس ونجــم في ســماء قــد ســطع[٣]
وآلــه وصــحبه ذوي التقــى　والزهــد والعلــم ومــن قــد ارتقــى

نعم خرجنا يوم الخميس لما فيه من التيمن والبركة، في كل سكون وحركة، كما روي عنه صلى الله عليه وسلم ثم بقينا كذلك على التوديع إلى أن غربت الشمس بل إلى صلاة العشاء والناس تقدم إلينا لتذكرنا الانفصال، والافتراق والانتقال، فحصل مبيتنا في بني حافظ، فودعنا كل حبيب وعدو ورافض[٤]، هذا وان أولي القربى من أهلنا الأشراف، حصل منهم اللطف والألطاف، وقد قاموا بمن نزل بهم بحق الضيافة، وبات عندهم أضعاف مضاعفة، كثر الله رزقهم، ومن كل بلاء حفظهم، فلما أصبح الصبح وتنفس، أخذنا في الرحيل أمننا الله من كل بأس، وظعنا من تلك القرية مودعين كل فاضل وعشير وعشيرة وعترة وانفصلنا عن الأفاضل وغيرهم قاصدين بني يعلى فبلغنا محل المدرس الفاضل، والعلامة الكامل، المحب على الدوام، المحقق الهمام، ذي الفضل والنجاح سيدي الحسن بن مصباح رحب الفناء، عالي السناء، شامخ البناء، كل خير منه قد دنا، وقد فرح بوصولنا واحضر الطعام، فأكل منه القانع والمعتر بالتمام، ووصولنا عند الضحى الأعلى، فكان محل الرفيع قد امتلأ، بأفاضل الخاصة والعامة من بني يعلى، ثم سألنا الله جميعا بقلوب خاشعة، والسن متضرعة، واجباح خاضعة، بلوغ المنى، والوصول إلى مكة ومنى، وغير ذلك

---

(١) في نسخة من الأبناء وأبناء الأبناء إلى غابر.

(٢) في نسختين كالمسلمين وفي نسخة واغفر لنا الهي.

(٣) في نسخة في السماء.

(٤) في جميع النسخ رافظ.

مما به الاعتناء، فودعنا بعد ذلك من يريد الرجوع، ثم بعد أخذنا في الطلوع، لدار طب الزمان، وقمر الأوان، ولي على الإطلاق، وزاهد بالاتفاق، من يطلب رضى الرحمان، باتباع النبي العدناني، ناصح الأمة، وناصر الجماعة، ظاهر البركات، سيدي بركات، فدخلت بيته، وزرت زوجته، نخبة تعلى، وهي صهرة لي، من الصالحات القانتات، الصادقات الصابرات[١]، فلم تملك نفسها عند المفارقة، وهي بقدرة الله مشتاقة، فدعت لنا من صميم القلب، وخلوص اللب، وكذا أولادها ثم ودعناها أيضا، نطلب الله الرضى، فخرجت وما زلت أودع، الأحبة والمتبع، فمشينا تلك العقبة، فوصلنا قبر كامل من النقبة، ذي الهيبة والحيا، سيدي محمد بن يحيى، بخشوع وارتقاب، والدعاء عنده مستجاب، فصلينا الظهر عنده، طالبين رضاه ووده، وصلت تلك الجموع، فرجع المودع وذهب المودوع، طالبين الأمان، وودعنا سيدي الحسين[٢] ومن معه من الإخوان، فذهبنا إلى زمورة فبتنا فيها ثلاث ليال، لتكميل ما خص من حالهم وحالي، وليلحق أيضا ما بقي من التالي، فخرجنا يوم الأحد، معتمدين على الله الصمد.

وزمورة كثيرة المياه، وأرضها ذات زرع وضرع بلا اشتباه، طعامها جيد، وسوقها عامر مفيد، وفيها برج للنوبة من الترك، حفظها الله تعالى من أكابر المعاصي والشرك، وفيها قائد، ولأهلها سائد، بهم يظلم، وكيدهم في نحورهم دائم، يسعون بعضهم بعضا، قد أهلكوا ولم يكن من الله الرضى، وبسبب ذلك اضطرمت نار الفتنة، وحقت عليهم كلمة اللعنة، فليس يقبل منهم الاعتذار، لأن القاتل والمقتول في النار، بأنفسهم عذبوا وبرأيهم أصيبوا، أزال الله منهم هذه الأوصاف، ورزقهم تحف الألطاف، رزقها رغد، وخيرها مدد، وقال الشيخ سيدي علي بن أبي زيد فيا

---

(١) في نسخة العابدات.

(٢) في نسختين الحسن.

فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون قليلة الأشجار، [كثيرة الإسفار(١)، وأما بلدنا فهي قريبة منها على مسيرة أقل من يوم وبلنا كثيرة الشجر(٢) من زيتون وعنب وتين كثيرة الفواكه إلا النخل والليم فليس فيها وما ذكرنا من بني يعلى وزمورة وطن واحد كثير الأمطار والعيون ومع ذلك كثير المعاصي والبدع، وقل الحكم فيها وارتفع، وزاد لما ذكر فنساؤهم باديات مكشوفات، هداهم الله لحجبهن لأنه من أعظم الآفات، وإنها كثيرة الثلج ومع ذلك يقولون انه زبل البلد ومهما كثر كثر الزيتون وزمورة علمها قليل، وجهلها جليل، كثيرة اللهو واللعب، نائية التواضع والقرب، قل فيها الاعتبار، والزاهد في هذه الدار، والشارب من كأس الحب بالإكثار، وفيها من أجل الطلبة وأفاضلها من قل أن يأتي به الزمان، ويسمح(٣) به الأوان، فاضل على الإطلاق، ومحب بالاشتياق، مشارك الفنون، أديب متمكن في المعالي فحلا في العيون، ومقبول عند الوجوه، له طلاوة وحلاوة بما لا يعنيه لا يفوه، ولي إن شاء الله عن كل ما يشين بعيد، سيدي محمد السعيد، ومثله بل زاد عليه حسن الخلق، الفائز بتادية الحقوق، سيدي محمد بن عبد الله ومثلهما سيدي المبروك الشوثري فانه أمثل أهل زمانه كثير الحفظ إلا أنه لم يستمد من الأشياخ وهو أنسب من غيره فتح الله عليه وكذا سيدي الطاهر الشوثري فقد رأيت رسومه فلا بأس بها وفيه الفقيه المسن ذو الأخلاق العلية والأوصاف السنية سيدي أحمد الشوثري وقد انتقل وتركته متوطنا فيها وفيها سيدي علي بن الطيب فقيه حافظ للأنفال، وفقه الله وإيانا إلى صالح القول والأعمال، وغيرهم مما لا نسبة له من العلم وإن قلّت.

---

(١) في نسخة الأسعار.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٣) في نسختين يصلح.

ثم مشينا من زمورة صبيحة الأحد ومع ذلك خرج معنا جموع من الناس فمنهم من وصل إلى أطراف العمارة ومنهم من وصل إلى قرب الوادي ومنهم من وصل إلى عقبة زمورة وكلهم محبة في الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وأمة محمد بخير فلا بد لهم من المحبة وهي على قدر الإيمان ومنهم من ذهب معنا إلى أولاد يحيى فوصلنا قرب المغرب فلما سمع شيخهم وهو الفاضل الشيخ ابن عثمان فأقام بضيافتنا وأحسن وأكرم الحجاج وأطعمهم في بيوت الشعر إلا أنها بيوت المستقر[١] وأقرهم[٢] وأنسهم وتأدب معهم فلما تنفس الصبح، أتانا وإياهم بالربح، أخذنا الطريق، وودعنا من بقي من الرفيق، وهو سويد اللب، وولد القلب، سيدي محمد بن عبد الله ومن معه من أصحابه ومن معنا من المحبين من أولاد سيدي أحمد بن التواتي وصاروا إلى بيوتهم مُثيبين، وإلى بيت ربنا كنا متوجهين، إلى أن نزلنا عند قائد العزلة في وادي بوسلام، وأقام بضيافتنا بالإكرام التام، والبسط العام، الشيخ ابن حمود[٣] ثم ظعنا صبيحة يوم الثلاثاء إلى أن وصلنا إلى قصر الطير، فحططنا به الرحال مع الغير، وتلاقينا مع الحجاج، ومن يريد الزيارة بلا احتجاج، ووصلنا عند الظهر، وانتفى علينا وعليكم البأس والضر، فوجدنا هنالك ما كان كالشقيق، سيدي أحمد الطيب وأولاده وسيدي أحمد بن حمود[٤] وأصحابه فكان ما رمناه بالتصديق، فاجتمع هناك فضلاء ونبلاء وأولياء وصلحاء بالتحقيق، وكل يوم والحجاج تأتي من كل فج عميق، فلما اجتمعوا، واشتروا وباعوا، اهتموا بالرحيل ثم إن كل فاضل وعالم وذي خير وراغب من قصر الطير إلا أتى إلى الركب يزوره ويقتبس نوره إلا

---

(١) في نسخة وامعن بيوت الشعر إلا أنها بيت المستقر وفي نسخة واعطى بيوت الشعر وقربهم وفي نسخة وأطعم وهم بيوت الشعر لأنها أطيب المستقر فلما تنفس الخ.

(٢) في نسخة وقربهم فلما تنفس الصبح.

(٣) في نسخة حمودي وفي أخرى حمودة.

(٤) في نسخة حمودي وفي أخرى حمودة.

أن قائده وشيخه الأول ابن يلس والشيخ أحمد بن الصخري[1] نجل الشيخ أبي عبد الله بن سعد بن السعد[2] ولم يرد الله بهما خيرا فلم يتكرم أحد منهما بطعامه ولا بشعيره على الحجاج فانهم وفد الله ووفد رسوله صلى الله عليه وسلم وقال تعالى ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني حرموا فحرموا.

وقصر الطير بادية وهو من أحسن الأوطان وأكرمها قل ألا يكون فيه الخصب وعشبه أخضر ولو في الصيف والخريف وفيه مكان يقال له المرجة من حفر فيه مقدار ذراع وجد الماء عذبا سائغا شرابه وزرعه كثير وكذا ضرعه وبالجملة فخير هذا المكان منتشر مشهور وأهل الخير فيه كذلك غير أنهم من العامة وأما الخاصة فلا غرابة في حصول الخير منهم حاصله هذا الوطن ينبغي أن يكون مدينة إذ جمع فأوعى نعم قل إن يشكر أهل نِعَمَ الله والاستقامة أيضا فتجدهم لا يدوم لهم الحال، ولا يستقر لهم النوال، بل يسرع إليهم التبديل والزوال، والسلب لأموالهم والانتقال، وقد قال صلى الله عليه وسلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم فان خرجوا من وطنهم تشبثوا وتعلقوا، وإن رجعوا مكروا وتزندقوا، فسلطوا بأعمالهم، وأصيبوا بأحوالهم، اللهم أرحم جميعهم وأهدهم إلى الصراط المستقيم ومن الأفاضل أولاد الكتف سيما عوض ولدنا العلامة سيدي محمد الكتفي ومثله سيدي يحيى وسيدي محمد الزواوي وابن عمه سيدي محمد بن جد[3] وسيدي محمد الصحراوي وأولاد عبد الواحد فيهم أفاضل وأما الفقراء المخمرون بحب الله وحب رسوله لا يحصى عددهم من أولاد سي أحمد وأولاد الكتف[4] وأولاد الزعيم وأولاد المداس

---

(١) في ثلاث نسخ السخري.
(٢) في نسخة السعيد وفي أخرى الصد.
(٣) في نسخة جدي.
(٤) في نسخة الكتفي.

وصاحب القبر المشهور في رأس الوادي نفعنا الله بجميعهم ثم ظعنا إلى أولاد موسى بن يحيى وكانوا محاربين لا يمر أحد على طريقهم وهم على ذلك إلى أن سلط الله عليهم الشر حتى عاشرتهم[١] مع حسن ظنهم فينا فأمرتهم بترك ذلك ليكثر عندهم الخير فامتثلوا فأفاض الله عليهم بكثرة الأموال ورأوا الشيء عيانا فنزل الحاج في وادي رأس إسلي عند العين في رأس الوادي وأنا وأصحابي مررت إلى أن وصلت إلى الولجة في أرض الحضنة لأولاد دراج أعني أولاد ناصر عند أولاد الشيخ الولي الصالح، والبدر[٢] الواضح، سيدي رحاب محل العلم والحلم والفضل والأدب والشرف، خلفا عن سلف، فقد زاد الفضل والحمد لله في الأواخر واستقر بنا الحال في بيت الفاضل الفقيه سيدي عبد الله بن رحاب وكلهم فضلاء وأدركت منهم الأخيار سيدي محمد الحاج ما رأيت مثله أصلا وسيدي عبد القادر وسيدي رحاب وسيدي محمد بن إبراهيم وإخوانهم نفعنا الله بهم.

ووصلنا قرب العصر إليهم وأقمنا عندهم يومين فاشترينا بعض الجمال هناك وأولاد دراج طائفة من العرب وقد رأيت في بعض الطرر انهم من ربيعة وكذا مقدم وأولاد رحمة وأولاد مخلوف[٣] فمهما طغت أحدى الطوائف إلا أغرمت الأخرى[٤] وبلد هؤلاء الصحراء وحرثهم على الحي أعني أودية تنحدر[٥] إليهم من الجبال إذ فيها أعين هذا غالب أمرهم ويغلب على العامة منهم الجهل والجفاء والتعدي وهم أكثر من أن يحصوا وهم فوق وقد تحصل الفتنة بينهم فيموت الثلاثون والأربعون في

---

(١) في نسخة عشائرهم.

(٢) في نسخة القطب.

(٣) في نسخة وكذا مقدم أولاد رجم وأولاد مخلوف وفي أخرى أولاد خلوف وفي أخرى بإسقاط أولاد مخلوف.

(٤) في نسخة فمهما طاعت أحدى الوائف إلا خربت الأخرى.

(٥) في ثلاث نسخ تنفجر.

يوم واحد وفيهم أهل الخير من العامة والخاصة لا ينقطعون وقد أدركت أفاضل وصلحاء منهم أولاد العريب وولد[١] الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم والولي الصالح سيدي عبد الله بن صوشة وإخوانه وهو حي إلى الآن وأولاد سيدي الطيب بن صوشة وأهله وأولاده سيدي علي بن خلف الله وأولاد سيدي أبي الفضل النحوي والشرفاء من أنور والشيخ احليتم شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرى الشيخ عبد القادر مرارا وانه ولي من أولياء الله وأولاده وإخوانه وأولاد سيدي غانم.

فمنهم سيدي ابن[٢] المقندوز وأولاده سيدي محمد وسيدي أحمد ما رأيت مثلهما أصلا سيما الكبير فقد فاق أهل زماننا وعلى نمطه ابنه سيدي محمد وإخوانهم وأولاد سيدي عبد القادر كلهم والحمد لله على خير وأولاد سيدي عمر كذلك وسيدي عمر أهل وطنه زادوا فيه هيبة وإجلالا لأولاد سيدي رحاب السابقين فقد سمعت ابن زيان انه قال رأى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الأشراف من فقال أولاد رحاب وما شابههم وكذا المرابطون من جبل بو طالب أهل خير وأولاد سيدي عمر وغيرهم نفعنا الله بهم.

وكذا سيدي مبارك بن عمار وسيدي محمد بن بوخالفة وغيرهم نفعنا الله بهم وأفاض علينا وعلى أولادنا من بركاتهم آمين وأولاد سيدي رحاب تزوجت بنتهم ثم ظعنا من عندهم والركب سابق إلى مدوكال[٣] فتبعناه وسيدي عبد الله بن رحاب ذهب معنا إلى الحج وذهبت بعيالي بنته وبنت سيدي السعد نجل الشيخ سيدي

---

(١) في نسخة أولاد.

(٢) في نسختين بإسقاط ابن.

(٣) في نسخة دكال وفي أخرى مدوكال.

المسعود بن عبد الرحمن وزوج ابني محمد بنت سيدي عبد الله أيضا.

فنزلنا قرب بَرِيكَة[١] وهي أرض طيبة وفيها نهر جار مثل النيل[٢] وهي لسيدي محمد الحاج يتقاتل[٣] عليها أولاد دراج بينهم أزال الله ظلمهم وأهلك من أرادها منهم من غير رضى أولاد الشيخ وصبيحة تلك الليلة ظعنا إلى أن وصلنا قرية مدوكال التي أمير الركب منها وهو الفقيه المحب الفاضل الكامل سيدي محمد المسعود نجل الشيخ سيدي الموهوب أسعده الله وجعل البركة في أولاده وقرية مدوكال فيها نخل ولم يكن من بلادنا نخل إلا فيها ثم كذلك إلى الزاب وهي قرية كبيرة فيها جمعة وعين عظيمة عند رأس البلد وفيها تضع العرب أثقالها وهم قد طغوا عليها سيما أولاد دراج إلا أن بركة سيدي محمد الحاج والسيد الحاج بودابة وأشياخها ظاهرة تنوب عليهم وطريقة أولاد سيدي محمد الحاج ربانية لا يشك فيها أحد فلا يشوبها شوائب الملك أصلا خصوصا أسلافهم حسبما أخبروا عنهم وكذا هؤلاء الأواخر ومدة بقاء الحاج فيها يشترون الرواحل، متعنا الله برؤيته صلى الله عليه وسلم بجاه الأوائل، فلما استقر بهم الحال اجتمعت فيه أفاضل، فيحق في ذلك ذكرهم في الفضل وبالجملة فهذه القرية طيبة وأهلها فيهم الصلاح كما رأيت بعض المرابطين كامام مسجد الشيخ وبعض أولاده وبعض الطلبة وأما أكثرهم فقد فسقوا فيها بالسرقة والتعدي والمشي بالنميمة بين أكابرهم حتى نزل بهم ما نزل وقد صار البغض العظيم بينهم والله يقول وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول وقطعوا صلة ما أمر الله به أن يوصل من صلة الرحم أن لا الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم أصلح الله حالهم وأزال العداوة بينهم ورزقهم

---

(١) في نسخة باركة وفي أخرى باريكة.

(٢) في ثلاث نسخ مثل الشام.

(٣) في جميع النسخ يتقاتلون.

المودة والرحمة بينهم بمنه وكرمه هذا وإني وعظتهم وأمرتهم بما يكون فيه خيرهم نعم هم أفضل من غيرهم فإنهم كالماء يجوّز اللقمة إذا غصت وأما الماء إذا غص فما المجوز له لكن ببركة أسلافهم يهديهم الله ويعينهم على طريقة أسلافهم وعلهم محل خير وعلم وحلم وفضل اللهم أجعله كذلك إلى قيام الساعة ولا تبدله بالضد إذ أكثر المواضع كذلك أحيي الله قلوبنا وقلوبهم ورحم ضعيفنا وضعيفهم آمين وأكرم الشيخ الركب ليلة واحدة وأما أنا وبعض أصحابي وسيدي أحمد الطيب فقد أكرمنا كثيرا والحمد لله.

ثم ظعنا منها إلى مدينة بسكرة ذاهبين فبتنا في الطريق ليلة واحدة وصبيحتها ظعنا ووصلنا عند الضحى غير انه عاق الناس الماء فلا يجدون سبيلا إلى الخروج إلا بتعسف فطال بنا ذلك إلى الظهر إلا القليل أخذوا الطريق من بدء الوادي فلما قطعنا الوادي نزلنا حافين بالنهر وهذه البلدة أعني بسكرة كثيرة المياه بين خلال البيوت فكل باب عنده ساقية من الماء تجري من ماء حلو كالعسل ونخلها عظيم وغلتها كثيرة أيضا أي زرعها وكذا الفواكه خصوصا الزيتون فانه كثير جدا وهذه المدينة كانت قاهرة عظيمة البنيان والجامع الأعظم يدل على ذلك فانه لا نظير له وصومعته ما أحسنها وما أوسعها غير أن القديمة أي المدينة قد خربت وصارت دكا وسبب ذلك فتنة بينهم فادخلوا الترك فأهلكوها حتى بقي القليل منها حاصله أن الناس قد خرجوا إلى البساتين فبنوا هناك من ذلك العهد إلى الآن ثم نزل عليهم الوباء فلم يبق فيها إلا حثالة من الناس وفيها برجان للترك عامران أحدهما في البلد والآخر خارجها وبالجملة فهذه أوصافها الحسنة التي لا تحصى وقد اجتمعت فيها مع الأفاضل كالفقيه الفاضل سيدي محمد بن الجودي وسيدي محمد الشريف والقاضي والمفتي وكذا بعض شهود العدالة والطالب الفاضل سيدي مصطفى وسيدي بركات وغيرهم من العامة والخاصة وقد أخذ كثير منهم العهد عنا ولقيت أيضا فيها

قبل الفاضل الصادق في الجد المقتفي للسنة النبوية[١] نفعنا الله به آمين.

وأما الموتى ففيها العجب العجاب نفعنا اله بهم وجعلنا في زمرتهم بمنه وكرمه وهو من العارفين وقد زرت قبر الشيخ سيدي عبد الرحمن الأخضري وله تآليف كثيرة مفيدة وهو من العارفين بالله تعالى ومن تآليفه السلّم في النطق أنعكف الناس عليه شرقا وغربا سيما في مصر فمنهم من حشى ومنهم من فرر وطرر وقد شرحه رحمه الله وألف الجوهر المكنون في البيان لخص فيه التلخيص وشرحه وقد أقبل الناس عليه أيضا في مغربنا ونظم قصائد عديدة في التصوف أعظمها القدسية وقد شرحها والحمد لله وله قصيدة في علم الفلك سماها السراج وشرحه والدرة البيضاء في علم الفرائض والحساب نظما فهي في غاية الحسن وهو من القرن العاشر كما أخبر بذلك وزرت قبر النبي سيدي خالد فقيل انه نبي مرسل إلى جبل أوراس وقيل ولي والذي شهره سيدي عبد الرحمن انه نبي رسول وكذا حكى فيه الخلاف الخفاجي شارح الشفاء بان قال على القول برسالته فانه أرسل إلى جبل أوراس[٢] وكانت معجزته نارا وقد سمعنا أن الشيخ سيدي عبد الرحمن هو الذي أظهره بالتربيع وكذا زرت سيدي محمد بن يحيى وإخوانه وولده ومحله محل العلم والفضل والكرم والجود إذ هم ظاهرون عند الخاصة والعامة مشتغلون بتدريس الفقه نفعوا وانتفعوا نفعنا الله بهم.

وفيهم أيضا سيدي البار فانه فقيه فاضل وهم أشراف وهو ليس منهم والحمد لله وقد لقيت الزاهد على الإطلاق، المتجرد للعبادة باتفاق، كأنه من الموتى سيدي المبروك نفعنا به وبأمثاله.

---

(١) بياض في جميع النسخ.

(٢) في ثلاث نسخ الرس.

والزاب والحمد لله عامر بالخير والفضل وذلك في العامة والخاصة وإن كثر الفساد والعصيان والظلم وعم وانتشر غير أن بعض الأوطان ينعدم فيه الخير رأسا وبعضهم فيه الشر الكثير مع وجود الخير من بعض الأفراد وقد دخلت.

طولقة وهم أهل الجود والفضل أطال الله سعدهم خصوصا أولاد بوزيان فقد عم فضلهم الخلق فان لم يصبهم وابلهم فَطَلّ أحسن الله إليهم بمنه وكرمه ولكن هذا الوطن أعني الزاب منوط ببلدة بسكرة وهي الكافية بالجميع قلت قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد ابن ناصر ما نصه بعد ذكره كلاما يخصه وزرنا مسجدا وطلعنا إلى مآذنته وهي في غاية الإتقان والطول والسعة تقدر الدابة على الصعود إليها بحملها وإدراجها مائة وأربع وعشرون درجة والمسجد في غاية السعة وإتقان البناء إلا أنه قل عامروه وضعف ساكنوه فلا ترى فيهم مدرسا ولا فقيها ولا قارئا مع أن هذه المدينة من أعجب المدن وأجمعها لمنافع كثيرة مع توفر أسباب العمران فيها قد جمعت من التل والصحراء ذات نخيل كثيرة وزرع كثيف وزيتون ناعم وكتان جيد وماء جار في نواحيها وارحاء متعددة تطحن بالماء ومزارع حناء إلى غير ذلك من الفواكه والخضر والبقول وكثرة اللحم والسمن في أسواقها. وبالجملة كما قال الإمام العياشي في رحلته ما رأيت في البلاد التي سلكتها شرقا وغربا أحسن منها ولا أحصل ولا أجمع لأسباب المعاش إلا أنها ابتليت بتخالف الترك عليها وعساكر العرب فيستولي عليها هؤلاء تارة وهؤلاء تارة إلى أن بنى الترك حصنا حصينا على رأس العين التي يأتي الماء منها إلى بسكرة فملكوا البلد[1] وأضروا بأهلها واجحفوا بهم في الخراج ولم يقدروا على الخروج عليهم لتمكنهم[2] من الماء الذي به حياة البلد وأهله اجتمعت عليها غارات العرب من خارج وظلم الأتراك من داخل وقد أشرفت على الخراب

---

(١) في نسخة الرحلة الناصرية فتمكنوا بالبلد.

(٢) في الرحلة الناصرين لتمكينهم.

وقاربت أن تكون فقراء يبابا لولا ما تماثل من أسباب عمرانها الموجبة لرغبة الناس في سكناها قال ولقد لقيت بها سنة تسع وخمسين رجلا من الصالحين ممن جمع بين العلم والعمل به الزهد والورع وصدق التوجه إلى الله تعالى واسمه سيدي أبو طيب الناصري لم ترعيني قبله ولا بعده أمثل منه في هديه وسمته تخشع القلوب لوعظه وتلين لكلامه ولو كانت أقسى من الحجر قال ولما رجعت من الحجاز في سنة الستين وجدته قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة وكان وباء مفرطا مات به بسكرة على ما قيل لنا نحو سبعين ألف نفس وقد دخلنا المدينة عقبه فوجدنا أكثر حوماتها خالية ومساجدها دائرة ولقيت بهذه المدينة سيدي محمد الصالح وهو رجل من أهل الخير منفرد في مسجد له بازاء داره يلازم فيه الصلوات الخمس ويجتمع إليه أناس من أصحابه يذكرهم ويعلمهم قال وخرج إلينا أيضا من فقهاء البلد سيدي عبد الواحد الرماني وهو أيضا رجل من أهل الخير غلبت عليه الديانة والانقطاع عن الخلق وقرأ علي أول صحيح البخاري برواية أبي ذر وذهب معنا إلى زيارة سيدي أبي الفضل وصلينا العصر في مسجد سيدي أبي الفضل وفي الغد يوم الخميس ارتحلنا ودخلنا البلد ثانيا لزيارة سيدي محمد بن[1] علي فوجدناه على سطح دار يشرف على الطريق ولم ينزل إلينا وقرأ لنا الفاتحة من هناك ونحن بالطريق ودعا لنا وهو رجل من أهل الأحوال الصالحة مغلوب عليه في أكثر أوقاته تؤثر عنه كرامات قال ولقد لقيته بداره سنة خمس وستين وهو في مرمة له في داره يعمل بها بيده ينسج الثياب وأخبرنا أن قوته من كسب يده وأخبرنا بحاله ومبدأ أمره مع شيخه وقد انتشر صيته في هذا الوقت بتلك البلاد وله أتباع وأصحاب يجتمعون إليه في أوقات السماع والذكر وسمعنا من بعض الحجاج ممن زاره بعد ذلك أنه قال لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له أن النار لا تمس كل من رآك وزعموا أنه قال له ومن رأى من رآك

---

(١) وفيها أيضا أبي.

مراتب متعددة والله اعلم بحقيقة لك فان صح انه قال له فهو في الغالب لا يكذب إلا أن كلامهم يحتاج إلى تأويل ويبعد حمله على ظاهره وأن المراد مجرد الرؤية البصرية فان القواعد تأبى بقاءه على عمومه فانه يراه البر والفاجر والمصر على الكبائر والمفارق لها بل والجاهل الذي يتطرق إلى إيمانه الخلل لغلبة الجهل والآراء الفاسدة ولكثرتهم جدا يبعد موت جميعهم على التوبة النصوح الموجبة لغفران الذنوب كلها الموجبة للنجاة من النار إلا أن كلام أولياء الله لا ينبغي أن يرمى به جزافا فليحرص المرء جهده على لقائهم ورؤيتهم والتبرك بهم فعسى أن يصادف نفحة من نفحات الحق فيسعد بها دنيا وأخرى فإن لله عبادا إذا نظروا إلى أحد أغنوه ومع ذلك فلا يركن إلى ظواهر ما يجري على ألسنتهم كل الركون حتى يعتقد أن من رأى أحدهم ممن قال مثل ما تقدم قد أمن من النار فإن لكلامهم وجوها واحتمالات تدق على إفهام أكثر الخلق ممن لم يسكت طريقهم قال وأقرب ما يحمل عليه كلام المتقدم أن تحمل الرؤية على القلبية والمرأى على صورته الباطنة التي توجب العلم بما هو عليه من سَنِيِّ الأحوال وسَنِيِّ الأوصاف ورفيع المقامات ولا شك أن من منح شهود ذلك وأشرف عليه فله نصيب وافر من التخلق بأخلاق الأولياء والورود من موارد الأصفياء وحينئذ يكون جديرا بأن لا تمسه النار وهذا من معنى ما اشتهر عن قطب الزمان مولاي عبد القادر الجيلاني أنه قال أخذت العهد من ربي أن لا يدخل أحد من أتباعي النار إلى يوم القيامة فيحمل على من اتبع طريقه لا على مجرد الانتساب باللسان قال ولو صح حمل الكلام المتقدم على ظاهره وعمومه لكان أولى بذلك الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وكثير من رآهم رؤية بصرية لم يوفق للاهتداء بهديهم فحرم بركة رؤيتهم وكل مقام ناله ولي من أولياء الله فهو ميراث اتباعه لنبيه صلى الله عليه وسلم وما كان ميراثا لا يصح أن يكون شيئا لم يكن لموروثه بل يستحيل عند أرباب القلوب أن ينال ولي ولو ذرة من مقام أو حال لم تكن بكمالها

لمتبوعه ومعلوم أن هذه الحال لم تكن لأحد قط فلا بد من التأويل قال وما أطنبت في هذا إلا أني رأيت كثيرا من الجهلة يغتر بأمثال هذا ويحمله على ظاهره وإلا فإنا والحمد لله ممن يعتقد تنزيه ساحة الأئمة الصوفية عن الكذب والافتراء ويثق بأقوالهم ويصدق كراماتهم ويحمل ما أشكل على أحسن محامله ولا أطعن فيه بوجه وأسلم لهم فيما لم يتبين لي وجهه والمنة في ذلك لله وحده اهـ كلامه ونقلته على طوله لحسنه في بابه وزرنا في تلك الحجة أولاد سيدي محمد الصالح وأخرج لنا ولده سيدي علي ترما ولبنا وأكل أصحابنا ما أرادوا منه وشربوا وزرنا أيضا سيدي قاسم وذكر لنا الأخ سيدي محمد بن عبد الواحد الرماني أن هذا السيد كان رجلا صالحا وكان أمير الركب في زمانه وسيدي عبد الواحد والد سيدي محمد المحدث عن صلاح هذا السيد كان من أصحاب والدنا رحم الله جميعهم وكان في حجتنا الأولى التي حججناها مع الوالد رحم الله جميعهم عام (١٠٧٦) ستة وسبعين وألف في قيد الحياة وولده هذا هو الذي تقدم بنا لزيارة صالحي هذه البلدة وزرنا أيضا سيدي عبد الرحمن وسيدي أبا الفضل وسيدي محمد الموفق وسيدي الصحابي وسيدي محمد ابن أبي علي وسيدي عليا الأوراسي وأخبرنا سيدي محمد بن عبد الواحد أن أبا الفضل هذا هو تلميذ أبي الفضل النحوي وان أبا الفضل المذكور مدفون في بلد بينه وبين بسكرة يومان وراء الجبل رسالته عن البسكري الذي خشى على المرادي فذكر لنا أنه مدفون في الزاب.

وأما سيدي محمد بن أبي علي فذكر لي عمي سيدي حسين رحمه الله أنه قال كان حيا عام حج وانه لما وصل بسكرة ألح عليهم الأخ الحاج محمد بن عبد الملك السجلماسي أحد تلامذة الوالد رحمه الله والمقدم على الفقراء في بلده في زيارة السيد المذكور وتقديم الصدقة له بين أيديهم وطلب ضمانة الطريق وعادته لهم كما كان وقع ذلك مع بعض الحجاج فصار محفوظا في طريقه إلى أن وصل بلده ومنزله وكره العم

مخالفته ومشى مساعدا له مع عدم قصد ذلك وتقديم صدقة فزاروه وأطعمهم تمرا وماء وأقاموا عنده ساعة فلما جن الليل رأى أستاذه سيدي أحمد بن إبراهيم في عالم النوم فقال له زلقت وزللت يا صبي[١] قلت أنا البركة التي يشرب فيها الإنسان يواظبها ويقيم عليها ولا يكدرها ويطلب غيرها [فقال] اتحسب وتظن أنك لم تبلغ في تعبي ومشقتي والله لقد كنت تنام معوجا فأتيك حتى أقومك أتريد ملاقاة الشيخ الأعظم سيدي عبد الله فقلت نعم يا سيدي فذهب بي حتى لقيته فسلمنا عليه وقال لي سيدي أحمد أن حان وفاة أحدكم يعني في الطريق فإن لم أحضره فسيدي عبد الله بن الحسين يحضره لا محالة قال سيدي عمي المذكور ومات جماعة من فقراء الأستاذ في الطريق رحم الله الجميع اهـ.

ولما دخلت مسجدها لم أجد قارئا ولا مدرسا سوى رجل واحد متى يقرأ لوحه وهو ملقى أمامه يقرأه على غير أدب ولا استقامة وأخبرني بعض أصحابنا انه وجد رجلا واحدا يسرد البخاري وحده ووقف عنده وقال له رح يا حاج ووجد آخر كذلك ولعمري أن هذا أدل دليل على الخراب وأقرب الأسباب له بدليل ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إذا أراد الله عمارة قوم بدأ بها له فيهم وإذا أراد خرابهم بدأ بها له فيهم أو كما قال صلى الله عليه وسلم ولقد بدأ الله هذه البلدة بخراب بيته، فهو أقوى الدلائل على خراب البلد وموته، ولقد مرضت من ذلك الأحشاء، والله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء، ويعذب من يشاء، ويرحم من يشاء، ولقد وددنا عمارتها بالعلم والعمل، ورفع الحرج عنها برفع ذوي الزيغ والزلل، وتدريس العلم وذكر الله آناء الليل وأطراف النهار في ذلك المسجد المشيد، فإن لأهل هذه المدينة تاهلا لهذا كله ولاكن الله يفعل ما يريد.

---

(١) في جميع النسخ يا صاحبي إلا في الرحلة الناصرية.

وفي مثل ما وقع لنا من التحزن والتحسر، والتألم والتضجر، من قلة العلم وأهله، في مواطن حسنة من محله، يصدق قول العلامة الإمام الهمام أبي علي اليوسي من أجل أصحاب الوالد، وممن ظهرت بركاته عليه في المصادر والموارد.

وأود لــو كانــت مجــالس بيــنهم يــضحين في ســبل الهدايــة معلــما
وشجا الحشا أن لم أجــد مــن عــالم يهــدي الــوراء بهــا ولا مــتعلما

وفي الاستبصار في أخبار الأمصار والزاب[١] كورة فيها مدن كثيرة وقاعدتها بسكرة وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار وهي مدينة مسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد وحمامات كثيرة وحواليها بساتين كثيرة وفيها غابة كبيرة مقدار ستة أميال فيها أجناس التمر منها جنس يعرف بالكسبة[٢] وهو الصيحاني[٣] يضرب به المثل لفضله على غيره وجنس يعرف بالبازي[٤] أبيض أملس كان عبيد الله الشيعي يأمر عماله بالمنع من بيعه والتحريض عليه وبعث ما هنالك منه إليه وأجناس كثيرة يطول ذكرها لا يعدل بها وحول بسكرة رياض خارجة عن الخندق المذكور وبسكرة فيها علم كثير وأهلها على مذهب أهل المدينة ولها من الأبواب باب المقبرة وباب الحمام وباب ثالث يسكنه المولدون وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة منها في الجامع بئر لا ينزف وداخل المدينة جنات يدخل إليها الماء من النهر وبها جبل ملح يقطع منه صخور جليلة ومنها كان عبيد الله الشيعي وبنوه يستعملون في أطعمتهم وتعرف ببسكرة النخيل وشرب بسكرة من نهر كبير يجري في جوفها ينحدر من جبل أوراس وروي أن في الطريق إلى بسكرة جبلا يعرف بزينير

---

(١) في جميع النسخ بسكرة إلا في الرحلة الناصرية.
(٢) في جميع النسخ بالكسبا ولعله هو المسمى الآن الإكيبة.
(٣) في نسخة الاستبصار المطبوعة الصيباني.
(٤) وفيها أيضا اللياري بدل البازي.

وقيل زنفير في وسطه كهف فيه رجل قتيل يقدر انه مات منذ يومين لم يغيره مرّ الدهر ولا تقادم الأزمان تبص جراحه دما لا يشك أحد انه قتيل يومين وتخبر الكافة عن الكافة أنهم لا يعلمون متى قتل قدما وقد نقله أهل تلك النواحي ودفنوه بأفنيتهم ليتبركوا به ثم لم يلبثوا أن وجدوه في الكهف على حالته وحدث بذلك ثقات أهل تلك الناحية والله فعال لما يشاء وقال محمد بن يوسف في كتابه أن هذا القتيل في شق جبل بشرقي عين اوبان(١) وهذه العين بين مدينة قرطاجنة ومدينة سبتة(٢) وذكر انه يظهر كما ذبح من يومه وأنه هناك من قبل فتوح افريقية ولم يذكر(٣) من دفنه والله اعلم بأمره اهـ كلامه.

---

(١) في جميع النسخ في شق جبل بشر وعين اوبان إلا في الرحلة الناصرية.

(٢) في الرحلة الناصرية سبيبة.

(٣) وفيها أيضا يذكروا.

ذكر خروجنا من بسكرة

ثم لما فرغ الناس من قضاء أوطارهم من بيع وشراء وأزدياد زاد ظعنا ضحى الثلاثاء خامس وعشرين من رجب وعشرين من شتنبر ونزلنا سيدي عقبة عصرا وهو عقبة بن نافع الفهري التابعي القرشي ولد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولذلك عده بعضهم من الصحابة ولاه معاوية بن أبي سفيان على أفريقية ووجهه إليها في عشرة آلاف من المسلمين فافتتحها وقاتل من بها من النصارى حتى أفنى أكثرهم ثم قال أني أرى أفريقية إذ دخلها أمام أمر أهلها بالإسلام وإذا خرج رجع كل من أجاب دين الله فهل لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة [القيروان] تكون لنا عزا للأبد فأجابه الناس لذلك واتفقوا على أن يكون أهلها مرابطين وقالوا نقربها من البحر ليتم الجهاد ثم رأوا أن ذلك لا يؤمن معه من كيد الروم لها فأبعدوها عن البحر مخافة من ملك القسطنطينية وقالوا قربوها من السبخة فإن أكثر دوابكم الإبل فتكون في مراعيها على بابها آمنة من البربر والنصارى ولما اتفق رأيهم على ذلك وكان موضع المدينة غيضة نادى عقبة جميع الوحوش والهوام التي كانت بالغيضة وقال لهم أنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونريد أن نبني هنا مدينة وأردنا أحراق هذه الغيضة فاخرجوا منها بإذن الله فخرج كل من كان فيها واختلف أصحابه في موضع القبلة وجعلوا ينظرون مطالع النجوم ليهتدوا إلى سمتها فبات عقبة مهتما فرأى في المنام قائلا يقول له خذ اللواء بيدك إذا أصبحت فإنك تسمع تكبيرا ولا يسمعه احد غيرك فاتبعه فحيثما انقطع التكبير فاركز اللواء فانه موضع القبلة ففعل ذلك وسأل أصحابه هل تسمعون شيئا فقالوا لا فأتبعه حتى انقطع التكبير فركز اللواء بموضع القبلة ولما كانت سنة إحدى وخمسين عزل معاوية عقبة بن نافع عن أفريقية وولى مسلمة بن مخلد مصر وأفريقية فنزل مسلمة مصر واستعمل على أفريقية مولى له يسمى دينارا ويكنى أبا المهاجر انتهى إلى أفريقية كره أن ينزل

بلدا اختطه عقبة فمضى خلفه بميلين مما يلي تونس فاختط هناك مدينة وبناها فسماها البربر بتكيروان وأخذ الناس بعمارتها وإخلاء القيروان فدعا عقبة أن يمكنه الله عز وجل منه وكان مجاب الدعوة ولم يزل أبو المهاجر خائفا من دعوة عقبة وفي مدة أبي المهاجر افتتحت جزيرة شريك وهي بمقربة من مدينة تونس حرسها الله وإليها ينسب باب الجزيرة من أبواب تونس وهي مشتملة على قصور كثيرة ومزارع فسيحة وخيرات جمة افتتحها حنش بن عبد الله الصنعاني بعثه أبو المهاجر فافتتحها وقتل أهلها ونهض عقبة إلى المشرق فلما دخل على معاوية رضي الله عنه وعاتبه فقال افتتحت البلاد وأتاني غلام الأنصار فأساء عشرتي فاعتذر له معاوية رضي الله عنه ووعده بالرجوع إلى عمله وتراخى الأمر إلى أن توفي معاوية رضي الله عنه سنة ستين وقيل إحدى وستين وولي ابنه يزيد فولى عقبة بن نافع أفريقية وقطعها عن مسلمة بن مخلد وأقره على مصر فخرج عقبة إلى أفريقية في سنة اثنتين وستين فمر سريعا حنقا على أبي المهاجر فأوثقه في الحديد وأمر بتخريب المدينة التي بناها والرجوع إلى القيروان وعمارتها وأجمع على الغزو في سبيل الله عز وجل وترك بالقيروان زهير بن قيس البلوي وودع أولاده وقال لهم أني بعت نفسي من الله عز وجل وأوصاهم بما أحب ومضى في عسكر عظيم حتى بلغ مدينة باغية وجمع النصارى بها فقاتلهم قتالا عظيما فانهزموا وأخذ لهم خيلا كثيرة فلم ير المسلمون في مغازيهم أصلب ولا أصبر منها وكانت من نتاج جبل أوراس المطل عليها ومدينة باغية مدينة جليلة أولية ذات أنهار وثمار ومزارع ومسارح وعلى مقربة منها جبل أوراس وهو المتصل بالسوس فلما هزمهم وقاتلهم قتالا ذريعا رحل عنهم ولم يقم عليهم كراهية أن يشتغل بهم على غيرهم فمضى إلى مدينة لميس باللام والميم والياء وكانت في ذلك الزمان من أعظم مدائن الروم فخرج إليه أهلها فقاتلهم قتالا شديدا فانهزموا واتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب مغانم كثيرة وكره المقام عليها فرحل إلى بلاد الزاب فسأل عن

أعظم مدائنهم قدرا فقيل له مدينة يقال لها أذنة[١] وبها الملك بجمع[٢] ملوك الزاب وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة قال اليعقوبي أذنة هذه أعظم مدن الزاب مما يلي المغرب وهي كثيرة الأنهار والعيون العذبة فالتقى أهلها فقاتلوه قتالا شديدا حتى يئس المسلمون من أنفسهم ثم أعطاه الله عز وجل الظفر فانهزم القوم وقتل أكثرهم وذهب عزهم من الزاب وذلوا إلى آخر الدهر ثم سار إلى تاهرت فلما بلغ الروم خبره استغاثوا بالبربر فاغاثوهم وبادروا إلى نصرتهم فالتقوا مع المسلمين فاقتتلوا قتالا شديدا فلم يكن للبربر والروم بقتال المسلمين طاقة فولوا منهزمين واتبعهم المسلمون فقاتلوهم قتالا ذريعا وانفضت جموع البربر وقتلوا حيث ما وجدوا وغنم المسلمون أموالهم وذراريهم ثم سار عقبة حتى بلغ طنجة وكان بها ملك من ملوك الروم وكان شريفا في قومه فأهدى إلى عقبة ولاطفه فنزل على حكمه فسأله عن الأندلس فقال له دونها هذا البحر الذي لا يرام فقال له دلني على رجال البربر والروم فقال تركت الروم خلفك وليس أمامك إلا البربر وهم في عدد لا يحصى ولا يعلمه إلا الله وهم انجاد فقال فأين موقعهم قال له السوس الأدنى وليس لهم دين يأكلون الميتة ويشربون الدم وهم أمثال البهائم يكفرون بالله ولا يعرفونه فرحل عقبة حتى أتى جموعهم بمقربة من فأس فقاتلهم قتالا ذريعا وفرت بقيتهم ومرت خيل في آثارهم ومر حتى بلغ السوس الأقصى وهي بلاد درعة ونزل إلى الصحراء وهي لمتونة وسبى منها سبيا لم يدخل المشرق أغلى منه ربما يبعث الجارية منه بألف وفر الناس أمامه لا يدانيه أحد ولا يعارضه حتى بلغ البحر الأعظم المحيط فأدخل فيه قوائم فرسه وجعل يقول وعليكم السلام فقال له أصحابه على من تسلم يا ولي الله فقال على قوم يونس ولولا البحر لأريتكم إياهم ثم قال اللهم

---

(١) في الرحلة الناصرية اذناة.

(٢) وفيها أيضا فجمع.

أنك تعلم أني إنما أطلب السبب الذي طلبه عبدك ووليك ذو القرنين فقيل له ما الذي طلبه ذو القرنين قال أن لا يعبد في الأرض إلا الله اللهم إني مدافع عن دينك معاند من كفر بك ثم قال لأصحابه انصرفوا على بركة الله فتخلى الروم والبربر عن طريق عقبة خوفا من جيوشه سنة ثلاث وستين من الهجرة.

ولما وصل طنجة أمر أصحابه فتقدموا ثقة بما دوّخ من البلاد وأنه ليس بأفريقية إلا من يخافه فتقدمت الجيوش وبقي نفر يسير من أصحابه فسار يريد تهودة وبادس لينظر إليهما ويترك بهما من الفرسان ما يحتاج إليه فلما انتهى إليهما يعني تهودة فيمن بقي من أصحابه وكانوا قليلا نظر إليهم الروم فطمعوا فيهم وأغلقوا أبواب حصونهم وجعلوا يشتمون عقبة ويرمونه بالحجارة ويدعوهم إلى الله عز وجل فلما توسط البلاد بعث الروم كسيلة البرنسي وكان كسيلة ممن أسلم على يد أبي المهاجر وذلك أن أبا المهاجر نهض إلى المغرب فنزل عيونا عند تلمسان تعرف بعيون أبي المهاجر فزحف إليه كسيلة في جمع من البرنس فظفر به أبو المهاجر وعرض عليه الإسلام وكان أبو المهاجر يحسن إليه فلما عزل أبو المهاجر وقد عقبة عرفه أبو المهاجر بحال كسيلة فاستخف به عقبة وأتى عقبة بغنم فأمر بذبحها للعسكر فأمر كسيلة أن يسلخ مع السلاخين فقال له كسيلة أصلح الله الأمير هؤلاء غلماني وفتياني يكفونني ذلك فقال له عقبة قم فقام مغضبا فكان كلما دحس يده في الشاة مسح بلحيته وجعل العرب يمرون به ويقولون له يا بربري ما هذا الذي تصنع فيقول انه جيد فيسكتون إلى أن مر به شيخ من العرب فقال لهم كلا أن البربري يتوعدكم فعاتب أبو المهاجر عقبة على ما صنع من ذلك وقال له كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس وعيينة بن حصن وتأتي أنت إلى رجل جبار في دار قومه ومكان عزه وهو قريب عهد بالشكر فتهينه وتذله فتهاون عقبة بكلامه فلما راسلت الروم كسيلة أمكنته الفرصة فانتهزها فقال أبو المهاجر لعقبة عاجله قبل أن

يجتمع إليه أمره فزحف إليه عقبة فتنحى أمامه فقال له قومه لم تتنحى عنه والرجل في خمسة آلاف ونحن في خمسين ألفا فقال لهم نعم لكنهم في الزيادة والرجل قد افترق عليه عسكره وليس عنده من يمده فلما صار عقبة يريد أفريقية زحف إليه البربري وكان أكثر المسلمين بالقيروان مع زهير بن قيس فواق كسيلة عقبة بمقرية من تهودة فنزل وركع ركعتين وقال أطلقوا أبا المهاجر فأطلق فقال له الحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة فقال له أبو المهاجر وأنا أغتنمها معك وكسر كل واحد منهما جفن سيفه وكسر المسلمون أجفان سيوفهم وأمرهم أن ينزلوا ولا يركب منهم أحد وقاتل المسلمون قتالا شديدا حتى بلغ منهم الجهد وكثرت فيهم الجراح وتكاثر عليهم العدو وقتل عقبة وأبو المهاجر ومن معهما من المسلمين ولم يفلت منهم أحد وأسر محمد بن أوس الأنصاري ويزيد بن خلف القيسي ونفر معهما ففاداهم صاحب قفصه وبعث بهم إلى زهير بن قيس ومن معه من المسلمين بالقيروان وأراد زهير الانصراف من أفريقية إلى مصر فقيل له أهزيمة من أفريقية إلى مصر فعزم على القتال وكان تبيع ربيب[1] كعب الأحبار فقال له لمن تراها فقال لرجل من بليّ وأنت رجل من غسان فقال زهير الله أكبر أنا والله رجل من بليّ جني جدي جناية في قومه فلجأ إلى غسان فاجتمع إلى كسيلة جمع أهل المغرب فزحف يريد القيروان فاضطرمت أفريقية نارا وعظم البلاء فقام زهير في الناس خطيبا قال يا معشر المسلمين أصحابكم قد دخلوا الجنة إن شاء الله وقد منّ عليهم بالشهادة وهذه أبواب الجنة مفتوحة فأسلكوا مسلك أصحابكم أو يفتح الله عليكم دون ذلك فقام حنش الصنعاني فقال لا والله لا نرى قولك ولا لك علينا من طاعة ولا ولاية ولا نرى أفضل من النجاة بهذه العصبة من المؤمنين فمن أراد منكم القفول فليتبعني ثم رحل فنزل بقصر الماء واتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته في عدد قليل فلما رأى

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وفي جميع النسخ إلا نسخة فيها يتبع رأي.

ذلك زهير تبعهم وأقبل كسيلة بجنوده فلما قرب من القيروان خرج العرب منها هاربين لم يكن لهم بقتاله طاقة لعظم ما كان معه من البربر والروم فأسلموا لهم القيروان لم يبق فيها إلا الذراري والأثقال والضعفاء فأرسلوا إلى كسيلة يطلبون منه الأمان فأمنهم وأقبل كسيلة حتى دخل القيروان في محرم سنة أربع وستين وأقام زهير مرابطا ببرقة إلى أن توفي يزيد بن معاوية في النصف من صفر من عام أربعة وستين وبويع لابنه معاوية الأصغر بعده ثم توفي معاوية بعد شهر[1] وعشرة أيام من بيعته واجتمع الناس بالشام على مروان بن الحكم وتوفي في رمضان سنة خمس وستين وولي بعده ابنه عبد الملك بن مروان فلما اشتد سلطانه اجتمع أكابر المسلمين وسألوه أن ينظر في خبر أفريقية وتخليصها ومن بها من المسلمين من يد كسيلة فقال لهم لا يصلح لدم عقبة إلا مثله في الدين فاتفق رأيهم على زهير بن قيس البلوي وقالوا هذا صاحب عقبة وأعرف الناس بسيرتهم وأولادهم بمطالبة دمه فوجه إليه عبد الملك يأمره بالخروج إلى أفريقية ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين فكتب إليه زهير يعرفه بأمر كسيلة ومن معهم من جموع البربر فحشد له وجوه العرب وأهل الشام وبعث إليه بالأموال فلما ترادفت عليه الجنود أقبل في عسكر عظيم إلى أفريقية وذلك في سنة تسع وستين فلما بلغ كسيلة قدوم زهير دعا أشراف قومه فقال إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة حوطة على أهلها من المسلمين فإن لهم عهدا وخشيت أن يكون النصر مع المسلمين[2] ولا كنا تنزل ممس[3] على ماء كثير يحلم عساكرنا فان هزمناهم اتبعناهم إلى طرابلس وقطعنا أثرهم وتكون لنا أفريقية إلى آخر الدهر وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا نتحصن به فارتحل عنها نزل ممس وبلغ

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية شهرين وفي تاريخ الكامل لابن الأثير أن معاوية بن يزيد لم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى هلك وقيل بل ملك أربعين يوما ومات.

(٢) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية وخشيت أن يصيروا علينا إلفا مع المسلمين.

(٣) في نسخة بإسقاط هذه الكلمة وفي الرحلة الناصرية ممّس وفي غيرها ممّش.

ذلك زهيرا فلم يدخل القيروان ونزلوا[1] على باب سلم وأقام ثلاثة أيام حتى استراح الجيش وزحف في اليوم الرابع حتى أشرف على كسيلة آخر النهار فلما نزل الناس باتوا على مصافهم فلما أصبح صلى ثم زحف إليهم فالتحمت الحرب فانهزم كسيلة وقتل بممس ولم يجاوزها ومضى الناس في طلب البربر فقتلوهم قتلا ذريعا ورجع زهير إلى القيروان مخافة من بأفريقية واشتد جزعهم ولجؤا إلى الحصون والقلاع ثم أن زهيرا رأى بأفريقية ملكا عظيما فكره الإقامة بها فقال إنما خرجت للجهاد وأخاف أن تملكني الدنيا فأهلكت ولست أرضى بها ولا بملكها ورغد عيشها وكان رحمه الله من رؤساء العابدين وكبار الزاهدين فرجع قافلا إلى المشرق فلما انتهى إلى برقة وكان الروم حين سمعوا برحيله منها إلى أفريقية خرجوا إليها بمراكب فغاروا وأخذوا نساء وقتلوا ونهبوا ووافق ذلك قدوم زهير من أفريقية فأخبر بذلك فأمر العسكر بالسير على الطريق وسار هو على الساحل طمعا أن يدرك سبي المسلمين فأشرف على الروم وهم في خلق عظيم فلم يقدر على الرجوع واستغاث به الأسارى والروم يدخلونهم المراكب فأمر أصحابه بالنزول فنزلوا وقصدوا الروم والتحم القتال حتى عانق بعضهم بعضا وكثرت النصارى فقتل زهير ومن معه وادخل الروم جميع السبي مراكبهم وارتحلوا إلى القسطنطينية ولما انتهى الخبر إلى عبد الملك عظم ذلك عليه وبلغ منه لفضل زهير ودينه وكانت مصيبته كمصيبة عقبة رحمهما الله تعالى وغضب أشراف المسلمين وسألوا عبد الملك أن ينظر في سد ثغر أفريقية فقال لا أعلم أعظم من حسان بن النعمان الغساني وكان حسان بمصر في عسكر عدده أربعون ألفا عدة لما يحدث فكتب إليه عبد الملك يأمره بالتوجه إلى أفريقية وأطلق يده في أموال مصر يعطي منها من ورد عليه من الناس ما شاء فقدم حسان بن عسكر عظيم لم يدخل أفريقية قط مثله وذلك في سنة تسع

(١) كذا في الرحلة الناصرية وجميع النسخ.

وسبعين وسار حتى بلغ القيروان فسأل أهل أفريقية عن أعظم ملك فقالوا له صاحب قرطاجنة وكانت مدينة عظيمة تضرب أمواج البحر سورها وهي من تونس على اثني عشر ميلا وبين تونس والقيروان مائة ميل فغزا حسان بن النعمان قرطاجنة وبها خلق عظيم فإنها كانت دار الملك بأفريقية فبعث الخيل إليها وكان البحر لم يخرق إلى تونس وإنما خرق بعد ذلك وعملت دار الصناعة فالتقى الفريقان والتحم الحرب بينهم وضيق عليهم حسان فقتل مقاتلتهم ورجالهم فاجتمع رأيهم على الهروب وكانت لهم مراكب قد أعدوها فارتحلوا فيها بأهلهم وأموالهم فمنهم من ذهب إلى جزيرة صقيلة ومنهم من ذهب إلى الأندلس فلما انصرف حسان علم أهل بواديها بهروب أهل الملك فتحصنوا بها فوجه إليهم حسان فحاصرهم حصارا شديدا حتى دخل بالسيف وقاتلهم قتلا ذريعا وأرسل من حولها فأمرهم بهدمها وكسر القناة التي كان يأتيهم الماء عليها ثم إن حسانا بلغه أن النصارى تجمعوا لقتاله وأمدهم البربر فزحف إليهم فقاتلهم قتالا شديدا فانهزموا وهرب البربر إلى إقليم برقة وقدم حسنا مدينة القيروان فلما استراح الناس قال لهم دلوني على أعظم ملك بقي بأفريقية إذا قتل خاف البربر والنصارى وهابت المسلمين فلا تقدم عليهم فقالوا ليس بأفريقية أعظم من امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة والبربر والنصارى لها مطيعون ومنها خائفون فلما اخبروه بذلك توجه لقتال الكاهنة فبلغ الكاهنة أمره فارتحلت من جبل أوراس في عدد عظيم إلى مدينة باغية فأخرجت منها الروم وأخربت حصنها وظنت أن حسانا إنما يريد معقلا يتحصن فيه وأقبل حسان في جيوشه حتى دنا بعضهم من بعض وذلك في آخر النهار فكره حسان لقاءها في ذلك الوقت فبات الناس على سروجهم حتى أصبح الله بخير الصباح فزحف بعضهم إلى بعض واقتتلوا اشد قتال وقتل من العرب خلق كثير وأسرت الكاهنة من أصحاب حسان ثلاثين رجلا منهم خالد بن يزيد العبسي وكان رجلا شريفا واتبعت الكاهنة

حسانا حتى خرج من عمل قابس وأسلم أفريقية وكتب إلى عبد الملك يخبره بما لقي المسلمون فوافاه كتابه يأمره بالمقام حيث يدركه الجواب فأدركه وهو بعمل برقة فأقام هنالك خمسة أعوام بموضع يعرف بقصور[١] حسان [وله نسبت قصور حسان][٢] ثم أعمل عبد الملك رأيه فيمن يبعث لأفريقية واستشار في ذلك فلم يجد مثل حسان فبعث إليه جيشا عظيما ومالا وسلاحا وكانت الكاهنة أطلقت أصحابه الذين أسرتهم وأحسنت إليهم إلا خالد بن يزيد فإنها أمسكته وكان لها ولدنا فقالت له أني أريد أن أرضعك مع ولديّ هاذين فقال لها كيف يكون ذلك وقد ذهب منك الرضاع فقالت أنّا جاعة من البربر لنا رضاع تتوارث به إذا صنعناه ثم عمدت إلى دقيق الشعير فلثته بزيت ثم جعلته على ثديها ثم أمرت ولديها أن يأكلا منه مع خالد فأكلوه وقالت لم أنتم أخوة من الرضاع ثم إن حسانا وفدت إليه العرب ورجالها فدعا رجلا منهم يبعث كتابا إلى خالد وكان واثقا بأن خالدا لا يرجع عن الإسلام فلما أتى رسول حسان خالدا فوقف إليه في زي سائل فعلم خالد أنه رسول فاعتذر له وقال له تعود في غير هذا الوقت فلما انقضى المجلس أتاه وأخذ الكتاب فقرأه وكتب له في ظهره أن البربر متفرقون لا نظام ولا رأي لهم وإنما ابتلينا بأمر أراد الله أن يكرم به من مضى فاطو المراحل وجد في السير فإن الأمر لله ولن يسلمك الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وجعل الكتاب في خبز ومضى الرسول فلم تلبث الكاهنة بعد ذهابه إلى أن خرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول ويلكم ذهب ملككم فيما يؤكل فافترقوا يمينا وشمالا يطلبون ذلك فستره الله عز وجل فلما وصل إلى حسان أخرج الكتاب من الخبزة قد أحترق فقال له حسان أرجع فقال له أني أخاف على

---

(١) في جميع النسخ قصر حسان إلا في الرحلة الناصرية طبقا لما ذكره الشريف الإدريسي في نزهة المشتاق.

(٢) ما بين القوسين ساقط في جميع النسخ إلا في الرحلة الناصرية.

نفسي فالمرأة كاهنة فكتب له كتابا وجعله في نقرة نقرت في قربوس سرجه وغطاه بالشمع فمضى الرسول حتى أتى خالدا فدفع إليه الكتاب وعرفه أن الأول أحرقته النار فرد جوابه وأعاده في قربوس سرجه ومضى فخرجت ناشرة شعرها تضرب صدرها وتقول ذهب ملككم في نبات الأرض وأراه بين لوحين وكانت الكاهنة قد ملكت أفريقية خمس سنين منذ أنصرف حسان عنها ولما رأت إبطاء العرب قالت للبربر أن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن[1] والذهب والفضة والشجر ونحن إنما نطلب منها المزارع والمراعي ولا نرى لكم إلا خراب أفريقية حتى ييئسوا منها ويقل طمعهم منها فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الزيتون والشجر ويهدمون الحصون فحكى بعض المؤرخين عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رحمه الله أنه قال وكانت أفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا واحدا قرى متصلة وعامرة وأخربت جميع ذلك قال الشيخ محمد بن علي شارح الشقراطسية سمعت من يقول انه كان بأفريقية في القديم مائة ألف حصن من بين قصر ومدينة وأما ملكها إذا أراد الغزو بعث إلى كل حصن فيأتيه منه فارس ودينار فيجتمع له مائة ألف فارس ومائة ألف دينار ولا ينقص من بلده شيء والله أعلم بصحة ذلك ومن تأمل أثر المدن والقصور الخربة بأفريقية وتداني بعضها من بعض رأى من ذلك ما يقضي منه العجب ويستدل على كثرة عمرانها في السالف وكذلك الشعاري التي بها إذا تأمل أشجارها في مواضع على اعتدال وترتيب تنبئ أنها مغروسة لإنبات ويقال أن ما فيها الآن من بطم إنما كان فستقا وإنما استحال إلى الصغر وإلى طعم آخر لطول ما أتى عليه من السنين ولا شك أن من أكل البطم أخضر وجد طعمه كطعم الفستق قال فلما بلغ كتاب خالد إلى حسان رحمه الله خرج بالجيوش فلقي في طريقه ثلاثمائة رجل من النصارى يستغيثون من الكاهنة فيما نزل بهم من الخراب واخراب ضيعهم ووصل

(١) في الرحلة الناصرية المرافق أو المرافق.

إلى قابس فخرج إليه أهلها وطلبوا منه الأمان وكانوا قبل ذلك يتحصنون ويتمنعون من كل من مر بهم وترك عامله عليهم وقاطعهم على مال معلوم واستطال طريق القيروان فمال إلى قصور قفصة فنزلها وأهدى إليه ملوكها وملوك قفصة وقسطيلية ونفزاوة وبعثوا إليه يستغيثون من الكاهنة فسره ذلك وبلغ الكاهنة قدومه فرحلت من جبل أوراس تريده في خلق عظيم فلما كان الليل دعت أبنيها وأخبرتهما أنها مقتولة وكأنها تنظر إلى رأسها يركض به فرسان إلى ناحية المشرق وكأنها ترى رأسها بين يدي ملك العرب الذي بعث بهذا الرجل فقال لها خالد فإذا كان هكذا فارحلي بنا وخلي لهم عن البلاد وأشار عليها أولادها بمثل ذلك فقالت كيف أفر وأنا ملكة والملوك لا تفر وأورث قومي عارا فقالوا لها إنما تخافين على قومك فقالت إذا أنا مت فلا أبقى الله منهم أحدا فقال لها أبناها وخالد فما نحن صانعون فقالت أما أنت يا خالد فستدرك ملكا عظيما عند الملك الأعظم وأما أولادي فسيدركون سلطانا عند هذا الرجل ويعقد لهم على البربر ثم أمرتهم أن يركبوا ويستأمنوا إليه فركبوا وتوجهوا إلى حسان فاعلمه خالد بقولها وأنها مقتولة وبوصول ولديها فأمر بحفظهما وأمر خالدا على أعنّة الخيل ثم خرجت الكاهنة ناشرة شعرها تقول انظروا ما دهاكم انظروا لأنفسكم فإنها مقتولة والتحمت الحرب واشتد القتال واستحرّ القتل في الفريقين حتى ظن الناس أنه الفناء ثم انهزمت الكاهنة وتبعها حسان حتى قتلها وقطع رأسها عند بئر يعرف ببئر الكاهنة وولى حسان الأكبر من ولدي الكاهنة على جماعة من البربر ثم أن البربر استأمنوا إلى حسان فلم يقبل إلا أن يعطوا من قبائلهم اثني عشر ألفا يكونون مع العرب مجاهدين فأجابوا وأسلموا على يديه فعقد لكل واحد من ولدي الكاهنة على ستة آلاف وأخرجهم مع العرب يجاهدون في سبيل الله عز وجل بأفريقية ويقتلون الكفرة من الروم والبربر والنصارى[١] وانصرف حسان

---

(١) بإسقاط النصارى في الرحلة الناصرية.

إلى القيروان وذلك في سنة أربع وثمانين وقد دانت له أفريقية وكتب الخراج على من بها من النصارى ومن كان على دين النصرانية من البربر وغيرهم وأقام بأفريقية لا ينازعه بشر إلى أن عزل عنها ووليها موسى بن نصير اهـ ملخصا من شرح السقراطسية للشيخ محمد بن علي وبعضه بالمعنى والتقديم والتأخير.

ثم دخلنا لزيارته مع جملة وافرة من أصحابنا أصفرارا وقبره بالبسيط الذي تحت جبل أوراس الذي قتل به وهو مشهور يزار وعليه مسجد عجيب وحوله قرية عجيبة وفي وسط هذا البسيط وفي مسجده مأذنة كبيرة عظيمة متقنة البناء وفي أعلاها عمود يزعم الحجاج أن من تمسك بذلك العمود وحركه وقال أقسمت عليك أيتها المأذنة بحق سيدي عقبة إلا ما تحركت فتهتز وفي حجة سنة ٩٦[1] ست وتسعين طلع إليها بعض أصحابنا كالقاضي سيدي أحمد بن إبراهيم المراكشي والفقيه سيدي عبد الله بن إبراهيم السملالي إمام مسجد طلحة وسيدي محمد بن عبد العزيز الرسموكي وشاهدوا ذلك وصدقوه وأنكر ذلك الإمام شيخنا سيدي عبد الله العياشي قال وطلعت إليها ورأيت ذلك وليس كما زعموا وإنما هو من إتقان البناء وفرط طوله فإذا صودم بقوة ظهر فيه شبه اهتزاز وذلك يقع في كل بناء وقال وغالب من دخل المسجد من الحجاج يكتب خطه على أساطين المسجد وحيطانه ويكتب اسمه واتخذوا ذلك ديدنا وعادة مستمرة انتهى وقد دخلت إليه مرارا وصليت فيه سبحة[2] الضحى وهذه المرة زرناه أصفرارا في وقت لا تحل فيه النافلة.

انعطاف للمقصود وهو أننا ارتحلنا من سيدي عقبة [صبيحة][3] وتوجهنا إلى

---

(١) في نسختين ٩٩.

(٢) في نسختين صبيحة وفي واحدة صلاة.

(٣) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

الزرائب فبتنا قبل وصولها وكنا في ذلك اليوم قد توافينا بإبل كثيرة للبيع فاشترى منها أخونا سيدي أحمد الطيب ما شاء الله ومع ذلك هي أرفق مما سبق من بسكرة وقرية مدوكال وفي هذا اليوم لقينا ولد الشيخ الجيد الذي أزمة العرب في يده وأيضا كلمته مقبولة ومنفذة عند الترك الحاج بن فانة وكان رجلا عاقلا مطمئنا في نفسه ثقيلا يأخذ كثيرا بيد الضعيف ولذا لم يخب سعيه ولا أنكشف رأيه قدام ما معه من الستر والعافية عليه مع تداول أولي الأمر على وطن قسنطينة وعادتهم إذا جاء وال جديد غير أهل الدولة الأولى ورد ما يصلح به من أصحابه وهو والحمد لله مقبول محبوب عند كل متول وسبب ذلك دعوة أهل الخير وفق الله الكل إلى صالح القول والعمل ثم بعد ذلك ارتحلنا ووصلنا قرب الزرائب بل نحن البغالة تقدمنا إلى القرية فخرج أهلها إلينا متسوقين[1] بالبنادق والحياك والغنم غير أن بعضهم فهمنا منه أنه يريد الخطفة لأنه قد كثر الراكب من أهل الركب ونحن كذلك حتى وصل آخر الناس إذ جاؤا مفترقين فأتوا من غير بقاء أحد عندهم خوفا من الخطفة على أنهم منعوا[2] أن يمر أحد وسط القرية خوفا من غوائل الركب.

نعم الطريق التي يهبط الناس معها ضيقة إلى الوادي والركب والحمد لله لم يكن أعظم منه وما طلع ركب من المغرب مثله في الكثرة فلما ضاق الطريق بالناس ذهب الناس واحدا بعد واحد ومر حولا بعد مر حول وقد تقدمت أنا وجماعة من الفضلاء إلى أن وصلنا إلى روضة الشيخ سيدي حسن الكوفي الذي قبره قرب الوادي فنزلنا عنده وزرناه ومن بركته أن الوادي آخذ أطراف الأرض القريبة له لقوته حين حمله وهو إذا وصل قرب الشيخ نكص على عقبيه[3] ورجع على حاله

---

(١) في نسخة متشوقين.

(٢) في نسخة ممنوع.

(٣) في نسخة عقبه وفي اخرى عاقبه.

وهي بركة عظيمة نعم تخلف الفضلاء سيدي أحمد بن حمود وسيدي عبد الكريم وسيدي عيسى الشريف والحاج محمد بن علي والحاج عمر بن يوسف والحاج عبد الله بن عمر فأتى رجل فأخذ مكحلة من يد سيدي أحمد بن حمود خطفة ولم يأخذها منه لأنه اشتد مسكه[١] لها فاظهر من حضر هنالك الشجاعة بحيث هرب الرجل إلى وسط القرية وتعبته[٢] الجماعة في أثره وجهوا المكاحل في اثر المذكور[٣] بالبنادق إلى القرية واخذوا منهم سيفا ممن كان معه لأنهم قد تمالوا في الواقع على ذلك ولم يقع منهم ضرب ولا غيره ومع هذا أن أصحابنا قد كان معهم دراهم كثيرة لم يصلوا إليهم مع كثرتهم والمنة لله ولرسوله.

نعم قد نزلنا عند ذلك الشيخ إلى قرب الظهر وهذا الشيخ ولي لله تعالى شريف زعم أهل بلده أنه طار من الكوفة [قلت قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر في رحلته ما نصه وجلسنا هنالك وقيلنا في قبة ولي الله الشريف سيدي حسن الكوفي وزعم أهل تلك النواحي أنه طار من الكوفة][٤] وقد قيل له ذات يوم من لنا بأنك شريف فذهب ساعتئذ فرجع قريبا فإذا بيده صك فيه نسبه كما كتب بخط كوفي وكان واديهم لا يجري فشكوا إليه ذلك فقال لهم جروني فيه ففعلوا فكان الوادي بعد ذلك يجري إلى الآن أخبرنا بهذا جماعة ممن يوثق بهم من أولاد سيدي ناجي الخ اهـ ولنرجع إلى ما كنا بصدده وهو انه ركبنا من ذلك السيد نفعنا الله به بعد زيارتنا ثم بتنا في الطريق قبل غزران[٥] على وزن عمران وبه واد جار ووجدنا عرب النباشة

---

(١) في نسخة تمسكه.

(٢) في نسختين تابعه.

(٣) في ثلاث نسخ ووجهوا المكاحل مع آثاره المذكورين.

(٤) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٥) في نسخة غرزان وفي أخرى غزوان وفي الرحلة الناصرية ضمران على وزن عمران.

فهم أقبح الناس وأكثرهم شرا فمنهم من يأتي للسرقة ومنهم من يأتي للخطفة ولا يحكم بعضهم في بعض ومع ذلك إنهم لم يكونوا في حكم سلطان تونس ولا في حكم بأي قسنطينة فإنهم هاربون في الصحراء وأخذوا منها بغلة وجملين[١] ونحن أخذنا منهم فرسا ومكاحل أعطيناهم لصاحب البغلة والجملين من غير رضى الشيخ خوفا منهم أن يرجع على طريقهم فيأخذونه غير أنه القصاص مطلوب شرعا.

ثم ظعنا ونزلنا غزران ثم نزلنا مرة أخرى قبل الحامة ثم بتنا فيها وكان قبل ذلك أتانا شيخ الحنفة مع طائفة من الترك هاربين من الجزائر ليذهبوا مع الركب أتى بهم ليلا فخرجت إليه خوفا[٢] من دخول الركب ليلا فلقيته فطلبنا في الدعاء الصالح وطلبناه أيضا ثم رجع إلى وطنه وكنت دخلت الحنفة في الحجة الأولى مع أمير الحجاج سيدي أحمد بن الطيب نجل الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الذي كانت ولايته ظاهرة شرقا وغربا وكراماته [وخوارق عادته][٣] نفعنا الله به آمين ورضي عنه لا تكاد أن تحصى وقد ألف الصباغ تأليفا حسنا نحو الثلاثين كراسا [في كراماته وخوارق عادته نفعنا الله به آمين][٤] والصباغ هذا ليس الصباغ الذي شرح الوغليسية والله اعلم وقد سمعت ممن يوثق به أنه أخذ عن الشيخ زروق فصار يترقى حتى أخذ زروق عنه وقد وشي به في زمانه إلى سلطان فاس فبعث الشيخ إليه سيدي أحمد بن يوسف رمزا فقال الذي يقدر على حله يعترضني وهو قوله نسجت برنسا[٥] من ماء، فغطيت به من الأرض إلى السماء، وجعلت عمامة من ثلج، وقناديل

---

(١) في نسخة بغلا وحلين.

(٢) في ثلاث نسخ خاف.

(٣) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

(٤) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

(٥) في ثلاث نسخ برنوصا وفي نسختين برنوسا.

من ريح، وقناديل من ضباب، ثم بعث به إلى السلطان فجمع أهل دولته مع من كان من العلماء في فاس ليفهموا ذلك الرمز فلم يكشف لأحد معناه ولم يفتح لهم فيه لأنهم لم يعتقدوا الشيخ فحرموا بركته لعدم تسليمهم له ثم قالوا للأمير هذا كلام لا يفهمه إلا ذووه وقد جعلت رسالة في شرحه وحاصل معناه باختصار والله اعلم بأسرار أوليائه أن البرنس المجعول من الماء هو قوله صلى الله عليه وسلم من أسر سريرة مع الله كساه الله رداءها وسريرته هو الأنس بالمحبوب بزوال الحجب وبرد الرضى به لأن بدايات الحب بالحرارة وكذا مقدمات الرضى أيضا فلما اتصف ببرد الرضى وأنس المحبوب نسج من ذلك برنسا وكنى عن ذلك بالماء وغطاؤه من الأرض إلى السماء قوله صلى الله عليه وسلم إذا أحب الله عبدا نادى به في السماء فان فلانا أحبه الله فيحبه أهل السماء والأرض أو كما قال عليه الصلاة والسلام وفي رواية فيحبه أهل السماء ويضع له القبول في الأرض[1] جعلنا الله ممن يحبه فلا محنة دنيا وأخرى بمنه وكرمه آمين.

وأما العمامة من ثلج فهي ما تقلده من أنوار الشريعة وسواطع الحقيقة إذ يظهر ذلك على صاحبها كالعمامة والتاج ولا شك أنها كالثلج لقوله صلى الله عليه وسلم فيها المحجة البيضاء ولا شك أيضا أن مقتضى الشريعة وأمثالها يبرد حرارة النفس في طلب رضاها فالشريعة كالثلج في البياض[2] والابراد لما ذكر.

وأما القناديل من الريح فهي معاني الصفات واستنشاق شذا معنى الذات من غير مرية أن ذلك أعظم من القناديل في الإشراق.

---

(١) في نسخة إذا احب الله عبدا نادى يا جبريل آن الله يحب فلانا فأحبه فيحبه جبريل فينادي جبريل في أهل السماء أن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض.

(٢) في جميع النسخ البيوضة.

وأما الريح فهو الوارد على القلب الذي يوجب حبا للمحب وشوقا للشائق وعشقا لذي عشق وخوفا ورجاء وبسطا وهيبة وأنسا وغير ذلك من المقامات إذ الوارد ريح قطعا.

وأما الفتائل من ضباب فهي معاني الأسماء والأذكار.

وأما الضباب فهي الحالة المستمدة منها المعاني فإنها كالضباب ولذلك كانت بداية للمبتدى إذ هو جاهل للعواقب وقد علمت أن الضباب يمنع بعض الإشراق بحيث لا يصفو لصاحبه وقت ولا يعلم حقيقة مقامة الخ فإذا علمت هذا علمت أن كلام الأولياء متشابه فلا يعلمه إلا الله الذي أورده عليهم والراسخون في العلم والمعرفة ولذلك لا يجزم بان هذا معناه بل إنما يقال لهذا أشار والله أعلم من غير جزم لأن مشربهم قد يكون خاصا بهم فلا يفهم ما عبر به عنه إلا تلويحا وقد يكون عاما فيفهمه كل من كان في ذلك المشرب لقوله تعالى قد علم كل أناس مشربهم فلم يبق إلا الاستسلام والتفويض لأمر الله تعالى غير أن باب الفتح ليس مسدودا عن العارفين انتهى.

انعطاف في تكميل ما تعلق بأحوالنا بيسكرة فإننا قد بقينا فيها يومين في شراء الرواحل وما يختص من جهاز النواقل[١] ومع ذلك نحن مشتغلون بزيارة الأفاضل الأحياء والأموات مثل الشيخ الولي الصالح البدر الواضح سيدي أبي الفضل تلميذ أبي الفضل النحوي المشهور والشيخ سيدي زرزور[٢] مع من فيها من الأولياء وإن كان عن بعد مع دخولنا المسجد الجامع الأكبر الواسع ذي البنيان الشاخ فلم يوجد فيا علمت أحسن منه ولا أوسع ولا لا أعظم في المساجد المعلومة غير انه كالعدم في

---

(١) في نسخة القواقل.

(٢) في ثلاث نسخ حرور وفي واحدة احرور أو احرور.

زماننا لا ندراس العلم وأهله إذ لا تجد طالبا يقرأ القرآن أو يتعلم مسألة من العلم فيه إذ مثله لا يخلو عن ذلك وهذه المدينة قديمة مشهورة بالعلم والولاية والجد في طلبهما فلما خربت وانجلى أهلها من جواره بان سكنوا(١) واستقروا في البساتين انعدم ذلك منه فساء أمره وإن عظم جرمه نعم حتى صلاة الفرض بالراتب انقطعت منه فلم يبق فيه إلا صلاة الجمعة وقد علمت ما فيه من التردد وأما بعد المسجد من العمارة الآن فلا يضر في صلاة الجمعة فيما عسى أن يخدش في ذلك فمردود لأن اتصال الخراب بمسجد الجمعة كاتصال العمارة به وإن بعد جدا كمسجد عمرو بن العاص بمصر العتيق وانعكاس الدخان على الخراب كانعكاسه على العمارة ولا يشترط انعكاسه حقيقة بل انعكاسه حكما كاف وان لم توجد عمارة أصلا فضلا عن الخراب كتوسطه في البلد بان تكون العمارة محفوفة به أي بجوانبه كأكثر مساجد المنشية فأن أكثر مساجدها كذلك وكذا غيره خارج طرابلس كالساحل ومسراتة وما فيه البساتين المسكونة ولا شك في انعكاس الدخان عليه وذلك كأبي فلم يبق لقائل ما يقول فلا يشك عاقل في صحة الجمعة في مسجد بحدوس في زمورة وما زعمه بعض الطلبة كما كنت اسمعه من القدح في الصلاة فيه لعدم انعكاس الدخان ظنا منه أن دخان العمارة لا بد أن يتصل بجداره وذلك غير صحيح إذ الحق ما سمعته أنظر تلامذة الأجهوري كالعلامة المحقق الشيخ عبد الباقي وشرح الزروق على القرطبية وغيرهما من دواوين المالكية وإياك والإسراع إلى الإنكار فانه غرة ومكر لصاحبه فيها عجبا لمن لم يشاهد النقول ولا الأوطان التي استقر فيها ذوو التصانيف المشهورة والتآليف المعتبرة فإنهم أمروا بتلك المساجد البعيدة المحفوفة بعمارة بحيث إذا انعكس الدخان لا يصل إليها البتة وإنما المراد بانعكاسه بحيث يكون متوسطا في العمارة وان لم يصل دخانه لجداره هذا هو المراد بدليل رؤية العلماء لذلك

---

(١) في نسخة وانجلى أهلها من جور الحاكم بان يسكنوا.

ومشاهدتهم لما هنالك والإقرار عليه كاف ومأذنته عظيمة وقد تقدم بيان ما فيها من الدرج ومع ذلك أنها واسعة بحيث يصعد إليها الدواب بالأحمال المثقلة من غير تعسف ولا تكلف لكن أقول كما قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر اجتمع عليها أمران ظلم الأتراك وظلم الأعراب فكانت بينهما كالكرة[1] في أيدي الصبيان مع نفوذ الوعيد فيها من أمر الوباء حتى صارت في قلة بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار بل عن أوصاف المدن الصغار فهي الآن لا حمام فيها ولا سوق يعتبر منها غير أن الأتراك استولوا عليها استيلاء عظيما وما كان من المدارس والأحباس التي لم توجد في الأمصار هي في أيديهم يأكلون منها وينتفعون بها أتم انتفاع كالأملاك الحقيقة المباحة بل هي ليست لهم ولا أنهم من أهلها بل لما تمردوا وطغوا جعلوا جميع الخطط الشرعية لهم ظلما وعدوانا وهذا والعياذ بالله سبب اندراس العلم وأهله من كل وطن يوجد فيه ذلك.

وقد سمعت أن القاضي والمفتي فيها لا يتولى إلا بإعطاء لهم وارتشاء لديهم وكذلك في غيرها من عمالة الجزائر وقد قال بعض الفقهاء ممن شرح على المختصر كالشيخ إبراهيم الشبرخيتي أن المتولي للأحكام الشرعية بإعطاء منه فإحكامه مردودة وإن وافقت الحق[2] وصلاته للجمعة باطلة إن كان إماما فإن بطلت عليه بطلت على جميع من اقتدى به فينبغي للإنسان أن ينظر من كان سالما من هذه الجرأة الكبيرة والفرية العظيمة فيقتدى به أقول قد كان والدي رحمه الله ونفعنا به متبعا للسنة النبوية ومقتفيا للأحكام الشرعية حتى صارت له السنة طبيعة من طبائعه وصفة من أوصافه جعل المدخل وابن أبي جرمة أمامه بحيث تؤخذ السنة من فعله وقوله وحركته وسكونه واعتقاده إذا ذهب إلى بجاية وأدرك الجمعة هناك فلا

---

(١) في جميع النسخ كالكورة.

(٢) في نسخة وإن وقعت على الحق.

يصليها مع أئمتها لما علم منهم ذلك وإنما يصليها ظهرا معتذرا بما ذكرناه وينهى مريد الصلاة معهم على انه راغب في تحصيل فضلها وقد اهتم بشأنها إذ يقول بوجوبها في أكثر القرى من بلدنا وكان رضي الله عنه يذهب لتحصيل فضلا لا بعد المساجد في وطننا نحو الثمانية أميال أو أقل لقلة الاعتناء [بمن قرب منه بها وكذلك الأحكام الشرعية فإنهم لا اعتناء][١] لهم بها إذ كم من شعيرة من شعائر الإسلام قد تركت ونبذت في وطننا بان بدلت بالضد والعياذ بالله تعالى ومع هذا فان أهل وطننا لم يعدموا علماء ولا إفادة في كل العلوم أو جلها قراءة تحقيق وبحث غير أن النفع مقصور على الإذعان[٢] أي الامتثال نعم الآن والحمد لله قد رجعت الناس إلى الإذعان بها وإقامة الجمعة في أكثر الأوطان والمواطن على الوجه الشرعي بل أكثر الأحكام العادية من أحكام الجاهلية قد تركوها ونبذوها وراء ظهورهم والحمد لله على ذلك فإنهم كانوا قبل ذلك يتخذون رؤساء جهالا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا الغير ومن عادتهم القبيحة وأفعالهم الشنيعة قطع الميراث للنساء بل زادوا في الضلال أن الرجل ذا مات ورث أخوه ماله وزوجته كما كان في الجاهلية قبل الإسلام إذ المشرع تلك[٣] الأحكام وهو الشيطان حي لم يمت فقويت دسائسهم بكثرة المخالفة نعم الإنسان إذا رأى أخا له أو ابن عمه ذا مال قتله وأخذ ماله وأهله إلى غير ذلك من أوصافهم الردية والعياذ بالله.

تتمة وانعطاف إلى ما كنا بصدده من الإقامة بالمدينة المذكورة وزيارة الفضلاء فيها الأحياء والأموات على سبيل الجملة والتفصيل من غير تخصيص[٤] عن العامة

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في ثلاث نسخ الأذان.

(٣) في نسخة لتلك.

(٤) في ثلاث نسخ محيص.

والخاصة والأفاضل والأوباش من النساء والرجال حقق الله لنا بركة الجميع بمنه وكرمه هذا وأن التعبير عما سبق لهذه المدينة من الفضل والاعتبار، والاشتغال بالعلم والأذكار، ومن كان فيها من المقربين الأخيار، أفاض الله علينا من بركاتهم، ورزقنا من نفحاتهم، التعبير[1] والتفوه بمحاسن أهلها وما فيها من البساتين المنتخبة، والأشجار الطيبة، والأحوال المزخرفة، والأبنية المشرفة، العالية الشامخة المتلطفة، فالاليق[2] الضرب عنه صفحا، والطي عنه كشحا، بعد الاغتنام بما هو مقصود بالذات الذي هو الاقتباس من أنوارهم والتحلي بحللهم والاستمداد من مددهم[3] الذي كان سابقا ولاحقا بحسب الزمان والمكان والأشخاص والأنواع فجدير أن يكون لنا نصيب من ارض الكرام [أمر محقق وحال مشهور][4] نعم قد ظعنا بعد التمكين والاستيفاء من أهلها ما قدر لنا حسا ومعنى إلى القرية الطيبة الشريفة بتربة صاحب النبي المختار صلى الله عليه وسلم وسيدنا ومولانا ذي الفضل والمجد الأثيل عقبة بن نافع القرشي الخ فلما وصلنا إليها نزلنا تحتها وفرغنا من أشغالنا المتعلقة بالنزول من بناء الخيام وحط الرحال ورعي الإبل والصلاة وشروطها إذ نزلنا فيها عند الظهر أوائل رجب سنة ١١٧٩ تسع وسبعين ومائة وألف ذهبنا إلى زيارة المشار إليه ذي الأنوار، التي أقتبسها من صحبة النبي المختار، صلى الله عليه وسلم وكرم فكان الفتح منه لأنه باب الله الأعظم، وسلمه المضيء الأفخم، وقد قال تعالى وأتوا البيوت من أبوابها وهو أحسن الأبواب والوسائل على أننا قد اعتصمنا بالعروة الوثقى وإن كان معنا بعض سيء الأدب معه لأن من أساء الأدب مع واحد

---

(١) في نسخة بإسقاط العبير.

(٢) في نسخة اللائف.

(٣) في نسخة بمددهم.

(٤) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

من أصحابه(١) فقد أساء معه صلى الله عليه وسلم ولما وصلنا إلى قبرة الشريف، وتربه(٢) المنيف، أتينا إلى قبالة وجهه وجسده الظريف، كما ورد به الخبر وهو انه من أتى زائرا لضريح ولي من أوليائه أو نبي من أنبيائه أو صالح من صلحائه يقف عند رجليه أو عند وجهه مستقبلا المزور ثم يسأل الله تعالى بجاهه أن يمنّ عليه بغية المسئول والمأمول من خير الدنيا والآخرة وقد رأيت في بعض الأخبار وأظنه في حلية أبي نعيم أنه يقول عند ذلك اللهم بجاه أنبيائك وأصفيائك وصهيب وعمار بن ياسر(٣) وأويس القرني وعبد الله بن الحصين وعبد الله بن المبارك [وأبي يزيد البسطامي](٤) وأبي القاسم الجنيد ولا أدري هل زاد معروفا الكرخي أم لا وبجاه صاحب هذا الضريح فلان بن فلان أن تمنّ علي بكذا وكذا أي بأن يعين حاجته دنيوية أو أخروية فانه يجاب لذلك بمنه وكرمه وجاههم وفضلهم وقد فعلنا ذلك والحمد لله على منته والتفضل ببركته، والوصول إلى تربته، والتنعم بمشاهدته، فابتهلنا في الدعاء بجاهه وبجاه من خلقت الدنيا والآخرة من أجله صلى الله عليه وسلم.

[نعم عقبة هذا قد ولد في زمانه صلى الله عليه وسلم ولذا قيل أنه صحابي](٥).

لطيفة فان الوقوف عند أبواب الأولياء والسؤال منهم والاحتياج إليهم والنظر في وجوههم أو مشاهدة قبورهم والتضرع لله بين أيديهم والتحبب لديهم والتوثق

---

(١) في نسخة قد اعتصمنا بالعروة الوثقى واستعملنا الأدب معه لأن من أساء الأدب مع واحد من أصحابه.

(٢) كذا في نسختين وفي نسخة تربة قبره المنيف وفي أخرى تربته المنيفة.

(٣) في ثلاث نسخ يسار.

(٤) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

(٥) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

فيهم[1] والشغف بهم والذل والمسكنة عندهم لقدر جليل عند الله والله أجل وأعظم من أن يرد من هذا وصفه وعليه حاله خائبا حاشاه من كريم أن يفعله وما عداه[2] من ذي جود أن يعمله لأن المحبوب عند الله قريب لديه يستحي أن يرد من تشفع به وأيضا لا يوفق إلى زيارتهم ومحبتهم وقضاء مآربهم إلا سعيد وأنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم لأنهم أحياء في قبورهم والله تعالى يقول ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون الآية هذا في شهداء القتل وشهداء المحبة أفضل لأن شهداء القتل أرواحهم في حواصل طيور خضر يسرحون بها في الجنة وشهداء المحبة بأجسادهم في حواصل طيور خضر يسرحون بها في الجنة أيضا فانظر هذا الفضل العظيم اللهم اجعلنا من أهله وحققنا بكرمه ومنه انتهى.

ولما فرغنا من زيارته وزيارة مسجده وهو مسجد عظيم يستحسنه كل من رآه سيما أنوار هذا الصحابي مشرقة عليه وعلى زائره وعلى محبيه ومحب محبه ومجاوره.

وزرنا من كان في القرية أيضا وقد قيل أن بعض الصحابة مدفون في بعض نواحيه وقد زرناه والحمد لله وزرنا من كان في القرية جملة وتفصيلا أحياء وأمواتا خصوصا الأشراف المستقرين فيها كمشائخهم وأفاضلهم[3] وهذه القرية كثيرة النخل والمزارع وهي على ماء جار حلو عذب بارد في الصيف ومع ذلك فهي أرض حارة في الصحراء غير أن ماءها يأتي من الجبال مملوك لبعض أهل القرية ومن كان خارجا منها وقد تشرفت هذه القرية على سائر القرى من الزاب وعلى مدينة بسكرة بهذا الصحابي العظيم افتخاره والسني أنواره والعلي أسراره وهم في عيش هنيء

---

(١) في نسخة التشرق فيهم.

(٢) في أربع نسخ عاداه.

(٣) في ثلاث نسخ كشيخهم وأفضلهم وفي أخرى كشيخهم وأفاضلهم.

وأمد سني غير أنه أصابت الشرفاء جائحة الفتنة وعوائق العداوة فهم فريقان فريق في القرية وهو المتمكن المعتصم بأولي الولاية من الترك والمتمسك بجاههم إذ من تمسكت بهم تفرض على غيره[١] وفريق آخر خارج عنها مستقر بغيرها من قرى الزاب ومدينة بسكرة حتى يفتح الله عليهم وهو خير الفاتحين لأن الدهر قُلّب إن دام لشخص يوما فبعده يتقلب قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ الآية غير أن جدهم خير الخلق وأفضلهم على العموم يذب عنهم ويحفظون لأجله فأن كان الصالح يراعي إليه في أولاده فأولى النبي صلى الله عليه وسلم في قرابته وكيف لا والله يقول: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾.

لطيفة قال الشيخ سيدي أحمد زروق نفعنا الله به في حقهم أنه يجب على الناس تعظيم الأشراف أي تعظيم ومحبتهم واعتقادهم لوجه جدهم الذي انتموا إليه وانتسبوا إليه وإن يعتقدوا أيضا أن الله يغفر لهم لا لشيء أسلفوه ولا لأمر فعلوه وإن وقعت منهم أذاية لأحد فيجب أن يعتقدها كالأمر السماوي من الله وكالغرق والحرق وأما هم فيجب عليهم أن يعتقدوا أن معصيتهم أكبر المعاصي لأن الفلاح مع الملك يعمل ما ليس بصلاح ويقابل بالسماح والوزير يجلس مع الملك على السرير ويخنق بالحرير اهـ.

فأنت ترى أيها المخاطَب إلى هذا الجانب الأعلى العظيم[٢] فكيف يبغضون ويؤذون وأن ذلك من أكبر المقت وقد قال القسطلاني في المواهب اللدنية في السيرة النبوية من المعاصي التي لا تغفر أصلا ولا تقبل فيها التوبة بغض آل النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

(١) في نسخة فاز عن غيره.
(٢) في نسخة الجانب الأعظم.

ٱلْفَسِقِينَ ﴾ انتهى.

فإن قلت كل الناس يدعي[١] الشرف وتعظيمهم مشقة عظيمة وعسر عظيم في الدين وتصديقهم تعسف فيه فكيف العمل فهل يصدق الجميع أم يكذب الجميع أم البعض دون البعض وتصديق الأول باطل وكذا الثاني لبطلان كون الجميع شرفاء أو لا شرف فيهم وكذا الثالث باطل للتحكم لاستواء الناس في نظر العقل.

قلت الحق بين والدواعي كلها باطلة فلزم أن يكون ممنوعا وسند المنع أن الأنوار النبوية ظاهرة بينة لا غبار عليها.

وقد قيل لبعض الأشراف ما منعك أن تتوسم بعلامة الشرف فقال منعني من ذلك أن أنوار النبوة هي أدل دليل فكيف يصح أن يكون لها علامة من غيرها ولذا قيل:

جعلوا لأبناء الرسول علامة[٢] ... أن العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة في كريم وجوههم[٣] ... يغني الشريف عن الطراز الأخضر

فإن قلت هذا لأرباب القلوب ومن يراعي الخواطر وكل الناس ليس عليه لغلبة الهوى والسلطان الجهل والتعلق بالسوء[٤] وذلك صدأ مرآة الضمائر والعقول فلا يظهر الشريف من غيره لكل الناس إذًا فلا بد من علامة أخرى تشترك فيها الناس كلهم.

---

(١) في ثلاث نسخ تدعي.
(٢) في نسخة لأولاد النبي.
(٣) في نسخة في وسيم وجوههم.
(٤) في ثلاث نسخ بالسوا وفي أخرى بالسوى.

قلت الأمر كما ذكرت غير أن الأحكام الشرعية والقضايا الإلهية حكمت بأن الشريف مصدق في نسبه كما يصدق في ماله فإن حيازة الأموال معتبرة شرعا كذلك حيازة النسب والحيازة في الأموال لا بد وأن تكون في أمد طويل بحيث يقطع أن هذا لمن حازه ويقوم الأمد الطويل مقام البينة القاطعة به كذلك النسب فلا بد وأن يكون أمدا طويلا يقطع فيه العقل والعادة بأنه لا خلل فيه إذ لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وحينئذ الناس مصدقون في أنسابهم لوجود الحيازة فيها كحيازة الأموال قاله الأجهوري إذ قال الناس على ما حازوا من أنسابهم فيصدقون فيها عملا بالحيازة كما يصدقون في الأموال عملا بها انتهى بالمعنى.

قلت قال الشيخ عبد الباقي في باب مصرف الزكاة بكسر الراء الشرف يثبت بالشهرة اهـ فأنت ترى أن الشرف يثبت بالحيازة وبشهرته فتبنى عليه أحكامه من تحريم الصدقة وتعظيم جانبه لأجله وثبوت حقه فيما لا حق فيه وغير ذلك فيما[1] يثبت فيه اهـ.

انعطاف إلى ما كنا بصدده وهو انه لما فرغنا من زيارته وزيارة غيره رجعنا إلى الركب وأقمنا تلك الليلة في حفظه[2] وعنايته إلى أن تنفس الصبح قام الركب لتجهيز الرواحل من هذه القرية نعم هذه القرية ليس لها نظير فهي أحسن ما وجد في البلاد مزارع وأشجار ومياها كما تقدم وحسنها في المعنى أكثر بالسيد عقبة وإن كان ليس بصاحبي وإنما سمي صحابيا لكونه ولد في زمان النبي صلى الله عليه وسلم فمن نظر إلى ذلك سماه صحابيا وإلا فالصحابي حقيقة هو من اجتمع بالنبي[3] صلى

---

(١) في نسخة مما.

(٢) أي في حفظ سيدي عقبة.

(٣) في ثلاث نسخ مع النبي.

الله عليه وسلم اجتماعا متعارفا بحيث تقضي العادة أن ذلك الاجتماع يفيد الصحبة احترازا عن الاجتياز فلا تثبت به الصحبة ولا يشترط فيها الرؤية ولا الرواية عنه وإنما هو تابعي لأن من رأى الصحابة تابعي ونور النبوة إنما يشاهده شخص أو أشخاص وهو فتح إلهي ووهب رباني ونور صمداني لأن خواص النبوة وأنوار الولاية موكّلة لأهلها من المحبوبين لديه جعلنا الله منهم آمين.

انعطاف والخنقة قرية مباركة طيبة ذات نخل وأشجار في وسط واد بين جبلين وقد قيل أنها تشبه مكة في وضعها(١) وفي البركة غير أن التشبيه في بعض التغالي لكن كلام الأولياء مقبول فيؤوّل بما يوافق الشريعة من غير تلبيس ولا التباس نعم لها فضل عظيم سيما إظهار العلم فيها فإنهم مشتغلون بالنحو والفقه والحديث خصوصا مختصر البخاري لابن أبي جمرة وأما علم الكلام والمنطق فمنعدم في محلهم رأسا وقد سألتهم عن عدم الاشتغال بعلم التوحيد فقالوا وهل يحتاج الشمس إلى دليل في قوة قضية قائلة أن الله لا يحتاج في معرفته إلى دليل وبرهان واتقان عقائد كأنه ضروري عندهم زعما منهم أن أبي جمرة نهى عن الخوض فيه بأن قال يحرم الخوض فيه وإنما يقرأ على مذهب السلف الصالح أي الصحابة رضوان الله عليهم.

قلت هذا من الحرمان البين والخذلان المتمكن والقساوة الجلية إذ لا يمكن هذا شرعا فان العلم بحقائق الصفات والحكم بوجوبها للذات العلية أي الجزم بذلك من غير دليل عقلي وكذا ما يستحيل عليه وما يجوز في حقه ظاهر الرد شرعا إذ اختلف فيمن هذا وصفه هل هو مؤمن لكونه جزم بالعقائد والحكم بها للمولى جل جلاله مع عصيانه وهو الراجح عند الكثير من العلماء أو كافر يخلد في النار مع سائر الكفرة وهو الذي رجحه الشيخ السنوسي في شرح كبراه بان نسبه للمحققين [في

(١) في نسختين وصفها.

برهان الوحدانية][1] كالشيخ الأشعري وإمام الحرمين وغيرهما إلى أن قال وهو رأيي فأنت ترى أيها المخاطب أن هذه دسيسة دسها اللعين لهم ولم يتفطنوا لما هم عليه من الكفر إجماعا أن لم يحصلوا مرتبة التقليد أو على الخلاف أن حصلوها وأي مصيبة وبلوة ومحنة أعظم من الكفر بالإجماع أو على الخلاف فإن قالوا هذا ممنوع في حقنا وسند المنع كوننا على العلم فإننا نحفظ القرآن ونفهم السنة وأدلتها كافية وتقليد المعصوم كاف حسبما صرح به غير واحد كابن عرفة وغيره فما هذا إلا تحامل منك.

قلت هذا لا يسمن ولا يغني من جوع لما علمت أن بعض المعتقدات كالوجود والسلب[2] غير الوحدانية فان فيها خلافا في الاكتفاء بدليل النقل فيها أو لا بد من دليل العقل وهو الراجح [فلا بد فيها من دليل العقل فلا يكفي فيها دليل النقل][3] إذ لو عرف بدليل النقل لدار [وما دار لا يحصل علما][4] وبيان الدور ليس هذا محله وكذا مصححات[5] الفعل كالقدرة والإرادة والعلم والحياة فلا بد فيها من دليل العقل أيضا وحينئذ ما تخيلوه من الاكتفاء في التوحيد بأدلة النقل واضح الرد وما ذكره ابن عرفة من الاكتفاء به أما خاص بالمعتقدات كالذي يرجع[6] للكمال كالسمع والبصر والكلام ونفي النقائص عنه فإنه يكفي دليل النقل فيها ولذا قال بعضهم أعني ابن زكري:

قالوا حديث النقص والكمال ... من الخطابة في الاستدلال[7]

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

(٢) في ثلاث نسخ السلوب.

(٣) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٤) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٥) في نسخة مصححة.

(٦) في نسخة كالتي ترجع.

(٧) في نسخة حديث الكمال من الخطابة في الاستدلال.

والخطابة بفتح الخاء قضايا مقبولة تصدر من المقبول غير النبي[١] كالصالح والعالم والعامل ومن حلي بالقبول من الله وعندهم أدلة النقول للمعقول من الخطابة أو كلام ابن عرفة عام فيها غير أنه ضعيف جدا فلا يصح الاستناد بل لا يصح ذلك لأن من لم يعلم الله كيف يعلم أن الكلام كلامه ولعله أن يكون الكلام المستدل به لغيره وما ذكره ابن أبي جمرة أيضا من حرمة الخوض في علم الكلام إنما هو بعد معرفة القدر الواجب فالقدر الواجب المكلف به البرهان[٢] العقلي ولو إجمالا هو ما يحصل للقلب اطمئنانا بحيث لا يقول سمعت الناس يقولون شيئا فقلته والإجمالي هو المعجوز عن تقريره وحل شبهه والذي يحرم الخوض فيه هو المختلط بشبه الفلاسفة ككتاب الفخر وطوالع البيضاوي وغيرهما هذا لغير راسخ في السنة فلم يبق إلا كونهم على الخطأ في الاعتقاد نعم كل أحد من الناس لا بد وأن يكون له ما يشعر بالنقص والعصمة للأنبياء وأما الكمال فهو لله عز وجل.

تتمة أولاد الشيخ سيدي ناجي قد حازوا المعالي من قديم الزمان وقد وجدت كثيرا من الفضلاء منهم في محلهم كسيدي محمد بن الطيب وسيدي أحمد بن ناصر وفقهاء وقراء وفيها الولي الصالح تلميذ الشيخ سيدي أحمد بن ناصر وهو سيدي عبد الحفيظ أعني أولاده وأما هو فقد وجدته ميتا قبلي بنحو شهرين وقد أخذ عنه مباشرة وإنما أدركت الذي أخذ طريقه وهو سيدي بركات وإخوانه وأولاده وسيدي السعيد ومدرس المسجد وغيرهم من طلبة العلم وفضلاء الوقت فإن النحو عندهم يعتني به الكبير والصغير حتى أنهم اشتهروا به اشتهارا بينا وبالجملة فمحلهم مشهور بالفضل والعلم والهمة غير أنه يتحاسدن عن تولية الرئاسة التي كانت بأمر رباني والآن صارت بالضد والعياذ بالله أصلح الله حالهم ووفق كلمتهم ونفعنا ببركة

---

(١) في نسختين بإسقاط غير النبي.

(٢) في نسخة بالبرهان.

أسلافهم وبركتهم آمين.

وفي تلك الحجة وهي عام ثلاثة وخمسين ومائة ألف (١١٥٣) ذهب معنا العلامة الفاضل والمنور الكامل تلميذ سيدي عبد الحفيظ المذكور سيدي أحمد التليلي[١] كان كريما فاضلا بحيث لا صبر له عن إطعام الطعام في الطريق وكان يعرف السير كثيرا على أني زرت معهم في بدر ومكة والمدينة المشرفة فكأنه هو الذي وضعهم في التراب وله يد في العلوم كلها من غير تخصيص أي العلوم الظاهرة فقد كان واحد عصره وفريد زمانه وكذا علوم الحقائق ومثله علم الأوفاق فانه لا نظير له فيما علمت ومع ذلك أنه موفق غاية التوفيق، وأقبل على الله بكله بالتحقيق، وقد طلبني لعلم الأوفاق لأخذه عنه فامتنعت لكون قلبي حينئذ متعلقا بالله بحيث لم يترك لي سواه بان غلب على سطوة الوارد وكان رضي الله تعالى عنه يكتب المعارف يسمعها مني حين يتقوى علي[٢] سلطان الوجد وكان بديع الخط سريع اليد فيه وكان ينسخ كراسا وأخذه من القالب الكبير في برقة ونحن مسافرون وأما يوم الإقامة فكان أكثر من ذلك وقد زبر في برقة رحلة الشيخ سيدي أحمد بن ناصر وزاد كتاب الصباغ في كرامات الشيخ سيدي أحمد بن يوسف وقدر الجميع ما يقرب من ستين كراسا ورجعنا إلى أن نزلنا توزر ونفطة إلى أن زرنا جيعا الولي الصالح، والقطب الواضح، سيدي عبد الحق فيها ولم تكن له طريق وإنما طريقه من قابس إلى قفصة ثم إلى محله فريانة وهي بين قفصة وتبسة وقد زرت محله والحمد لله وانفصلنا عنه حين أرتحلنا من نفطة وعند الافتراق أزال جبة صوف عن جسده فالبسها لي وعلمت أن الله تفضل علي بذلك ثم انه عند الانفصال قال لي أخاف عليكم من المحاربين بان قال قد ثبت عندي بأنهم خارجون إليكم ولا أدري أذلك من طريق الكشف وهو

(١) في نسخة التليلتي.

(٢) في نسخة عليه.

الأنسب به والأليق[١] بمقامه أو سمع ذلك ممن يوثق به فلما أخبرني بهذا رسم جدولا في الأرض وخط خطا وأمر جميع الحجاج أن يمروا بذلك الخط فمر عليه جميعهم إلا كاتب الشيخ كان متخلفا عنا لم يمر به.

وفي ذلك اليوم تلاقينا مع عدو نفسه المحارب لله ولرسوله الشيخ ابن روب وهو شيخ من شيوخ نفزاوة خارجا عن ولاية صاحب تونس بان استقر في وادي ريغ والله اعلم في ثلاثين من الخيل وعشرين رجلا ومعهم السلاح القوي والزاد على الإبل وأتى إلينا عند صلاة العصر فأعلمناه بأننا حجاج ووفد من وفود الله ورسوله وأظن أن الشيخ أعطى له شيئا أحسبه فضة[٢] فذهب عنها ونحن جددنا[٣] في السير خوفا من شره إلى ثلث الليل أو نصفه فلما ارتحلنا والماء عندنا قليل ووصلنا إلى الماء عند الضحى فغاروا علينا ونهبوا فرسا للشيخ فردها منهم بالقهر ثم غلبونا على الماء بان نزلوا عليه ونحن خارجه ومع هذا قد عدمنا الماء من الركب غير انه موجود عند بعض الناس نحو الخمسة أزقة وكذا المكاحل نحو العشرة وقد داروا بنا كالحلقة وكثر[٤] الرصاص بأن ينزل علينا كالمطر ومع ذلك والحمد لله أن من وقعت فيه رصاصة نزلت كالطين بحيث لم تضر أحدا إلا الكاتب الذي لم يمر على الخط أتت بندقة ووقعت فيه تحت السرة بان دخلت في الجلد مقدار أنملتين فرجعت بإذن الله غير انه مكث أياما فتضرر من ذلك ثم عفي والحمد لله وأما هم فقد مات منهم والله أعلم اثنان أحدهما أصيب برأسه والضارب له الحاج خليل بن قاصد علي[٥]

---

(١) في نسختين اللائق.

(٢) في نسختين فضلة وفي أخرى بغلة.

(٣) في نسخة جدّ بنا السير وفي نسختين جدّينا.

(٤) في ثلاث نسخ كثروا.

(٥) في نسختين قاسط علي وفي أخرى قاصط علي.

الزموري ثم التركي هذا هو المحقق وقيل انه الحاج محمد بن معمر اللمداني صهر والي الجزائر كور عبدي[١] والآخر لا علم لنا بضاربه ولا بمحل الإصابة وأما الخيل فقد مات منها نحو ثلاثة أو أقل والحرب من الصبح إلى قرب العصر نعم صلينا على نحو صلاة المسايفة بالقسمة فرقة كانت تجاه العدو والأخرى تصلي مع الإمام فلما فرغت ذهبت تجاه العدو حتى صلت الأخرى ثم حدث لنا العزم التام والحزم[٢] العام أن نذهب إليهم دفعة إلى المطعن ويكون القتال على الماء أما أخذونا أو أخذناهم فلما رأوا تصلبنا وعدم الإذلال له بل لا نزال نزاد في الشجاعة ذهب إليهم فقير سيدي أحمد بن الشيخ الدراوي فوجدهم خائفين مرعوبين ثم رجع الفقير فمكثنا غير بعيد حتى أتى إلينا شيخهم مع فارس من فرسانه يطلب العفو والدخول إلينا ونحن نمتنع من ذلك فاشترطنا عليه أن دخل يترك فرسه عن بعد منا ويأتي إلينا على رجليه بلا سلاح فالتزم ذلك ثم دنا منا على نحو ما اشترطناه فيه فلما وصل إلينا عزمت على قتله لأن لم يأت تائبا إلا بعد القدرة عليهم والله يقول: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾ فمسكني الحجاج ومنعوني من قتله ثم اشترطوا عليه أن لا يبيتوا على الماء فقبل ذلك والتزم العمل به ثم طلب البارود من الشيخ إذ المزود منه بين يديه فامتنع من إعطائه وقال والله لا أعطيه إلا في بطونكم فلما انصرف من عندنا ارتحلوا عن الماء بنفس وصوله وبتنا عليه نحن إلى الصبح ثم ظعنا إلى الحامة[٣] المذكورة وعلمنا أن نصر الله لنا إنما هو ببركة الشيخ نفعنا الله به وبأمثاله بمنه وكرمه اهـ.

انعطاف إلى التكلم فيما نحن بصدده وهو أننا نزلنا قرية الحامة فيها نخل كثير

---

(١) في ثلاث نسخ كور عبد وفي نسختين كورغلي.

(٢) في نسخة الحزم.

(٣) في ثلاث نسخ الحنفة.

ومياه عظيمة طيبة وفيها حمام يجري ماؤه قوي بحيث عم غالب القرية وماؤه حار كأنه تحته نار عظيمة بحيث من أراد الاغتسال فيه لا يقدر على الاغتسال فيه بغتة لشدة سخونته(١) وغير ذلك من أوصافها.

ثم ارتحلنا منها فنزلنا توزر وقت الضحى وهي بلدة عظيمة من قواعد الجريد كثيرة النخل مع جودة تمرها إذ لا نظير له في سائر بلد(٢) الجريد قوية المياه فيها إنها وماؤها عذب وبناؤها شامخ مستحسن مرونق فهي أفضل من بسكرة لأن بناءها بالطوب وهي بناؤها بالأجر والجير والجبس في غاية الإتقان مع طول البنيان إلى العلو(٣) وسعة عرضه حاصله أنها قرية طيبة جيدة وذلك عام في الدور والمساجد بخلاف بسكرة فإن حسنها في مسجدها فقط.

وقد قال سيدي أحمد بن ناصر في رحلته ما نصه وتوزر هذه هي قاعدة بلاد الجريد من عمالة تونس ووافينا بها في الحجة التي قبل هذه عام تسعة أمير تونس رمضان باي بمحلته جاء لقبض الخراج الموظف على البلد كما هي سنتهم وسنة من اقتدى بهم قطعها الله من سنة وأخل منها جميع أراضي الإسلام بلا محنة وملاها بالعدل المستقيم والدين القويم وما رأيت ببلاد الجريد أكثر منها نخلا وأحسن منها بناء وأوسع بعد بسكرة ساحة وأغزر ماء وبناؤهم بالأجر فلذلك كان أحسن من بناء بسكرة ما عدا المسجد والمنارة فقد قدمنا من وصفها ما يغني عن الإعادة وبها من الثمار ما لا يحصى عدده إلا الله يرد عليها من الأعراب الآلاف المتؤلفة ويملأ كل واحد أبله بما شاه من الثمار وتمرها من أجود تمر الجريد ومياهها غزيرة وجناتها كثيرة

(١) في نسخة بحيث من أراد الاغتسال فيه بغتة ربما هلك أو تضرر لشدة سخونته.
(٢) كذا في جميع النسخ.
(٣) في نسخة بإسقط إلى العلو.

ينساب فيها واد كبير منبعه من غربيها وأعرابها أهل بادية مخصبة يرخص فيها غالبا سعر السمن واللحم وأما التمر فيها فرخيص جدا لا يكاد يكون كدرعة[١] وأمثالها ولكن اضر بأهلها جور الولاة حتى كاد الخراب يستولي عليها لضعف أهلها بالجبايات الظلمية وقد بنى بها محمد باي عفا الله عنها وعنه مدرسة للطلبة جيدة بإزاء مسجد جيد متقن ببناء رائق أعمدتها كلها رخام وبنى أخرى بقابس مثلها أو أحسن عفا الله عنا وعنه.

وقد كثر جور الأتراك بهذه البلاد، وشاع بها الظلم والفساد، أخبرني بعضهم إنهم كانوا يعطون ستة نواصر على كل نخلة وأربعة على كل زيتونة والناصري اسم لسكة عندهم معروفة اثنان وخمسون في كل ريال لكل عام.

وأخبرني بعض الشرطيين في الحجة قبل هذه أن خراج الجريد من نفطة إلى قابس خمسمائة ألف ريال لكل عام وخراج جربة وحدها ستون ألفا ومئونة مائتي صبايحي[٢] من البر والأزر والسمن والخل والزيت واللحم فالله تعالى يقطع جور الجائرين[٣]، ولا يصلح عمل المفسدين.

ونفطة أيضا مدينة كبيرة[٤] قريبة من توزر ولها واد مثل واديها ويقال إن خراجها مثل ثلثي خراج توزر اهـ.

تنمة في الحجة الأولى عام ثلاثة وخمسين ومائة ألف (١١٥٣) نزلنا بها في الرجعة فوجدناها كما يليق من كثرة الأرزاق وكثرة الخلائق وقد قدم معنا من

---

(١) من قوله من الاعراب الآلاف المتؤلفة إلى قوله كدرعة بياض منقطع في ثلاث نسخ.

(٢) في الرحلة الناصرية صباحي والأولى يبـاهي وهو الفارس.

(٣) في نسخة ومؤنة الجائرين بإسقاط ما بين مؤنة والجائرين.

(٤) في نسختين بلدة طيبة وقريبة.

الحجاج من توزر من أكابرها ومن ذوي رئاستها فأكرموا من كان في الركب في ديارهم وما رأينا مثلها في البناء الرائق والوسع الذي يذهل العقول ومع ذلك اخرجوا موائد كل مائدة تكفي الجم الغفير والعدد الكثير كثر الله خيرهم ووجدت فيها أفاضل من العلماء والصلحاء وما رأيت أرق قلوبا وأسخى دمعة من أهل الجريد على أني تخلفت مع شيخ الركب في بعض نواحي توزر بان ادخله بعض الناس إلى بيته مع أصحابه وبقيت أنا في الزقاق انتظر[١] خروجه إذ لم يرني عند الدخول ولما بقيت وحدي وإذا برجل من القرية عزم علي وذهب بي إلى بيته بعد امتناعي خوفا من المكر ولما وصلت بيته فوجدته أحسن البيوت ووجدت زوجته من أحسن النساء دينا وحالا وصيانة يظهر عليها أثر الديانة فإذا تكلم أحدهما أصابته عبرة مع انسجام الدمعة وانهارها فعلمت أنهم من أهل الصلاح وأهل الخير تفضل الله علي بهما وما رأيت مثلهما أصلا ثم قامت المرأة وجعلت لي خبزة ثم كسرتها في الحليب أعني لبن الغنم ووضعت عليه شيئا من الزبدة ثم أخذت في الأكل فما وجدت أحلى من ذلك الطعام ولا أذوق منه طعما كأنه من الجنة فلما كانت في أثناء الأكل وإذا بصاحب البيت قال لي كل هذا طعام بلدك فقلت من أي بلدة فقال من ميلة وخطر لي أنه أوتي له من الغيب ثم خرجت من بيته مذعورا بان الشيخ يتركني وحدي إذ لم يعلم بتخلفي فقال لي لا تخف فإن الشيخ لم يخرج من ذلك البيت فلما خرجنا ووصلنا إلى الزقاق وإذا بالشيخ خارج فقال لي على بركة الله وهو يبكي وكذا زوجته فإنها تبكي عند انفصالي من محلهم رضي الله عنهم ونفعنا بهم ووجدت في تلك الحجة العلامة الفاضل والفهامة الكامل سيدي عبد القادر الفاسي يقرأ في مسجد توزر في التفسير في قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ الآية وكان رضي الله تعالى عنه حافظا للروايات ناقلا مذاهب العلماء

---

(١) في نسختين ننتظر.

عبارته سلسة فصيح اللسان حلو الكلام ما أحسنه في وقته قل نظيره ثم بعد ذلك مات رحمه الله وهي ثلمة في الإسلام لا يسدها إلا خلف مثله وهو حديث مروي عنه صلى الله عليه وسلم بان قال إذا مات العالم انثلمت ثلمة في الإسلام لا يسدها إلا خلف مثله وفي تلك الحجة زرنا سيدي أحمد الزريبي[١] وهو ولي صالح يخبر بالمغيبات كثيرا وقد غلب عليه الغيب عن حسه بمحبة ربه بل أظنه قد زال عنه عقل التكليف وبقي فيه عقل التعريف وذلك أن من ذاق شيئا من كنه الذات أو الصفات قل أن يبقى معه عقله نعم هو في الحضرة دائما متصل بها يشاهد محبوبه وحينئذ يكون محبوبه سمعه وبصره ونطقه فإن تكلم فمنه وإليه وبه وإن سكت فكذلك وهذا الشيخ ممن عظم قدره عند الله وكان منعزلا في خلوة في بيته مدة أربعين سنة لم يخرج منها على ما سمعت ممن يوثق به من أصحابه ولما وصلت إليه مع طلبتي مسكني من حاشية البرنس وزفرني[٢] زفرة عظيمة وجذبني جذبا قويا وقطع لي البرنس من جهة صدري نحو الشبر حتى أصاب الروع من ذلك جميع الحاضرين وأما أنا في نفسي أنتظر عاقبته وإنما توهمت أن يكون غضبه من غضب الله علينا أعوذ بالله من غضبه وغضب أوليائه وكذلك أخونا في الله سيدي ابن نوّة قاضي المدية لما قبل يده قال يا لطيف حين رآه فقال الشيخ ما اللطف وما لطف اللطف وما اللطف في اللطف ثم كرر العبارات مرارا متعددة ثم بعد ذلك انبسط إلينا وانشرح فعند ذلك قال له بعض أصحابه لما ذا عملت بفلان يعني نفسي ذلك الزفر فقال إنكم إذا أردتم غسل الثوب الجديد فلا بد من عصره وضربه بالرجل ضربا شديدا لتزول أوساخه فيطلى بالصابون ولذلك فعلت به ما فعلت فدعا لنا وأخبرنا بأمور تكون لنا في المستقبل وأظنه قال لي تريد السياحة قال وإنما يكون ذلك في عاقبة أمرك نفعنا الله به وبأمثاله

---

(١) في نسخة الدريبي وفي أخرى الزربي.

(٢) في ثلاث نسخ زفر عني.

آمين.

وفي هذه الحجة وجدته ميتا مقبورا عند منزل الركب وعليه روضة عظيمة وقبره يزار وقد اجتمعت أهل توزر على تعظيمه ومحبته لاعتقاده فيه وأنه ولي من أولياء الله من غير شك وزرنا ذلك العام الأفاضل ودخلنا بيت سيدي إبراهيم الخليل مع أولاد الشيخ السيد[١] الغوث وهو من أولاد سيدي سالم والله اعلم تلميذ الشاذلي وإنهم اخبرونا بموت هذا الشيخ فعند موته رأى واحد من أولاده وهو صغير غايته أن يكون مميزا النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول عليكم به صلى الله عليه وسلم فاته هنا عند رأس أبي بان ينادي بتلك المقالة الجالسين مرارا نفعنا الله بهم ومن هذه الطائفة خديم الطلبة والعلم سيدي أحمد بورطبة[٢] المستقر الآن في قفصة وهو من توزر من أولاد تلميذ الشاذلي المذكور وأحواله طيبة وقد ظننا أنه من أصحاب الوقت وفي الحجة الأولى دخلت قفصة وزرت فيها الأفاضل سيما من بلغ درجة التأليف المشهور علمه وفقهه وقد سمعنا أنه تعرض لشرح الشيخ خليل وهو الشيخ المنصوري وكذا الشيخ المنصوري آخر أقل منه درجة ووجدت فيها أيضا سيدي أحمد بن نفيس وشهدنا له كشفنا بينا بان كنا عنده في الخلوة يكلمنا بطريق[٣] التصرف وأحوال الرجال وطال في ذلك فقلنا له الركب تركناه أخذ في الرحيل فقال الركب لا يرحل اليوم فمكثنا عنده لقرب الظهر فلما خرجنا من عنده وجدن الركب مقيما نفعنا الله بهم وأما في هذه الحجة فقد زرناه في توزر مع من قبر فيها أي توزر والآخر في قلعة آل حماد وقد زرتها معا والحمد لله وكذا زرنا فيها العالم الكبير ابن

---

(١) في نسخة بإسقاط الخليل والسيد.

(٢) في نسخة بياض وفي أخرى بوطبّ وفي نسختين بُطّبّ.

(٣) في ثلاث نسخ بطرق.

شباط الشقراطسي وغيرهم من المؤلفين وزرنا أيضا الشيخ[١].

ثم ظعنا منها صبيحة فلما انفصلنا[٢] عن الوادي المملوء[٣] بالعمارة وأمطرنا في ذلك اليوم مطرا شديدا كادت النفس تزهق من شدته وشدة برده فبتنا هناك ثم منه إلى أولاد يعقوب وفي ذلك اليوم مررنا على ولد الشيخ بو عزيز الحناشي وهو الشيخ إبراهيم قد فر من باي قسنطينة لما تبعه بعساكره يريد الانتقام منه لأمر ديني وهو استطالته على المسلمين وتمرده على الأحكام الشرعية وانه كان يتزوج أكثر من أربع وقد سمع انه بلغ اثنتي عشرة امرأة عدو نفسه فلما وصلناه خاف منهم الركب فخرج إلينا مع بعض أصحابه فأتى إلينا ونحن السابقون فسلم علينا وطلبنا في الدعاء فدعونا له بالهداية والرجوع إلى بلده وانه أمرنا بالنزول عنده فامتنعنا من ذلك لأنه أول النهار ثم سرنا فبتنا عند أولاد يعقوب ثم رحلنا عند الضحى فجاؤا إلينا بجيوشهم ظنا منهم أن العرب غارب عليهم فلما التقى الجمعان علموا بنا أننا حجاج فرجعوا ونزلنا قرب السبخة عند صلاة العصر ثم رحلنا صبيحة فقطعنا السبخة بعسر وشدة فكثير من الإبل قد وقعت في السبخة وكذا البغال تداركنا الله بفضله فنزلنا في حامة قابس وهي قرية ذات نخل وماء وفيها حام من الله تعالى سخن كأنه يغلي بالنار فلا يستطيع أحد أن يدخله بغتة إلا بعد الألفة وفيه بيت يستر المغتسلين وخارجه نهر منه يجتمع فيه الرجال والنساء من غير ستر في النهر كل واحد يرى عورة الأخرى من غير تغيير[٤] ولا نكير فلما رأيتهم اقشعر جلدي وتحركت فرائصي فملأت حجري بالأحجار وصرت أضرب كل من هناك من النساء

---

(١) هذا بياض نحو نصف السطر في جميع النسخ.

(٢) في ثلاث نسخ فصلنا.

(٣) في نسختين بإسقاط المملوء.

(٤) في نسختين تغير.

والرجال فقالوا ما هذا الرجل وظنوا أني خرجت من عقلي ففر الكل ولم يبق أحد في ذلك الوقت إلا هرب ثم مر علي شخص فقال لي رحمك الله لو كنت معنا دائما لزالت هذه الأمور العظيمة[١] إذ يحرم ذلك إجماعا.

وأما أهل القرية فلم يعجبهم صنعي بان ظهر التغير على وجوههم غير أنهم سكتوا إذ العاصي ذليل ثم حمنا منه في محل الستر وكذا أهلنا ليلا فمنها ظعنا لقابس[٢] ونزلنا خارجه عن بعد منه فلما أصبح الله بخير الصباح أتى أهل قابس يتسوقون مع الركب إلى صلاة الظهر فأتى الأعراب فغاروا على أبل الركب فنهبوا جملين لصاحب سيدي أحمد بن حودة[٣] ثم ذهبت أنا وسيدي أحمد بن الطيب لأمير المحلة هناك وفضلاء الحمارية[٤] نشكو بما صار بنا وإذا بطائفة أخرى أخذوا بغل سيدي يحيى بن صالح من وطننا فلما سمع الركب بذلك نهبوا من كان بقابس في الركب وأخذوا الفضة وغيرها فدخلنا على القائد بين المغرب والعشاء فأخبرناه الخبر وقال لا بأس عليكم فغدا إن شاء الله يرجع ما لكم فخرجنا من عنده فوجدنا جماعة منهم ينتظروننا ليمسكونا في الركب فلما عرفوني تركوني فذهبوا إلى سيدي أحمد الطيب فلما زجرتهم تركوه وأتوا إلى العلام فوجدوه هاربا قبل ذلك فأمنا ذلك[٥] فمكثنا غير بعيد إلا والإجمال رجعوا على يد الحمارية[٦] رزقهم الله البركة وأعانهم ونصرهم على الظالمين.

---

(١) في ثلاث نسخ لازلت هذا الأمر العظيم.
(٢) في نسخة بإسقاط فمنهم ظعنا لقابس.
(٣) في نسخة حود وفي أخرى حمودي.
(٤) في نسخة الحمارنة وفي أخرى المحارنة.
(٥) في نسخة بإسقاط فامنها ذلك.
(٦) في نسخة الحمارنة وفي أخرى المحارنة.

وتوزر وقابس محل الخطفة بل توزر أعظم فكل من غفل عن حاجة في يده إلا وخطفوها فإياك والغفلة فيهما بل وفي غيرهما فإن الغفلة فيها مظنة التلف وقد زرنا الصحابي أبا لبابة الذي هو من الصحابة رضي الله عنه وقد زرناه مرارا وأعلمنا به بعض أصحابنا من الركب فانه من الصحابة قطعا وانه هو هذا إذ ثبت عندهم بالتواتر وهو من أسباب العلم وقد فضلت هذه القرية على سائر القرى بقبر هذا الصحابي.

أقول قال شيخ شيوخنا فيه ما نصه.

نكتة وأبو لبابة هذا من أصحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ذكره ابن ناجي في اختصار معالم الإيمان وروضات[1] الرضوان في مناقب المشهورين من صلحاء القيروان وهو كتاب مجتمع في سفر والأصل لأبي يزيد الدباغ القيرواني وذكر البلوي في رحلته أنه لقي صاحب هذا التأليف وأثنى عليه وعلى تأليفه هذا وقد أطال في خبره وذكر أن قبره مما تواتر عند أهل بلده وذكر أن من لم يذكره من ألف في أسماء الصحابة وأمكنة وفياتهم فانه لم يبلغه العلم به والتواتر المذكور مقدم على ذلك وكاف في إثبات أن ذلك قبره وقد بنى عليه أمير تونس حمودة بنيانا عظيما أثابه الله على قصده وبإزائه مدرسة بناها محمد باي في غاية الجودة والإتقان والحسن ومسجده كذلك وجعل لهذه المدرسة احباسا ورتب فيها عشرين طالبا يعطي كل واحد منهم ريالا على رأس كل شهر واستأجر فقيها يعلمهم ويصلي الصلوات الخمس بالمسجد المذكور إماما به فالله تعالى يرحمه به ويعفو عنه فلقد خلف ما يذكر عنه من الآثار الحسنة والله تعالى برحمته يبدل لمن يشاء السيئة بالحسنة.

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وجميع النسخ.

وأنشدنا هنالك لنفسه صهرنا الأحب أبو العباس البرنسي الشفشاوني عام تسعة:

نزلنـا بقـابس فـشفينا فيـه غليـل القلـب مـن شـوق اصـهابة
وزرنـا بـه ضريـح إمـام بـر وبحـر في الـسخاء أبي لبابـه
هـو البحـر المعـين لوارديـه فَـرِدْ مـا شـئت مـن بحـر الـصحابة
فايقنّـا بنيـل القـصد حقـا وصـدّقنا بـإسراع الإجابـة
أنلنـا يـا إلهـي كـل خـير وإحـسان وزودنـا الإنابـة
وعاملنـا فإنـا قـد أسـأنا بفـضل لا تغلّـق عنـا بابـه
وأمـددنا بـوافر مالعطايـا أدِرَّ علينـا مـن دَرّ الـسحابة
ونـوّر قلبنـا وأمـلاه حبـا وصـدقا ولتـزل عنـا حجابـه

بلغه الله جميع مراده وجعله من خواص أهل محبته ووداده وأخبرت بأن المدرسة التي يدرس بها سيدي إبراهيم الجمني بجربة هو الذي بناها أيضا وصلينا الظهر عند أبي لبابة والعصر بمنزل الركب وهو آخر البلاد التي فيها ماء واد جار وفيها رحاء ماء غريبة الصنعة إلا أنها تتعطل كثيرا اهـ.

تتمة فإننا أقمنا يومين في قابس وزرنا أبا لبابة المذكور وزرنا جميع من فيها من الأحياء والأموات واجتمعنا مع بعض فضلائها من طلبة العلم وصلحاء البلد كالمدرس سيدي عمر في المدرسة المذكورة وكذا اجتمعنا مع بعض فضلاء الحمارية[1] وفعلوا معنا خيرا عظيما وهو رد الجمال لأصحابنا ووصيناهم على السعي في رد البغل الذي انتبه العرب من يد بعض أصحابنا بإزاء الركب بين العشاءين جزاهم الله

(١) انظر ما قيل في صحيفة ١٢٨ وتحت عدد ٢ وفي الرحلة العياشية والرحلة الناصرية الحمارنة فتأمل.

أحسن جزاء بمنه وكرمه.

ثم ظعنا منه ونزلنا قرية عرام بعد أن زرنا ما فيها من قبور صلحائها ثم ظعنا منها وسرنا نحو الثلاث مراحل فنزلنا الشيخ الصياح فزرناه ثم منه نحو المرحلتين نزلنا قرب برج الملح فأصاب الركب عطش تلك الليلة فأصبحنا والحمد لله في الزوارة(١) الخالية فسقينا الماء وأوردنا الخيل والبغال والإبل وماؤها عذب حلوا حسن المياه من عرام إليه وكلها خبيثة المياه إلا بئر السلطان فانه أيضا طيب وتلاقينا قبل الصباح بفضلاء أولاد مريم وما أحسنهم من فضلاء وكرماء ولقد كانوا متبعين للسنة جمعوا الخير وورعه وحبهم لنا قوي واعتقادهم فينا سني جعلهم الله أفضل الناس علما وعملا وجاها وحالا وأدام ذلك فيهم إلى يوم القيامة وقد أتوا لنا بشعير ومع ذلك انه مفقود في ذلك الوقت وإنما حملهم على ذلك حبنا وأكرمونا باللحم وما معه من الضيافة [فخف في الركب وهم بعداء منا](٢) غير أنهم الحجة الثانية ضيفونا ضيافة عظيمة وذهبوا معنا من طرابلس إلى قابس بل إلى الشيخ سيدي مهذب أنا وجماعتي قد قدمنا مع الركب الفاسي وتخلف في طرابلس إلى انصرام رمضان ونحن أردنا العجلة فذهبوا معنا رضي الله عنهم وجزاهم عنا خيرا بمنه وكرمه.

تتمة فبعد السقي ذهبنا إلى أن خرجنا إلى الزوارة العامرة فنزلنا عند العصر بين السبخة والنبكة ثم منها إلى زواغة(٣) وكانت مدينة عظيمة هي أصل طرابلس وبها كان ملكها وطرابلس كانت عامرة بالنصارى ثم انتقلت العمارة إليها بعد انجلاء النصارى منها ثم منها إلى الماية(٤) ومررنا على الزاوية الغربية وهي كثيرة النخل قوية

---

(١) في نسخة زواوة وفي الرحلة العياشية الزوارات.

(٢) هكذا ما بين القوسين في ثلاث نسخ وبإسقاطه في باقي النسخ.

(٣) في نسخة زواغ وفي نسختين ازواغ.

(٤) كذا في جميع النسخ.

العمارة فيها أفاضل وعلماء وعباد وزهاد معلومة بأهل الصلاح الأحياء والأموات غير أن الركب لم ينزلها وإنما اجتاز عنها فقط ومررنا على زنزور أيضا ثم منه إلى طرابلس وبينها وبين زنزور نحو اثني عشر ميلا والحمد لله أولا وآخرا.

ذكر وصولنا إلى طرابلس

وصلنا في أول شعبان صبيحة وسمع الإخوان بوصولنا وإتياننا فحركهم العزم والشوق إلى ملاقاتنا ومنهم من لقينا عن بعد كالأخ في الله سيدي محمد[1] بن عبد الخالق إذ نزلنا قرب بلاده وأتانا بخروف ضيافة لنا جزاه الله عنا خيرا وأكثر الإخوان إنما أتونا لزنزور كالمحب حقا والأخ في الله صدقا سيدي محمد[2] الشريف البلغيثي النوفلي وجميع أخوانه من الشرفاء وكذا جميع أحبابه كسيدي محمد بن عثمان[3] كاتب الدار الكريمة والشيخ المفتي ابن مقيل وجميع أحبابه وكذا خديم العلم وأهله الذي فاز عن أمثاله قائد عمورة في زنزور خرج إلينا بشوق وعشق يبحث في الركب بحثا شديدا واختلفنا معه في الطريق أنا وسيدي أحمد الطيب وجماعة من الإخوان أخذنا وسط البلد إلى أن خرجنا إلى قرب المنشية ولما تلاقينا مع سيدي محمد الشريف صار يبكي وأنا أبكي بالفرح مع ما فقد فيما مضى من الاجتماع وأما قائد عمورة فقد خرج عن أجناسه من العمال إذ بنى مدرسة عظيمة متقنة ما رأيت أظرف منها وأحسن من صنعتها وجعل فيها بيوتا متعددة ومطهرة طيبة ومسجدا في غاية يستحسنه الناظر وجعل أيضا بيتا للتدريس وغرس النخل الجيد وحبسها على المدرسة وزاد أحباسا عليها عظيمة وحاصل خدمته إنما هي على طلبة القرآن وطلبة العلم بأن جعل معلما للقرآن ومعلما للعلم وهو الفاضل والتقي الكامل تلميذ الشيخ النوراني سيدي إبراهيم الجمني أي الكبير الذي هو تلميذ الشيخ الخرشي وهو نور جربة إذ غالبها خوارج فان الشيخ سيدي إبراهيم شمس الحق في هذه البلدة فقد أفاد واستفيد منه بان نفع الناس شرقا وغربا وجوفا وقبلة وتلميذه المدرس في هذه المدرسة هو سيدي

---

(١) في نسخة احمد.

(٢) في نسخة احمد.

(٣) في نسخة عمار.

عبد الله وقد اجتمعنا معه في هذه المدرسة في الرجعة مع الطلبة والقائد المذكور [والشيخ المفتي ابن مقيل وأصحابه في ضيافة القائد المذكور][1] جزاه الله عنا خيرا وتقبل منه ورزقه التقوى والله يقول إنما يتقبل الله من المتقين.

فإن قلت ما هذا الثناء الذي تثني على صاحبك قائد عمورة فإن هذا الرجل لو كان يبني من ملكه وهو من جملة من يبني المساجد والطرق والقناطر [لكان الثناء عليه في محله][2] والذي يبني به ليس ملكا له شرعا لأنه إنما بناها من مال المسلمين الذي أخذه منهم ظلما وعدوانا لما علمت أن ما عنده إنما هو بطريق الغصب والتوظيف الشرعي مفقود في زماننا هذا فهم كالزانية تزني وتتصدق وقد قال صلى الله عليه وسلم ليتها لم تزن ولم تتصدق الحديث وحينئذ ليتهم لم يبنوا ولم يأخذوا مال المسلمين فما هذا المدح منكم إذ يحرم عليهم فضلا عن الثواب.

قلت قال الشيخ عبد الكريم الزواوي في شرح الوغليسية ما حاصل معناه أن ولاة هذا الزمان إن حصل منهم أفعال الخير المتعددة كالصدقة والهبة والوقف وبناء المساجد والمدارس وغيرها كالإحسان إلى العلماء والطلبة والفقراء هل يحصل لهم الثواب عما فعلوه من الحسنات صورة لإدخالهم السرور على المسلمين وإبقاء آثار فعلهم بعدهم وهو حسنة أولا يثابون لأن ذلك من مال غيرهم بل يحرم عليهم ذلك إذ يجب عليهم رده لأربابه فإعطاؤه لغيرهم تعد آخر فيكون غصبا بعد غصب إذ الوقت وما معه إنما يثمر شرعا بعد حصول الملك قال والحكم في ذلك أنهم يمدحون شرعا من جهة دعوة المسلمين لهم بالخير وذلك غنيمة عظيمة إذ من وصله المعروف منهم يدعو لهم بالخير والرحمة والعفو والغفران فإن استجيب لهم فالله يتولى إعطاء

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

(٢) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

المظلوم فيما أظلم من عنده يوم القيامة لا سيما إذا تعذر الرد لأربابه لفقدهم أو لجهل أعيانهم فالواجب عليهم حينئذ التصدق به وقد فعلوه فلم يبق عليهم حق يسألون عنه وإما إذا تيسر الرد ببقاء عين المغصوب وتعين المغصوب منه فيجب عليهم رده باتفاق وإذا وقع ونزل وصرفه فيما ذكر فيثاب من جهة وهو توفية[1] عن ربه ويثاب من أخرى وهو تحصيل المنافع لمن حصلت له هذه الأشياء مع اغتنام دعائهم وحصول الميل منهم إليهم اهـ بالمعنى.

قلت الغالب وجود الوجه الأول وهو تعذر الرد لجهل أربابه وحينئذ يجب شرعا صرفه في مصالح المسلمين فيكون فعل هذا القائد ممدوحا شرعا نعم بقي له أمر لا بد له من فعله وهو أن يتكف عن الأخذ بهذا الوجه من المسلمين رزق الله لنا ولهم الهداية والإنابة بمنه وكرمه.

فإن قلت هل يجوز لمن كان في تلك المدرسة من عالم أو متعلم الأخذ من تلك المدرسة والانتفاع بما فيها وإن كان غنيا كتحصيل الطهارة منها والصلاة فيها لأنها قد وقعت بوجه مباح بل بوجه مطلوب إذ الفاعل لذلك يطلب منه صرف ما أخذه في منافع المسلمين فيجوز حينئذ الأخذ والطهارة والصلاة [لأن ذمته عامرة به فيجب عليه إبراء نفسه من ذلك وما حصل منه يعد كصورة المتسلف][2] أو لا يجوز لعلمهم بأنه مغصوب ومشتريه ووارثه وموهوبه أن علموا كهو فتجري عليه أحكام الغصب.

قلت الحق الجواز من غير شك إذ قال صاحب المدخل أن المدرسة إذا بنيت من مال حرام وجهلت أربابه فيجوز للعالم أن يأخذ منها بوجه العلم انظره فأنت ترى

---

(١) كذا في نسخة وفي أربع تفويته.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

أيها المخاطب أن نصه هذا إنما هو في عين النازلة فهو طوق في عنق ومع ذلك انه لم يجعل كتابه إلا فيما وافق الأثر وبعضهم يجعله أي صاحب المدخل مشددا في الدين لا مترخصا فإذا علمت هذا فاعلم أن ما يحصل من المدارس والمساجد من أحباس الملوك والعمال عليها وكذا ما يعطونه[١] للمدرسين ومن فيه مصالح المسلمين يجوز من غير شك إذ ما جهل أربابه [للعلماء والفقراء ومن فيه نفع الخلائق و][٢] ليس طريقه إلا هذا وإما قولهم المشتري وما معه أن علموا كهو فخاص بتعيين المغصوب منه والمغصوب وهذا في غيره وكذلك الدراهم والأموال الموجودة في أيديهم إن جهلت أربابها [سبيلها هو هذا لأن المال إذا جهل ربه][٣] يجب وضعه في بيت المال إن كان منتظما فلا أقل حينئذ من كونها للعلماء والفقراء ومن فيه نفع للخلق فلا يحل لمسلم فضلا عن عالم أن يقدح أو يسمع لمن هذا وصفه[٤] بأن يقول يأكل الحرام بل هو من الحلال البين لأن الذي يأخذه المدرس أو المتعلم أو غيرهما حلال قطعا لأنه من أعظم وجوهه حسبك صاحب المدخل حجة بينك وبين الله تعالى والذي فيه الخلاف من مال المستغرقين للذمة بأموال المسلمين بان كان ماله حراما كله أو جله أو أقله على ما فيه من الخلاف بين العلماء إنما هو في غير من يأخذه [منهم بوجه العلم أو الفقراء أو النفع للمسلمين وإلا فالذي يأخذه][٥] بذلك الوجه جائز من غير خلاف ألا ترى عبد الله بن عمر لم يكن أورع منه ولا أظلم من الحجاج بن يوسف في زمانه إذ كان يتعدى على النفس فضلا عن المال وهو يقبل الهدية منه لوجود الوجه

(١) في نسخة يقطعونه.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٣) ما بين القوسين ساقط في نسخة وفيها يجب وضعها.

(٤) في نسخة أن يقدح فيمن هذا وصفه.

(٥) ما بين القوسين ساقط في نسخة وفي أخرى في غير من يأخذه بذلك الوجه إلا من يأخذه بذلك الوجه فجائز من غير خلاف ألا ترى الخ.

الذي يأخذها به وهو العلم أو النفع للمسلمين انظر الحطاب عند قول خليل لا أن أخذ من العمال أو أكل عندهم بخلاف الخلفاء والمراد بالعمال من ينيبه الخليفة على الجباية فقط وليس له الإعطاء فلا يجوز الأخذ منه ولا الأكل عنده وإلا كان جرحة في شهادته والمراد بالخليفة من أذن له في الأخذ والعطاء فيدخل القواد(١) وسائر العمال فيجوز الأكل عندهم والأخذ منهم وذلك ليس بجرحة وهذا كله في غير من يأخذ ذلك بوجه العلم وما معه كما سبق وإنما نبهت على هذه المسألة لكثرة الجهل من الطلبة فيها فمنهم من يبالغ بالإباحة وهو خطاء ومنهم من يبالغ من التحريم وهو خطاء ومنهم من يجعل الخلاف في كل الناس وهو غفلة وجهل أيضا ومنهم من يجعل الخلاف أيضا فيمن جهل أربابه أو لا وهو أيضا خطاء وإنما المغصوب إذا كان ربه معينا فيجب رده لربه ولا يجوز لأحد أخذه اتفاقا وإذا فوته عن صاحبه وترتبت في ذمته القيمة كذبحه مثلا فهل يجوز لأحد الانتفاع به بأي وجه من وجوه الانتفاع كالأكل وغيره إذ ترتبت القيمة في ذمته وهو ظاهر كلام خليل وكلام ابن ناجي أو يمنع وهو الذي صرح به غير واحد من الفقهاء وبالجملة فالمال المجهول أربابه يجوز للعالم ومن فيه وجه من وجوه الأخذ أَخْذُه والانتفاع به. وأما غيرهم فإن كان من الخليفة لا العمال فيجوز أيضا وأما المعين ربه قبل فواته فيجب رده لربه ولا يجوز لأحد أخذه مطلقا من عالم وغيره وإما أن فات بيد غاصبه بمفوّت مع بقاء العين كطبخه فهل يجوز الانتفاع به أم لا فقد تقدم ما فه وإما من كان كل ماله حراما أو جله أو أقله في غير ما ذكر من الولاة ففيه الخلاف الذي ذكره التتائي في كبيره وعليه نظمه فإذا أحطت بهذه المسألة علما فليس لك أن تعترض على أحد من العلماء العاملين المشتغلين بإعطاء العلم أو أخذه بأخذهم من ولاة زماننا ما جهل أربابه فتزل قدمك لما تقدم من نص المدخل والحطاب وكذا غيره من المال المختلف فيه فانه

---

(١) في نسختين القياد.

لا ينكر على العلماء والفقهاء وأهل السنة إلا ما كان مجمعا عليه فحينئذ علماء مصر في وقتنا هذا أعني المقتدى بهم وكذا شيخنا سيدي عبد الله السوسي وسيدي محمد الغرياني[1] بتونس وغيره من علماء الأمصار والقرى والبادية ممن عرف بالعلم والعمل به ممن يأخذ من الولاة ما يستعين به على نفسه وأهله فجائز لهم أخذه بلا شك كما تقدم النص عليه ومن أراد الإنصاف والانتصاف فقد نقلنا له ما يبني عليه في نفسه ويحمل عليه غيره من العلماء المقتدى بهم فلا يحتاج إلى التأويل[2] لأنه نص صريح في الإباحة وإلا أصابه ما أصاب المعترضين على أهل الله فيخاف عليه سوء الخاتمة والعياذ بالله وقد علمت عظم الوقيعة فيهم والاعتراض عليهم من غير قصد دواء لهم ولا الشفقة عليهم والرأفة بهم يرد من باب الله وإن كان محقا في اعتراضه قاله الشيخ زروق في قواعده.

انعطاف في الرجوع إلى المقصود من ذكر أحوالنا وإخواننا في طرابلس إذ قد اجتمعنا بعامته وخاصتهم إذ لهم مزيد في المحبة والاعتقاد في أهل الخير والتشبث بهم ولا شك أن هذه خصلة عظيمة شرعا لأن من أحب قوما كان منهم وحشر معهم والتحبب لهم ومودتهم لقدر عظيم عند الله ولله در القائل في قوله:

لي سادة من عزهم ... أقدامهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلي ... في حبهم عز وجاه

والمعتقد والمحب كالمحسن إذا لم يقدر على الإحسان لقوله صلى الله عليه وسلم يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله وبيان هذا الحديث أن المؤمن لو كان يخلد في الدنيا لتمنى بقاء الإيمان معه على الدوام فجزاه الله بالخلود في الجنة وكذا الكافر لو كان

---

(١) في نسخة القرفاني وفي نسختين الغرياني.

(٢) في نسخة الناس.

يخلد في الدنيا لتمنى بقاء الشرك والكفر معه فيجازى بالخلود في النار جزاء على نيته وأما المحسن فيجازى بالإحسان والله لا يضيع أجر المحسنين وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ وقال أيضا ﴿ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ وأما المسيء فتكفيه إساءته إذ لا يخلو الإنسان من ضد ولو حاول العزلة في رأس جبل والنبي صلى الله عليه وسلم يقول ولا بد لكل مؤمن من منافق في جواره يبغضه على إيمانه أو كما قال ذكره الخازن في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ ﴾ وقال أيضا صلى الله عليه وسلم لو دخل المؤمن جحر ضب لسلط عليه من يؤذيه لكن أهل الأذية فالله يكفينا شرهم ونقول حسبنا الله ونعم الوكيل منهم وإما المحسنون فالله يشكر فضلهم[1] وعملهم ويجازيهم بأحسن ما صنعوا نعم لم أصل إلى ما اعتقدوه فينا ولا أدعيه إذ الدعوى قد تكون أكثر مما عند الإنسان في نفس الأمر فيكون ذلك قدحا بينه وبين محبوبه وإن أخذ بذلك الوصف كان غشا في دينه كما ذكره الشبراخيتي وغيره قال وإنما يجب أن يبين عند الإعطاء أن هذا الوصف الذي أعطيتني لأجله لم أتصف به في نفس الأمر فإن قال أعطيت لله لا لهذا الوصف فخذه فالله لا يؤاخذه[2] وهو يجازيه عن صنعه وإلا فيجب رده لصاحبه لأنه غش في الدين والنبي صلى الله عليه وسلم يقول من غشنا فليس منا.

وأما أهل الخير والصلاح فلا أستطيع عدهم لكثرتهم جدا لا سيما الساكنون بخارج المدينة وأما من في المدينة فالصادق الملاطف [من يؤثرنا على نفسه جعل الله البركة فيه وفي ذريته إذ ما أنفقه علينا خير من نفسه][3] أعني الشيخ المفتي سيدي محمد بن مقيل وأصحابه كالفقيه المدرس سيدي عبد العزيز وأولاده وقد أخذوا من

---

(١) في نسخة بإسقاط فضلهم.

(٢) في ثلاث نسخ بتغير.

(٣) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

قلبي مجامعه ولنا ما لهم وعلينا ما عليهم حبا في الله ووالد الشيخ كان صديقا لنا في الحجة الأولى إذ هم محل الفضل والعلم من الزمان القديم نور الله محلهم بنور العلم إلى قيام الساعة وكذا الذكران من أصلابهم فقد أجادوا في احساننا كسوة وإطعاما وشراء ما نحتاجه من الحوائج كان الله لهم وليا ونصيرا أسأله سبحانه أن يدخله حضرته ويحفظه من كل حاسد مع بسط النعم عليه وعلى ذريته إلى غابر الدهر بمنه وكرمه.

ومن أحبابنا حقا صبغة الله العالم العامل الفاضل الفهامة محب السنة وأهلها صاحب اعتقاد في أهل السنة سيدي محمد العربي الفرجاني الشريف النوراني وأصحابه وأولاده على الإطلاق خصوصا العلامة الفاضل الفهامة الكامل سيدي محمد عوض ولدنا أصلح الله حاله وأظهر عليه فضله وكذا على إخوانه وقد سألت الله في غنى أبيهم وغناهم إلى قيام الساعة وتيقنا إن الله أجابنا كان الله في عونهم آمين.

وممن اجتمعت معه من الفقهاء القاضي ومقدم القاضي من الحنفية والفقيه الأجل سيدي عمر السوداني والشيخ الصكلاني وأصحابهما ومن هو أخونا في الله حقا وصدقا، وكان لنا الود فيه حبا وشوقا، ونية ورفقا، صاحب الجد والاجتهاد في الأمور كلها على وفق السنة النبوية، والحقيقة النورانية، سيدي حسن السعداوي، بلغه الله غاية الأماني، وقد عقدت معه الأخوة بان الناجي يأخذ بيد أخيه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين فإنه يعلم الصبيان قلّ مثل في عصرنا من حبه الصدق وأهله، وما أحسن نصحا وديانة وصدقا وزهدا، ما كان فيه، ظهر على فيه، يعلوه نور ومع ذلك أنه ارتق، في العلوم والدقائق، بلغ الله أماله، وتعلم حاله من كلامه، وصدقه من جده واجتهاده، رضي الله عنه وارضاه.

وكذا من أحبابنا الشيخ مصطفى الخطيب إذا رقم[1] أحسن، وإذا تكلم بين وأعلن، [ومن السعادة الغوث الحسن][2]، وحاصله قد تعلق بنا، جميع الفضلاء في المدينة من لم يحسن إلينا، أحسن ظنه فينا، اللهم قابل الجميع بالخير والفضل والرضى، واغفر لنا ولهم ما سلف ومضى، وأصلح حالنا استقبالا بما يرتضى، بمنك وكرمك.

تتمة في الانعطاف إلى ما كان خارج المدينة منهم سويداء القلب وخلوص الود الذي هو أولى من نفسي، أتذكره في كل نفسي، أحيي باجتماعه، وأموت بافتراقه، وروحي روحه، وجبحي جبحه[3]، وهو أولى من نفسي، تغمدني الله وإياه برحمته في رمسه ورمسي، ذو الفتح الرباني، والفهم الرحماني، سيدي محمد الشريف التوارتي، جعل الله الفضل والعلم والولاية والغنى والزهد والكفاف والعفاف في ذريته وقرابته إلى غابر الدهر آمين وفضائله وأحواله الطيبة وأعماله الحسنة ومقاصده الزكية لا تحصى ذو طب للقلوب، بفتح من علام الغيوب، جمع الله بيننا وبينه بالانتفاع، ولا جعل ما وقع من الفراق آخر وداع، بجاه من فضل بالاقتفاء والإتباع، هذا وإن يدنا ويده في ماله سواء، وأولادي وأولاده وعيال الجميع على حد الاستواء، ومن تعلق بي وبه من قريب وحبيب وصديق وشيخ وأخ في الله وأحد رضي الله عنه وسدده، وعلى الخير والطاعة أعانه وبالفتح والنصر أمده، آمين، قد أحسن الإحسان التام إلينا، وأجرى ما لا عين رأت من الكرم لدينا، ولكنه أحسن إلى نفسه إذ أنا نفسه وهو نفسي حاصله العبارة تقصر عما بيني وبينه من الحب والمودة فالإيجاز أولى، والاختصار أعلى، والتقصير أحلى، إذ الإطناب، بين الأحباب، ضباب

---

(١) في نسخة إذ لم أر أحسن منه.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٣) في نسخة ومهجتي مهجته.

وسحاب، وبالجملة فكل من يحبه يحبنا، ومن قرب إليه بالدم قريب إلينا، وصهره صهر لنا، وأولاده كذلك فماله لنا، وما عليه علينا، رزق الله الجميع الصدق مع الحق، ومع الخلق، بمنه وكرمه وكذا أولاد الشيخ المعز سيدي محمد وسيدي أحمد وسيدي عبد الله وأحبابه وأصهاره وقرابته كلهم من النفس من أحباب الجميع وسيدي محمد ابن عزوز وإخوانه وسيدي إبراهيم وإخوانه وسيدي سلامة وأصحابه وسيدي أحمد بن إبراهيم ومن انتمى إليه وسيدي عبد الرحمان ومن تشبث به وسيدي عبد الله أمام الجمعة عندهم وأخوه سيدي أحمد الشريف وأولاده وسيدي محمد أخوه وسيدي أبو بكر وغيرهم من الشرفاء كأولاد عمه سيدي علي كلهم منا وإلينا ومن الفقهاء سيدي عبد النور فهو فقيه فاضل عالم نظم قصيدة في علم التوحيد لا بأس بها وأن يسر الله على اشرحها وأولاد الشيخ سيدي الصيد الولي الصالح والبدر الواضح وأولاده لا سيما من هو كبير السن عظيم الشأن سيدي عبد اللطيف وولده سيدي علي رحمه الله وسيدي الصيد وولد ولده سيدي أحمد وأولاد أعمامه جملة وتفصيلا إذ طبعت على حبهم وحب من يحبهم وأولاد الشيخ سيدي محمد بن سعيد وأولاد المرغني وأولاد الشيخ ابن جابر وكل من هو من أهل الفضل في المنشير والساحل المنشية ولو زرناه مرة واحدة أو زارنا كذلك فهو منا سواء عينت اسمه أم لا وكذا أولاد الشيخ النعاس سيدي محمد وأولاد أخيه سيدي عبد الرحمان وسيدي إبراهيم وولده وطلبة محلهم على العموم من ذهب أو بقي ومن إخواننا حقا سيدي محمد بن عبد الخالق وأعمامه وقرابته فإنهم منا ونحن منهم وبالجملة فمن اجتمعنا معه ولو ساعة حبا في الله فهو له ما لنا وعليه ما علينا ولنا نصيب منه سواء سميناه أم لا إذ من تحقق بحالة لا يخلو الحاضرون منها نفعنا الله بهم وبإسلافهم بمنه وكرمه وبالجملة فأحبابنا كثيرون جعل الله الحب لأجله.

وأما الحجة الأولى فقد أدركنا فيها محقق الصلاح، وصاحب النجاح، نجم

الصباح، ذا الأرباح، صاحب الورع والعلم الصحيح، والزهد والدواء لإخوانه ممن هو بالحب جريح، العالم في كل المذاهب، الذي طاعت وانقادتا له المواهب، سيدي محمد المعزي[١] ومثله في الفقه سيدي محمد النحاس وكذا من البله سيدي عبد الخالق وكذا الذي هو تلميذ الشيخ سيدي محمد بن سعيد وهو الذي أعطى له كتابا مزبورا بالتركية وقال أقرأه فأخذه فقرأه وسمعت منه أنه قال لي من حينئذ أقرأ مكتوب التركي نفعنا الله بهم وبأمثالهم آمين وسيدي محمد المعزي[٢] أظنه كل عرفة يحج من بيته رضي الله عنه وأرضاه وقد استفدنا منه إفادة عظيمة ولقد علمت أنه طيب الدين والدنيا لا يغادر شيئا إلا عرف سببه وطبه فمن جلس معه عرف أحكام الشريعة وأوصاف الحقيقة وما يخصه في أمر دينه ودنياه وحاله ووارده ومقامه حاصله يغترف من بحر الله فحدث عنه ولا حرج وكيف لا وشيخه الشيخ ابن سعيد إذ هو سلطان العارفين، وملاك زمام السالكين، ومربي المريدين، والآخذ بيد المجذوبين، إذ قيل عنه انه يسبغ في لمحة وأصحابه كلهم قد ظهر عليهم فضل الله لا سيما المعارف الإلهية، والمواهب الربانية، واللطائف الرحمانية، وقد رأيت بعض كلامه في التوحيد الخاص وكذا تجريد التوحيد وتفريده يظاهي كلام الشيخ عبد القادر الجيلاني وكلام عبد الكريم منه أيضا وإنما يأتيه الكلام عند ورود الوجد عليه، والحال لديه، فيكتبه أصحابه نفعنا الله به وبأصحابه وأفاض علينا من بركاته آمين والحمد لله على زيارته وزيارة معاصرة الشيخ المرغني والشيخ الصيد والسيد ابن جابر بالنية والمحبة وكلهم متعاصرون أفاض الله علينا من بركاتهم آمين.

وكذا زرت من كان بالمدينة كسيدي عبد الوهاب وسيدي درغوث الذي اخذ المدينة من أيدي النصارى حاصله من ثبتت له عناية إلهية حيا أو ميتا فيها فقد زرناه

---

(١) في نسخة المعربي.
(٢) في نسخة المعربي.

فعلا أو نية اللهم بجاه من دخلها من أول عمارتها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين أن تجعلني وأولادي وأزواجي وإخواني وطلبتي وأحبائي محبوبين عندك، وعند رسولك وأوليائك، ومحبين من غير محنة، ولا مشقة ولا فضيحة، ولا تسلط علينا جبارا عنيدا، ولا أحدا من عبادك ولا شيطانا مريدا، ولا نفسا متعدية علينا، يا أرحم الراحمين، يا حي يا قيوم برحمتك استغيث آمين يا رب العالمين.

تنبيه إنما نذكر من ذكر من الإخوان والمحبين وبيان أوصافهم ليتحقق السامع بأحوالهم ويتصف بأوصافهم والأقل أن تحضر عنده بركاتهم وأما ذكر أوصاف الطريق وبيان المواضع فان فيه اعتبارا ودلالة على آثار قدرة الله تعالى وتسخير الأكوان لنا والتنقل من حالة لحالة ليترقى بذلك صاحب السلوك إذ هذه الطريق أشبه شيء بطريق الآخرة فمنها يعرف الترقي في مقامات الله تعالى حتى يتحقق بحضرته ويكون في دائرته وناهيك بشيء يكون سببا للوصول إلى مرضاته وفيه أيضا التصبر والتسلي والتأسي بهذه الأفاضل في طريقهم إلى الحج ولا شيء أعظم من هذه لأن من رأى أحوالهم في الطريق ومعاملتهم في البيع والشراء والهبة والصدقة والضيافة وزيارة الإخوان والقيام بحقوقهم ووضع الأمانة وتولي الشراء والبيع بنفسه أو بائعه منهم أو من غيرهم يتحقق به الناظر والسامع بذلك أيضا فيقوي نوره ويتسع مدده لأن أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم سارية في أحبابه وقائم مثلها فيهم وكما تخلقوا بخلقه صلى الله عليه وسلم انتدب الكلام عليهم إذ ذكر أوصافهم ذكر لأوصافه وقد علمت ما في ذكره صلى الله عليه وسلم من الثواب وذكره صلى الله عليه وسلم ذكر لله ولذكر الله أكبر وأما ذكر طريق الحج فهو كذكر الطريق الموصلة إلى الله قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني فلا يقال أن ذكر هذا ذكر لما لا يعني أولا فائدة فيه فنقول هذا ذكر الله تعالى كما سبق فإن قلت سلمنا ذكر ما ذكر فيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وذكره ذكر الله تعالى فما أحسن

بيته وما أحسن ذكر الطريق الموصلة إليه كالطرق الموصلة إلى رب البيت [فاعلم هذا فانه لم يهمل على شيء][1] وشرف العلم بشرف معلومه ولم يكن شيء أعز من بيت الله تعالى ولا شيء أعظم منه ولا أعظم من الطريق الموصلة إليه وأما ذكر المدن والقرى وبيان أوصافها وذكر الفلوات والصحاري والأنهار والعيون وحسن بناء المدن والأسوار والحوانيت والأسواق والأزقة والمساجد واتقانها والصوامع وأوصاف ما ذكر وملاقاة الرفاق والرجال من عامة المؤمنين وبيع الحوائج وشرائها في خاصة نفسه إذ لا فائدة تعود إلى غيره إذ هذه الأمور خاصة بمؤلف الرحلة فلا نفع فيها يتعدى لغيره من العلم أو المصالح لتجتلب أو المضار لتجتنب فذكرها عبث وهؤلاء المؤلفون مصونون عن العبث إذ مقامهم يتحاشى عن ذلك ولأنهم مشرعون والنبي صلى الله عليه وسلم ذكر أحواله للتشريع إذ هو بشر لا كالبشر فذكر أحواله من بيع وشراء ونزول وصعود وهبوط وشرب من بئر فلان ودخول بيت لفلان وصفة مسجده وبيته ودابته ولباسه ومأكله ومشربه وغير ذلك علم يفيد مصلحة أي مصلحة وأما هؤلاء فليس كذلك قلت نعم الأمر كما ذكرت لكن اتفق أهل الرحلة على ذكر ذلك قديما وحديثا فحينئذ لا يخلو عن فائدة بينة أما ما كان في خاصة نفسه إن كان خيرا فكذا مثله أن وقع بك فتشكر الله تعالى ليزيدك المعونة والخير لقوله تعالى ولئن شكرتم لأزيدنكم وإن كان مصيبة وامتحانا واختبارا فتتسلى به وتصبر كما صبر أولو العزم من الرسل فيسهل عليك حمل أعباء المصائب والله يقول إن الله مع الصابرين ولقوله أيضا ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الآية وأما ذكر أوصاف المدن والقرى فلا اعتبار وقد قال بعض العلماء إنما سكن الأكابر الأمصار لتذكر آيات الله والاعتبار وحينئذ فمن لم يرها حصل له ذلك بسماع أوصافها وقد علمت أن تفكر ساعة خير

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

من عبادة كذا وكذا سنة كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم وكفى بهذا شرفا وفضلا وأما ذكر بيع حاجة كقوله بعت جملا ا، ودعته وغير ذلك من الأخبار بما يخصه فلان تعلم أن الفضل والشرف ليس بترك الأسباب وإن التوكل لا ينافي ذلك لقوله تعالى ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل رجال لا يتجرون ولا يبيعون وأيضا الفاضل لا يقف عن خدمة نفسه ودابته وضيفه وشيخه وأهل الخير والصلاح بل الشرف ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتولى ذلك بنفسه فكيف بغيره فصاحب الرحلة حين أخبرك بأنه فعل كذا كأنه قال لك السنة في هذا الطرق فعله إذ التوكل في القلب وهو لا ينافي الأسباب بل فعلها يقويه ويؤيده لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعظم المتوكلين فانه يبيع ويشتري ويأخذ الزاد ويلاقي الرفاق ويصحب الرفقة وينزل على الماء ويتزود منه وأخبار صاحب الرحلة بأنه فعل ذلك ليقتدي به كما اقتدى هو به صلى الله عليه وسلم وقد قال الإمام الشافعي الشريف لا يأنف من ثلاث خدمته لنفسه ولدابته ولضيفه كما ذكره الشعراوي فإذا علمت هذا علمت أن ذكر ذلك ذكر لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وكفى بذلك فائدة وشرفا لهذا اللم فلا يحل لامرئ مسلم أن يقول تأليف هذا من العبث إذ هو الطريق وبيانها كبيان الطريق الموصلة إلى الله تعالى لأنها توصل إلى بيته بل توصل إلى رضاه وأي علم أشرف من هذا العلم وفائدته ظاهرة هذا وأن علم أمور الرحلة وبعض علم التاريخ يرجع إلى علم سيره صلى الله عليه وسلم فاعلم هذا فان فيه فضلا عظيما وأيضا النفس إذا علمت الطريق اشتاقت إلى الذهاب إلى بيت الله الحرام وأيضا معرفة الاستطاعة وعدمها إنما تكون ببيان المراحل وصعب الأماكن وسهلها وبيان المسافة بين المطاعن وبيان العذب منها وغيره ليعرف ما يتزود من الماء وقدر ما يعرفه من الأحمال وكل ذلك يحتاج فيه إلى تصور الطريق بالتفصيل ليعرف الإنسان حصول الاستطاعة لنفسه فيجب عليه أو عدمها فلا لأن الحكم

بالاستطاعة فرع التصور للطريق فاحتيج إلى بيان الرحلة فان قلت كتاب واحد يكفي قلت لأن الزمان والمكان يتغير فاحتيج إلى التعدد وأما بيان الأشجار ليستعد الإنسان إلى الشراء من وطنها لأن كثرته توجب كثرة الثمرة وكثرتها توجب رخاء الأسعار فينبغي للإنسان كثرة التزود منه ومثله القلة في الضد وأما غير الثمر فبيانه لاحتياج الدواب إليه فكل ذلك فيه إعانة للحاج والله يقول: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ الآية وبالجملة فهذا العلم شرف لشرف معلومه فالمنصف يظهر له الحق بأول إشارة والمعاند لو ملأت له الأرض حججا ما قبلها.

وإذا البينــــات لم تغـــن شــيئا فـــالتماس الهـدى بهــن عنـاء

تتمة ومن أقبل إلينا ووفق لمحبتنا الأجل الأعظم الحليم المشفق ذو الأخلاق الطيبة والطبائع السنية ودفع السيئة بالحسنة لقوله تعالى: ﴿ ادفع بالتي هي أحسن[1] فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وكذا كفاه الله مئونة أعدائه من غير حرب ولا عسكر ولما اجتمعت معه قلت له امتثل الخير ولو من عدوك، ولا تقبل الشر لو من صديقك، وقلت له أيضا المحسن يجازي الإحسان، والمسيء تكفيه إساءته، زاده الله عقلا وعلما وحلما وصبرا[2] وهداية ورعاية حسنة وأن يخلد الولاية في ذريته إلى قيام الساعة مع العدل والحلم حسبما فيه غيره من أهل العدل والإحسان والرحمة للأمة المحمدية وذلك سيدي علي باشا نجل الوالي محمد باشا نجل الوالي أحمد باشا وفي الحجة الأولى أدركت جده وفي الثانية أدركت أباه في الطلعة وفي الرجعة أدركته هو جعل الله عاقبته خيرا من أوله وأصلح حضرته لأن قلب الأمير على قلوب قواعده وصلاحه بصلاحهم وفساده بفسادهم لأنه لا يخرج عن دار الملك حتى يتبين له المحسن من المسيء والصديق من العدو والطائع من العاصي

---

(١) في نسخة أحسن السيئة.

(٢) في نسخة وعلما وجبرا ونصرا.

وهلاك الخلق إنما هو بهم فكان حقا عليه أن لا يقبل الشر من أحد إلا إذا حصل له العلم بذلك وإلا كان كُرة في أيديهم فيهلكون به من شاءوا من عباد الله من غير موجب شرعي نعم العاقل من عقل عن الله ما يفعل إذا علمت هذا علمت أن الأمور نسبية الأمثال فالأمثل وإلا فأن نظر إلى العصر الأول فتجد أهل الطاعة منا كأهل المعاصي منهم غير أنك إذا تسبت من كان من أهل الزمان الأول والزمان الآتي إلى زماننا هذا فتجده أولى من غيره والأمر اعتباري وإلا فالظلم قد عم والجهل قد انتشر والبدعة قد صارت سنة والسنة قد صارت بدعة والحكم لله الواحد القهار ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العلمين فبالله وتالله مثلي لا يصلح بهم ولا للاجتماع معهم إذ لا دين لنا نتحصن به وأما هذا الرجل ومثله في محل الرفعة والتعظيم أن تعلق بمثلنا فيريح قطعا إذ من تخلل من الأمراء لا يلتفت إلى أهل الخير بل يعدونهم كالهباء المنثور الحمد له على مثله فالله يحفظنا وإياه من كل حسود وأذاقه ما أذاق أصفياءه لأنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير، يؤتي الملك من يشاء بالتصريف، ويعز من يشاء بالتعريف، ويذل من يشاء بالتسويف، بيديه الخير من غير وجوب ولا إيجاب ولا تخويف.

تنبيه آخر قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه فائدة قال الشيخ محمد بن علي شارح الشقراطسية ناقلا عن البكري ويذكر أن تفسير طرابلس بالعجمية ثلاث مدن قال وعلى مدينة طرابلس سور ضخم جليل البناء وهو على شاطئ البحر وبها أسواق حافلة وحمامات كثيرة فاضلة وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون ومرساها مأمون من أكثر الرياح ومدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيرات وبها بساتين جليلة في شرقيها ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير ومن طرابلس إلى جبل نفوسة ثلاثة أيام وذكر الليث ابن سعد قال غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس سنة ثلاث وعشرين حتى نزل القبة على الشرف من شرقيها فحاصرها

شهرا لا يقدر منهم على شيء فخرج رجل من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو يتصيد في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة فاشتد عليهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة البحر وكان البحر لاصقا بالمدينة ولم يكن بين البحر والمدينة سور وكانت سفن البحر شارعة في مرساها إلى بيوتهم فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاص من ناحية المدينة فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا فلم يكن للروم مفزع إلا إلى سفنهم وأقبل عمرو بجيوشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف عليهم في مراكبهم وغنم عمرو ما كان بالمدينة وسور المدينة مما يلي البحر غير أصل إنما بناه هرثمة بن أعين في حين ولايته القيروان وبعث عمرو بن العاص إلى ودان بشر بن أرطأة وهو محاصر طرابلس فافتتحها وذلك سنة ثلاث وعشرين وأكثر معيشة أهل ودان التمر ولهم زرع يسقونه بالنضح وافتتح عمرو بن العاص نفوسة وكانوا نصارى وأم قرى جبل نفوسة شروين مدينة كبيرة آهلة جليلة وبين طرابلس ومدينة شروين خمسة أيام وبينهما حصن لبدة من بنيان الأوائل بالآجر والحجر حوله آثار عجيبة وخرائبي كثيرة يسكن هذا الحصن قوم من المغرب حماتهم نحو الألف فارس وهم محاربون لجميع من يحاربهم من قبائل البربر أزيد من عشرين ألفا بين راجل وفارس وظاهرون عليهم وفي وسط جبل نفوسة النخيل والزيتون الكثير والفواكه ويجتمع فيما حوله من القبائل ستة عشر ألف رجل وطول جبل نفوسة من المشرق إلى المغرب ستة أيام اهـ كلامه مع بعض اختصار وتغيير وفي رحلة أبي سالم العياشي وهي مدينة مساحتها صغيرة، وخيراتها كثيرة، ونكايتها للعدو شهيرة، ومآثرها جليلة، ومعائبها قليلة، أنيقة البناء، فسيحة الفناء، عالية الأسوار، متناسبة الأدوار، واسعة طريقها، سهل طروقها، إلى ما جمع لأهلها من زكاء الأوصاف، وجميل الإنصاف، وسماحة على المعتاد زائدة، وعلى المتعاقبين بأنواع المبرة عائدة، لا تكاد تسمع من واحد من أهلها لغوا إلا سلاما، ولو لمن استحق ملاما، لا سيما مع

الحجاج الواردين، ومن انتسب إلى الخير من الفقراء العابدين، فإنهم يبالغون في إكرامهم، ولا يألون جهدا في أفضالهم عليهم وأنعامهم، ولهذه المدينة بابان باب إلى البر وباب إلى البحر لأن البحر يحيط بكثير من جهاتها والحصن الذي فيه الأمير متصل بالمدينة من ناحية باب البر بينه وبين البحر ولأمير هذه المدينة نكاية للعدو دمرهم الله ولو مراكب قل نظيرها معدة للجهاد في البحر فلما تسافر وترجع بلا غنيمة وقلما أسرت لهم سفينة إلا أن تكون من سفن التجارة لا من سفن الجهاد فجزاهم الله خيرا وأعانهم على ما أولاهم من ذلك وسائر بلاد المسلمين أجمعين.

قال وكان عادة الركب إذا نزل هذه المدينة لا سيما في الذهاب أن يقيموا بها نحوا من شهر يستعدون فيها لدخول المفازة التي قل نظيرها وهي مفازة برقة ومن هذه المدينة يشتري الحجاج ما يحتاجون من الإبل والقرب الخ ما حاصل معناه أن الركب كان يمشي مشيا رويدا لأن مقصودهم الحج والشوق لتلك الأماكن ويشفقون على الضعيف فالآن والعياذ بالله صارت حالة الركب تجارة فمسيرة شهرين صارت أربعين يوما غبطة لحصول الحوايج الدنيوية حتى انقطعت الصعاليك عن المشي أنا لله وأنا إليه راجعون.

وأما الإبل فإبل هذه البلدة أجود من غيرها لأنها ألفت العمل والخدمة الكثيرة وأنهم يستعملونها في كبير الأعمال حتى الحراثة والدراسة والرحي فتمرنت بذلك على المشاق العظيمة مع طيب هواء البلد وقد قيل إن هواء الدنيا كلها في هواء هذه البلدة مع صفاء مرعاها فيقل حينئذ فيها الغش وتندر أمراضها وقد قيل للحجاج عليكم بجمال طرابلسية وقربة مصرية لأن قرب هذا البلد ردية الدباغ وماؤها خبيث المساغ ومع ذلك لا تمسك الماء إلا كما يمسكه الغربال ومع ذلك يحتاج صاحبها إلى كثير منها بل قد تؤديه إلى العطب والتلف في بعض المفاوز لكونها تضيع الماء

برشحها كثيرا. ثم قال وهذه المدينة قد شاهد أهلها بركة الحجاج والمجاهدين في أمر معاشهم فربما اجتمع فيها من الركبان الذاهبين والآئبين خمسة أو ستة ويصادف ذلك في كثير من الأحيان خروج عسكر البحر للجهاد ومع ذلك لا يزيد فيها السعر على ما كان في كل مطعوم بل ربما نقص في الغالب مع أن البلد في كثير أحواله معروف بغلاء الأسعار بالنسبة إلى أرياف النيل وسواحل المغرب وجباله إلى أن أهلها مستكفون بها غاية وراضون بها نهاية وهي جديرة بذلك إذا اجتمع الأركاب فيها كثير الزحام على الأراحي غاية فيلاقي الحجاج من ذلك مشقة ولو لا ما جبل عليها أهلها من السماحة وحسن الخلق لما تهيأ للحجاج اتخاذ الزاد منها لصغرها وكثرة الواردين لا سيما من لم تطل أقامته اهـ قلت ركبنا لم تطل إقامته في هذه السنة وإنما أقمنا بها نحو العشرة أيام وذلك شأن الأركاب في هذا الزمان لأن الناس يستصحبون معهم الزاد فلا يحتاجون إلا إلى ما قل وقد ذكر شيخ شيوخنا المذكور أنه بعد استقرار المنزل به ذهب لزيارة شيخه الفاضل مفتي البلد سيدي محمد بن أحمد بن مساهل رضي الله تعالى عنه قد استعفى عن الفتوى في آخر عمره وتبتل للعبادة وتدريس العلم مع ملازمة كتب الوعظ والتذكير وله مشاركة في العلوم ملازم التدريس وله سيمة حسنة وحالة مرضية بأن قال ما رأينا سيمة حسنة أولى منه ولا أصدق قولا ولا فعلا منهم وله باع في المطالعة وانتقال في المذهب وكان منقطعا عن الاشتغال والتكاليف بحيث لا يفتر عن إقراء العلم صباحا ومساء وصيفا وشتاء بمعنى أنه يديم القراءة وقد اشتغل بالفتوى نحو الأربعين سنة ومع ذلك حمدت سيرته وقد أخذ طريقته عن الولي بلا نزاع بين تلك البقاع سيدي محمد الصيد رضي الله عنه والصيد في لغتهم الأسد وسمي بذلك لكثرة ردعه للظلام وقهره للجبابرة وهو أخذ عن سيدي عيسى بن محمد التلمساني المشهور بأبي معزة وهو أخذ عن الولي الكبير والعلم الشهير سيدي أبي عمرو القسطلاني المراكشي وكان هذا الشيخ

رضي الله عنه لا يجترئ أحد على معارضته فيما أمر به ولا يتعرض لمن انتسب إليه وظهرت له كرامات وقد ظهر فضله بسبب شيخه سيدي عيسى المذكور ولذا لم يزل ولده سيدي عبد الحفيظ يبالغ في تعظيم أولاد سيدي أبي عمرو بل في تعظيم كل من انتمى إليهم بقرابة أو خدمة أو جوار أو غير ذلك وقال ولقد أخبرني من حضره ذات يوم وقد غسل سيدي محمد بن أبي القاسم من أولاد سيدي أبي القاسم يده صباحا ورأسه من حناء كان بها في إنائه فأخذ سيدي عبد الحفيظ ما اجتمع من الغسالة في ذلك الإناء وشربه نفعه الله بحسن اعتقاده ولهذا السيد مزيد اعتقاد في كل من ينتسب إلى الصلاح وقد نفعه الله بذلك فطار صيته وانتشر ذكره في البلاد أكثر من أبيه وهابه الولاة فمن دونهم كما قيل له دنيا عريضة من كل المال قد أتاه نعما وحرثا وغيرهما يطعم منهما الواردين ويواسي المحتاجين أعانه الله على ما به تولاه ورزقه الشكر على ما أولاه وتوفي أبوه سيدي الصيد سنة خمسين وألف (١٠٥٠) وقال أيضا لقد أخبرني محمد بن مساهل المذكور بان قال منذ عرفت الشيخ سيدي الصيد ما تركت جمعة في مسجده نحو أربعين سنة آتية ضحى وأصلي الجمعة وأرجع إلى المدينة إلا لعذر ظاهر وأبقى في مسجده إلى أن أصلي العصر في محل المسمى بالمنشير وبينه وبين المدينة ستة أميال.

لطيفة قال أخبرني أيضا شيخنا هذا أن شيخه المذكور قال أن لأهل الله مراغة كمراغة الإبل لا يمر بها أحد منهم إلا تمرغ بها وأني لأرجو أن يجعلك الله مراغة لأوليائه ولأجل دعوة هذا الشيخ لا يدخل أحد هذه المدينة ممن فيه انتساب لهذا الطريق المبارك إلا كان أيواؤه إلى هذا الشيخ أما بالنزول عنده أو بالتردد إليه وكان رضي الله عنه يقوم بحوائجهم قدر الإمكان ويواسيهم نفعه الله بقصده الجميل.

نادرة قال وأخبرني شيخنا ابن مساهل عن بعض مشائخه أنه قال إذا أذن خلف

مسافر فذلك أمان له حتى يرجع من سفره وروى لنا في ذلك حديثا وقد فعل لنا ذلك رضي الله عنه حين ودعنا خارج داره فرأينا بركته والحمد لله اهـ.

أقول

لطيفة وكذا إذا قرأ وراء المسافر قوله:

وحيث اتجهت صادفتك عناية ... وينصرك الرحمان من كل جانب

رجع سالما بإذن الله تعالى وقائله هو جبريل عليه السلام إذ قرأه وراء النبي صلى الله عليه وسلم حكاه الخفاجي في شرح الشفاء قال ما قرئ وراء مسافر إلا رجع سالما.

ثم قال

غريبة أخبرني أيضا أن سيدي علي بن الخضر العمروسي ذكره في شرحه على المختصر أن الزباد المسمى في عرف غربنا بالغالية نجس وإن كان عرق حي لمروره بمحل البول قال وكان بعض الصالحين لا يتطيب به لذلك وأظنه الشيخ اللقاني قال شيخنا وكنت أتوهم ذلك إلى أن بعث بحضرة سيدي عبد الحفيظ إلى قطاط من القطوط التي يستخرج منها الزباد وكان عند بعض الأتراك فلما أحضر أمرنا متولي استخراج الزباد منه باستخراجه بحضرتنا ففعل فشاهدنا محل اجتماع ذلك منه خارجا عن محل البول لا يمر به أصلا وإنما هو جليدة رقيقة عن يمين المحل أو يساره يجتمع فيه ذلك العرق وتشتد عليه وتنطوي حتى يؤخذ منها قال فحينئذ أطمأنت نفوسنا وأيقنا بطهارته.

قلت وفي شرح المختصر للشيخ بعد الباقي الزباد كالمسك لخروجه من غير

مخرج البول والروث ولا يصل إلى محل خروج بوله ولا روثه كما أخبرني به مسلم ثقة في ذلك كذا قال الأجهوري في كبيره ومن خطه نقلت فيكون طاهرا وبه أفتى الشيخ سالم بعد التوقف حتى أخبره من له به معرفة وكذا له كما للأجهوري وهو خلاف من هذه الأماكن بملعقة صغيرة أو بدرهم رقيق اهـ واقتصر صاحب القاموس على ما نصه وغلط الفقهاء واللغويون في قولهم الزباد دابة يجلب منها الطيب وإنما الدابة السنور والزباد الطيب وهو رشح يجتمع تحت ذنبها على المخرج فتمسك الدابة وتمنع الاضطراب ويسلت ذلك الوسخ المجتمع هنا بليطة أو بخرقة انتهى كلام الزرقاني بزيادة.

قلت ويؤيد ما للزرقاني ما عاينه الشيخ ابن مساهل المذكور مع من معه فلا يرتاب في طهارته إذًا لبعده عن محل النجاسة لانطواء تلك الجلدة واشتدادها عليه بعد اجتماعه حتى يؤخذ منها.

ثم قال

غريبة أخبرني الشيخ سيدي محمد بن مساهل سنة أربع وستين في الرحلة التي قبل هذه أنهم سمعوا في سنة اثنتين وستين وألف (١٠٦٢) صوتا هائلا في ناحية البحر كصوت المدافع الكبار من قرب الضحى إلى الليل قال وظنناه سفنا للمسلمين تلاقت مع بعض السفن للنصارى وكما سمعنا ذلك الصوت سمعه أهل هذا الساحل إلى مسراتة وسمعه حتى أهل فزان والإسكندرية وسمعه من الناحية الغربية أهل جربة وسوسة وتونس وكل يظن أنه قريب منه وبعد شهر أو شهرين قدمت مراكب من بر الترك وأخبروا أن ذلك الصوت لأمر هائل وذلك أن جزيرة من الجزائر خرجت في بعض نواحيها حجارة تطلع من البحر حتى إذا ارتفعت على الماء وعلت في الهواء تصدعت فيخرج منها نار ويسمع لها ذلك الصوت فإذا خرجت

النار وقعت الحجارة على الماء خفيفة كهيئة الجفافة ودام ذلك إلى الليل وارتفع من ذلك الجو دخان كثير فيه رائحة الكبريت وأعجب من هذا انهم قالوا أنه أصبح في ذلك البلد كل ما عندهم من الفضة نحاسا في تلك الليلة والله أعلم بغيبه قال وهذه المدينة معروفة بأهل الصدق في الأحوال من المجاذيب وقد أدركنا بها رجلين أو ثلاثة من المجاذيب تؤثر عليهم كرامات وحكايات غريبة تدل على صدقهم في مواجدهم وكانت فيما مضى فيها مزارات كثيرة لكثير من أكابر الصالحين ولا يعرف منهم الآن إلا القليل كسيدي سالم المشاط صاحب المسجد الجامع الذي بأقصى المدينة وقبره يزار.

قال وسبب خفاء كثير من قبور الصالحين المدفونين أن البلد تداولته أيدي المسلمين والنصارى مرارا عديدة فقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أن النصارى استولوا عليها في أيام السلطان أبي عنان وافتداها منهم بخمسة قناطير من الذهب العين فعد ذلك من مآثره انتهى قال وقد استولى عليها النصارى أيضا في القرن العاشر.

قلت وفي رحلتنا للحرمين الشريفين سنة ست وتسعين وألف (١٠٩٦) حاصرها الكفار دمرهم الله تدميرا وذلك أن يوم نزولنا بها بمنزل الركب بسق البحر إذا بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن كملت اثنين وعشرين سفينة فأقاموا عليها دمرهم الله بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم ونكد جسيم وعناء شديد وليس فيهم مدبر ولا ذو رأي حميد أو نظر سديد بل أخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها وحريمهم إلى سوانيهم بالمنشية ولما رأينا ذلك تكلمنا مع وجوههم على فعلهم الغير اللائق فيما يبدو لنا من إظهار الجزع والجبن لأعداء الله الكفرة اللآم الفجرة وقلنا لهم إن هذا الصنع الذميم مما يغريهم عليكم فاصبروا ولا تظهروا لهم

الوهن والجبن فقالوا هذا والله منها ليس بجبن وإنما حملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البُنْبَة يضربون بها ولا تقع على شيء كائن من كان إلا وهدمته ودكته والمسلمون في هذه الليالي كلها لا ينامون بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله ونحن وركبنا معهم في ذلك مستهلون بالشهادة رافعون أصواتنا بالتكبير وملعنون بالصلاة على البشير النذير عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات من الملك القدير وعلى آله وصحابته ذوي المنهاج الواضح المنير فلما كان بعد صلاة العشاء ليلة السبت ضربت الكفرة دمرهم الله بمدافعهم فرأينا من ذلك ما لم نره قط ولا سمعنا به ترى البارود حين يخرج من بخش المدفع فإذا بكُرة محماة تحكي الشهب خرجت منه صعدت ثم يرمون بأخرى وترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصمته الأذان فتصدع في الموضع الذي وقعت فيه وتتفرق ولا تقع على بناء إلا هدمته ولا على بسيط مستو إلا وحفرته ولا على علية أو أسطوانة إلا وهدمتها ولا على شجرة إلا وأحرقتها أو قلعتها فتمكث في أعماق الأرض سويعة فتتكسر فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول ونحن في ذلك كله رافعو الأكف بالذلة والافتقار والخضوع والتضرع إلى الله تعالى الليل كله ولا نكتحل بنوم قط وما خرج مدفع من مدافعهم إلا وظننا أنه يقع علينا فتارة تقع حذاءنا وتارة تمر علينا وأكثر ما تقع بالمدينة أو البحر أو قرب المدينة خارجا وفي بعض الليالي وهي من الليالي الهائلة أخذوا في الضرب الليل كله إلى الصباح بل إلى الضحى لا يفترون عنه ساعة وضربوا فيما أخبرني به بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمائة كُرة فلما رأينا هولهم العظيم ومعنا النساء والصبيان وفيهن الحوامل خشينا عليهن أن يقذفن ما في أرحامهن مما يعاينّ فتحولنا لبعض البساتين المسورة فنزل الركب بها وأدخلنا حريمنا لبعض الديار ثم امسكوا عن الضرب إلى أن صلينا العشاء فضربوا أيضا دفعة واحدة فهاجت عليهم أرياح عاصفة وأفسدت كُراهم

بإخماد ما تعلق بها من نار وعند الفيء عادوا للرمي إلى الضحى فلما قرب الزوال زحفوا إلى المرسى فعافهم من بالبرجين اللذين على البحر من المرابطين بها البائعين أنفسهم من الله وقد لا يخلوان من حارس في السلم والحرب وردوهم على أعقابهم بما قذفوهم به من الكرى والمدافع حتى كسروا لهم صندلا صغيرا فنكصوا على أعقابهم وولوا أدبارهم، وعانقوا أدبارهم، والحمد لله رب العالمين فكثر اللغط والعويل بالبلد، فجاء أهل الإسلام من كل وجهة مشاة وركبانا بعَدد وعُدد، كل بحسب وسعه، فاكفهرت وجوه الأبطال، وكلحت شفاه الرجال، وشمروا للنزال، وتهيئوا للدفاع والقتال، واحمرت الحدق، فكسا الكفرة الفرق، فارتحلوا إلى أبعد مكان فأبعدهم الله وأسحقهم، وأذلهم وأقلقهم، فكاد الإسلام يقتحم بأهله البحر إليهم وأشد الناس حنقا عليهم الحجيج فعملوا على النجاز، والنصال والبراز، ولو لا البحر لأراهم الله من أهل الإسلام ما يسوءهم فكتب كل وصيته وأعد الشهادة مغنما، وفواتها مغرما، كل يرجو أن تخرج الكفرة للبر واجتمعت آلاف مؤلفة من أهل الإسلام الأبطال من أهل الدفاع والقتال وما رد الكفرة من الخروج إلا ما رأوا من شدة الحزم وقوة العزم، وأبلغ الغيظ من أهل الكفر والظلم، حتى قالوا يكون بيننا وبينهم صلح على أن يدفع لهم المسلمون جميع ما عددهم من أسراهم وشرط عليهم المسلمون مثل ذلك والكفار على المسلمين يردوا لهم ما أخذوا منهم قبل ذلك الزمان في البحر في هدنة بينهم وقبل المسلمون لهم ذلك وقدره والله أعلم مائتا ألف ريال فرملية فحينئذ دخل الكفرة المدينة للتسوق وربما أغلظوا على بعض المسلمين في القول لتوعد أمير البلد من العثماني على من أساء على كافر ولو بكلمة بعقاب شديد وهو علج فأغرى ذلك الكفار على المسلمين فصبر أهل المدينة لذلك وأما المغاربة وجميع الحجيج فاغلظوا على الكفرة فاخشنوا لهم في القول وربما ضربوهم ولا ألقوا إليهم بالا إعزازا لدين الله وإعلاء لكلمة الله فرفع الكفرة ذلك لأمير البلد العلج

المذكور فقال إن المغاربة شداد على النصارى فاتركوهم لئلا يقع فيكم القتل ولا يدَ لي عليهم فدعوهم عنكم وتحملوا منهم ما واجهوكم به فأخذوا في دفع ما شرط عليهم الأمير وصاروا يدفعون لهم الخيل والزرع والإبل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وكلمنا علماءهم المالكية فقالوا إن هذا والله هو الصغار بعينه ولا قدرة لنا على ما فعله هؤلاء الأتراك وخرجوا تلك الأيام خارج المدينة مخافة حضور هذا الفعل الذميم.

تنبيه من جلة الدواهي المعضلات أننا دخلنا المدينة للجمعة فجلسنا ننتظر الإمام فإذا برجال من أهل الدولتلي أرسلهم بالنداء لا تصلى الجمعة فقام لهم صاحبنا الفقيه سيدي أحمد بن محمد المشتوكي فقال لهم أن هذا والله حرام لا يجوز كيف تترك الجمعة من غير عذر بيّن وأكثر من ذلك فقام فقيه منهم فقال هذا جائز عندنا فخرجنا من مسجدهم فأتينا مسجدا آخر تصلي به الجمعة المالكية فإذا برسول الدولتلي أتى ينادي بما نادى به أولا فأبى الإمام المالكي فصلاها رضي الله عنه قائلا والله حتى أصليها ولو تنفذ سالفتي فصليناها معه جزاه الله خيرا ووقانا وإياه ضيرا ثم أجلى الله الكفرة عن المدينة يوم الخميس بعد تمام المهادنة وإمضاء شروطها وفرح المسلمون بانتقالهم عنهم وإقلاعهم عن البحر غاية الفرح أخزى الله الكفرة وأذلهم وأعز أهل الإسلام وأحاطهم.

نكتة أخبرني بعض من يوثق به أن هذه الآلة التي يرمي بها الكفرة كانت تصنع من نحاس وحديد وذهب وفضة وأنواع أخرى من المعادن ويفرغونها على قدر القدر المتوسطة المسماة في عرف أهل بلدنا بالمقلاة ولها يدان مثلها وبابها ضيق قدر ما يدخل فيه الإنسان ثلاثة أصابع أو أربعة ويأخذون عود الكلخ ويثقبون وسطه طولا ويجعلون فيه فتيلة تخرج من فوقه وأسفله ويملئونها بارودا ومسامير وقطع الحديد

وعقاقير ويجعلون هذا العود في فمها ويسدون عليه بحلقة الحديد ويجعلونها في مدفع على هيئة المهراس بعد ما يجعلون فيه البارود ويرفعون فم هذا المدفع نحو السماء فإذا مس بنار خرجت النار مشتعلة في الفتيلة وهي طالعة في الجو والريح تنفخها والنار في الفتيلة وعود الكلخ يزيد اشتعالا بما يصيبه من الريح وترى في الجو على هيئة النجم فلا تصل النار إليها حتى تسقط حيث تسقط اهـ.

تتمة هذه المدينة وأن نقصت حسا لأنها الآن لم يوجد فيها إلا حمامان وكذا الرباط فيها ومثلها الأسواق غير أنها لم تنقص معنى فإن خيرها كثير ونورها جدير نعم قد وجدنا فيها فرقا من أهل الخير والدين من طلبة العلم وغيرهم وبالجملة فمن يذوق أحوالهم، وألقي السمع إليهم، يرى بنور الله أفاضل أجلة، وذوي المعرفة كالأهلة، فليس لك أن تقول قل الخير وأهله، وإنما قل على المحجوب والمعلول أفعاله، وإلا فحضرة هؤلاء كاملة الأنوار ساطعة الأسرار، لا تخلوا مواطنهم من المقربين والأبرار، فيحق السعي إليهم، مع خدمتهم ومودتهم والتحبب إليهم، ليستمد منهم ويستفيد من أحوالهم، ويقتبس من أنوارهم، ليدخل في حضرتهم، ويشرب من كأس قربهم، وحينئذ يتخلق بخلق النبي صلى الله عليه وسلم فتسري فيه روحه الكريمة بل تسري فيه معاني أسماء الله وصفاته وينكشف له بالذوق عن كنه ذاته فترد عليه شطحات إلهية، ومواهب صمدانية، وأنوار فردانية، فيغيب عن الأكوان بقدرة المكون حتى لا يراها إلا فتنة وبلوى إذ تقول بلسان حالها إنما نحن فتنة فلا تكفر فلا يسير حينئذ سيرة المهل غير أنه لولا سلطان التمكين لطاش عقله لفجاءة البعث[1] فيقويه الله تبارك وتعالى في مقام الشهود وإلا اضمحلت نفسه[2] لمشاهدة الذات وكذا وصفه لمشاهدة وصفه وفعله لمشاهدة فعله فلا يرى السائر إلا

(١) في نسخة البغت.

(٢) في نسخة لاضمحلال نفسه.

ذات المحبوب وصفاته وأفعاله فيصحبه في ذلك الوقت بعض المحو فيقول الجاهل تكدر وقته، وعظمت محنته، وعالت مصيبته، والمعترض صاحب الحرمان، وغلبت عليه النفس والشيطان، وإلا.لسلم لمن هذا وصفه إذ هو في تجليات المحبوب، والغيب عن المربوب، فجدير أن يؤيد في ذلك المقام وإلا فلا يستطيع أن يحمل ما للباقي إذ الفاني لا قدرة له على ذلك، ولا يتحمل ما هنالك، فيجول قلبه في معارف الله تعالى وإذا تليت عليه آيات القرآن زادته إيمانا وعلى ربه يتوكل فإذا تقوى عليه الشهود وسار في الأرواح ذهب سر الأسرار في قائمة عروس التجلي فلا ينعكس أصلا فذلك إسراء الأرواح لربهم فيحليها بما حلى به المقربين من عباده وحينئذ تكون له شطحات يشطح بما حلي به أما بسر الذات أو بمعنى الصفات أو بشذاء الأسماء فإذا تغذى بها ظهر ذلك على الأجباح ولذا قال بعض العارفين إذ نزل الوجد على الرأس حركه وعلى العين أدمعها وعلى اللسان انطقه بما به شطح وعلى اليد بطش بها وعلى الرجل رقصت فحينئذ يغيب الناس بسر اللهوت فينادي لسان الحقيقة بما يشبه الاتحاد فيقول مثلا أنا هو فإذا دام شربه ظهرت أنوار الحق عليه لأن ما فيك، ظهر على فيك، كل إناء بما فيه يرشح، هذا وإن وسع التجلي لا يعرف قدره إلا صاحب التأييد من العزيز المقتدر هيهات من هو دون مقامه، أن يشم رائحة أنعامه، ولا أن يكون في قسمة من أقسامه، نعم لا يفهم كلام الأخرس إلا أمه، وفي ذلك الغيب وجمع الجمع يصير ملتقطا لدرر التوحيد، وغرر التجريد، لتجلي بها في منصة التوحيد، فلا يعلم ما هو عليه إلا من شرب من مشربه، وشرابه يرقيه إلى محبوبه، وإن إلى ربك المنتهى، فيصير هو سمعا له وبصرا ونطقا، وإلى هذا المعنى أشار ابن مالك بقوله «وذو ارتفاع وانفصال أنا هو» أي الضمير بسر اللهوت المنفصل عن الخلق، المتصل بالحق، فإذا غاب بمحبوبه، يقول في حال غيبه ومحوه، إذ لا يرى إلا ذات المحبوب وأوصافها فلم يبق له سواه ينظر إليه ولذا يقولون الوجود واحد إذ لو

تعدد هلكت العوام وأما من غلب عليه سطوة التجلي تلاشى كل شيء سواه وقال أنا هو غير أنه ممزوج بكدر الاتحاد ولذا لا تسمح الشريعة في مثل هذا القول نعم صاحب الحال محمول لا حامل فإذا رجع إلى صحوه قال أنت أذلو قال أنا هو مع الصحو لكفر بإجماع لأن الله تبارك وتعالى قسم أهل الحق قسمين متلونا ومتمكنا فصاحب التلوين ملكه الحال وهو أول مقامات النبي صلى الله عليه وسلم وبدايته بدليل قوله زملوني زملوني الحديث إذ التكاليف والتصاريف[1] لا يستطيع البشر حملها ولذا طلب المعونة بالتغطية والضم ليتيسر حمل أعبائها فلما تمكن يأتيه الملك ولا يتغير ودليل التلوين قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية وأما التمكين[2] فقوله تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ ولقوله أيضا: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الآية فلما تحقق بعض الفقراء من زماننا بهذا وظهرت عليه آثار الغيب والمحو لما صاحبهم من الشهود بملاحظة المعبود تحركت همتهم بالشطحات السالفة من أنواع الواردات المختلفة فمن رزق الإنابة سلم لهم أحوالهم، ووكل أمرهم إلى مولاهم، ومن حرم والعياذ بالله كفاه الحرمان وهو أصل كل شقاوة نازعهم في تواجدهم وأحوالهم وصار يبطلها بأدلة وهمية، وتخيلات واهية، ونزغات[3] شيطانية، عله أن يسقطهم في عين الخلق ومن كان في عين الحق لا يسقطه عن الخلق والله يقول: ﴿ تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ ﴾ والذين كفروا بمشاهدة الحق وتحلية القلوب بالحق فتعسا لهم لما تحملوه من الحجاب العظيم غير أن هذا لا يكون إلا من الفقيه الفخ الذي سولت له نفسه الحمقاء أن يقول ما يوجب الرجوع عن باب الله

---

(١) في نسخة التعاريف.

(٢) في نسختين المتمكن.

(٣) في نسخة نزعات.

تعالى إذ تبت[1] يده أن تصل إلى هذه الأنوار، وانكشفت شمسه عن هذه الأسرار، فحرم الوصول إلى هذه الدار، فخاب سعيه، وطاش عقله، فضل وأضل أن الله تولاهم، ولم يتركهم لسواهم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده وهو أن بعض المنتسبين والفقراء المتجردين قد برز في صورة ما ذكر من الأحوال والواردات والمواجد فقام بعض الفقهاء ينزح البحر بلسانه هيهات أن يصل إلى بعض معانيه وقد قال أبو يزيد البسطامي أعلى الولاية التصديق بأحوال الله أهل الله وأدناها التسليم لهم ولذلك نبهنا على أمر هؤلاء فإن فيهم من فتح له في باب [المعرفة أشراب على الخط السابق][2] من ورود الشهود على قلوبهم فأوردوها ورود الاتحاد لغيبتهم عن الأكوان بمشاهدة المكون فنطق الكل بحسب شهوده، وتحرك على قدر وجده وصعوده، فلما حلاهم الله في بواطنهم بتلك الحقائق، وعظم أمرهم بتلك الدقائق، وزين ظواهرهم بالإشراق فسقاهم من كأس حبه، وكساه بحلة قبوله، فكانت تنادي بلسان حالها إن هذا مقبول عندنا، ومفتاح لدينا، فمن أحسن إليه أحسن إلينا، ومن أساء عليه فقد أساء علينا، فمن أخذ بيده قبلناه، ومن تشفع به شفعناه، ومن أحبه أسعدناه، ومن اعترض عليه رددناه، فصار خليفة في أرضه، ونائبا عن أحكامه وإبرامه، فمن تعلق به دخل، ومن قصده بلغ الأمل، وبالجملة فأسواق الحق عامرة، وأهلها مشهورة، فأهل وروده مذكورة، فإن سعيت إليهم بحسن اعتقاد قضيت مآربك منهم، لأن الله يستحي أن يردهم، وكذا يقصم بالهلاك من يبغضهم، لقوله صلى الله عليه وسلم من عادى لي وليا فقد آذنته بالمحاربة ومن حارب الله ورسوله هلك وإنما ذكرت هذا لعلمي بهؤلاء في هذه المدينة غير أن بعضهم يدعي ما لم يصل إليه وبعضهم يعترف بأقل ما لنفسه وبعضهم

---

(١) في نسخة شلت.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسخة وفي أخرى اسراب فليحرز.

ينكر مما لله عليه خوفا من طغيان النفس الأمارة بالسوء حتى يتعجب فيسقط من عين الله وإن جحد فحلية الله أظهرته، وكرامة الله شهرته، ولو أغلق الباب عليه لكسروه، وكذا لو اختفى في جحر ضب لأظهروه.

وقال الشيخ زروق ما خامر القلوب فعلى الوجه يلوح وآثار الأسرة تدل على السريرة وقال ذلك الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم لما رأيته عرفته أنه ليس بوجه كذاب وقال تعالى في حق الصديقين ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾ وفي حق المنافقين ولتعرفنهم في لحن القول، الناس حوانيت مغلقة فإذا تكلم الرجلان تبين العطار من البيطار لأن الكلام صفة المتكلم، ما كان فيك ظهر على فيك، ويعرف صدق المرء بثلاث عند مغاضبته أن لزم الحق واتصف بالصدق وسامح الخلق فهو ذاك وإلا فليس هناك.

فإذا تمهد هذا فأعلم أن مدينة طرابلس خصها الله بالصالحين ومحبة أهل الخير حتى أنهم لا يصبرون عليهم فإذا شموا رائحة المعرفة في أحد سعوا إليه بالإحسان جزاهم الله أحسن الجزاء وذلك عام في عمالة طرابلس لا سيما الزاوية الغربية فإن فيها من الصالحين الموتى ما لا يستطيع أحد أن يعدهم وأما الأحياء فبحسب زماننا هم أكثر من غيرهم وقد قيل إنها تنبت الصالحين كما تنبت الأرض العشب هذا وإن أولاد [1] قد بالغوا في حبنا وصفوا في مودتنا حتى أنهم تمنوا أن يكون ما عندهم قد بذلوه لنا وجعلوه قرى لأصحابنا خصوصا سيدي محمد وسيدي بو بكر وسيدي علي حاصله تعلقوا بنا صغيرا وكبيرا ظنا أن لنا فيضة إن فاضت عمهم وأبلها نعم من لم يصبه من المحسنين وابل منا فطل بجاهه صلى الله عليه وسلم الذي تعلقنا به وذهبنا وتعبنا من أجله وإلا فوالله علمنا أنفسنا وأيقنا أنها مفلسة قال بعض

(١) بياض في جميع النسخ.

العارفين ويل لمن ترك يقين نفسه لظن غيره والويل واد في جهنم تستعيذ منه جهنم في كل يوم سبعين مرة وبالجملة ففيها أفاضل لا سيما سيدي ناصر الذي أعتزل بأهله وسكن بيت اخصاص إذ هو وزوجه عجوزة خفيف الحال أي لا مال له ولا أهل وقد تجرد للعبادة وأطعم لنا بسيسة من كديده رضي الله عنه وأرضاه بمنه وكرمه وأما سيدي محمد [فانه] أتى إلينا بحمل جمل شعيرا وضيافة من لحم وغيره نعم أولاد سيدي البشت وأولاد القمود كلهم في الزاوية الغربية على خير.

فإذا تمهد هذا العلم فاعلم أن في الزاوية الغربية الصالحين وأهل الخير لا نظير لهم فيها علمت غير أن أهل الجزائر يعني من سكن المدينة وكذا أهل وطننا فإنهم أعظم منهم لا سيما جبال زواوة فإنهم أكرم شيء في الوجود إذ يأكلون الردي ويطعمون الضيف الطيب ووطنهم في غاية الضيق من المعيشة إذ هم خلق كثير لم يكن وطن أكثر منه وقد سمعت ممن يوثق به ممن علم أرض مصر وجبال زواوة فقال هم أكثر من مصر فأضعاف وقد استنشقت بعض الأدلة على وجود الطائفة التي على الحق ولا يضرهم من خالفهم إلى قيام الساعة أن الكثير منها في عمالة طرابلس وعمالة زواوة من عمالة الجزائر فلا يشك من خالطهم وثابنهم[١] أفاض الله علينا من بركاتهم وجعلنا في زمرتهم.

تنبيه مخالطة المتمكن في طريق من طرق الحق تفيد صاحبها ذلك إذ من تحقق بحالة لا يخلو الحاضرون منها لأن المرء على دين خليله وكل خير وكل شر في الخلطة و اللقمة وكل ما شئت فمثله تفعل وصاحب من شئت فأنت على دينه انظر قواعد الشيخ زروق وقد منحت بعض الفتح منهم ومن غيرهم من الذين رأيناهم في مكة والمدينة ومصر وغيرها نعم من اعتقد فيهم وأحسن إليهم وسلم لهم وصدقهم رزق

---

(١) كذا في نسختين وفي واحدة من خالطهم وثابنهم وفي أخرى من خالطهم في ذلك.

عطفهم فلم يبق إلا التعلق بهم فلا يقال قد انعدم هؤلاء الآن وقد قل وجودهم أو على تقدير وجودهم قد ستروا بظلمة الزور والبهتان ودعاوي الزنادقة أو أنهم في الفلوات من الأرض أو ظهر بعضهم فقد منع الناس منهم الطعن فيهم لا سيما الفقهاء فإنهم قد طبعوا على القدح في جانبهم والخدش فيهم نعم لا تجد فيهم منورا من أجل ذلك إذ الفقهاء إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك وإن بغضوك ذموك بما لم تتصف به وقبله العامة منهم وبالجملة فإن وجدت من فيه رائحة الذوق وظهرت علامة المعرفة فشد يدك عليه ولا تصبك غفلة وتفريط حتى تندم عليه لأنه أكسير زمانك فلا تهمل أمرك من هذا وألق السمع لما نبهناك عليه إذ هم الكعبة للزوار ولا تغمضهم(١) بعين الأزدراء وسوء الاعتقاد فتصير محروما مخذولا ممنوعا خصوصا إن أصابتك الواقعة(٢) فيهم فيخاف عليك سوء الخاتمة والعياذ بالله تعالى هذا وإن من أحسن ظنه فيهم وجد في طلبهم مع الصدق وجدهم أقرب إليه من ريقه لفيه في محل لا يظنهم فيه فيحصل له سلم يرقى به إلى حضرة الله تعالى يعلم ذلك باليقين وإنما يجدهم مستورين بالقدح والخدش من هو مثل من يتعاطى الفقه والتطلب إذ خبرة خالي عن الخميرة فهم الأسد، في اجام الحسد، وغيضة الاعتراض، وغابة الانتقاض، وقد علمت ما قالوا في الزباد من كونه نجسا لقربه من محل النجاسة ومعلوم كما سبق انه يحصل من غيره بمعاينة صدوره من قطعة من المبرزين في العدالة إذ عاينوه كذلك فهؤلاء أعظم منه نفعنا الله بهم.

تتمة فق لقي شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر من فضلاء طرابلس سيدي أحمد بن عبد الواحد بن يوسف الزنزوري ثم الفزاني وهو ساكن بزاوية زنزور وأنشد له لنفسه حين وادع الشيخ:

---

(١) في نسخة لا تنظرهم.

(٢) كذا في جميع النسخ ولعل الواقعة بدل الوقيعة.

أيا سيدي خفق باني عيدكم ... ذليل حقير بين قوم أراذل

ونفس له شيطانية قد بُلي بها ... هواه وإبليس ودنيا العلائل

أنيضوا عليه سيدي من نهوالكم ... عسى وعسى يعلو على كل كاهل

ويفهم مولاي علوما دقيقة ... ويمشي خلي القلب من كل شاغل

ومن جلة أهل وده هناك من الأئمة الأعلام أبو عبد الله سيدي محمد بن مقيل وصهر الأجل سيدي أحمد بن محمد المكني تقبل الله عملهم وأصلح فعلهم إذ أحسنا إلينا غاية الإحسان وفي تلك السنة لحقه الشيخ أحمد بن محمد المشتوكي أخ له في الله وفي تلك الأيام قرأ هو وأصحابه على شيخه أبي العباس سيدي أحمد القصري تآليف على الزبع المجيب نفعنا الله بهم.

نكتة تقدم لنا أن ترجمة لفظة طرابلس ثلاث مدن والأشهر في ضبطها فتح الطاء وضم الباء واللام وبعضهم يزيد ألفا ويسكن الطاء وقال التجاني في رحلته وكذلك رأيت الأجدابي يكتبها حيثما وقعت في خطه وعلى ذلك قول أحمد بن يحيى من قديم شعرائها في قصيدة له وهي:

لقد طال شوقي إلى فتية ... حسان الوجوه بأطرابلس

وقد عيل صبري فما مسعدي[1] ... على الشوق إلا دموعي الحبس

قال بعضهم المختار أن تكتب بزيادة ألف فرقا بينها وبين طرابلس الشام فإنها بغير ألف وبخارج البلد محارس قديمة ومساجد كثيرة مشهورة الفضل والبركة وأثنى البكري على المسجد المعروف منها بمسجد الشعاب إذ قال إنه أعمرها وأشهرها في ذلك الزمان وأما الآن فهو خال لا عمارة به وأما الآن قال أما زماننا هذا

(١) في نسخة وما ثالني ... إلا دموع الحبس وفي أخرى إلا أدمعي البجس.

فلم أسمع له ذكرا وفيه فيما مضى جملة وافرة من أكابر الصالحين والعلماء العاملين ومزارات مشهورة من جملتهم أبو محمد عبد الله الشعاب [أحد الصلحاء والفضلاء من أهل طرابلس وكان نجارا فحضرت له نية في إتمام هذا المسجد الذي نسب إليه وكان بعض الناس قبله ابتدأ بناءه ثم عجز عنه فرمى الشعاب الآلة من يده](١) وتوجه لإتمامه فأتمه وسكن به ويذكر أن الخضر كان يزوره ويحادثه وإنهما رئيا مجتمعين في المسجد المذكور وسمع يوما بكاء امرأة عند باب المسجد فسألها ما السبب فأخبرت أن لها ولدا أسره العدو وسألته الدعاء فدعا لها وأمنت على دعائه ثم انصرفت لبيتها فأصبح ولدها في السكك يسأل عن دار أمه فسئل فأخبر بفراره في البحر وسلامته ووصوله عن عهد قريب فتوجهت أمه إلى الشيخ تشكره وتعرفه بوصول ولدها وان ذلك إنما كان بدعائه فهنأها بسلامته وقال لها إنما نجاه الله بدعائك لما علم اضطرارك وكانت وفاته رحمه الله سنة ثلاث وأربعين ومائتين ومنهم الشيخ حطاب البرقي الرجل الصالح يكنى أبا نزار وكان ذا كرامات وخصوصا في باب المرائي ظهرت له في ذلك عجائب وكان يخاطب في النوم بجميع ما يكون في اليقظة قبل وجوده والتقى بالخضر عليه السلام وذكر أنه عارضه سبع فقال له أبا الحارث إن كنت قد أمرت فينا بشيء فدونك وإلا فالطريق قال فقرب مني ووقف هنيئة ثم انصرف وحكي أنه قال بينما أنا في البرية إذ رأيت شخصا فاستغربت وجوده هناك وقصدته فوجدته مفرج بن بياضة فقلت له أبا عبد السلام هاهنا فقال نعم يا أبا نزار فاستغربت معرفته بي مع انه مكفوف البصر وكان مفرج هذا رجلا صالحا من أهل جزيرة تونس المعروفة بجزيرة باشي وكان يخرج وحده من بلده إلى مكة فيحج ثم يعود قال فبتنا جميعا وتآنست به وسألته كيف يتهيأ له الحج مفردا فقال يا أبا نزار أني إذا خرجت من موضعي أسمع قائلا يقول لي يمينك

---

(١) ما بين القوسين ساقط في أربع نسخ.

شمالك أمامك خلفك حتى أصل إلى مكة أو كما قال ومنه أبو عثمان سعيد بن خلفون الحساني المعروف بالمستجاب وأصله من قرية حسان من قرى طرابلس كان زاهدا فاضلا منقطعا إلى الله سبحانه وظهرت بركته غاية فعرف بالمستجاب وقد قال الشيخ أبو عبد الله الخشاب القاضي رحمه الله خرجت مع أبي الحسن ابن النمر من طرابلس لزيارة الفقيه ابن أبي زيد رحمه الله تعالى وسماع العلم عليه فبينما نحن عنده يوما إذ تحدث أبو الحسن فقال أراد الشيخ أبو عثمان الحساني الحج مرة فاتفق مع جماعة من إخوانه أهل الدين والفضل وكنت معهم فخرجنا على الوحدة فقطعنا صدرا من الطريق وأقمنا ثلاثة لم نطعم فأتى الشيخ أبو عثمان إلى ربوة فمسح بوجهها بيده وجعل يأخذ من ترابها ويجعل في إناء كان معه ثم ثراه بشيء من ماء فقرأ عليه أو سمى وقال لنا سموا وكلوا قال فجعلنا نأكل ونتطعم منه طعم السويق قال فطرق الشيخ أبو محمد بن أبي زيد ساعة ثم رفع رأسه وقال هذا داخل في الإمكان لا سيما وقد ذكرتم أنكم أقمتم ثلاثا لم تطعموا وقرأ قوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾.

ولما رجع المؤدب محرز بن خلف من الحج قيل له من رأيت في طريقك من الصالحين قال رأيت بطرابلس رجلا وامرأة فأما الرجل فأبو عثمان الحساني وأما المرأة فسمدونة وكانت عجوزا صالحة تسكن مسجد الشعاب المذكور وكان أبو نزار حطاب الرجل الصالح المذكور يزورها ويعتقد بركتها وهذا كما يحكى أن سحنون بن سعيد لما رجع من الحج قيل له من رأيت من الصالحين فقال لقد رأيت بطرابلس رجالا ما الفضيل بن عياض بأفضل منهم.

ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الخطيب الطرابلسي أقام ساكنا بمسجد المجاز بها فيما يقال أربعين سنة وكان فقيها صالحا عالما زاهدا وله في الفقه والفرائض والشروط

تأليف مفيدة وأقام أربعين سنة لم يضحك ونحو خمسين سنة لم يحلف بالله يمينا وقال له ابن أخيه عندما أملى وصيته أنسيت الكفارة فقال لولا أني في الموت ما أخبرتك ما حلفت بالله منذ كذا وكذا محقا ولا مبطلا وما علمت أن علي يمينا أكفرها.

ومنهم الشيخ الصالح أبو محمد عبد الوهاب القيسي رحمه الله وقبره خارج المدينة بين شرق وشمال بزار وأهل البلد يعظمونه كثيرا وحكى لي جماعة منهم أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام نحوا من أربعمائة مرة وانه كان يشاور النبي صلى الله عليه وسلم في أكثر أموره فلا يفعل ما يفعل إلا بإشارته قالوا ولم يسمع منه هذا في حياته ولكنه وجد بعد موته مكتوبا عنده بتواريخه يذكر كل ليلة وما رأى فيها ثم أوقفني بعد ذلك بعض أهل البلد على جزء من هذه المرائي وذكر أنه نقلها من خطه فرأيت فيها غرائب من سؤاله النبي صلى الله عليه وسلم عما يفعله في جميع ما يعرض له من أموره وإشارة النبي صلى الله عليه وسلم بذلك بما يراه ودوام ذلك واستمراره في كل جزئية من جزئياته.

ومنهم الفقيه الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أحمد بن عبد الله الأجذابي اللواتي الطرابلسي وقبره معظم يكثر الناس من زيارته والدعاء عنده وكان من أعلم زمانه بجميع العلوم كلاما وفقها ونحوا ولغة وعروضا ونظما ونثرا وله تآليف جليلة وأسئلة مفيدة في الفقه وغيره من جملة تآليفه كتابه المتداول المسمى بكفاية المتحفظ وكتابه في العروض وناهيك به حسنا وتهذيبا وهو نسختان كبرى وصغرى وكتابه في الرد على أبي حفص بن مكي في تثقيف اللسان وكتابه في شرح ما آخره ياء مشددة من الأسماء وبيان اعتلال هذه الياء استوفى فيه جميع أحكام هذه الياء على اختلاف أحوالها من تصغير وتكسير وغير ذلك ولما استوفى فيه ذلك استيفاء جليا تعرض لشرح مقاطع الآي الواقعة في سورة مريم لاشتمالها على كثير

من تلك الأحكام فجاء هذا التأليف في غاية الإفادة والتحقيق وكتابه المختصر في علم الأنساب وله تأليف مختصر في الأنواء على مذهب العرب ورسالته المعروفة برسالة الحول تعرب عن أدب كثير وحفظ غزير وكان الفقيه أبو إسحاق هذا أحول وسبب تأليفه لها أنه حضر يوما طرابلس عند القاضي بها أبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم بن هانش(١) الطرابلسي فحكم أبو محمد بحكم أخطأ فيه فرد عليه أبو إسحاق فقال له أسكت يا أحول فما استدعيت ولا استفتيت فألف تلك الرسالة وأكثر هذه التآليف ملكتها بخطه وكان رحمه الله من أحسن الناس خطا وأخبرت أن الأمير أبا زكرياء رحمه الله كان شديد البحث على خطه وسمع أن كتاب الفصيح بيع بخطه بطرابلس [فأبرد بريدا إليه في البحث عليه ووجه به إليه](٢) وأنه سمع أن بها من كتاب أمثلة الغريب(٣) لأبي الحسن علي بن الحسين الهنائي المعروف بالكراع بخط الفقيه أبي إسحاق في ملك بعض بني النقاد من أعيان طرابلس فوجه إليه فيها فوجه النقادي بها إليه وملكت بخطه أيضا تأليفه الذي اختصر في كتاب أنساب قريش تأليف أبي عبد الله الزبير بن أبي بكر بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام رحمه الله تعالى وحسبك بهذا التأليف الجليل علما وفائدة وهو كما كان الشيخ أبو الحسن بن مغيث رحمه الله يقول هذا كتاب العجب لا كتاب النسب ورأيت الفقيه أبا الحسن(٤) قد أدخل من حفظه في نفس هذا المختصر زوائد تشتمل على فوائد نبه عليها وكفى بهذا الرجل المعظم الفرد لهذا القطر ولم تكن له رحلة عن بلد طرابلس إلى غيرها وقد سئل أنى لك هذا العلم ولم ترتحل فقال اكتسبته من بابي هوارة وزناتة وهما بابان من أبواب البلد نسبا إلى من نزل بهما أول الزمان يشير إلى أنه

---

(١) هكذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية أبي محمد عبد الله بن محمد إلخ.
(٢) ما بين القوسين ساقط من جميع النسخ.
(٣) في جميع النسخ العرب وفي الرحلة الناصرية الغريب كما في كشف الظنون.
(٤) هكذا في الرحلة الناصرية وفي جميع النسخ إسحاق.

إنما استفاد من العلم بلقاء من يفد على طرابلس ويدخل(١) من هذين البابين من المشرقين والمغربيين(٢) وكان له اعتناء بلقاء الوفود وقيام بضيافتهم(٣) وأخبرني بعض الطلبة أن خط أبي إسحاق باق إلى الآن في بعض جدر داره من طرابلس وهي في وسط البلد بمقربة من الجامع الأعظم وعلى مسافة يسيرة منها من جهة غربيها دار الفقيه أبي الحسن علي بن محمد بن النمر(٤) الطرابلسي [الفرضي المشهور بفضله وعلمه ورئاسته وهي مواجهة لمسجد يعرف بمسجد ابن فرج أضيف إلى الفقيه أبي مسلم موسى بن فرج الهواري الطرابلسي لاقرائه به وتوفي أبو مسلم هذا سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة](٥) وكان مولد أبي الحسن بطرابلس قديما سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة وله تآليف في الحساب والأزمنة وغير ذلك سوى كتابه المشهور المسمى بالكافي في الفرائض وقد لقي الشيخ أبا محمد بن أبي زيد وقرأ عليه وارتحل إلى مكة سنة تسع وثمانين فلقي بها أحمد بن زريق(٦) البغدادي وروى عن أبي القاسم عبد الرحمن(٧) بن عبد الله الجوهري ثم عاد لطرابلس فلم يزل بها إلى سنة ثلاثين وأربعمائة فخرج منها لمحنة جرت عليه فتوجه إلى موضع يعرف بغنيمة(٨) بالغين المعجمة والنون قرية من قرى مسلاتة فسكن بها إلى أن توفي هنالك سنة اثنتين وثلاثين. وقبره الآن على الطريق بها والناس إلى الآن يزورون قبره ويتوسلون إلى الله عنده ويذكر

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية يرحل.

(٢) كذا في الرحلة الناصرية وفي جميع النسخ المشرق والمغرب.

(٣) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية أضافتهم.

(٤) في كتاب المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لأحمد بك الأنصاري الطرابلسي المطبوع بدار الخلافة سنة ١٣١٧ النمر.

(٥) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

(٦) في الرحلة الناصرية رزين.

(٧) في الرحلة الناصرية القاسم بن عبد الرحمن.

(٨) في جميع النسخ بغانيمة وفي الرحلة الناصرية بغانينة.

أهل تلك الجهة إن كل رفقة استصحبت شيئا من تراب ذلك القبر فإنها لا يتعدى عليها أحد فيهم لا يزالون ينقلون ترابه فيجدده من يقصد الأجر من أهل تلك الجهة أو من المجتازين عليه وهو أول من أظهر السنة بطرابلس لما كانت في أفريقية الوقعة المعروفة بوقعة الشارقة سنة سبع وأربعمائة قتل فيها الشيعة واتباعهم وعلى يد الفقيه أبي الحسن قتل بطرابلس من قتل منهم وأول من قطع من الأذان حي على خير العمل وأذن في ذلك اليوم أذان أهل السنة بنفسه وقد قتل بنو عبيد بشرا كثيرا أسقطوا هذه اللفظة من آذانهم تعمدا أو نسيانا وأول من أقام للناس بطرابلس صلاة القيام وقد كان رسم هذه الصلاة انمحى من أفريقية قال الشيخ أبو الحسن القابسي رحمه الله تعالى لما دخل بنو عبيد القيروان أرادوا أن يمنعوا الناس من هذه الصلاة قال وليس شيء أشد على بني عبيد من هذه الصلاة فقيل لهم أنكم توغرون بهذا الفعل قلوب العامة فإنهم يقولون منعونا من الصلاة فأمروا الأئمة أن يختموا كل ليلة ختمة كاملة وإن لا ينقصون شيئا منها فصلى الناس من أول ليلة بوفره فلما كانت الليلة الثانية نقصوا ولم يزالوا ينقصون لثقل ما كلفوا به حتى خلت المساجد منهم كما أرادوا وأسقط الناس القيام بهذه الصلاة فكان الشيخ أبو الحسن ابن النمر أول من أحيى رسمها بطرابلس وقدم أبا مسلم موسى بن فرج فصلاها بالجامع الأعظم ولم تكن قبل ذلك صليت به لأنه من بناء بني عبيد وأول من أطلق للناس صلاة الضحى جهارا ولم يكن أحد في مدة بني عبيد يصليها إلا مستخفيا بها فإن ظهروا عليه قتلوه ومر بعض عمالهم برجل على شاطئ البحر يصلي وقت الضحى فسأله عن صلاته فذكر انه كان جنبا فلما مر بالبحر نزل واغتسل وقضى صلاة الصبح فلم يقبل ذلك منه وأمر به فألقي في البحر إلى أن مات انتهى كلامه[1].

---

(١) من السطر التاسع من الصحيفة ١٦٦ إلى هنا بياض كثير في نسختين وقد اعتمدنا هنا على الرحلة الناصرية وعلى نسخة واحدة.

نكتة وهذه المزارات كلها خفية مندرسة غير جلية وكذلك غيرها مع ما احتوت عليه المدينة من المزارات الكثيرة وذوي المكانة المشهورة تأوي إليه الجهابذة من الزهاد [والأئمة الأفراد](١) لقصد الرباط وحراسة الإسلام لكونها ثغرا من الثغور العظام ولما تداولتها أيدي الكفرة خفيت مراسمها واندثرت معالمها وذكروا أن الاستيلاء الأخير [الذي استولى الكفرة دمرهم الله](٢) عليها كان سنة ست عشرة وتسعمائة يوم ستة عشر من المحرم وافتكت منهم عام ثمانية وخمسين وتسعمائة (٩٥٨) قال أبو سالم العياشي في رحلته وتاريخه فقط قولك جاء الترك بسن(٣) وافتكها منهم درغوت باشا وكان بجربة ومراد باشا في مسلاتة وبقي بها درغوت إلى أن توفي بها وقبره الآن بها يزار وعليه بناء عظيم وسبب أخذها من العدو أن مراكب المسلمين جاءت من أصطنبول مددا للعمارة المحاصرة لحلق الوادي بتونس فمرت بساحل طرابلس فكلمهم أهل السواحل في أعانتهم على النصارى فقالوا أنا لم نؤمر بذلك من السلطان فقال لهم الباشا مراد أعينوني في هذا الأمر فإن كانت عقوبة من السلطان فأنا المؤاخذ بها دونكم فحاصروها برا وبحرا إلى أن أخذوها فذهب معهم مراد باشا إلى السلطان فقال له إن كانت عقوبة فأنا المؤاخذ بها دون هؤلاء الأمراء فرضي عنه وعنهم وأكرمهم.

وأما أخذ النصارى لها فذكروا لذلك قضية غريبة وهي أن أهل هذه المدينة فيما مضى كانوا أهل دنيا عريضة فيما يقال وليس فيهم غناء ولا لهم بالحرب خبرة فبينما هم كذلك إذ قدمت عليهم سفن النصارى تجارا بسلع كثيرة فنزلت بالمرسى فخرج

---

(١) لا يوجد ما بين القوسين إلا في الرحلة الناصرية.

(٢) لا يوجد ما بين القوسين إلا في الرحلة الناصرية.

(٣) هكذا في رحلة العياشي وفي الرحلة الناصرية جاء الترك بلس وفي نسخة نقطة بحسب الجمل وفي غيرها بياض.

إليهم رجل من التجار فاشترى منهم جميع ما بأيديهم من السلع ونقد لهم ثمنها ثم استضافهم رجل آخر فصنع لهم طعاما فاخرا فلما أخرج لهم الطعام أخذ ياقوتة ثمينة فدقها دقا ناعما وذرها على طعامهم فبهتوا من ذلك فلما فرغوا قدم لهم دلاعا فطلبوا سكينا لقطعها فلم توجد في داره سكين ولا عند جاره إلى أن خرجوا إلى السوق فأتوا بسكين فلما رجعوا إلى بلدهم سأله ملكهم عن حال البلد الذي قدموا منه فقولوا ما رأينا بلادا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلها عن مدافعة عدو فحكوا له الحكايتين فتأهب ملكهم لدخولها في مراكب في البحر فدخلا في ليلة واحدة بلا كثير مشقة واستولى عليها ولم ينج من أهلها إلا من تسور ليلا وانحاز المسلمون إلى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة فصارت المدينة للنصارى إلى أن كان من أمرها ما كان في التاريخ المذكور انتهى أدامها الله للإسلام وحاطها بالنبي عليه السلام.

ومن جملة أصحاب سيدي أحمد بن ناصر سيدي محمد المكني كان من أعلم أهل هذا الساحل فقيها لوذعيا خير خلف عن خير سلف تولى الفتوى ببلده مرارا واشتغل بالتدريس وله مشاركة حسنة في فنون العلم مات قريبا من عام ستة وخمسين وألف وله ولد اسمه محمد[1] اشتغل بالقراءة على سيدي محمد بن مساهل وعلى غيره وكان له ذكاء عقل وزيارة نبل فتمهر في كل فن وتولى القضاء[2] بعد عزل شيخه فحمدت سيرته وظهرت نجابته وسدده في فتواه.

ومن أحبابه أيضا سيدي محمد بن مقيل جد أخينا في الله وأصدق الأخلاء سيدي محمد المفتي الآن والسيد عبد السلام بن عثمان وممن أكرمه في رحلته هذه

---

(١) في الرحلة الناصرية أحمد.

(٢) في الرحلة الناصرية الفتوى.

سيدي محمد المكني وسيدي محمد بن مقيل وأولاد ابن غلبون وأهل سيدي علي النجار وسيدي أحمد بن جابر وصهره سيدي عبد الظاهر وسيدي محمد بن عبد الله بن فرج الله وغيرهم وسيدي عبد الله بن يحيى وسيدي حامد بن محمد التواتي وابن عمه سيدي عبد اللطيف بن عبد القادر وكثير من الفضلاء ممن لقيه فالله ينظمنا وإياهم جميعا في سلك أهل ولايته المحفوفين بعنايته المحفوظين منه برعايته آمين انتهى كلامه باختصار بعضه باللفظ وبعضه بالمعنى.

انعطاف إلى ما نحن بصدده فأنا أقمنا بها ثمانية أيام أولها يوم جمعة وآخرها مثله غير أن بعض الركب خرج يوم الخميس إلى تاجوراء ونحن قد تخلفنا مع بعض أفاضل أصحابنا إلى صبيحة يوم السبت مشتغلين بأمر الزاد المبعوث في السفينة ومن يركب فيها من أصحابنا فل نتفصل عنهم حتى خفف الركب أثقالهم بوضعه في السفينة معتمدين علينا إذ عادة السفن في تلك المدينة تتأخر إلى آخر رمضان فربما عاقهم ذلك عن الحج فلما علمنا ذلك حضضنا الأمر من صاحب الولاية محبنا في الله ومعتقدنا الأجل محب الصالحين سيدي علي باشا [بانفصالها][1] من غير تراخ بعد ذهابنا وأخذنا العهد منه على ذلك وقد أحسن إلينا هو وأصحابه بأن ركبوا فيها الفقراء والصعاليك بغير عوض وإنما ذلك لوجه الله ثم لوجهنا نحو الخمسين رجلا أو ما يقرب منها وقد ركب فيها من إخواننا الفضلاء ولد الأخ سيدي أحمد الطيب سيدي محمد[2] والفقيه الفاضل سيدي أحمد بن أبي القاسم ومثله في الفضل سيدي عبد الكريم ونظير الجميع سيدي محمد اليعلاوي والشريف الفاضل الأجل محب الخير وأهله أمير زواوة سيدي محمد بن بوختوش[3] رحمه الله إذ مات بعد رجوعنا

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) كذا في جميع النسخ.

(٣) في نسخة الخشوش وفي أخرى بختوش وبخشوش.

من المدينة وسيدي محمد المحفوظ وغيرهم وأما العامة فنحو الثلاثمائة والحمد لله لم يمكثوا في البحر إلا اثني عشر يوما ونزلوا الإسكندرية عند الحاج أبي القاسم القراوي صاحب ولاية طرابلس إذ زبر له الأمير كتاب على ذلك فأكرمهم وأحسن إليهم جازاه الله أحسن الجزاء آمين وبالجملة فكان الإحسان من الأمير وعماله لنا ولأخواننا في الركب وللفقراء فكل ما سألناه وطلبناه لهم منهم إلا وجد بحب وكرامة رغبة في صالح الدعاء له ولذريته حتى انفصلنا عنها على أحسن حال وأكثر فرحي بهذا الأمير لما قام بحق الفقراء نعم أقام جماعة من بلد المنشية مع عامله القائد يحرسون الركب ليلا من السراق إلى أن ظعنا من عندهم وما فعله قط بركب من الأركاب إلا لنا حبا فينا ورغبة فيما لدينا شكر الله سعيه ولا خيب قصده وأدام الستر عليه وعلى أولاده إلى قيام الساعة مع عدم الضد ووجود الهداية والشفقة والعدل والرحمة لأنفسهم وللمؤمنين كان الله لنا ولهم وليا ونصيرا وقد أحسن إلينا جميع المحبين كل الإحسان بحيث أن من لم يصدر منه ضيافة تمنى أن يضيفنا أحسن الله إليهم لا سيما سيدي محمد بن مقيل وأصحابه وأما العارف بالله الذي علمه الله العلم اللدني فانه يفهم الدقائق من الحقائق والمعاريف[1] إذ الهم لطلب كل داء في الدين فلا يغفل طرفة عين عما يصلح به وبأحبابه حتى يكونوا على المحجة البيضاء يعلم ذلك من ثافنه وخالطه وأني صاحبت كثيرا من الناس غربا وشرقا وجوفا وقبلة ما رأيت من يفهم عن الله مثله فانه له ملكة عظيمة يفهم بها المعاريف[2] الإلهية حاصله قد فتح الله له في التعرف ما لم يكن لغيره ومع ذلك ليس قاصرا في العلم الظاهر فترى معاملته ومخالطته ليس إلا على الشريعة المحمدية ومع هذا لا يغفل عن المواساة لمن يعرفه ومن لا يعرفه خصوصا المحتاج فإنه أزيد رحمة وأقوى شفقة وأحسن رفقة وما

---

(١) كذا في جميع النسخ.
(٢) كذا في جميع النسخ.

أشده صبرا وتحملا لإذاية الإخوان والأحباب خصوصا في السفر وهو الذي يؤدي حقوق الأخوة فيشاطر بالمال غير ما مرة إخوانه أولى من نفسه وهو معي بأزيد من هذا بحيث لا يملك لجانبا شيئا ومن كان معنا في الرفقة كان في داره ذهابا وإيابا وكذا ما معنا من العيال والدواب كل ذلك في عياله وأوصافه تقصر العبارة عنها لكن التلويح يغني عن التصريح نعم الكل شمل واحد وأمر الجميع متحد ومهما عزمت على شيء ووصلت إليه ذهب من غير موادعة ولا كلام منه إلي ولا مني إليه في جميع ما حتجت إليه فحزمت وجزمت وجزم أن قرابتي وقرابته أيد الله الجميع بالتمكين وحلى جميعنا بحلية المتقين وودعنا من في المدينة من العلماء والصلحاء لا أحصيهم عددا إذ كثير من يحبنا لا أعرف أسماءهم وأما في المنشية فأكثر من أن يحصى هذا وإن أهل الصلاح بالمنشية والساحل والهنشير وأفرون بحيث من فيه قوة الشم يعلمهم بنفس رؤيتهم إلا من أصابه زكام المعاصي وتراكمت عليه الحجب فلا يظهر له أحد وقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المرء مخبوء تحت لسانه إن تكلم فمن حينه وإن سكت فمن يومه اهـ أي إذا تكلم عرف حاله من كلامه إذ ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح إن عسلا فعسل وإن خمرا فخمر وإن سكت فمن يومه أعرفه من أفعاله كحركاته وسكناته إذ كل ذلك لا بد وأن يكون موافقا للسنة المحمدية إذ لا يجوز للإنسان أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ولا شك أن كل حركة وسكون يصدر منك إلا وأنت مسئول عنه لم تحركت ولم سكنت وبالجملة فأهل هذا الوطن خيرهم ظاهر وحلمهم بيّن وحبهم لأهل الله قوي.

ولما خرجنا من دار أخينا في الله والود من أجله سيدي محمد الشريف اجتمعت الشرفاء صغيرا وكبيرا وكذا جيرانهم وغيرهم من أهل الخير كالسوق وأعظم محبة في الله ورغبة فيما عنده [فكنا في التوديع من صبيحة ذلك اليوم حتى ارتفعت الشمس

ارتفاعا ظاهرا جليا ثم كذلك][1] في التوديع إلى أن وصلنا إلى قرب المنشير خرج لتوديعنا أولاد الشيخ سيدي الصيد كأولاد سيدي أبي بكر نجل الشيخ سيدي عبد الحفيظ وأولاد سيدي عبد اللطيف فودعونا أيضا مع أصحابهم وهم من المحسنين إلينا ثم ذهبنا بعد ذلك مع التوديع إلى أن وصلنا أطراف تاجوراء فدخلنا لزيارة الفاضل الكامل الصالح الكبير السن عظيم الشأن واضح النجاح ظاهر الصلاح سيدي عبد اللطيف أنا وجماعة من طرابلس سيدي الشيخ المفتي سيدي محمد بن مقيل وعوض ولدنا سيدي محمد نجل الفاضل العالم محبنا سيدي محمد بن محمد العربي وجماعتهما فدعا لنا بالخير وقد رغب فينا رغبة عظيمة إذ كان محبا لنا فيما مضى ومحسنا إلينا غاية الإحسان فقد كان أصدق الناس لدينا غير أنه كان قبل ذلك يسمع ويبصر فالآن ثقل سمعه وضعف بصره فلا بد من مسمع والمسمع له ولد بنته إذ هو الذي يخبره أن هذا فلان وفلان ولما علم بنا شد يدي شدا وثيقا رغبة وحبا وشوقا وعشقا فينا وقد سر بنا سرورا عظيما أظنه والله أعلم انه من قوم لا يشقى بهم جليسهم حقق الله له ذلك بمنه وكرمه آمين فلما خرجنا من عنده لقينا جماعة من فضلاء تاجوراء كطلبة الشيخ سيدي محمد بن النعاس وبعض أولاده وأولاد أخيه وكذا أهل الفضل من تلك القرية من الفقراء والمرابطين والعلماء والصلحاء ومن فيه نسبة من النسب المعظمة شرعا إلا أتى إلينا رغبة في الدعاء من جانبنا ونحن كذلك بل أشد رغبة والفقير المضطر الخائف من ذنبه الوجل من عذاب ربه زابر هذا الكتاب فانه متعلق بهم ومريض بحبهم فليس مقصدي ومنيتي إلا السكنى في أرضهم لكثرة خصب أهل المحبة بحيث لا يصيبك ضيق ووحشة فإن حي ليلى عندهم عامر بما في القلب مشغوف إلا أن الموانع الشرعية منعتني من الإقامة هناك وقد كثر عيالي أعني بناتي وأولادي ومحاجري الذين قُدِّمْت عليهم ونُبِّئت عنهم ولم

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة وفيها فكلنا في التوديع إلى أن وصلنا إلخ.

تكن لي رغبة بعد المجاورة عنده صلى الله عليه وسلم إلا في هذا المحل وإن كان وطننا كذلك في الحب وأهله غير انه كثرت فيه العوائق والعلائق حاصله كلت العبارة عن النزر القليل من أوصافهم الحسنة غير أن ما ذكرناه فيه الكفاية لمن كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد.

[وتاجوراء هذه قرية طيبة فيها أشجار وفيها فاكهة ونخل ورمان نعم][١] رمانها لا نظير له فيما رأيت إلا في مواضع قليلة وقد وجد في قرية عندنا تسمى بقرية أمالو فإن رمانها أولى من هذا وأحلى منه وفيها مدرسة كان يقرأ فيها الشيخ النعاس وبعد ذلك قرابته وقد علمت أن محل العلم محل عظيم عند الله يجب علينا تعظيمه شرعا فإنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم نعم صليت الظهر فيها وذهبنا منها.

تتمة أقول قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ف رحلته ما نصه أقول تاجورة بوزن باكورة قال التجاني وهي قرية عامرة وبها قصر متسع يجتمع على دور كثيرة وفي وسط هذا القصر حصن أقدم منه بناء يقال أن حميد بن جازية[٢] ابتناه وشارك فيه في العمل بنفسه ليحصن أهل الموضع على إتمامه وهو الذي عمر هذه القرية ونقل إليها أهلها من أرض هنالك تعرف بأرض عبد ربه[٣] وكان ابتداء عمارتها عام خمسين وخمسمائة (٥٥٠) وهم يدعون أنهم من العرب وينتسبون إلى تميم ويذكرون أنهم سكنوا الأرض المعروفة فأرض عبد ربه من حين الفتح الإسلامي ثم نقله منها حميد إلى هذه القرية قال وبتاجورة السفرجل الذي لا يوجد في بقاع الأرض مثله قال وليس يقرب منه إلا السفرجل الموجود في تغزاوة انتهى.

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة جارية.

(٣) في نسختين عبد رب وفي أخرى عبده.

قلت والذي نعرفه في ضبط هذه البلدة تاجوراء كعاشوراء انتهى.

تتمة أننا نزلنا في وادي المسيد[1] فوق المسجد وهو واد متسع والركب سبقنا ونزل في وادي الرمل وهو واد متسع ماؤه لا ينقطع في جميع الأزمنة الأربعة وذلك بأواخر شعبان ومعنا جماعة من المحبين ذهبوا معنا لتوديعنا كالود الصدوق الشيخ المفتي سيدي محمد وخواص أصحابه وصاحب معه طعاما ولحما ولبنا وغير ذلك من أنواع الأطعمة ومعنا أصحاب سيدي محمد الشريف سيدي محمد بن عبد الخالق محب الجميع وبعض الأشراف وولد المحب في الله وهو أخ لنا وعوض ولدنا سيدي محمد نجل الشيخ الولي الصالح سيدي محمد ابن سيدي محمد المعزي[2] ثم رجع الجميع عنا وودعنا في يد الله تعالى أقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه ونزلنا غافقا بعد العصر قال التجاني وهو قصر خرب خال من العمارة انتهى وبه الآن بئر غزيرة الماء ينزل إليها بادرج وماؤها لا بأس به.

ثم ارتحلنا منه ومررنا بواد يقال له وادي الرمل وهو واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه كما ذكرنا ومبدؤه من الجبل قاطعا إلى البحر لا بد لكل مشرق يجعل الجبل بيمينه ومغرب يسرته وهو واد مخصب من أعلاه فيه مزارع تخرج إليه ماشية أهل طرابلس وسواحلها أيام الربيع وربما أخرج الحجاج إليه إبلهم مع رعاتها أيام أقامتهم بطرابلس واصل مائه من عيون تنبع في أثنائه تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل إلخ ثم قال وقال التجاني وفي عالية عند سفح الجبل قصر يعرف بصبيان[3] بكسر الصاد المهملة تليها ياء معتلة ثم باء مفردة وهو معمور قال وبقرب البحر في

---

(١) في جميع النسخ المسيل.

(٢) انظر ما قيل في الصحيفة ١٤٠ والسطر ١.

(٣) في نسخة صيبار.

أسفل هذا الوادي بئر تعرف ببئر طشاتة[1] بضم الطاء المهملة وتشديد الشين المعجمة بإزاء قبر يعرف هذا الموضع به فصار القبر علما له وهو لرجل من العرب ثم من ذباب ثم من بني عيسى منهم واسمه شهران[2] بن عيسى بن عامر بن جابر بن قائد ابن رافع بن ذباب وكان هذا الرجل ذا رئاسة في قومه وصيت بعيد واشتهر بالكرم فلم يذكر منه في وقته غيره وفيه يقول شاعر العرب:

حي الأرض شهران بن عيسى بن عامر وعرض الفتى أن ضيع المجد تالف

والأعراب الآن نزلوا هناك ولم يكن لهم زاد أقاموا على قبره فنادوه يا شهران بن عيسى أقر ضيافك فيذكرون أنهم لم يبيتوا قط دون عشاء أما بصيد يباح لهم أو فضالة[3] يلقونها أو بغير ذلك قال وهذا الأمر حدثنا به جماعة منهم وهو مشابه لما يذكره المؤرخون على حاتم الطائي أنهم كانوا ينزلون بقبره فيقريهم وفي ذلك يقول الشاعر يمدح عدي ابن حاتم:

أبوك أبو سفانة[4] الخير لم يزل لدن شب حتى شاب في الخير راغبا

قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

وحكى أبو عبيدة قال نزل أبو الخيبري في نفر من قومه بقبر حاتم فجعل يناديه يا أبا عدي أقر ضيافك وقال له أصحابه كيف تنادي رمة بالية فقال أن طيئا تزعم انه لم ينزل به أحد قط إلا قراه فناموا فانتبه أبو الخيبري مذعورا ينادي واراحلتاه

---

(١) في نسختين طشانة.

(٢) في نسختين شهوان.

(٣) في نسخة بضالة.

(٤) هكذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية والمشهور سفانة وهو اسم بنت حاتم كما في ديوانه وفي كتاب الأغاني ج١٦ وص٩٧ وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وغير ذلك من الكتب.

فاستفهمه أصحابه على أمره فقال خرج حاتم بالسيف وأنا أنظر إليه حتى نحر راحلتي فنظروا إلى راحلته تتشحط في دمها فقالوا له قد والله قراك وأخذوا يأكلون من لحمها ما شاءوا ثم ارتحلوا صباحا فنظروا إلى الركب يقود بعيرا وهو يسأل عن أبي الخيبري فقالوا له من أنت فقال أنا عدي بن حاتم وإن حاتما أتاني الليلة فذكر ما تقدم من ذبح بعيره وأتى له حينئذ بعوضه ولذا قال الشاعر[1]:

أبا الخيبريّ وأنت امرؤ ... ولوم العشيرة شتامها
أتيت بصحبك تبغي القرى ... لدى حفرة صرمت هامها
أتبغي لي الذم عند المبيت ... وحولي طي وانعامها
وأنا نشبع أضيافنا ... ونأتي المطي ونعتامها

وقد أمرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك فدونكه اهـ.

ومررنا بعد بوادي المسيد وهو كالذي قبله أو أخصب منه وماؤه غزير لا ينقطع على الدوام أيضا ويكثر في أوقات السيل لأنه يجتمع إليه ماء جبال مسلاتة من أعلاها إلى أن قال وبهذه المراحل شجر العشر كصرد القاموس فيه حُرّاق كسرد ولم يقتدح الناس في أجود منه ويحشى في المخادّ ويخرج من زهره وعشبه سكر معروف وفيه مرارة قال التجاني وهو شجر ناعم النبات شديد الخضرة إلى السواد مائل هو ينبت صعدا وله أوراق عظيمة ونور مشرق حسن المنظر كنورة الدفلي وثمر أخضر تملأ الواحدة يد حاملها وهي مملوءة بشيء يشبه القطن تسميه العرب الخريع بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الباء وربما حشيت منه المرافق والوسائد.

قال وأخبرني من يوثق به أنه رأى ثيابا صنعت منه ولا يأكله حيوان وهو شجر

---

(١) في هذه الأبيات روايات أخرى في الكتب المذكورة آنفا في الصحيفة ١٧٤ وعدد ٥

كثير اللبن وليس شيء من اللبن على اختلاف أنواعه أكثر لبنا منه ويجنى منه مغافير واحدها مغفور بضم الميم وهو صمغ حلو كريه الرائحة يقال له سكر العشر وفي الحديث أكلت مغافير وهو من هذا ولا تكون المغافير إلا فيه وفي العرفط والرمث والثمام أكثرها مغافير وليس في كلام العرب مفعول بضم الميم إلا مغفور هذا ومغرود بالغين المعجمة لضرب من الكمأة ومنخور لغة في المنخر ومنابت الشعر القيعان وبطون الأودية وقد ينبت بالرمل.

قال ابن البيطار في أدويته ولم أر منه شيئا بالأندلس وأول ما وقفت عليه بظاهر طرابلس الغرب بالجهة الشرقية منها يشير إلى هذا الموضع ثم قال بعد ذلك بديار مصر بظاهر القاهرة إلى أن قال ثم قال التجاني وكانت العرب تستجلب المطر إذا احتبس عنهم بشجر العشر وشجر السلع بفتح اللام والسين قلت وفي القاموس السلع محركة شجر مر أو سم أو ضرب من الصبر بفتح الصاد وكسر الباء وبقلة خبيثة الطعم قال يعمدون إليها فيأخذون منها أغصانا فيجعلونها في أذناب البقر ويشعلون النار فيها ثم يصعدونها إلى الجبل فيزعمون أنهم يمطرون في وقتهم وهو قول أمية ابن أبي الصلت:

سنة أزمة تخيل بالناس ... م ... ترى للعضاه منها صريرا
لا على كوكب يلوح ولا ريح ... م ... جنوب ولا ترى طخرورا
ويسوقون باقر السهل للطود ... م ... مهازيل أوشكت أن تبورا
عاقدين النيران في ثكن الأذناب ... م ... منها لكي تهيج البحورا
سلعا ما ومثله عشرا ما ... عائلا ما وعالت البيقورا

تخيل بالناس أي تطعمهم في المطر والطخرور القطعة من السحاب بالخاء المعجمة وبالحاء المهملة والبيقور جماعة البقر وهو ضرب من السحر ولله در القائل

يعيب عليهم فعلهم هذا:

لا دردر رجـــال خـــاب ســـعيهم ... مـــستجلبون نـــزل الغيـــث بالعـــشر

أجاعـــل أنـــت يقـــورا مـــبلعة ... وســـيلة لـــك بـــين الله والمطـــر

قلت وهذا من جهل العرب وهو كثيرا إلى أن قال وفي تورغت بئر عذب ماؤها حفرها الأخ في الله سيدي عبد السلام بن عثمان وغرس عليها شجرة من شجر التوت لقصد ابن السبيل فيشرب من ماء البئر ويستظل بظل الشجرة تقبل الله منه وشكر سعيه وقد صدق في ذلك لكون المحال معطشة في زمان القيظ.

غريبة وذكر شيخنا العياشي في رحلته قال أخبرني الشيخ الأجل قاضي مدينة المقدس محمد النفاتي التونسي أيام لقائي له بالقدس الشريف أنه حج في صغره مع أخيه أبي الحسن النفاتي أمير الركب فمروا بهذا المكان في زمان القيظ فالجأهم العطش إلى بئر في وادي يَثُوت إلى أن قال يعني أن الركب اضطرهم العطش إذ قليل ما يسقون منه فنزلوا عليها قائلة ووافقتهم هنالك فقول قدمت من فزان حاجتهم مثل حاجتهم فمن قائل يقول نرتحل هذا الوقت لندرك الماء قبل حلول الهلاك ومن قائل نؤخر إلى آخر النهار قال لي الشيخ فدخلت على أخي فأخبرته بذلك وقلت له أن الناس قد اشرفوا على الهلاك واضطرب أمرهم في الرحيل فأمرهم بالرحيل لئلا يهلكوا قال فاغتم لذلك واستند في خبائه كالنائم فلما أفاق قال لي ناد في الناس بالإقامة وقل لهم يذهبوا لسقي الماء فقلت له أبك جنون أنا أخبرك أنه لا قطرة فيها والناس قد اشرفوا على الهلاك فقال لي أفعل ما أمرتك به فقلت له لست بأحق أنادي بالإقامة على غير ماء فلما أبيت نادى خديمه الغلام وقال له ناد في الناس بالإقامة والذهاب لسقي الماء فلما سمعت ذلك استحييت وتغيبت فأقام الناس وذهبوا إلى البئر فوجدوها قد امتلأت بالماء حتى كاد أن يفيض من جوانبها فاستقى الحجاج

وجميع القوافل والماء كما هو.

وقال لي الشيخ فلما رأيت ذلك ذهبت إليه وقصصت عليه الخبر فقال لي لما أغفيت عند ما أخبرتني بخبر الناس رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال لي مر الناس بالإقامة فعلمت أن الله سيجعل لهم من أمرهم فرجا قلت ولا يستبعد هذا في حق وفد الله وزوار نبيه صلى الله عليه وسلم فإن لله بهم عناية ولهم منه أعظم وقاية.

ولقد أخبرني عن أخيه هذا بأمور من جنس هذا في سفرته تلك وفيها توفي بقرية الينبوع التي ينزلها الحاج وقبره إلى الآن ظاهر عليه بناء خفيف على تل مشرف بحري منزل الركب المغربي وكنا نزور قبل ذلك المحل ولا نعلم من دفن فيه حتى أعلمني القاضي المذكور والله يغمرنا وإياه رحمته آمين اهـ.

انعطاف إلى ما كنا بصدده وهو انه لما ودعنا أحباؤنا المذكورون توديع ذي كآبة عند الافتراق مررنا مسرعين لنلتحق الركب إذ سبقنا بساعات فعند الاصفرار لحقنا به فوجدناه في سفح الجبل أي قبل ابتداء محل الوعر فنزلنا عليه ففرح الركب بلحوقنا ونزولنا عليهم فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه ومررنا على تلك الأوعار ثم كذلك إلى وقت العصر فنزلنا ساحل حامد وفي تلك الأوعار كان أولاد الشيخ بو عصيدة الذين كانت عادتهم يضعون مائدة من العصيدة للركب بلحم وفي الحجة الأولى لقيت من أولاده الفاضلين الأخوين الشيخين ضل عني أسماؤهما لطول العهد فقال لي أحدهما عند الافتراق أنت تجاور مصر في شأن العلم وكنت قد عزمت على ذلك فأخبرني بما في قلبي وقال له الآخر فإنك لم تر شيئا وإنما هو إذا حج فيرجع فان فلانا قد مات أعني صاحب الوهب الرباني والجذب الصمداني وهو أمي لا يقرأ سيدي عبد الرحمان المجذوب الخلادي الملقب أقطال من جبال بجاية من

عمالة الجزائر نفعنا الله به آمين وقد مات ذلك العام قبل وصولنا مصر وقبره هناك بقرب من قبري[١] الشيخ الخرشي والشيخ عبد الباقي والشيخ خليل المالكي في القرافة الصغرى فيتولى هذا أمره وينتفع به أهل بلده فسكت الآخر وسلم له نفعنا الله بهما وبأسلافهما.

ثم إن ساحل حامد بلدة طيبة ذات زيتون ونخل وعمارة يبدو حسنها للرائي وهي في رأي العين لا نظير لها لكثرة مائها واتساع أرضها مع استوائها وجودة ترابها فبساتينها روضة من الرياض مجدولة جداويل[٢] مع استواء بيوتها وتحسين أضلاعها فإن المرء إذا وصلها زال عليهم الهم والنكد لأن رؤية الخضرة والبحر والوجه الحسن تزيل الهم عن القلب وتفرج الغم عن الصدر وفي هذا الساحل أفاضل أحياء وأموات.

منهم أولاد الشيخ الفاضل ذي الفضائل والفواضل العلامة الكامل والفهامة الناقل ذي التآليف الحسنة والتصانيف المتقنة وقد رأيت بعضا منها كشرحه لابن عاشر فانه قد أجاد فيه وكذا كتابا في التنبيه على المحدثات في هذا الزمان من رقص الفقراء وتواجدهم ومعاملتهم فيما بينهم وادعائهم ما لم يصلوا إليه وعصيانهم وعدم امتثالهم ما يقتضيه الشرع وعدم اتعاظهم وسماعهم لذلك وبعدهم عن العلم وأهله وأنهم ظنوا أن الفتح على أيديهم وليس لغيرهم فيه نصيب غاية ما وصل إليه علماء زمانهم العلم الظاهر والسكون تحت النقول وذلك طريق العامة والمعتبر في زعمهم طريقهم إذ يعتقدون التنافي بين الشريعة والحقيقة والحق خلافه فإن الحقيقة لب الشريعة وغير ذلك من البدع.

---

(١) كذا في جميع النسخ.
(٢) كذا في جميع النسخ.

وقد سلك في هذا التأليف مسلك أبي عبدا لله ابن الحاج صاحب المدخل وابن أبي جمرة في شرحه لمختصر البخاري والشيخ عبد الكريم الزواوي في شرحه للوغليسية والشيخ الأخضري في قصيدته القدسية والشيخ زروق في عمدة المريد وكتاب البدع وغيرهم ممن بين أصل البدع وحوادث الأوقات وله أيضا كتاب في الطب وسمعت أيضا أن له شرحا على قصيدة البهلولي في أحكام العزية وقد استعرناه من ولده العلامة الفاضل والفهامة الكامل المحب الود في الله ومن أجله سيدي أحمد بن عبد الصادق من تونس لأنه قد سكن فيها وهو مدرس في المدرسة الباشية وغير ذلك من تآليفه رضي الله عنه وذلك السيد علي بن الصادق وقد زرنا قبره وأولاد وأصحابه وجيرانه وكل على خير وفضل وكرم وجود وحلم وعلم ومهما زرنا الشيخ إلا أحسن إلينا غاية الإحسان في الضيافة أغناهم الله غناء لا يتبعه فقر آمين بل ربما زادوا علف الدواب زادهم الله شرفا نعم بركة الشيخ ظاهرة عليهم ولا شك أن الشيخ قد أصابه وابل من أشياخه نسأل الله تعالى أن يمن عليهم بالوسع والتوفيق إذ فيهم غاية السخاء والتكلف بما لا يستطيعونه ولذا كان أخونا في الله طيب[1] الدين سيدي محمد[2] الشريف البلغيثي ثم النوفلي يستثقل زيارة الشيخ لما يعلم من وقوع أولاده في كلفة عظيمة فترك الزيارة حينئذ بهذه النية الحسنة زيارة ونحو اعتبرنا الظاهر فكان الحق معه علما منا بضعفهم وقلة ذات يدهم غير أن المعطي حي غني.

وقد ورد في الشرع المنع من أمور مطلوب فعلها لمشاهدة المحظورات كحضور الولائم فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال من دعي إلى وليمة ولم يجب فقد عصى أبا القاسم غير أنها إذا كان فيها محرمات كاختلاط النساء والرجال أو آلة محرمة يحرم

---

(١) في نسختين طييب.

(٢) في نسخة أحمد.

اتفاقا كالتماثيل وصور لا يجوز مشاهدتها إن كانت مستقلة ولها ظل وفي الجبل الذي غرب الساحل يمنة الماشي في الطلعة بلاد مسلاتة ذات زيتون كثير وزيته كاد أن لا تفرق بينه وبين السمن لا سيما الذي يضربونه في الماء وقد بين صفته الأخ السابق سيدي محمد الشريف وله أملاك هناك زاده الله فيها حتى يكون مشطرا لأهلها مع نفض اليد من الدنيا رأسا حتى تكون من الله وإليه وعلى هذه الحالة علمته الآن نعم مكنه الله من الزهد الحقيقي إذ الزهد على ثلاث مراتب زهد العامة في الدنيا فإنهم لا يفرحون إذا أتت ولا يحزنون إذا ذهبت وهذا الزهد أوجبه الله على كل مسلم وزهد الخاصة فإنهم يفرحون إذا ذهبت لأنها سم ويحزنون إذا أتت وأما الخاصة فلا يشاهدونها ذهابا واتيانا[1] لأنك إذا فرحت بذهاب أحد فليس ذلك إلا لكونه عظيما عندك وهذا معلوم في الشاهد وأخونا هذا غيبه الله عن الأكوان بمشاهدة المكون حقق الله لنا معه ذلك بمنه وكرمه أقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه عند ذكر ذلك الجبل الذي هو غرب ساحل حامد وفيه مسلاتة وغيرهم.

قال أبو سالم في رحلته وهو آخر الجبل الذي لا نظير له في الدنيا طولا وعرضا وخصبا وماء وقرى متصلة وعمرانا متراكبا وقبائل وافرة غالبها البربر وأوله من البحر المحيط أطراف السوس الأقصى ثم يمتد كذلك إلى أن يمر قبلي مراكش وهو المسمى جبل درن ثم يمتد كذلك إلى بلادنا ثم إلى أن يقارب البحر قرب تلمسان ثم لم يزل يساير البحر وإن كان يبعد عنه في بعض المواضع ويسمى في كل بلد باسم وربما تعددت أطرافه فيسمى كل طرف باسم إلى أن ينتهي هنا بأطراف برقة وقال صاحب تقويم البلدان أنه يمتد من أطراف السوس الأقصى من البحر المحيط إلى أن يبقى بينه وبين الإسكندرية خمس مراحل.

---

(١) في نسخة إيابا.

قلت وكأنه جعل بلاد برقة كلها والجبل الأخضر منه لأن ارض برقة مرتفعة على ما يجاورها من بلاد فزان ونواحيها والبحر من الناحية الأخرى إلى العقبة الصغيرة وبينها وبين الإسكندرية خمس مراحل والظاهر ما ذكرنها أولا وهو الذي اقتصر عليه غيره فغرب هذا الجبل في كل البلاد بلاد مخصبة ذات أنهار وعيون وأشجار وقبلته صحراء ذات نخيل ورمال في البحر المحيط من أطراف السوس الأقصى إلى آخر برقة انتهى إلى أن قال وفي سفح هذا الجبل الذي يلي ساحل حامد مدينة عظيمة يقال لها مدينة لبدة قد خلت في العصور الأوائل وبقيت آثارها ورسومها قد أكل البحر كثيرا منها وفيها مبان عظيمة، وهياكل جسيمة، وأبراج مبنية بالحجر المنحوت في غاية الإتقان قد هرم الدهر وما هرمت، وتعاقبت عليها الأزمنة وما ثملت، فترى الأبنية مائلة متقابلة على رؤوس الجبال مد البصر بحيث يحكم الحدس إن كل ما كان داخلها كان مدينة واحدة إلى البحر وترى أعمدة الرخام وغيره واقفة في وسط البحر قد أحاط بها الماء بحيث لا يرتاب أن البحر قد أكل كثيرا منها. ومن هذه المدينة ينقل كثير من أعمدة الرخام إلى طرابلس وإلى مصر وإلى غيرهما من البلدان ويقال أن بانيها الملك دقيوس وبعد وفاته تملكتها امرأة اسمها رومية وبعضهم ذكر أن (دمشق ابن) النمرود لما بنى دمشق بقي ثلاث سنين وبعث ولده وأمره أن يبني مدينة بالمغرب فبنى هذه المدينة وجلب إليها الماء من وادي كعام في بناء متقن يحار الناظر فيه وأثر البناء وممر الماء باق إلى اليوم متصل من جوف[1] الوادي إلى أطراف المدينة إلا أن ماء هذا الوادي إلا قليل آجن ويزعم أهل البلد أن ماء هذا الوادي كان حلوا غزيرا أيام عمارة المدينة وكان مما يؤثر عند أهلها أنه إذا بدأت الملوحة في ماء الوادي فذلك علامة خرابها فلما بدت فيه الملوحة أخذ أهلها في الانتقال منها والله أعلم أنى ذلك كان.

---

(١) في نسخة حرف.

وقد ذكر العبدري في رحلته هذه المدينة وذكر انه وجدها خالية والذي يظهر أنها خلت قبل الإسلام إذ لم يذكرها أحد ممن ذكر فتوح أفريقية والله اعلم بغيبه.

غريبة أخبرني بعض أهل تلك البلاد أن الملك الذي بنى هذه المدينة وقع موتان في عسكره حتى تفانوا ولم يدر ما سببه فأمر بشق بطن واحد منهم وشق قلبه فوجد فيه دودة فعلم أن ذلك سبب موتهم فأمر بصب جميع الأودية عليها واحدا فواحدا فلم تمت حتى أخرج زيتا كان عنده في قارورة جاء بها من أرض الشام فصب عليها قطرة منه فماتت فعلم أن دواء ذلك المرض أكل لزيت فبعث إلى الشام وجاءه غرس الزيتون فأمر بغرسه في تلك الأوطان كلها من مصر[1] إلى سوسة وتونس وأعمالها ومن تلك الساعة بقي الزيتون في هذه البلاد والله اعلم انتهى كلامه.

قال (ابن ناصر) وفي غير هذه الحجة رأيناها ورأينا فيها العجب العجاب، وموعظة وذكرى لأولي الألباب، ولله در القائل[2]:

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى ذهاب

ثم قال ونخل هذا الساحل ردي التمر كله لا يدخر ولا ييبس إلا بعد إزالة النوى منه فيبقى كقطع الجلدة لا قوة فيه ولا حلاوة ولا طعم قال الإمام أبو سالم لا تكاد تفرق بينه وبين لحاء الشجر.

قلت وفيه تمر جيد يجعلونه بمساليخ[3] وأما جل ما يتقوتون[1] به فكما قال قال

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة العياشية مسلاتة وفي الرحلة الناصرية مسراتة.
(٢) هذا البيت أول بيت من قصيدة لأبي العتاهية كما في ديوانه وفي كتاب الأغاني ج٣ وص١٦١ والشطر الأول منسوب للإمام علي كما في ديوانه ص٨ وهو عجز قوله «له ملك ينادي كل يوم».
(٣) في جميع النسخ لأنفسهم وقد تبعنا هنا الرحلة الناصرية.

وبهذه البلدة قبر الولي الصالح ذي الكرامات الكثيرة، والمآثر الشهيرة، سيدي مفتاح وهو على تل مرتفع بساحل البحر بينه وبين البلد في مكان يعلوه البهاء، ويتفجر منه السناء، تسكن النفوس إذا حلت به، وتطمئن به القلوب إذا نزلت بقربه، وهذا السيد ممن تؤثر عنه الكرامات الكثيرة وجربت إجابة الدعاء عند قبره فلا ينبغي لمن مر بذلك البلد أن يهمل زيارته وقد قيل أن قبره كان مختفيا وأظهره سيدي عبد السلام الأسمر وكان قد أظهر قبورا كثيرة للأولياء بذلك الساحل وأظهرت فرسه أيضا آخرين وذلك انه إذا ركب على فرسه ربما تمر بمكان فتبحث برجلها في الأرض فيقول لهم الشيخ احفروا فإن هنا قبر ولي فيجدونه فظهرت بذلك مزارات كثيرة وفقراء الساحل إلى الآن يعرفونها ويقولون هذا من الذين أظهرهم فرس الشيخ ولا بدع في ذلك فإن الكرامة في ذلك لراكب الفرس لا للفرس فقد بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم في مكان مسجده وعندما دخلت الحرم يوم الحديبية وإذا كانت بركة النسبة للأنبياء عليهم السلام وللأولياء رضوان الله عليهم يظهر أثرها في العجماوات فما بالك في الآدمي الذي هو أشرف المخلوقات فلا تقصروا أخواني من خدمة الصالحين وزياراتهم وملاقاتهم وحبهم وحسن الاعتقاد فيهم فإن لذلك أثرا عجيبا في تليين القلوب وتسخير النفوس والله تبارك وتعالى يجعلنا من المحبين لأهل ولايته ويحشرنا مع حزبهم وفريقهم في دنياهم وآخرتهم.

وبإزاء روضة هذا السيد بئر عذبة الماء باردة ثم قال ومررنا على آثار ساقية فيها قنوات تحمل الماء إلى المدينة المذكورة من عين هناك يقال لها عين كعام وفيها صنعة عجيبة وأبنية غريبة بحجارة منحوتة عظيمة تحار فيها العقول منها أحجار من أربعة أذرع فأكثر منقورة في وسطها نقرا متقنا والحجر في غاية الصلابة قريب من حجر الصوان.

---

(١) في جميع النسخ يستوقون إلا الرحلة الناصرية.

قال شيخنا العياشي والحاصل أن من رأى ذلك استغرب أن تكون قدرة البشر واصلة إلى ذلك المقدار وعلم أن دهرا أفنى أولائك الأقوام جدير بأن يستأصل شأفة الأنام قال وفي هذا البلد تلقانا الشيخ الأخ في الله سيدي علي بن عبد الصادق في جماعة من طلبته وشيعنا وبات معنا وبالغ في القرى وأحضر تمرا وشعيرا وخبزا ودجاجا ولحما جيدا ودلاعا كثر الله خيره وهذه البلدة مثل التي قبلها انتهى بالمعنى وأكثره باللفظ مع زيادة من عندي ونقصان بما يناسب كل مقام.

تنبيه ما ذكره سيدي أحمد بن ناصر شيخ شيوخنا من أن سيدي علي بن عبد الصادق من بلدة زليتن فيه نظر أو أنه سبق قلم أو نسيان أو أنه أتى إليه ولقيه في ذلك الوطن وظن انه منه وأما احتمال أنه انتقل الشيخ من وطنه الذي هو ساحل حامد فإني قد سألت عنه وفحصت عن هذا الخبر فقال لي من يوثق بخبره أنه لم ينتقل من ساحل حامد أصلا غير انه يحتمل فاللائق الذي يحتمد لعيه هو الأول وإلا فالشيخ لا طيش معه لأنه في غاية التمكين رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

تتمة بلدة زليتن هذه الآن عامرة أكثر من ساحل حامد بزيادة عظيمة وشجرها أكثر منها وكذا كل نوع إلا أكثر ففيها الآن الخير العظيم دينا ودنيا.

وفي هذه البلدة فضلاء وصلحاء وعلماء وفي الرجعة اجتمعنا مع علماء الوقت كالفاضل الكامل الأديب الفقيه سيدي سالم وإخوانه وطلبته وقد عمر أوقاته بتدريس العلم نحوا وفقها وله فهم جيد.

وهذا سيدي سالم القطيسي فانه أجاد في إكرامنا نهارا وعزم بنا إلى بيته تبركا بنا أحسن الله إليه إحسانا كليا وأتم عليه ما هو به وعلى ذريته وإخوانه إلى قيام الساعة فقد أقرى لنا لحما وكسكسا وتمرا ورمانا بحيث عدد علينا أنواع القرى والقرى

القوي هو الفرح والرغبة في العلم وأهله وكذا اجتمعنا مع فضلاء تلك البلدة كالمشارك في العلوم سيدي إبراهيم نجل الشيخ سيدي سالم فإن له اشتغالا بالتدريس نفعه الله ونفع به آمين وكذا جماعة من أهل الخير لا أعرف أسماءهم إلا أن الخير والفضل لائح على وجوههم إذ أنوار الله لا تخفى على من له شم لرائحة الحقيقة وكذا لقينا إلى طريق الحاج محمدا رجل خير فاضل محب لصديقنا سيدي محمد الشريف البلغيثي وأتى إلينا بالرطب والخبز واللحم وجميع من مر من الركب أكل منه كثر الله خيره وبسط عليه رزقه.

هذا وأنا زرنا الولي الصالح والقطب الواضح سيدي عبد السلام الأسمر في الطلعة والرجعة أفاض الله علينا من بركاته وجعلنا في زمرته بجاه النبي صلى الله عليه وسلم وآله وآل البخاري ورجاله وبالجملة فكراماته مشهورة ومآثره كثيرة ومعاليه بينة عند الخاصة والعامة فلم يبق إلا التعلق به وبأمثاله لتجبر قلوبنا وتشفى أسقامنا لا سيما أسقام الدين فإنها قد عمت ظواهرنا وبواطننا مع أعظم المفسدات له وهو ادعاء النفس ما لم تصل إليه غير أن بعضهم لا يدعي ذلك قولا وإنما يدعيه حالا بحيث إذا ذم وحط عن ما تدعيه نفسه من المقامات العالية تغير وتكدر أمره غايته إن كان من أهل العلم سكت عن قول السوء ويحمل نفسه على الصبر ولولا ادعاؤه ذلك ما تغير إذ غاية ما قيل فيه أنه كذلك في الواقع وأما الجاهل فلا يصبر بل يبادر للسوء ويغلظ القول عليه بل ربما آل أمرهم إلى الضرب مع الشتم بل إلى القتال كما عينا ذلك من كثير من فتنة المرابطين في وطننا وقتالهم فإن أهل ذلك كله هو رعونة الدعوى وتمكنا منه اللهم بجاهه عندك وبجاه أمثاله أن تمن علينا بالبرء من الدين وشفاء أسقامه واحفظنا من كل بلاء دينا ودنيا بمنك وكرمك.

نعم هو رجل كما قال أبو سالم في رحلته من أهل المائة العاشرة كثير الكرامات

عالي المقامات من أجل تلامذة سيدي أحمد بن عروس نزيل تونس والغالب عليه الجذب في أول أمره وآخره وله تصرف قوي ويؤثر عند أهل البلد من تصرفاته آثار كثيرة يطول استقصاؤها وأخباره في قهر الجبابرة وفك الأسارى من أيدي الفرنج في حياته وبعد مماته شهيرة وهو من بلدة يقال لها الفواتر وأمه مغربية درعية[١] ولم تزل هذه البلدة التي هو منها مأوى الصالحين ووكر العابدين من قديم الزمان تواتر عند أهل البلد أنها لا تخلو من سبعة من أكابر الصالحين قالوا وهم ظاهرون بها حتى الآن وليس عليهم سمة متفقرة الوقت بل هم على هيئة العوام في ملابسهم ومساكنهم وحرفهم إلا أنهم قائمون على منهاج الشريعة وكل من رام أهل هذه البلدة بسوء يقصمه الله ولا يدخلها أحد بتجبر وتكبر إلا أذله الله ويذكر عن أهلها كرامات كثيرة.

قال وقد ذكر لي بعض الإخوان أن سيدي عبد الحفيظ قدم لزيارة أهل هذه البلدة ومعه بشر كثير كما هو شأنه إذا خرج فلما قرب من البلد نزل عن فرسه ومشى راجلا متواضعا إلى أن زار وخرج فقيل له في ذلك فقال لو دخلتها على الحالة التي كنت عليها خارجا من الركوب كهيئة المتبوع تخشيت على نفسي أو كلاما هذا معناها وبلدة الفواتر هذه بإزاء زاوية سيدي عبد السلام قريب منها بنحو من فرسخين[٢] وفيها مزارات كثيرة للأحياء والأموات.

لطيفة أخبر الإمام العياشي في رحلته أنه أخبره أخوه في الله المجذوب السالك سيدي أحمد بن محمد بو تجيب[٣] انه لما حدج بقي أمام النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الرحلة العياشية دراوية.

(٢) كذا في جميع النسخ وفي الرحلتين العياشية والناصرية فرسخ.

(٣) كذا في الرحلة الناصرية وجميع النسخ وفي الرحلة العياشية نجيب.

فقال في نفسه أني لا أذهب لزيارة حمزة ولا لغيره هذا يكفيني قال فأخذتني سنة فرأيته صلى الله عليه وسلم فقال لي يا أحمد يا حبيبي عم الرجل عوض أبيه قال فقمت في الحين وذهبت لزيارة سيدنا حمزة وحدي وكان وقت خوف ولقيت هناك ثلاثة رجال أحدهم الخضر عليه السلام.

ونقل عنه عن اللقاني أن الوزغ يتغذى بعينيه وانه أي اللقاني كان ذات يوم يأكل ووزغ ينظر إليه من السقف فأمر من قتله قال وشقوا بطنه فوجدوا فيه من الخضرة التي كان الشيخ يأكل منها انتهى.

وممن لقيه هذا الشيخ في هذه البلدة سيدي محمد بن سالم الزليتني وكان متبعا للسنة كثيرا وآثار الصلاح على وجهه تلوح وعرف الفلاح من بشره يتضوع ويفوح وكان من أهل الكشف نفعنا الله به ثم قال.

نادرة كان سيدي عبد السلام الأسمر الشيخ الأكبر يستعمل السماع بالدف إلا أنه كان رضي الله عنه ذا حال صادقة لا يقتدي به في ذلك وأراد خلفه والمنتسبون إليه اقتفاء أثره في ذلك فحقهم إتباع السنة واجتناب مواقع الظنة وليست الأحوال مما يورث ولا مما يصح فيه التقليد لأنها واردات من الحق تستعمل العبد بمقتضى وقته استعمالا جبريا فليس لغيره أتباعه في ذلك إن لم تظهر له موافقته المشروع.

ومما يحكى من ذلك عن الشيخ سيدي عبد السلام انه سمع ذات يوم بالدف فلما نقره سمعه كل من حضره يقول الله الله بحيث لا يمترون في ذلك قاله في رحلته شيخنا أبو سالم قال وهذا شاهد صدق في صحة سماعه وصدق حاله مع الله ومثل هذا له أن يسمع بأي شيء أراد من دف ومزمار لانقلاب سمة الملاهي في حقه ترياقا فعادت المخالفة للمشروع بانعكاس الثمرة وفاقا فسبحان من يخرج من بين فرث

ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ومن بين الدف والمزمار أحوالا سنية للمقربين.

وكان حج مع شيخنا الوالد رضي الله عنه وأرضاه بعض أهل زاويته وكان يسمع بالدف على عادتهم فبعث إليه الشيخ فقال له أن أردت مرافقتنا فأترك هذا السماع وإلا فاعتزلنا فاعتذر بان ذلك من عادة أسلافه فلم يقبل منه الشيخ ذلك ولم يزل به حتى ترك السماع.

قلت وقد عمت البلوى والعياذ بالله بانكباب أبناء الطوائف على السماع بالدفوف والمزامير وسائر الآلات والأشعار والألحان واتخذوا ذلك صراطا مستقيما، وأتبعوا فيه شيطانا رجيما، ونبذوا السنة وراء ظهورهم، وزالت هيبة الشريعة من صدورهم، وكان لهم ذلك ديدنا في سائر الأزمان، فصاروا مسخرة للشيطان، وفي الرسالة لأبي إسحاق الاولاسي قال رأيت إبليس في المنام على بعض سطوح الأولاس وأنا على سطح وعلى يمينه جماعة وعلى يساره جماعة وعليهم ثياب لطاف فقال لطائفة منهم قولوا فقالوا وغنوا فاستفزعني صيته(١) وهممت أن أطرح نفسي من السطح ثم قال ارقصوا فرقصوا أطيب ما يكون قال لي يا أبا الحارث ما أصبت شيئا أدخل به عليكم إلا هذا انتهى.

ولعمري كيف تسلم ديانة من يتعاطى السماع بالأغاني وإنشاد الألحان والأشعار إذ هو معشش الدسائس وأحق بالنزاع ومغرس التخليط والتلبيس وأدخل في الابتداع إلا من عصمه الله وقليل ما هم فلذلك كان إنكار السماع من كثير من العلماء وتحذيرهم منه لا سيما في حق العوام الباقية نفوسهم القائمة حظوظهم وكثير استعماله لكثرة الغرور وطفوح الجهل حتى ربما رأوه من أركان الطريق وربما

---

(١) في الرحلة الناصرية استفرغتني طية.

توغلوا فيه حتى تعاطوه بالآلات الملهية والأصوات الحسنة من الأحداث الملاح حتى كأنهم محاضر المنادمة وما أبعد هذا عن الدين وأهله وقد يكون الفتى من أهل البطالة والغواية واللهو والشرب ثم انه يتوب على أيديهم فيحضرونه في أمثال هذه المجالس وهذا الغناء وهذا اللهو فلا تزداد نفسه إلا قوة وجموحا، ولا شهوته إلا كلبا وطفوحا، نعم كان قبل التوبة منكسر القلب معترفا على نفسه بالإساءة متمنيا للخير والصلاح واللحاق بأهله والخير كله في هذا الوصف وفي الحديث القدسي أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي ثم الحالة الأولى إلى الثانية وهذا العجب والاغترار هو العيب كله والشيطان يكتفي منه بذلك فلا يوسوس له أن يتعاطى تلك المعاصي السابقة لأن هذا العجب والاغترار أعجب إليه إذ لا يتمنى الانتقال والتوبة عن هذه الحالة أصلا وعدم الوسوسة بذلك تزيده اغترارا وإعجابا فيكون في مرضاة إبليس ما دام على تلك الحال وفي سخط الكبير المتعال نسأله العافية.

ولهذا قال أمام الطريقة الجنيد رضي الله عنه إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة.

وقال الشيخ الإمام القدوة الهمام أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه سألت أستاذي رضي الله عنه عن السماع فأجابني بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ۝ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾.

وقال أيضا رضي الله عنه رأيت في النوم كأن بين يدي كتاب الفقيه ابن عبد السلام وأوراقا فيها شعر مرجز وإذا بأستاذي رحمه الله واقف فتناول كتاب الفقيه بيمينه وتناول الأوراق بشماله فقال كالمنتهر أتعدلون عن العلوم العزية الزكية وأشار بيده إلى كتاب الفقيه إلى الأشعار ذوات الأهواء المردية وأشار بيده إلى أوراق الشعر ثم رمى بها الأرض ومن أكثر من هذه فهو عبد مركوز هواه، أسير شهوته ومناه،

يسترقون به قلوب الغفلة والنسوان، ولا إرادة لهم في الخير واكتساب العرفان، يتمايلون عند سماعها تمايل اليهود، ولم يحظ أحد منهم بما حظي به أهل الشهود، لئن لم ينته الظالم ليقلبن أرضه سماء، فأخذني حال وجد وبكاء، وأنا أقول إلا أن النفس أرضية، والروح سماوية، فقال بلى إذا كانت الروح بأمطار العلوم دارة، والنفس بأعمال الصالحات نباتة، فقد ثبت الخير كله، وإذا كانت النفس غالبة، والروح مغلوبة، فقد وقع القحط والجدب وانقلب الأمر وجلب الشر كله فعليك بكتاب الله الهادي، وكلام رسوله الشافي، ولم تزل بخير ما لزمتهما، وقد أصاب الشر من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وإذا سمعوا الحق أقبلوا عليه ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا انتهى.

وقال الإمام أبو العباس زروق وقد اتفقوا على منعه لما حدث فيه وبه من المفاسد حتى قال الشيخ محيي الدين رحمه الله السماع في هذا الزمان لا يقول به مسلم ولا يقتدى بشيخ يعمله أو يقول به.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ نزلت في اليهود ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرا للسماع بهواه آكلا مما حرمه مولاه فهي نزعة يهودية لأن القوال يذكر العشق وما هو بعاشق ويذكر المحبة وما هو بمحب والوجد وما هو بمتواجد فالقوال يقول الكذب والمستمع سماع له ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ ﴾ الآية.

قال وعبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرأون التوراة فتخشعوا فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عليه جبريل عليه السلام فقال أقرأ قال وما أقرأ قال أقرأ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾

فعوتبوا إذ تخشعوا من غيره وهم إنما تخشعوا من التوراة وهي كلام الله فما ظنك بهذا أتعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهي والغناء انتهى كلامه.

وقال الإمام محيي الدين وكل ما سمع من الخشوع فهو على أحد أمرين أما قبل أو تحصل له مرتبة التمكين فالسماع عندنا حرام في ذلك الوقت أو سمع بعد التمكين بشروطه المعروفة التي قد ذكرناها في غير هذا الموضع فيعلم من هذا انه قد نزل من المقام الأعلى إلى مقام هو أسفل وأدنى لحظ نفسه ثم ذكر السماع وانه نزول كله وإن من لم يجد حاله إلا في السماع ويفقده إذا فقده فقد مكر به واستدرج فليبك على نفسه وليبحث على ما جنته يده فيجد ذنبا ضرورة لا بد من ذلك ثم قال والله يلبسنا وإياكم رداء التقوى والعافية، ويحلنا وإياكم المراتب السامية، ولا يجعلنا وإياكم ممن له إلى السماع أذن واعية، فيكون من أهل القلوب الملهية انتهى.

وله في التدبيرات الإلهية السامعون شخصان شخص يسمع بنفسه وشخص يسمع بعقله وليس من سامع آخر ومن قال أنه يسمع بربه فهو نهاية درج سمع العقل لكن للعقل سمعان سمع من حيث فطرته وسمع من حيث الوضع فالذي له من حيث الوضع هو الذي قيل عنه أنه يسمع بربه وقوفا عند قوله عليه السلام عن ربه كنت سمعه الذي يسمع به فالذي يسمع بعقله يسمع في كل شيء ومن كل شيء وعلى كل شيء لا يتقيد وعلامته في ذلك البهت وخمود البشرية والذي يسمع بنفسه لا بعقله لا يسمع إلا في النغمات والأصوات العذبة الشهية وعلامته أن يتحرك عند السماع بحالة فنائه عن الإحساس ومهما أحس المتحرك في السماع فانه مسخرة للشيطان وإن لم يحس وفني عن كل شيء فهو صاحب نفس وتحت سلطانها وحاله صحيح الفناء ولا يأتي بعلم أبدا عقب هذا الفناء والحركة في السماع فان ادعى انه أتى بعلم فلم يكن فانيا ولم يكن سمع بعقله فانه تحرك ولم يبق له إلا أن يكون كاذبا

فإن سماع النفس لا يأتي بعلم البتة وسماع العقل لا تكون معه حركة فمن جمع بين الحركة والعلم فهو كاذب جاهل بالحقائق انتهى الغرض منه فقس هذا الكلام على أهل زمانك تر العجب العجاب والله يلهمنا الصواب ويعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح القول والعمل.

قال الشيخ أبو القاسم القشيري سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى يقول السماع حرام على العوم لبقاء نفوسهم مباح للزهاد لحصول مجاهدتهم مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم انتهى.

قلت وإلى هذا الكلام والله اعلم يشير صاحب نظم المباحث الأصلية حيث يقول:

وإنما أبيح للزهاد ... وندبه إلى الشيوخ باد

فهو على العوام كالحرام ... عند الشيوخ الأجلة الأعلام

قال الإمام زروق أما أباحته للزهاد الذين لا أرب لهم في الشهوات المستلذات ولم يبلغوا مرتبة التحقيق والذوق فانه لا يضرهم فيمنع ولا ينفعهم فيندب وأما الشيوخ فانه يثير منهم الحقائق فتنتشر في عوالم الأجسام ثم تتسع في ميادين الحضرة فيكون للحضار منها نصيب لأن من تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها وكل ما أفضى إلى الكمال فهو كمال وأما تحريمه على العوام فمن جهة انه يثير نفوسهم ويحرك شهواتهم وغيرها من الطبائع والعوائد الردية وهذا فيما يحتمل وصوّر له وفيما يوافق الحق بمعناه من حيث الطباع لأن الشعر من محامد النفس فهو يقويها ما لم تكن ميتة.

وفي ذلك قالوا أن الغناء مرقاة الزنى وانه ينبت النفاق في القلب انتهى قلت وكلام أبي علي الدقاق هذا هو فصل الخطاب والتوسط بين الخطاء والصواب.

ونحوه قول الشبلي وقد سئل عن السماع قال ظاهره فتنة وباطنه عبرة فمن عرف الإشارة حل له استماع العبرة وإلا فقد استدعى الفتنة وتعرض للبلية وقال بعضهم لا يصح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلبه حي فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة وقلبه حي بنور الموافقة.

واتفقوا انه لا بد للسماع من زمان ومكان وإخوان ولذلك قيل للجنيد رضي الله عنه ما لك لا تسمع فقال ممن قيل من الله فقال ومع من وقولوا السماع على قسمين سماع بشرط العلم والصحو فمن شرط صاحبه معرفة الأسامي والصفات وإلا وقع في الكفر المحض وسماع بشرط الحال فمن شرط سامعه الفناء عن أحوال البشرية والتنقي عن آثار الحظوظ بظهور أحكام الحقيقة وهذا والله اعلم هو في سماع الأشعار المشتملة على الأوصاف الصالحة لأهل النفوس ولأهل الأرواح قد علم كل أناس مشربهم كسماع أبي الحسن في الطريق قول القائل:

رأى المجنـــون في البيـــداء كلبـــا ـــــــ الأبيـــات والقـــصة

وأما الأشعار الوعظية المشتملة على التذكير بالله تعالى والترغيب فيما عنده والتنفير عن الدنيا والتحضيض على التقوى فهي سليمة الجناب تصلح للعوام والعباد والزهاد وبالجملة فالسماع ورطة لأهل النفوس والشهوات وروضة لأهل الفهم عن الله تعالى وهؤلاء يسمعون من كل شيء ولا يتوقف سماعهم على طيب النغم كما تقدم عن صاحب التدبيرات ويشهد له حكاية يا ستعر بري وما فهم منه كل من الثلاثة المذكورين في حكاية أنظرها في لطائف المنن انتهى.

أقول وحاصل معناه أن شخصا نادى آخر يبيع السعتر البري فالمريد فهم إسع تر بري والسالك فهم الساعة ترى بري والواصل فهم ما أوسع بري فكل قد فهم بحسب مقامه وشربه قد علم كل أناس مشربهم فالمريد مأمور بالعمل ليرى

الإحسان من الله والبرور والسالك ينظر الفتح ولذلك فهم الساعة ترى بري والواصل في حال شهوده وتجلي المحبوب على قلب ففهم في حال شهوده من هذا اللفظ ما أوسع بري.

هذا معنى قوله يسمع من كل شيء ولا شك أن في كل شيء آية تدل على الله في الجملة وعند أهل الحق لهم خطاب منها يخصهم بحسب مقامهم من الحب وغيره.

وقد قال بعض العارفين مكثت أربعين سنة أخاطب الخلق بخطاب الحق وذلك لغلبة الشهود عليه والحضور لديه فلم يصح تصور الغفلة عليه ولا النسيان منه ولذلك كان به ومنه وإليه فكان الله سمعه وبصره كما هو في الحديث القدسي فليس عند هذا في الوجود إلا الحق أن سمع سمع به والباطل منعدم البتة في حقه فلا تقسيم فيه وإنما التقسيم فيمن يغيب عن نفسه تارة بمشاهدة محبوبه ويشاهدها أخرى فإن كان يسمع بالله ومن الله فسماعه حق لا يقول مسلم بحرمته وإنما هو آثار عليه حال الشهود وإنما الكلام في غيره والتفصيل فيه بين الزهاد وغيرهم وأهل التمكين وسواهم فاعلمه فانه مما يجب التفطن إليه وقد أشار إليه قبل غير أنه لا يفهم ما قاله كل قاصر في هذا العلم والمتبصر يعلم الحقائق على حالها.

وبالجملة فالبحث بالإباحة والتحريم والندب إنما هو فيمن يلتبس عنا قصده وحاله ففيه التفصيل السابق والكلام حينئذ على أسلوبه والجري على نمطه نعم قرائن الأحوال تميز أحوال السامعين فمن علم انه قصد أمرا مذموما في الشرع منع باتفاق ومن علم أن قصده صحيح لا علة فيه شرعا كالزهاد والعباد جاز قطعا من غير خلاف لكونه ترياقا مجربا أقل ما فيه من الدواء استراحة النفس مما حصل لها من التعب في حال المجاهدات وكذا أهل التمكين من الشيوخ فإنما سماعهم من الحق ولا شك أنه مطلوب منهم لتتسع دائرة علومهم وتتقوى أنوار معارفهم وهذا إذا سلم

الموضع من الفتن الدينية كحضور الشبان الناعمة من النساء لا سيما إذا كانت مكشوفة العورة فإن ذلك حرام من غير خلاف إلا إذا كان صاحب الوجد زال عنه عقل التكليف وحركه الحق فلا أثم عليه لأنه ليس بمكلف إذ هو مضطر مقلوب ولا يقتدي به فلا بأس عليه من النساء وغيرهن وإنما الكلام مع من بقي معه التكليف.

حاصله أمر السماع في زماننا وغيره مع القصد الصحيح بشروطه وانتفاء الموانع كخلو المكان ممن يفتتن به من النساء والشبان ممن لا قصد له قصدا خبيثا فهو على التقسيم المتقدم بين الإباحة والندب وإما مع القصد الفاسد فلا يجوز اتفاقا.

لطيفة وتنبيه مما يجب التنبه[١] إليه اجتماع النساء والرجال في بلدنا في الظاهر على طريق الخير والصلاح والتشبه بالقوم الأول وفي الواقع ما اتخذوا ذلك إلا للتوصل للزنى ومقدماته يشهد لذلك من رآه بالعيان لأنهم فساق فلما تعذر عليهم الوصول إلى الشر من بابه اتخذوا سلما يرقون به وهو السماع ليتوصلوا لأغراضهم الفاسدة ويتجردون للزنى نحو اليومين والثلاثة ليتمكن لهم الاختلاء[٢] وقد قال صلى الله عليه وسلم ما اختلى[٣] رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما وقال أيضا باعدوا بين أنفاس النساء وأنفاس الرجال وقال أيضا لو كان عرق الرجل في المشرق وعرق المرأة في المغرب أو بالعكس لتحانا أو كلاما هذا معناه فإذا كان الأمر كذلك فكيف يحل لمسلم يرى ذلك منهم أن يترك حريمه أي زوجته أو أخته أو ابنته أو ابنه معهم حاصله أي قريب كان ذكرا أو أنثى فلا يتركه أن يحضر ذلك السماع المعلوم بهذه

---

(١) في نسخة التفطن.
(٢) في أربع نسخ الاختيال.
(٣) في ثلاث نسخ اختال.

المفاسد بل يمنعه منعا مؤزرا أن قدر عليه بنفسه وإلا طلب المعين أن يعينه فيه من جماعة المسلمين إن لم يكن حاكم إن كان فيهم إيان وإن كان فيهم حاكم بلغ إليه الأمر فيجب على من ولاه الله أمور المسلمين أن يرفع[1] ذلك بالسيف من كل وطن من أوطاننا لا سيا وطن عامر وبني دراج وطننا أي بني ورثيلان وكذا ما يصير في بجاية آخر رمضان ومسجد البلوط في بني يعلى وكذا محل الأولياء في كل مكان كقبر جدنا سيدي أحمد الشريف وسيدي يحيى العيدلي وسيدي علي بن شداد وسيدي علي بن موسى وسيدي عبد الرحمان الثعالبي في الجزائر وسيدي سعيد السفري[2] في قسنطينة وجبل المثقوب في بني ورثلان وغيرهم.

نعم الذي ذكرناه إنما هو في حق المخذول الذي لم يخف الله ونبذ وراء ظهره حجاب الهيبة ففعل ما بدا له وإلا فمن غلبه الحال والوارد والشوق من وطننا أو غيره رجلا أو امرأة مع الرجال أو النساء أم لا فلا كلام لي معه إذ هو مقهور ويحب الله مغلوب مضطر فحشاه أن أمس جانبه أو أشير إليه وكذا غيري ممن نبه عليه من ذم السماع وحرمه إذ مقصودهم ومقصودنا سد الذرائع وسد الباب على مثل المجوزين ذلك مطلقا لا سيا المفتونين المخذولين المتحيلين للوصول إلى الأغراض الفاسدة أو يعتقد من له توجه صدق ورغبة في الخيرات ما هم عليه هو الدين القويم والصراط المستقيم فيدخل في زمرتهم ويجعل نفسه منهم فإن أصابه بعض الفتن والبلاء من الشغف بحب النساء ممن يحضر ذلك الموضع فيتشتت أمره ويتكدر عليه وقته حتى يغلبه حال الشيطان فيقع في مهواة الضلال وربما سقط من عين الله إلا أن يتداركه الله بفضله بان لا يجد سبيلا[3] لمراده إذ من العصمة أن لا تجد موقعا في

---

(١) في نسخة يدفع.

(٢) في نسخة الصفراوي.

(٣) في نسخة سبا.

فساد[1] وندم على ذلك وانكسر قلبه من أجله فيأخذ الله بيده لما علمه من قلبه فذل بسبب ذلك فتكون معصيته أولى من طاعة غيره لأن المعصية مع الذل والاحتقار أولى من الطاعة مع العز والاستكبار لأن المقصود من العبودية التذلل والخضوع والاحتقار فلما كانت المعصية بذلك صارت خيرا من الطاعة التي مع العلو والاستكبار.

أقول قال الشيخ زروق الولي ولي وأن أتى حدا أي ما يستوجب الحد لأنه ليس بمعصوم إلا إذا أصر على ذلك فينتفي عنه الحكم بالولاية وبالجملة فالحذر مطلوب والسلامة في الفرار من تلك الجموع أولى والديانة في عدم زيارة النساء ولا حضور سماعهن وأما السماع الخالي عنهن وعن الأحداث غير انه بذكر الغناء بالخدود والقدود مع الأصفياء الأتقياء ففيه الكلام بالإباحة وضدها لا سيما مع آلة اللهو فمنهم من رغب فيه لما يزيد ذا الشوق شوقا وذا المعرفة معرفة ومنهم من ذمه نظرا لما يقتضيه اللفظ من المعاني المعلومة شرعا[2].

وبالجملة فالذي فيه الخلاف إنما هو ما كان بآلة اللهو والغناء بالأشعار التي فيها ذكر الخدود والقدود وتسمية المحبوبة من النساء المرغوب فيها الفساد غير انه سالم من النساء التي يدعن من فتن وأهله أتقياء أنقياء وليس لهم غرض إلا سماع ما يدل على الحب والشوق هذا الذي فيه كلام مع أهل العلم فمنهم من يستدل على مدحه[3] شرعا ومنهم من يستدل على ذمه[4] كذلك وأما إذا كان فيه النساء الأجانب التي فيهن الفتنة لا سيما مع الشبان فيحرم اتفاقا وفيه سخط الله قطعا إلا إذا كان الحاضر

---

(١) في نسخة مفاسد.

(٢) في نسخة شرا.

(٣) في نسخة منعه.

(٤) في نسخة إباحته.

له مغلوبا مقهورا بالوارد والحال فلا حكم في حقه إذ هو مكره غير انه لا يقتدى به في ذلك لأنه مريض لما علمت من الفقه إذا تيمم المريض وإن كان مالكا أو أبا حنيفة أو الشافعي أو أحمد فلا يأتي الصحيح ويتيمم اقتداء بهؤلاء الأئمة إذ هم مرضى وهو صحيح فالمغلوب لا حرج عليه دينا.

وأما السماع الذي فيه الوعظ والذكر ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم فلا خلاف في ندبه ومطلوبيته وأما للزهاد[1] والعباد الذي فيه الخلاف فمباح لهم من غير شك فافهمه وهذا حاصل ما فيه كلامهم ولولا الإطالة لأتيت على كل قولة بدليل.

فأقول قال شيخ شيوخنا المذكور ما نصه وهذا كله مع شروطه المقررة وقد عدمت الآن فتعرض لمتعاطيه عند تعاطيه تر ما ذكرت لك عيانا نسأل الله تعالى السلامة والعافية ويتعاطون ذلك بآلات ملهيات وكيفيات منكرات وأما التصفيق وهز الرأس والرقص والتحرك فإن كان بغلبة فالمغلوب معذور وإن كان بغير غلبة وهو للإيهام فهو حرام لما دخله من الرياء والتصنع والتظاهر بما ليس له حقيقة عنده وإن كان مع بيان الحال بحيث يعلم الحاضرون أنه غير مغلوب وإنما أراد إراحة نفسه فهو للباطل أقرب وليس من الحق في شيء ولذلك لما سئل بعض العلماء عمن يفعل ذلك ضحك حتى بدت أنيابه ثم قال أمجانين هم وأما الدفوف والطنابير والمزامير والمزاهر والطرور فكان الوالد يضرب فيها بالعصا والنعال ويجلي فيها وينفي متعاطيه ويغري عليهم ويبحث في نفيهم ويبالغ في زجرهم ولا يسكت عنهم بحال إلا أنه يخفف في رفع أصواتهم بالأذكار عند الاجتماع المجرد عن الزعقات والهاعات وضرب الأكف وغير ذلك من الآلات وإن طرأ شيء من ذلك سمعه بالغ في الزجر بل المرضى عنده ترك كل شيء من ذلك واختلاء المرء بسره والإخفاء

---

(١) في نسخة الزهاد.

لذكره وكان الفقراء ذات يوم مجتمعين بالزاوية على الكيفية التي ذكرنا انه يخففها ويسكت عنها وجلس وراءهم خفية عنه وظفر به بعض أصحابه فقال له يا سيدي ما أجلسك هذا المجلس فقال أطلب الله في هؤلاء وادعو لهم وفي المباحث الأصلية.

ولا يجوز عنده التكلم ولا التلاهي لا ولا التبسم

قلت وإن كان ولا بد فمن أسلم الهيآت وأحسنها وأبعدها من الظنة[١] وذكر الإمام الساحلي رضي الله عنه وهو أن الفقير إذا اشتغل بالإرادة فحقه أن يقطع العلائق كلها وينبذ اللذات والراحات ويهجر المألوفات ويستعمل العزلة والخلوة وذلك أمر شاق على النفس في الابتداء فإنها شديدة الحنين إلى ما تألفه من البطالة والأنس بالخلق ويخشى عليها من هجم عليها بقطع جميع ذلك على الدوام أن تنفر فوجب ترويحها حينا بعد حين بالاجتماع ليكون ذلك استجماعا[٢] ولا يكون ذلك على الدوام لئلا ترجع إلى طبعها من الألفة بل يكون ذلك بحسب الحاجة ثم يجب أن لا يكون الاجتماع بالبطالة وترك ما هو عليه فانه لا بد من مواصلة الأوراد والدوام على العمل بلا فترة فلزم أن يكون الاجتماع على الذكر الذي كان يستعمله المريد في خلوته بنفسه حتى كأنه لم يخرج عن خلوته ولم ينتقل عن حالته غير أن ما كان يعمله وحده عمله مع إخوانه ليفيد النفس تأنيسا بهم وصفة الاجتماع أن يعقدوا الميعاد ليوم معلوم فيحضرون ويجمعون من الطعام ما تيسر مع غاية البعد عن التكلف والرياء والتباهي إلى أن قال وصفة الذكر أن يجلسوا حلقة ثم يرفعوا أصواتهم بذكر واحد من الأذكار التي عندهم كالهيللة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم خافضين رءوسهم غاضين أبصارهم على غاية الوقار والسكينة والخشوع من غير اضطراب ولا حركة إلى أن ينزل على أحد حالة غالبة تزعجه من غير اختيار وليس

---

(١) في الرحلة الناصرية الضنة.

(٢) وفيها أيضا استجماما.

لأحد أن يتمنى نزول ذلك ولا إن يتعاطاه بل يستعيذ بالله من شر الوسواس والخواطر الشيطانية.

وأما السماع بالأغاني وإنشاد الأشعار فهو أدخل في الابتداع وأحق بالنزاع وهو معشش الوساويس ومغرس التخليط والتلبيس إلا من عصمه الله وقليل ما هم أنظر تمامه انتهى.

انعطاف وقد ظعنا من الساحل ونزلنا قرب السبخة ثم بعد ذلك ظعنا بعد ملاقاة الأفاضل وزيارة الشيخ الولي الكبير القطب الشهير سيدي عبد السلام كما تقدم لنا ونزلنا قرب مسراتة ثم بعد ذلك ارتحلنا ونزلنا أبعد من قبر[1] الشيخ الولي الصالح، البدر الواضح، ذي التصانيف المفيدة، والتآليف العديدة، ذي الترياق والدواء المجرب أبي العباس سيدي أحمد زروق البرنسي ثم الفاسي فبعد نزولنا هنيئة توجهنا لزيارته والتبرك بضريحه قدس الله روحه فانه لا شك أنه حي في قبره يستشعر ذلك من له ذوق سليم، وطبع مستقيم، فأن الحواس الباطنية تشهد بذلك وتتخيل روحانية الداخل روحانية المزار فإنها تتلاقى بغير حجاب في حضرة الشهود، في مرقى الصعود بتأييد الرب المعبود، فتستفيد النفس الزيارة من الروح المزارة من الأمداد الإلهية والأنوار الصمدانية واللطائف الرحانية والعلوم اللدنية ما كتب لها فتستعد بذلك للدخول في زمرة النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، فترجع ذات أنوار وأسرار تظهر بسبب المحقق العلامة المدقق العارف بالله قطب مغربنا، وشمس سرائرنا، وإمام أئمتنا، وحضرة ودنا، وعروة اعتصامنا، ومحل اعتقادنا، شيخ الطريقة، وأمام الحقيقة، سلطان العارفين، والمحققين، قوي الله فيه محبتنا، وحقق إليه نسبتنا، الشيخ المذكور فانه من قوم لا يشقى بهم جليسهم، ولا شك أن

---

(١) في نسخة ونزلنا قرب قبر.

زائرهم، ومحبهم، وخديمهم، ومتشبثهم، هو منهم، فإن هذا الولي قد ظهر أمره في الآفاق، واشتهر سره في الأقطار والرفاق، وتقوى نوره في عصره إلى زماننا هذا بل علمه وأسراره قد عمت مشارق الأرض ومغاربها فصار مغيثا ومعينا لكل من التجأ إليه نعم إليه يهرع المنكسرون على انه حصن للضعفاء والمساكين لأنه يأخذ بيد الجميع ولم تر في الناس من رفيق، أولى منه في إصابة الحق وبيان الطريق، ولا أدخل في أتباعها بل أجد في بيان البدع المضلة، ودسائس اللعين المعلة، حتى جمع بين الشريعة والحقيقة جمعا متواطئا فالملازم لتآليفه بصدق التوجه وخلوص الاعتقاد يشرح الله نوره للإسلام فحينئذ يكون على نور من ربه وبالجملة هو طبيب نبوي، وترياق رباني، يعلم ذلك من شمر أزاره لمطالعة أحواله وأسراره وتوجهاته وكلامه في سائر تآليفه لأن تآليفه تكاد أن تكون معجزة إذ لا يقدر ولا يستطيع أحد أن ينقل كلامه ولا يسلمه إلا من طبع على قلبه إذ هو لسان الحق وعين التحقيق فلم يبق لمن كانت بصيرته نافذة إلا سلوك طريقه لتستنير سريرته وتعلو همته ويظهر أمره عند الأكوان فيكون شمسا لها وغيثا لقلوبها ودواءً لعللها فيرحم الله به أمة ضعيفة ويسقي به قلوبا ضمآنة من لم يصبها وابل فطل ويغني أشخاصا فقيرة ويعز أناسا ذليلة ويجبر أفئدة كسيرة[1] فإن الشيخ المستمد منه بحر المعارف وسلطان العوارف إذ هو حجة الله في أرضه فمن يصل إليه ويستعن به يعن به[2] على أموره الظاهرة والباطنة وينتصر على أعدائه وذلك مجرب عند العباد كلهم بل قد ارتفع صيته عند العامة والخاصة فهو كعبة الزوار، وحرم الأنوار، ومعدن الأسرار، جعله الله لنا ولذريتنا ولطلبتنا، وكل من تعلق بنا ذخرا في دنيانا وذخرا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

---

(١) في نسخة منكسرة.

(٢) في نسخة بإسقاط يعن به.

وها أنا أتوجه إلى الله وأسأله بجاه وعلومه وإتباعه ومحبته أن يشفي الله أسقامنا الظاهرة والباطنة وبمنه وكرمه وأن لا يجعل في رأينا ما يكون هلاكا في ديننا ودنيانا وأن يرزقنا بجاه سره ما فيه رضاه مع العافية التامة والنعمة الشاملة والمغفرة الواسعة والرحمة القوية لنا ولمن تشبث بنا مع الغنى عن الناس والإياس عما في أيديهم وحسن الخاتمة آمين يا رب العالمين.

أقول قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه لما نان بروضة الشيخ حجة تسع وتسعين وألف خطر لنا ما سبب سكنى هذا الإمام الأعظم، والشيخ المكرم، في هذه البلدة البعيدة عن المدن والحواضر فنطق أخونا في الله سيدي عبد الله بن غلبون كأنه مطلع على ما في ضمائرنا والله عليم بذات الصدور فقال سئل الشيخ رضي الله عنه عن سكناه بهذه البلدة فقال أما ما ذكرت من استيطاننا في هذه البلدة فأمر خارج عن قياس النظر غير مصحوب بالحزم ولا معقود لشيء نعلمه بل اتفاقي ظهر وجوده فلزم موجوده إلى ما يقتضيه الحق.

وما أنا بالباغي بسلمى[1] بديلة ... بليل ولكن للضرورة أحكام

قلت ولعل فائدة استيطانه هذه البلدة والله اعلم استيناس الأركاب بزيارته واستمدادهم من معونته وتقويتهم على ما هم بصدده بمطالعة حضرته.

وقد شاع عند الحجاج أن من مر بقبره وأودع عنده نفسه وماله لا يصيبه مكروه حتى يرجع ويفعلون ذلك إذا مروا به في البر أو حاذوه في البحر فيجدون بركته ولا بدع في ذلك ولا غرابة فإن الله تعالى حفيظ لا يضيع ودائع والأولياء أبواب الله فمن أودع الله شيئا عند باب من أبوابه كيف لا يحفظه فيه والله خير حفظا وهو أرحم

(١) في الرحلة الناصرية سليمى بدل بسلمى.

الراحمين.

واطلعنا أصحابنا هنالك على نسخة من شرحه على الرسالة بخط يده الكريمة وعلى وصيته على أولاده لما حضرته الوفاة نفعنا الله به آمين.

فائدة قال أبو سالم في رحلته وجدت ورقة فيها زمام تركة الشيخ وعدة أولاده ونسائه ومن خلفه من بعده وعدد متخلفه من كتبه وأمتعته ولننقلها هنا بحروفها لما اشتملت عليه من الفوائد منها استفادة عدد أولاده وأين استوطنوا بعده فإني لم أجد ذلك بعد الفحص الشديد عنه ومنها التأسي به في قلة ما خلفه من الدنيا مع كونه ذا أولاد ونساء في بلد يشق فيه العيش ولا يعوزه ما يخلفه لهم لو شاء لانتشار صيته وخدمة الدنيا وأهلها له ومع ذلك لم يخلف منها إلا ما ستراه.

ونصه بعد الافتتاح بعد أن توفي إلى عفو الله الشيخ الفقيه العالم العلامة الصالح العارف المحقق القدوة المتبرك به أبو الفضل أحمد بن الشيخ المقدس المرحوم أبي العباس بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق غفر الله له ولوالديه انحصر أرثه في زوجته أمة الله الجليل ابنة أحمد المكرم أبي العباس أحمد بن الفقيه العدل أبي زكرياء الغلياني(١) المسراتي وأولاده منها أحمد أبي الفضل وأحمد أبي الفتح وعائشة وزوجته فاطمة ابنة أبي عبد الله محمد الزلاعية الفاسية وولده منها الفقيه الشاب الطالب الأسعد أبي العباس أحمد الأصغر وابنه الشيخ الفقيه القدوة المدرس أبي العباس أحمد الأكابر لا غيرهم في علم شهوده.

ثم توفي أحمد أبو الفتح المذكور وانحصر أرثه في والدته أمة الجليل وشقيقه أبي

---

(١) كذا في الرحلة العياشية وفي الناصرية الغلياني وفي بعض النسخ العلياني وفي أخرى بن عليان.

الفل وعائشة المذكورين وأخيه لأمه أحمد بن الشيخ الفقيه الأجل الأسعد الصالح أبي علي منصور ابن أحمد بن محمد البجائي لا غيرهم في علم شهوده.

ثم توفيت عائشة المذكورة وانحصر أرثها في أمها أمة الجليل المذكورة وشقيقها أبي الفضل وأخيها لأمها أحمد بن الشيخ منصور المذكور ثم توفي أبو الفضل المذكور وانحصر أرثه في والدته امة الجليلة وأخيه لأمه أحمد بن الشيخ منصور المذكورين وأخويه لأبيه أحمد الأكبر وأحمد الأصغر المذكورين لا غيرهم في علم شهوده وكان من مخلف الشيخ أحمد المذكور نصف الفرس الشهباء كبيرة السن شركة بينه وبين الحاج عبد الله ابن عزازة التكيراتي المسراتي بالنصف الثاني مع برنس أبيض وجبة صوف بزرّ مختم مع ثوب بالغزل وسبحة فقل كان أخذها الشيخ أحمد المذكور من الشيخ سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي اليمني نفعنا الله به آمين مع أربعة عشر سفرا وكناش فمن الكتب في الفقه من مختصر ابن عرفة رحمه الله وأسفار في الكبير مع حاشية الوانوغي والمشد إلي على المدونة مع سفر فيه مختصر الشيخ خليل والشامل للشيخ بهرام رحمهما الله مع شرح ابن عسكر في الفقه للشيخ أحمد المذكور ألفه ومن غير الفقه الديباج المذهب في التعريف برجال المذهب لابن فرحون رحمه الله ومعه تأليف للشيخ أحمد المذكور القواعد في علم التصوف ومعه شيء من علم الطب مع سفر فيه قواعد الوانشريسي والمذكور شيء من علم الطب مع سفر فيه الزركشي والسبكي في أصول الفقه وبلوغ المرام لابن حجر والبلالي اختصار الأحياء مع سفر فيه شرح التفتازاني في أصول الدين والحكم لابن عطاء الله والمنهل الروي في علم الحديث وغيره مع سفر من ملتم[1] الحديث بخط الشيخ أحمد المذكور وتأليف الشيخ سيدي عبد الرحمان الثعالبي مع إجازة له وشيء من ابن حجر في علم اللغة رحمهم

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وفي بعض النسخ وفي نسخة بإسقاط ملتم وفي الرحلة العياشية منصى منبها عليه بقوله يكتب هكذا مصحفا لأنه اعتذر عن التصحيف أخيرا.

الله وسفر فيه تفسير القرآن وكناشه محتو على وظائفه وغير ذلك.

وقد كان استوطن الشيخ أحمد الأكبر بعد موت أبيه ببلاد المغرب واستقر آخر ذلك بمدينة قسنطينة حرسها الله وأرسل مراسيل للإتيان بالمخلف المذكور بخط يده وثبت منها بالعدالة حسبما بيانه كما أذن بأن يوجه له ذلك مع من أمكن وكان جميع ذلك تحت يد الشيخ منصور المذكور وامتنع من ذلك لعدم الأمن والأمين حتى وصل الفقيه الطالب أبو العباس أحمد الأصغر المذكور في عام تاريخه لمدينة طرابلس حرسها الله تعالى ولم يأت بموجب يقتضي له قبض ذلك لأخيه فتوقف أصحاب الشيخ المذكور فطلب الشاب أحمد المذكوران يعطي ذلك في زمامه يطلب نصيبه ونصيب والدته فاطمة المذكورة لكونه وراثها ونصيب أخيه أحمد الأكبر المذكور فوافقوه على ذلك بعد ثبوت الأذن المذكور بان يعطي ذلك لأخي حضر إلي شهيديه الفقيه أحمد المذكور الأصغر نائبا عن نفسه وعن أحمد الأكبر وأشهد أنه قبض جميع المخلف المذكور عدا نصف الفرس فانه قبض ثمن ذلك وهو ثمانية دنانير ذهبا منجزة[1] من الشيخ منصور المذكور قبضا تاما وأبراه بتاريخ أوائل ذي الحجة الحرام متم عام ثلاثة عشر وتسعمائة انتهى وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله نقلت الرسم المذكور بحروفه من غير زيادة ولا نقصان مع وجود بعض التصحيف به ولم أغير شيئا بل تركته كما وجدته ولم أكتب من الرسم الأصلي بل من رسم نقل منه والله أعلم انتهى.

لطيفة أقول في مدحه والاستغاثة به لتزول عنا حجب الغفلة وكدرات النفس وغطاء البشريات ولعلي أرقى إلى مراتب التجليات وأشرب من عين اليقين وأتحلى

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلتين مشجرة.

بحلية المعارف ولذلك قلت وعلى الله اعتمدت[١]:

ألا أيها القطب الهمام تعلقت ... مجامع قلبي[٢] بالسعيد المنور
شغفت بحبه لأنه مذ بدا ... يقوم بأوراد ويسعى باجدر[٣]
فقد دنفت نفسي بأوصاف ما به ... تحل أمامنا من كل مصور
من الذي أبدع الإله في رسمه ... من أحسن زينة وأحلى تذكر
فطبعه قد أسبى[٤] من الناس أفكارا ... ولفظه قد أعمى بصائر بالسحر
ولكنه سحر من الحق قد أتى ... ليجذب أقواما تأيدوا[٥] بالنصر
على عدو لسنا نراه تحققا ... وإنما يختفي ليقطع بالفكر[٦]
فصده قد بدا عن كل كريمة[٧] ... ولعنته حق من الله للغدر
فمكره بَيِّنٌ لكل من الملا ... وغايته العصيان منهم إلى الكفر
ونفسنا قد جرت علينا بوصفها ... وأخذت أنوارا لبعدها عن ذكر
فصحصحت في نجوى الضلال[٨] نايئة ... عن الحق والتحقيق بل هي بالنكر
فاودعت سموما فليس لنا تخفى[٩] ... فقد مزجت بكل حلو مع الضر
وفي كل رتبة تلوح بفكرها ... وأنها تثبط العباد عن الظفر

(١) تنبيه يوجد في هذه القصيدة خلل كثير تعذر إصلاحه.
(٢) في نسخة نحو الجسم.
(٣) في نسخة بأسطر.
(٤) في نسخة أبلى.
(٥) في أربع نسخ تؤيد.
(٦) في نسخة وإنما يخفى ليقطع بالكفر.
(٧) كذا في أربع نسخ وفي نسخة فقد بدا قصده عن كل كريهة.
(٨) في نسخة فأصبحت في بحر الظلام.
(٩) في نسخة فليس منا تخفى.

فكيدها قوي وليس له دواء … إلا عصمة من الله لي بالنصر
ودنياك عدو لترمي بحبلها[١] … بسجن من الهوى وقيد من الكبر
فكل خطيئة بحبها يا فتى … وأنها تضليل وصد عن البر
وأنها لعنة من الحق بالقلا … فمن حيث أنها تصد عن الشكر
فيشكر ذو نعمى بخدمة ربها … وصرف من أجلها ليلحق بالظفر
وإلا فكفران من المولى ظاهر … وليس لها قيد يحدها بالجبر
وأكبر أعداء من الناس يا هذا … عداوة حساد مليمة بالضر
فإنه لن يرضى[٢] من الله بشيء … سوا نعمة تزول بالكشط بالظفر
عداوة إنسان تصد عن الهدى … وليس لها دوا إلا الطب بالصبر
فهذه أعداء لإنسان قد رمي … بسهم من النوى وقطع عن الذكر
فصرت أسيرا للشقاوة والهوى … فمنعت أثوابا من التقى بالضجر
ولست أمورا من العلى بالدعوى[٣] … وزعم ليس له من الحق ما يبري
ولا شك أنه من الداء معضل … ويمنع أذواقا من الله للسر[٤]
ويحجب أرواحا عن كل رائقة … ويسري إلى العمى عن الحق في السير[٥]
فليس له فتح ما دام بزعمه … وليس له نور ما دام بذا السكر
ولا أنت تعتبر حلاوة كلمة … فإنها عند الله أدهى من الصبر
فمدح كذبا من الله لا يرى … في دهره أحوالا تحق من النور

---

(١) في نسخة بحبها.
(٢) في نسخة لم يرض.
(٣) في نسخة لبست من العلى أمورا فيها دعوى.
(٤) في نسخة بالسر.
(٥) في نسخة اليسر.

وإن كان واقعا بمكر نزل به وحسبه[١] من أفك وعلة في الصدر
ومكر به أجل[٢] ووصمة بالهوى فأقوى في قطعه من القطع للظهر
فدعوة كاذب[٣] تسد لأبواب من الفتح من الله وقته بالعسر
فأوقاته مقت وقطع لوصله ونوره ظلمة وصفوه بالكدر
ووصفه عجب وسمعة وريا[٤] وكبر وبغض ثم حقد مع المكر
وبخل وجبن ثم أقباح خلق وسوء بظن في العموم من الغير
وشك في رزقه وما به قد قضى من السعد والشقا وقدر من العمر
وضدها آمال وطول في حضه يعلل بسوف طول عمر من الدهر[٥]
فطبه تفويض لما به قد قضى وحقه تسليم لربه بالقدر
سعادة لامرئ وضدها يا أخي[٦] عند اختتام الأعمال بالموت بالقهر
وكلها علل وأسقام للفتى وقاتلها سم وأسرع من سقر
وكلها آفة ونقمة أبدا تنافي رضى المولى وتوذيك في القبر
وزد لها أمراضا من الدنيا[٧] تعتبر أمورا وعلة مع[٨] الذل والفقر
وهتك لأعراض من الناس مع أذى لنفس ومال فهو أبلغ للضر
ونقض لحق يستحقه ذو العلا بعلم وقدر لا يعاين بالنكر

---

(١) في ثلاث نسخ وحقه.
(٢) في نسخة ومكر نزل به.
(٣) في ثلاث نسخ كاذبة.
(٤) في نسخة ووصفه فيه رياء وسمعة.
(٥) في نسخة يعلل بسوف وصول من الدهر.
(٦) في نسخة سعادة المرء ضدها يا أخي أتى.
(٧) في نسخة أمورا صعابا سكن.
(٨) في نسخة وزد لها أمر طالب دنيا.

وموته أحلى من حياته في الورى | لرافع مثله يعامل للخير[1]
وعامله رفع وليس بخافض | فجره عصره بلا عامل الجر
فحزنه دائم وعلته بدت | فصبر جميل حتى يرفع بالنصر
فعلة كسره بلا سبب ترى | وتكن لالتقاء الساكنين بالضر[2]
فهذه ثلمة وليس يسدها | إلا عالم قد فاز في الكون بالظفر
فإنه ترياق لكل من البلا | وطبه نبوي فيبري من الضر[3]
فلا غرو أن نزلت ثم برحبه | يكون لك طبا لأمراض في السر[4]
ويمنحكم عزا في ذلك بالهوان[5] | ويبدلكم يسرا في أزمنة العسر
ويغني أقواما بفتح من المولى | ويكسي عريانا بأجل من ستر[6]
ويظهر خاملا بأعظم سطوة | ويجبر مكسورا في وقت من الدهر
ويرفع مخفوضا ويروي من السما | وأمواج نفعه أجل من البحر[7]
فأنوار بحره تحق بأهلها | وأسرار علمه تعد من النهر
فأنواره تبدو في كل من الفنون | وأضواء شمسه تعالت عن البدر[8]

---

(١) في نسختين يعامل البحر.

(٢) هذا البيت ساقط من بعض النسخ.

(٣) في نسخة وطبه نبي يبدي سقيا من الضر.

(٤) في نسخة

فأيقن أن نزلت تمس برحبه | يكون طب الأمراض في السر والجهر

(٥) في نسخة ويمنحك عزا في ذلكم الهوان.

(٦) في نسخة ويكسي العريان ثوب أجل من ستر.

(٧) في نسخة بأمواج نفع هي أجل من البحر.

(٨) في نسختين الحر.

فهو أبو السراج في سماء العلا / وليس معه نجم يلوح إلى قطر [١]

فإنه ضيغم لكل من العدا / فمن رآه [٢] حقا فيخضع بالصدر

تمين بعلمه وليس بعارض / يعارض أصله وفرعه بالنكر

وقد أطبق كل بصحة نقله / فليس له نقض لما صح من خبر

فوده قد بدا يعظم في الورى / بوده [٣] سيد مع اسمه في الذكر

فإنه بقدر يبين في الملا [٤] / وليست عبارة توفي بذي الفخر

فكل طنين المدح أعلى وأكملن / في علم عالم الكمال في السر والجهر [٥]

فإنه نبراس من الله في الورى / ويزداد شوقنا لعلمه بالذكر

ومذ رمى [٦] وصله إلى الهدى طائعا / فهو دليل ليس ينقض بالغير

وكم من ضعيف قد أذاق بحبه / وقلبه عرش للتجلي من السر

فكل من انتمى إليه فيرتقى / ويسعى لحضرة مؤيدا بالنور

فيشهد أمور تغيب عن الفتى / في أيام غفلة وذلك بالفقر

ويشرب من عين اليقين بعلمه / وسطوة حبه مع الجد بالفكر

فيسكر من ذوق الحقيقة معلنا / ويفهم أسرارا في حاله بالسكر

ويدعى بين الورى عزيزا مكرما / بالحاظ شيخنا المعظم في القدر

---

(١) في ثلاث نسخ يلوح بأنوار.

(٢) في نسخة يراه.

(٣) في نسخة

فمن حين قد بدا يعظم في الورى / يقارن

(٤) في نسختين ففي الملاء بين نجم بقدره.

(٥) في علم للكل في السر والجهر.

(٦) في نسخة رمت.

ويجلي أنوار من العلم في العلا ويحظي بأسرار تعز عن النشر
فيسري بروحه إلى سماء السنا فما ينطق إذاً[1] عن الهوى بالضر
فليس لنا سعد إلا الليث في الورى وليس بنا جاه إلا سيد النصر
وقد شنف سمعي لذكره في الملا وأضناني حبه في جسمي مع الصدر
وحركني ذكر الأغاني لحضرة يجول فيها المسكين من غير ما زجر
ورؤية علمه تذوق أرواحنا وتذكر بالعهد القديم من الظفر[2]
وذلك في يوم الست بربكم ولم تنكر أبدا لعقدها المنتشر
فانه إنسان من الجسم في الهوى فلا حجب تبدو من القفص بالسر
فانه استار من الجسم مع هوى وان هوان المرء من ذلك بالستر
إلا أيها الإنسان فاسأل بجاهه وبالذي قد علاه في كل مضمر
وعزه في الورى بكل ما قد ترى وعظمه المولى بكل مسير[3]
وقد أسمع صم القلوب بذكره وأبصر أعينا بحكم المنور
وأنطق أفواها بذكر حبيبنا فما هو في السنا بأحسن مفخر[4]
وحرك أرجلا لازخر روضة[5] وفيهن أعظم الخليفة في القدر
على أنه حي يحتج بالرؤيا[6] ويطعم بطعم الجنان مع الفكر
وكل موجه لقبره يا فتى يراه بعينه عيانا بلا خدر[7]

---

(١) في نسخة أيضا.
(٢) في نسختين الظهر.
(٣) في ثلاث نسخ ماسر.
(٤) في نسخة من فخر.
(٥) في نسخة ومركز إجلالا لا فخر روضة.
(٦) في نسخة بالنظر.
(٧) في نسخة بلا خزر.

فحق لنا بالشكر من حيث أننا ... وفقنا بروضة الخليل بذا البحر[1]
وفضله في الورى يعمنا كلنا ... ويحيي أموات القلوب من الذكر
طريقته تعلو على كل رتبة ... وأنوار سره تعد من الجهر
وها أنا عبدكم قريع لبابكم ... ليحظى بعزكم ويصحو من السكر
وقد اسكرتني المعاصي من الشقا ... وخلفني ذنبي عن الفوز بالظفر
وأني ذو لؤم سفيه بين الورى ... وأني محجوب في صرف من العمر
عساكم ترحموا عبيدكم قد أسا ... تحوله[2] منكم لضعفه كالسفر
وأني خديكمم بما عله يكن[3] ... يحرككم للجبر منا من الكسر
ولحظكم عز ومنحكم رفعة ... وجودكم جمع فيغني من الفقر
ولست أعني به إلا الذي قد علا ... وهو الذي يدعى بالزروق في النثر
وقد سألت رضى الكريم بجاهه ... وتوفيقي للهدى وحظا من النصر
وسترا من المولى مع الجد في العمل ... ورزقنا موسعا مقارنا بالستر
وسعدا من المولى في كل مهمة ... ومغفرة لنا مع البرء في الصدر
وخاتمة حسنى وأزكى عافية ... ولطفا جميلا في اخترام وفي القبر
وكونه في الدنيا يناسب حالنا ... ويرفع قدرنا عن كل محذر[4]
وهب لنا ربنا بعلم مع التقى ... لكل نجل لنا وطالب مضطر
ويا ربنا احفظنا من كل بلية ... من الدين والدنيا وخلق من الشر[5]

---

(١) في نسخة الخليل بذا الخبر.
(٢) في نسخة تحوله.
(٣) في نسخة بما عنه يكتنى.
(٤) في نسخة محظر.
(٥) في نسختين خلو.

ويا ربنا سلم وصل على الذي برحمته أهدى الخليقة بالأمر
وصل على آل وصحبه أجمعا[١] في مدة مرور الجديدين في الدهر

أقول مدحت الشيخ زروق بهذه القصيدة ولعل الله أن يكسوني بكسوة المعارف وأن يحليني بما حلى به أولياءه المقربين ويذيقني ذوق العارفين بالله تعالى وأن تكون لنا حجابا وبراءة من نار الافتراق ونار الاحتراق وان يورثنا بها سعادة الدارين ولكل من تعلق بنا مع النظر إلى وجه الكريم آمين يا رب العالمين.

لطيفة فائدة استقرار الشيخ في هذه البلدة وهي بلدة مسراتة إذ هي ليست من الأمصار ومع ذلك أن الأكابر يختارون سكنى الأمصار للتذكر والاعتبار قلت وفي المدن من الخيرات الدنيوية والأخروية ما لا يحصى فإنها محل العلم وأهله وأنها أيضا مواطن الزيارة لما فيها من قبور الصالحين والمؤلفين لا سيما أفريقية ومصر وبغداد ودمشق والبصرة والكوفة وغيرها من مدن المشرق وكذا مراكش في المغرب وفاس وأرض الجدار تسلمان لأن فيها أبا مدين الغوث والشيخ السنوسي والإمام ابن زكري والإمام ابن مرزوق والعقبانيين وغيرهم وكذا بجاية لأنها من أعظم المدن وفيها أبو زكرياء يحيى الزواوي والشيخ عبد الحق الأشبيلي صاحب العاقبة وأبو حامد الصغير صاحب التذكرة وهو أبو علي المسيلي والشيخ عبد الحق بن أبي ربيعة والشيخ الوغليسي والشيخ الصباغ والشيخ الفملي[٢] وغيرهم وهؤلاء كلهم مؤلفون إلا القليل وإن الدعاء مقبول عندهم وقد زرنا جميعهم والحمد لله.

وبجاية كانت من المدن المعتبرة وإن الإسكندرية كانت من عمالتها وكذا المغرب وان عساكرها قد أحرقوا باب فاس وإلى الآن يسمى باب المحروق وقد أفردها

---

(١) في نسخة وعلى آله وصحبه كلهم أجمعا وفي أخرى كذا الآل والأصحاب طرا باجمع.
(٢) في نسخة العلمي.

بعض بالتأليف ومن أراد العجب العجاب فليطالع نبذة المحتاجة في ملوك صنهاجة.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فلما استقررنا بوطن مسراتة وأقمنا فيه يومين انتظارا لبعض الحجاج من الأشراف أعني صهر أخينا في الله سيدي محمد الشريف النوفلي المذكور البلغيثي والحاج أحمد السعداوي وأن أهل مسراتة أقبلوا علينا بالزيارة والكبير والصغير لقوة اعتقادهم فينا أصلح الله حال الجميع وزرق لهم الخصب والرخاء بمنة العليم السميع وقد كثر فيهم محب الخير ومن فيه سيمة الصلاح ومن كل صنف منهم من الطلبة والفقراء والعامة وأولاد الأتراك.

حاصله بلدة طيبة ورب غفور وقد ظهر عليهم جاه الشيخ زروق إذا عنايته ظاهرة على من زاره وعبر عنه فضلا عن جيرانه وقد شهدنا بركته معنا وانه من الذين يتصرفون بالخير لدينا وما مررنا عليه إلى الحج وأصابنا شيء إلا فرج في الحين وق وقعت في أيدي الحرامية أي المحاربين من العرب وتمكنوا من هلاكي فنجاني الله منهم بجاهه وجاه أمثاله إذ محبتي فيه قوية ومددي منه عظيم وقد وجدته من نفسي وقد قلت في بعض الأسفار فيه.

فيا لها من بشرة تفوق   لكوننا استودعنا الزروق

ومن العلامات الظاهرة والكرامات الباهرة أن أهل وطنه أقبلوا علينا وظهرت محبتهم لدينا وأنهم أكرمونا غاية الإكرام بالأرزاق الحسية والمعنوية والمعتبر الثاني قل بفضل الله برحمته فبذلك فليفرحوا وهو خير لهم مما يجمعون هذا وأن أرض الشيخ منورة به يشهد ذلك من له ذوق سليم وطبع مستقيم.

ثم ظعنا منه أواخر شعبان عام التاريخ وهو عام تسعة وسبعين ومائة وألف

(١١٧٩)[1] وودعنا من فيها من الأحباب من صلاة الصبح إلى قرب الضحى فمنهم من رجع بالتوديع ومنهم من سار معنا مدة لغلبة سلطان المحبة في قلبه وهذا كله بعد أن ودع أصحابنا قضوا حوائجهم التي اشتغلوا عليها وكذا الإجمال الضعيفة عند أحبابنا في الله تعالى من مسراتة وأن أهل الركب أيضا رفعوا الماء من سيدي أحمد زروق إلى معطن الزعفران خمسة أيام ولا ماء في هذه المدة إلا ما لا يصلح للشراب لمرارته وملوحته.

ثم مررنا صبيحة ذلك اليوم بالشيخ الولي أبي شعيفة[2] في جماعة من الفضلاء وشيخ الركب وصلينا الضحى عنده وقبره على شاطئ البحر وقد ذكر شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر أنه اجتمع مع الأفاضل في وطن الشيخ زروق ونساهم.

تتمة وقد ذكر شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر أيضا ما نصه خذوا ماء خمسة أيام إلى مورد الزعفران إذ ليس بينكم وبينه من الماء إلا ماء العريعر على نصف ميل وق ما يمر به الركب وبالقرب منه ماء يسمى بالسميرة وهو قليل آجن وبعده بيوم ونصف ماء المائشة وهو أقبح ماء لا يشربه إلا من اضطر إليه وبعه بيوم بئر حسّان وقل أن يوجد فيها ماء ومن هنا يستقبل الحاج مسافة برقة العريضة الطول والعرض ولا ترى العمارة من قصر أحمد إلى الإسكندرية إلا أن يلقى الناس أحياء من العرب إلى أن قال وبإزاء روضة أبي شعيفة المذكور مزارة في مغارة بساحل البحر يتعبد بها الصالحون لا يكاد يطلع عليها أحد إلا من عرفها لأنها صغيرة مستقبلة البحر يغلب على الجالس بها الحضور إذ لا يرى إلا البحر ولا يسمع إلا تسبيحه وتحميده لربه وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم لغفلتكم عنه ومن امتزج

---

(١) في نسخة عام ١١٩٩.

(٢) في نسخة شقيفة.

تعظيم الحق وتسبيحه بلحمه ودمه وأنس بذلك سمع تسبيح كل شيء أما بحالة أو بمقالة وفي الفتوحات المكية للإمام الأكبر والعقلاء من الأنس أصحاب الأفكار من أهل النظر والأدلة المقصورة على الحواس والضرورات والبديهيات يقولون لا بد أن يكون المكلف عاقلا بحيث يفهم ما يخاطب به وقد صدقوا وكذلك الأمر عندنا العالم كله عاقل حي ناطق من جهة الكشف بخرق العادة التي هم الناس عليها أعني حصول العلم بهذا عندنا غير أنهم قالوا هذا جاد لا يعقل ووقفوا عند ما أعطاهم بصرهم والأمر عندنا بخلاف ذلك فإذا جاء عن نبي أن حجرا كلمه وكتف شاة وجذع نخلة وبهيمة يقولون خلق الله فيه الحياة والعلم في ذلك الوقت والأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة في جميع العالم وان كل من يسمع المؤذن من ورطب ويابس يشهد له ولا يشهد إلا من علم هذا عن كشف عندنا لا عن استنباط من فكر بما يقتضيه من ظاهر خبر ولا غير ذلك ومن أراد أن يقف عليه فليلزم طريقة الرجال وليلزم الخلوة والذكر فإن الله سيطلعه على ذلك كله عينا فيعلم أن الناس في عماية عن إدراك هذه الحقائق انتهى كلامه.

قال الشعراني في لواقح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المكية بعد ما تقدم وقد وقع لي ذلك سنة تسع[1] وعشرين وتسعمائة فسمعت تسبيح الجمادات والحيوانات كلها في سائر أقطار الأرض وذلك في صلاة المغرب واستمر ذلك إلى آخر الليل حتى خفت على عقلي وسألت الله الحجاب عن سماع ذلك فحجبه عني رحمة بي وأبقى علي علم ذلك وكان من جملة ما سمعت من تسبيح الحيوانات في البحر المحيط سبحان الله خالق الأرزاق والأقوات والنبتات والحيوانات انتهى كلامه.

---

(١) في الرحلة الناصرية سبع.

قال الشيخ أبو سالم وق أخبرني سيدي أبو تركية مفتتح هذه المغارة رجل من العباد اسمه سيدي فرج وهو الآن بالجزائر وكانت قبل ذلك مغلقة لا علم لأحد بها انتهى.

قلت إلى أن قال وإنما زرنا أبا شعيفة على تل مرتفع على ساحل البحر ثم استقبلنا المغارة وتوسلنا إلى الله تعالى بمن يأوي إليها من العباد والزهاد واعتمدنا على تلك الأقطاب والأبدال انتهى.

قلت ولما زرنا أبا شعيفة ومن معه رأينا سفينة مرساة بالبحر ذهب محبنا في الله سيدي محمد بن قسوم من أصحاب المخزن غرير أنه يحب الخير وأهله وكان محبنا وينتسب إلينا وهو رجل ذار متمسك بأهل السنة[1] وقد حج بعياله وأولاده جميعا ذهب إلى تلك السفينة فلما رجع إلينا ولحق بنا في الطريق طفق يخبرنا على ما شاهده من أمر المغارة إذ تعجب من أمرها وما شاهد من تجليات الحق فيها كأنه أصابته هيبة وجلال حين رآها كاد أن لا يملك نفسه ونحن لا نعرفها ولذا استخففنا بأمرها وإلا لبحثنا عنها[2] عند الرجوع نعم من عادتي إذا دخلت وطنا أو زرت مقبرة أو صالحا نويت من كان في ذلك الوطن من الصالحين وأهل الخير جميعا سواء كان حيا أو ميتا ظاهرا أو خفيا ذكرا أو أنثى من أول عمارة ذلك المحل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وقد كان سيدي أحمد بن ناصر حين رجع مع أصحابه ذهبوا إلى تلك المغارة فلم يجدوها لعدم من يخبرهم بها ومن أهل البلد فيزوروها والشيخ من بعد هذا وأنا ركبنا من الشيخ أبي شعيفة وذهبنا على ساحل البحر مع فضلاء الركب والحمد لله

---

(١) في نسخة النسبة.

(٢) في نسخة بإسقاط ولبحثنا عنها.

من حين خرجنا من بلدنا إلا وصلاة الجماعة لم تفتنا في كل الأوقات ليلا ونهارا تقبل الله من جميعنا ذلك بمنه وكرمه آمين.

ونزلنا أبا كدية قبالة تورغا وهي بلدة عظيمة كثيرة النخل جدا وتمره أحسن من تمرها وطن طرابلس كلها وفي هذا الموضع ماء قبيح لا يشرب وأن أبا كدية هذا معلوم خبث مائه[(١)] وتورغا هذه بلدة عظيمة كثيرة النخل.

قال سيدي أحمد بن ناصر ما نصه تورغا وهي بلدة منقطعة أول برقة وفيها نخيل كثير وتمرها أطيب من تمر غيرها من بلاد الساحل وأجود منه وإن كان على وصفه من عدم ادخاره إلا بإزالة النوى وطيبه والله اعلم لبعده شيئا ما عن البحر ورطوبته ودخوله قليلا إلى الصحراء حيث تكاد اليبوسة تستولي على أبدان الحيوانات فضلا عن النبات قاله الشيخ أبو سالم في رحلته.

وماء هذه البلدة غزير في وسط السبخة وهم ساكنون في الأخصاص ولا يبنون بالطين إلا مواضع الخزين يبنونها بالطين والأحجار يحفرون عليها فيستخرجونها بنحت الأرض وهي أحجار سود وبناؤهم لا يكاد ينهدم وهي واسعة جدا لا يقدر الإنسان أن يحيط بها في يوم واحد وعينهم غزيرة تسع ألف ساقية فيما ذكروا. ولا يحرثون حرثا ولا يغرسون غرسا إلا النخل فقط وخراجهم للأتراك كل عام ثلاثمائة وصيف وخمسة آلاف ريال وهذا العدد الأخير أحدثوه ولم يكن قبل عليهم وهي إلى الخراب أقرب للعداوة المغراة بينهم لا تخلو من فتنة وقت الخريف مع تداول الأتراك والأعراب عليهم انتهى إلى أن قال قال سيدي العياشي وهي سبخة مستطيلة وعلى جوانبها بناء وقصور خالية وفيها نخل متفرق وكأنه رءوس الشياطين لا ترى

---

(١) في نسخة لا يشرب معلوم خبثه.

أوحش منه ولا أثقل طلعة على الحاج في ذهابه لا سيما المعاود لما يستشعر بعده من المهامه والمفاوز والمعاطش التي يحار فيها الدليل كما لا آنس منه ولا أبهى منه في منظر الآئب أي الراجع من الحج لدلالته على انقضاء المفازة وقرب العمارة ونخيله آخر نخيل يراه الذاهب وأول ما يراه الحاج قال وبآخر الهائشة واد من الملح يجري الماء على أرض من الملح فلا الماء يجمد ملحا ولا الملح يذوب ماء وأظن ذلك لقوة ملوحة الماء ونداوة الملح[1] انتهى كلامه.

أقول وظعنا من أبي كدية ومررنا على العوينات وماؤها كثير ومع كثرته متفرق غير أن فيه ملوحة إذ لا تستطيع الدواب شربه إلا واحدا أو أثنين من أطرافها من جهة تورغا فماؤه طيب إذ أهل البلد أخبرونا به وأيضا سيدي محمد الشريف صاحبنا يرصده فسقينا منه الدواب وكذا رفع منه من خصه الماء للزاد وما أحسسنا بحر الشمس إلا في هذه السبخة المذكورة إذ سافرنا بها زمان الشتاء وان الإبل أيضا قد بقي منها كثير لأنها عطبت من حمل الأثقال العظيمة من مدينة بسكرة إلى طرابلس وإنما خفف الكرب من الأحمال ببعثها في السفينة إلى الإسكندرية ثم إلى مصر غير أنها أضناها ذلك الثقل أيضا وأنها جاعت أيضا في إقامة الركب في طرابلس لقلة عيشها وبعد ذلك وبعد تلك المرحلة والمرحلتين بقي جمل للأخ في الله الفاضل الفقيه سيدي محمد نجل الفقيه الشيخ سيدي أحمد بن المبارك وتركه في الطريق إلى المبيت فلما أخبرني بذلك أخبرت سيدي محمد الشريف فبعثنا إليه رجلا بدويا من عرب ذلك الوطن أعطيناه له بالنصف فلما رجعنا استخبرنا عنه قالوا أتى به وأعطاه إلى بعض أحبابنا من مسراتة ثم إن المكرم محب الصالحين آغة أعطى ناقة للفاضل الفقيه أخيه سيدي عبد الكريم لوجوهنا رغبة في دعاء الخير منا وهو يتولى ذلك الجهل

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلتين العياشية والناصرية المحل وهو أصوب.

وفقه الله وستره وجعل البركة في أولاده بفضله ورحمته.

وبعد السبخة بئر حسّان أقول فيه ما قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر بئر حسان بئر[١] منقور في حجر تجتمع فيه مياه المطر فإذا فرغ المجتمع فيه بقي محله يرشح بماء قليل يجم في قعره يبل به الظمآن فمه وبإزاء هذا الماجل قرى خالية لم يبق إلا رسومها تسمى فيها مضى قرى حسان إضافة إلى بانيها وكان عاملا لبني أمية لما نقض أهل أفريقية العهد في آخر خلافة بني مروان بنى هنالك قصورا وأقام فيها نحوا من ثلاثين سنين حتى افتتحها بعد ذلك حسبما ذكر من أرخ فتوح أفريقية وسمي المكان باسمه إلى الآن وقد تقدمت أشارة إلى شيء من ذلك أقول وبإزاء هذه الطريق بئر مطراو[٢] وقد اسقينا خيلنا منه في الرجعة أنا وسيدي محمد الشريف وصهره الشريف من مسراتة وسيدي أحمد بن حمود وغيرهم وماؤه طيب غير انه واحد ومع وحدته لا يكفي الركب وليس لقلة مائه وإنما هو لكثرة الازدحام والتشاجر.

وبعد ذلك نزلنا الزعفران فوجدنا فيه الخصب العظيم ما رأيناه قط وأنوار النبات تغشي الناظر فلما نزلنا به ورأينا ذلك اطمأنت قلوب الحجاج لأن رؤية الخضرة والبحر والوجه الحسن تزيل الهم والغم والأحزان وماؤه أطيب المياه وأحسنها وهو أبيض كاللبن لكونه في رمل صاف ما علمت ماء في برقة كهو في جملة أبارها.

وظعنا منه فلما وصلنا وقت الضحى مررنا على معطن الأحمر ووجدنا فيه عربا كثيرا وهم عرب عبد الهادي وسيف النصر وهم عرفاؤهم وشيوخهم وهما قد

---

(١) في الرحلة الناصرية ماجل.

(٢) في نسختين مطراق.

اصطلحا بعد العداوة البينة وطلبوا منها النزول للتسوق فامتنع[١] الحجاج استعجالا وفي ذلك الموضع تلاقينا مع الركب الفاسي والفيلالي مغربين ووقفنا مع أميرها ساعة زمانية استخبارا عن مصر وأرض الحجاز وأنهم طلبوا منا النزول والمبيت جميعا لقضاء كل ما أراد غير أن ركبنا لما رأى العرب نازلين هابوا منهم وجدوا في السير حتى فاتوا ولم يمكنا النزول فلما مكثنا معهم حينا افترق الكل على أسعد حال وأتمه وبقي سيدي محمد الشريف وأصحابه يطلب شراء الإبل إذ جماله ضعيفة فتأخر من غير علم منا ثم بعد قضاء حاجته جاء وراءنا ولم يلحق بنا إلا بعد النزول.

هذا وإن شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر قال وفي قرب الزعفران رأينا سانية غزيرة الماء إلا أن ماءها ليس بذلك فسقى الناس إبلهم ودوابهم وملئوا أسقيتهم وهي أول عمالة سرت واكتفى الناس بما ملئوا منها عن ماء الزعفران لضيق الوقت وحيدودته عن الطريق لناحية البحر وهي أحساء في ساحل البحر ماؤها طيب وعليها كثبان من رمل أحمر تظهر من بعيد من وراء الكثبان من ناحية البر قصور سرت تخزن فيها الأعراب ميرتها أي أرزاقها وهي الآن خالية لا عمارة بها.

وبلاد سرت هذه من أخصب البلاد وأمراها أي أكثر أرزاقها ذات مزارع كثيرة بالبعل أي بلا سقي وإنما تسقى بالمطر وعربها أهل رفاهية إلا أن الجور أجلاهم من بلادهم وشتت شملهم ولا يكاد أمرهم ينتظم ولهم جدار وعقار كثيرة بساحل أحمد ثم قصير الذبان بعد المغرب انتهى.

ثم ظعنا ونزلنا النعيم وماؤها حلو طيب أحلى ما يذاق وأرضه طيبة غير أن الظلم أخلى هذه المواطن لقوله صلى الله عليه وسلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه

(١) في نسخة في أمتعة.

كالظلم ولقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ الآية.

وبعد النعيم مفازة عظيمة يعسر أمرها على الحجاج لا سيما زمان الحرف إن الشُّوب قل من يسلم منه الناس إذ مقطع الكبريت صراط الدنيا لقلة مائة مرارته على تقدير وجوده والماشي فيها يستوحش من تغير لون السماء أكثر من أغبرار الأرض ومع هذا فهو أخفض[1] المفازات وأبعدها من تغير الهواء وإنما ينجو منها الإنسان بفضل الله وكثرة التزود من ماء النعيم إلى معطن المنعم نعم سر الله مع وفده وإلا فبضاعة الإنسان لا تستطيع المفاوز والمعاطب[2] والله يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ ولولا فضل الله ما سلم في مثلها أحد من المارين بها فإن الماشي بها كان الشمس نازلة إليه ومتوجهة لديه فلا يكاد الإنسان يعبر عما أدركه من ذلك ولا يعرف مقدار ما يصيبه إلا من ذاق من ذلك وشاركه في ذلك السبب الخاص.

ولذا قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه وتسمى هذه المسافة مقطع الكبريت تغليبا وإلا فالمسمى بذلك موضع واحد في هذه المسافة مياه كثيرة إلا أنها تقل في بعض الأحيان وبعضه أجاج فيحتاط الناس بأخذ الماء الطيب وهي مفازة قبيحة تهب فيها السموم إلى أن قال ونزلنا غربي اليهودية ثم قال قال أبو سالم في رحلته وفي الرسالة القشيرية عن بعض الفقراء انه قال دخلت مدينة اليهودية بأرض المغرب وساق الحكاية إلى آخرها ولعل تلك المدينة هي هذه إذ لا نعلم بأرض المغرب مدينة تسمى اليهودية والله اعلم بحقيقة ذلك قلت وأني قد وقفت ببعض

---

(١) في نسخة أحفظ.

(٢) في نسخة العاصف.

مواضع قرب تونس قبر الشيخ البركة الولي الصالح والبدر الواضح سيدي حسن السجومي نفعنا الله به وأفاض علينا من بركاته من أصحاب القطب الرباني والغوث الصمداني أبي الحسن الشاذلي من الأربعين يسمى اليهودية حسبما اشتهر ذلك في أول الزمان إلى الآن ويحتمل ما ذكر في الرسالة هذين الموضعين إذ كلاهما من أفريقية غير أن سيدي أحمد بن ناصر لا يعلم هذا الموضع. ثم قال وماؤها لا فرق بينه وبين ماء البحر ثم قال الشيخ بن ناصر قلت وبرقة مسافة شهرين من الإسكندرية إلى أفريقية وكانت متصلة العمارة لا تكاد تسير فيها بريدا ليس فيه أثر بناء ورسوم عمارة داثرة وقد جاء الإسلام وغالبا عامر ثم لم تزل عمارتها تضعف من موج الرعية وظلم بعضهم بعضا إلى أن خرج عرب هلال من مصر أواخر الرابعة وأوائل الخامسة فخربوا البلاد واستولوا على القرى فأفسدوها وخلت البلاد من يومئذ والبقاء لله الواحد القهار وبعد اليهودية الكحيلة وماؤها ذو حماة لا يكاد يشرب وفي قربها الحدادية وهي بئر مستطيلة وماؤها ذو حماة أيضا وهذه السواني كلها باقية إلى الآن وقد سقينا دوابنا من الجميع حال رجوعنا وأما الطلعة فقد كثر ماء السماء فاستغنينا به عن جميع الآبار إذ هذه المياه لا تصلح إلا للمضطر إذ ماؤها مر ومع ذلك فيه بعض الملوحة لكن يختلف ذوقه وقد يتقوى ذلك بحسب كثرة الأمطار وقلتها.

ثم بعد ذلك مررنا على سبخة مقطع الكبريت وفي أعلاها معدن الكبريت في آبار كثيرة يحمل منها الطين ومن هناك يحمل إلى طرابلس وكذلك إلى مصر والإسكندرية ويذهب منها مع الركب إلى مصر في كل سنة أحمال كثيرة غير أن الذي يريده يتقدم الركب إلى أن يقضي حاجته فيلحق الركب في الذهاب والإياب لما في الكبريت من منافع الإبل.

وبعد ذلك نزلنا المنعم وهي أحساء بساحل البحر ماؤها طيب عليها كثبان من

الرمل ينزل الناس وراءها فيمرون إلى الماء من بينها وقل ما يخلو من عمارة الأعراب وسقينا واستقينا وظعنا منه صبيحة.

ومررنا على السبخة والسَبْخة صعبة جدا كثيرة الوحل وفيها غور في بعض المواضع ولا ينجو منه إلا من يعرفها أو يقدم خبيرا يعرف المسالك لأن طريقها أقرب وإلا فليترك سبيلها وليذهب حذوها يمينا عنها حال الطلوع وبينها وبين البحر جبال من الرمل تصعب على الإبل طلوعا وهبوطا يعلم ذلك بالعيان وقد تشتت حال الركب فيها.

ثم سرنا يومين ونزلنا معطن اجدابية عند الزوال وسقى الناس واستقوا وملئوا أسقيتهم مارين مستعجلين إلى سلوك ووقفنا على مسجد بها يزعم الناس أن الإمام سحنون درس فيه ثلاث سنين ومن المنعم فارقنا البحر فلا تراه إلا عند التميمي.

أقول قال الشيخ العياشي وهذه اجدابية آثار عمارة كثيرة وآبار عظيمة منقورة في الحجر وبنيان هائل بالحجر المنحوت وهناك رسم مسجد قديم تهدم ووجدنا في بعض حجاراته تاريخ بنيانه منقوش سنة ثلاثمائة قال وهذه المدينة هي مدينة برقة المذكورة في كتب الفقه وقيل أنها مدينة بالجبل الأخضر في الجانب البحري.

وقد أخبرني صاحبنا سيدي عبد الله بن غلبون أنه رآها وأن رسومها تدل على عمارة قوية وبها آثار سور وأبراج ورخام كثير وقال أن بها قبرا مشهورا يزار ويزعم أعراب البلد انه قبر نبي فقلت له الغالب انه قبر صحابي فقد نص المؤرخون على أن رويفع بن ثابت بن السكن الأنصاري الصحابي قد توفي ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد وقتل ببرقة أيضا من الصحابة زهير بن قيس البلوي ندبه عبد العزيز بن مروان إلى برقة فلقي الروم فقاتل حتى قتل وما ذاك إلا قبر أحدهما فان

كثيرا من العوام يطلقون باسم النبي على الصحابي وقد شاهدنا كثيرا منهم يعتقدون في أبي بكر وعمر وعلي أنهم أنبياء ويظنون أن أسم النبي والصحابي مترادفان فلما أخبرته ب ذلك فرح وقال لي ليس الأمر إلا كما ذكرت.

قال ولما رجعنا من الحجاز سنة أربع وسبعين لقيته بمسراتة وقال لي ذهبت بعدك إلى المكان المذكور وتأملت القبر وعليه كتابة وأمارات ربما تدل على صحة ما ذكرت قال لي وذكرت كلامك لبعض الأمراء في درنة ففرح بذلك وأمر بالبناء على القبر والتنويه به والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ونية المؤمن ابلغ من عمله فان صح أن هذا القبر قبر الصحابي المذكور بتلك المدينة هي برقة المشهورة لا أجدابية والأمر في ذلك قريب فان بين المدينتين نحوا من خمسة أيام فكلاهما يصح أن يقال بينها وبين كل من مصر وأفريقية شهر إذ بذلك يعرفها الفقهاء إلا أن التي بالجبل أقرب إلى مسمى المدينة لما بإزائها من المياه والأماكن المخصبة والمزارع الكثيرة الغياض الملتفة من أنواع الأشجار بخلاف اجدابية فإنها في صحراء من الأرض مقفرة والله اعلم بغيبه ومسمى برقة على التعيين عند عرب البلد اليوم هي مسيرة ستة أيام من المنعم إلى سلوك وفيها رسم أبنية كثيرة وإطلاق برقة على ما سواها مجاز علاقته المجاورة (العلاقة بفتح العين المناسبة) وهذا مما يقوي أن مدينة برقة هي اجدابية وبإزاء المسجد الذي بها قبر محوط عليه بالحجارة يزار يقال لصاحبه سيدي يونس وهو من عرب الفواخر.

وقد وجدنا ركب أهل تونس الذين مروا أمامنا قد أوقدوا عليه شمعا كثيرا وبقيت منه بقية فأردنا أخذها للحاجة إليها ثم توقفت في ذلك وبعد ذلك ظهر لي جواز أخذه فبعثت إليه فوجدت الغير أخذه انتهى كلام العياشي.

وذكر شارح الشقراطسية الشيخ محمد بن علي برقة فقال أما وصفها فقال

البكري رحمه الله واسم برقة بالرومية الإغريقية بنطابلس تفسيره خمس مدن وذكر أن مدينة برقة في صحراء حمراء التربة والمباني فتحمر لذلك ثياب ساكنيها والمتصرفين لها وعلى ستة أميال منها الجبل وهي دائمة الرخاء كثيرة الخير تصلح بها الماشية وتنمى على مراعيها وأكثر ذبائح أهل مصر منها ويحمل منها إلى مصر الصوف والعسل والقطران وهو يعمل بها بقرية من قراها بقرب جبل وعر ما يرقى إليه فارس على حال وهي كثيرة الثمار من الجوز والأترج والسفرجل وأصناف الفواكه ويتصل بها شعر عويصة من شجر العرعر وببرقة قبر رويفع صاحب النبي صلى الله عليه وسلم.

وأما فتحها فاعلم أن عمرو بن العاص افتتحها في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك سنة إحدى وعشرين وصالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار وعلى أن يبيعوا من أبنائهم في جزيتهم.

قال ووجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين وزويلة مدينة غير مسورة في وسط الصحراء وهي أول حد بلاد السودان وبها جامع وحمام وأسواق يجتمع بها الرفاق من كل جهة منها يتفرق قاصدهم ويتشعب طريقهم وبها نخيل وبسيط الزرع وبرقة بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون الراء المهملة بعدها قاف والإغريقية بكسر الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وكسر القاف وتشديد الباء قيل المراد بالرومية الإغريقية القديمة التي هي أصل لغة الروم والله اعلم وبنطابلس بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون النون بعها طاء مهملة وباء منقوطة بواحدة مضمومة ولام مضمومة وآخرها سين مهملة كذا وقع في كتاب البكري والذي وقع في المدونة انطابلس بالهمزة قال وجباب انطابلس ومراجل برقة إلا أن هذا الذي في المدونة يؤذن أنها مدينتان بخلاف ما قال البكري لكن يحتمل أن تكون إحدى تلك المدن برقة

وانطابلس اسم لجميعها كما يقال قسطيلية وتوزر لإحدى بلد قسطيلية والشعر الشجر الكثير وأرض كثيرة الشعار أي الشجر انتهى كلامه.

قلت وفي رحلة شيخنا العياشي وأرض برقة منقسمة على أقسام أولها من حسان إلى ما وراء الأحمر بيومين يسمى سرت ومن هناك إلى قرب المنعم يسمى برقة البيضاء ومن هناك إلى سلوك يسمى برقة الحمراء ومنه إلى التميمي[1] يسمى الجبل الأخضر ومنه إلى العقبة الكبرى يسمى البطنان ومن العقبة الكبرى إلى الصغرى يسمى بين الأعقاب ومن العقبة الصغرى إلى الإسكندرية يسمى العقبة الصغيرة وقد ذكر العبدري تقسيما غير هذا جار على اصطلاح أهل زمانه انتهى.

قلت وسلوك المذكورة آبار متعددة كآبار اجدابية في صفتها ومائها وبإزائها أيضا رسوم بناء إلا أنها قليلة بالنسبة إلى اجدابية وماؤها يقل في أيام الحر وبه تتعرض الأعراب للإركاب لقصد التسوق ويجلبون إليها الكثير من السمن والزرع واللحم والإبل ومنه يتوجه القاصد مرسى ابن غازي وهي مرسى حسنة بسفح الجبل الأخضر بينها وبين سلوك مسافة يوم وفيها عامل وعسكر لصاحب طرابلس وفي تلك المرسى تصب أودية السمن والعسل والشحم والودك من الجبل الأخضر الذي لا أخصب منه ولا أكثر منه أداما فيما رأينا من البلاد وتحمل كل ذلك السفن إلى طرابلس وجربة وما بإزائها من البلدان ومن هذا الجبل غالبا أدامهم ولحمانهم قال شيخنا العياشي رحمه الله وقد دخلنا طرفا من هذا الجبل سنة تسع وخمسين في شدة الحر وتسوقنا طائفة من أهله بما قضينا منه العجب من السمن والغنم والإبل لم نعهد مثل ذلك في بلد من البلدان ولا رأينا أرخص منه سعرا ولا أقل معرفة بالبيع والشراء من أهله يؤخذ منهم زهاء قنطار من السمن بالثمن التافه من بز أو عروض

(١) في الرحلة الناصرية ومن التميمي.

أو غير ذلك من الحوائج ولا يعرفون للدراهم قدرا وكانوا لذلك كَنَعَمِهم غفلا لم يدخل التجار بلدهم ولا صادرتهم العمال عن أموالهم إذ لا حكم لأحد من العمال عليهم إلا أشياء قليلة يؤدونها في بعض الأحيان لصاحب أوجيلة وأوجلة قرية كبيرة أو بلد عظيم لا يخلو من العلماء والصلحاء بقرب برقة تتسوقه الناس مع كل بلد وهو في حكم طرابلس لأن غير أن حكمه فيه ضعيف نفعنا الله بأهله.

وأما صاحب طرابلس فلم يكن له عليهم إذ ذاك حكم وأما الآن فهم تحت أيالته وفي أسر طاعته يؤدون الخراج ويدخل التجار من أهل طرابلس ومسراتة بلدهم لشراء الإبل والبقر والغنم والصوف والأدام فبذلك حصل لهم بعض الخبرة بقيم الأشياء ومقاديرها وعرفوا الدينار والدرهم وأما قبل ذلك فهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

غريبة عرب هذا الجبل من أشد العرب كفرا ونفاقا لا يعلمون حدود ما أنزل الله على رسوله ليس عندهم من الدين إلا اسمه لا حرفة لهم بعد تنمية المواشي إلا النهب والغارة قل ما مر بهم ركب فسلم من انشاب الحرب بينهم وبينه بسبب غدرهم وفتكهم عن اشتغال الناس بالسوق معهم وقد وقع ذلك معهم مرارا قال وأغرب من ذلك أنهم لا يعرفون السرقة فيحترس الناس منهم نهارا خشية النهب والغارة وبالليل يبيت الناس رقودا مطمئنين لا تسرق لهم حاجة وما ذاك والله اعلم إلا لانقطاعهم عن العمران وتوحشهم والسرقة في الغالب إنما تعهد حيث يكثر العمران وتجتمع أجناس من الناس وتعمر أسواق ويوجد بيع وشراء.

وأما هؤلاء فأعداؤهم بعيدون منهم لا يقدرون منهم إلا على الغارة المرة بعد المرة وفيما بينهم يامن بعضهم بعضا فالقوا ذلك نوادر هذا الجبل في رخاء الأدام وغفلة أهله عن قيمته وكثرة خصبه وبيعهم لبناتهم وأخواتهم وغير ذلك أشهر من

أن يذكر وطول هذا الجبل نحو عشرة أيام من بحرّيه وسبعة أيام من الناحية الأخرى وأكثر شجر الناحية التي مررنا بها العرعر حتى انه من شدة اشتباكه والتفافه لا ينفذ الناس فيه إلا في طرق معلومة وشعاب مسلوكة ومن خالفها توعر وانتشب في الغياض بحيث لا يخلص إلا بمشقة لا سيما إن كان ذا دابة ومع كثرة غلب هذا الجبل لا يوجد فيه الأسد والحجاج يزعمون أن سيدي أبا محمد صالحا دعا عليه فأجلاه الله من هذا البلد لئلا يؤذي صعاليك الحجاج وذلك أن صح غيض من فيض فيما لأولياء الله من الكرامات.

غريبة قال ومما شاهدناه في عرب هذا الجبل من الغرائب ركوبهم على البقر وحمل الهوادج عليها وأناختها عند الركوب والنزول مثل الإبل من غير مشقة عليها ولا عليهم في الإناخة لاعتياد الكل لذلك ولله في أرضه عجائب وفي طباع الحيوانات غرائب وكذلك الغنم لا يسوقونها إنما يسير صاحبها أمامها قلت أو كثرت وهي تتبعه فإذا أمهل في السير أمهلت وإذا أسرع أسرعت وإذا جرى جرت ويأتي أحدهم بالكبش إلى السوق وهو يتبعه كالكلب المعلم ثم سرنا من أجدابية بعد صلاة الظهر وزيارة مسجد سحنون لبقاء أثره لا سيما المحراب.

ثم نزلنا بعدها بصعدة[1] وبتنا ثم ظعنا منه فسرنا مرحلتين فوصلنا إلى معطن سلوك ونزلناه وقت العصر فبتنا فيه وأقمنا يوما انتظارا للتسوق من أهل ابن غازي إذ بعثنا إليهم رسولا من المنعم فأتوا إلينا في البلدة الثانية بالشعير وبالسمن والعسل وبعض الإبل.

وقدم إلينا بعض أحبابنا من قرية ابن غازي إذ بعثهم الود الصدوق والخل

---

(١) في ثلاثة نسخ بمدة.

الفاروق سيدي عبد اللطيف بسمن وشعير وغير ذلك جزاه الله أحسن الجزاء ثم إنهم طلبونا في الإقامة وامتنع الحجاج لكونهم مستعجلين لأن يدخلوا مصر في أوائل شوال غير أننا أمهلناهم لوقت الضحى فانصرف الكل على خير وعافية ومع هذا ذهب معنا البعض منهم من الأتراك وغيرهم إلى مصر بالإبل للتجارة فأحسن الجميع بنا والمحسن يجازى بالإحسان والمسيء تكفيه إساءته والله يقول ما على المحسنين من سبيل.

ولما سقى الناس واستقوا وملئوا أسقيتهم ما يكفيهم سبعة أيام إلى التميمي لأن السروال أصعب شيء في طريق الحج لانعدام الماء فيه أعني الحي وأما ماء السماء فعلى فتح إلهي ووهب فرداني غير أن الله لا يدع وفده إذ هم ضيافة فحاشاه من كريم أن يتركهم عطاشا لأنه أما أن يرزقهم بماء السماء ينزل عليهم في الحين أو يجدونه في بعض الأودية والغدران مخبوا(١) لمثلهم منة من الله وفضلا على قاصديه إذ لا يخلوا وفده من أحبابه الذين حركهم الشوق والوجد إلى تلك الأماكن الشريفة والمعاهد السنية والمواطن المحبوبة لتتصل بالساكن وتشاهد محبوبها فيها ويزيل ما بها من قلق الشوق وترتاح من مرض العشق فيخف بعض ما بها لأن الروح يطير إلى المحبوب فيرده قفص البدن فيسكن بعض سكون بنسيم الوصلة ورؤية حي المحبوب لأن الجوار ترياق المريض أي دواء مجرب والدرياق بالتاء أو الدال أي الدواء المجرب هكذا فسره القاضي زكرياء في شرحه للرسالة القشيرية رضي الله عنه ونفعنا بهما آمين.

[إذ قال الأستاذ قبر معروف في بغداد ترياق أو درياق مجرب أي دواء مجرب](٢)

---

(١) في نسخة فحق.

(٢) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

ولذا تتحرك النفس لإشراق محل النبوءة فلا تتعب بما حصل لها في الطريق لغيبها بالمحبوب عن ذلك فلا تتألم فإذا تمهد هذا فلا تخيب رفقة من هذا وصفه فحينئذ أما أن يرزقهم الله بماء جديد أو مستعد أو يكون البركة في أسقيتهم.

وقد شاهدنا الجميع مرارا والشكر لمن له المنة والفضل فلا تحسب الوفد خاليا فتكون فارغا إذ الجامد فارغ من الضمير المتعلق بهم فيحرم من بركتهم وهذا الذي يحصل له التعب لأنه إن وجد الماء فلا يجد الظرف وإن وجد الظرف فربما تتقطع وان سلمت ربما عطبت الدابة الحاملة وغير ذلك مما يصيب المحروم المزكوم عن شم شذاهم وإلا فمن لم يصبه وابل منهم فطل.

وقد سمعت من العارف بالله الصدر الأعظم، والعالم الأفخم، والورع الأفهم، الجامع بين الشريعة والحقيقة سيدي محمد المغربي الطرابلسي عام (١١٥٤) أربعة وخمسين ومائة وألف يقول أن العام الذي قبل العام الأول تقبل الله من أهل عرفة سبعا وما عداهم قد رد ثم إن السبعة قد جدوا في الطلب واجتهدوا في الدعاء من الله أن يغفر لأهل الموسم إلى أن دخل رمضان فشفعهم الله في أهل الموسم جميعا ولم يرد منهم واحدا.

وأما العام الأول قال قد أتى رجل من أهل الله من فاس ليس له قصد ولا غرض إلا الشفاعة في أهل عرفة فلما وصلها شفعة الله فيهم وحزرهم لوجهه جميعا حتى أهل الترهة.

ثم قال وقول الفقهاء وصح بالحرام وعصى مذهب فقهي وإلا فمذهب أهل الفضل أن الله يغفر لجميع من وقف بعرفة وكيف لا وأن المعلم الأكبر الذي هو صلى الله عليه وسلم حاضر هناك وكذا أصحابه مع النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين وأهل التصريف والخضر والياس والملائكة ورجال الغيب وبركة الجميع تنوب عن الجميع والله يستحي أن يرد جمعا فيه محبوبه أو يمقت أناسا فيهم أهل وده ولذا رفع الله المسخ لوجود أهل الذكر فيهم وما دام ذكره في الأرض فلا مسخ فيها لقوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فإذا علمت هذا فاعلم أن السروال محل صعب للعاقل[1] وغيره فيه سبعة أيام لا ماء فيها غير المرفوع أو الموجود بالفضل وفيه من التعب ما لا يمكن التعبير عنه إلا بالذوق غير أن الله يمن بفضله عليهم ويرحمهم ويرفق بهم بمحبته صلى الله عليه وسلم وأيام هذا الموضع مفازة في انعدام الماء مثل هذه ولذا قال بعض الحكماء لولا السروال في برقة والعشاريات في الدرب لحج النساء والصبيان غير أن فضل الله يوصل ويبلغ ولا تعتقد أن كثرة الزاد مبلغة إذ ربما صاحبه هلك وغيره نجا وسلم والاعتماد إنما هو على الفضل والمنة من الله تعالى واستصحاب الزاد شريعة وسنة فالوقوف معها وقاية وجنة هذا وأن المخلص من صعب الزمان، وقساوة المكان، الاعتماد على مدد الرحمان، والتخلق في هذا الطريق بالرأفة والشفقة للضعفاء من أهل الإيمان، فان من رحم يرحم وان الله في عون العبد ما دام في عون أخيه وليس التخلص من سموم عقارب الزمان، وأفاعيه إلا بترياق التفضل والإيثار بحسب الاستطاعة والإمكان.

ثم إن سعة الصدر وسلامته يحفظان من كل أذاية دينية ودنياوية وإن كانت سلامة الصدر ممدوحة في غير هذا الطريق غير إنها في هذا الطريق أنفع وأتم لا سيما مع وجود الرحمة والعفة وكف اللسان عن الخوض فيما لا يعني وعدم الاسترسال فيما لا يحتاج إليه فكما غاب الإنسان عن أهله وأحبابه يغيب عن مألوفاته إلا ما لا بد

(١) في نسخة القوافل.

منه مما يقتضيه شرع أو طبع مع كونه مباحا بحيث أن أسبابه ليس منهيا عنها لأن قبول الحج موقوف على تصحيح بدايته من حيث إقامة الحق عليه في تحصيل أموره ومادة أسبابه وإباحة موصله ورعي الحقوق في جميع ذلك كله من غير مهلة إلا ما أخره الشرع لوقته فسوف يأتي الله بقوم يعينونه على ما هو بصدده لقوله تعالى: ﴿ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا ﴾ فتتيسر أسبابه وتجتمع همته ويتحقق مقصده وتتهيأ أعماله القبول مع استيفاء الحقوق فمن كان معه حال اجتماعهم به فهذا هو إشراق بدايته وهو يدل على إشراق نهايته لأن من صحت بدايته صحت نهايته مع الاتساع في معاملته والإنفاق على قدر طاقته والمعاملة بقدر أسراره والرأفة بقدر وسعه لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فيحسب قوته إذ لا يكلف الله إنسانا إلا بقدر استطاعته.

وإنما تنزل الرحمة على رفقته بقدر وصفه بما ذكر ونعته فإذا تقرر هذا فاعلم أن هذه المفازة كما وصفناها أولا غير أن الله تبارك وتعالى يسرها علينا بفضله لأن مقتضى العادة أن تتعسر على من هو مثلنا لأني بعيالي ثلاث نسوة زوجة لأبني وزوجتان لي مع كثرة الجماعة وقلة ذات اليد وكثرة البغال إذ كان معي خمسة ومع ذلك لم يصب الجميع جوع ولا عطش ولا خصنا خصب الدواب ففضل الله ظاهر، ووجودة باهر، وسوق أحبابه عامر، وعطفه علينا حاضر، لا سيما أنا تهنا عن الطريق حين دخولنا السروال أنا وجماعة أمير الركب سيدي محمد المسعودي الدكالي الصحراوي إذ تخلفنا لصلاة العصر فلما صليناه غاب عنا الركب بين الجبال فجددنا في لحوقه فتهنا عنه تيها عظيما ثم افترقنا في طلبه فلم يظهر لنا أثره ولا تبين لنا خبره ثم إن الله تفضل علينا بوجود آثاره بعد الاياس منه هذا وانه كريم لا يخيب من قصده ولا ينعكس معتمده أصلا فلما تفضل علينا وتكرم لدينا لحقناه بعد أن نزل واستقر في مبيته ووجدنا أيضا الإبل في مسارحها والناس متفرقون في مصالح المبيت

وهي أول منزلة من سلوك.

ثم طلعنا منه صبيحة ومررنا بمخاصب وأماكن كأننا ما رأيناها قط وبعد ذلك اليوم اختلف الناس هل الخبير حصل له تيه أم لا وعند اليوم الرابع ظهر لنا أنه قد تاه بنا غير أن تيهانه ليس بعيدا غايته انه مال بنا إلى جهة الصحراء إذ التوغل فيها يخرج عن سنن الاعتدال في الطريق بل المقصود المسير نحو جهة البحر ومحاذاته أياه غير أن اليوم الخامس صبيحته وقع التنادي في الركب والتباريح على أن الركب قد حصل له التيه وافترق جيعنا في طلب من يعرف الطريق ليرد الجميع إلى المقصود فلما افترقنا ساعة وإذا بآثار البغال من مسير الأركاب الماضية رأيناها فحصل اللطف واستبشروا بوجود الطريق وحصوله في أقرب مدة لما علمت أن وفد الله لا يخيب ولا ينعكس لإسباغ الله نعم الطافه عليه ووجود منته به فحصل لنا السرور بالإشراف على المفازة بالتوجه نحو قرب التميمي.

وفي اليوم السادس مررنا على قرية معلومة فقد قيل أنها آخر عمارة برقة وهي حديثة العهد بالخراب لأن أشجارها قائمة على أصولها لا سيما الزيتون وفيها آبار لا ماء فيها وآثار بنيانها ظاهرة وأسوارها متطاولة وأزقتها مشهورة وفي أسفلها واد كبير يجري السيل إليه ومنه ساقية تتصل بتلك القرية عظيمة عند وجود الأمطار فليس شربهم ولا استقاؤهم إلا من ماء الأمطار المجتمعة فيها ثم إن الحجاج تسابقوا إلى ذلك الوادي فوجدوا فيه غديرا صغيرا لا يبقي دوابهم فازدحموا عليه وخوضوه إلى أن صار طينا فلم يوف أحد مقصوده منه وبعد ذلك بمرحلة تفضل الله على الحجاج فوجدوا ماء مستبحرا في مواضع عديدة يكفي أركاب الدنيا كلها سقيا واستقاء ورفعا فأغناهم الله عن النظر إلى التميمي.

وفي ذلك اليوم ولدت بعض النساء طفلا وتأخرنا في جماعة انتظارا لها على أن

الله تفضل بتيسير طلقها وهي زوج سيدي عبد الرحمن الذويبي[١] ثم العمري من بلدنا بيننا وبينه مسيرة يوم ففرحنا له ودعونا له بالبركة وبعد ذلك لحقنا الركب بعد نزوله واستقراره بخيامه.

ثم ظعنا بعد ذلك الموضع فنزلنا التميمي على شاطئ البحر فيه آبار وحسيات[٢] قرب البحر غير أن ماء البئر ليس طيبا بل فيه بعض ملوحة كما يحمله ذائقه والذي ثبت عند الحجاج واستقر عليه أمرهم أن ماء الحسيات أطيب وأعذب منه غير أنها تحتاج إلى معالجة وتنقية رمل وفيه من التعب ما لا يخفى فاستقى الناس بالبئر هربا من الكلفة وطلبا للعجلة وقد وجدنا هناك عربا متفرقين أكثرهم بلا بيوت قد أضر بهم الجوع إذ قل ميرهم ووقع القحط فيهم سنين متعددة وبلادهم في غاية الجدب ومع ذلك الغالب سلب بعضهم بعضا على أنهم مسلوبون إذ تعدى[٣] عليهم عرب فأخذوهم بعد أن أخذوهم فكان الرجل يبيع أولاده وكذا المرأة تبيع أولادها إن كانت إيما.

وقد شاهدنا ذلك فنهينا الجميع عما هنالك فمن الحجاج من امتثل ومنهم من أعرض واشترى فالقادر منهم ذهب مع الحجاج وغيره طلب ما يقتات به في الحال وبقي الآن الجوع أخذ فيه نعم الحجاج أشبعوهم الطعام جزاهم الله أحسن جزاء إذ سمعت منهم أن البعض منهم لم يذق الطعام نحو الشهر والشهرين وإنما يأكل النبات[٤] من الخضر ليس إلا غير أن الشبعة الواحدة لا تسمن ولا تغني من جوع [وإنما يحصل بها الأحياء في الوقت وقد فعل الحجاج ما وجب عليهم بل زادوا

(١) في نسخة الذوبي.
(٢) في نسخة حسيان.
(٣) في نسخة جار.
(٤) في نسخة المنبوت.

زادهم الله خيرا][1] وإنما المشكوك فيه هل يجب علينا رفعهم إلى محل يقتاتون فيه ليحصلوا غرض الحياة إذ بقاؤهم هناك مهلك قطعا على حسب العادة الجارية غير أن قواعد الفقه لا تقتضي الوجوب لأن استخلاص المستهلك من نفس ومال يجب في الحال وأما في الاستمرار فلا لأن رفعهم إلى موضع العمارة قل من يقدر عليه والأحكام مبنية على الغالب وقد طال النزاع بين الطلبة من أفاضل الركب فمنهم من يقول بوجوب رفعهم لكونهم انقطعوا عن العمارة إذ بقاؤهم هناك موت أبيض لانقطاع مادة الرزق بحسب المألوف العادي ومنهم من يقول يجب إطعامهم في الحال لتحصل لهم الحياة حينئذ وغير هذا غير مكلفين به وهذا الثاني هو الذي يظهر من قواعد الفقه لقول خليل أو فضل طعام وشراب لمضطر يعني في الحال وأما ارتقاب المثال فالرزق على الله إذ في الغيب عجائب لا يعلمها إلا الله وقد قال تعالى وكائن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ولقوله وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو وإنما رتب الله الأرزاق على بعضنا بعضا استمطارا للثواب وإظهارا له للمحسن من غيره ليكون محبوبا لديه إذ الله يحب المحسنين وقد قال ما على المحسنين من سبيل أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ومن يخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني والمانع عند الاضطرار، متعرض للآثام والإضرار، وذلك سخط العزيز الجبار، فالعاقل لا يبخل بما لغيره لا سيما عند الأذن منه وإلا حق ضده نعم كل ميسر لما خلق له فأسباب السعادة قريبة وكذا أسباب الشقاوة فالسعيد يشتري رضاه بما له والشقي بالعكس يبخل بما له عن رضاه وبالجملة ما أقبح نائبا لا يحسن التصريف عن منوبه فيما نابه فيه لأنه أمين في ذلك ليس إلا.

فإذا علمت هذا علمت أن بعض الناس يفتخر ويتكبر بمال الله وهو للورثة

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسخة.

وليس له فيه إلا ما انتفع به في الحال وبخله دليل على شقاوته لا سيما في هذه الأماكن الشريفة ومع ذلك الله تبارك وتعالى يقول الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا فكيف يبخل الإنسان بواجب عليه وهو البخل الممنوع[١] إجماعا وقد شاهدناه فيمن معه فضل ووسع يبلغه إلى أهله يقيمه سنين متعددة ويرى الناس في السياق بالجوع ولا يمدهم بلقمة من طعام ولا شربة من ماء ومع ذلك يشتري الأحرار ممن أصابه الجوع بفضلة ماله فيشقى في الدارين لا رضا الله حصل، ولا مال احتفل، غير أن من سبقت له الشقاوة يخجلك على رءوس العوام بما لا عذر فيه كما سمعته من بعض المخذولين من طلبة ابن غازي[٢] إذ يقول متعللا عند بخله بواجب يمسك عرض الحياة في الإنسان بسبب جوعه أنهم كثروا وتجاوزوا قدر الاستطاعة فلا يمكن الاستيفاء بما وجب علينا وتبعه على ذلك بعض من تراس من أهل الدنيا إذ طبع الله على قلبه والعياذ بالله لأن القدر الواجب سهل والقائم به لا يعسر عليه ولا يجحف بما له إذ من بلغ حد السياق قليل بالنسبة لمن حصل له الجوع وإقامة البعض منهم بذلك فيه كفاية وإنما حيرهم كثرة السائلين وأدعاء كل الضرورة بل بعضهم أو أكثرهم يدعي حد السياق فالتبس عليهم القدر الواجب فتركوا الكل احتياطا بالبخل ولو أقاموا بالكل لاحتاطوا بالمرضي.

ولما اجتمعت معهم زجرتهم عن ذلك ونهيتهم عن الإقامة بحظوظ أنفسهم إذ قلت لهم إن كل من مات فهو في صحائفكم لما علمت أن من منع فضل طعام أو شراب لمضطر حتى حصل له الهلاك يغرمه[٣] شرعا حتى استظهروا انه يقتص منه إذ مثلهم لو فرقوا الزمن والضعيف لم يصعب عليهم.

---

(١) في ثلاث نسخ ممنوع.
(٢) في نسخة بإسقاط ابن غازي.
(٣) في نسخة يضمنه.

وأما الصحيح فيخدم على نفسه ثم أن رأيهم قد اتفق معي على أنهم يركبونهم في المراكب إلى الإسكندرية وبر الترك وإلى طرابلس وتونس فقلت لهم هذا القدر كاف شرعا والمسألة يتعذر فيها الاستقصاء فإذا تمهد هذا فأقول انعطاف إلى ما كنا بصدده.

وهو أننا ظعنا من التميمي وأخذنا شاطئ البحر متفرقين لما في الطريق من كثرة الشجر والحجر إلى أن قربنا ساحل البحر وأشرفنا على عين الغزالة وتلاقينا ببعض الأعراب راحلين إلى التميمي معهم أموالهم يطلبون الكلا ويسألون عن عاقبة المحل فقلنا له قد انجلى أهله لقلة المير والجور فتسوق بعض أهل الركب معهم.

وفي ذلك اليوم سقط ولد الفاضل الكامل الفقيه سيدي أحمد الصدقاوي الملقب عياض عن مركوبه فتحيرنا من أجله إذ حين سقوطه لم يبق فيه إلا نفس ضعيف وقد غشي عليه كأنه سكران ثم إن بعض الناس من أهل الخبرة قال اتركوه كذلك من غير أن توقظوه فبنفس إفاقته يرتاح وإن أيقظتموه حصل له المرض العظيم الألم الكبير فكان الأمر كما ذكر فتركناه حتى أفاق بنفسه وحصل اللطف من الرحمان عليه وعلى والده وعلينا أجمعين.

وفي ذلك اليوم أيضا حصل بعض التشاجر لأهل الركب ووقعت معركة عظيمة بين أهل عامر وأهل قصر الطير بالحجر والعصي غير أن الله رزق لنا اللطف من حالهم حيث لم يموتوا فهو من جملة ما تكرم الله به علينا في عدم حصول القتل ذلك اليوم وبذلك حصلت الفرقة في الركب وتقوى الغيظ بينهم ثم اجتمع أهل الفضل وأصلحنا بينهم أصلح الله حال الجميع بمنه وكرمه.

أقول قال شيخ شيوخنا المذكور ودرنة مدينة على ساحل البحر بها مرسى بينها وبين التميمي مسافة يوم ونصف من غربيه وكانت خالية منذ زمان إلى أن عمرها

الأندلس قرب الأربعين والألف ولم يزالوا بها إلى أن ربطوا فانشبوا الحرب بينهم وبين أمير طرابلس فأخرجهم منها صاغرين بعد وقعة قتل بها مئون من أشرافهم وهي الآن في طاعته وفيها عامله المستولي عليها وعلى عرب الجبل ومرسى هذه المدينة عجيبة تنزل بها السفن الجائية من الإسكندرية ومن طرابلس ومن بر الروم لا سيما مدينة(١) كندية فإن بينها وبين مدينة درنة مسافة يوم في البحر لأنها في مقابلتها والمعاش فيها متيسر كثير لجمعها بين البادية والحاضرة انتهى.

أقول ثم أن عين الغزالة صلينا عند قربها الظهر وهي عين جارية ماؤها عذب فيه بعض ملوحة تصب في بحيرة منقطعة عن البحر يدور بها القصب من أكثر جهاتها وليس في برقة كلها ماء يجري إلا هذا ثم قال الشيخ المذكور.

غريبة وفي ميسرة الطريق شرقي العين المذكورة وأنت مشرق بيت منحوت في الحجر الصلد قال شيخنا العياشي رحمه الله في رحلته طوله عشرون ذراعا في مثلها وبداخله بيت آخر نحو نصفه وفيه غرف صغار كأنها مخازن وكل ذلك منقور في الحجر الصلد نقرا عجيبا مربعا كهيئة أحسن ما أنت راء من البيوت وباب مربع كأحسن الأبواب وعند الباب حجرة واسعة منقورة في الحجر أيضا فتعجبنا من حسن صنعتها وإتقانها وتدبرنا قوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين.

قال وقد ذكر العبدري هذا البيت وأجاد وصفه وبهذا الموضع أرض طيبة كلها منقسمة فتخدم للحرث وأثار البناء متصل بأطرافها وعن يمناها شعاب تنصب من الجبال وكأنها كانت مجاري السيل ويقسمها أهل تلك الأرض على مزارعهم اهـ.

ثم ظعنا من ذلك الموضع وسرنا نحو المرحلة أو المرحلتين فوجدنا آبارا مملوءة

---

(١) في الرحلة العياشية جزيرة.

بماء المطر فشرب الناس وسقوا دوابهم واستقوا بل حصل المطر بالفعل فأغنانا عن المعاطن بل كل يوم أو يومين نجد غديرا من الماء بل الماء كثير.

وفي تلك المراحل مررنا بشجر التين والخروب وأظن أن هناك شجر الرمان وغيره وفي اليوم الرابع وجدنا ماء كثيرا أعني ماء المطر إذ وجدنا بئر ماجل كبير عظيم[١] فاستقى منه جميع من كان في المراكب وسقوا منه جميع دوابهم فلم يؤثروا فيه لكبره ووسعه بل شاهدنا فيه أمرا عظيما من وضع البركة التامة لكثرة الخلق إذ فيه ألوف مؤلفة فإن أخذ الركب في المشي لا يستقصيه الراكب من أوله إلى آخره إذ سمعنا من أهل طرابلس وأهل مصر بأن قالوا منذ حصل لنا التمييز ما طلع ولا جاء ركب من المغرب مثله وقد استعظموه غاية ومع هذا أن البئر لما رأيناه ظننا أنه لا يكفي العشر منه فكفى والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد انصراف الركب تأخرنا في جماعة فرأيناه كأنه لم يغرف منه دلو ولم يستق منه بشر ثم إن العجب العجاب في ازدحام الناس على البئر ولم يقع فيه أحد غير أني وقفت بالعصا على رءوسهم فمن أراد أن يؤذي صاحبه ضربته على ظهره ثم أن القوم أصابهم حياء من جانبنا غفر الله لجميعهم فحصل المقصود على التمام والوفاء فرأينا فضلا عظيما، وخيرا عميما، وذلك من خوارق العادة.

تنبيه ما هو أغرب من هذا وأعجب منه كرامة اليوم الذي بعد هذا اليوم حين قربنا من سطح العقبة ومرحولي شيخ الركب يتأخران عن الركب بكثير حتى لا نرى أحدا من الركب بل إنما نلحق الركب عند المبيت نعم من عادتي أتأخر مع الفضلاء سيدي أحمد الطيب وسيدي أحمد بن حمود[٢] وسيدي محمد الشريف النوفلي رفقا

---

(١) في نسخة بئرا كبيرا عظيما.

(٢) في نسخة حمودي.

بالضعيف من الحجاج وكذا شيخ الركب معنا وأصحابه غير المستعجل منهم.

وفي هذا اليوم تركت مرحولي[١] وذهبت إلى الفاضل الكامل صهري سيدي عبد الله بن رحاب والصديق سيدي محمد الشريف وجماعة من الحجاج ليشتروا لي جملا أو جملين خفت من ضعف أو بقاء الجمال الحاملة للنساء فتقدمت أول الركب وكان الركب توجه نحو اليمين للصحراء ثم أن سيدي عبد الله أمر العلام لينشر رايته فإذا رآها الحجاج رجعوا إلى سطح العقبة فلما امتثل الركب وإذا بالحجاج انعكسوا دونه إلى أن رجع الكل إلى قرب السطح ونحن في ذلك من غير تراخ وإذا بالطامة الكبرى من الخيل قد عمت على الركب فظننا أنهم أهل الوطن أولاد علي إذ سطح العقبة وطنهم غير أنهم أحاطوا بالركب فأراد بعض أن يضربهم بالبندق فزجرهم سيدي عبد الله وغيره ظنا منهم أنهم أهل الوطن فلما بادروا إلى الحجاج سبقت إلى أول الركب فأمرتهم بإناخة الإبل ليتصل آخر الركب بأوله فحصل المقصود الذي رمته وأن الركب قد اجتمع إذ فيه نكاية العدو فأقام الناس على ساق الجد الاجتهاد على قدم واحدة ونحن كذلك وإذا بالصريخ وراءنا أن مرحول عبدكم ومرحول الشيخ قد أخذهما المحاربون فرجع الناس صفقة واحدة وذلك بعد وصول المحاربين إليهما فردهم الله خائبين منعكسين لسابق عناية الإله وفضل الأشياخ والأحباب وأسلافنا نابوا عنا جزاهم الله عنا خيرا فلما كنت في آثارهم وإذا بالمبشر يقول يا فلان قد سلم أهلك وأهل الشيخ فشكرت الله تعالى على ذلك بعد أن حصل الإياس لفرط تأخرهم جدا أو يحصل العطب لأصحابنا فالحمد لله على سلامة الكل غير أننا تغيرنا عن أخينا سيدي محمد الشريف إذ وقع بينهم وصار يزجرهم وينهاهم ويقول لهم هذا وفد الله ووفد رسوله فقبل منه بعضهم وأبى

---

(١) في نسخة من حولي.

الآخرون إلا الحرب والسلب لما رأوا من كثرة الإبل مع الحجاج فغاروا وصاحوا وشردت بغلته تحته فلم يستطع حبسها فسقط عليها فأخذ من لحق منهم ثيابه مع نسخة جديدة من دلائل الخيرات ثم أنه مسك البغلة وركبت ولحق بالركب ففزعنا من أجل ما أصابه فعند رؤيتهم الحجاج قاموا على ساق الحرب وعلموا أنهم لا يصيبون منهم شيئا اجتمعوا وجاهة الركب والحالة أنهم أخذوا بغلين وأربعة من الإبل فردوا البغلين وجملين ثم أني ذهبت إليهم وحدي والناس يبرحون بالويل خافوا عليّ وأنا لم أسمع لهم فلما وصلت نحو الأثني عشر فارسا نزلوا إلي وسلموا علي يدي ثم علي رجلي ورجل البغلة وبعضهم يتمرغ تحت البغلة ويطلب الاقالة ويقول إنما جئنا لأعدائنا أولاد علي إذ سلبونا وأخذونا فأخذناهم وقلت لهم أن حصل لكم الندم ردوا ما بقي من الإبل عندكم وكذا ثياب الولي الصالح الشريف سيدي محمد فقالوا أما الأولون منا قد طلبناه[1] في الدعاء واللاحقون ما علموا غير أننا نرد الجميع فأمهلونا وسألتهم كم من فارس قالوا نحن في خمسمائة ثلاثمائة من الخيل ومائتين من الرجال وأني سألتهم أيضا عن وطنهم فقالوا نحن من وطن الصعيد من عمالة مصر نحو الخمسة والعشرين يوما إلى هنا فلما رجعت وإذا بالحجاج فزعوا فزعة عظيمة ثم رجل من طرابلس قد جرحوه ومات من ذلك الجرح بعد ذلك ولما وصلت وجدتهم أمسكوا رجلا مع فرسه وأطلقته منهم وأما فرسه فقد مسكها الطرابلسية فيما ضاع لهم وقد سمعت انه لما ذهب من عندنا لحقه أولاد علي فقتلوه وبالجملة ففضل الله وجوده وحفظه بنا ظاهر من غير استحقاق إذ أعمالنا ليست أهلا لقبولها حتى توجه الله إلينا بالفضل بسببها نعم كرمه ليس مختصا بأهل الجد والاجتهاد وإنما هو مبذول لمن سبقت له العناية لا لكبيرة إن واجهك فضله، ولا صغيرة أن قابلك عدله، فالكريم لا يبالي من أعطى ولا كم أعطى ولا ما

---

(١) في نسخة طلبوه.

أعطى.

وعشية هذا اليوم نزلنا قرب معطن مقرب[1] وفي ذلك المنزل مات المجروح المذكور وقد مات لنا جمل فيه حقق الله ثوابه وأعطى عوضه.

ثم ظعنا إلى أن وصلنا معطن مقرب عند صلاة الضحى فسقى الناس نهارا وذهبوا إلا أن البعض لم يحص المقصود إلا عند الزوال وتخلفنا معهم وذلك أصحاب الشيخ وبعض الحجاج فلحقنا بعد الظهر بالركب نازلا ينتظر المتأخر ثم أن الله أغاث الحجاج بعد ذلك بالمطر الكثير بحيث استغنينا عن المعاطن إلى الشامة لكثرة الغدير بل أحواض الماء في كل أرض مبسوطة وكذا الخصب والحمد لله على بسط نعمه ومنته الوافرة علينا ببركة أهل الفضل من العلماء العاملين والفقراء المحبين بل وجد في ركبنا هذا كل صنف من أصناف أهل الخير وقد رحم الله ركبنا وعم وابل الفضل علينا فغير المزكوم بالعاصي يشم شذا أنوارهم، وسواطع أسرارهم، وعطر أحوالهم، فمن الله علينا بمحبتهم، إذ من لا خير فيه يتذكر الله برؤيتهم، وقد قالوا إن علامة الولي إذا رأيته تذكرت الله أقل المراتب أن يقول هذا فمن يخشى الله ويتقيه.

وبعد ذلك ظعنا نحو المرحلتين فكان أول شوال فصلينا العيد بين معطن مقرب والمدار[2] ولما صلينا العيد ظعنا ونحن على المياه السماوية والخضر العشبية والشكر لله تعالى فلما وصلنا للمدار وجدنا ماء السماء أكثر ولم نر من المعاطن بعد التميمي إلا مقرب وأما الطرفاوي وجرجوف والجميمة فقد استغنينا عن جميعها والحمد لله على ذلك وظعنا من المدار ومررنا على العقبة الصغيرة ووجدنا الماء في أطرافها أعني ماء

---

(١) في نسختين امقرب.

(٢) في الرحلتين العياشية والناصرية المدور.

المطر ونحن كذلك في ماء المطر كثيرا إلى الشمامة وبالجملة ففضل الله علينا عميم وجوده لدينا عظيم جدا وكذا الخصب للدواب قد عم الأرض ومع ذلك أن الأرض خالية من العرب إلا قبل الشمامة بيوم قد وجدنا فيها العرب أعني نجع الخوابص[1] ومعهم نجع آخر قد طلبوا منها النزول للتسوق معهم فأراد بعض من الحجاج مساعدتهم وامتنع الكثير منه وتخلفنا للسقي والشرب من البئر قربهم ثم أتوا إلينا بتمر من تمر سيوي وهو أجود التمر ولم أر مثله في الجودة والحلاوة وحبه كبير ولونه صاف وهو معلوم عند الناس جودته وحلاوته لا سيما وأنهم يجعلونه في أوعية تحفظه بحيث لا يتغير أصلا بل زادت له رطوبة وجودة وهي من الحلفاء على شكل مخصوص من القفف غير أنها طويلة على قدر الاستطاعة وعليها غطاء وأوصاف هذا التمر أشهر من أن تذكر فاشترينا منه مع أصحابنا من طرابلس واشترى بعض أصحابنا من الركب كأخينا الفاضل سيدي أحمد الطيب ما تزود به في الطلعة في الدرب وكذا غيره واشترينا أيضا منهم شيئا من الروز[2] (الأرز) وكذا غيرنا لانقضاء الزاد عن الغالب من الحجاج فرحنا الله بهم وتفضل علينا بوجودهم وسكنت روعتنا بالاشتراء منهم وكذلك فضل الله على وفده ولما علم من اضطرارهم وغاية احتياجهم فاطمأنت قلوبنا بهم وإلا فمن سرت ما رأينا نجعا إلا هؤلاء قرب الشمامة وهي قرب مصر لأنها خالية بالجور والظلم إذ العرب من قوي منهم يأخذ غيره وتلك سنة فيهم وعادة أجراها الله في أجدادهم ثم سرت إليهم فتمكنوا فيها غير أن الله دمرهم وأخلى منهم أرضهم لقوله صلى الله عليه وسلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم ولقوله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليهم القول فدمرناهم تدميرا وإلا فوطنهم أحسن الأوطان

---

(١) في نسخة الجوابص.

(٢) في نسخة الرزق.

لاعتدال الهواء فيه وأرضه طيبة المزارع ربوتها أحسن شيء للغرس ونباتها أجمل شيء للضرع فكانت أحسن شيء زرعا وضرعا وكذا خلق أهلها بفتح الخاء أو بضمها أي أوصافهم غير أن الظلم أهلكهم لا سيما حرب الحجاج فإن الله قد انتقم منهم بسببهم حتى تشاءموا بهم واستطاروا من أجلهم ليتسع الطريق وتأمن الوفود ولولا فضل الله لأنسد الطريق إلى بيت الله الحرام، وأماكنه الكرام، فاستمر ذهاب الوفد، وتمام القصد، ليصل الإنسان إلى غاية القرب والود، ولذا أجلاهم الله بجذب الأرض والضد، جزاء لهم بتمام الحد، وسعادة لأهل القصد، ليتم من الله صدق الوعد، وتزول عنهم موانع الصد، وليرتاح ذو الشوق من تعب الكد، فيكون محبا ومجيبا لنداء الفرد، فيصحو ذو قلق مما أصابه من الوجد، برؤية الآثار من العد، ويلتئم بجمع الجمع وذلك حق بالجد، فالتكاليف والتعاريف تقوى بالمد، ولأعدائهم تمنعهم الأخذ والصولة فيها لها من ورد، ولذا تطير العقول والقلوب من قفص القد، فيسعد لها أطوارا بالرد، غير أن نسيم الوصلة يمكنها بعض تمكن في حضرة الود.

هذا وإن المنبعث أقلقه الشوق، وأزعجه العشق، فلم ير ما يؤلم في الأماكن الصعبة بمشاهدة آثار المحبوب في الأماكن المرسومة الدالة على الساكن الذي تخيله المصاب فلم يسترح إلا برؤية آثاره فلما أشرف على الرسوم واستحضر وشاهد علو شرفه، وغريب كنهه، استفتح باب الملكوت بالملك واستنشق علم الجبروت بسر اللهوت فلم يبق له صحو غير أن منى، أبقت فيه بعض رؤية المنى، فتكفه بالمشارع واستمطر العطف في المظاهر وصلى صلاة الجمع في مسجد الفردانية بإمام العرفانية في صلاة العظمة فرفع حجاب الكبرياء بسورة[1] الفرق في عرفة الصمدانية، فهام

---

(١) في نسخة بسوق.

عقله في مزدلفة الوحدانية، يلتقط درر الكمال، في سعة[١] مشاهدة[٢] الجلال والجمال، فذلك نسك أهل اليقين باضمحلال، وهذا كله قد تخيله المحب الصرف في بيت البشر والأطوار، ودار الشهوات واللذات من غير استبصار، فصاح صيحة انطوى فيها الليل والنهار، وأظلم الكون طرا فلم يتعب من الأسفار، ولا حرج عليه من شدة المفازة في البر والبحار، إذ رأى أن قلبه ركب مطية الأنوار، واستعد إلى مشاهدة العزيز الجبار، واتصل في أسرائه بسدرة الاستقرار[٣]، ما ضل صاحبه وما غوى بالتجلي من النهار، وما ينطق عن الهوى حال الوصول إليه في عرصات المختار، فاعتراه وحي الهام الحقائق بأنها لا سواها يخفى باستتار، فلما غاب في عين الجمع بملاحظة الفرق إليه صار، إذ بيت الرب فيه فرق بالاعتبار، علمه شديد القوى أسباب الانتقال من الجوار، فاستوطن بسعة الشهود بالاعتمار، فأحال الإحرام عن النظر إلى غيره أصلا بالتعظيم والاستكثار، وهو بالأفق من الأوصاف العالية ثم دنا فتدلى إلى كعبة القرب والمشاهدة فحيره البغت فذهبت آثار عبوديته، في كنه ربوبيته، فمحتها ولم يبق لها آثار، هذا في قالبه جنون، وفي قلبه فنون، فلما حركه لم يسكن إلا بمولاه فلم يرفث برؤية النفس، ولم يفسق بالاعتماد عليها في مقام الأنس، وكذا لم يجادل الأعداء ولا أحدا من الخواطر لغيبته عن الحس، فقد حج قبل سفر الأجباح، بالتنقل والتنزل في عالم الأرواح، فحج الأجباح دليل عليه، ومسبب لديه، فزاد هذا هو فمنه إليه، فإن التعلق بأستار الكعبة علامة على التعلق بعين الذات، وكنه الأسماء والصفات، وكذا يشير إلى الحضرة ودخول المقام، برعي الحفظ والذمام، والسعي بين الصفا والمروة سعي بين صفاء القلوب، في التخلق[٤] بأوصاف المحبوب، فلم

---

(١) كذا في جميع النسخ.

(٢) في نسخة مشاهرة.

(٣) في نسخة الاستغراق.

(٤) في نسخة بالتخلق وفي أخرى بالتحقق.

يتم به السير إلا بالطواف على قدم المحو والمحق للمعدومات الوهمية الوجود، في سنن العهود، فمن طاف بحضرة الدنو وبالدرة البيضاء فقد طاف القدوم على قضاء شهوده، وارتوى برؤية وجوده، وهي نزهة القدس من شوائب المحدثات ثم صلى ركعتين الطواف في مقام التخلي والتحلي والتجلي[١] ثم شرب من ماء القرب وهو ماء زمزم المتعلق بجمال الذات إذ هو طعام الإيمان، وشراب العرفان، فلم يحتج صاحبه إلى طعام الأجباح دائما سرمديا فلما روي وتضلع من ماء زمزم التجلي طاف طواف الوداع لأهل الدنيا بل ودع الكونين، وصلى على الثقلين، بأن لا ينظر إليهما، إلا بنظر الحق إليهما، وكذا إلى نفسه أخذه محبوبه ومطلوبه منه أي من بشريته إلى روحانيته فإنه إياها صرفا ومحضا ثم رده إلى بيته وهو قفص البشريات ليوافق ويمتثل رب البيت فلم تضره البشريات وإنما هي معنية ومؤيدة للروحانيات ولقد زين سماءها بمصابيح البشريات لأن أنوار الشريعة زينة سماء الحقيقة وجعل نجومها وهي امتثال الأوامر واجتناب النواهي رجوما للشياطين القواطع فأهلكتها وأذابتها فقلب هذا عرش من عروش الحق وقالبه سفينة نوح فما ركب أحد بحره إلا سلم من طوفان الجهل إذ قلبه يجري بموج الواردات كالجبال غير أنهم لا يعتبرون عظمتها وغالبتها اعتمادا على رب السفينة ونادى نوح يا ولد القلب أركب معنا في سفر القلب من الخلق إلى الحق ولا تكن من الجاحدين لهذه الطائفة والمعترضين عليها قال سآوي إلى جبل الأسباب يعصمني من ربها قال لا عاصم اليوم إلا بالاعتماد عليه وحال بينهم الموج من الهلاك فكان من المغرقين في الدعاوي.

هذا وإن من حج بهذا الوصف فقد كان حجه مبرورا بالوصول إليه، والمنتهى لديه، فحينئذ من سبقت له العناية لا تضره إن مس بعض الذنوب لزوالها

---

(١) من قوله وهي نزهة إلى هنا ساقط في نسخة.

بالاستغفار والتوبة على الفور وربما كان ذنبه دواء له ليرجع إليه، وينكسر قلبه من أجله، ويرتقي بسببه إلى حضرة ربه، فيثمر الذنب بما يثمر خالص الطاعة المقبولة رب معصية أورثتك ذلا واحتقارا، خير من طاعة أورثتك عزا واستكبارا، نعم غاية اقترافه الذنب ليعرف قدره، ولا يتعدى حده وطوره، فيكون عبدا محبوبا فيا بشراه فينتقل أذن من الموجودات الوهمية إلى الموجود على الإطلاق إذ لا وجود لما سواه غير أن الشريعة لا بد منها لصاحب الصحو الذي ملك الحال أو بقيت منه بقية يتعلق بها حال التكليف وإلا فمن ملكه الحال أو لم يبق فيه إلا والتعريف[١] فقد صاح[٢] في أرض المحو ونادى يا حي يا قيوم برحمتك استغيث لأنه دعاء المضطر فالعارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره، فكيف يخاف ما أشركوا به وعند ذلك يقول الذين آمنوا بولاية الله لبعض أهل وده وخواص قربه ولم يلبسوا إيمانهم بظلم وهو النظر إلى سواه والاستحسان ما منه إلى الله من الأعمال التي بها حلاه ولكن أكثرهم يجهلون هذه المعارف نعم وجود مثل هذه في وفد الله أمام لهم إذ هو كعبة الزوار، يقصده الظمآن لمحو الآثار، ورحمة وجوده لديهم فهم مقبولون لوجهه ومحترمون لأجله فيا لها من سعادة لمن كان معه وقد حصل نتائج الحج قبل وصوله، واجتنى ثمرته قبل حصوله، فكان حجه كالنفل فلا يزال يقترب به حتى يكون له نفسه لأن المناسك في إخلاص المسالك، والسلامة من المعاطب والمهالك، فيرحم به الضعفاء ممن[٣] هنالك، ويقبل من بعد بالمعاصي والذنوب والموبقات لوجهه بذلك فيسعى لهم لا له فيكون عبدا خلقه الله لمصالح الخلق وهو عين من عيون الحق يستسقي[٤] به فهؤلاء كل أحد منهم قد نجا وتخلص بجاهه.

---

(١) في نسخة التصريف.

(٢) في ثلاث نسخ صحصح.

(٣) في ثلاث نسخ من ما.

(٤) في نسخة يستقضي.

ولقد علمت أن ركبنا لم يخب من هؤلاء الأفاضل إذ سرهم باق ليس بزائل فلم تعدم السباق[١] ولا تخلفنا عن تلك الرفاق، هذا وإن الواجد يزيد المحو له من[٢] الخطاب الاشتياق، إن مع العسر يسر برؤية الحبيب من الخلاق، صلى الله عليه وسلم الراكب البراق، فقد رحم الله جميعنا بحسن الاتفاق.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فلما ظعنا من قرب الجميمة نزلنا معطن الشمامة أي غربيها وهو أقبح المعاطن ماء إلا بئر واحدة على شاطئ البحر من جهة المشرق وهي أطرافها من تلك الجهة وأما باقيها فغير طيب وهو ماء جرف[٣] أي مر غير أن الناس اضطروا[٤] إليه لعدم ماء السماء هناك وكذا ماء طيب في غير ذلك المحل.

تتمة عدد الأيام من سيدي أحمد زروق على الاحتياط إلى مصر بحسب مشينا الجزائري لا الفاسي فانه أسرع في المشي لتأخره فمن سيدي أحمد زروق إلى الزعفران خمسة أيام ومنه إلى النعيم يومان ومنه إلى المنعم خمسة أيام أو صبحة السادس ومنه إلى اجدابية ثلاثة أيام غير أن الثالث وصلناه عند الظهر ومنه إلى سلوك يومان مع عشية الثالث ومنه إلى التميمي سبعة أيام ومنه إلى مقرب خمسة أيام مع صبيحة السادس ومنه إلى المدار أربعة أيام أو خمسة ومنه إلى الشمامة أربعة أيام ومنها إلى وادي الرهبان ثلاثة أيام ومنه إلى أرياف مصر أعني كرداسة أو المنصورة إذ نزلنا كفر حمام[٥] يومان ومنه إلى المنشية على شاطئ وادي النيل ثم إلى بولاق وهذا ليس بمشي والناس إنما يقطعون إلى مصر في الزوارق أي المراكب فكل من يأتي من جهة المغرب من

---

(١) في نسخة السائق أو السابق.

(٢) في نسخه الوجود يزيد المجرب.

(٣) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة صرف.

(٤) في نسخة اظهروا.

(٥) في ثلاث نسخ كاف احام.

الحيوانات العاقلة والبهائم لا يقطع إلا فيها بالكراء وأما صفة الماء في برقة فماء الزعفران أطيب وأحلى وكذا ماء النعيم وكذا ماء الأحمر وكذا ماء المنعم وأما ماء اجدابية فبين بين غير أنه إلى الحلاوة أقرب وكذا ماء سلوك وماء التميمي فيميل إلى الملوحة وأما ماء الطرفاوي فطيب وكذا ماء جرجوب دونه ودون ماء مقرب وماء المدار طيب ليس جدا وماء الجميمة دونه وأقبح المياه ماء الشامة إلا البئر الذي أشرت إليه قبل فأحسن بالنسبة إليها.

ثم ظعنا من الشامة إلى وادي الرهبان وهو واد عظيم طويل وفيه قصور للعباد من النصارى ينعزلون هناك لعبادة الأصنام يخرجون من مصر إليه وإن مصر فيها طوائف من النصارى يعطون الجزية للسلطان.

وبالجملة فبرقة متسعة ومعه اتساعها فيها من العافية ما لا يظنه الإنسان لأن وفد الحجاج يذهب متفرقا ومنقطعا بعضه عن بعض غير انه لا يصيبه شيء بخلاف عرب الحجاز فمن تأخر من الحجاج أخذ وسلب أو مات ولولا ما أنعم الله على الحجاج من أجلاء[1] أهل برقة لأنسد الطريق وأنقطع رأسا.

ولذا قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه ولولا فضل الله على الحجاج ورحمته بهم بالانتقام ممن رامهم لتعطلت طريق الحج منذ أزمان خصوصا حجاج المغاربة لضعفهم وقلتهم وبعد الشقة عليهم فكم من قصر ومصر إقليم يقطعونه بلا عسكر ولا عدد ولا عدد[2] ولكن

وقاية الله أغنت عن مضاعفة   من الدروع وعن عال من الاطم

---

(١) في نسخة أجل.

(٢) في الرحلة الناصرية بإسقاط ولا عدد.

أي العالي المرتفع من الحصون نسأل الله تبارك وتعالى بجوده وإحسانه العميم، وبركة نبيه الكريم، أن يحمي وقد بيته بما به قد حمى نبيه العظيم، وينصر زواره بما نصر به رسوله وان لا يقطع الطريق بيننا وبين تلك الأماكن المشرفة والبقاع المطهرة فما دمنا في كل سنة طائفة ممن قدم من تلك المعاهد، وورد من تلك الموارد، وتشرف برؤية البيت العتيق والمسجد الحرام، ووقف بالمشاعر ونسك المناسك العظام، وصلى بين قبره ومنبره صلى الله عليه وسلم وزار محله الشريف ومحل أصحابه الأعلام، فلا نشك أن مدد ذلك يسري في أدياننا وبلادنا وأبداننا، وسائر متعلقاتنا، ولو انقطعت رؤيتهم نعوذ بالله من ذلك لاختل النظام، وانقطع الخير بين الأنام، اهـ نسأل الله تعالى الكرة إليها بعد الكرة أي الرجوع إليها والمرة بعد المرة آمين.

ووادي الرهبان واد كبير ذو رمل وفيه شجر النخل[1] وماؤه كثير وبه من أنواع الوحش والبقر والنعام[2] والظباء والمها وغير ذلك من أنواع الصيد وإنما أضيف هذا الوادي للرهبان لأن به رهبان النصارى يتعبدون فيه ديور كل طائفة في دير ولا يدخل إليهم أحد من غير جنسهم وليس لهم زرع ولا ضرع وأهل الذمة من النصارى الذين بمصر يعاملونهم ويبعثون إليهم بالنذور والصدقات من الطعام والكسوة ومن هناك تمر الطريق من مصر إلى أوجلة إلى أن قال واشترى الحجاج ما أرادوه من أنواع الطعام الريفية وتنعموا وزال ما بهم من العياء وألقت إليهم المسرة مقاليدها أي أمروها كيف لا ونحن على ساحل النيل الذي هو أشرف الأنهار الأربعة الخارجة من الجنة وآثار بركته ظاهرة بالعيان في مائه وترابه وقراه ومدائنه بحيث لا يوجد بلد أوسع مزارع وأكثر خصبا مع اتصال العمارة نحو الشهر من هذه إلا أنها لها مزيد اختصاص بمضاعفة الوظائف الجورية على الرعية بحيث تملك

---

(١) في الرحلة الناصرية فسلان نخل.

(٢) في الرحلة الناصرية النعم.

رقابهم فضلا عن أموالهم ولا يجدون عن ذلك محيصا بمنعة أو فرار حتى لو أن أحدهم أراد أن يتخلى عن السبب ويترك المزارعة والفلاحة لم يتركوه ولو فر لاتبعوه حتى يأتوا به أينما كان.

قال الإمام العياشي في رحلته حتى استفاض عند العمال الفسقة أن ثلاثة لا تقبل فيهم شفاعة شافع فيعدون منهم من يريد أن يتخلى عن الزراعة والفلاحة قاتلهم الله أنى يؤفكون لا هم ينصفونهم فيخففوا عنهم من المظالم ولا هم يتركونهم يذهبون حيث شاءوا يسبحون في الأرض يرزقون كم ترزق الطير الالتقاط من نبات الأرض وخشاشها فتغدو خماصا وتروح بطانا اتخذوا مال الله دولا وعباد الله خولا والله من ورائهم محيط ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد ذكر ابن خلدون[١] أن مصر لا بد أن تشتمل على طائفتين إحداهما في غاية العتو والاستكبار والأخرى في غاية الذل والاستحقار[٢] وقد صدقوا لقد كان بها فرعون وملاؤه فلم ينته دون أن قال أنا ربكم الأعلى وبنو إسرائيل إذ ذاك مستضعفون في الأرض يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم أي تركهن من غير قتل ثم لم تزل كذلك وأنها في زماننا بل قبله بأزمان لعلى ذلك الوصف فباشاتها وسناجقها وولاتها وحكامها بل وسائر جندها وعسكرها فيما يظهر لنا ليس فيها إلا من أعماه حب الدنيا وأصمه وختم على سمعه وقلبه لا يرحمون ضعيفا ولا يوقرون كبيرا أينما تبدو لهم صبابة من الدنيا وثبوا عليها إن كان صاحبها حيا تسببوا له بأدنى سبب حتى يأخذوا ماله أما مع رقبته أو بدونها إن كان في العمر فسحة وإن كان ميتا ورثوه دون بنيه وبناته وأما رعيتها وفلاحتها فلا تسأل عما يلاقون من الجند من الظلم وما

(١) كذا في الرحلة الناصرية وجميع النسخ وفي الرحلة العياشية ذكر المؤرخون.

(٢) في غير الرحلة العياشية الاحتقار.

هم فيه من الإهانة والاحتقار تضرب ظهورهم وتؤخذ أموالهم ولا مشتكي لهم إلا الله ومن تجاسر منهم اشتكى ضوعف عليه العذاب الأليم.

قلت ولعل لأجل هذه الدقيقة يكثر فيهم الصالحون لأن نفوسهم ميتة قد تربوا على الذل والاحتقار وزالت الرياسة وحبها من قلوبهم بل لم تسكنها قط فإذا وفق أحدهم لعمل الطاعة والتفت أدنى التفات لإصلاح حاله لم يبق مانع بينه وبين ذلك لأن أكبر الموانع وأعظم الآفات حب الرياسة ومن جال في أرياف مصر واستخبر أهلها علم صحة ما ذكرنا ومن لم يجل فليطالع الأخبار في الكتب المؤلفة في ذلك كطبقات سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمه الله وغيرها يرى مصداق ذلك وأخبار مصر وظلم الولاة بها وغش الباعة وحيل المتسببين ومكر العاملين أعظم من أن تحصى ولا غرض في تتبع ذلك ومن أراده فيسأل من وردها يخبره ببعض البعض من ذلك.

وبالجملة فمصر أم البلاد شرقا وغربا لا تستغرب شيئا ما يحكى عنها من خير أو شر ومصداق ذلك ما حدثني به بعض أصحابنا من التجار في سنة أربع وستين قال لما دخلنا مصر في حدود الخمسين سكنت في بعض الوكائل وكان من قدر الله أن اجتمعنا في محل واحد جماعة منا فلان وفلان تجار وفلان طالب علم وفلان ممن يميل إلى طريق الفقر وفلان وفلان من أهل الجنون وأهل المجون المسرفين على أنفسهم المطيعين لهواهم ذكر كلا بأسمائهم قال فإذا أصبحنا تفرقنا كل واحد يغدو لحاجته فإذا جن الليل جمعنا المنزل فنتحدث بما رأينا فيقول التاجر ما رأينا مثل هذا البلد في التجارة فأهله كلهم تجار ويحكي من حكاية ذلك ما شاهد ويقول الفقيه مثل ذلك والفقير مثل ذلك وذو المجون مثل ذلك وما ذلك إلا لكثرة الناس فيها فمن طلب جنسا وجد منه فوق ما يظن فيظن أن غالب أهل البلد كذلك.

وبالجملة فأهلها لهم عقول راجحة وذكاء زائد فمن استعملها في الخير فاق فيه غيره ومن استعملها في الشر فكذلك.

وقد ذكر ابن خلدون في كتابه منتهى العبر أن بعض ملوك المغرب سأل بعض العلماء ممن حج عن مصر فقال له أقول لك فيها قولا واختصر من المعلوم أن دائرة الخيال أوسع من دائرة الحس فغالب ما يتخيله الإنسان قبل رؤيته إذا رآه وجده دون ما يتخيل ومصر بخلاف ذلك كلما تخيلت فيها فإذا دخلتها وجدتها أكثر من ذلك.

وسئل آخر عنها فقال كأن الناس فيها قد حشروا إلى المحشر لا ترى أحدا يسأل عن أحد ساع فيما يرى فيه خلاص نفسه.

وقد أخبرني شيخنا سيدي أبو مهدي عيسى الثعالبي أيام كنت أتردد معه إلى مجلس شيخنا شهاب الدين الخفاجي فقال لي من لدن دخلت هذه المدينة ما رأيت أحدا يمشي في أزقتها وأسواقها على مهل وسكينة وتؤدة بل كل من تلقاه تراه مشمرا جادا في سيره إن كان راكبا فراكبا وإن كان ماشيا فكذلك فتأملت ما ذكر لي فوجدت صادقا وسبب ذلك والله اعلم أمران.

أحدهما الرغبة والحرص المستكن في القلب فيحمل الإنسان على أن لا يفوته شيء من أغراضه وهو يظن أنه لو توانى في مشيه لفاته غرض مع كثرة الأغراض وتزاحم الأشغال.

والآخر كثرة الزحام في الأسواق فكل سوق دخلته تقول هذا أكثرها زحاما فإذا خرجت منه إلى الآخر وجدته مثله أو أشد وقد شاهدنا الناس في بعض الأسواق تارة يقفون هنيئة لا يقدر أحد على أن يتحرك يمينا ولا شمالا من غير أن يكون هناك حاصر لهم من أمام إلا الزحام وربما رفع بعضهم صوته بالتكبير فيكبرون حتى يظهر

لهم بعض تحرك فيندفعون مثل السيل إذا اجتمع في مكان ضيق فيدفع بعضه بعضا حتى ينفجر من جهة فسبحان خالقهم ورازقهم وعالم نياتهم وضمائرهم يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون لا إله إلا هو رب العرش العظيم رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الحكيم.

وأخبار مصر وما فيها من العجائب وجميع ما يحتاج إليه من أحوالهم مستوفى في كتب تواريخها فلا نطيل بكثير منه.

قال وأحسن كتاب جامع في ذلك مع الاختصار كتاب حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للجلال السيوطي فانه مفيد جدا ومن أجاد مطالعته لم يفته من أخبارها إلا المعاينة أو أشياء قليلة من العوارض المشخصات اهـ كلامه إلى أن قال وقد تعرض لنا الفلاحون خارج البلد وتلك عادتهم عند قدوم الركب كلما قدم يتعرضونه ويتخذون الأصحاب ليودعوا عندهم الإبل ويتركوها عندهم أمد الإقامة طلوعا ورجوعا وهم كما قيل «الحرص على الأمانة، دليل على الخيانة» فلا ترى أعجب من تلطفهم وليس خطابهم عند نصب شبكة الخداع للمغتر من الحجاج فيحلفون بالأيمان المغلظة على أداء الأمانة وبذل المجهود في النصيحة حتى يركن إلى قولهم ولو من جربهم مرارا ثم عند المفاصلة قلما ينفصل معهم أحد بطيب نفس.

قال أبو سالم ومن أمثال الحجاج المال المودع بع واستنفع فالعاقل من باع ما فضل عنه من أبله أو ضاع ومتى احتاج اشترى ولكن رزق يسوقه الله العباد أي الفلاحين من قديم الزمان لا مطمع لأحد في قطعه ففي كل مرة نقول متى رجعنا لا نودع عند أحد فإذا عدنا استنزلونا بخلب بارق من وعدهم الكاذب حتى نقع في حبائلهم ونتورط في مخالبهم التي يعسر الخروج منها بدين سالم وعرض مصون إلى أن قال أبو سالم بعد ما تقدم.

لطيفة وعظية والشيء بالشيء يذكر ذكر الشعراني رحمه الله في طبقاته عن بعض الصالحين ممن يسكن في بعض قرى مصر انه كثرت أذاية أهل القرية التي هو بها له فعزم على الخروج منها فاكترى جمالا لحمل أمتعة فأتي بجمل فجعل يلقي عليه كل ما كان من الأمتعة فلما أكثر عليه قال له الشيخ أنك قد ثقلت على هذا الجمل فقال له صبي هناك يا عم إن الجمل يحمل أكثر من هذا فتفكر في نفسه وقال هذا خطاب من الحق لي فإذا كان الجمل وهو من الحيوانات العجم لا يعقل ولا يرجو ثوابا يحمل أكثر من هذا فكيف لا أتحمل أكثر من هذا من إذاية الخلق فحط أمتعته ورجع فسمع منشدا

أن الجمال التي بالحمل قد عرفت   تأبى العياء ولو مست من القتب

فأكد ذلك عنده لما فهمه اهـ إلى أن قال وقد ذكر شيخنا أبو سالم عن بعضهم أن الوباء قد وقع مرة بمصر وكثر الموت حتى كان يدفن في اليوم الواحد أربعون ألفها فهمّ الباشا وأتباعه بالخروج من مصر والفرار لما شاهد من كثرة الموت فلما فشا خبر أرادته الخروج طلع إليه رجل مسن من أهل التجربة والرأي فقال له بلغني أنك تريد الخروج فما الذي يخرجك قال هذا الموت الذريع الذي وقع في الناس فقال وأي موت هنا أبعث شيوخ الحومات بمصر لك كم من حومة بمصر فبعث إليهم فعدوا الحومات فوجدوها أربعين ألفا فقال له ذلك الشيخ ألم أقل لك أي موت هنا إنما هذا ميت من كل حومة فهو أما عبد أو صبي أو امرأة فلما سمع الباشا ذلك خف عليه الأمر فجلس اهـ

وممن أخذ عنه سيدي أحمد بن ناصر في مصر وقد أخذ عن كثير من الأشياخ إلا أن إمام الجميع وهو أبو الحسن علي الزعتري إلى أن قال فيه ما نصه ومما أفادنيه وأنشدنيه:

إذا ما مضى القرن الذي أنت منهم ... وخلفت في قوم فأنت غريب

وأنشدنا أيضا لغزا في الخمر إذا استحال خلا:

وما شيء إذا فسدا ... تحول غيه رشدا

وإن هو راق وصفا[1] ... أثار الشر حيث بدا

وأنشدنا أيضا في نيل مصر:

كأن النيل ذو عقل وفهم ... وذو علم بما يرجون منه

فيأتي عند حاجتهم إليه ... ويذهب حين يستغنون عنه

وأملى علينا في ذم الدخان وأهله وهو في مجلس أقرانه:

دخان داء لا دوا ... من شربه قلبي انكوى

وهد حبلي والقوى ... فقلت من عظم الجوا

يبوت شعر مفردة

وأنفس من أجلها[2] ... مقطوعة من أصلها[3]

بعشبة لأهلها ... مشغولة لأجلها[4]

جاءت كنار موصدة

مشعلة[5] لدائهم ... تجول في أمعائهم

مضرة لبدائهم ... تأتي إلى أفواههم

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية لاق وصفا.

(٢) في نسخة وصلها.

(٣) في نسخة أصلها.

(٤) في الرحلة الناصرية مشغلة لأهلها.

(٥) في الرحلة الناصرية مشعولة.

نزهة الأنظار:

ــــــــــــــــــــــــــــــدة

روما ســـــواها متغرمـــا

هــي الــشـبـاب[٢] مثــل مــا

ــــــزاغ والجـــــــــدة

بيـــــــأيهم الأبير جعـــوا

حتـــى بهـــا القـــلد ضـــيعوا

خة بمـــــــــــــــــــــــقلدة

تقـــاصير الـــشيء كحالـــة الـــصغير

وقلـــة الأكـــل إذا الـــزاد حـــضير

والنـوم بـين النـاس مـن غـير سـهر

ـــــــول أدهـــــــى وأمـــــــر

خاب والدنا رضي الله عنه وأخبرني أنه أقرأ عليه

رض والقبواقي ونقاية السيوطي ستة ست وسبعين

يوم ختم أحد الكتابين عليه أراد أن يقول له يا سيدي

أطلب منك أن تجاوز عاما يستفيد الناس منك قال

---

(٢) في نسخة وذا ردى.

(٣) في الرحلة الناصرية رجعوا.

فجاءه إنسان فكلمه بلغتهم فقلت في نفسي أن فرغ هذا من كلامه أكلمه بما في نفسي فلما فرغ المتكلم وأردت أن أتكلم بادرني الشيخ رضي الله عنه بقوله ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها فسكت ولم أزد شيئا تقول ايش.

ونظير هذه الحكاية ما حدثني به الشيخ محمد أخو الشيخ مصطفى أنه حج مع الشيخ وكانت خيمته بإزاء خيمة الشيخ فقام ليلة متهجدا وقد هدئت الأصوات ونامت العيون قال فقلت في نفسي متعجبا من تهجدي وأنه لم يجارني أحد هذه الليلة أو كلاما هذا معناه قال ولم استتم الخاطر إلى أن سمعت الشيخ يقول وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا قال فخجلت واستحييت وتداخلت فضربت أخماسي في أسداسي أي صرفت الحواس الخمس في الجهات الست أفكر في أمري معاتبا لأنفاسي.

قلت ومثل هذا وأرفع من كرامات الشيخ لا يعد ولا يحصى، ولا يحفظ ولا يستقصى، فلو تعرضنا لأدنى شيء منه لأملينا أسفارا، ولاستغرقنا دهورا وأعصارا، نسأله تعالى أن ينفعنا به، وأن يجعلنا من حزبه، وإنما ذكرنا هاتين إيذانا بمنقبة هذين السيدين إذ الكرامات لا يراها إلا من أهّل لها وصار من أهلها.

وكنا ذات يوم جلسنا معه في مجلس أقرانه وقال لنا كم هذا في غشت فقلنا له خرج وانصرم وهذا أول شتنبر وقال هذا لا يصح فقلنا له صحيح فأخذ بيده جداول التاريخ فاختبره فوجد كلامنا صحيحا فقال سبحان الله غلطتموني في جمعة وحكى لنا قصة فقال كان الإمام السبكي في زمانه يسكن بولاق وله منزل على شاطئ البحر يجلس فيه وفيه كتبه وكان السبط المارديني يأتيه وهو رحمه الله رجل مغفل ويجلسه الشيخ في مجلسه ويتحدث معه ويتذاكر ثم بعد ذلك ينصرف الشيخ يبيت بمنزله ويتركه هو يبيت هنالك فكلم الشيخ رحمه الله يوما نوتيا معه سفينة

حيدة سريعة السير وفيها كثرة المقاذيف وقال له كيف تصنع وتتحيل على هذا السيد إذا نام تأخذه برفق وتضعه في السفينة وتقذف به بسرعة حتى تصبح به في دمياط فإذا بلغت دمياطا خذه برفق وضعه في مكان معلوم عينة له واتركه هناك أسبوعا ثم أفعل به ما فعلت أولا وتصبح به في مكانه هذا ففعل النوتي ذلك وأصبح به في دمياط وجلس يقرأ فيه السيد أسبوعا وكان ذلك ليلة الأحد فلما كان ليلة الأحد الأخرى فعل به مثل ما فعل به أولا فأصبح به في بولاق في المكان الذي أخذه منه أولا وجاءه الشيخ السبكي صباحا على عادته وسلم عليه وقال له المارديني أنا أتيت من دمياط فقال له السبكي متى جئت من دمياط ألم تكن هنا ليلة الأحد وهذا يوم الأحد فقال له المارديني بل أتيت دمياطا وقرأ علي فلان وفلا وجعل يعد له من قرأ عليه وغلطه السبكي في جمعة وهذا مراده حتى فعل به ذلك رضي الله عنهم أجمعين وأنشدنا أيضا رضي الله عنه:

أرى الإحسان عند الحر دينا ... وعند النذل منقصة وذما

كقطر الماء في الأصداف درا ... وفي جوف الأفاعي صار سما

أشار بهذين البيتين إلى ما ذكره أهل الهيئة من أن ماء النيسان ينعقد جواره في بطن الأصداف ويصير سما في بطن الحيات.

أعجوبة ذكر صاحب الفلاحة النبطية أن بالمشرق جبلا عاتيا ذا مدارج لا يستطاع الصعود إليه فإذا كانت أيام النيسان أتت الرفاق من أقصى البلاد وتنزل حواليه لتصغي لأصوات طيور تظهر في تلك المدارج ولها ريش كريش الطاوس ومناقير حمر وصفر في غلظ شبر وطول ذراع وفي تلك المناقير أبخاش متعددة فتستقبل الريح وتفتح مناقيرها شهرا كاملا حتى تمتلئ حواصلها ريحا ثم يأخذ في انعكاس مناقيرها فيخرج الريح على أصوات عجيبة ونغمات مطربة حتى أن رقيق

النفس يموت طربا من السماع فإذا تم شهر استفرغ الريح وزعقت زعقة عظيمة واشتعلت نارا وتبقى رمادا في مواضعها إلى قابل فإذا نزل ماء النيسان خلقت منه فأحييت به وفي أيام نزوله تكثر الضفادع في البر فإذا ماتت بقيت فرائسها إلى قابل فتحيى حين نزوله بتقدير العزيز العليم.

وحكي أن فرعون لعنه الله كان يفتن الناس بها فيعد تراب فرائسها فيحفظه عنده ويعد مطر النيسان في قوارير ويقيم عليها وكيلا وإذا أراد فتنة أحد أمر قيم التراب فيأتيه بقبضة منه ويأمر الآخر فيأتيه بشيء من مائه فيجعله في يده ويضمها عليه مدة حتى يحس بتكوينه ضفدعا فيفتح يده فإذا بها ضفدع تثب فيدعي أنه خلقها عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وأنشدنا أيضا رحمه الله أبياتا مطلعها:

لعمرك أن أخذت إخاء قوم ... فلا تعجل بتوكيد الوداد
فإن الغدر في الشبهات طبع ... تعوده الورى من قبل عاد
وصاحب من صحبت بحرص عزم ... ولا تودعه أسرار الفؤاد
فبعض الناس ظاهره بياض ... وباطنه أحال من السواد
ولا تحقر عدوك لو تراه ... أقل إذا نظرت من القراد
وكن حذرا ولا تركن لخل ... وعد[1] الناس كلهم أعادي
وكن كالغيث في أرض بخصب ... وفي أرض عذاب للعباد
وكن كالغصن ينبت فوق صخر ... وكن كالماء يجري من جماد
وكن كالسيف حد المتن عضبا ... وفي الأغماد يرفع بالنجاد
فكم صاحبت قبلك من أناس ... فخانوني وخاب بهم مرادي
وخلان حسبتهم دروعا ... فكانوها ولكن للأعادي

---

(١) في نسخة وظن.

وخلـــتهم ســـهاما نافـــذات فكانوهـــا ولكـــن في فـــؤادي
وقـــالوا قـــد صـــفت منـــا قلـــوب لقـــد صـــدقوا ولكـــن مـــن وداد
وقـــالوا قـــد ســـعينا كـــل مسعى فقلـــت نعـــم ولكـــن في فـــساد

وأنشدنا أيضا رضي الله عنه

أرزاقنـــا شـــتى ونحـــن طيورهـــا نلقطهـــا مـــن جانـــب بعـــد جانـــب[1]

ثم قال لما خلق الله الأرزاق سلط عليها الريح ففرقتها في الدنيا فكل واحد يجعله الله حيث رزقه.

قلت مراده والله أعلم أن أرزاق العباد فرقتها القدرة الإلهية في البلاد وأظهر ذلك بالمثال بتفريق الرياح ومنه قوله:

وأرزاق لنـــا متفرقـــات فمـــن لم تأتـــه منـــا أتاهـــا
مـــشيناها خطـــى كتبـــت علينـــا ومـــن كتبـــت عليـــه خطـــى مـــشاها
ومـــن كتبـــت منيتـــه بـــأرض فلـــيس يمـــوت بـــأرض ســـواها

وعنه أيضا حكمة إلهية بنت الحكماء عليها قاعدة تقررت لديهم واطردت وذلك أن الشمس كلما كانت مسامتة للرءوس اشتدت حرارتها على وجه الأرض وكلما مالت إلى الجنوب خمد حرها ومن ثم تجد المياه غالبا تبرد في الصيف لبعد الشمس عن باطن الأرض وتسخن في الشتاء لقربها من باطنها ويعتدل حرها فيما بين انتهاء مسامتتها وميلها وذلك في الربيع والخريف ذلك تقدير العزيز العليم.

وذكر أيضا أن غاية نصف قوس النهار في بلدنا مائة وسبع وأن الساعة المستوية

---

(١) كذا في جميع النسخ.

خمس عشرة درجة دائما والزمانية هي نصف سدس قوس النهار فيقسم النهار على اثني عشر جزءا يخرج مقدار الساعة الزمانية.

وأخبرني أنه ولد عام خمسة وثلاثين وألف (١٠٣٥) رضي الله عنه ولقد سألته يوما عن علم النصبة هل لك معرفة به فقال نعم ولكن لم استعمله إلا مرة واحدة ولد لي ولد في أول شبابي ونظرت فيه فخرج لي أنه يموت بعد ثلاث سنين فأخبرت شيخي القيلوبي بذلك فزجرني ولما مضى ذلك القدر توفي.

قلت والإمام القيلوبي هذا هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن سلامة المصري القيلوبي الشافعي الإمام العالم العامل الفقيه المحدث أحد رؤساء العلماء المجمع على نباهته وجلالته وعلو شأنه جامعا للعلوم الشرعية متضلعا من العلوم العقلية وأما معرفته بالحساب والمقيات والرمل فأشهر من أن تذكر وإمامته في الأوفاق الحرفية وغير ذلك من الفنون فذلك أمر مشهور وكان في الطب ماهرا خبيرا ومحبا للفقراء ولا يتردد إلى الكبراء ولا يقبل من أحد صدقة بل يرى متصدقا وكان متقشفا ملازم الطاعات مهابا لا يتكلم أحد بين يديه إلا مطرقا وله تآليف عديدة وتقاييد مفيدة توفي أواخر شوال سنة تسع وستين وألف (١٠٦٩).

وأما الشيخ موسى المصري القيلوبي فهو من أيمة المالكية المشهورين بحسن السيرة وطيب السريرة شهير صيته بين علماء الأزهر وأرباب الدولة وهو من أجل تلامذة الأجهوري أبي السن المتصدرين للأقراء والفتيا في حياته وله خبرة تامة بفروع المذهب ومشاركة حسنة في غيرها من العلوم وانفرد بالاختصاص بالكشف عن علم الأوفاق وأسرار الأسماء والحروف بحيث لا يشارك في ذلك وله أخذ وسلوك في طريق القوم على منهج صاحب كتاب الجواهر وقد تلقى وأخذ طريق الأسماء الخلوتية عن الشيخ محمد بن علي الشبراملسي عن الشيخ محمد الخافي عن

الشيخ صبغة عن وجيه الدين العولي عن الشيخ محمد الغوث صاحب كتاب الجواهر وأسماء الخلوة مشهورة عند أهل مصر وهي أربعة عشر.

وذكر شيخنا العياشي أن بيد هذا الشيخ أثر جراحات كادت أن تتلف يده وأخبرنا أن سبب ذلك أن الشيخ أبا الحسن الأجهوري جاءه بعض طلبة المغاربة يستفتيه في طلاق وقع بينه وبين زوجته فرام أن يترخص له في ارتجاعها فأبى الشيخ رضي الله عنه من ذلك فاحتقدها عليه المغربي وأسرها خفية سوء في نفسه فلما كان ذات يوم جاء مشتملا على خنجر والشيخ يدرس في المجلس فلم يشعر به حتى ضربه بخنجره فترامى عليه من حضر من الطلبة يقونه بأنفسهم فخرج جملة منهم ووقى الله الشيخ من كيده وجرح في رأسه جرحا كان السبب في ذهاب عينه وكان الشيخ موسى من جملة من جرح فقبض على ذلك المغربي وضر ضربا شديدا فأراد الولاة قتله فمنعهم الشيخ من قتله ثم قتله الله بعد مدة بأثر ما حصر له من الضرب في المجلس وبعد ذلك ما كان الشيخ يترك أحدا من المغاربة يدخل عليه إلا إن كان معه أحد من أصحابه ممن يعرفه.

قال ولم يزل شياطين الأنس والجن يضمرون العداوة والسوء لأهل العلم وينصر الله أولياءه عليهم بمقتضى صادق وعده وكان حقا علينا نصر المؤمنين وينجيهم من كيدهم ويحميهم من شرهم بحماية ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين.

قال وحضرت درسه وكان يقرئ في الجامع الصغير للسيوطي بباب رواق الحنفية ومن جملة ما قرر في حديث إيما عبد أبق من سيده فمات إلى قوله ولو مات شهيدا أن العبد إذا أبق من سيده ومات في قتال الكفار كان شهيدا من جهة قتله وعاصيا من جهة أباقه ثم قال كمن شرب الخمر فغصته فمات فهو شهيد لغصته

عاص لشربه الخمر اهـ كلامه وهذا الأخير عندي غير مقبول لأن الشهادة رتبة شريفة وهي من الرخص التي ترخص الله بها لعباده المؤمنين فأكرمهم بها زيادة في ثوابهم على ما حملوا أنفسهم من المشقة المتلفة لأنفسهم في مرضاته والعاصي في فعله لا يترخص له ولا سعي له في مرضاة ربه حتى يرضيه بالشهادة نعم إذا كانت المعصية بغير ما وقع به القتل كالأباق أو من زنى أو من سرق في سفره فهذا قد يقال فيه شهيد من جهة عاص من جهة لأن الجهة منفكة فجهة قتله غير جهة عصيانه وأما إذا كان سبب القتل في نفسه معصية كشرب خمر فيغص بها أو تمكين امرأة من الزنى بها فيموت فيبعد أن تحصل لهذا رتبة الشهادة أليس الغريق والحريق وذو الهدم والمبطون وغير هؤلاء كلهم قد ورد أنهم شهداء فلو أن أحدهم رمى بنفسه عمدا في البحر فغرق أو في النار فاحترق أو تناول سما أو دواء معلوما فمات لا يقال فيه شهيد اتفاق وكذلك هذا تناول معصية كانت سبب حتفه أنى له الشهادة اللهم إلا أن يكون المحترق مثلا ممن قام لنار يريد إطفاءها ولا يعلم أنها تحرقه فغلب حتى احترق أو أراد إنقاذ غريق وهو يظن من نفسه القدرة على ذلك فغلب فغرق أو غير ذلك من الوجوه التي يكون فيها أصل الفعل الذي وقع به القتل مباحا فهذا شهيد بلا كلام وشارب الخمر أن لم يقصد به إتلاف نفسه فهو معصية وحدها وما ترتب عليه من القتل معصية أخرى سببها معصية وإن لم يكن القتل مقصودا فإن المعصية لا يتوقف كونها معصية على القصد إليها ونيته إنما معصية فإن الطاعة هي التي تتوقف على النية دون المعصية فيؤاخذ بها عاجلا ويعاقب آجلا نواها أم لا ألا ترى أن من تعمد ضرب إنسان ولم يرد قتله ولا قصده فمات منه فإنه آثم آجلا ويقتص منه عاجلا لأن السبب الذي نشأت عنه المعصية معصية كشرب الخمر في مسألتنا فهو معصية ونشأت عنه معصية أخرى وهي قتل نفسه إلا أنها ليست مقصودة له فلا ينفعه عدم القصد ولا يدرأ عنه الآثم ولو سلمنا أن آثم القتل مندفع عنه لكونه غير مقصود له

فمن أين له الشهادة التي هي أشرف مقام خص الله بها من جاهد في سبيله ثم من صبر لضر أنزله به مولاه حتى لقي ربه وهو راض عنه نعم إن لم يمت هذا المغصوص بأثر الغص وطالت حياته حتى تاب من فعله توبة صادقة ثم مات بأثرها من تلك الغصة لا يبعد أن يقال هو شهيد بغصته ولو قيل أنه مرتكب في المعصية بعد توبته لبقاء أثر ما سبب فيه كما قال إمام الحرمين في الخارج من المغصوص تائبا لما بعد ذلك والصحيح صحة توبة هذا المغصوص إن لم يمت بأثرها كتوبة الخارج من المغصوب. اهـ فليتأمل

قلت ما ذكره من النظر فيه نظر عندي إذ لا فرق بين الأبق الذي مات في قتال الكفار وبين من غص بشربة خمر إذ كلاهما عاصيان بسببها لأن الأبق نفس سفره معصية وهو السبب في موته وكذا شرب الخمر فانه السبب أيضا فإن سلم الأول أنه يثاب من جهة القتل ويعاقب من جهة الأباق لزمه أن يسلم الثاني أيضا لأنه يثاب من جهة الموت لكونه شرق بشربة فمات فهو شهيد لظاهر ما ورد فيه لأنه لا فرق فيما غص فيه انه مأذون فيه أم لا فيشمل المحرم لأن الشهادة حاصلة بالإشراق فمن غير اعتبار لما حصلت به فيعاقب من جهة ويثاب من جهة.

فإن قلت الأباق ليس سببا مباشرا للموت لأن الموت إنما حصل بقتال الكفار مباشرة والأباق سبب السبب الذي هو حصول القتل من الكفار فافترقا فلم يكن حينئذ الغص مثل الأباق لما علمت من كون الغص مباشرا في الموت بخلاف الأباق.

قلت لا فرق بينهما عند التأمل لأن سفر الأباق معصية وحصول الموت له نشأ عن معصية كذا الغصة فإنها معصية نشأ عنها الموت وقتال العدو لمسلم يوجب له الشهادة كما يوجبها الإشراق أيضا فلا فرق بينهما حينئذ حصل عن سبب مباح أو غيره لأن ما به الموت موجب الشهادة ولا علينا من غيره فإن كان السبب طاعة أثيب

من جهتين وإن كان معصية أثيب من جهة وعوقب من أخرى فمحص ما قاله أولا لما تقرر لك أن الآبق عند القتل والمغصوص عند الإشراق كلاهما في معصية وحصول الإشراق والقتل موجبان للشهادة كما هو ذلك في صحيح الخبر من غير اعتبار السبب أو الوقت نعم وزانه ما ذكروه في باب قضاء الفوائت وهو أن من عليه القضاء ثم ترك ما عليه من القضاء واشتغل بالتنفل فانه يحرم عليه ذلك غير انه يثاب على التنفل ويعاقب على ترك ما عليه من القضاء لما علمت من تعمير الوقت بالطاعة وإن كان غير وقت التنفل إذ هو عاص في ذلك لأنه وقت قضاء ومثاب لكونه اشغله في طاعة فهذه طاعة تنشأت عن معصية وكذا ثوابها نشأ عن سبب منهي عنه فلا فرق في كل ذلك والمسائل من هذا النهي لا تعد ولا تحصى.

وأما قوله أن الإنسان إذا ضرب ما لا يحل فنشأ عنه الموت فانه آثم ويقتص منه بعيد عن هذا المرام لكونه تعمد الضرب فيما لا يحل ونشأ عنه إتلاف النفس وهو مذموم شرعا بل هو من الكبائر فنشأ عن هذه المعصية معصية كبيرة وجناية عظيمة بخلاف الغص فانه نشأ عنه كرامة عظيمة وهي الإشراق كما أن الآباق الذي هو حرام وسبب منهي عنه نشأ عنه أيضا كرامة جليلة وهي القتل من العدو لأنهما أي الإشراق والقتل الموت بهما شهادة شرعا.

وبالجملة المعتبر في الحاصل الذي هو الموجب في الشهادة لا في المحصل إذ لا عبرة به فتأمله منصفا والله تعالى اعلم.

قال الشيخ المذكور وذكر انه حضر مجلس شيخ الإسلام الشبراملسي يقرأ عليه المواهب اللدنية قال وقرر تقريرات عجيبة في حديث أول ما خلق الله نور محمد صلى الله عليه وسلم إلخ وقرر وجه انقسام ذلك النور وكيفيته مع أن الحقيقة الواحدة لا تنقسم وليست الحقيقة المحمدية إلا قسما واحدا من تلك الأقسام والباقي إن كان

منها أيضا فقد انقسمت وان كان غيرها فما معنى الانقسام وحاصل جوابه أن معنى الانقسام زيادة نور على ذل النور المحمدي فيؤخذ ذلك الزائد ثم عليه نور آخر ثم كذلك إلى آخر الأقسام.

قال وهذا جواب مقنع بحسب الظاهر والتحقيق والله اعلم وراء ذلك.

وذلك إنما يدركه على الحقيقة من عرف معنى تعالى الله نور السموات والأرض ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم لما قيل له هل رأيت ربك فقال نور أنّى أراه كما في بعض الروايات بفتح الهمزة في أنى ونونه كلمة استفهام أو نوراني بياء النسب آخره كما في بعضها وتحقيق ذلك على ما ينبغي ليس مما يدرك ببضاعة القول ولا مما تتسلط عليه الأوهام والإفهام وإنما يدرك بكشف إلهي وإشراق حصة من أشعة ذلك النور في قلب العبد فيدرك نور الله بنوره فيكون الحق في الحقيقة هو المدرك لنوره بنوره ونسبة الإدراك حينئذ إلى العبد مجاز وأقرب تقرير يعطي القرب من فهم معنى الحديث أن يقال لما كان النور المحمدي هو أول الأنوار الحادثة التي تجلى بها النور القديم الأزلي وهو أول التعينات للوجود المطلق الحقاني وهو مدد لكل نور كائن أو يكون فكلما أشرق النور الأول في حقيقته فتنورت بحيث صار هو نورا كما دل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في دعاء الأنوار واجعلني نورا أشرق نوره المحمدي على حقائق الموجودات شيئا فشيئا فهي تستمد منه على قدر تنورها بحسب كثرة الوسائط وقلتها وعدمها وكلما أشرق نوره وفاض على نوع من الحقائق ظهر النور في مظهر الانقسام فقد كان النور الحادث أولا شيئا واحدا ثم أشرق في حقيقة أخرى فاستنارت بنوره تنورا كاملا بحسب ما تقتضيه حقيقتها فحصل في الوجود الحادث نوران مفيض ومفاض وفي نفس الأمر ليس هناك إلا نور واحد أشرق في قابل الاستنارة فتنور فتعددت المظاهر والظاهر واحد ثم كذلك كلما أشرق في محل ظهر

بصورة الانقسام وقد يشرق نور المفاض عليه أيضا بحسب قوته على قابل آخر فتنور بنوره فيحصل انقسام آخر بحسب المظاهر وكلها راجعة إلى النور الأول الحادث أما بواسطة أو بدونها وهذا غاية ما يمكن أن تصل إليه العبارة في هذا التقرير.

قال ومثلي في قصور باعه وعدم تضلعه من العلوم الإلهية إن زاد في التقرير خشي على إيمانه ولولا تأييد الحق جل وعلا ما كنا لنهتدي على أقل من هذا والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

واقرب مثال يضرب لذلك إذ بالمثال تتضح الأشياء بعض الوضوح نور المصباح الذي ليس في البيت الكبير إلا هو فتصبح منه مصابيح كثيرة [ويصبح بعضها من بعض فليس هناك في الحقيقة إلا نور المصباح الأول وقد انقسم إلى مصابيح كثيرة][1] وهو في نفسه باق على ما هو عليه لم ينقص منه شيء.

واقرب من هذا المثال إلى التحقيق وأبعد عن الإفهام نور الشمس المشرق في الأهلة والكواكب على القول بأن الكل مستنير بنوره وليس لها نور من ذاتها فقد يقال بحسب النظر الأول نور الشمس منقسم في هذه الأجرام العلوية وفي الحقيقة ليس هناك إلا نورها وهو قائم بها لم ينقص منه شيء ولم يزايلها منه شيء ولكنه أشرق في أجرام أخر قابلة للاستنارة فاستنارت.

واقرب من هذا للفهم ما يحصل في الأجرام السفلية من إشراق أشعة نور الشمس على الماء أو قوارير الزجاج فيستنير ما يقابلها من الجدران بحيث يلمح فيه نور كنور الشمس مشرق بإشراقه ولم ينفصل شيء من نور الشمس على محله إلى ذلك المحل ومن كشف الله حجاب الغفلة عن قلبه وأشرقت الأنوار المحمدية على قلبه

---

(١) ما بين القوسين ساقط في الرحلة العياشية.

بصدق أتباعه له صافية بصفاء إيمانه بالله ورسوله من شبه الباطل أدرك الأمر إدراكا آخر لا يحتمل شكا ولا وهما نسأل الله أن ينور بنور العلم الإلهي بصائرنا، ويحجب عن ظلمات الجهل سرائرنا[١]، ويغفر لنا ما اجترأنا عليه من الخوض فيما لسنا له بأهل بل نحن عن أهله بمعزل، ولم نطف قط بساحته فضلا عن المنزل، ونسأله أن لا يؤاخذنا بما تقتضيه العبارة من تقصير في حق ذلك الجناب، ناشئ عن القصور في مقام العرفان ونزول منازل الأحباب.

ولقد أجاد كل الإجادة صاحب منارات السائرين إلى الله لما قرر معنى كون النور المحمدي أصل الموجودات ولأجله خلقت مع مجيئه آخرا وضرب لذلك مثلا قريبا إلى الإفهام ببزر الشجرة مع الشجرة والثمرة فجعل النور المحمدي الذي هو الأصل كالبزر والعالم كله شجرة واللطيفة المودعة في ذلك البزر[٢] سارية في جميع أجزاء الشجرة من أوراق وأغصان وأزهار فيه قامت ولولاه ما وجدت ثم الحقيقة[٣] المحمدية الموجودة بصورتها آخرا بمنزلة الثمرة هي عين اللطيفة البزرية السارية في عوالم الشجرة إلى أن ظهرت آخرا على أكمل وجه مع عوارضها المشخصة فهي ثمرة الوجود بأسرها ولولاها ما غرست الشجرة ولأجلها كان غراسها وهي أصلها وبزرها وهو مثال حسن قريب من الفهم وقد جعل صاحب الكتاب المذكور هذا المثال أصلا بنى عليه فصول كتابه كلها وهو حسن جدا مفيد في بابه إلا أن فهمه يعسر على غير أهله اهـ.

ومن أكرمنا بهذه الديار واستدعانا لمنزله الشيخ عبد الرءوف نقيب كسوة

---

(١) في نسخة أسرارنا.

(٢) في الرحلة العياشية النور.

(٣) وفيها أيضا الحقيقية.

الكعبة المشرفة وهو من خواص أصحاب شيخنا الشيخ علي الزعتري ذهب معنا يوما لداره باستدعائه وبالغ في الإكرام والمبرة والاحترام وحدثنا وباسطنا حسبما يجب وأخبر أن الكسوة تقام كل سنة بائنين وعشرين ألف كيس والكيس خمسمائة غرش والمحمل سبعة أكياس من أحباسها وربما يزيد القيم المذكور من عنده أربعة أكياس إلى ستة وكان كثيرا ما يبحث عن علم الكيمياء وسر الحروف ليستعين به على ما هو بصدده وحسبنا أننا نتعاطى من ذلك شيئا واستعظم كوننا غير معتنين بتلك الحرفة ولم يعلم أن طريقتنا كطريقة أشياخنا عدم استعمال الأسماء والأوفاق بل ولا الأذكار طلبا لفائدتها العاجلة بل ولا الآجلة في الغالب وإن كانت حاصلة ضمن ذلك والكفاية بالله أولى من التعلق بالآثار.

ولله در شيخ شيخنا القطب الكامل وارث المقام المحمدي أبي محمد سيدي عبد الله بن حسين الرقي إذ قال لما بلغه أن بعضا اتهمه بعلم الكيمياء خدمنا لا إله إلا الله حتى وجدنا له بركة ومن ظننا بخلاف ذلك فقد ظلمنا.

قلت ومن أحمق الناس من لم يرض بقسمة الله في حاله ومقامه وصار يتشوق لما لم يقدر له ولا تحمله قواه غافلا عن تدبير الله أياه قال ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء.

ولقد ذكر شيخنا أبو سالم في رحلته عن الشيخ علي الصوفي وكان ممن يبحث عن هذا الفن أنه حدثه أن بعض من ينتحل علم الأسماء أخبره انه كان يستعمل دعوة آية الكرسي ويشتغل بها على طريق أهل ذلك ولا يبيت عندك منها درهم واحد فقال له لا أقدر على هذا فانه لا يكاد يخفي وأخاف على نفسي أن ظهر ذلك علي من أرباب الدولة فلو كنت تأتيني كل يوم بشريفي واحد أو اثنين أو عشرة ففيها الكفاية فقال له لا بد من الألف على الشرط المذكور وإلا فلا ولم يزل راجعه في الاقتصار

على الكفاية حتى أبى عليه فأيس منه وترك قراءة الدعوة.

قال وهذا من أعظم دليل على حمق الراغب في الدنيا فإن الله قد تكفل له بالكفاية على وجه يرضاه لي على قدر حاله ويعلم فيه صلاحه أن رضي ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء فلو أعطى ما فوق اللائق بحاله لم يستطع ألا ترى أن هذا لما رُدَّ إلى حال لا تليق إلا بالملوك ومن يحاكيهم أي ومن يماثلهم لم يقدر على ذلك لأنه فوق طوره ولا استغنى بالحال التي أقامه الله فيها فانه اعلم بشئونه لاستراح ولكنه أراد أن يدبر لنفسه حالا ظن أنه أولى به متن خلاف مراد الله به فنبهه الله بما أراه على أن ما كان يظنه من أن كثرة المال هو اللائق بحاله ويحسن في الرأي وغلط في التدبير لعجزه عن القيام به وهذا رجل ملطوف به ولولا لطف الله به لقبل ذلك فيكون فيه حتفه قريبا ولكنه نظر ما آتاه الله من نور العقل والحكمة فعلم أن ذلك لا يتم له لأنه على خلاف مقتضى الحكمة الإلهية اهـ.

تنبيه الكسوة المذكورة إذا كان النصف من شوال أو قبله أو بعه يخرج المحمل الخروج الأول فيوتى بها من دار الصنعة فتضرب سجافة على باب القلعة فتخرج السناجق كلهم والولاة والأمراء والحكام والقاضي كل واحد مع أتباعه ولكل واحد مجلس معلوم في السجافة المضروبة ومجلس الباشا في الوسط وعن يمينه مجلس القاضي وكلما أتى واحد من الأمراء وأرباب الدولة جلس في مجلسه المعهود له وقربهم من الباشا بحسب قربهم من مناصبهم فإذا تكاملوا كلهم وأخذوا مجالسهم وصُفَّت الخيل عن يمينهم صف كل طائفة مع جنسها إلى أن تحيط بالميدان الذي هو أمام مجلس الباشا وهو ميدان كبير يسع من الخيل الألف وآخر من يخرج الباشا فتخرج أمامه طائفة من عسكره بعضه أثر بعض على ترتيب معلوم وقانون مضبوط

وآخر من يخرج معه طائفة من الشاوشية[1] على أرجلهم عليهم جلود النمر وعلى رءوسهم طراطير طويلة من اللمط لها ذيول معكوفة بين أكتافهم وعلى جباههم صفائح من الفضة مستطيلة مع الطراطير إلى فوق مموهة بالذهب تلمع لمعانا فإذا خرج هؤلاء خرج الباشا بأثرهم راكبا فإذا وصل إلى السجافة قام الكل له واضعين أيديهم على صدورهم حتى يجلس وكذلك يفعل من تقدم للجلوس من الأمراء مع من يأتي بعده فإذا جلس الباشا جيء بالجمل الذي يحمل المحمل وعليه المحمل وهو قبة من خشب رائقة الصنعة بخرط متقن وشبابيك ملونة بأنواع الأصباغ وعليها كسوة من رفيع الديباج المخوّص بالذهب ورقبة الجمل ورأسه وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم وعليه رسن محلى بمثل ذلك والجمل في غاية ما يكون من السمن وعظم الجثة وحسن الخلقة مخضوب جلده كله بالحناء يقوده سائسه وعن يمينه وشماله آخر ويتبعه جمل آخر مثل صفته ثم يؤتى بالكسوة المشرفة ملفوفة قطعا قطعا لك قطعة منها على أعواد شبه السلالم معدة لذلك يحملها رجال على رءوسهم والناس يتمسحون بها ويتبركون ويؤتى بكسوة باب الكعبة منشورة على الأعواد وتسمى البرقع كلها مخوصة بالذهب حتى لا يكاد يظهر فيها خيط واحد بصنعة فائقة وكتابة رائقة ثم يمر بكل ذلك بين يدي الباشا والأمراء ويقومون لها إذا مرت بهم تعظيما لها ثم يخلع على الذين صنعوها بمحضر ذلك المجمع ثم يذهب بها كذلك حملتها ويمرون بها في وسط السوق والناس يتمسحون بها حتى يبلغوها إلى المشهد الحسيني فتنشر في صحن المسجد وتخاط هناك.

قال الشيخ العياشي في رحلته فإذا كان اليوم الحادي والعشرون من شوال خرج المحمل من القاهرة وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الكبير الذي هو من أيام الزينة

---

(١) في ثلاث نسخ الشواش.

ويجتمع له الناس من أطراف البلد ويؤتى بكسوة البيت الشريفة المعظمة المنيفة من موضع خياطتها وتجعل في المحال التي تحمل فيه ويجتمع الأمراء والسناجق والجند جيعا على الهيئة المتقدمة في الخروج الأول إلا أن هذا أتم احتفالا وأكثر جمعا فإذا تكامل جميع الأمراء على الوجه المتقدم وصفت الخيل والرماة وخرج الباشا جيء بجميع ما يحتاج إليه أمر الحاج من إبل وقرب ومطابخ وخيل ورماة وغير ذلك من الأسباب التي تخرج من بيت المال فيحضر جميع ذلك في ذلك الميدان كل طائفة لها أمير مقدم عليها حتى الطباخين والفراشين والسقائين ثم يؤتى بالمحمل الشريف على جملة المذكور أولا يقوده سائسه حتى يناول رسن الجمل للباشا فيأخذه بيده ويناوله الأمير الحاج بمحضر القاضي والأمراء ومعاينتهم ثم يناوله أمير الحاج لسائسه فيذهب به وذلك كله كالشهادة على الباشا بأنه مكن لأمير المحمل وكل ما يحتاج إليه أمير الحاج من ذهابه إلى إيابه وعلى أمير الحاج بأنه تسلم ذلك ويشهد على ذلك القاضي والأمراء ويكتب بذلك إلى السلطان فإذا مر المحمل بين يدي الباشا وذهب جيء بالإبل يمر بها بين يديه بما عليها من القرب والمطابخ والآلات كل طائفة بمقدمها فإذا مرت الإبل كلها جيء بالمدافع وهي خمسة تجرها البغال ثم جاء الرماة الرجالة من ورائها فيمرون ثم تأتي الخيل فتمر فإذا مر جميع ذلك بين يدي الباشا جاء أرباب الطوائف[1] كل طائفة من مشائخ الصوفية بشيخهم ولوائهم رافعين أصواتهم بالذكر كالقادرية والرفاعية والبدوية والدسوقية حتى السعاة يأتون بشيخهم فيمرون بين يدي الباشا ويعطيهم ما تيسر فإذا لم يبق أحد ممن يمر بين يديه خلع الباشا على أمير الحاج خلعة وعلى كل أمرائه الذاهبين معه كالكخيا[2] والدويدار وغيرهما ثم يودعه وينصرف ثم يمر بالمحمل وسائر الإبل والعسكر

---

(١) في نسخة الوظائف.

(٢) لعله الكاخية لغة في الكاهية.

وسط المدينة والناس مشرفون من الديار والمساجد التي تلي الشوارع ويتعطل غالب الأسواق في ذلك اليوم.

قال أخبرنا أن بعض تلك الديار المشرفة على الشوارع قد تكرى من أول السنة ولا يسكنها مكتريها ولا ينزلها إلا في ذلك اليوم قصدا للتفرج وفيما سوى ذلك من الأيام تبقى معطلة أو يسكنها غيره.

وبالجملة فهذا اليوم عندهم من أعظم أيام السنة ولا ثاني له إلا يوم كسر النيل عند وفائه ويقرب منه أيضا يوم قدوم الحاج فهذه الأيام الثلاثة هي التي يحتفل لها عندهم غاية الاحتفال ويحتبل أتم الاحتبال فإذا خرج المحمل من الميدان الذي على باب القلعة إلى فضاء الرملة بقي الكثير من الخيل هناك للعب ولا يذهب معه إلا المعينون للسفر معه والرملة فضاء واسع خارج قلعة الجبل فيه تباع الإبل والخيل وسائر الدواب وبه يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة وتنصب فيه أيام الموسم اراح متعددة لتدشيش الفول يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها وقد أعطوا قوة على ذلك يطحن الرجلان أرادب متعددة في يوم واحد فتكون بالرملة صبر من الفول المدشش كل صبرة تزيد على المائة أردب ومن هناك يكيل غالب الحاج فولهم ويعمرونه هناك من غرائرهم ويمكنونه للجمالين فيذهبون به فلا يراه صاحبه إلى المكان المشترط معهم وهو المويلح في الغالب وفي الرملة كثير من حلق المعجبين يلعبون هناك في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القرود ومن ضاهاهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالدب والحمير والتيوس والكلاب.

وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زائد وحيل غريبة قد سخرت لهم أنواع الحيوانات فقليل من أصناف الحيوانات ما لا يوجد عندهم مسخرا مذللا فسبحان

الذي خلق لابن آدم ما في الأرض جميعا ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا.

قال ويطرق الرملة الذي يلي المدينة مسجد السلطان حسن وهو مسجد لا ثاني له في مصر ولا في غيرها من البلاد في فخامة البناء ونباهته وارتفاعه وأحكامه واتساع حناياه وطول أعمدته الرخامية وسعة أبوابه كأنه جبال منحوتة تصفق الرياح في أيام الصيف بأبوابه كما تفعل في شواهق الجبال وفي أحد أبوابه سارية ورخامية لطيفة يقال أنها من أيوان كسرى وفيها نقوش عجيبة يقال إنها على صورتها وضعت أبواب المسجد قال المقريزي لا يعرف ببلد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذه المدرسة في كبر قالبها وحسن هنداسها وضخامة شكلها قال وذريع إيوانها الكبير خمسة وستون ذراعا في مثلها ويقال انه أكبر من إيوان كسرى بخمسة أذرع وقد وجدنا ركنا منه قد انهدم فكأنه طرف جبل قد سقط فملأ ما تساقط منه الشوارع والرحاب التي بإزائه ووجدناهم مجدين في ترميمه.

وقد أخبرنا أنه أعطوا ستين كيسا من الريال على جمع أنقاضه ورفعها في الشوارع والرحاب لتعاد للبناء ثانيا فإذا كان هذا أجرة النقض فما بالك بأجرة البناء قال ولما رجعنا من الحجاز بعد سنة ونصف وجدناهم قد فرغوا من ترميم ذلك الجانب المهدوم وبالغوا في إتقان صنعته ورفع بنائه ليناسب البناء الأول فكان كما قيل(١):

يـا بارقـا بأعـالي الـرقمتين بـدا   لقـد حكيـت ولكـن فاتـك الـشنب

والشنب الماء أو نقط بيض الأسنان اهـ قاموس(٢) فرحم الله أفاضل الملوك

---

(١) من البيتين المذكورين في صحيفة ٢٥١ إلى هنا ساقط من النسخة المطبوعة بتونس.

(٢) لا يوجد هذا التفسير إلا في نسخة واحدة.

الذين درجوا، والذين من خلفهم على منهجهم نهجوا، لقد خلدوا من المآثر الدينية ما أوجب خلود الثناء عليهم، ووصول الدعاء ممن بعدهم إليهم، ولم يزل أهل المشرق إلى الآن لهم فضل اعتناء ببناء المساجد والخانقات ويبالغون في تعظيمها ويتأنقون في ذلك ويبادرون إلى أصلاح ما وهي منها.

وأما أهل مغربنا فلا تكاد ترى في مدائنهم مسجدا عظيما قد أحدث بل ولا مهدما قد جدد أو واهيا قد أصلح بل لو سقط شيء من أكبر مساجدهم فأحسن أحوالهم فيه أن كان مبنيا برخام أن يعاد بآجر وجص وإن كان مجصصا أن يعاد بطين بحيث تجد المسجد كأنه مرقعة فقير هندي فيه من كل لون رقعة وإلى الله المشتكى وما أرى ما حل بمغربنا من الوهن إلا بسبب أمثال هذا من عدم تعظيم شعائر الله ولو في الأمور الظاهرة فضلا عن الباطنة وقد قيل إذا أراد الله خلاء بلد بدا ببيته ثم يتبعه ما سواه وإذا أراد عمارته فكذلك.

ثم يسار بالمحمل على هيئته وتعبيته[1] حتى ينزل ذلك اليوم بالعادلية خارج باب النصر فيقيم هناك إلى اليوم الثالث والعشرين فيرحلون من هناك إلى بركة ويخرج أمير الحاج وجميع عسكره ويخرج مع الركب من المشيعين ومن العساكر والأمراء أضعافهم فتنصب الأسواق هناك ويخرج غالب الباعة والمتسببين بحيث يوجد هناك ما يحتاج إليه السفر بأرخص من سعر مصر ويقيمون هناك إلى آخر اليوم السابع والعشرين إلى أن قال.

تنبيه أكثر العلماء مائلون في القهوة إلى الإباحة وترشح قولهم بفعل أكثر الصوفية مع تورعهم في المطاعم والمشارب زاعمين أنها تعين على السهر في العبادة ويستعين

---

(١) كذا في الرحلة العياشية في نسخة نعته وفي أخرى تعبينه.

بها الطلبة كثيرا في المطالعة الليلية.

قال الإمام أبو سالم ولا شك أنها تزيل ما يحصل في الرأس من تدويخ بسبب السهر وخلو المعدة صباحا فإذا شربها الإنسان وجد في أعضائه نشاطا وأحس بخفة رأسه وهذا في الغالب لمن اعتادها وهي مخففة اتفاقا وهاضمة.

وصحح بعض العلماء أنها تحرم على من طبعه السوداء وتكره لمن طبعه الصفراء وهي نافعة لصاحب البلغم وغيرها من أنواع المطعومات كذلك يحرم تناول ما يضر منها على من علم أنه يضره ولا يكون ذلك موجبا للحكم بتحريمها.

والحاصل أن الشاربين لها فريقان يشربونها في أماكن معدة لذلك مزخرفة قلما تخلو من لهو حضور من لا يحل حضوره من الجواري والمرد فهؤلاء الحامل لهم على شربها أتباع الأهواء والتلذذ بما قارنها من الأمور المذمومة فلا يبعد أن يقال أنها في حق هؤلاء محرمة لا لذاتها بل لما قارنها وفريق يشربونها في مساكنهم وحوانيتهم أو يشربونها في السوق ويشربونها من غير جلوس مع الفريق الأول فهؤلاء الحامل لهم على شربها الفهم لها حتى أنهم ربما يتضررون ضررا خفيفا بتركها كما يتضرر من آلف الحجامة بتركها ومن آلف شرب المسهل[1] بتركه وغير ذلك من الأمور التي يعتادها الناس ويحملهم عليها أيضا تحصيل المنافع المتقدمة من الاستعانة على السهر ومن إزالة التدويخ صباحا وغالب ما يستعملونها مع طعام خفيف ككعك أو كسر خبز فيكفيهم ذلك إلى وقت الغداء هذا كله مع خفة المؤنة إذ بفلس واحد يشرب ما يكفيه من ذلك مع تيسرها في أي وقت أرادها ولا يحتاج فيها إلى أكبر مئونة ولا مقارنة أدام أو ملح أو أبراز أو خضر أو غير ذلك مما يحتاج إليه غالب الأطعمة ويزاد

---

(١) في الرحلة العياشية العسل المسهل.

على ذلك وهو أكبر منافعها عندهم أنها تقدم للضيف وتقوم قام الطعام عندهم ولا يستحي أحد في تقديمها للباشا فمن دونه ويقوم ذلك عندهم مقام ما يتكلفه المرء عندنا من أطعمة كثيرة تبلغ قيمتها في الأحيان دينارا فأكثر ودرهم واحد يقوم مقام دينار لا يكرهه أحد بل لو قدم إليه أي طعام ولم تكن معه فكأنه لم يقدم شيئا وإن قدمت هي كفت.

قال أخبرنا شيخنا الملا إبراهيم بن حسن الكوراني أن شيخنا الإمام صفي الدين القشاشي كان يقول مما أنعم الله به على أهل الحجاز هذا البن أي القهوة لأنهم ضعفاء فقراء في الغالب والناس يقدمون عليهم من الأفاق والإنسان لا بد له من طعام يقدمه لمن دخل عليه ولا قدرة لهم على تكلف ذلك لكل أحد يدخل عليهم وهذه القهوة خفيفة المئونة والناس راضون بها غنيهم وفقيرهم ورئيسهم ومرؤسهم فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود أحد عليهم فلا يبعد أن تكون مستحبة عند أهل الحجاز لأن اتخاذ الإنسان ما يصون به عرضه مطلوب شرعا.

قال ذلك بعض الشراح وقد سئل عن حكمها قال وكلام هذا الشيخ مع جلالة قدره وجمعه بين العلم الظاهر والباطن وكلام غيره من أئمة الطريق مما يتقوى به قول من قال بإباحتها لأن المسألة إذا كانت ذات قولين وكان الصوفية مع إحدى الطائفتين ترجح قولهم لا محالة لما رزقوه من صدق الإلهام ونفوذ البصيرة مع تأييد الله لهم عند اشتباه الأمور فيميلون مع الحق أين ما مال لرفضهم دواعي الهوى نص على ذلك غير واحد من الأئمة وقد شاع وذاع عند كثير من الناس بل ذكره غير واحد ممن تكلم عليها أن أول من أحدثها وأخرجها من أرض اليمن الشيخ الولي الصالح المتفق على ولايته سيدي علي ابن عمر الشاذلي اليمني وأمر أصحابه بشربها ليستعينوا بذلك على السهر في العبادة ثم لم يزل أمرها يفشو شيئا فشيئا ومن بلد إلى

بلد إلى أن آل إلى ما آل بحيث عمت البلاد المشرقية وكثيرا من المغربية فيحمل منها في كل سنة من بلاد اليمن لكل أفق من الأفاق شرقا وغربا آلاف من الأحمال فتدفع فيها أموال قلما تدفع في غيرها بن التجارة فيبلغ الحمل منها في مكة إذا رخص فوق العشرين ريالة وبمصر إلى الخمسين وفي البلاد الشاسعة كأفريقية وبلاد الروم من القسطنطينية وغيرها فوق المئين ثم قال لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة.

رأيت في مكة كلاما لابن حجر الهيتمي المكي في إباحة القهوة بالغ فيه بالثناء عليها وذكر محاسنها وكان من جملة ما ساقه مساق الاستدلال على أنها مباحة وأنها من شراب الصالحين ومعينة على العبادة أن كثيرا من السلاطين والولاة والحكام قد بالغوا في أرادة قطعها والنداء عليها في الأسواق أن لا تشرب ولا بد من أراقتها وزجروا عليها بأنواع الزجر ومع ذلك لم تزد إلا شهرة وشيوعا في البلاد فدل ذلك على أنها من شراب الصالحين وأنه قد شمل نظر مخرجها ومبدعها فلا يقدر أحد على قطعها أو كلاما هذا معناه لطول العهد به.

قال وهذا الاستدلال كما ترى ساقط فإن الدخان الذي شاع في الأفاق أكثر العلماء على تحريمه وهو الصحيح إن شاء الله لما اشتمل عليه من المفاسد ولا منفعة فيه أصلا وأتفق أرباب القلوب شرقا وغربا على التنفير منه وكراهته ولم يزل الأمراء مجتهدين في قطعه ومع ذلك فلا يزاد إلا شهرة بل الخمر المحرم بالكتاب والسنة والإجماع قد اشتهر في كثير في الأمصار وعمت البلوى به غالب الأقطار فالاستدلال بالشيوع وعدم القطع الولاة والحكماء على الإباحة لا يخفى ضعفه وبطلانه على من له أدنى معرفة وتمييز بين صحيح الأدلة وباطلها فكيف بذلك الإمام اللهم إلا أن يقال لما لم يقتصر على الاستدلال عليه وضم غيره إليه فكأنه لم يعتمده دليلا بل ذكره مقويا للأدلة ومستأنسا به وهو الظاهر من كلامه ومع ذلك فلا يخفى ضعفه فان

داعي الهوى لا سيما في الأواخر غالب مع ميل النفوس إلى المطلوب وضعف داعية الردع من الطالب انتهى.

قلت الاستدلال بما ذكر ظاهر ونظيره ضعيف وبيانه إن محدث القهوة إمام صالح عارف ولي ولم يحدثها سدى وإنما أحدثها لنفع ظاهر شامل إذ فعل مثله لا يخلو عن الفائدة وهو مصون عن العبث قطعا والولي محروس بعناية الله فلم يكله إلى نفسه طرفة ولا أقل م ذلك فلما أطلعه الله على نفعها للعامة والخاصة أبدعها وأعلم بها أصحابه ثم سارت بها الركبان في المشارق والمغارب ولم يذمها أحد من أولياء الله الصالحين وكذا أرباب القلوب فاشتهرت من غير نكير إذ لو كان هذا الحكم من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فركب الدليل عليها [من أحداث الولي لها وعدم النكير من أرباب القلوب وكذا من العلماء فأقبلت عليه][1] إذ قال الأجهوري إقبال العامة[2] على الحديث دليل على صحته ذكر ذلك في شرحه لألفية العراقي في السيرة النبوية بخلاف الدخان فلم يحدثه ولي وكذا أنكره أرباب القلوب وذمه أكثر العلماء بل حرموه فلا يشربه إلا خسيس الهمة وقد علم في وطننا انه لا يشربه إلا من لا دين له أو ضعيف عقل بهوى.

وبالجملة فمنور السريرة لا يشربه ويزجر عن شربه بخلاف القهوة إذ أرباب القلوب وجدوا شربها مغيرا لها ومكدرا لصفوها ومانعا من الفتوحات اللدنية والعوارف[3] الإلهية وصارفا عن الحضرة الربانية فشربه كأكل طعام محرم وآكله يعصي الله شاء أم أبى فإذا كان كذلك فإنكاره دليل على ذمه شرعا لا سيما وإن

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة الأئمة.

(٣) في نسخة المعارف.

أفاضل العلماء قالوا بحرمته لما فيه من ضرر الأبدان بل في بعض الأحيان انه يغيب العقل ويوجب إسرافا في المال من غير منفعة دنيوية ولا دينية بل مضرهما.

وقد قال الشيخ عبد الباقي في شرحه على العزية عند ذكره لشربه فقال بجوازه إذ لا دليل على تحريمه شرعا والأحاديث المروية في منعه موضوعة يدلك على وضعها ركاكة ألفاظها غير أن جوازه مقيد بقيود منها أنه لا يضر بالبدن فان اضر به حرم وكذا لا يمنع السلطان من شربه فإن منع منه حرم أيضا لأن السلطان له أن يمنع المباح فإن منعه صار حراما نص عليه غير واحد من شراح خليل وغيرهما من القيود فالمنع حينئذ من شربه طوق في عنق وأيضا في شربه التشبيه بأهل النار في قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝ ﴾ ولا شك أن الدخان كذلك يطلع على الأفئدة وناره موصدة في عمد الذي هو الغليون في لغة مصر والسبسي في لغة المغرب.

فإذا تمهد هذا ظهر أن نظر العارفين ليس كنظر غيرهم لأنم لهم أدلة زائدة على القدر استدل به جميع العلماء وهي الإطلاع على خبث الأشياء الملتبسة التي وقع فيها الخلاف بين العلماء وكذا الأشياء الطيبة الملتبسة أيضا عندهم وإذا وقع الخلاف في الكل فيستدل حينئذ برأي العارفين في الجواز والمنع فيكون حينئذ من المرجحات لما لهم من الكشف التام والإدراك الحقيقي على أتم حال وأكمله إذ لا يشك فيهم لغيبتهم عن الأكوان والآثار والأوهام لأشراق شمس الحقائق على قلوبهم فلم تبق ظلمة الأوهام فيها قل جاء الحق وزهق الباطل فإذا لاح على قلب العارف فعل المختلف فيه مع كونه كاملا في علمه مستوفيا لشروط الاقتداء بفعله فإن ذلك يستدل به على كونه مأذونا فيه لا سيما إذا كان مما يستعان به على العبادة أو ينور القلب فلا جرم في جوازه وأن وقع لبعض العلماء فهي النهي لا سيما إذا كان فحا أي

لا ذوق له فلا يعتبر.

فإذا علمت هذا علمت الفرق بين الدخان والقهوة فإن القهوة أقبل عليها المتلبسون بالصدق والدخان الغالب فيه إقبال أهل الفسق عليه بل لا تجد صديقا عارفا يشمه أو يشربه فلا تساعد من يشربه ولا تسمع لقوله لما علمت قبل من اتفاق أرباب القلوب على ذمه وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى.

انعطاف إلى ما كنا بصدده قال شيخنا المذكور ما نصه ومن أحسن ما رأيت من الأسئلة والأجوبة في شأن القهوة نظما ما اشتملت عليه هذه الأبيات التي كتب بها العلامة رضي الدين محمد بن إبراهيم الحلبي الحنفي المعروف بابن الحنبلي للشيخ علي بن محمد بن عراق إلى أن قال في الجواب عن إباحتها بحيث لا يحرمها ما عرض لها مما لا يحل حضوره من الشبان والنساء وآلة اللهو غاية الأمر أن من ولاه الله أمور المسلمين يجب عليه أن ينكر ذلك ويزجر فاعله بان يفرق تلك الجموع ويشتت تلك المحافل وأما هي فحلال قطعا.

وجـوابي أنهـا حـل ولا ... يقتضي ما قلتم تحريم عين
وعلى ذي الأمر أنكار الذي ... شأنها حتى تصفي دون رين
وإذا لم يستطعه دون أن ... يمنع الأصل ففعل منه زين
والتداني من حماها وهي في ... وصفها المذكور شين أي شين
والصفا في شربها مع فئة ... أخلصوا التقوى وشدوا المئزرين
ثم ناجوا ربهم جنح الدجى ... بخشوع ودموع المقلتين
فابتداء الأمر فيها هكذا ... قد حكاه عن ولي دون مين
ذا جوابي واعتقادي انه ... في اعتدال كاعتدال الكفتين

قال والإمام ابن عراق مشهور فضله وعلمه وورعه وهو صدر في علماء الحرمين علما وعملا جوابه في المسألتين هو الحق إن شاء الله وإلى مثل ذلك تميل أجوبة كثير من الأئمة إنها إذا خلت مما يضاف إليها من المحظورات[١] فهي في نفسها مباحة وعلى ذلك عمل كثير من الأئمة في جميع الأمصار التي هي محل الاقتداء وربما رأينا من يبالغ في التنفير عنها من الأئمة المتعمقين في الورع تركا لما لا بأس به حذرا مما فيه ألباس كما هو شأنهم في غيرها من المباحات التي هي من الفضول انتهى كلامه.

قلت: وفي الخطاب ما نصه فائدة ظهر في هذا القرن والذي قبله بيسير شراب يتخذ من قشور البن يسمى القهوة واختلف الناس فيه فمن متغال فيه فيرى أن شربه قربة ومن غال يرى أنه مسكر كالخمر والحق انه في ذاته لا إسكار فيه وإنما فيه تنشيط للنفس ويحصل بالمداومة عليه ضراوة أي استئناس وألفة تؤثر في البدن عند تركه كمن اعتاد أكل اللحم بالزعفران والمفرحات فيتأثر عند تركه ويحصل له انشراح عند استعماله غير أنه تعرض له الحرمة لأمور منها أنهم يجتمعون عليها ويديرونها كما يديرون الخمر ويصفقون وينشدون أشعار من كلام القوم فيها الغزل وذكر المحبة وذكر الخمر وشربها ونحو ذلك فيسري لذلك مع ما ينضم إلى ذلك من المحرمات ومنها أن بعض من يبيعها يخلطها بشيء من المفسدات كالحشيشة ونحوها على ما قيل ومنها أن شربها في مجامع أهلها يؤدي للاختلاط بالنساء لأنهن يتعاطين بيعها كثيرا وللاختلاط بالمرد أي الشبان الذين لا شعر لهم لملازمتهم لمواضعها وسماع الغيبة والكلام الفاحش والكذب الكثير من الأرذال الذي يجتمعون لشربها مما يسقط المروءة بالمواظبة عليها ومنها أنهم يلتهون بها عن صلاة الجماعة غنية لوجود ما يلهي

---

(١) في الرحلة العياشية المحذورات.

من الشطرنج ونحوه في مواضعها منها ما يرجع لذات الشارب لها كما أخبرني والدي رحمه الله وحفظه عن الشيخ العارف بالله تعالى العلامة أحمد زروق انه سئل عنها في ابتداء أمرها فقال أما الأسكار فليست مسكرة ولكن طبعه البلغم فإنها توافقه وقد كثرت في هذه الأيام واشتهرت وكثر فيها الجدال، وانتشر فيها القيل والقال، وحدثت بسببها فتن وشرور واختلفت فيها فتاوي العلماء وتصانيفهم ونظمت في مدحها وذمها القصائد والذي يتعين على العاقل أن يتجنبها بالكلية إلا لضرورة شرعية ومن سلم من هذه العوارض كلها الموجبة للحرمة فإنها ترجع في حقه إلى أصل الإباحة انتهى.

قلت: وهذا هو الحق الذي لا معدل عنه والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وممن أجتمع به شيخنا المذكور الأستاذ الشيخ محمد البقري وإليه انتهت اليوم بالديار المصرية رياسة علم القراءات وأخذ عنه علم القراءات إلى أن قال وحرر كتبه يوم السبت المبارك السابع عشر صفر من شهور سنة ألف ومائة وعشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام والله اعلم.

وذكر لنا أن من أراد قضاء الحاجة وقدم إليها انه يكتب على خنصر يده اليمنى محمدا وفي إبهامها دحطة بالدال والحاء والطاء المهملات والتاء المثناة من فوق ويذهب إليها فإنها تقضي بحول الله وقوته وأفادنا أيضا أن من قرأ سورة إذا زلزلت إلى آخرها ثم يقول سبحان الله ملء الميزان ومنتهى العلم وعدد المنعم ومبلغ الرضي وزنة العرش فإن الله يكتب له من الأجر قدر ما بين حروف إذا زلزلت إلى أول القرآن ويمحو عنه بقدر ذلك من السيئات ويرفع له بذلك درجات.

وعنه أيضا من وضع يده على جبهته وقرأ يا مبدئ يا معيد ثلاث مرات ذكّرني ما نسيت فانه يتذكر الشيء الذي نسيه وعنه أيضا تكتب الفاتحة أحرفا مقطعة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وهذه الأحرف ف ج ش ث ت ث خ ز تمحى بماء ورد وسكر ويشرب فإنها تزيل جميع ما في الإنسان من الأوجاع.

وعنه أيضا:

لا تعــــترض مـــــن تـــــراه	تكتــــب مــــن الأحبـــاب
واحــــذر تكـــــن منكــــرا	تطــــرد عــــن الأبـــواب
أهـــل الـــولا في الـــورى	أخفـــاهم الوهـــاب
كليلـــــة القــــدر	أخفاهـــا عـــن الطـــلاب

وقال هذان البيتان لسيدي عبد الوهاب الشعراني من الملحون ولم يقل منه شيئا سوى هذين البيتين وأقول زرت ما زاره الشيخ المذكور بمصر غالب ما بها من المزارات بالقرافتين الكبرى والصغرى من أئمة الإسلام وعلماء الدين وما بداخل المدينة كذلك ومن أجل المزارات وأعظمها بركة ونجحا المشهد العظيم المحتوي على جماعة من أهل البيت رجالا ونساء أشهرهم السيدة نفيسة الطاهرة وإليها ينسب المشهد وبها يعرف وعليه بناء عظيم وبإزائه مسجد وبيوت تسكن فلما تخلو من زائر وراغب إلى الله في كشف كربه وقبرها معروف بإجابة الدعاء فهو ترياق لنيل كل مراد، كقبر ابن عمها موسى الكاظم ببغداد، وهي السيدة نفيسة بنت الأمير حسن بن زيد بن علي بن الحسين دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق وكان الإمام الشافعي يصلي بها التراويح في رمضان رضي الله عن جميعهم.

وزرنا أيضا قبر الإمام الذي لا ينبغي لأحد دخل مصر أن يهمل زيارته إذ هو صاحب التصريف التام بمصر رئيس الأئمة، وشيخ شيوخ الأمة، محمد بن إدريس

الشافعي رضي الله عنه وعليه بناء عظيم ومسجد وخانقات وقوم من الفقراء يسكنون هناك وقيم المشهد لا يفارقه ليلا ولا نهارا وهو من المشاهد الكريمة، والمآثر العظيمة، له أوقاف كثيرة ويتخذ عند قبره كل ليلة سبت مولد يجتمع فيه أناس كثيرون يضيق بهم المسجد وأفنيته ما بين فقراء وأمراء رجال ونساء يبيتون طول الليل بين ذكر بجماعة وصلاة وقراءة قرآن لا يفترون إلى طلوع الفجر وذلك دأبهم أبدا في كل ليلة سبت ولا يخلو ذلك المجمع من جماعة من الصالحين فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني أن جماعة من الأولياء يحضرون كل يوم لزيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه وهو حقيق بذلك وجدير فانه بالمحل الذي لا يدرك علما وعملا وحالا وفتوة وحسن أخلاق وزكاء أعراق ونصرة للدين وحماية له باذلا في ذلك نفسه وماله وجاهه فقد اتفق العلماء على انه ليس في أصحاب أمام الأئمة مالك رضي الله عنه أثبت ولا أعلم ولا أفقه من الإمام الشافعي كما اتفقوا على أنه ليس في مشائخ الإمام الشافعي أجمع للخصال المذكورة من الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وعن جميعهم وما علم من تعظيم كل واحد منهما للآخر وثنائه عليه يدل على أنهما عالما الأمة وناصرا السنة وشيخا المشرقين والمغربين وقمرا سماء الكتاب والسنة المنيرين فالعلماء في كل قطر من بعدهما عيال عليهما فهما فرسا رهان، وقطبا فلكي الإتقان، وأن أنفرد الإمام مالك رضي الله عنه بفضيلة السبق ورتبة الأستاذية وسكنى المدينة ودار الهجرة والسنة إلى أن مات فللإمام الشافعي رضي الله عنه مزايا كثيرة، ومآثر شهيرة، استحق بها أن يشهر ويذكر، ويحمد في دين الله ويشكر، نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا محبتهما وتعظيمهما ومحبة سائر الأئمة المجتهدين، والعلماء المهتدين، خصوصا شريكيهما في تقرير المذاهب، وحيازة التشريف باسم الأئمة بالغلبة وذلك من أعظم المواهب، الإمام الأعظم أبا حنيفة وناصر السنة أحمد بن حنبل فكلهم على هدى من ربهم، ومهتد حقا من اهتدى بهم، فرضي الله عنهم وعن

سائر العلماء أجمعين، وجعلنا لمناهجهم السديدة من خيار المتبعين.

وزرنا أيضا الإمامين الشهيرين، الشاخين الهامين الحاملين، لراية مذهب مالك، السالكين في ذلك أحسن المسالك، راية المذهب، عبد الرحمن بن القاسم وحاميه وناصره أشهب، رضي الله عنهما وقبراهما متجاوران يستجاب الدعاء عندهما مجرب وذكر الإمام أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في رسالته أن من وقف بين قبريهما وقرأ قل هو الله أحد مائة مرة ثم استقبل القبلة ودعا أجيب دعاؤه وبإزائهما قبور كثيرة لمشائخ الأئمة رضي الله تعالى عنهم وزرنا بائع نفسه في مرضاة الله المجاهد في سبيل الله عقبة بن نافع الصحابي رضي الله عنه وعليه بناء عظيم، ومسجد كريم، وزرنا أبا الفيض ذا النون المصري وشيخ المشتهرين بحب الله لسان المحبين أبا حفص عمر بن الفارض رضي الله وقبور السادة بني الوفا، مناهل الصفا، ومشائخ العارفين الإمام تاج الدين ابن عطاء الله صاحب الحكم والإمام شرف الدين البوصيري وإمام المحققين ابن أبي جمرة وتلوه في المعارف والعوارف ابن الحاج صاحب المدخل وغير من ذكر من المشائخ لو تتبعنا ذكر أسمائهم لطال الكلام ولا نستقصيهم وزرنا محل الشيخ أبي عبد الله المغاوري على حرف الجبل مشرف على القرافة كلها وبالجملة ففضل القرافة وما اشتملت عليه من المزارات أشهر من أن يذكر، وأظهر من أن يشهر، وقد ورد في الآثار أنها بقعة من الجنة ولذلك أمر الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجعلها مقبرة للمسلمين قائلا لا أعلم تربة الجنة إلا مقابر المسلمين رضي الله عنه ما أصدق فراسته، وأجل إمامته، وزرنا تربة المجاورين، ومن اشتملت عليه من الأئمة المحققين، والعلماء العاملين، وسمي هذا المكان بتربة المجاورين لأنه قريب من الجامع الأزهر وبه يدفن غالب أهله والمجاورين له بل الأماكن القريبة من الجامع كلها تسمى حارة المجاورين إذ لا يسكنها في الغالب إلا العلماء والغرباء والفقراء وقل أن تجد بإزائه دار سنجق أو أحد أرباب الدولة لضيق

المحل وهم يريدون السعة والقرب من القلعة التي هي محل الباشا وأكابر دولته وزرنا كذلك غالب من بالقرافة الصغرى من الصالحين وزرنا قبر الشيخ خليل رضي الله عنه وقبر شيخ الشيخ أبي عبد الله المنوفي وهما في مكان واحد وبقربهما تربة الأئمة اللقانيين وزرنا أيضا قبر السلطان المرحوم الملك المعظم المهاب العدل المعدود من الأولياء الأتقياء كما ذكر غير واحد من الأئمة السلطان قايت باي رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا ببركاته وعلى قبره بناء عظيم وبازائه مسجد متقن ومحلات لسكنى الفقراء ولقيم القبر وهو لا يخلو من عمارة وعند رأس القبر حجر مبني عليه بناء حسن فيه اثر قدمين شاع عند الناس أنها قدما النبي صلى الله عليه وسلم وهناك حجر آخر فيه أثر قدم أخرى يقال أنها قدم الخليل والناس يزورونها ويذكرون أنها من الذخائر التي ظفر بها قايت باي أيام سلطنته فجعلت عند قبره رجاء بركاتها ولا يبعد ذلك فقد كان ملكا عظيما عدلا موقرا مهابا محببا إلى الخلق ذا سيرة حسنة في الرعية واجتهاد في عبادة ربه إلا أنه لم نر من نص على أنه ظفر بشيء من هذه الآثار من المؤرخين بل قد ذكر جماعة من حفاظ المحدثين أن ما استفاض واشتهر خصوصا على ألسنة الشعراء والمداحين من أن رجل النبي صلى الله عليه وسلم في الحجر لا أصل له ولم يذكر أحد أن أثر الخليل عليه السلام موجود في غير حجر المقام.

أقول قال شيخنا المذكور قال شيخنا العياشي في رحلته وبالمدينة المنورة ومكة والقدس آثار يقال أنها آثار بعض أعضاء النبي صلى الله عليه وسلم من قدم ومرفق وأصابع والله اعلم بصحة ذلك ولكن لم يزل الناس منذ أعصار يتبركون بها من العلماء والصلحاء ويقتفي الأخير منهم الأول قال فلأجل ذلك لما دخلنا إلى مزار السلطان المذكور صب القيم على الأثرين شيئا من ماء الورد فغمسنا فيه أيدينا ومسحنا به على وجوهنا ورؤسنا وأبداننا رجاء البركة بحسن النية وجميل الاعتقاد لأن المنسوب إليه ذلك عظيم ورائحة النسبة مع حسن النية كاف في ظهور الأثر

وحصول المرام ولم يزل الناس يتعرفون البركة وإجابة الدعاء في الأماكن المنسوبة إلى الأنبياء والأولياء والعلماء ولو لم تصح النسبة فما بالك بما نسب إلى سيد الوجود فالكل في الحقيقة إليه منسوب، إذ هو أصل الموجودات وسر المشهودات فأي محل كان مظهرا لبعض كمالاته بالفعل أو بالقول أو بمجرد النسبة مع أصل النسبة الحقيقية عمت البركة وغشيتهم الرحمة يدرك ذلك بالذوق أربابه، ويتعرفه بالبصيرة النورانية أصحابه، والله المسئول أن يمدنا بمدده الساري في أسرار محققي أتباعه، وينظمنا في زمرة حزبه وأشياعه، وصلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين انتهى كلامه.

ومن يوم خروج المحمل شمر الناس عن ساق الجد في التجهيز للسفر باتخاذ الزاد وشراء الإبل أو كرائها وأزيحت العلل وكان الناس قبل ذلك في سعة من أمرهم ويقدم الجمالون من الصعيد والأرياف طالبين الكراء واختلفت رغبات الناس في ذلك فمن مائل للكراء ومن مائل للتدرب بإبله فمن أراد راحة بدنه وتعب قلبه والخصومات آناء الليل وأطراف النهار اكترى ومن أراد سلامة قلبه ودينه والمخاطرة بماله اشترى إبله ثم يأتي عرب الدرب للكراء على حمل الفول من مصر إلى المويلح ومن أراد المخاطرة فلا يكتري شيئا ويشتري في كل بندر ما يحتاج إليه إلا أنه ربما يقل في بعض الأحيان فيشتري في بعض المحال غاليا وغالب الأوقات يكون الأمر متقاربا في الشراء والكراء وربما كان الشراء أرخص من الكراء.

قلت وفي وجهتنا هذه كان الشراء أرخص بكثير والتقى الناس من رخص الأسعار في جميع البنادر ما لم يخطر لهم على بال وكاد يعد من المحال وكذا في الحرمين الشريفين فسبحان من بيده الأمر كله يفعل في ملكه ما يشاء تبارك وتعالى وهو أرحم الراحمين.

ولا يقطع الكراء مع واحد من عرب الدرب حتى يأتي عريفهم لأمير الركب فيتقاطع معه في الكراء ويعطون له حلاء هناك بمصر لئلا يغدروا وربما غدروا في بعض السنين فيغلي الفول في بعض البنادر فيكابد الناس لذلك ما الله به عالم فإذا كان اليوم الحادي والعشرون من شوال خرج المحمل من القاهرة وهذا اليوم هو يوم خروج المحمل الخروج الكبير الذي هو من أيام الزينة ويجتمع له الناس من أطراف البلاد إلى أن ينزل خارج باب النصر بالعادلية فيقيم هناك إلى اليوم الثالث والعشرين فيرحل من هناك إلى البركة ويخرج أمير الحاج وجميع عسكره ويخرج مع الركب من المشيعين ومن العساكر والأمراء أضعافهم فتنصب الأسواق هناك فيخرج غالب الباعة والمتسببين بحيث يوجد هنالك ما يحتاج للسفر بأرخص من سعر مصر ويقيمون هنالك إلى آخر اليوم السابع والعشرين وأما المغاربة فلا يخرج منهم إلا من قصده هنالك مع المصري مؤثرا مشي الليل على مشي النهار مستسهلا مشقة السهر بالليل عن حر النهار لا سيما في أيام الصيف وإنما يؤثر ذلك غالبا صنفان من الناس أهل القوة والثروة الذين لهم شقاذف ومحامل وهوادج ينامون فيها بالليل على ظهور الإبل ويصبحون بالنهار كأنهم مقيمون ولا شك أن هذا أولى لهم من السير نهارا إذ وطنوا أنفسهم على بذل الدينار والدرهم للجمال والعكام والسقاء والطباخ وقائد الإبل وغيرهم وهم في ذلك متعاطون من النوم على ظهر الدابة ما تأباه الشريعة السمحة المبنية على الرحمة والشفقة. والصنف الآخر الفقراء الذين لا إبل لهم ولا أمتعة فيسترفقون عند المصري بالماء المسبل في أوقات من الليل وعند الرحيل نهارا مع ما ينالهم من أهل الثروة من التصدق بفضل الأطعمة إلا أنهم يكابدون مشقة عظيمة في المشي والسهر ليلا وفي النهار يشتغلون بالسعي على ما يقوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا وأما المسترفقة والباعة والجمالون من فلاحي مصر فلهم قوة وفرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك فبالليل يسيرون وبالنهار يعملون في البيع والشراء

والسقي والطبخ وعلف ال بالسعي على ما يقوتهم فلا يكادون ينامون إلا قليلا وأما المستوقة والباعة والجمالون من فلاحي مصر فلهم قوة وفرط صبر على مكابدة أعظم من ذلك فبالليل يسيرون وبالنهار يعملون في البيع والشراء والسقي والطبخ وعلف الإبل وإصلاح أقتابها ومداواة جراحاتها فلا يكادون ينامون حتى القليل.

أقول قال شيخنا أبو سالم وقد أخبرنا عن بعض من اعتاد السفر في درب الحجاز من الجمالين أنه لم ينم من يوم خرج من مصر إلى أن رجع إلى مصر مائة يوم وهذا كالمحال عادة فان صح فهو من أغرب الغرائب ولعله كان لا يضطجع للنوم على هيئة القاصد لذلك بل يغفي إغفاءة تارة على ظهر بعيره وتارة في وقت انتظار حاجة أو فراغ من أكل أو ما يضاهي ذلك فإن كان مثل هذا فلا يستبعد انتهى.

وأما من لم يقصد الذهاب مع المصري من المغاربة فلا يخرجون إلى اليوم السابع والعشرين من شوال وينزلون بالبركة عند رحيل الركب المصري أو قبله بقليل.

قلت وهكذا كانت العادة وقد يؤخرون في هذه الأواخر بحسب تجهيزهم وتهيئة زادهم وما يحتاجون إليه لمسافة الدرب أمامهم ولله در العلامة الصلاح الصفدي[1]:

درب الحجاز مشقة لكن إذا ... الجمال هان تسهلت أهواله
أصبحت في تصريف جمالي على ... ما يشتهي فكأنني جماله
قد كان خف على فؤادي لو غدا ... من فوق ظهري بالسوا أحماله
ويكون طوعي في الذي أختاره ... لكن قسا وتضاعفت أثقاله

وقال أيضا في المعنى:

---

(١) هذه القطعة ساقطة من نسختين.

درب الحجاز مبارك لكنه ... يحتاج صبرا زائد الأجمال
وغبونه شتى ولا مثل الذي ... أصبحت ألقاه من الجمال

وقال أيضا:

غدا سفر الحجاز كما تراه ... لأخلاق الرجال بدا محكا
فكم من صاحب أمسى عدوا ... به وصحيح ود قد تشكى
وجمال جبلك لا يراه ... ومكام أتى من أرض عكا
كما أن المقوم في أعوجاج ... وحين تقيمه بيديك دكا

ثم بعد الأسفار تحملنا بحملنا ما لا مندوحة عنه في الأسفار فعوضنا الخيام من المسك، وفوضنا إلى الله الأمر في المحرك والمبرك، ونحن نتوقع تواتر الأذى، ونتوقى توالي القذى، فما وجدنا والمنة لله إلا اللطف الخفي والإعانة، وتسهيل الطريق منه تعالى وسبحانه، ونكبنا البركة ذات اليسار، وشمرنا ذيول التيسار، آمّين الدار الحمراء، مستمدين من مالك الغبراء والخضراء، وهان علينا بذل البيضاء والصفراء، بل سررنا بذلك لما أملناه، وخف على النفس كل ثقيل لما قصدناه.

سررنا وطبنا حين سرنا لطيبة ... ولم نخش من طول المسير التماديا
وقلنا اجتهد يا سائق الركب إنما ... تهون المنايا أن بلغنا الأمانيا

وبركة الحاج المذكورة هي بركة واسعة مد البصر يتموج فيها ماء النيل العذب الفرات تنصب فيها الأسواق الحافلة بشاطئها والقهاوي المزخرفة والفساطيط المؤنقة ويخرج غالب أهل مصر لوداع الحاج والتفرج هناك والتنزه في بساتين ومقاصير على شاطئ النيل المنصب إلى تلك البركة وفي جانبها الغربي قرى متعددة في أحدها مسجد لسيدي إبراهيم المتبولي حسبما ذكره الشيخ الشعراني في الطبقات فنزلنا غربي

الدار الحمراء فاستهل لنا هلال ذي القعدة وهو كالسنان المنعطف فوق الصعدة.

انعطاف وتنبيه لما ظعنا من كفر حمام أردت أنا ومن اتبعني من الفضلاء السفر مع الركب المصري لما اشتهر من ظلم الركب الجزائري للناس وللهرج فيه أيضا حتى أن الإنسان يتمنى لم يقدم إلى الحج وان شيخ الركب ليس إلا يساعد الناس على ما هم عليه من ظلم وغيره وأنا لا أملك نفسي عند ظهور الظلم وساعدني الأخ في الله سيدي أحمد الطيب وسيدي أحمد بن حمود(١) وغيرهما من أفاضل الركب فلما ظعنا وأزنا الفرقة رحل جميع الركب وراءنا من غير تراخ إلى أن وصلنا إلى إمبابة(٢) وجاهة بولاق فنزلنا فرادى ونزل معنا بعض الركب وبقينا أياما هناك غير أن الناس لم ينزجروا عن التعدي عن زرع الناس بل حصدوه ورعوه بالإبل والفلاحون يتشكون ويبكون ويتباكون فنهيناهم وزجرناهم بل ضربنا بعضهم فلم ينزجروا بل زادوا ظلما وعدوانا فذهبت للشيخ فقلت له ليس إلا الانتقال إلى بولاق فرحلنا وقطعنا النيل بأجرة كما هو العادة غير أن أهل الركب يقطع أكثرهم ويمتنع من إعطاء الأجرة فلما رأينا ذلك منهم وشاهدنا عدم توبتهم نزلنا فرقتين فالشيخ مع بعض الركب نزل محاذيا لبولاق ونحن نزلنا بين مصر وبولاق ثم أن من نزل معنا من لم ينكف عن الظلم والتعدي فاكترينا(٣) عن رجل جندي غير أنه لما طلب قبض ثمن الكراء اتهمناه(٤) فأتينا به إلى شيخنا الفاضل الكامل المحقق العلامة المدقق صاحب التصانيف المفيدة سلطان العارفين وإمام السالكين الشيخ البركة سيدي محمد الحفناوي نفعنا الله به وبأمثاله آمين فعاهده وتوثق جميعنا بحضرته.

---

(١) في نسخة حمودي.

(٢) كذا في نسخة ولعله انبابة وفي ثلاث نسخ أم بابة.

(٣) في ثلاث نسخ فلما اكترينا.

(٤) في نسخة امهلناه.

نعم قد ألزمت نفسي أني لا أعطي دراهمي أحدا إلا بعد رفع الأحمال والدخول في السفر فأخذ ذلك الجندي الدراهم من بعض الحجاج اعتمادا على الشيخ المذكور فبعد يومين أو ثلاثة هرب[١] بالدراهم على أني بعثت له جملا بعشرين ريالا أبو طاقة والأجل مكة فذهب الجمل إلى أن وصل بولاق فرجع الجمل بنفسه من غير قائد ولا سائق وهو من خوارق العادة إذ من غفل لي دابته طرفة عين أخذت من غير شك فلما علمنا بهروبه ربطنا ولد أخيه وأعلمنا حاكم بولاق فحبسه وأعطى الحجاج ما وجد بين يديه من المال فلعناه وقسمناه بينهم فصار لكل نصف ما أعطى إذ قد أحاط الدين بجميع ماله.

نعم فلا تغتر أيها الحاج بحلاوة اللسان من الشياطين ولا بإظهار المودة ولا بكثرة الإيمان فإنهم ذئاب في ثياب وكذا أن أتوا لك بهدية لا تقبلها منهم فإنهم يريدون التحيل بالوصول بها إلى مالك فتقع في شبكة لا تخرج لك منها فلا يعتبرون عهدا ولا مودة ولا يمينا ولا صحبة ولا شيخا ولا وليا إلا المكر والخديعة فلا يرجى منهم إلا الخيبة والخسران والنكث والعكس ولا ينجو منهم إلا من اشترى إبلا لنفسه وحمل عليها وإلا فقد قطعوا الطريق وأسبابها لأنهم أن قدروا على أخذ المال تحيلا فعلوه وإلا أخذوه بإعطاء رشوة لأصحاب المخزن من الدعاوي الكاذبة والفجور وإظهار الشكوى بلسان الباطل وغير ذلك من فضائحهم[٢] فلم يبق إلا النصرة بالله والاعتماد عليه ليحفظك من شرهم وبسبب ذلك انقطعنا عن الركب المصري.

نعم اجتمعنا وتشاورنا فظهر لنا السفر مع سلطان فزان وحاكمه لما ظهر لنا فيه

---

(١) في ثلاث نسخ إلا وهرب.

(٢) في نسخة فظائعهم.

من الحكم والعدل فتعينت أنا والفاضل الزاهد الورع سيدي محمد الشريف النوفلي الطرابلسي للمشي إليه لطيلون إذ هو نازل هناك فلما وصلنا إليه أخبرناه بالسفر معه وأخبرناه بالسبب ففرح وسر بنا سرورا عظيما فلما رحل رحلنا معه ونزلنا عليه خارج مصر وبعد ذلك اختلط معنا(١) ركب الجزائر ثم رحلنا معه في النهار إلى البركة ليذهب مع الشيخ كل من يريد ركبنا فبتنا جميعا فلم يزالوا على النهب والتعدي في البركة ذلك اليوم وبتنا جميعا والركب الفزاني نزل حده فلما ظعنا صبيحة ذلك اليوم تأخرنا إليه أعني جميع من يتبع سيدي أحمد الطيب وسيدي أحمد بن حمود(٢) وسيدي محمد الشريف وزابر هذا الكتاب فاجتمع أهل وطننا أعني من الجزائر إلى قسنطنية معنا وما بقي إلا أهل عامر وقصر الطير وأولاد عبد النور وأولاد سعيد بن سلامة ومن تعلق بجميعهم وكذا أهل بسكرة وأهل مدُكّال وأهل المسيلة وأهل الصحراء وأهل الزاب وغيرهم الكل مع الشيخ سيدي محمد المسعود وقد رفع منهم ما رفعت الأرض من أعباء الثقلين جزاه الله عن المسلمين خيرا.

تنبيه وقد زرنا في هذه الحجة شيخنا الفاضل الكامل سلطان العارفين، وإمام الطريقة والسالكين، الجامع بين الحقيقة والشريعة، سيدي محمد الحفناوي، والشيخ الصالح، والبدر الواضح، نخبة العارفين، ودرة الموحدين، الشيخ الجوهري وزرت أيضا من بالأزهر من العلماء والطلبة وغيرهم واجتمعت مع أبي الحسن شيخ رواق المغاربة وأعارني الشيخ الحطاب شارح المناسك لخليل وهو شرح جليل قد سافرت به إلى مكة أحياه الله على السنة النبوية وأعلمته بشرحي على خطبة شرح الصغرى فلما رآه ورأى حاشيتي على المحقق المراكشي(٣) السكتاني استحسن جميع ذلك وقد

---

(١) في نسخة اختلط علينا.

(٢) في نسخة حمودي.

(٣) في نسخة بإسقاط المراكشي.

شرح هو أيضا هذه الخطبة غير انه اختصره كثيرا ثم اجتمعت الطلبة وكلموني على مسألة الجوهر الفرد إذ عندنا معشر أهل السنة موجود وأما عند غينا فمستحيل لشبهات أوردها من منع فردها أهل السنة بأمور معلومة نص عليها غير واحد كابن التلمساني في شرح المعالم والسعد والإمام السنوسي وغيرهم أن البعض ممن يدعي التحقيق من الأفاضل المحققين يسلم أدلة المنع ويمنع أجوبة أهل السنة لتمكن الشبهة في قلبه فلما أوردوا تلك الأدلة فمنهم من فهم الشبهة فمنع جواب أهل السنة ومنهم من لم يفهم الشبهة ولا الجواب عنها ففتح الله علي بسد تلك الثلمة ومنع تلك الشبهة من أصلها ورفع ما عسى أن يرد من المحال على وجود الجوهر الفرد فأشرق علي نور العرفان حتى علم الحق كل من حضر وتعجب الكل في ردع[1] المفصح بها فصعق من حضر ذلك المجلس.

نعم شهدوا الفضل وانه باق وان الفتح والوهب لا ينقطعان أبدا حتى أن بعض من كان في المجلس لما أفاق من سكرة البغت أراد ببضاعة عقله وضعف ملكته أن يرد ذلك الجواب بالحل والنقض فلم يقدر لكونه سماويا إلهيا نزل من عند الله طريا ولو أن أهل المعقول[2] آمنوا وصدقوا بفتوحات القوم لفتح الله عليهم من بركات السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذوا بحجاب الجهل وأطوار البشر بغتة من غير تراخ فسكت لكسف نور شمسه.

نعم بعد ذلك طلب مني جميعهم قراءة الكبرى للشيخ السنوسي وقالوا لا بد أن تحضر الشيخ علي الصعيدي وقت أقرائه إياها وأنك لا بد أن تشتي عندنا فوافقتهم على أقرائها ومساعدتي لهم عليها فكل من سمع من الطلبة فرح وسر بذلك غير أن

---

(١) في نسخة ردي.

(٢) في ثلاث نسخ القلوب.

منعني من الإقامة في مصر لما كان من الهرج والفتنة والنزاع بين الحجاج [والشيال لأن من دخل بولاق من الحجاج ربطوه وحبسوه ومن دخل منهم الركب ربطه الحجاج][١] فوقع هول عظيم وجميع الفضلاء يجري[٢] بين الجميع بالصلح حتى خفنا على أنفسنا من كثرة الظلم الواقع من الجانبين غير أن الحجاج مظلومون بالنسبة للشيال إذ أقرضوهم في الطريق فأكلوهم وأرادوا الزيادة منهم وأما الحجاج فقد ظلموهم بالضرب في الطريق والشتم وكل عمل قدروا عليه فانتقم الله من الجميع رزق الله الكل التوبة والندم على ما صدر من الجميع بمنه وكرمه.

وقد زرت في الحجة الثانية الشيخ البليدي وهو عالم فاضل محقق مؤلف وقد ألف حاشية على الشيخ عبد الباقي إذ رأيتها على هوامش الكتاب المذكور وأجازني في العلوم كلها وزبر ذلك بخط يده وقد حضرت عليه في الحجة الأولى بعض الدروس في الرسالة.

وزرت أيضا الشيخ الفقيه المقبول المنور العارف بالله تعالى إذ شرح خليلا شرحا مختصرا بالمزج وقد رأيته في داره وهو شرح مبارك لا بأس به وهذا الشيخ هو شيخنا الإمام العمروسي وقد أجازني أيضا غير أنه زبر الإجازة بعض تلامذته بإذنه وإملائه عليه وقد ختمها وكتب على ذلك بخط يده وطبع عليه بطابعه.

وزرت أيضا شيخنا المحقق العلامة المدقق خاتمة المحققين وإمام الأجلاء العارفين الشيخ خليل المغربي[٣] وهو في العلوم بحر لا ساحل له وان العلوم كلها ضروريات عنده لا سيما علم المعقول وقد قرأت عليه القطب على الشمسية أعني

---

(١) ما بين القوسين ساقط من نسختين.
(٢) كذا في جميع النسخ.
(٣) في نسخة الأزهري.

التصورات والعكوس والتناقض بحاشية السيد عليه وقد أجازني بخط يده في سائر العلوم نفعنا الله به والذي أخذنا معه عليه[1] هو الفاضل بالاتفاق والعلامة على الإطلاق سيدي أحمد بن عمار والفضلاء الإجلاء سيدي أحمد بن حمود وسيدي الصالح القصاري وسيدي أحمد الصديق الجزائري والفاضل المحقق البغدادي وفق الله الجميع آمين وأن محل القراءة الروضة المنورة والنخبة المشتهرة التي يستجاب الدعاء عندها وهو مسجد سيدنا الحسين[2] فقرأنا عليه قراءة بحث رضي الله عنه وأرضاه.

وزرت أيضا الشيخ العلامة والفاضل الفهامة الشيخ المؤلف ذا التصانيف المفيدة والتآليف العديدة شيخنا الملوي وقد أجازني في سائر العلوم وزبر ذلك تلميذه لأنه أقعد لا يقدر أن يقوم وهو مضطجع على سريره وقد كبر سنه بان عمره زاد على مائة سنة والذي رأيته من تصانيفه الشرحان الكبير والصغير على السلم والشرحان أيضا الكبير والصغير على رسالة السمرقندي في الاستعارات وكلاهما عندنا والأولان عند سيدي أحمد بن حمود وكذا نظم الموجهات وشرحها وهو ممن له الذوق السليم والطبع المستقيم رضي الله عنه وأرضاه آمين وقد سمعت انه حشى المراكشي على الصغرى وغير ذلك من تآليفه نفعنا الله به آمين.

وممن زرته أيضا وحضرت مجلسه وهو من المؤلفين والعلماء المحققين وقد صنف كثيرا وإليه النظر في وقتنا هذا في الجامع الأزهر بل إليه تشد رحال الطلبة بمصر من كل جانب وقد بلغ صيته علمه مشارق الأرض ومغاربها شيخنا سيدي علي الصعيدي وقد أجازني بخط يده في جميع العلوم وقد حضرت مجلسه في الفقه في

---

(١) في نسخة والذي أخذ معنا عليه.

(٢) في ثلاث نسخ مسجد الحسنين.

مختصر خليل بشرح الشيخ الخرشي وهو يحشي فيه وقد كملت حاشيته الآن عليه في نحو الخمسة أجزاء وقد باحثته في بعض المسائل الفقهية في مجلس أقرانه إذ وجدته في السهو من الشيخ الخرشي المذكور فأورد على الشيخ الخرشي اعتراضات غير انه يغلظ عليه ويكثر من قوله كلام الخرشي فاسد فلما سمعت ذلك أصابتني غيرة عليه ولما وصل إلى قوله لا سنة خفيفة كتشهد(١) إلى قوله وإعلان بكآية إذ قال الشيخ الخرشي قوله وإعلان معطوف على قوله كتشهد إلى آخره فقال الشيخ علي هذا العطف فاسد وقال في بيانه أن التشهد متروك وإعلان ضده والعامل في المعطوف عليه هو العامل في المعطوف ولا يصح تسلط الترك على الإعلان لأن الترك هو العامل في التشهد فلما تم كلامه أغلظت عليه القول فلم يؤاخذني بذلك بل قال ما البيان فقلت له المعطوف في الحقيقة محذوف تقديره كتشهد وسر في بعض الفاتحة أي كترك تشهد وترك سر بأن أعلن وقد صور المصنف الشيء بضده لأن القراءة يكتنفها أمران السر والجهر ولا يترك أحدهما إلا بفعل ضده ولذلك قلنا المعطوف في الحقيقة محذوف كما سبق فسلم رضي الله عنه على بدي وقبلها وبعد ذلك لا يكتب قولة على الشيخ الخرشي إلا أن يعلمني بالبحث بها ومعه شخصان عالمان في غاية التحقيق وهما ضريران لا يكتب شيئا عليه إلا بعد أن يخبرهما ويختبرهما فان سلما نزاعه وبحثه كتبه وإلا فلا وقد أجازني أيضا كما سبق من الشيوخ غير أنه صاحب تواضع بان قال في نص الإجازة لست أهلا لأن أجاز فضلا عن أن أجيز إلخ رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا ببركاته آمين.

ولقد رأى أيضا شرحي المذكور في هذه الحجة وأجازني بالتأليف أمدنا الله وإياه بمدده وجعلنا من عده وعدده(٢).

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي متن المختصر ولا لفريضة وغير مؤكدة كتشهد.

(٢) في نسخة وجعلنا من حزبه وأوليائه.

ومن أجازني أيضا وزرته الشيخ علي الفيومي الفاضل العارف بالله ذو الأحوال المرضية والمحبة الصافية والحقيقة النبوية والواردات الإلهية والعلوم اللدنية والفتوحات الربانية وكذا عنده تفريد التوحيد وتجريد التفريد وسهم فهمه نافذ إذ علمه يطابق[١] علوم الإنسان الكامل وهو عبد الكريم الجيلي وفتوحات ابن العربي الحاتمي وشوارق عبد القادر الجيلي وأبو حفص عمر بن الفارض وأكثر عباراته في المحو والغيب والفناء وفناء الفناء وله شطحات وتحركات في الوجد وهو ممن يرقص وقد أنكر عليه شيخنا الحفناوي وغيره وقد علمت أن علامة الصديق انه لو شهد عليه ألف صديق بأنه زنديق لا يضره ذلك ومن علامته أيضا كثرة أعدائه وأنه لا يبالي به وقد ألف رسالات في التوحيد الخاص وعندي من تلك الرسائل رسالة في اسم الجلالة رسالة عظيمة بحيث يهتز من رآها ويخشع قطعا لأن فيها علوما لا تكاد توجد في غيرها إلا على سبيل التفريق والقلة وقد قال فيها وفي الخبر يا عبدي خلقت كل شيء لك فلا تتعب وخلقتك لأجلي فلا تلعب وبالجملة ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح وهو ممن يلقن أذكار الشيخ البدوي ويلبس الخرقة وقد حققت منه الكشف غير ما مرة وقد نهاني عن الصوم إذ كنت أسرده فلم يتيسر لي بعد إلا الفرض رضي الله عنه وقد أخذت عنه أيضا نفعنا الله به آمين.

ومن أخذت عنه أيضا واجتمعت به الشيخ البركة المحقق الفاضل الكامل الزاهد الورع المقتفي طريق النبي صلى الله عليه وسلم الشاذلي شيخنا ومن على الله ثم عليه اعتمادنا وانه من المتوكلين على الله حق التوكل وأن الجالس معه يحدث في قلبه خشوع ويقين وإيمان قوي وحلاوة ووجد يعلم ذلك من حاله[٢] وصحبته

---

(١) في نسخة وفهمة يافذ إذ علمه غير نافذ يطابق إلخ.

(٢) في نسخة جالسه.

ورؤيته لا سيما إذ تلك أخذ القلوب ومن فارقه وغاب عنه أحب[١] الرجوع إليه بل يجد الإنسان الداعي والباعث إلى الرجوع إلى مشاهدته ومشاهدة حضرته وأني جربت من نفسي ذلك فلا أصبر عليه ولو لحظة فإن غبت عنه ساعة وجدت محركا يحركني [إلى الوصول إليه وأن كل هم وغم يزول برؤيته والاجتماع به فإنه يفيد صاحبه][٢] بأقواله إن نطق وبأفعاله أن سكت وكله رضي الله عنه علم وحال فانه ينهضك بحاله، ويدلك على الله بمقاله، وقد اتقى رضي الله عنه جميع الشبهات، وحلي بسائر الكمالات، وقد تقدس رضي الله عنه المتشابه فضلا عن الحرام فلا يركن إلى ظالم ولا يقبل هديته وقد تحقق عنده حب النبي صلى الله عليه وسلم بدليل إتباعه واقتفاء آثاره صلى الله عليه وسلم وهو من أهل القدوة إذ جمع بين الحقيقة والشريعة جمعا متواطئا فلا نظير له في زمانه رضي الله عنه وقد أخذنا عنه الطريق ورسم الحقيقة وانه لقنا الأذكار وجددنا عليه العهد في الطريق الشاذلية المحضة وأجازني إجازة مطلقة في سائر العلوم العقلية والنقلية وقد بالغ رضي الله تعالى عنه في حبنا واعتقادنا ومن عجائب ما رأيت له أنه أمرني بالذهاب معه إلى زيارة الصالحين والأولياء العارفين والعلماء العاملين في القرافة الكبرى والصغرى ملازمته للأدب في الزيادة غاية قل أن يوجد مثله في ذلك وكذا معرفته للعلماء المؤلفين فلا يخفي عليه شيء من قبورهم كأنه هو الذي دفنهم فمهما وصلنا قبرا أو رأيناه إلا قال هذا قبر فلان وفي جواره قبر فلان وفي تجاهة القبلة قبر فلان أيضا إلى أن يعد الجهات والقبور فعلمت أن ذلك ليس من طريق الحفظ والتمرين بل ذلك إنما هو من طريق الكشف لاستحالة أن يكون ذلك من رسم الصفة لأنه من خوارق العادة قطعا.

هذا وأني قد شهدت أنوار صحبته في حال الزيارة معاينة ومع ذلك ما تركنا

---

(١) في نسختين أيس.

(٢) ؟؟؟؟

ناحية من النواحي إلا زرناها من الصبح إلى الظهر وقد رجعنا وصلينا الجمعة في الجامع الأزهر.

وبالجملة فالذي زرناه تلك المدة لا يزار إلا في أيام عديدة ومع ذلك وجدنا حلاوة ما وجدناها في غيرها من الزيارات فأني قد جبلت على حبها من صغري وقد كثرت مني غربا وشرقا وجوفا وقبلة بمعنى وجودها مني للأحياء والأموات فمهما ذكر لي ولي أو صالح أو عالم حيا أو ميتا إلا ذهبت إليه واقتبست من نوره لا سيما عمالة الجزائر فأني قد خضتها وبحثت عن أهلها بحثا شديدا تاريخا وسيرة وطريقة وحالا وكرامة لما رأينا من وقوع الإهمال في ذلك في وطننا فرسمنا كل ذلك رسما جيدا فحفظت من كل خلف وصف أسلافه ونقلت[1] من كل فرع أخبار أصله علما مني أنه لا يمجه السمع السليم والطبع المستقيم ريحانة لما[2] يجده المتأخر بعدنا ورحمة لما يحصل[3] له من اقتباس الأنوار في وطننا فما تركت من جهدي شيئا ولا في استطاعتي أمرا إلا حاولته في التفتيش عنهم والاستقصاء بالطلب والفعل في آثارهم لا سيما أهل بجاية فإنها مدينة عظيمة يكاد زيتها يضيء من علم أهلها وقوة أحوالهم وأنوار مواجدهم ومن أراد استقصاء أخبارهم فليطالع عنوان الدراية للغبريني ورياض الصالحين للثعالبي وغيرهما.

وكذا بالغت في الزيارة والاستقصاء لمدينة الجزائر وأرض الجدار أعني تلمسان وكذا مليانة التي تشرفت بالولي الصالح، والقطب الواضح، ذي الأحوال الفاخرة، والكرامات الباهرة، سيدي أحمد بن يوسف وقد سمعت أنه أخذ عن الشيخ زروق

---

(١) في نسخة بإسقاط ونقلت.
(٢) في نسخة بإسقاط لما.
(٣) في نسخة بإسقاط لما يحصل.

فصار يترقى حتى أخذ زروق عنه نفعنا الله بهم وأفاض علينا من بركاتهم وبركات أشياخهم.

وكذا الشيخ الكامل، والولي الفاضل، صبغة الله في أرضه، وعين الرحمة في خلقه، سيدي علي بن المبارك القليعي نفعنا الله به ومثله من تأتيه الوفود وتؤخذ عنه العهود الولي بلا ارتياب سيدي فرج القريب من الجزائر على شاطئ البحر فقبره معلوم وروضته ترياق مجرب وهو الذي أخبر عنه شيخنا ووسيلتنا إلى ربنا سيدي أحمد بن ناصر بأنه هو الذي أظهر الخلوة المزارة المتعبد فيها الأولياء تحت أبي شعيب[1] على شاطئ البحر في أرض مسراتة من عمالة طرابلس الغربية لبرقة وهي التي كان فيها الشيخ زروق.

وكذا البليدة وقد زرنا فيها الأكابر كالولي الصالح الشيخ سيدي الكبير وغيره نفعنا الله بهم آمين ومثلها المدية وقد زرنا فيها الشيخ سيدي محمد ابركان وغيره.

وكذا دلس وما قاربه وكذا جبال زواوة على اختلاف أنواعها ولم تكن بلدة أوسع منها كادت أن تلحق بمصر أو أعظم منها.

وكذا المسيلة وقد زرنا فيها الشيخ القطب الغوث سيدي محمد بن عبد الله بن أبي جلين وغيره.

وكذا زرت مدينة بسكرة وسيدي عقبة والنبي سيدي خالدا وغيرهم وسيدي عبد الرحمن الأخضري صاحب التأليف المشهورة والتصانيف المذكورة وقد زرت أيضا تبسة ومن فيها.

---

(١) في نسختين شعيف.

وكذا قسنطينة ومن فيها من الأحياء والأموات لا سيما سيدي سعيد السفري[١].

وزرت أيضا بونة أي عنابة ومن فيها لا سيما من يستجاب الدعاء عند قبره وهو أبو مروان وأولاد سيدي أحمد ابن الشيخ سيدي زروق لا سيما من كتب اسم محمد صلى الله عليه وسلم بقلم القدرة في يده اليسرى وهو من العلماء العاملين لا نظير له في المعقول والمنقول وقد حلاه الله بحلية القبول من رآه أحبه وهابه وقد جبل على السخاء والكرم فأخلاقه وخلقه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وخلقه ما رأيت أحسن منه باطنا ولا ظاهرا وقد سألني فيه فأجبته بأنه إنما كتب الله بذلك[٢] اليد إعلاما لنا أنك يمين كلك[٣] فجهة اليسرى منك منفية عنك وسألني أيضا عن قوله تعالى في مريم واسجدي واركعي مع الراكعين وان كانت الواو لا تقتضي الترتيب إذ كلام البلغاء لا بد في سبقه بشيء من الحكمة.

قلت والله اعلم أن الله خاطبها أولا بسجودها نظرا لمقامها الخاص بها وخاطبها ثانيا بالركوع مع الراكعين نظرا إلى حالها مع قومها لأن العارفين بالله تعالى قلوبهم مع الحق وأجسامهم مع الخلق فكانت مريم من هؤلاء المتمكنين الراسخين في العلم ولما سمع كلامنا هذا استحلاه وكتبه وكان أجود الخطوط وما رأيت خطا أحسن منه وانه أجازني رضي الله عنه في سائر العلوم النقلية والعقلية ودراهم دار الولاية من أعالي أسلافهم إلى الآن وان والده رضي الله عنه كان من المؤلفين وتآليفه كثيرة لا تحصى كثرة وقد نظم [مختصر] خليل بتمامه ونظم أيضا عقائد الشيخ السنوسي

---

(١) في نسخة الصفراوي

(٢) كذا في جميع النسخ.

(٣) في نسخة كلا يديك.

الخمسة وقد رأيت له جوهرة نظما وكذا ياقوتة نظما ورأيت أيضا كتابا ألفه في أخبار العلماء السابقين وأوصافهم وذكر حكايات وأسماء الله وفوائدها وذكر الخضر وأمثاله حاصله كتاب عجيب وله كتاب حسن ذكر فيه السيد عكاشة انه ولي من أولياء الله وليس الصحابي المعلوم وقد شطّر البردة تشطيرا حسنا.

وبالجملة فمن رأى أولاد سيدي أحمد ابن الشيخ رأى أنوار فيهم وعناية كاملة لهم وفضلا عاما لديهم والآن في الحياة ولده الفاضل الكامل سيدي محمد وقد مكثت عنده نحو الجمعة نعم [كنت] ذلك الزمان مشتاقا للحج فقال على طريق الكشف انك تحج السنة ومع ذلك أني فقير والركب في البر قد انقطع من أمر الوباء في الجزائر وكان الأمر كما ذكر فأتى الله بولد سيدي أحمد بن يوسف وهو سيدي أحمد بن طيبة فذهب الركب معه والحمد لله رب العلمين.

وبالجملة فما رأيت أفضل من شيخنا الشيخ العفيفي أسبغ الله تلك النعم على أولاده وعلينا أجمعين بمنه وكرمه فقد أجاز أيضا ولدي محمدا وكان صغيرا ولقنه الذكر على طريق الشاذلية رضي الله عنه وأرضاه آمين وأحواله ونعوته لا تعد ولا تحصى ولا تضبط ولا تستقصى.

ومن أجازني سلطان العارفين، وإمام المحققين، شيخنا وعمدتنا العالم على الإطلاق، وشمس الأنوار بالاتفاق، الشيخ الحفناوي نفعنا الله به وبأمثاله وكتب الاجازة بخط يده رضي الله عنه في المعقول والمنقول.

وكذا لقنني الذكر على طريق أشياخه وأذن لنا في الاعطاء والأخذ نعم كان فاضلا كاملا جامعا للعلوم النقلية والعقلية وجامعا بين الحقيقة والشريعة ويكاد أن يكون ممن يجدد الدين وما رأيت أحسن منه في إقراء العلم كأن الجواهر تخرج من فيه

وذلك منه من غير كلفة ولا صعوبة فالعلوم كلها طوع يده بحيث لا يحتاج إلى كبير مؤنة في استحضارها وقد حضرت في مجلسه المعلوم عند أقرانه الرحبية بالشنشوري يتمنى الإنسان أن يتجرد لصحبته لأخذ العلم منه بحيث لا ينظر إلى وال ولا ولد ولا صاحبة ولا غيرهم وله تآليف كثيرة وان نسبت إلى الشيخ يوسف أخيه فهي في الحقيقة له وعندي من تآليفه حاشيته على رسالة الوضع وهي حاشية عظيمة نعم حاله حال الملوك وقد قال أبو الحسن الشاذلي ومن الأولياء من يظهر على هيئة العظامة والجبر والانتقام لأن الله تجلى على قلوبهم بذلك فلا يصحب ذلك الشيخ من المريدين إلا من محق الله نفسه ومحاها والشيخ من ذلك القبيل فمن سلم له ولغيره وصدق أحواله وأموره انتفع به فلا تسمع لمعاصره من إنكار بعض الأمور عليه إذ قد جرت عادة الله مع أحبابه أنه يسلط عليهم أهل زمانه فلا بد لمتبع ما تحقق لمتبوعه فلا بأس في ذلك ولا قدح أصلا بل يزيد الصادق صدقا والمحق حقا.

وبالجملة فالشيخ أنوار الشريعة ظاهرة عليه، وأنوار الحقيقة بادية لديه، وهو من أهل الكشف تحقيقا وأني ذات يوم جلست معه فقال لي قدم بعض المغاربة مصر زمان كذا وكان من نجباء الطلبة وفي قلبه انه يختبر المحقق في الجامع الأزهر فيقرأ عليه ويأخذ العلم منه فصار يتردد في مجالس العلم ويبحث مع أهلها أبحاثا قوية حتى اشتهر في المسجد بتلك الأبحاث وما كان قصده إلا خيرا كما سبق قال ذات يوم أتاه رجل من أهل الخير فقال له لا تعد إلى مثل هذا وإلا هلكت أو سلبت أو كلاما هذا معناه أعلاما لي إذ حالي مثل حال هذا الرجل وقصدي كقصده لأني أتردد في الدروس بالبحث والسؤال حتى اشتهر أمري في المسجد فقال لي إياك ثم إياك فبعد ذلك لم أعد إلى ذلك أبدا وزال عني ذلك كله بل كنت مولعا بالنزاع ومحبا له غير أني بالإنصاف فكنت معافي بحيث لا أحبه ولا أرضاه أصلا بعد ذلك ببركات الشيخ وأن أحتمل أنه حصل له العلم بحالي وثبوته عنده غير أن الكشف أقرب إليه

وأيضا كان لا يأتي إلى المسجد ذلك الزمان إذ قد رفع ذلك من قلبي ببركاته رضي الله عنه وهو دليل على انه من أهل الكشف وأيضا أتى له شخص حديث السن نحو العشرين سنة في عمره جاءه من مسافة بعيدة كسبعة أيام أو أكثر والشيخ لا يعرفه ولا يعرف محله فقال له ذلك الرجل أتيت إليك لأدخل تحت طاعتك وأكون من أولاد قلبك فقال له الشيخ ارتحالا حتى تتوب من عقوق والدك إذ أنت على مدة طويلة عاق له وعاص من أجله فإن أردت اخذ العهد منا فكن على بروره وتب إلى الله من عصيانه فبكى ذلك الشخص وقال نعم منذ مدة طويلة وسنين عديدة وأنا على عقوقه وعصيانه[1] فصاح بالتوبة والاستغفار فعجبنا من حال الشيخ وأصاب ذلك الشخص عبرة بل أصابه بعض الغيب عن حسه فلا أصعب من حيرة البديهة وهيبة الفجاة.

وبالجملة فأحوال الشيخ ساطعة، وعلومه نافعة وأسراره واقعة، وآثاره رافعة، وأهل السلوك قلوبهم خاشعة، وأصحابه مطيعة سامعة، وقد زحلق عن القوم[2] الأول، وكل ملهوف وضعيف عليه عول، رضي الله عنه ونفعنا به آمين.

وممن حضرت درسه الشيخ عمر الطحلاوي وقد جمع المعقول والمنقول وانه كالشيخ الحفناوي في كونه تخرج من فيه جواهر العلوم وعباراته سلسة تصدر من غير كلفة ولا تعب ولا تعسف قل نظيره في الجامع الأزهر وسمعت منه بعض الرسالة الوضعية وبعض التفسير وهو ذو الجلالين وقد سألته عند قوله في أن المعارف غير العالم هل وضعت وضعا جزئيا أو كليا وقد أوردت عليه كلام القرافي فتعجب من كلامه لأنه غير معهود به إلخ وكذا سألته أيضا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ

---

(١) في نسخة نسيانه.

(٢) في نسخة القرون.

نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ الآية لأن قوله إذ تقول للمؤمنين ظرف متعلق بنصر فلما ذكر ذلك قلت له إذا كان النصر حينئذ لم يكونوا أذلة أي في قلة فقيد النصر بالملائكة ليسوا على قلة في الظاهر ولا في الباطن فلما عجز عن الجواب صار يغالطني بكلام ليس من العلم وهي المغالطة الخارجية فلم أرجع إلى مجلسه بعد غير انه مشتهر بالتحقيق وهو من مشائخ المالكية الكبار.

وممن سمعت منه أيضا الشيخ العالم العلامة، المحقق الفهامة، ذو الأبحاث الرائقة، والنكت الفائقة، الشيخ الزياتي الشافعي بعض المسائل من النحو أعني كلام الأشموني وهو ممن يحب البحث والإنصاف فمهما أوردت عليه شيئا إلا قال بلزوم الإيراد وإنما ينظر الجواب عنه وهو ضرير في غاية التحقيق وقد اشتهر بذلك في الجامع المذكور وحضرت عليه أيضا دروسا في المحلي نفعنا الله ببركاته آمين.

ومن أشياخي الشيخ الفاضل، والعالم الكامل، إمام الجامع، ذو الصدر الواسع، الحافظ على الإطلاق، والناقل بالاتفاق، وله باع قوي في المنقول والمعقول وقد أخذ عنه كل من كان في زمنه من الشافعية والحنفية والمالكية وغيرهم فقد حقق المذاهب رضي الله عنه الشيخ سالم النفراوي ولقد علم من حاله أن كل من يحشي أو يشرح بفوائد غريبة أو نقول عجيبة إنما ذلك منه رضي الله تعالى عنه ونفعنا به آمين.

وقد قرأت عليه مدة مختصر السعد غير أنه ما رأيت مثله أبدا نعم لا يسأله أحد في المجلس لأن جميع ما يخطر ببالك إلا ألقاه في الدرس وإن بقي للإنسان شيء ألقاه عليه بعد الفراغ منه وأما أنا فاسأله دائما وهو يجيبني من غير غضب ولا عنف لكوني غريبا من آل المصطفى صلى الله عليه وسلم وكان يحضر مجلسه نحو السبعين طالبا نعم لما رأوني اسأله ولا يمتنع من الجواب تعجبوا من ذلك وصاروا بعد ذلك يرغبون ويحبون مني دوام السؤال له بل تارة يأمرون بالسؤال وتارة بالإشارة إلى

ذلك لأن الشيخ نفعنا الله به ضرير أي أعمى ومع ذلك انه من أكابر الأئمة وأفضل علماء مصر فلا ترى أحدا في الجامع مثله لأنه شيخ الجميع كما سبق وإمام المحققين على ما تقرر واشتهر.

هذا وقد وقع بيننا وبين الوالد رحمه الله نزاع في بعض المسائل من مسائل الفقه فاستظهرت أنا والعلامة الفاضل والمحقق الكامل عمنا سيدي محمد الصغير أمرا والوالد جزم بفهم آخر وهو قول خليل وَتَفَكُّرٌ بِدُنْيَوِيٍّ إذ ذكره في باب المكروهات فقال جميع من شرحه محل ذلك إذا درى ما صلى وإلا بطلت صلاته أي أن لم يدر ما صلى بطلت إلخ فقال الوالد يصدق ذلك أي عدم الدراية ولو بركعة واحدة لأنه لم يدر ما صلى فقلنا له في الرد عليه هذا ينبني على المحقق ويأتي بالمشكوك فيه لأن قولهم أن لم يدر ما صلى إلخ إذا صدرت منه أفعال كثيرة ولم يضبطها أصلا ولم يتحقق عنده ولو ركعة فهنا تبطل الصلاة لأن الفعل المضارع في سياق النفي كالنكرة في سياقه يفيد(١) العموم فلما ذكرت ذلك له أجابني بما قال به أي نعم عندنا أنه لا بد لمن يضبط شيئا من الصلاة بمنزلة من ضدرت منه أفعال أجنبية منها فتبطل صلاته غير أن الشيخ ابن أبي جمرة ذكر في مسألتنا هذه قولين والله اعلم.

حاصله علمه مشهور، وتحقيقه مذكور، وقد حضرنا موته في الحجة الثانية وقد ازدحم الناس على الصلاة عليه بان لا تجد موضعا في الجامع الأزهر إلا وهو عامر فقد أتى للصلاة عليه أكثر أهل مصر ومات فجأة رضي الله عنه وخطب الإمام عليه على المنبر خطبة عظيمة بأن ذكر علمه وحاله ونسبه وهو متصل نسبه(٢) بالشيخ أحمد الرفاعي أفاض الله علينا من بركاته وجعلنا في زمرته وخرجت مع جنازته مع بعض

---

(١) في نسخة لا يفيد.
(٢) كذا في جميع النسخ.

الطلبة فوقع الازدحام على نعشه أي سريره الذي حمل عليه حتى أن بعض الولاة أقام شواشا يدفعون عنه نعم لم يفيدوا شيئا فلما خرجنا إلى القرافة الصغرى لم نر جنازة ولا قبرا ولا قبره من كثرة الخلق فمن الجبل إلى مصر لا ترى موضعا خاليا يكاد من خرج لجنازته أن لا يحصى كثرة وانه لا يقع ذلك الجمع أصلا في بلد من البلدان فلو كان في غير مصر ما ظننت أن يتفق جمع مثله ولا عمارة تساويه ولا محلا يأويه نفعنا الله به وبأمثاله آمين.

وممن أخذت عليه المحقق المدقق الكامل ذو الفضائل والفواضل والحافظ الورع الزاهد المدرس صاحب الأنوار والعوارف والأسرار شيخنا سيدي أحمد الأشبيلي تلميذ الشيخ الحفناوي وهو ممن ظهر عليه آثار الفضل في ابتداء أمر الشيخ وقد اشتهر حاله في الحرمين الشريفين علما وحالا وسرا وقد كان من المحققين فقرأت عليه بعض مختصر السعد في البيان قراءة تحقيق ما رأيت مثله بتدقيق المسائل وتحريرها وفي آخر أمره كان ملتزما للحرم الشريف رضي الله عنه ونفعنا به.

وفي الحجة الأولى اجتمعت مع الولي الصالح والعالم الواضح فكان ديدنه وشأنه الهجرة للعلم من داره في الإسكندرية إذ كان ملازما لإعطاء العلم في الأزهر وكان فاضلا فقيها متكلما بيانيا مفسرا أصوليا نحويا لغويا أديبا حاصله قد جمع المعقول والمنقول والحقيقة والشريعة واعيا للمذاهب الشيخ الصباغ السكندري نفعنا الله ببركاته آمين بمنه وكرمه.

وكان ممن يحضر مجالسه النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة يقظة وقد سمعت ذلك ممن سمع منه والذي سمعت منه هو الفاضل العدل الثقة المبرز في العدالة والعالم الفقيه المحدث المفسر صاحب المنقول والمعقول سيدي أحمد زروق نجل الشيخ المؤلف البركة سيدي أحمد بن الشيخ العنابي المتقدم ذكره قال غير أن

ذلك ارتفع عنه مدة وسبب ذلك أن بعض الناس من أصحاب الشرطة من الظلام جاء ليقرأ عليه ويحضر مجلسه فخطر هذا الشيخ أعني الشيخ الصباغ كيف يحضر هذا من أصحاب الشرطة مجلسي والنبي صلى الله عليه وسلم فيه مع أصحابه أي استعظم ذلك فلما علم الجميع منه ذلك قام أبو بكر فقال له ألم تعلم أن هذا من أمته صلى الله عليه وسلم وتبعه عمر بأن قال قوله ثم عثمان كذلك ثم علي كذلك ثم محمد صلى الله عليه وسلم وقال بمقالة الجميع ثم قال الصباغ المذكور فصرت لا أراه صلى الله عليه وسلم إلا في النوم وأراه كما تراه الرعاة وقد كان أذن لي في الكلام معه وبعد هذا أن رأيته لا أتكلم معه.

يؤخذ من هذا أن العبد لا يحقر أحدا بين عينيه ولا يذمه بقلبه ولا يفر من مجالسته ولا من مخالطته إن جاء طالبا للخير كائنا من كان ولو كان ممن يجاهر بالمعاصي ولعله يكون بمخالطتك وحضوره معك تائبا راجعا إلى الله تائبا إليه نادما على ما صدر منه مقلعا فتكون سببا في صلاحه وقد قال صلى الله عليه وسلم ولئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم أو كما قال.وأما ازدراؤه وغمصه بين عينيك أو التحاشي عنه بحيث لا يسمع منك كلاما من الخير أو تقول هذا لا يجالس مثلي ولا يكون في زمرة الأخيار تعظيما لجانبك أو جانب من كنت معه فكبر وبطر عن الحق فالذي يجب عليك أن تنقذه مما هو فيه بأن تداويه بالوعظ والزجر إن كان لا يفر[1] وإلا فباللين حتى يرجع عما هو عليه ومع ذلك أعتقد أنه أولى منك إذ من كان على شر أولى ممن كان على خير ويقول أنا فإن الطاعة لا تكون مع الكبر والعجب ورؤية العمل للنفس واستحسانها له والمعصية لا تكون معصية مع الذل للنفس وانكسار القلب من أجلها أي المعصية.

---

(١) في نسخة يفرق.

حاصله خواطر الحق بينة وخواطر الباطل ظاهرة مضلة فمن راعى خواطره رعي إذ لا يرعاها إلا سعيد ولا يهمل نفسه وخواطرها إلا شقي والعياذ بالله تعالى.

حاصله الشيخ الصباغ صبغة الله لخلقه ورحمة للعالمين في أرضه لا سيما الغرباء والضعفاء والفقراء فلا تجد أحدا في زمانه يرحم الأمة المحمدية مثله رضي الله عنه وقد كان رضي الله عنه أكثر زمانه في مصر مجردا عن أهله إذ أهله في الإسكندرية وهو في مصر يعلم الناس ليلا ونهارا وبركاته قد عمت الخلق جميعا فلا ترى نصوحا للأمة مثل وقد حلاه الله تعالى بحلية القبول فمن رآه أحبه وقد صدق عليه قوله تعالى سيجعل لهم الرحمن ودا.

وبالجملة فكل من أخذ عنه العلم أو الطريقة إلا ظهر عليه آثار الفضل وحلي بحلية العارفين ونعت بنعت الزاهدين وكان ممن يخشى الله ويتقيه نفعنا الله به وقد حضرت عليه دروسا في العلم ومع ذلك تعلقت به رضي الله عنه وأرضاه وان أخلاقه وتخلقه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وخلقه كان غير منقبض جدا ولا منبسط كذلك بل إلى البسط أرجح والبسط مقام محمود فلا يكون صاحبه إلا منتفعا به بخلاف صاحب القبض يقل نفعه في جانب الرحمة وإنما يغلب ضره وهلاكه فلا يصلح للمريدين والذي يصلح لأهل السلوك هو صاحب البسط أفاض الله علينا من بركاته وجعلنا من أهل زمرته بمنه وكرمه.

وممن أخذت عليه القراءات السبعية إفرادا الأستاذ المحقق والفاضل المدقق سيدي أبو القاسم الربحي[1] القسنطيني إذ قرأت سورة البقرة والفاتحة عليه وأظن أن الشيخ البغالي من أشياخ أشياخه وقد سمعنا انه قرأ على شمهورش الطيار وهو قد

(١) في نسخة الربيعي.

أخذ قراءته على النبي صلى الله عليه وسلم وهو من أهل الصلاح قطعا وقد أجازني أيضا نفعنا الله به.

وممن اجتمعت معه وصاحبته أيضا وهو من أهل الله حقا وكان عالما فاضلا صاحب حال ووج وشوق له كشف قوي وفتح إلهي ووارد صمداني وله كلام في الحقائق رائق وإذا ورد عليه كلام في الفتوحات تكلم به من غير كلفة ولا تعب وقد جعل كتابا عظيما في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على نهج دلائل الخيرات غير انه لا يكتب تآليفه إلا إذا وجدها في سره رضي الله عنه وهو الولي الصالح والعارف بالله الواضح سيدي الهاشمي المغربي إذ اجتمعت معه في الحجة الأولى وسبب معرفتي إياه أني وجدت رجلا فاضلا عليه سيمة طيبة يقرأ عند باب الجامع الأزهر وتعلق قلبي به فجلست عنده فوجدته يقرئ في ابن هشام أعني المحاذي على الألفية بشرح السيد خالد أعني التصريح وحاشية الشيخ يس عليه فما رأيت مثله في التحقيق وحسن العبارة نعم كلامه عليه حلاوة وطلاوة سيدي إبراهيم نجل الشيخ سيدي علي شعيب التونسي وقد اجتمع في هذه النخبة العلم والصلاح والعبادة والمجاهدة وقد قيل لي أنه غلب عليه القيام والصيام كأنه لم يبق لسواه فيه نصيب فقد كان كله لله رضي الله عنه ونفعنا به وان العلوم النقلية والعقلية طوع يده.

حاصله محاسنه لا تعد ولا تحصى ولا تضبط ولا تستقصى نعم كنت حينئذ أسرد الصوم وواصلت نحو ثلاثة أيام من غير أكل طعام إلا إذا أفطرت على الماء القراح فلما ورد علي اليوم الرابع تغيرت نفسي وتحركت طلبا للطعام فكنت في المجلس أتردد هل أزيد اليوم الرابع كذلك أو أذهب لرفقتي في بولاق لتحصيل الطعام معهم أو أبيت في الأزهر صبرا حاصله تشوقت نفسي للطعام وإلى تحصيله فلا ختم المجلس السيد إبراهيم المذكور تفرق أهل مجلسه فبقيت هناك والله اعلم ساعة زمانية

ثم قمت فدخلت المسجد وإذا بالفاضل المذكور سيدي الهاشمي واقف معي فأعطى لي نحو رطل من تمر معجون معه شيء من الرغيف حاصله أتاني بما يكفي الإنسان الجائع فقال من يتوكل على الله ويعتمد عليه لا يتحير في أمر العيش ولا ينتظر غير الله تعالى فتعجبت من كلامه واطلاعه على ما بنفسي وما رأيته قبل قط فكأنه حاضر في قلبي فعلمت أنه ولي من أولياء الله تعالى فرغبت في صحبته وإذا هو راغب مني فتعلق بي تعلقا كليا فأعلمت به الأخ في الله والمحب من أجله صاحب الكشف أيضا والصدق تحقيقا سيدي محمد الشريف البلغيثي الطرابلسي وابن عمي سيدي محمدا صالحا وتلميذي سيدي محمدا الجوادي فتلعق الجميع به ظاهرا وباطنا ثم أنه لم يفارقني إلى أن سافرنا إلى الحج فنفعنا الله به آمين.

ولما رجعنا من الحج وجدناه ينتظر جماعتنا خارج مصر ثم ذهب بنا إلى داره رغبة ومحبة وفرحا وسرورا فأقمنا عنده ثلاثة أيام ومع ذلك ما ترك أحدا منا يخرج من داره أصلا.

هذا وأني كنت لا آكل سمنا ولا لحما ولا أداما فإن رمت شيئا من ذلك خرج عقلي فلما وصلت داره فأتى بكل ما منعت منه فقال لي كل ولا تخف قلت خفت زوال عقلي إذا جربت نفسي في ذلك فقال لي كل فأنت مأمون من كل ما تخافه بإذن الله تعالى فأكلت وما صار لي شيء من ذلك بإذن الله تعالى فعلمت أن له حالا قويا مع الله تعالى ثم كان معنا كذلك إلى أن سافرنا إلى بلدنا نعم مرضت مرضا في مصر وأشرفت فيه على الموت وكنت حينئذ في الوكالة فيضيق علي الحال مع الوحشة إذ أصحابي ربما خرجوا وتركوني وحدي فحين يتقوى التوحش علي وإذا به وارد يؤنسني ويقول لي لا تخف فإن الله يعافيك أو كلاما هذا معناه.

والحاصل أن هذا السيد من أكابر الصالحين والعلماء العاملين فينبغي أن تشد

إليه الرحال نفعنا الله به وبأمثاله وأما من زرته من الصالحين، والعلماء العاملين، فكالشيخ العارف بالله المبصر بنور الله وهو من الواصلين حقا، ومن العارفين صدقا، من له كشف تام، ونفع عام، الشيخ كشك[1] فإنه رضي الله عنه يحكى عنه انه ما دخل أحد مصر من أهل الله غالبا إلا سلبه وكان له التصرف التام وقد أخذني حال غيبتي عن إحساسي أظنه خارج مصر غير أن المواهب تجري على لساني فضبط مني أصحابي كلاما على هذا الشيخ وأنا غير مستحضر له غير أني ذكرت كلاما على طريق النظم في شأنه والآن طال عهدي به أو على غيره والله أعلم.

ثم إن تلك الورقة التي فيها ذلك الكلام حملها سيدي محمد الشريف المذكور معه بحيث لم يرها أحد فلما اجتمعنا معه رضي الله عنه قال له مد لي تلك الورقة فتعجبنا منه ودعا لنا من قريحة قلب وعزيمة همة فعلمنا أننا قد نلنا منه ما لا يحصى كثرة وأنا زرنا في مصر أولياء وصلحاء قد تعذر علينا ضبط أسمائهم لغلبة النسيان على البشر أفاض الله علينا من فضلهم وجودهم وإحسانهم.

وممن اجتمعت معه أيضا في هذه الحجة المنور على الإطلاق، والولي العارف بالاتفاق، صاحب الجذب الإلهي، والحال الناهي، والوجد الزاهي، العالم بالحقائق، والراسخ بالدقائق، المنفق من الفتح، من قد جبل على الصفح، أنوار معارفه مشرقة، ولوائح أسراره رائقة، فقد توقى في أوقاته، وتشكل روحانيا في سماواته، فكاد أن يكون من عالم الأمر لطافة، فغالبه بشر وقلبه ملك ف الخلافة، أن امتحنته وجدته لم يرق أحد مرقاه، ولا سلك شخص مسلكه وحيدا في مثواه، أن تكلم أغرب، وأن أفصح أعرب، جدير بما يقول، وعندي هو أكثر ما تقول، الشيخ محمود الكردي نفعنا الله به وبأمثاله وقد اعتقدنا فيه أكثر مما نقول لأن ما خامر القلوب فعلى الوجه

---

(١) كذا في جميع النسخ ولعله كوجك أو كوجوك.

تلوح أثارة والأسرة تدل على السريرة وما كان فيك ظهر على فيك.

وقد سمعنا الأخ في الله سيدي محمدا الشريف يذكر عنه أمورا يكاد أن يكون صاحب وقت إذ لا غرابة في صدور مثلها من مثله.

حاصله لا يخفى عليه شيء في الكون وله اسراءآت بروحه متعددة كثيرة ومجاهدات عظيمة يكاد العقل أن يحليها منها ما سمعت انه مكث أربعة عشر عاما ما شرب ماء.

حاصله مجاهدته قوية عظيمة وتتبعها كثير نعم لما اجتمعنا معه أخذ بمجامع قلبي وكلامه كله طب نبوي وترياق مجرب ولو ساعدنا الحال ما فارقناه طرفة عين لأنه كنز لا يفنى والله اعلم انه ممن يقلب الأعيان فعند مجالسته تزول الهموم والغموم وقد حصلت فيه علامة الولاية وهو انه إذا رأيته تذكرت الله تعالى وانه أيضا لا يفتر عن ذكر الله تعالى ومن أعطي الذكر فقد أعطي منشور الولاية ومن سلب شيئا من الذكر فقد عزل عنها ولا تسمع من يعترض على مثله من أهل زمانه فإن ذلك شقاوة والعياذ بالله تعالى فقد جمع وأوعى ولا غرابة في كون التلميذ أعظم من شيخه إذ شيخه الشيخ الحفناوي كما سبق في الشيخ زروق مع سيدي أحمد بن يوسف.

حاصله أن الشيخ المذكور بلغ الغاية في الترقي والمجاهدة رضي الله عنه وأرضاه ولا جعله آخر عهد بيننا وبينه آمين ليتم ما أردناه.

وممن اجتمعنا معه أيضا وزرناه من لاح نوره، واشتهر أمره، وارتفع صيته، العالم الفاضل، المحقق الكامل، العبقري الحافل، الذي هو البحر من غير ساحل، من رآه تحقق صلاحه وولايته بلا ناقل، الشيخ الجوهري نعم أهل مصر اتفقت كلمتهم على انه ولي من أولياء الله تعالى وما حصل من الجود من الله عليهم، والفضل

لديهم، إنما هو لوجود مثله وكفى به علما وعملا وخشية وإتباعا للنبي صلى الله عليه وسلم واقتفاء آثاره عليه الصلاة والسلام وقدوة للأمة المحمدية نفعنا الله به وبأمثاله آمين وأظن أنه ممن لا يشقى جليسه نعم أنوار الولاية تلوح على وجهه من غير شك فهو محقق الفلاح والنجاح فلا تجد أحدا يسوء ظنه فيه بل قد حلاه الله بحلية القبول وكذا أطلق السنة الخلق بالثناء عليه عموما والسنة الخلق أقلام الحق متع الله المسلمين بطول حياته وجعل البركة في أيامه وأفاض علينا من بحر أنواره بمنه وكرمه.

وممن اجتمعت معه وزرته مرارا الشيخ الصالح، والولي الواضح، الشيخ الغرياني نفعنا الله به وبأمثاله وهو ممن ظهر عليه الفضل والخير والناس أفواجا في مصر تتبعه تقتبس الأنوار والفتح منه وتتوسل بجاهه وقد اشتهر عند أهل مصر أيضا أنه هو الحارس للركب فإن أهل الخير جعلوه رقيبا عليه ومأمونا من أجله فلا يقع مكروه به لوجهه والظن منا به كذلك نفعنا الله به وبأمثاله رضي الله عنه وأرضاه ورزقنا العافية في الدنيا والآخرة مع كفاية همهما بمنه وكرمه.

هذا وأن مصر قد حشيت بأولياء الله وأنهم فيها كالنجوم في السماء فالمستور فيها أكثر من الظاهر إذ الخامل فيها أكثر من أن يحصى والغالب أن أسواقها لا تخلو منهم فمن أزيل عنه الحجاب رآهم عيانا.

وبالجملة فأحوالهم كمثل بحر ووجودهم كثير فهم ينبتون فيها دائما لا تنقطع آثارهم، ولا تغيب شموسهم وأقمارهم، فعلى من دخل مصر أن يجعل معتمده عليهم فإن بحث عنهم وجدهم لا سيما أن كان يصدق الطلب فوطن مصر ليس كغيره رضي الله عن أولياء الله أين كانوا ونفعنا الله بهم وجعلنا في زمرتهم آمين.

ومن اجتمعت معه في مصر أيضا الفاضل المحصل، والعالم المؤمل، الفقيه المفسر، المحدث المخبر، المنطقي الكلامي، المؤرخ الأصلي البياني، المرتقي أعلى رتب التدقيق الجامع بين الحقيقة والشريعة الشيخ المنور التلمساني، تلميذ الشيخ القطب الرباني، والعارف الصمداني، سيدي أحمد الحبيب الفيلالي نفعنا الله بجميعهم آمين وقد كان يقرئ الكبرى في رواق المغاربة واجتمع عليه خلق كثير من مصر ومن المجاورين وغيرهم غير أن الغالب منهم مقصودهم البركة ومعه التحقيق من غير شك.

وكان الشيخ العمروسي يحضر درسه ومع ذلك أنه شرح خليلا وكان الشيخ خليل المغربي[1] قد وقع بينه وبين الشيخ نزاع في بعض المسائل في الكبرى في كلام الشيخ السنوسي فلما طال نزاعهما وقد ظهر لنا ما ظهر للشيخ خليل قلت الحق مع الشيخ خليل فلما خرجنا قال لي والله لقد أساءني نصرك للشيخ المذكور فأجبته بما هو حاصله أن الحق أحق أن يتبع وما ذكره هو الحق والله تعالى اعلم فلما علم الشيخ خليل منه ذلك انقطع عن مجلسه وقبل ذلك أوردت عليه مسائل من العلوم منها في البيان على من يقول في قولهم أنبت الربيع البقل انه استعارة بالكناية أي شبه الربيع بالفاعل الحقيقي الذي هو الله تعالى في كونه منبتا فحذف المشبه به وهو الله وأثبت له شيئا من لوازم المشبه به وهو الإنبات لأنه من فعل الله تعالى فالحق أن يسند إليه ثم أن الربيع فاعل حقيقي ادعاء ومبالغة في التشبيه أي فرد من أفراد الفاعل الحقيقي ثم استعير الربيع للخالق الذي هو الله تعالى بأن جعل اسما من أسمائه على مذهب السكاكي إلخ فقلت له يلزم من ذلك أن يكون اسما من أسماء الله تعالى وأسماء الله توقيفية فلا يجوز إطلاقه عليه بناء على ذلك القول لأنه تصرف في الذات ولا

---

(١) في نسخة الأزهري.

يتصرف فيها إلا الله تعالى وكذا على القول الأخر لأنه لفظ يوهم النقص فلا يجوز أيضا فتحير في الجواب بعد جهد جهيد في الوصول إلى الإشكال فضلا عن الجواب على أن الادعاء في الاستعارة كاف في انفكاكه.

قلت هب على انه كذلك فلا يسمن ولا يغني من جوع لأن الكلام في إطلاقه على ذاته وهو حاصل قطعا على هذا المذهب لأن المستعار هو الربيع فيكون إطلاقا على الذات من غير شك وأما على القول بأن المستعار هو الفاعل الحقيقي والمستعار له هو الربيع فلا يلزم فيه شيء كما علمت ويظهر لك من قولهم أنشبت المنية أظفارها قيل أن المنية استعير لها السبع إلخ أو أنها فرد من أفراد السبع ثم استعير اسم المنية له على ما اشتهر بينهم وعليهما فانبت الربيع البقل على كونه استعارة بالكناية وأما على القول بأنه من المجاز في الإسناد فلا يلزم فيه شيء أصلا فلم يأت بجواب رأسا.

أقول فيه والله اعلم أن التحقيق في الجواب هو أن ذلك الإطلاق ليس المقصود منه التسمية لله تعالى باسم الربيع وإنما المقصود التشبيه لأن الاستعارة مبنية عليه وإن كانت تباين التشبيه في الاستعمال والله تعالى اعلم.

ومنها أني أوردت عليه أيضا من علم الكلام مسائل عديدة فلم يفصح عن جميعها بجواب وأن أجاب عن البعض فلا يسلم من أمور ترده.

حاصله أن الأسئلة باقية إلى الآن فالسؤال الأول العلم بالوقوع تابع للوقوع ولو كان الوقوع تابعا له لدار كما ذكره الشيخ السنوسي في الوسطى فسألته عن بيان الدور وعن معنى هذا الكلام فوجدته كأنه ما سمعه قط فلم يتعب نفسه في شيء أصلا فلما علمت منه ذلك تبين لي أنه لا خبرة له به رأسا والكلام فيه معلوم وإنما اختلفت عبارة الجميع في تفسيره وبيان معناه وإلا فهو كنار على علم إلا أن التحقيق

أن العلم بقدوم زيد يوم الخميس تابع لقدومه بالفعل ولو كان القدوم بالفعل تابعا للعلم بالقدوم لَدَارَ وهو محال لأن القدوم بمنزلة التصور والعلم به كالتصديق وقد علمت أن التصديق تابع للتصور ولو كان التصور تابعا له لَدَارَ وهذا معناه والله اعلم ذكره بعض أفاضل المحققين وقال بعضهم إرادة قدوم زيد كما سبق متبوع والعلم بقدومه تابع لإرادة قدومهم ولو كان العكس لدار نعم العلم بالأشياء [كلها سابق تعلقا على إرادتها وأما العلم بوقوع شيء فهو][1] مسبوق بإرادة وقوعه وغير ذلك أنظر القاضي زكرياء على الرسالة القيشرية.

والسؤال الثاني في أن البصر في حقنا يتعدد بتعدد المبصرات فما لم تره فلمانع قام بالعين فلزم عليه أن الجزء الواحد قامت به أبصار وموانع وهي أضداد يستحيل اجتماعها في محل واحد فلم يتفق له الجواب أيضا كأنه رضي الله عنه وان حصل له العلم تحقيقا فقد طال عليه العهد برؤية الكتب لما علمنا من حاله انه ذهب للسيد الشيخ المعلوم ذي الطريقة المشهورة والأنوار الظاهرة والكرامات الحاضرة والأحوال الباهرة وكيف لا وهو من ذرية أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقد سرت[2] فيه روحانيته صلى الله عليه وسلم فاشتغل عنده بالأسماء وخواصها حتى نسي العلم وقد مكث عنده مدة طويلة أكثر من عشر سنين فأثر فيه ذلك النسيان.

أقول في الجواب أن الموانع والأبصار وإن كانت متضادة بحسب المعنى غير أن ما تعلق به البصر غير ما تعلق به المانع فلا تضاد ذكر هذا الجواب بعض المحققين من الأفاضل.

فإن قلت إنما يتم لو تعدد المحل فلما كان المحل واحدا وقام فيها المتضادات

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسختين.

(٢) في ثلاث نسخ سارت.

امتنع لأن المانع مضاد لأصل البصر وضد المثل ضد.

قلت نعم غير أنه إنما يلزم في غير المتعلق كالألوان والأكوان لأن اللون إذا قام بمحل منع قيام ضده به فإن قام السواد مثلا بمحل واحد منع قيام البياض به وأما قيام بصر زيد في جزء من محل عين عمرو فلا يمنع من قيام مانع بصر بكر فيجتمع المانع والبصر في محل واحد غير أنهما مختلفان تعلقا كما ترى وهذا كلما مررت بهذا المحل إلا خطر لي هذا الإشكال في صميم القلب فادفعه بما سبق من الجواب غير أن في القلب منه ما ذكرنا فتأمله منصفا والله اعلم.

والسؤال الثالث والرابع بالنسبة لعلم الكلام في تعلق علم الله بالمحال هل تعلق به تصورا أو تصديقا وهو سؤال قوي فقد زلت فيه الأفاضل والفحول فلم يفصح لي بالجواب أيضا نعم تعل علم الله بنفي الشريك وشبهه من كل محال وإنما الخوض في علمنا الذي يتعلق تصورا وتصديقا وأما علم الله فمنزه عن ذلك وان بقي فيه نوع خبط[1] غير انه خوض في ما لا يليق به تعالى إذ أكثر من هذا مستحيل عليه تعالى.

والسؤال الخامس في قول السيد الخرشي في شرح خطبة خليل وحمد المؤلف العام وشكره الخاص في مقابلة قول البراذعي على ما خص وعم من نعمه فما للبراذعي ترق وما للمؤلف محتمل له وللتدلي فقال في تقرير ذلك ونسبه لابن مرزوق أن الأصوليين اختلفوا هل الخاص أفضل أو العام في ذلك قولان فإذا بنينا على أن العام أفضل فقول البراذعي ترق لأنه بدا بالخاص ثم العام وأما قول خليل فيحتمل القولين فإذا كان العام أفضل فهو تدل وإن كان العكس فترق.

قلت هذا منقوض لأن البراذعي كخليل أي عبارتهما معا تحتمل القولين فلا

---

(١) في نسخة خطب.

فرق بينهما والتفريق بينهما تفريق بلا مفرق وهو من التحكم قطعا.

حاصله قد اتحد نسبة القولين إلى كلام الإمامين أي نسبة واحدة فلما ذاق هذا وحققه سلم الإيراد لم يفهم وجه الترقي والتدلي.

فقلت له ولمن حضر من العلماء في الجواب أن الترقي في كلام البراذعي انه بدا بالأخص إذ هو أقل إفرادا ثم العام إذ هو أكثر فهو ما تزايد من النعم يحتمل أن يكون على الحامد نفسه فيقدر حمدا يوافي ما تزايد علي وفي قوله والشكر له على ما أولانا من الفضل إلخ النون للتشريك أي علي وعلى غيري فيكون عاما.

حاصله أن الحمد خاص كما سبق والشكر عام فهو ترق فكأنه قال يوافي ما تزايد علي والشكر على ما أعطاني أي لي ولغيري فيكون ترقيا كما للبراذعي أو يكون تدليا وهو الظاهر فإن حمد المؤلف عام أي يوافي ما تزايد من النعم علي وعلى غيري وشكره خاص فبدا بالعام ثم الخاص وقد تقرر أن العام أكثر إفرادا من الخاص فهو تدل قطعا وبالجملة فكلام خليل يحتمل التدلي والترقي غير أن التدلي فيه أظهر.

فإن قلت قول الخرشي وحمد المؤلف العام وشكره الخاص إلخ مناف لهذا التقرير لكونه جزم بقوله وحمد المؤلف فما هذا منك إلا شبه تناف لكلام خليل.

قلت ولا منافاة إن شاء الله تعالى لأن جزمه بذلك على الظاهر من الاحتمال ما سبق فتأمله منصفا وقد جعلت في رسالة على نحو ما سبق فاستحسن الجواب كل من حضر المجلس وهذا الذي قررت شيء فتح الله به علي في هذا المقام إذ كل من يمر به يستهوله ويستصعبه وإنهم لا ينفصلون عنه كبير انفصال.

وقد أوردنا هذا الكلام على الوالد رحمه الله لأنه افقه زمانه وما رأيت مثله في

الفقه إذ انه في التحقيق بمكان فاستصعبه غاية ولما سمع بما فتح الله به علي شكر الله على ذلك وفرح بسببه فرحا عظيما.

والسؤال السادس في النحو وهو قولنا في قول ابن مالك:

وصالحا لبدلية يُرَى في غير نحو يا غلامُ يَعْمَرَا
ونحو بِشْرٍ تابعِ البَكْرِيِّ وليس أن يُبْدَلَ بالمَرْضِيِّ

أما بشر تابع للبكري فهو ظاهر المنع لأن البدل على نية تكرار العامل ولا تصح هنا لأن المحلى بالألف واللام لا يضاف إلا لما هو كذلك وهنا ليس كذلك وأما يعمر بالنصب فأعرابه عطف بيان صحيح لكونه تابعا للمنادي المضموم لفظا المنصوب محلا فنصب وأما إعرابه بدلا فلا يصح لأنه على نية تكرار العامل والعامل هنا ياء النداء كأنه قال وذلك قول الشاعر [وهو المرار الاسدي]

أنا ابن التارك البكري بشر عليه الطير ترقبه وقوعا

يا غلام يا يعمر فيضم مع أنه لم يقع مضموما غير أن هذا لا يظهر كونه علة للمنع وأما المثال الأول فقد ظهر فيه علة المنع وأما المثال الثاني فليس له علة للمنع غايته مخالفة ما نطق به المتكلم وذلك ليس بمنع فليس من باب القراءة لأن القراءة سنة متبعة فيصح حينئذ عطف البيان فيه وكذلك البدل أيضا فلا تأثير لمتابعة ما نطق به المتكلم من النصب فيجوز حينئذ اعتبار الوجهين قطعا البدلية وعطف البيان فتأمله منصفا.

وقد استخبرت عليه أناسا غربا وشرقا فلا أجد أحدا يقول غير ما ذكرناه من وقوع النطق به منصوبا وإنما اسأل الناس هل أجد أحدا منهم حفظ هذا اللفظ وهو يا غلام يعمر من الشعر وانه وقع بالنصب رعيا للقافية إذ لو ضم لخالف الحرف

الروي في القصيدة لأنها منصوبة فلو ضم لوقع فيه المخالفة المذكورة.

أقول جميع من شرح الألفية لم ينبه على هذا السؤال ولا على الجواب نعم أنا أظن أنها من قصيدة شعر رويها منصوب فلو ضم على البدلية لأنه على نية تكرار العامل لوقع الخلف فيها غير أني لم أطلع على انه من الشعر فانظر رحمك الله لعلك تطلع عليه في ديوان الشعراء فيزول اللبس فيما وقع فيه الكبس من سائر الطلبة المسئولين عنه انتهى.

والسؤال السابع عن الكيمياء أي عن الأكسير فقال أمره إذ قال أنه مستور بشعرة فعلمت من كلامه أنه يعرفه وأشار لي أيضا ببيانه فتغافلت عنه ظنا مني انه لا يعرفه.

والسؤال الثامن سألته ومن حضر عما نقله الشيخ إبراهيم الشبرخيتي في شرحه لخليل في باب الجنائز من أن الموت عرض قائم بيد ملك فمن مسه بها مات وهو انه عرض والعرض إذا قام بمحل أوجب الحكم لمن قام به لا لغير من قام به وهنا أوجب الموت لغير من قام به وأما من قام به فلم يمت وهي اليد التي قام بها والقضية العقلية[1] يستحيل تبديلها عقلا فلن ترتفع فتحير الكل في الجواب.

نعم فلا جواب عنه على مقتضى القواعد العقلية غير أن المعتزلة خالفوا في هذه القضية وأمثالها لكنه لا يكون جوابا فإذا علمت هذا علمت أن كون الموت في مخلوق عند المس باليد التي قام بها الموت ليس من إعطاء الصفة الحكم لغير من قامت به بل أن الله أجرى عادته أن يخلق الموت في الحي عند ذلك المس فيخلق عنده لا انه[2]

---

(١) في نسخة النقلية.

(٢) في نسخة لأنه.

أوجبه وصف الموت القائم بتلك اليد ولا أنه به فالحاصل أنه يخلق عنده لا به ولا أنه موجب الحكم المذكور إلخ وأما اتصاف اليد بالموت فلا مانع منه أيضا أن قام به الموت حقيقة.

فنقول أنها ميتة وتلتزم ذلك على قواعد العقل ومع ذلك متحركة حركة اضطرارية فإن الميت يتحرك بتحريك من غيره إياه.

حاصله أن اليد وإن ماتت فلا مانع من أن يحركها الله بمحرك كما يتحرك الميت بغيره تحرت خرق عادة لأن الحياة ليست شرطا عقليا في الألوان والأكوان والحركة وإنما الحياة شرط عقلي في الإدراك لا غير وقد توقف في هذا السؤال جميع من رأيناه ولقيناه من أكابر العلماء غربا وشرقا نعم وقد من الله علي بالفتح في هذا المقام الذي يستهوله ويستصعبه ويقول بإحالته كل من سمعه أو مر عليه فلا تستحقر فان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء وممن توقف في هذا السؤال أيضا الشيخ علي الصعيدي وغيره انتهى.

والسؤال التاسع قد سأله عن التناقض الذي بين المذاهب لأن النبي واحد والملة واحدة ومع ذلك تناقضت الأحكام وتضادت والقائل بها في الواقع واحد وهو النبي صلى الله عليه وسلم والواحد مثلا لا يقول في صلاة واحدة باطلة صحيحة كيف وأن مالكا يقول بأن الصلاة التي بسمل المصلي في أول الفاتحة مكروهة وان تركها أولى ويلزم من ذلك صحة صلاة تاركها قطعا وإما الإمام الشافعي فيقول ببطلانها أن تركت لأنها آية من الفاتحة ومن ترك آية عمدا بطلت صلاته ومذهب مالك أنها ليست آية من الفاتحة فيا عجبا كيف تكون الصلاة في دين واحدة باطلة غير باطلة هذا على من يقول أن المذاهب كلها على الحق في الواقع إذ قال الإمام الشعراني يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الأئمة الأربعة كلهم على

الإصابة في نفس الأمر فيلزم أن بطلانها وصحتها حق وهو باطل لما علمت من أن اجتماع النقيضين محال وأما من يقول أن الإصابة بحسب ظن المتجهد فلا كلام أو أن حكم الله هو ظن المجتهد في حقه وحق مقلده فلا قدح أيضا وإن المصيب واحد غير أن الله لم يكلفنا بتعيينه فلم يبق إلا ثوب التناقض فيما إذا حملت الإصابة لكل في نفس الأمر ولذا قال الإمام المذكور حصلت لي وقفة منذ أزمنة متطاولة في مثل هذا التناقض إلى أن دخلت الخلوة ففتح الله علي بأن بعض الأئمة شدد وبعضهم رخص إلخ ما ذكره.

وهذا الجواب لا يغني شيئا لأن مالكا قد كرهها مطلقا وذلك ليس لمقلده فقط والشافعي أوجبها على كل مصل باجتهاده إلخ.

فلما ذكرت ذلك بحضرة شيخنا الشيخ العفيفي وجماعة من العلماء فمنهم من فهم السؤال وصار ينظر في الجواب عنه ومنهم من لم يصل إلى السؤال فضلا عن أن يجيب والشيخ المذكور فهم السؤال وأنكر وجود قولة بإصابة الجميع في نفس الأمر للأصوليين.

نعم قلت قد كان ذلك في المحلي فلما أتوا بنسخة منه وجدناه كذلك وأنكروا ما ذكره الشعراني بأن قالوا لم يذكره فإذا بشيخنا العفيفي قد أخرج كتابه فأصبناه كذلك أيضا فبعد ذلك سلم الكل الإيراد إلا الفاضل سيدي أحمد بن عمار مفتي الجزائر قد أنكر وصادر عن المطلوب غير انه لم يقصد عنادا وبعد ذلك سلم رضي الله عنه وعن الجميع آمين.

ولا غرابة أن يمن الله على بعض الناس بالجواب وقد من الله علينا بالجواب بما هو حاصله أن ترك البسملة في الصلاة مبطل على مذهب الشافعي وغير مبطل عند

مالك وذلك تناقض قطعا نعم الإصابة بحسب الثواب ونفي العقاب إذ كل من المذاهب مصيب في نفس الأمر بحسب الثواب في صحة العبادة على من يقول بها وعدم العقاب على من يقول ببطلانها وفسادها وأما في الواقع عند الله فأما صحيحة أو فاسدة لاستحالة الجمع بين صحتها وفسادها في علم الله وإنما يصح ويثبت في علمه تعالى أحد المذهبين فقط لما علمت من عدم اجتماع النقيضين فحينئذ فترك البسملة في الصلاة أما أن يوجب خللا عند الله في الواقع كما هو مذهب الشافعي أو لا يوجبه كما هو مذهب مالك فالحق في الإصابة في علم الله أحدهما دون الآخر وأما بالنسبة للثواب وعدم العقاب فكلاهما صحيحان يعتد بهما في ظاهر الشرع لأن مالكا يرى أن البسملة ليست آية من الفاتحة ولذا قال تركها لا يوجب خللا بل التلبس بها مكروه لما فيها من التلبس في قراءتها في أول الفاتحة وإيهام أنها منها وهي ليست كذلك لأدلة عنده قولية وفعلية من أهل المدينة لأنه يقدم عمل أهل المدينة وذلك قاعدة من قواعده ولذا جزم بأنها ليست من الفاتحة فإذا كل كذلك عند الله فالحق معه ظاهرا وباطنا وإلا فيحصل الثواب من تلك الصلاة المتروك فيها البسملة وإن كانت في علم الله فاسدة فإصابته حينئذ بحسب الثواب عليها وعدم العقاب على ترك البسملة وإن كانت فاسدة بسببها تركها في علم الله تعالى.

حاصله أن مالكا مصيب فيما أما بحسب علم الله وغيره وأما مصيب في الثواب عنها وعدم العقاب على تحمل المفسد في على الله تعالى وهذا معنى إصابته.

وبالجملة فهو مصيب قطعا في صحة الصلاة ثوابها وأما مصيب في الثواب وعدم العقاب فقط وإن كانت فاسدة في علم الله تعالى وهذا معنى الإصابة في كل مذهب وذلك مطلقا أي في العمليات والعبادات وعلى هذا تحمل الإصابة في نفس الأمر وإلا فالتناقض ظاهرين لا ينكره عاقل فضلا عن عالم وكذا مذهب الشافعي

في محل الإصابة فيما يناقض غيره من المذاهب فإذا قلنا بفساد الصلاة عنده بترك البسملة أما عند الله تعالى فتكون فاسدة ظاهرا وباطنا وإما أن تكون فاسدة بحسب رأيه واجتهاده بالأدلة الواردة في ذلك أي بأنها آية من الفاتحة فيكون حينئذ أما مصيبا في نفس الأمر وفي الظاهر فقط.

وحاصله أن إصابته أما بحسب علم الله أنها فاسدة بتركها أو بحسب الظاهر من الأدلة فيكون مصيبا قطعا غير انه إن كان مصيبا في فسادها بحسب علم الله فيكون مالك مخطئا بحسب صحتها غير انه مصيب بحسب الثواب وعدم العقاب وأما أن يكون مالك هو المصيب في صحتها بتركها في علم الله تعالى فيكون الشافعي مخطئا في فسادها بحسب علم الله وإنما يكون مصيبا في فسادها بحسب الظاهر من الأدلة ويكون حال من ينتمي إليه يعاقب ولا يثاب عليها أيضا لمخالفته ما دل عليه الحديث أنها آية من الفاتحة ومن تعمد ترك آية منها عوقب وأثم.

فإن قلت قد اجتمع الثواب والعقاب في صلاة واحدة لأنك حملت الإصابة على ذلك قررت منه من اجتماع النقيضين وقعت فيه فهو مشترك الإلزام قطعا.

قلت السؤال قوي غير أن لطف الله موجود وكرمه معهود وفتحه ممدود فلا منع أن يجعل الحق حيث شاء.

أقول وعلى الله اعتمدت أن الصلاة إذا كانت صحيحة عند الله مع ترك البسملة فالفساد حينئذ ليس إلا في الظاهر ومخالفة الظاهر ضعيفة لا سيما مع عدم التعين فيه فلا أقل أن يكون مع ما عند الشافعي من الحكم بفسادها بحسب الظاهر من الأدلة من أنها آية من الفاتحة غير مجزوم به ولا مقطوع به أصلا لا سيما على ما تقدم أن صحتها هو الواقع في علم الله تعالى فيكون بطلان الصلاة بتركها أمرا خفيفا لما لم

يكن في علم الله تعالى فخفف أمره وتيسر حاله فكأنه معفو عنه فالالتفات إليه التفات إلى حال الأدلة واعتبار لقواعد اجتهاده فيصير العقاب والفساد أمرا عارضا غير موثوق به إذ المعتبر ما عند الله من الصحة فيها بتركها فيكون الشافعي مصيبا بحسب الأدلة أنها آية من القرآن أي آية من كل سورة فيلزم أن تكون آية من الفاتحة فعلى من اجتهد ولاحظ أنها آية من الفاتحة من غير أن يعتريه شك في ذلك بأن كان عنده ظن قوي بأنها آية من القرآن ففساد الصلاة بتركها ظاهر وهو مصيب من هذه الحيثية ومعاقبا على تركها عقاب أقله توبيخ وتفريع على مخالفة الشافعي في ظنه أنها آية من الفاتحة إذ المعتمد على مذهبه لا بد أن يعمل به وإلا عوقب عليه لأن العمل بمقتضى المذهبين تناقض والإصابة فيهما مستحلية إذ لا يمكن الجمع بين النقيضين.

وبالجملة فالإصابة على المذهبين هو أن لا مؤاخذة على كل من عمل بهما وعلى هذا تحمل الإصابة في نفس الأمر ولا شك أن كل مجتهد في المظنونات بشروط الاجتهاد غير مؤاخذ في نفس الأمر وكذا مقلده وأن أخطأ بحسب علم الله تعالى بخلاف المجتهد في الاعتقاد فلا بد أن يكون مصيبا في نفس الأمر وإلا عوقب هو ومقلده لأن الناس مكلفون فيها بالعلم واليقين ولا يصح فيها الظن القوي ولذا كان المصيب في العقائد واحدا لأن العلم له وجه واحد والمطلوب فيها العلم بالاحتمال فإذا علمت هذا علمت صحة إصابة كل مجتهد في الفقه في نفس الأمر بحسب عدم المؤاخذة فيه عند الله تعالى فمن صلى حينئذ بغير بسملة كما هو مذهب مالك لا مؤاخذة وكذا على مذهب الشافعي أن يسلم وظن أنها آية من الفاتحة نعم كذا كل مذهب في الفقه.

حاصله أن التناقض الواقع بحسب المذاهب الفقهية إن كانت مدونة ومقتفية مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة يجب أن يحمل كل رأي منهم على الإصابة في

نفس الأمر بمعنى أن من عمل بمقتضاها غير مؤاخذ شرعا وإن كان المصيب في علم الله وأحدا إذ لا يمكن الإطلاع عليه إلا بالوحي أو الأدلة العقلية وقد تعذر ذلك أما الوحي فقد انقطع به صلى الله عليه وسلم وكذا الأدلة العقلية لأن هذه الأحكام نقلية ولا مجال للعقول فيها فإن كان كذلك فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها وترجيح المصيب من المجتهدين فيها تحكم نعم يصح فيما ظهر فيه المدرك أو كثرة القائل نعم فلا يكون ذلك دليلا على انه في علم الله تجب الفتوى بالراجح والعمل به وأما في العمليات فالمصيب فيها واحد والعمل بما في علم الله انه الحق واجب والبحث على ذلك بالأدلة العقلية لازم متحتم والمعتقد على خلافه مأثوم أو كافر وأن اجتهد بإمكان التوصل إلى ما في علم الله من المعتقد الصحيح بالأدلة العقلية.

فظهر ذلك أن المصيب فيها بحسب المؤاخذة واحد بخلاف المجتهد في المظنونات صح أن يكون كل مصيبا بحسب عدم المؤاخذة هذا وهو التحقيق في الجواب والله الموفق للصواب وإليه المرجع والمآب.

ولتعلم أن الله قد من علي بفتح منه وإلا فهذا المحل يستهوله كل من مر عليه ويستصعبه فلا ينفصلون عنه إلا على بطلان القول بالإصابة في نفس الأمر وإنما الإصابة بحسب ظن المجتهد وان ظنه هو حكم الله في حقه وحق مقلده كما هو تحقيق في فن الأصول والإصابة لكل فلا لما علمت من التناقض والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان غير أنك قد سمعت الجواب عنه الله هو الفتاح العليم.

والسؤال العاشر والله اعلم هو برهان القطع والتطبيق إنما يستحيل في الحوادث دون القديم إذ قولهم ما دخل في الوجود متناو وذلك والله اعلم في القديم والحادث وأظن أن المحقق ابن التلمساني في شرح المعالم قال أدلة ذلك أي إحالة التسلسل في الحوادث خالص بها لتوقف وجود بعضها على وجود بعض قبلها وأما القديم فلا

لعدم السبقية فيه ولهذا قال ابن التلمساني المذكور وتبعه المحقق المراكشي في حاشيته على الصغرى وكذا اليوسي في حاشيته على الكبرى أن كمالاته تعالى لا نهاية لها بحسب الواقع وإنها صفات موجودة قائمة بذاته غير متناهية ودعوى الإجماع أن كل ما دخل في الوجود قديما أو حادثا متناهٍ منقوض بمذهب الإمام الصعلوكي في قوله أن علمه تعالى يتعدد بتعدد المعلومات ومعلوماته غير متناهية لأن الإجماع لا ينعقد بدونه إلخ ما ذكره الشيخ اليوسي فظهر لك أن الأدلة العقلية غير جارية فيه وكذا الإجماع لما ذكر الصعلوكي وكذا ابن الحاجب في تعدد القدرة سلمنا الإجماع غير انه دليل ظني.

قلت سلمنا ذلك غير أن عدم إحالته ممنوع وسند المنع أن أمر الكمالات عدد وكل عدد أما أن يكون زوجا أو فردا أو غير زوج ولا فرد أو زوجا فردا وكل ذلك لا يصح لأنه أن كان زوجا أو فردا فهو متناهٍ وأما غير زوج ولا فرد فمستحيل وكذا زوجا فردا فمستحيل أيضا فإذا علمت هذا علمت استحالته في القديم أيضا وإن كان هذا الجواب أفحاميا إذ أكثر أدلة الكلام أفحامية أو اقناعية.

نعم حصول الفائدة للناظر من هذه الأبحاث إشكالا وجوابا ظاهرا للمعتني بالعلم والراغب فيه وإما غير فضائع فيه كتعليق وعاه فيه مسك للحمار أو نثر الجواهر للدجاج.

وبالجملة فأمر مصر وحالها من يوم عمارتها إلى الآن أمر غريب وعجائبها في العلوم والمعارف والعوارف والولاية لا تحصى وغرائبها كادت أن لا تستقصى فمن اختبرها وعاين بعض أحوالها حصل له اليقين الخاص والعبرة العظيمة.

ومن عجائبها في كل شيء أنك إذا رأيت شيئا عظيما ثم رأيت شيئا أعظم منه

نسيت الأول ثم كذلك إلى هلم جرا.

نعم أحوال مصر داخل المدينة وخارجها كافية في الاعتبار إذ في أهلها وأسواقها ودكاكينها وأزقتها وديارها ووكلاتها قهواتها ومساجدها ومدارسها وعجائب قرائها وعلمائها وصلحائها وطلبتها وفقرائها وظلامها وبطارقتها وأهل شرطتها وجنودها وعساكرها وأمرائها وكثرة خلقها وكذا سحرتها وزنادقها وكذلك كثرة اليهود فيها مع النصارى وكذا مقابرها في القرافة الصغرى والكبرى وكذا عجائب ما فيها من البنيان وأعجب من ذلك ما فيها من العلماء المؤلفين والأولياء الصالحين ممن يستجاب الدعاء عند الجميع وكذا خارج المدينة ففيه من القصور والغرف وصهاريج من الماء وكذا ما في داخلها من الحمامات والأفران على أن سعة الديار فيها وعلو أسوارها وتزيينها بالنحاس والذهب والفضة فبعض الديار إن كان أحد في طرفها والآخر في الطرف الآخر لا يسمع كلامه بل وقد لا يرى له شخصا فإن رآها بعض الناس غاب عن حسه لما أصابه من مشاهدة رونقها يكاد المرء أن تكون عنده الجنة عجائب وغرائب لا تكاد توجد في غيرها من البلدان أيا كانت هذا الذي سمعته بعد أن دمرها الله وغيرها بسبب الفسوق والعصيان على أنها الآن قد كثر فيها الظلم حتى سمعت من الشيخ العارف المحقق الفاضل سلطان الموحدين شيخنا الشيخ الحفناوي يقول في حجتنا هذه إن ظلم ولاتها قد وصل كل جنس من أجناس الآدميين حتى بلغ ظلم الحاج المغربي والعلماء والطلبة والفقراء والأشياخ والصناع والتجار والمجاورين وسائر الناس قاطبة ولذلك ابتلاهم الله بالشقاق والفتنة فكانت مصر لمن غلب وقد قال صلى الله عليه وسلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم.

فإذا علمت هذا علمت أن والي بولاق قد تعدى على ركبنا أهلكه الله وأخلى منه الأرض وكذا معينه يمسك جماعة بعد جماعة من الحجاج ويلقيهم في السجن فإن

أخذ منهم شيئا من الدراهم سرح لهم من غير أن يدعوهم أحد للشريعة عدو نفسه إلا أنه لا يقدر أن يربط من الركب هو وغيره من الولاة وإنما يربطهم من الأسواق وقد نجاني الله منه والحمد لله.

وسبب ذلك الشيالة أي الحاملون للحجاج فيشتكون إليه بباطل قصدا منهم أن يأكلوا ما عليهم من الدين الذي أقرضوه وتسلفوه منهم إذ كيدهم عظيم فإننا سلمنا منهم في الطلعة والهبطة لقوة الركب فلم يغن عنهم ما أرادوه من إتلاف أموال الحجاج بالباطل عند أمير الحاج من مصر فلم يوافقهم على الظلم ولما وصلوا إلى مصر رجعوا إلى فعلهم الردي غير أنهم لم يأخذوا شيئا منهم وإنما ذلك الظالم هو الذي أخذ منهم.

نعم ما خرجنا من مصر حتى أوقع الله بها فتنة عظيمة وغلاء قويا ببركة الحاج.

ذكر خروجنا من مصر

ولما ظعنا من البركة نزلنا الدار الحمراء وهي لا ماء فيها بل إنما يأتي الحاج بالماء من النيل يصحبه إلى أن يصل دار عجرود أو يجاوزه إذ ماؤه قبيح لا يشربه إنسان إلا خرج من حينه بل يغير طبيعة شاربه فلما يسلم شاربه من مرض البطن فيستعدون الماء تلك المرحلة إلا الفقراء فيضطرون لشربه فلا يسلمون منه غالبا بل الطعام الذي يطبخ به تصيبه مرارة فلا يؤكل إلا بشدة الجوع.

نعم الذي عنده وسع في ماله وقوة في زاده يشتري الماء العذب إذ يأتون به من النيل فيباع في الأسواق إذ أسواق الركب المصري كثيرة لا يمكن عدها إذ فيها كل خير مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وترغب فيه الناس إلا كان فيه سواء كان نازلا أو سائرا فإن من لم يصحبه زاد من طعام وشراب وعنده فلوس يشتري كل ما يحتاجه منه غير أنه يشتريه بزيادة الثمن وإنما الرخاء فيه بكثرة ما يباع فيه من المطاعم والملابس والفواكه والخضر حتى يحكم الإنسان ويجزم أن مصر خرجت برمتها وما فيها إذ تجد الطبائخ من أنواع الأطعمة والأشربة والأغذية أحسن مما يوجد في الأمصار الكبار ومع ذلك هم سائرون فالمضطر الجائع يجلس عند الطباخ ويأكل عنده ما يحتاجه بثمنه فتجتمع نعمتان الاستراحة والشبع بل عنده نعمة شاملة كأنه حاضر في سفر ونزهة في كدر وعبرة في ضرر ورحمة في سفر.

انعطاف إلى ما كنا بصدده وهو أن عجرودا هذا قد يوجد فيها بعض المياه العذبة في نواحيه وكذا في نواحي الدار الحمراء غير أنها ليست في كل الأوقات ولا أنها تكفي الحاج ومع ذلك لا يعلمها الحاج وإنما يخبر بها بعض الأعراب.

ولذا قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر المذكور ما نصه قرب هذه الدار مررنا

على واد به ماء طيب بآبار قريبة القعر يحفر الإنسان بيده فينبع له الماء قريبا بحيث تتناول الدابة منه بفيها من غير كلفة وأخبرني بعض من كثر تردداه في هذه الطريق أن هذا الموضع يجدون به الماء ولو في الصيف هذه الأزمنة وهذه السنة زاد الماء فيها كثيرا من كثرة الأمطار ونداوة الأرض إلى أن قال وهو عن يمين الذاهب لعجرود فسرنا ومررنا كذلك على واد به فيعان من ماء يسيل سيلا تاما من المطر بإزاء عجرود فقلت لأعرابي حجازي هذا الماء طيب فقال مجيبا نعم زي الشهد إلى أن قال وماء عجرود يضرب به المثل في القبح واشتهر بذلك مع وجود ما يضاهيه كثيرا في مياه الدرب إلا أنه لما كان أول ماء يرده الحاج قبل أن يألف مشاق الطريق مع اعتياد الناس قبل ذلك لمياه النيل ووجود فضلة منه لا يكادون يسيغون منه جرعة إلا وهمت بطونهم بالرجعة.

وفي هذه المورد حصنان متقاربان مبنيان بأوثق بناء يترك الناس فيهما ما استثقلوه من الأزودة والأمتعة إلى الرجوع وكثيرا ما تعطب المؤمن من الإبل في هاتين المرحلتين بجد السير وثقل الأحمال إذ لم يخفف منها شيء والإبل قد ألفت الراحة بمصر ويغلب عليها السمن وكثير من الناس لا يشفقون عليها فيحملونها فوق طاقتها ولا يرخون عليها في المشي لما يتوقعون من خوف اللصوص على من تأخر فكل واحد يريد أن يتقدم وقد لطف الله بنا عادة عودناها تعالى في جميع الأحوال فتتأخر عن الركب ونكون في أخرياته فنسير على مله بإبلنا وينضم إلينا من ضعف من الناس أو تأخر لغرض فكان لنا في ذلك وللناس خير كثير فلم نر ما رأى الناس من المشاق وموت الإبل وفي أحد الحصنين اللذين هناك بئر كبيرة تسني دائما بالبقر ويخرج الماء من البندر إلى برك ثلاث خارجات اثنتان صغيرتان والثالثة كبيرة وبها عسكر لا يفارقها أبدا وكذلك غيره من البنادر في كل سنة يأتي قوم فيذهب الذين كانوا به ولهم جراية من بيت المال على ذلك ولولا لطف الله بالعباد بوجود هذه

البنادر في الطريق لما قدر أحد على سلوكها مع كثرة مخاوفها وقلة مرافقها ولكن الله سلم أنه عليم بذات الصدور ومن هنا يعدل عن طريق الحاج ذات المصانع ذات اليمين للنابعة والمصانع سواري مبنية في سبخة لا يظهر فيها أثر الطريق وكذا في الرمل القريب منها فجعلوا تلك الأعلام المبنية ليستدلوا بها على الطريق وجعلوا في رؤوس الأبنية حجر مستطيلا خارجا لناحية الطريق ليستدل بها الماشي ليلا وربما علقوا على بعض الأعلام مصابيح ليلا لبعد ما بينها وبين كل علم وعلم نحو فرسخ أو أقل أو أكثر في محالها وعلى هذا الطريق يسلك الحاج المصري والمغربي دائما إلا في أوان الحر وخوف العطش فيعدلون إلى النابعة عن طريق المصانع وهي واد كبير ذو رمل به احساء كثيرة تزيد على المائة بل أينما حفرت مقدار قامة أو أقل وجدت ماء حلوا باردا في غاية الحلاوة كأنه ماء النيل ربما يتوهم أنه أحسن منه شرقي مدينة سويس.

وهي مدينة صغيرة ذات أسواق ومساجد ووكالات مستطيلة على شاطئ البحر المالح الذي يأتي من الهند وهناك يقف بين جبال شامخات وبينه وبين البحر الرومي نحو مرحلتين قاله الشيخ أبو سالم في رحلته.

قلت وذكر المقريزي أن ما بينهما هو البرزخ الذي ذكره الله تعالى في كتابه في قوله تعالى: ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾ وبهذه المدينة ترسى السفن التي تأتي من جدة ومكة واليمن فيها السلع التي لا تحصى والبضائع التي لا تستقصى ومن هناك تحمل إلى مصر في البر.

قلت وهي بموضع مدينة القلزم التي ينسب إليها هذا البحر وبالقرب منها غرق فرعون قال المقريزي في خططه وقد عرف بهذا البحر وذكر في تفاصيله وان مبدأه من البحر الكبير المحيط بالأرض المسمى ببحر الظلمات لتكاثف البخار

المتصاعد منه وضعف الشمس عن حله فيغلظ وتشتد الظلمة ويعظم موج هذا البحر وتكثر أهواله ولم يوقف من خبره سوى ما عرف من بعض سواحله وما قرب من جزائره وفي جانب هذا البحر الغربي الذي يخرج منه البحر الرومي الجزائر الخالدات وهي فيما يقال ست[1] جزائر يسكنها قوم متوحشون كما أن في جانبه الشرقي مما يلي الصين ست جزائر أيضا تعرف بجزائر السيلي نزلها بعض العلويين في أول الإسلام خوفا على أنفسهم من القتل ويخرج من هذا البحر المحيط ستة بحار أعظمها اثنان وهما اللذان ذكر الله تعالى في كتابه في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ ﴾ فأحدهما من جهة الشرق والآخر من جهة الغرب فالخارج من جهة الشرق يقال له البحر الصيني والبحر الهندي والبحر الفارسي والبحر اليماني والبحر الحبشي بحسب ما يمر عليه من البلدان وأما الخارج من الغرب فيقال له البحر الرومي وأما البحر الهندي الخارج من جهة الشرق فيبدأ خروجه من مشرق الصين وراء خط الاستواء بثلاث عشرة درجة ويجري إلى ناحية الغرب فيمر على بلاد الصين وبلاد الهند إلى مدينة كتبانة[2] وإلى التبر[3] من بلاد مكراف[4] ينقسم هناك قسمين أحدهما يسمى بحر فارس والآخر يسمى بحر اليمن فيخرج بحر اليمن من ركن ينزل خارجا من البحر يسمى هذا الركن رأس الجمجمة فيمتد من هناك إلى مدينة ظفار وساحل بلاد حضرموت وإلى عدن فإذا انتهى إلى باب المندب يخرج بحر القلزم والمندب جبل طوله اثنا عشر ميلا وسعة فوهته قدر ما يرى الرجل من البر تجاهه فإذا فارق باب المندب مر بجهة الشمال بساحل زبيد فإذا وصل إلى القلزم انعطف من جهة الجنوب ومر إلى القصير

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية ليست.
(٢) كذا في أربع نسخ وفي نسخة كتبانة وفي الرحلة الناصرية كبتانة.
(٣) كذا في أربع نسخ وفي الرحلة الناصرين وأما في نسخة فتبت.
(٤) في الرحلة الناصرية مكران.

ومن القصير إلى عيذاب إلى بلد الزيلع وهو ساحل بلاد الحبشة ويتصل برا وطول هذا البحر ألف وخمسمائة ميل وعرضه من أربعمائة ميل إلى ما دونها وهو بحر كريه المنظر والرائحة وأما البحر الرومي فقد تقدم أن مخرجه من جهة الغرب وهو يخرج في الأقليم الرابع بين الأندلس والغرب سائرا إلى القسطنطينية وإذا خرج هذا البحر مر شرقا في بلاد البربر وشمال الغرب الأقصى إلى وسط بلاد المغرب على إفريقية وبرقة والإسكندرية وشمال التيه وأرض فلسطين وسواحل بلاد الشام ثم يعطف من هناك إلى العلايا وانطاكية إلى ظهر بلاد القسطنطينية حيث ينتهي إلى البحر المحيط الذي خرج منه وطول هذا البحر خمسة آلاف ميل وقيل ستة آلاف وعرضه من سبعمائة[1] ميل إلى ثلاثمائة وفيه مائة وسبعون جزيرة عامرة.

وذكر بعض أصحاب السير من الفلاسفة أن ما بين الإسكندرية وبين بلادها أي وبين القسطنطينية كان في قديم الزمان أرضا تنبت الجميز وكانت مسكونة وكان أهلها قوما من اليونانية و كان لاسكندر خرق إليها البحر فغلب على تلك الأرض وكان فيها فيما يزعمون الطائر الذي يقال فه قَقَنُسٌ وهو طائر حسن الصوت وإذا حان موته زاد حسنا في صوته قبل ذلك بسبعة أيام حتى لا يمكن أحدا يسمع صوته لأنه يغلب على قلبه من حسن صوته ما يميت السامع وانه يدركه قبل موته بأيام طرب عظيم وسرور فلا يهدأ من الصياح وزعموا أن بعضا من الفلاسفة أراد أن يسمع صوت ققنس في تلك الحال فخشي أن هجم عليه أن يقتله حسن صوته فسد أذنيه سدا محكما ثم قرب إليه فجعل يفسخ من أذنيه شيئا فشيئا حتى استكمل فسخ الأذنين في ثلاثة أيام يريد أن يتوصل إلى سماعه رتبة بعد رتبة ولا يسمعه في أول مرة فيأتي عليه وزعموا أن ذلك الطائر هلك ولم يبق منه ولا من فراخه شيء هجم عليه

---

(١) في الرحلة الناصرية تسعمائة.

ماء البحر وعلى رهطه بالليل في الأوكار ولم تبق له باقية ويقال أن بعض الفلاسفة أراد ملك من الملوك قتله فاعطاه قدحا فيه سم ليشربه واعلمه بذلك فظهر منه مسرة وفرح فقال له ما هو هذا أيها الحكيم فقال له هل أعجز أن أكون مثل ققنس انتهى كلام المقريزي مع بعض حذف ولو الإطالة بما لم يكن لنا بصدده لاستطردنا ذكر البحور السبعة ومواقفيها وكيفية مجاريها في أمكنتها وإنما تعرضنا لهذين لأن لهما تعلقا بطريق الحاج ومجاورتهما له ذهابا وإيابا والله الغفور بفضله وطوله.

قال شيخنا أبو سالم.

تتميم قد ظفرت بمصر برسالة للشيخ البكري وأظنه شيخنا محمد ابن الشيخ زين العابدين ذكر فيها منازل الحج وديارة ذهابا وإيابا وحقق قدر ما في كل مرحلة من الساعات والدرج والدقائق وصعوبتها وسهولتها بنثر بليغ وعبارة رائقة وذكر في كل منزلة شعرا يتعلق بأحوالها فأردت أن اقتطف منها ما يكون في أذن هذه الرحلة شنفا إذ كلامي بالنسبة إلى كلامه لا يعد معه صنفا ولما كانت المنازل التي ذكرها قد لا تتفق مع منازلنا ومراحله تزيد أو تنقص عن بعض مراحلنا لم أذكر في كل مرحلة ما يناسبها من كلامه فأخرت ذلك إلى آخر مرحلتين أو ثلاث أو أزيد فاخترت لإدراج كلامه المراحل التي فيها البنادر لأنها في الغالب متفقة فإذا جاء ذكر بندر من البنادر ذكرت من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبله ليكون ذلك أسهل لمطالعته وأبقى لرونق كلامه من التقطيع وكثير التوزيع.

قال فلنذكر الآن من كلامه ما يتعلق بالمراحل التي قبل عجرود فأقول قال الشيخ البكري رضي الله عنه فأول المنازل البركة المباركة، التي توحدت في مشارق أنوارها ومشارع شوارع أقطارها عن المشاركة، وقصرت عن أوصافها ذوو اللسن، وجمعت بين الماء والخضرة وقدوم الوجه الحسن، فهي نضرة الأكناف، بديعة

الأوصاف، قد مدحت أطيارها، ونفحت بالنسائم أزهارها، وبها الخيام منصوبة ومرفوعة، والخيرات لا مقطوعة ولا ممنوعة، مع وقوف أشائرها على الأقدام، يستدل بضوئها في الليل من له على القدوم إقدام، كأنها في جنح الليل نجم الثريا إذا اقترنت بالنثرة، أو الأكليل إذا قارن الزهرة، وبها سوق يساق إليه بدائع البضائع، التي يحتاج إليها المسافر في أكثر الوقائع، ما قصد نحوه قاصد، إلا وعاد منه موصولا بالصلة والعائد، وكان هذا النعيم المقيم مسامرنا ومسائرنا في الذهاب والإياب، إلى أن رجعنا إلى بركة الحاج ثانيا ولاقينا الأحباب، قال الشاعر:

في بركة الحج ترى — نخلا زها لكن عجب
زبرجدا يحكي وما — ثماره إلا ذهب
فيها نسيم رائق — بلطفه يشفي الوصب
والطير فوق مائها — يشدو بأنواع الطرب
فيا لها من بركة — تبلغ القلب الأرب
عوذها من طارق — وغاسق إذا وقب

وبعد ما كملت الركائب، واجتمع بعد التفريق نجائد النجائب، وانقضى مقام المقيل، ونودي في ذلك المكان الرحب بالرحيل، وحل المحمل الشريف، وفارق المربع والظل الوريف، وسار الركب سير السيل، وتسابقت العيس لجهات الخير كأنها الخيل، حتى وصل إلى قرب البويب المعروف بالتصغير، وفي الحقيقة هو باب الدرب ومفتاح المسير، فاجتمع شمل الركب في ذلك المكان، ورجع المودع في خبر كان، فاستراح الناس والبهائم، واستيقظ بسهر الليل كل نائم، ثم أطعمت الجمال العلائق، وقطع الحجاج من تلك المحطة العلائق، ومدة المسير في تلك المرحلة، ثلاث ساعات مكملة، ثم نادى منادي الرحيل، فسار الركب إلى أن أصبح مقاربا للبئر الطويل، وهو المكان المعروف بالمصانع، ومطلب راحة الناس في الإقامة لولا

الموانع، وبه تقطير الجمال وضبطها في سير الركوب، واحتياج الماشي من تعبه إلى الراحلة والركوب، فيا له من يوم تقطر فيه الدموع، ويطول فيه الوقوف والوقوع، وتشرب فيه الفقراء كاسات الردى، لشدة ما يحصل لها من جور الجنود واعتداء الاعتداء، فما من فقير إلا ويحتاج إلى غنيّ يسعفه، وإلى عادل من ظلامته ينصفه، قال الشاعر:

قد أتينا إلى محل المصانع فاصنع الخير فيه إن كنت صانع
وانفع الناس في كثير جميل على تلقى خيرا كثيرا ونافع

واعلم أن عدة درج المسير، إلى هذه المنزلة ست ساعات على التحرير، ثم قام دليل الركب للمسير، وأمر الناس من تقطيع أزمة الجمال بالتقطير، فسرنا طول ليلنا إلى الأسفار، واسترحنا بالوصول إلى عجرود عن مشقة الأسفار، فوصلنا إلى بندر عجرود، وماؤه ملح أجاج غير مورود، فأتانا أهال بندر السويس، وعطفوا علينا انعطاف الأغصان في الميل والميس، وأهدوا إلينا الأخطاب للمشاعل، والأغنام للمآكل، وعدة درجة هذه المرحلة المبهجة، سبع وثمانون درجة، انتهى كلام الشيخ البكري.

فلنرجع إلى ذكر مراحلنا، وحيث انتهى سيرنا، فأقول لما قضى الناس من هذا البندر الأوطار، وعانقوا أعناق التسيار، وجدوا السبخة لكثرة ما توالى عليها من الأمطار، بركة واحدة من جميع أرجائها والأقطار، فنكبوها وعدلوا ذات اليسار، ونزلنا بعد ما توغلنا في الرمل مغيربان، في أفيح بسيط وأوسع مكان، ثم ارتحلنا من ذلك الموضع يوم السبت وبلغنا وادي الرمل قبل الظهر ووجدنا به غدرانا من الماء غدرها السيل، لما جر عليها الذيل، وللناس إليه أي ميل، وأدركنا الركب التونسي هنالك، وكان قد خرج من مصر قبلنا لما تأخرنا للتوارك، كما ذكرنا وسرنا حتى

خلفناه وراء ظهرنا، فأرحنا ركبنا، ونزلنا لصلاة الظهر، وإراحة الظهر، ولما بلغنا ركبنا وكنا في آخرياته وزالت الشمس، ولم يبق في زوالها لبس، إذنا لها، ثم أقمناها، فصليناها جماعة، وكان ذلك لأهلها أربح بضاعة، فتمطينا مطايا المسير، وشمرنا لقطع المراحل أبلغ تشمير، حتى أنخنا بغربي وادي السدرة والخروبة، والسرقة في تلك الليلة من كل ناحية من الركب أعجوبة، ولكن الله تعالى سلم وفده، فرد على السارق في نحره كيده، فأخذوا بغلة لسيدي أحمد بن أطاع الله وضايقوهم عليها ففروا عنها وأخذها صاحبها وسمي الوادي بشجرة كبيرة من الخروب ومن السدر في أصل الوادي ثم ارتحلنا من هناك يوم الأحد رابع ذي القعدة الخامس والعشرين من دجنبر الرابع عشر من الليالي وسرنا مع الوادي برهة ومررنا بالعقبة المشرفة على التيه وقت الضحى ونزلنا[1] بعد أنا جاوزناها في أوائل التيه في انتظار الركب وتناول الأغذية وهي عقبة فيها بعض صعوبة إلا أنها سويت حتى صارت طريقا بينا[2] ومنها ينزل إلى أرض التيه وهي أرض مقفرة موحشة طويلة عريضة معطشة قد امتدت فيها الطرق امتداد السطور في الطروس، لم يلحقها على قدم العهد الدروس، وهذا المحل من المحال التي تعظم فيها المشقة أيام الحر وقد تتلف فيه أنفس كثيرة بالعطش.

قال أبو سالم وقد وقع لنا مثل ذلك في سنة تسع وخمسين ارتحل الناس من عجرود ظهرا ولم يمروا على النابعة فبتنا ليلتين بلا ماء إلا ماء عجرود الذي لا يتجرعه الضمآن ولا يكاد يسيغه فلم نصل إلى أرض التيه حتى اشتد الحر وقل الماء في اليوم الثالث ومات بعض الإبل وجعل الناس يعصرون ما في بطون الإبل من الفرث ويشربونه وفي ذلك قلت:

---

(١) في نسختين وصلينا.

(٢) في الرحلة الناصرية لاحبا وفي العياشية مليحا.

ولم أنــس بالتيــه يومــا بــه تفـاني الحجيـج صـدي وولوهـا
وأن يــستغيثوا يغـاثوا بـمـاء م عجـرود كالمهـل يـشوي الوجوهـا

قلت وكذا يشتد أمره في زمان الشتاء لأن أرضه عراء لا حطب فيها وقد تتلف به النفوس من البرد وأما عامنا هذا فسلكناه في أطيب هواء ولا حر ولا قر ولا مخافة ولا سآمة ووجدنا به اصفرار غدران من الماء في أخاديد ما كفى الله به شر العطش وأوامه فتوسطنا التيه فنزلنا بعيد المغرب.

والتيه كما في خطط المقريزي أرض بالقرب من آيلة لا يكاد الراكب يصعد إليها لصعوبتها إلا أنها مهدت في زمان جاروية بن أحمد بن طولون وهو مقدار أربعين فرسخا في مثلها ويسير الراكب مرحلتين في فحص التيه حتى يصل بحر قاران وفيه غرق فرعون وفيه تاه بنو إسرائيل أربعين سنة لم يدخلوا مدينة ولا أووا إلى بيت ولا يدلوا ثوبا وفيه مات موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ويقال أن طول التيه نحو من ستة أيام واتفقوا أن المماليك البحرية لما خرجوا من القاهرة هاربين في سنة اثنتين وخمسين وستمائة وطائفة منه بالتيه فتاهوا فيه خمسة أيام ثم تراءى لهم في اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه فإذا مدينة عظيمة لها سور وأبواب كلها من رخام أخضر فدخلوها وطافوا بها فإذا هي قد غلب عليها الرمل حتى طمر أسواقها ودورها ووجدوا بها أواني وملابس وكانوا إذا تناولوا منها شيئا تناثر من طول البلى ووجدوا في صينية بعض البزازين تسعة دنانير ذهبا علها صورة غزال وكتابة عبرانية وحفروا موضعها .فإذا حجر على صهريج ماء فشربوا منه ماء ابرد من الثلج ثم خرجوا ومشوا ليلة فإذا طائفة من العربان حملوهم إلى مدينة الكرك فدفعوا الدنانير إلى بعض الصيارفة فإذا عليها أنها ضربت أيام موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام ودفع لهم في كل دينار مائة درهم وقيل لهم أن هذه المدينة الخضراء من مدن

بني إسرائيل ولها طرفان رمل يزيد تارة وينقص تارة أخرى لا يراها إلا تائه والله تعالى اعلم ثم ظعنا منه يوم الاثنين وغلسنا الرحلة وانفرد عن الركب مسائره بإزائه رجل من أهل توات مع ولده وعبده بعد ما حلموا على جملهم ولقوا جماعة من المتلصصة فأخذوا الجمل وما عليه وهو كل ما يملك وذلك مقدار ثمانمائة مثقال تبرا بعد ما شجوه فخر صريعا نسأل الله السلامة والعافية التامة فالله يخلف له من فضله الفياض أنه الكريم الوهاب وأتينا بندر النخيل قرب الزوال ووجدنا الركب التونسي نازلا واستقرت بهم الدار وحططنا الرحال وتسابق الناس لسقي الجمال والبغال وصادفنا فيه بقية من السوق به بعض الفواكه الشامية أتى بها أهل غزة مثل الزبيب الفاخر الحلو ونحو ذلك وذلك عادتهم أبدا يتعرضون للركب هنا ذهابا وإيابا بالكثير من أنواع الفاكهة الشامية.

وهنالك بندر حصين فيه بئر ماء عذبة كثيرة لا تنزح أبدا يسقى منها بالبقر إلى برك خارج الحصن وهي ثلاث بركات مثل ما بعجرود إلا أن هذه أكبر وقد وجدنا الماء فيه فاضلا عن الكرب المصري وأخذ الناس منه حاجتهم وهو من المواضع التي يصعب فيها الماء إذ ليس فيه إلا بئر واحدة فإذا شرب المصري ما في البرك وقعت الزحمة على البئر فلا يصل الناس إلى الري إلا بعد تعب شديد ومشقة فادحة واتفقت الأركاب المغربية على الذهاب وعدم البيات به فلما قضوا منه الغرض، ووفوا الحق المفترض، سرنا ونزلنا بعيد المغرب وقل في ركبنا الفلاحون فضبط أمر الركب بعض ضبط.

قال الإمام أبو سالم وقد كانوا في غالب السنين يكثرون عليهم في الركب المغربي فرارا من جور عساكر المصري فيكثر ضجيجهم وخصوماته فلا يكاد ينضبط للركب المغربي أمر من كثرتهم فيه فيرحلون في غير أبان الرحيل ويتبع الأخر الأول

من غير تأن لا سيما في محل الضيق والخوف ولا يبالون بما أتلفوا من أنفسهم وأموالهم خشية التأخر والمزاحمة على القرب من أول الركب لغلبة الجبن والخوف عليهم إذ لا يعرفون في بلادهم قتالا ولا مدافعة عن الأنفس والأموال لكونهم رعايا أن شتموا مروا، وأن ضربوا فروا، وكلما نقص الله من جهدهم وجرأتهم، وبطش أيديهم زيد في ألسنتهم، حيث لا يخافون فيبالغون في الشتم والسب حتى لا يكد سامعهم يملك نفسه فإذا رأوا من هم بضرب خضعوا وقالوا عافية يا مغربي عافية ويقولون المغاربة مجانين لا يعرفون إلا الضرب وكان الضرب عندهم أبعد بعيد يصدر من شخص عاقل ولعمري انه لكذلك في حق كل مسلم لمسلم ولكن الغريزة الغضبية لا سيما ممن لم تذلله الأحكام، ولم تكسر من سورته شدة الأيام، لا يملكها إلا الأقوياء وهي لا تنتهي دون أبلغ عقوبة تمكنها نسأل الله تعالى أن يكفينا شرها، ويسخر لنا أمرها، أنه سميع مجيب انتهى.

قال البكري في رحلته من عجرود إلى النخيل ثم سرنا إلى النواظير ورأس وادي المنصرف، وهو واد بكثرة الرمال والكثبان قد عرف، ليس به ماء و مرعى، وإنما عيون الناس بمضيق أرجائه ترعى، قال الشاعر:

نــزل الركــب بــوادي المنـصرف ... وعــلى لقيــاه كــم مــال صُرِفْ

نحمــد الله الــذي جئتنــا لــه ... وجميــع الهـم عنــا منـصرف

ثم سرنا إلى وادي القباب، وهو واد فسيح الرحاب، تهيم به قلوب الأحباب، ويتذكر به عهد زينب والرباب، لا سيما اجتماع الأصحاب، في مواطن البعد والاغتراب، قال الشاعر:

شــاقنا وادي القبــاب المرتــضى ... في اسـمه وهــو فــسيح في الربــى

فوصــلناه وقــد قلنــا عــسى ... بعــده تــأتي إلى وادي قبــا

وميقات المسير إليه عشر ساعات على التمام، وبعد إقامتنا به إلى وسط النهار تهيأنا للقيام، ثم نادى المنادي بالرحيل، فسرنا إلى وادي تيه بني إسرائيل، وهو واد واسع الفضا، يعتبر فيه بأحوال من مضى، ليس فيه ماء ترده الأنام، ولا ظل سوى ظل بني إسرائيل من الغمام، قال الشاعر:

لا تسلكنّ بوادي التيه منفردا ... بلا دليل ترى وقع الردى فيه
فما سمعت كلاما من أخي ثقة ... في الناس إلا وقال أحذر من التيه

ومدة المسير إليه عشر ساعات، حررها أهل الميقات، ثم سرنا إلى قلعة نخل الحصينة المحمية، وتعجبنا من كثرة الفواكه الشامية، من سفرجل ورمان، وعنب على اختلاف ألوان، والخيرات الكثيرة، وما يحتاج إليه من الذخيرة، والفساقي المملوءة بالماء البارد، المعدة للغادي والوارد، قال الشاعر:

إلى نخل الحصينة سر حيدا ... ترى فيه المنى والخير باقي
ولا تشكُ الظمأ لفقد ماء ... فساقيها مقيم بالفساقي

ومدة المسير إليه ست ساعات محررة، وخمس من الدرج مقدرة، انتهى كلامه رضي الله عنه.

رجوع وانعطاف إلى التعداد لمراحلنا والائتلاف ثم قوضنا الأخبية، وحلمنا الأمنية، من منزلنا الذي جاوزنا النخيل إليها في صر شديد، وبرد متزايد جديد، تخال الأيدي منه رميت بالشلل، والأرجل نظمت بالسلا والاسل، قال الشاعر:

رحلنا العيس تمشي في هواء ... له برد على الغادي يشق
فما في الركب إلا من تراه ... له حنك بسورته يدق

ولم يزل الهواء كذلك إذا مد منه منخر جاش منخر، وعم ببرده المفرط المتقدم

والمتأخر، وسرنا ولم يزل البرد ساحب أذياله، إلى أن حان وقت العصر فاشرف جرحه على اندماله، فصلينا صلاة العصر ببئر الصعاليك وتسمى ببئر البارود وهي بئر كبيرة طويلة مطوية بحجر وبناء متقن في أصل واد وبجانب البئر أثر بناء وبركتين إلا أنه لا عمارة عليه وماؤها باردا إلا أنه قبيح لا يكاد الشارب يسيغه فتقدمنا ونزلنا بعد المغرب ثم ارتحلنا منه بعد صبح يوم الأربعاء سابع ذي القعدة الثامن والعشرين من دجنبر سابع عشر الليالي في اشتداد القر، وتزايد الصر، ولما تعالى النهار تراءت للركب خيل وإبل للمحاربين(١) فأخذ الناس حذرهم، وكفى الله شرهم، ثم تبين بعد ذلك أنهم سلم للحاج لا حرب لهم وإنما أغاروا على بعض أعدائهم وأكلوا والتقوا مع الحاج وبتنا بسطح العقبة.

انعطاف ورجوع إلى ما عليه ركبنا وإنما نقلت كلام شيخنا سيدي أحمد بن ناصر وما رأى في هذه المراحل وما رآه فيها من العجائب والاعتبار حتى يعلم الإنسان أنه لا يسلك تلك الطريق أحد إلا بفضل الله وقوته والسلامة فيها من المعاطب من أكرم الكرامات لا سيما زمان الحر وزماننا هذا لزيادة ظلم الظالمين، وعتو المجرمين، ومكر الجمالين، وسرقة الحجاج وصولة تحيلهم إلا من أجاره الله برحمته وقد وصلنا بندر عجرود بعد صلاة العصر في يوم حر شديد وعجرود هذا كثر ماؤه غير أنه لا يمكن شربه من قوة قبحه وتغير مائه وبتنا هناك ونزل رحلنا في حرف الركب وبعد جواز ثلث الليل وإذا بالسراق أتوا إلينا أي إلى ناحيتنا فرفعوا جملا للحاج عبد الله الشباخي(٢) وقد كان جمال شيالنا وكذا عندي جملان أمرت عند النوم بزوالهما من ذلك الموضع إلى موضع آخر فأتوا إليهما فوجدوا المكان فارغا ووجدوا هذا الجمل هناك ولم يكسب صاحبه إلا هو فذهبوا به نعم بنفس رفعه استيقظ جيراننا وممن

---

(١) في الرحلة الناصرية الحراميين.

(٢) في نسخة الشياخي.

استيقظ ابن عمنا خالي عبد العزيز الشريف فذهب في آثارهم وكذا أنا تبعته وقد جاء بعض الناس في أثرنا وذهبنا في ظلمة الليل في ذلك الوادي حتى لا نسمع صوت الركب ولا عرفنا أثرهم فلم يرجع أحد منا حتى أيسنا من لحوقهم فرجعنا خائبين.

فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه وسلكنا طريق اليمين إلى النابعة لكثرة مائها وعذوبته وقلته في الطريق الميسرة ولما انفصلنا عن دارنا سبقنا أنا والفاضل أخونا في الله سيدي أحمد الطيب في غيم شديد ورياح شديدة حيث لا يمكن الركوب معها فلحقنا الفاضل الكامل الأخ الشقيق والودود الصديق سيدي محمد الشريف البلغيثي النوفلي والفقيه الأديب سيدي محمد بن عزوز وسيدي الحاج أحمد المسراتي الجميع على البغال والحالة أن الركب تأخر عنها كثيرا بحيث لا نرى له أثرا فنزلنا على البغال في موضع منخفض على الريح نرتقب الركب فصلى من صلى منا الضحى واطمأن بنا المجلس إلى أن لحق الركب ونحن كذلك حتى دخل السبخة فركبنا ولحقناه ثم سرنا كذلك إلى قرب الزوال فنزلنا النابعة في رمل عظيم بين آبارها المحفورة إلا أنها مملوءة بالرمل إلا البعض منها غير أن التي عذب ماؤها عذبا شديدا لم ينزل عليها الركب لأن ماءها يكاد أن يكون كالنيل.

وبالجملة فماؤها عذب وأن اختلفت عذوبته فاشتغل الجميع بالسقي إلى أن ملئوا أسقيتهم فسقوا واستقوا مع كثرة الهرج من الحجاج لقلة الحكم من الأمراء إذ لا يقدرون عليهم لكثرتهم وكثرة تعصبهم غير أن فضل الله عليهم لما لم يكن فيهم قتال وموت ذريع حسبنا الله منهم ونعم الوكيل.

وظعنا منه حين تنفس الصبح فانفصل ركبنا بخير وعافية فسار في تلك الرمال وهي كالجبال ترى كثيبا منه تقول لا يخرج منه أحد على خير فإذا دخلتها خرجت منه على أحسن حال ونحن كذلك إلى أن وصلنا إلى دار بعدها فنزلنا بعد العشاء ومنهم

من نزلها بعد المغرب ونحن والحمد لله في جماعة لا نسير إلا آخر الركب صونا للضعفاء ومن بقي رحله وقد بقي رحل ولد الشيخ الناصح والقطب الواضح سيدي محمد بن عبد الله بن أبي جلين المسيلي الغوث فرفعناه على بغالنا إلى أن لقينا صاحبه سيدي أحمد فرفعه وبعد ذلك والحمد لله سرنا ساعات فدخلنا التيه الذي تاه فيه بنو إسرائيل وقد سبق ما فيه من الكلام ما أوحشه من موضع وأصعبه من محل لكثرة حره وشدة أمره مع انعدام الماء فيه وقد كثر فيه الهلاك من العطش زمان الحر فلا تجد من يسخى بالماء إلا من قوي يقينه وغلب عليه الرقة والشفقة والرحمة والخوف من الله تعالى ترى القوم فيه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية من ثوران الحر في ذلك الموضع إلا أن رحمة الله واسعة ورأفته قوية ونعمته بالحجيج شاملة خصوصا أهل المعرفة بالله تعالى فلا تراهم فيه وفي غيره مما هو نظيره في الصعبة إلا كالعرائس تتلألأ وجوههم نورا وتنبسط آثار محبة الله في طلعة خدهم علما منهم أن غاية أمرهم غيبهم عن اليم ما هم فيه وهو بيت الله وحرمه وكذا حضرة الله وحضرة رسوله صلى الله عليه وسلم وحرمه أيضا فلما شهدوا مطلوبهم غيبهم ذلك عما لاقوه من العذاب وبعد تلك المرحلة وصلنا بندر النخيل فنزلنا عند الضحى الأعلى والله أعلم في فرح وسرور لما سلمنا من أرض التيه.

وقد مات لنا واحد من أصحابنا وهو رجل من العامة رجل صالح مديم للصوم كثير الصمت قليل الاضطراب فلا ترى عليه إلا آثار الخير دائما وهو الحاج محمد بن مدشر اسيامة من قرى بني ورثيلان وبندر النخيل بندر عظيم فيه عسكر كما في عجرود وفيه أسواق فكل ما تريده موجود لأنه يأتي من ناحية الشام أناس بذلك أي من بيت المقدس وقربها محل فيه أبسط الخيرات وأنواعه الملذوذات لا سيما الفواكه في زمانها فلا ترها في غير ذل المحل والشكر لله تعالى وهذا البندر رحمة للحجاج فوضعوا فيه أمتعتهم تخفيفا ورحمة بالإبل إلى أن يرجعوا وكذا اشترى من

خصه الإبل أو بدله فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه عند الضحى فلما انفصلنا تأخر بعض من أحبابنا وهو الحاج بلقاسم الحريبلي ثم اليعلاوي يشتري جملا من بعض العرب فتأخرنا مع فاشتراه فلما أقبض الدراهم لصاحبه هرب الجمل فتبعته على بغلتي حتى آيست من لحوقه وخفت اللصوص من الحرامين ورجع سيدي أحمد المسراتي على فرسه ولحقه ثم وقع الصياح في آخر الركب أن فلانا وأصحابه قد أخذه اللصوص فرجع البعض إلينا بأسلحتهم فلم نر إلا خيرا والحمد لله حتى لحقنا بالركب وصاروا يحمدون السلامة لنا لما علمت من كثرة عطب الطريق وكثرة محاربيه ولصوصه فلا ترى أحدا تأخر إلا أخذ وسلب أو هلك فالحمد لله علينا نتأخر نحن معاشر الإخوان عن الركب كثيرا واللصوص في آثارنا فلا نرى منهم ما يكره فلم يسلب أحد إلى أن وصلنا إلى مكة المشرفة ثم كذلك نسير والحمد لله حتى قربنا بئر الصعاليك فبتنا من الحجاج من سقى من البئر المذكورة وهي عميقة جدا وماؤها بارد فكاد أن يكون كالثلج إلا أنه قبيح لا يكاد يساغ من مرارته وفي آثاره بناء قديم ولما ظعنا سرنا بعد في أودية وشعب صعبة في يوم قوي ريحه واشتد أمره فلا تنفع فيه استراحة ولا نزول ونحن كذلك سائرون إلى قرب سطح العقبة فنزلنا وبتنا في خير وعافية ومات بعض من أهل وطننا فدفناه ليلا.

ولما صبح الله بخير الصباح ذهبنا إلى أن بلغنا سطح العقبة فانتظر الحجاج بعضهم بعضا يسيرون على قدم واحد فاستعدوا بأسلحتهم وافترقوا فرقا فمنهم من سبق ومنهم من تأخر ومنهم من توسط خوفا من متلصصي العرب لكونهم في الغالب لا يتركون الشر في ذلك الموضع فنحن معاشر ركبنا لم نر منهم أحدا والحمد لله غير أن كل من كان من أهل الركب إلا نزل ولو كان من أهل المخدرات فيسيرون على أرجلهن ولو نساء الملوك فرأينا نساء السلاطين ذاهبات على أرجلهن وأنا والحمد لله عيالي ما نزلوا أبدا نعم جعل الله البركة في الجمل الذي حمل اثنتين من

النساء في المهيا(١) وهو يسير كأنه ليس في ذلك المحل الصعب والمنة لله فتعجب كل من رأى ذلك وذلك كله من فضل الله تعالى علينا فلما انفصلنا وانحدرنا من العقبة إلى ساحل البحر اشتغل الناس بالغداء فلما فرغوا منه اخرجوا أسلحتهم وأمامهم من البارود واجتمعوا على قدم واحدة وقدموا أمامهم سلطان قزان بالبارود واللعب بالخيل وكذا الناس على الأرجل إرهابا لعرب العقبة إذ العام الذي قبل عامنا أخذوا ركب المغربي لقلته وقلة سلاحه وبينما نحن كذلك وإذا عسكر من الركب المصري خرج ولقينا برعود من البارود والخيل تعلب والناس كذلك إلى أن وصلنا إلى البندر فتعجب كل من كان في ذلك من أهل ذلك الوطن من العرب ومن تسوق من غيره حتى بلغ ذلك أقصى عرب الحجاز فلا تجد سارقا يدور بنا ولا قاطع طريق ليلا ونهارا خوفا من الركب المغربي لكثرته وكثرة سلاحه لا سيما الركب الجزائري نعم الركب المصري يخاف منا ومع ذلك هو في قوة عظيمة أمد مروره ثماني ساعات كما رسمه من اعتنى بذلك بالدرج فكل عام أمير الحاج من مصر يربط من الركب المغربي ويفعل فيه ما شاء إن شاء قدمه وإن شاء أخره وإن شاء زاد في الكراء زاد وغير ذلك من ظلم الغزّ(٢) أما عامنا وركبنا هذا فليس عليه حكم ولا له عبرة على أن ركبنا تعصبوا وقالوا إن أبى إلا أن يحكم علينا منعناه وضربناه وقتناه فلما رأوا منهم ذلك فروا عن الحكم عليه فلا نقول إلا سلم سلم كما سمعت منه ذلك ومع ذلك أنه رجل حليم لا يرضى بالفساد ولا الظلم الكثير والحمد لله على ذلك.

قال شيخ شيوخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه ثم ظعنا بكرة يوم الخميس ثامن ذي القعدة التاسع والعشرين من دجنبر وثامن عشر الليالي وما تعالى النهار، وتفتحت للشمس عيون الأزهار، حتى رأينا عقبة ايلة وخبرها قد روع القلوب،

---

(١) في نسخة المهيع.
(٢) كذا في جميع النسخ.

ونوع المهابة لأمرها فما من الركب إلا من هو من لباس الصبر مسلوب، فحصل هناك من الزحمة، ما تقطعت به القلوب رحمة، وتصادمت المحاف وتكسرت، وبرزت أنياب النوق وتكشرت، فما كان بأسرع من خمود أمرها، وركود حرها وجرها، وهي عقبة كؤد، صعبة الهبوط والصعود، إلا أن الطريق بها منحوتة، قد سويت في أكثر الأماكن الصعبة، وبنيت حافاتها ببناء متقن.

ولما كان المحل معروفا بلصوص الأعراب وحرابتهم، تهيأ الناس وأخذوا حذرهم وأبرزوا أسلحتهم، وعبوا تعبيتهم، خوفا من أعدائهم فإن الغالب لا بد أن يتعرضوا للركب في هذا الموضع لصعوبته وتقدمت طائفة من الحجاج بمدافعهم أمام الركب وتأخرت طائفة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا فلم نر بها سارقا ولا غائرا، ولا عاتيا ولا غادرا، فانفرجت هذه الشدة، وكفى الله منها مدة المدة، فما زهقت روح، ولا أثيرت جروح، وخلص الناس من تلك الضغطة، وخرجوا من ضيق القبض وجلسوا على بسطة البسطة، ونزل الناس منها سالمين، وقيل الحمد لله رب العالمين، قال الشاعر:

كـــم قـــد فككنـــا رقبـــة لا اقتحمنـــا العقبـــة
وكـــم لنـــا مـــن أمنيـــة في حجنـــا مرتقبـــة

وبعد أن نزلنا من المنحدر الصعب جعلت الطريق تلتوي في شعاب كأنها أزقة يكثر فيها المخاوف والمتآلف فيرى البحر من بعيد فيظن أنه قريب ووصلنا البندر ظهرا ولم يبلغ الحاج إلى قرب العصر ووجدنا المصري به مخيا وأرسل إلينا أمير الحاج إمامه، وأبلغنا سلامه، واسمه إبراهيم أبو شنب وأقمنا بها الخميس والجمعة وفيها حصن حصين في قرية على شاطئ البحر في سفح الجبل وبها آبار كثيرة وفيها نخيل وسوق كبير يحضره أهل غزة وتأتيه العرب بالإبل والغنم والسمن والعسل والعلف

للدواب ووجدنا الفول فيها رخيصا أرخص مما اكترى عليه من مصر وبتنا بها وبات المصري هناك وأوقد بالليل نيرانا كثيرة وضرب المدافع ورمى المحارق في الهواء ولها منظر عجيب، وأسلوب غريب، كأنها شهب النجوم يرمى بها من الأرض إلى السماء فتراها في الجو طالعة حتى ترى من أعالي هام شوامخ الجبال دونها ثم تنعطف راجعة كأنها ثعبان أحمر ثم يسمع لها صوت وتخرج منها شرارات من النار فإذا انقطعت تلك أتبعها بأخرى وخروجهن فيما نرى من نار زرقاء كأنها نار الكبريت تشتعل اشتعالاً قويا فتطلع منها تلك الشهب ولا نعلم صنعة ذلك وهي من الغرائب والرمي بها وبالمدافع عادة المصري في كل منزل أقام فيه إذا أراد الرحيل قاله الإمام أبو سالم.

ثم ارتحل في الغد وأقمنا بعده ولم نر في مبيتنا ولا إقامتنا ما يسوءنا من سارق ولا غيره.

قال شيخنا أبو سالم وقد سألنا هناك وبحثنا عن القرية التي كانت حاضرة البحر هل بقي من رسومها شيء فقد ذكر المفسرون أنها ايلة فلم نجد من يشفي لنا خبرها.

وقد ذكر لنا بعض الناس أن بأعلى الوادي أثر بناء كثير يشبه أن يكون مدينة ولعلها هي وقد أخبرنا كثير من متسوقة الأعراب الذين هناك أن وراء الجبل الكبير المشرف على القرية بلدة فيها نخل وماء إلا أنها خالية ويمكن أن تكون هي فإنها قريبة من البحر والعلم عند الله تبارك وتعالى.

قلت وفي الخطط للمقريزي أن ايلة مدينة في شاطئ البحر المالح سميت بأيلة ابنة مدين بن إبراهيم عليه السلام وقد كانت مدينة جليلة القدر بها التجارة الكبيرة

وأهلها أخلاط من الناس وكانت حد مملكة الروم في الزمان الفائت وعلى ميل منها باب معقود لقيصر قد كان مسلحته يأخذون المكس وبين ايلة وبين القدس ست مراحل والطور الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه الصلاة والسلام على يوم وليلة من ايلة وكانت في الإسلام منزل بني أمية وأكثرهم موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه كانوا سقاة الحجاج وكان بها علم كثير وأدب ومتاجر وأسواق عامرة وكانت كثيرة النخل والزرع.

قال وكانت بايلة مساجد عديدة وبها كثير من اليهود يزعمون أن عندهم بردا للنبي صلى الله عليه وسلم وانه بعثه إليهم أمانا وكانوا يخرجونه رداء عدنيا ملفوفا في الثياب قد أبرزوا منه قدر شبر فقط.

ويقال أن ايلة هي القرية التي ذكرها الله في كتابه العزيز حيث قال: ﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ واختلف في تمييزها فقال ابن عباس وعكرمة والسدي رضي الله عنهم هي ايلة وعن ابن عباس أيضا أنها مدينة بين ايلة والطور وعن الزهري أنها طبرية وقال قتادة وزيد ابن أسلم هي ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينوني.

وسئل الحسن بن الفضيل هل تجد في كتاب الله الحلال لا يأتيك إلا قوتا والحرام يأتيك جزافا قال نعم في قصة ايلة إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم انتهى المراد منه مع بعض حذف ولما التقينا بالمصري بالعقبة أخبرونا عن حالهم مع البرد وانه قتل منهم واحدا أو أثنين ليلة العقبة وقرب عجرود ما ينيف على خمسين نفسا وذكروا أن الإنسان يكون في حل الخشب فيوجد ميتا بالبرد وعلى الدابة كذلك.

وحدثنا بعض حجاج القدس التقوا مع المصري في سطح العقبة أنه لاقوا من البرد والثلج والمطر ما يقضى منه العجب مكثوا يومين وليلتين ما أوقدوا نارا ولا قدروا عليها ولا أكلوا من كثرة المطر وأخبرني واحد منهم أنه عليه عدة لباس من الأقبية والقمص وجوخة فوق ذلك وبات من أول الليل إلى آخره واقفا ورجلاه داخلتان في الطين إلى ركبتيه والمطر يصب عليه حتى أفضى إلى لحمه وعاينوا من ذلك الموت الأحمر ونحن والحمد لله سلمنا الله من ذلك كله.

تتمة في ذكر كلام البكري من النخيل إلى العقبة قال ثم سرنا من النخيل إلى وادي القريض المشهور، وهو واد ينبت به الشوك عوضا عن الزهور، فكم آذى بشوكه أقدام، وعطل من له على المشي إقدام، ولا سيما الفيحاء لاتساع أرضه، وزيادة فضائه في طوله وعرضه، قال الشاعر:

في وادي القريض[1] كم سائر ... من غير نعل ثابت الكعب
قد صار كالأعجام من شوكه ... يرقص من رقص على الكعب

وسيرنا اثنتا عشرة ساعة كاملة، محررة من الميقات متواصلة، ثم سار الركب إلى بئر العلاء في التجريد، وهي محطة بئرها معطلة وليس بها قصر مشيد، ويقربها حذرة منحدرة[2]، وأشجار أثل منتشرة، ويجانبها فسقيتان ليس بهما منفعة، فما ورد عليها حيوان ظمآن إلا وقام عند رؤيتها بالأربعة، قال الشاعر:

إلى بئر العلاء قد أتينا ... وفزنا بالنجاح وبالهناء[3]
شكرنا للدليل وقد دعانا ... إلى شيء يوصل للعلاء

---

(١) في الرحلة العياشية في وادي فيحاء.

(٢) في الرحلة العياشية حذرة وفي الرحلة الناصرية جدرة منحذرة.

(٣) في غير الرحلة العياشية وبالثناء.

ومدة المسير إليه اثنتا عشرة ساعة بالتحرير، وبعدها الجد إلى سطح العقبة في المسير، وهو سطح واسع الأكناف، متسع الجوانب والأطراف، لا يوصل إليه إلا بالاستطاعة، لأن مدة المسير إليه اثنتا عشرة ساعة، ثم سرنا إلى العقبة، وما أدراك ما العقبة، فكم بها من حدرة ومضيق، وجبال في شكل الحمرة والبياض وهي عقلة في الطريق، وصعود وانهباط، وعلو وانحطاط، قال الشاعر:

عقبات يسلك الناس بها ... بقلوب لم تزل مرتعبه[1]
قد قطعناها بوقت هين ... لم نرى فيها أمورا متعبه
نحمد الله الذي خلصنا ... فاسترحنا من عقاب العقبه[2]

فقطعنا تلك الحدرة الكبرى، ثم سرنا إلى واد بشاطئ البحر وأحطت به خبرا، وبجانب البحر مغائر ماؤها عذب فرات، وآبار تسقي منها الناس بسائر الجهات، ورأينا نخلا زاهية، وقلعة حصينة عالية، فأقمنا بتلك المنزلة ثلاثة أيام، ونحن في زيادة إنعام، وذبح أنعام، وقد وردت الفواكه من غزة وأعمالها، فنصبت للبيع وانخفضت[3] الأسعار ورفعت البواقي على أحمالها، وبقلعتها يوضع البضائع ودائع إلى الإياب، ومدة المسير تسع ساعات في الحساب، انتهى كلام البكري.

وزرنا قبر الشيخ إبراهيم اللقاني في مقبرة هنالك محوط عليه بالأحجار على يسار الذاهب إلى منزل الركب وأوقفنا عليه مغربي ساكن في بندر العقبة نيفا وعشرين سنة ثم ارتحلنا من العقبة صبيحة السبت فسرنا في مسلك ضيق بين البحر والجبل لا يمر به إلا جمل أثر جمل كأنه مثل الصراط إلا أنه غير مستقيم وقلما يخلو

---

(١) في غير الرحلة العياشية متعبة وفي ثلاث نسخ متعبة مكررة وفي نسخة منتعبة.
(٢) في الرحلة العياشية ولرحنا وفي جميع النسخ اراحنا من عقبات.
(٣) في الرحلة العياشية وانحبطت.

هذا المحل من لصوص يتعرضون للركب فتشتد أذايتهم وتعظم نكايتهم لا سيما عند البرج قرب بندر العقبة ولكن ذلك في الرجوع أكثر ولم نر فيه والحمد لله بأسا ولا بؤسا ووصلنا ظهر الحمار بعد الظهر ووجدنا أخريات المصري ووقفنا حتى غاب عنا وسار وصلينا العصر وهو بسيط من الأرض أحرش مرتفع يطلع إليه من مسلكين لا يخلوان من صعوبة وتحته على ساحل البحر إحساء كثيرة في وسط حدائق النخل وقلما يخلو من عمارة بعض ضعفة الأعراب لا سيما في وقت جذاذ النخل ويكون فيها في ذلك الوقت رطب جيد وماء هذا المحل كله عذب طيب قال شيخنا أبو سالم في رحلته ويسمى ذلك المحل في زماننا هذا حفائر النخل وخلفنا البحر يمينا فسرنا ونزلنا بعيد المغرب في فسحة من الأرض بين جبلين ثم ارتحلنا منه يوم الأحد الأول من يناير حادي عشر ذي القعدة وبلغنا عش الغرب قبل الظهر وجاورنا دار المصري بشرفات بني عطية بموضع يقال له أم العظام وهناك أرجام كالشعاب عن يمين الذاهب.

ذكر العبدري في رحلته أن ذلك قبر الشفاف والشفاف رجل كان يقطع الطريق على الحاج هناك في غابر الزمان وقصته مشهورة في رحلة العبدري ومن وراء الجبل الذي على يسار الذاهب بلد واسع فيه ماء جار وأرض مخصبة وربما عطش الركب في ذلك المحل فيأتي العرب بماء يبيعونه ونزلنا قبيل مغيب الشفق وبنو عطية هم عرب هذا البلد.

قال الإمام أبو سالم ويقال لهذا المكان يعني الشرفات عش الغراب.

غريبة تزعم العرب أن الإبل تنفر في هذا المكان ويقولون أنها تسمع صوت

سقب[1] ناقة صالح وانه في ذلك الجبل وأن هنالك الصخرة التي دخل فيها لما عقرت أمه فالإبل إذا وصلت إلى ذلك المكان تسمع صوت العشار فتنفر ولا أدري من أين لهم ذلك وهو بعيد إذ ليست هذه ديار ثمود الذين عقروا الناقة وهم قوم صالح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ثم منه يوم الاثنين وصلينا العصر[2] بالمكان المسمى بمغائر سيدنا شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام في حش ملتف ملنا إليه لأجل الحريم الذي معنا وهي احساء كثيرة في مضيق بين جبلين فيها نخيل وماؤها طيب حلو خفيف نافع وعادة أعراب مدين أن تسوق الأركاب هنالك بأحمال كثيرة من أنواع العنب وغيرها من الفواكه وتنخفض أسعار ذلك كله وبينها وبين مدين مسيرة نصف يوم وهي بلدة بساحل البحر كثيرة الفواكه والمياه الغزيرة وسكانها أعراب أهل بادية وكانت قبل ذلك مدينة ويذكر أن أثر البناء باق فيها إلى الآن.

قال شيخنا العياشي وعلى يسار منزل الركب خارج المضيق مغارة يقال أن فيها كان شعيب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام يأوي بغنمه وبإزائها بئر كبيرة معطلة وبجانبها بركة ويقال إن هنالك كانت البئر التي سقى منها موسى عليه السلام غنم شعيب عليه السلام وفي ذلك الوادي دوم طويل كأنه نخل صنوان وغير صنوان وعريش كثير في الوادي وهو محل مخافة فلما يخلو من لصوص الأعراب.

قلت ولمدين أخبار وآثار ذكر المقريزي منها نبذة ولما صلينا العصر بالمغارة كما تقدم تجاوزنا ونزلنا بين العشاءين في بسيط أفيح ثم ارتحلنا منه يوم الثلاثاء ونزلنا عيون الأقصاب بعد العصر وهو ماء جار في مضيق بين جبلين في محل كثير القصب

---

(١) في الرحلة العياشي صخب ولعله صقب وهو السقب وزنا ومعنى.

(٢) في غير الرحلة الناصرية يوم الاثنين وصلنا المصري.

والديس وفي أعلى الوادي نخل وأرض صالحة للحرث فلما يخلو ذلك المحل من أعراب نزول به فيكثر الخوف ويعظم ضررهم لا سيما مع نزول الليل فيأخذ الناس حذرهم فيطلعون الرماة إلى أعلى الوادي مراقبين حتى يأخذ الناس حاجتهم من الماء ويكتفوا فيأتي الرماة لمنازلهم على شفير الوادي عند منزل الركب مسجد بني بالحجارة المنحوتة ومنبر بإزائه.

ثم ارتحلنا منه يوم الأربعاء إلى أن قال إلى بندر المويلح وبنينا الأخبية بحيث تقرب الأمواج من الأستار وماء هذا البندر كثير حلو فيه آبار كثيرة وبساتين حسنة ونخل وهناك حصن كبير وفيه عسكر وأمير وتخزن فيه الميرة والفول كثيرا وعلى بابه سوق كبير يوجد فيه غالب المحتاج وبه موسى حسنة تنزل بها السفن القادمة من السويس والقادمة من جدة ومن القصير.

تتميم قال البكري رضي الله عنه في ذكر المراحل من العقبة إلى المويلح ثم سرنا إلى مرحلة يقال لها ظهر الحمار، وهي محطة عالية كثيرة الأوعار، يصعد إليها من عقبتين، واليمنى أوسع من اليسرى في المسلكين، قال الشاعر:

صعدوا على ظهر الحمار لعلهم ... أن يبلغوا بصعودهم كل الأمل

تعب الحمار من الطريق وطولها ... ومديدها واجتث من بعد الرمل

حتى الجمال به شكت ياهل ترى ... يقبل[1] به عذر الحمار أم الجمل

ومدة المسير إليه ثمانية من الساعات، محررة عند أهل الميقات، ثم سرنا إلى بين الجرفين، وهو مكان كأن الجبال قد قسمت به شطرين، يحترز منه أن يقذف بالحجاج، في أيام السيل إلى البحر المالح الأجاج، قال الشاعر ملغزا فيه:

---

(١) في الرحلة العياشية به تلت ياهل ترى تقبل.

وخمسة أحرف في اللفظ تقرا فإن صحفتها صحت بحر فين
وإن أسقطت خامسة فتبقى ثلاثة أحرف من أصل ألفين

ومنها إلى الشرفة، وهي بطول السير متصفة، تتعب فيها الجمال، ولو رحلت بلا أحمال، لما فيها من الوهاد، والطلوعات الشداد، وخلفت جبالها قبيلة بني عطية، المعروفين بالسرقة والأذية، قال الشاعر:

إذا ما جئت للشرفة ترى العربان مختلفة
وأما العيس فاجعلها بحسن الحفظ متصفه
فإن منعت بحارسها وإلا فهي منصرفه

ومدة المسير إليها خمس عشرة ساعة من غير ريب، وبعدها المغار المعروف بمغار شعيب، وهو غار يتبرك به الناس، وترى فيه الحظ والإيناس، وبه الماء العذب والنخيل، وشجر المقل والإثل والظل الظليل، قال الشاعر:

قد وصلنا إلى مغار شعيب فرأينا المياه كالأنهار
فاستقينا من مائه واشتفينا وظفرنا بغاية الأوطار
وذكرنا بغاره غار ثور من حوى للصديق والمختار
خير من أنزل الإله عليه ثاني اثنين إذ هما في الغار

ومدة المسير إليه ثمان عشرة ساعة، محررة عند أهل الصناعة، ثم منها إلى عيون القصب، إذا نظر إليها العاجز أذهبت عنه الوصب، لأن خضرتها نضرة، والأشجار بها منتظمة ومنتشرة، قال الشاعر:

قد وصلنا لعيون القصب واستراح القلب بعد النصب

وعيون الماء فيها قد جرت ... كسيول الغيث بين القصب[١]
فجلسنا بصفاء حولها ... وظفرنا عندها بالأرب
وتشوقنا لشاد مطرب ... يتغنى بعيون القصب

ورأينا مجاورا لتلك العيون، نسوة من العرب يوصفن بحسن العيون، ويتعاجبن بظفائر الشعور، فيمنعن من عقل الحب الشعور، كأنهن الأقمار، وكأنما نبتت في وجناتهن الأزهار، فكأن قطع المفاوز والأوعار، كالمتنزهات في الرياض والأزهار، قال الشاعر في بدوية اسمها ساكتة:

بروحي أفدي ظبية بدوية ... لها وجنة فيها الأزاهر نابته
إذا رمت منها أن تكلمني غدت ... تكلمني ألحاظها وهي ساكته

ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة وثلاثة من الدرج، يتعب في سيرها من ركب ومن درج، ثم ارتحلنا منها إلى بندر المويلح المشهور، ورأينا بساحله المراكب من السويس والطور، فيا له من بندر فاق البنادر، يأتي إليه الوارد والصادر، وبه جملة من الكروم، التي تذهب برؤيتها الهموم، وبمخازن القلعة تودع الودائع، وإلى سوقها تساق نفائس البضائع، من ثمار تجليها العرب، وزلابية عجينها كاللجين فإذا قليت أشبهت الذهب، وبهذا البندر رجل من أرباب الأحوال، حاز رتبتي الجلال والجمال، صاحٍ مجذوب، تميل إليه محبة القلوب، وله أسرار ظاهرة، ومكاشفات باهرة، يعتقده الناس، ويحصل لهم بهم الإيناس، لا يعرف الدرهم ولا الدينار، ولا يقبل إلا القوت عند الاضطرار، لباسه جبة من صوف، ورأسه في غالب الأوقات مكشوف، إن نطق تكلم على الخواطر، وإن صمت نطقت عليه ألسنة الناس بالثناء العاطر، ويكسوه المارة العدد، فيقبلها ويعطيها لمن وجد، لأن من رآها عليه، يطلبها فيدفعها إليه،

---

(١) في نسخة الغصب وفي أخرى الغضب.

وهذا شأن الكرام، الذين قطعوا علائق الدنيا على الدوام، فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيام، وبعدها طوينا المضارب والخيام، ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة، وخمس من الدرج في علم الصناعة، انتهى كلام البكري إلى أن قال.

ونزلنا بالموضع المسمى بدار أم السلطان قبل الغروب وبه آبار عذبة المياه، تستلذه الأفواه، على انه سخن ولكنه سريع الانفعال للهواء وهي محدثة وأحلى ما في الدرب من الماء ومثلها ماء النبط أخبرني بعض كبراء أعراب هذه النواحي أن الأمير إبراهيم الفقاري هو الذي تسبب فيها وانه طلع للحج وبعث إلى أخيه بمصر وقال له أن الماء الطيب بهذا المنزل إن مت فاحفره وأكد عليه في ذلك ومات بمكة لما حج وحفر أخوه آبارا ولها نحو من عشرين سنة والمحل قبل لا ماء به انتهى كلامه إلى أن قال.

ومررنا بالمضيق الموسوم بشق العجوز وسايرنا البحر المالح عن يسارنا جبال سلمى وكفافة ومررنا ضحى بقبر سيدي مرزوق الكفافي على ساحل البحر عليه أعواد قد علم بها عليه والناس يتبركون به وطلعت الشمس فارتفعت حارة ونزلنا ببندر الأزلم قبيل الاصفرار ووجدنا به شرذمة من الأعراب يبيعون الحشيش والغنم وبه ثلاث آبار كبيرة محكمة والبناء وماؤها غزير إلا أنه زعاق يصلح للإبل ولضرورية الناس من غسل ونحوه ولا يسيغه إلا المضطرون قال الشيخ أبو سالم وعلى يسار البندر بعيدا عن الآبار حسى أي ماء حي محفور في الأرض ليس بمطوي ماؤه أحسن من ماء الآبار إلا أنه قليل ولا يعرفه الكثير من الناس وهذا البندر قليل الجدوى لقبح مائه وقربه من المويلح ومن الوجه هما أتم منه منفعة فليس فيه كبير فائدة وقد انهد ما في داخله من البيوت وتثلم بعض سوره والخلاء أقرب إليه من العمارة شعر:

إذا لم يكـن فـيكن ظـل ولا جنـى فابعـدكن الله مـن شـجرات

انتهى ثم ارتحلنا منه إلى أسطبل[1] عنتر وفيه ثلاث آبار قليلة الماء وهو حلو طيب للشراب وأما الإبل فلا تكاد تطمع فيه.

ثم مررنا بوادي الأراك وهو واد واسع يأتي من ناحية الشمال والبحر عن يمينه قريب منه وفيه كثير من شجر الأراك الأخضر الناعم ثم يسير الماشي في مضائق بين قدافد من جبال ذات حدور وصعود إلى أن يصل إلى بندر الوجه وفيه حصن حصين في حرف واد كبير يخرج بين جبلين والناس يتهيئون النزول في أصل الوادي إذا كان الوقت وقت السيول فيرتفعون عن جنبي الوادي وفي الوادي عدة آبار بعضها أحسن من بعض والتي فوق البندر أحسن من التي تحته وداخل البندر بئر تسنى بالبقر وتصب في ثلاث برك لصق حائطه أحداهما من بناء الأمير رضوان في آخر أيامه واثنتان من بناء مملوكه الأمير غيطاس عام تولى إمارة الحاج بعد مولاه والبرك الثلاثة ملاصقة لسور البندر.

قال أبو سالم وفي أعلى الوادي بين الجبلين ماء يسمى الزعفران وماؤه طيب إلا أنه قليل فإذا كثر الزحام على الآبار طلع إليه أهل الجرأة من الناس وربما هجمت عليهم العرب هناك فيقع بينهم قتال إلا أن الموضع قريب من البندر فيغاثون واستقى الناس ما احتاجوا إليه وأوردوا إبلهم بالغوا في حل الماء [وتعاهدوا أسقيتهم وأوثقوا أوكيتها ولم يألوا ما ملئوا من الأوعية وباتوا ليلتهم في الآبار إذ نزحت وكابد الناس لذلك مشقة فادحة][2] لأنهم استقبلوا المياه القبيحة والمسافة العويصة التي ليس في الدرب أصعب منها لتوالي المياه القبيحة فيها وبعد العمارة

---

(١) كذا في بعض النسخ وهي لغة في الاصطبل بالصاد.

(٢) ما بين القوسين ساقط في الرحلة العياشية.

ووخم هوائها وسوء أخلاق أعرابها[١].

قال أبو سالم وهذا البندر آكد البنادر إلى الخزن لأن الركب في الإياب قد يسبق الملاقي من مصر إلى هذا المحل فيغلى فيه الفول والطعام غاية حتى تعجز عنه الأثمان في بعض الأوقات وفي حجتنا عام تسعة تجاوزناه لقلة مائه ونزلنا قرب العشاء بعد مجاوزته بأميال إذ لم نجد به شيئا من المنال.

قال الشيخ البكري في ذكر المراحل من المويلح إلى الوجه ما نصه ثم سرنا من المويلح إلى دار أم سلطان، التي هي لعرب البادية أوطان، ونزلنا بوادي سلمى وكفافة، وحصل مزيد الأمن بعد المخافة، وخلف جبلها الغربي البحر الأصيل، وبجانبه القسطل البري وهو كثير طويل كالنخيل[٢]، وحفائر مائها عذب بارد، يشرب منها الغادي والوارد، قال الشاعر:

إن وادي سلمى بهي بهيج ... حيث فيه قبر الولي المسمى
صاحب السر والمعارف مرزوق م ... الكفافي طاب روحا وجسما
فإذا جئت قبره قم فنادي[٣] ... وتوسل بجاهه ثم سل ما

فأقمنا بتلك المرحلة الإقامة المعتادة، وحصل لنا ببركة الشيخ مرزوق في الرزق الزيادة، ومدة المسير كاف تمام، وعددها معروف من غير اتهام، ثم سرنا إلى بندر الأزلم، ولا يرغب فيه من بحقيقته يعلم، فماؤه ملح أجاج، ما شربه إنسان إلا أحتاج إلى العلاج، فأقمنا به من غير إقبال، ورحلنا منه بعد الزوال، ومدة المسير إليها ست

---

(١) في الرحلة العياشية وبعد العمارة وشدة الحر (الحرب) لقربها من بلاد الحجاز بل غالبها منه وسوء أخلاق عربها.
(٢) في الرحلتين العياشية والناصرية القسطل البري منتظم كالنخيل.
(٣) كذا في جميع النسخ وفي الرحلتين قبره فتأدب وهذه الرواية أصوب.

عشرة ساعة محررة، وخمس من الدرج مقدرة، ثم سرنا إلى مرحلة تسمى أسطبل عنتر، وقد اختفى بها العربان للأذى وتستر، والمسير إليها بين جبال صاعدة، وحدورات وأوعار متقاربة ومتباعدة، وبها آبار عذبة، يود كل ظمآن شربة، قال الشاعر:

إن جئتـــا للأســطبل لا ... تغفــل بــه عنــد النــزول
وأحــذر مــن العــرب الــذي ... بجبالــه أبــدا تــصول
واعلــم فــديتك انــه ... صــعب ولكنــي أقــول
قــد ســمي الإســطبل مــن ... عــرب بــه شــبه الخيــول

ومدة المسير ثلاث عشرة ساعة[1] في العدد، صحيحة الضبط والسند، ثم سرنا منه إلى وادي الأراك، وهو واد ليس لانفراد محاسنه اشتراك، وبعده دخلنا بين جبال وأوعار، ومضيق وأحجار، وحدرات طوال، وصعودات وتلال، حتى نزلنا ببندر الوجه المبارك، وصار حصنه متقاربا متدارك، فرأينا به الآبار الخالية، وحفائر الماء العذب غير خالية، فأقمنا به إلى قبيل العصر، وقد زال من الناس الحصر، قال الشاعر:

قــد دخلنـا بنـدر الوجـه الـذي ... فيــه قــوت كــل عــام يختــزن
وشربنــا مــن ميــاه عذبــة[2] ... شربهـا يجلـو عـن القلـب الحـزن
نحــمد الله الــذي أســعفنا ... ورأينـا ذلـك الوجـه الحـسن

ومدة المسير إليه سبع عشرة ساعة وثلثا ساعة بالإجماع، حررها أهل العلم والاطلاع، انتهى كلامه رضي الله عنه.

---

(١) في ثلاث نسخ عشر ساعات وفي أخرى بإسقاط عشر.
(٢) في الرحلة العياشية عذبت.

ثم منه إلى الأكره وهو واد كبير تأتيه السيول من بلاد بعيدة ويذكر أن سيل المدينة المشرفة على من تشرفت به أفضل الصلاة والسلام وأزكى التحية والإكرام يصل إليه وماؤه قبيح جدا إلا أن يكون عقب سيل فيحسن وبه احساء كثيرة وأشجار ملتفة ووجدنا جل ماء آباره جيدا لقرب العهد بالسيل وسقى الناس منه وأخذوا من مائه ما ليس لهم عنه بد وسقوا إبلهم وتجاوزه قبل الظهر وباتوا غربي بئر الدركين ثم ارتحلنا منه وبلغنا بئر الدركين مع طلوع الشمس وهو منزل الحاج المصري وسمي بذلك لأنه بين درك أعراب مصر وأعراب الحجاز فإن ما بعده من عمل الحجاز وفي درك أعرابه إلى أن قال.

ولما بلغنا العقبة السوداء وهي عقبة صغيرة في حرة سوداء ذات أزهار وأشجار ويقال إنها أول أرض الحجاز ولا يبعد ذلك فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها وتباين الجبال ما سواها ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود ويتقوى الحر إلى أن قال.

وهذه المرحلة والتي قبلها يشتد فيها الحر وهي أرض سهلة مطمئنة ليس فيها جبال إلا ما يتراءى عن شمال المار بها والبحر يتراءى عن يمينه وفيها غياض من شجر الطلح وهي من أنواع الكلأ الذي ترعاه الإبل كثيرا إلا أنها تترك للرعي فإن المحل مخوف تغير فيه أعراب بلي وجهينة وغيرهما إلى أن قال.

نزلنا الحوراء بعد المغرب وتفرق الناس في مياهها وهي على حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير وفيه ملوحة كثيرة[١] والقريب العهد بالحفر أجود من غيره وكلما طال في القرب خبث والإكثار منه يورث إسهالا مفرطا كماء الاكره والأزلم وعجرود والحاج منها راق على تلال واديها وأكامها وروابيها لكون المحل محل

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلتين العياشية والناصرية قليلة.

الغارات إلى أن قال ومن أمثال الحاج لا رجال إلا رجال الحوراء ولا جمال إلا جمال الدورة ويعنون بالدورة الرجعة يعني لا يعد صابرا من الجمال[1] إلا من صبر في حالة الرجوع من الحجاز إذ هو آخر السفر ومحل قلة العلف ومنه ذاهبين مع واديها الكثير الأشجار من أراك وغيره ثم يعدل الحاج يمينا إلى الوادي المسمى على السنة الحجاج بوادي العقيق.

قال شيخنا أبو سالم ولا مناسبة بين الاسم والمسمى بل تسميته بوادي العقوق انسب لشدة جرأة أعرابه على السرقة فإنهم من أجرأ الناس على ذل ثم منه إلى النبط وبه آبار محكمة البناء بالحجر المنحوت وماؤها عذب حلو غزير في الغالب.

قال أبو سالم وغزارة ماء أودية الدرب إنما يكون بحسب كثرة المطر وقلته فإذا حل الوادي ولو مرة في السنة غزر ماؤه سائر السنة ومنهم إلى الخضيرة مرحلة لا ماء فيها ولا في الخضيرة إلى الينبع حاصله يومان لا ماء فيهما ومن النبط إلى الخضيرة واد حار وهو مكان يتشوق الناس فيه ويموتون عطشا إلا إذا وجد فيه ماء المطر وهذا الوادي قد وافق فيه الاسم المسمى قلما تخلو سنة من شدة تقع للحجاج فيه من عطش أو موت وهو واد كبير طبق ما بين جبلين لا سعة فيه من النبط إلى الخضيرة فإذا اشتد الحر في النهار حجبت الجبال عنه الهواء البحري فينعكس غربيا أو شرقيا صاعدا من الوادي أو منهبطا فيصير سموما محرقا ولا ماء هناك فربما أتلف الناس فيه العطش المهلك وربما أحدث ذلك سمية الأبدان بقبح الهواء مع حرارته فتموت المئون بل الآلاف من الخلق في أسرع مدة فيأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت.

---

(١) في الرحلة الناصرية الرجال.

قال الشيخ أبو سالم ووقوع ذلك في الإياب كثير وفي الركب المصري أكثر وقد غمرتنا فيه والحمد لله ألطافه تعالى الخفية، وحضرتنا منته ومواهبه السابغة الوافية، فلم نر به بأسا في الحر ولقر والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات.

ونزلنا مغيب الشفق قبيل الخضيرة وصلينا بها الصبح وقطعنا الوعرات السبع المسماة على ألسنة الحاج بسبع وعرات وخرجنا إلى متسع من الأرض وبلغنا ينبع النخل غروب الشمس ولما قربنا مضيق ينبع تأخر كثير من الصعاليك فخرج عليهم المحاربون وجردوا صعلوكا فصاحوا ورجع إليهم بعض الحجاج فهربوا وجلسوا تحت أحجار ورموهم ببنادق ورماهم الحجاج فكفى الله شرهم واستبشر الناس بقدومهم الينبع لأنها أول بلاد الحجاز العامرة وفيها قرى كثيرة ومزارع ونخيل وعيون جارية وذكروا أن عمرانه متصل نحو ثلاثة أيام والقرية التي ينزل بها الركب هي آخر القرى التي من ناحية البحر وليس بعدها إلا ينبع البحر الذي هو المرسى وغالب أهل القرى يأتون إلى هذه القرية التي ينزل بها الحاج للتسوق وتعمر هناك سوق كبيرة يوجد فيها غالب المحتاج وتجلب إليها البضائع والسلع ذوات الأثمان ويجلب إليها من الثمار والفواكه والحبوب والفول شيء كثير وهناك وجدنا أخبار المدينة ومكة زادهما الله تعالى تشريفا وتعظيما، وتبجيلا وتكريما، ووجدنا أيضا أخبار سائر بلاد الحجاز وتعرفنا على رخصها من غلائها وخصبها من جدبها ومن هناك تجلب الميرة للمدينة الشريفة لأن السفن الجالبة للطعام من مصر ما كان منها للمدينة يرسي بينبع البحر وما كان منها لمكة يتجاوز إلى جدة فإذا وصل الطعام إلى الينبع حمل منها إلى المدينة تحمله أعراب تلك الناحية من بني سالم وجهينة ويتداركون بالطريق من هناك للمدينة.

قال شيخنا أبو سالم وأكبر جبال تلك الناحية جبل رضوى وهو المشرف على

بلاد الينبع وليس هو الجبل الصغير الذي هو بجانب الينبع بل هو الجبل الكبير المشرف عليه وإلى هذا البلد كانت غزوة العشيرة من غزواته صلى الله عليه وسلم ومسجد القرية الآن هو مسجد العشيرة المعدود في المساجد التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم.

قال السيد السمهودي ما نصه ومسجد العشيرة معروف ببطن الينبع وهو مسجد القرية التي ينزلها الحاج المصري ولابن زبالة[١] أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد الينبع بعين بولا .

قلت وعنده عين جارية لكنها لا تعرف بهذا الاسم انتهى.

وقد دخلنا هذا المسجد وقِلْنا فيه حتى صلينا الظهر والعصر وتوضأنا من هذه العين وعليها نخيل وفي الينبع ملتفة ناعمة ووجدنا بها العام يبس ماء العين وانهدم بعض سقف المسجد وذبلت النخل وفي الينبع مزارة على تل مرتفع لأبي الحسن الشاذلي وقبر الحسن المثلث فوق القرية لم نصل إليه لبعده وذعارة عرب البلد يزار من بعيد بالنية وبهذا البلد موطن طائفة من الأشراف ومنهم شرفاء بلدنا القاطنون بسجلماسة.

قال البكري في ذكر المراحل من الوجه إلى الينبع ما نصه ثم سرنا من الوجه إلى مشرف[٢] النعام، ثم إلى حدرات واكام، وأماكن يرى منها البحر الأجاج، وشدة تلاطمه بالأمواج، ثم إلى حدارت كبيرة المقدار، كثيرة الصخور والأوعار، ونزلنا في مرحلة يقال لها بركة اكره، وهي أرض بها حفائر ماء تكره، ماؤها مر المذاق، من تقيد

---

(١) كذا في الرحلتين العياشية والناصرية وفي ثلاث نسخ زباله وفي نسخة زياد.

(٢) في الرحلة العياشية مفرش.

شربه حصل له الإطلاق، وهي مرحلة لا تراح بها النفوس، ولا يضحك بها العبوس، قال الشاعر:

يا من أتى اكره في سيره ... ابشر بنيل القصد والمنه
لا تكره المكروه في اكره ... فبالمكاره حفت الجنة

ومدة المسير إليها تسع ساعات بتمامها، وثلث ساعة ثابتة في أحكامها، ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك، ولها من بين القرى اسم مشترك، بين فضاء واسع المجال، ومراعي أعشاب للجمال، إلا أنها خالية من الماء للوراد، والإقامة بها إنما هي على طريقة السير المعتاد، ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة من الزمان، حررها أهل الإتقان، ثم سرنا منها إلى العقبة السوداء المشتهرة، وقطعنا مفاوزها ونزلنا بالحوراء النضرة، وهي مرحلة رملها غزير، ومخاطبها كثير، وبها شجر الأراك الأخضر، والماء من حفائر رملها يتفجر، قال الشاعر:

جئتنا إلى الحوراء وهي عطشة ... فيها الأراك نزاهة للرائي
ناديت خل قف بها متأملا ... وانظر لرمل مغمر بالماء
واغنم زمانا مقبلا بسعوده ... فيه اجتماع الشمل بالحوراء

ومدة المسير إليها في جل الإعداد، حررها أهل الإرشاد، ثم سرنا منها إلى مفازة نبط، وهي حد عربان جهينة في الشيل والحط، وبطرقها مضائق وحدرات، وجبال راسيات شامخات، وشجر أثل كالنخيل، وحفائر ماء عذب يشفي العليل، قال الشاعر:

وفي اكره والتي بعدها ... مرارة ماء تزيد القساوه
فجئتنا إلى نبط نشكر الظما ... فانعشنا ماؤها والطلاوه
ولما صبرنا على مرها ... فاعقبنا صبرنا بالحلاوه

ومدة المسير إليها عدد كاف، وهي عشرون ساعة من غير اختلاف، ثم سرنا إلى طراطير الراعي، وهي مكان تحمد فيه المساعي، وهي جبال سود فوق الجبال، وتسمى أيضا بالأباطح كما يقال، ثم إلى واد يسمى وادي النار، وهو واد بين جبال ووعر وغبار، ثم نزلنا بالخضراء وقيل الخضيرة بالتصغير، وهي من أعمال بندر الينبع في المسير، قال الشاعر:

أنظر إلى الخضراء واغنم بسطها ... تلقى رباها نزهة للرائي
فلرب حشاش شكا من همه ... قد زال عنه الهم بالخضراء

ومدة وصولنا إليها في المسير (1) ثم رحلنا منها واستقبلنا دار البقر، ورأينا أول الوعرات قد ظهر، وهي سبع وعرات كبيرة، أصعبها الأولى والأخيرة، بين كل وعرة فضاء وبعده عقلة في الطريق، ويليها شفاء جبل هائل ومضيق، ثم أنخنا الركاب ببندر الينبوع، وهو أول بلاد الحجاز في الذهاب وآخرها في الرجوع، به حدائق ونخيل، وعيون بين زروع تسيح وتسيل، وكان به سور، منيع وجامع مفرد وسيع، وبيوت فسحة الرحاب، فآل أمرها إلى الخراب، وبه الآن سوق الحجاج، يأخذون منه الذخيرة عند الاحتياج، وبه أفران وحيشان كبار، وعشش تسقى فيها القهوة من أيدي الجوار، قال الشاعر:

حبذا بندر ينبوع وما ... في رباه من رياض وعيون
وسقاة من ملاح نهد ... يصرّ عن الصب من نبل العيون
فارتحل عنهن واذهب واتضح (2) ... فإذا خالفت أذهبت العيون

---

(1) بياض في الرحلتين العياشية والناصرية وكذلك في ثلاث نسخ وفي نسخة معلومة بلا ضير والغالب على الظن أن هذه الزيادة من الناسخ.
(2) في ثلاث نسخ واتضح وفي الرحلة العياشية وانتظم.

وجميع تلك الأسواق خارجة عن المساكن، ويعم نفعها الساكن والظاعن، فنصبنا بهذا البندر الخيام، وأقمنا به ثلاثة أيام، ومدة المسير إليه سبع عشرة ساعة في العدد، محررة في ميقاتها صحيحة السند، انتهى كلام البكري.

ثم رحلنا من الينبع ومررنا على السقائف ودار الوقدة ثم كذلك من الرمل المشرف على بدر ثم كذلك إلى أن نزلنا بدرا وسمي هذا المنزل دار الوقدة لأنهم يوقدون فيه الشمع الكثير يستصحبه الناس معهم من مصر لذلك ويبيعونه في الركب ويجعلونه على اقتاب الجمال بالليل فترى الركاب كله كأنه من أعظم المساجد المسرجة مصابيحها في أحد المواسم.

قال أبو سالم وشاع عندهم أن الصحابة في غزوة بدر أوقدوا هناك نيرانا كثيرة فنحن نشتبه بهم وتلك غفلة منهم وخطاء من وجهين أحدهما أن وقوع الأمر بإيقاد النار الكثيرة إنما كان في غزوة الفتح بمر الظهران كما هو معروف في كتب السير وأما بدر فلم يقل فيها أحد بذلك وثانيها لو سلم أن ذلك وقع فيها فقد كان لإرهاب العدو وإظهار قوة المسلمين وكثرة عددهم فحيث لا ضرر فلا عدو له ولا شك أن الفرح بنصر الله أولياءه على أعدائه والاستبشار بالأماكن التي اعز الله فيها الإسلام أمر مطلوب مستحسن ما لم يؤد ذلك إلى محظور مثل اعتقاد أن الوقود سنة متبعة بل ربما ظن بعضه أنها من أفعال الحج فلتعظم بغير ذلك من فرح وسرور وصدقة وعبادة وأعلان بشكر وقد جاءني كثير ممن لا شمع عنده يستفتون ويقولون لا شمع عندنا فهل يلزمنا شراؤه ممن هو عنده ظانين أن ذلك من مناسك الحج وشعائره وكم مثلها من بدعة محدثة يرى الناس أنها من أعظم القربات نسأل الله أن يثبتنا على سنة النبي صلى الله عليه وسلم المستقيمة التي لا ترى فيها عوجا ولا أمتا انتهى.

ثم إن الركب يتوسط وتوسطنا بين الجبلين جبل الرمل الكبير المشرف على بدر

يسري الطريق والجبل الآخر يمناه فإذا بالناس يشرعون يريدون[1] الصعود لجبل الرمل أفواجا رجاء أن يسمعوا ما يوثر هنالك من صوت الطبل وزعم كثير من الحجاج أنهم يسمعونه هنالك.

تتمة ذكر الإمام ابن مرزوق في شرحه على البردة ما نصه ومن الآيات ببدر الباقية ما كنت اسمعه من غير واحد من الحجاج أنهم إذا اجتازوا بذلك الموضع يسمعون كهيئة طبل الملوك الوقت ويرون أن ذلك لنصر أهل الإيمان قال وربما أنكرت ذلك وربما تأولته بأن الموضع لعله صلب فيستجيب فيه حواجر الدواب وكان يقال لي انه دهس رمل غير صلب وغالب ما يسري هنالك الإبل وإخفاقها لا تصوت في الأرض الصلبة فكيف بالرمل قال ثم لما من الله تعالى بالوصول إلى ذلك الموضع المشرف نزلت عن الراحلة أمشي وبيدي عود طويل من شجر السعدان المسمى بام غيلان وقد نسيت ذلك الخبر الذي كنت أسمع فما راعني وأنا أسير في الهاجرة إلا واحد من عبيد الأعراب الجماليين الذين كانوا معنا يقولون أتسمعون الطبل فأخذتني لما سمعت كلامه قشعريرة بينة وتذكرت ما كنت أخبرتُ به وكان في الجو بعض ريح فسمعت صوت الطبل وأنا دِهِش مما أصابني من الفرح أو الهيبة أو ما الله اعلم به فشككت وقلت لعل الريح سكنت في هذا الذي في يدي وحدث مثل هذا الصوت وأنا حريص على طلب التحقيق بهذه الآية العظيمة فألقيت العود من يدي وجلست إلى الأرض أو وثبت قائما أو فعلت جميع ذلك فسمعت صوت الطبل سماعا محققا أو صوتا لا أشك انه صوت طبل وذلك من ناحية اليمن ونحن سائرون إلى مكة المشرفة فظللت أسمع ذلك الصوت يومي أجمع المرة بعد المرة ولقد أخبرت أن ذلك الصوت لا يسمعه جميع الناس انتهى.

---

(١) في الرحلة الناصرية يهرعون يتجشمون.

وقال الإمام المرجاني رحمه الله تعالى ولقد ضربت طبلخانة[1] النصر ببدر فهي تضرب إلى يوم القيامة نقله عنه السيد السمهودي في تاريخه الكبير والصغير.

قال شيخنا أبو سالم وقد كثر كلام الناس في هذه المسألة وإذا ذكر من يوثق به كابن مرزوق وغيره أنهم سمعوه فالصحيح أن بعض الناس يسمعه دون بعض وقد مررت ببدر سبع مرات وأنا في كلها ألقي البال لذلك فلم أسمع شيئا أتحققه وفي هذه المرة سمعنا بعد ما قربنا من البندر صوت طبل محقق فإذا هو طبل بعض أمراء الركب كان متأخرا وراءنا وتحققنا ذلك بجلوسنا مر بنا وكثير من الناس ممن لم يتحقق ذلك زعم أنه الطبلخانة المذكورة وقد سألت عن هذه المسألة محقق زمانه شيخنا أبا بكر السجستاني رضي الله عنه فقال لي كنت حريصا على تحقيق ذلك ولقد مررت ببدر نحوا من سبع وعشرين مرة فلم أسمع شيئا أتحققه والعلم عند الله.

قلت وهذه المسألة مثل ما شاع على ألسنة الحجاج أنهم يرون الأنوار مشرقة من يوم قربهم من الينبع ويقولون أن وادي النار اسمه وادي النور لأجل رؤيتها منه فحرف الناس التسمية وقد ألقيت البال لذلك فكلما قالوا أنهم رأوا الأنوار نظرنا فإذا هو بروق تخفق من بلاد بعيدة وتحققنا ذلك بظهوره مرات كثيرة في غير ناحية المدينة وتارة في ناحيتها ويتصل خفقانه حتى يقرب إلينا فنتحقق انه برق وتظهر أمارات أخر تحقق ذلك مثل رؤية غيم متراكم وأصوات رعد وأرض الحجاز معروفة بكثرة الرعد والبرق وكثير من الحجاج يصممون على أنها أنوار ولو ظهرت الأمارات ولو كان من غير ناحية المدينة.

قال وقد سألت شيخنا أبا بكر السجستاني رضي الله عنه عن هذا فقال لي كنت

---

(١) في غير الرحلتين العياشية والناصرية طبجانة.

أتأمل ذلك كثيرا فلم أر شيئا مما يزعمه الحجاج إلا البرق نعم قال لنا رضي الله عنه وأرضاه الذي لا يمتري فيه انه نور النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة وإن كنت جميع الأنوار من نوره ما عايناه مرارا ونحن مجاورون بالمدينة المشرفة في الحرم الشريف فأنا نجلس أحيانا نهارا حتى يستفيض من ناحية الحجرة ما يخالف ضوء النهار فيغشي الحرم الشريف كله فيراه الناس.

قلت ولعل هذا الذي ذكر شيخنا رضي الله عنه أنه خاص أيضا به وبأمثاله ممن تنورت بصائرهم فاستنارت بها أبصارهم فيشاهدون الأنوار المعنوية محسوسة وإلا فكثير من الناس لا يشاهدون ذلك والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وفي آخر المضيق الذي بين الرمل والجبل عريش إلى الآن يزعم الناس انه موضع العريش الذي بني لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وإن ذلك موضع الواقعة وليس به.

ونزلنا بدرا بعيد المغرب وهي قرية حسنة ذات نخيل وماء عذب فيها بركة كبيرة تكفي الأركاب كلها ومادتها من عين هنالك وعلى ذلك البلد أنوار تلوح، ورياح النصر تغدو وتروح، وينشرح فيه الصدر والقلب، ويتجلى فيه بصفة الجمال لكل مسلم الرب، سبحانه وتعالى، ومعالم النبوءة لا تخفى، ومواطئ أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم لا تعفى، وقد ظهرت على أهل هذا البلد بركة الرسول صلى الله عليه وسلم معلنين بذلك فأسعارها في الغالب أرخص من غيرها مع صغرها وانقطاعها عن البلاد وأهلها محفوظون آمنون مطمئنون مع سوء أخلاق عرب صبح المجاورين لهم وكان نزولنا خارج البلد.

غربية وزرنا قبور الشهداء وعليهم جدار قصير محيط بقبورهم.

قال الإمام أبو سالم وبالقرب منهم قبور السادات الأشراف الزيدنية[1] من أهل اليمن نزل أسلافهم بهذا البلد ولهم إتباع في طريق القوم ومجلس ذكر قال وكبيرهم اليوم السيد أبو الغيث وزرنا أيضا المسجد المسمى بمسجد الغمامة وهو موضع العريش يوم الوقعة ببدر كما نص عليه غير واحد وانشرحت صدورنا بذلك ووجدنا به المصري ونزل علينا الشامي سحرا وأخذ المصري ساعتئذ في الرحيل، وحثوا ركابهم بالرسيم والذميل، وظعنا نحن بعد صلاة الظهر ومررنا على قبور الشهداء وموضع العريش مع الأخ سيدي محمد الأخصاصي وجدناه هنالك ينتظرنا إذ هو مجاور بالمدينة المشرفة وقبور الشهداء أسفل الوادي من جهة البزوة وليس بالموضع الذي تزعمه العوام تحت الكثيب على طريق القادم من مصر.

قال البكري ثم سرنا من ينبع إلى الدهناء في فضاء ورمال، وآكام وجبال، حتى وصلنا إلى الأبرقين، وهي كناية عن جبلين متفرقين، احدهما رمل صاعد، والأخر من وعر وجلامد، وبينهما تدق الطبول الحربية، لنصرة خير البرية، فيسمعها من كان أهلا للسماع، ويحجب أهل الزيغ والابتداع، ثم دخلنا قرية بدر وحنين، التي حماها الله من كل شين، وبها جسر طويل، وعيون تجري بين حدائق ونخيل، وبها مسجد العريش وقيل مسجد النعام، وموضع حوض المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومحل النصرة لجيوش الإسلام، على أهل الأنصاب والأزلام، وهي الغزوة العظيمة المقدار، التي بها شاهت وجوه الكفار، فيا لها من غزوة قاتلت فيها الملائكة، وضاقت بها على أعداء الدين المسالك، وأخزى الله أهل الشرك والغواية، واستشهد من

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وفي ثلاث نسخ وفي نسخة الزيدية وهو الأصوب وفي الرحلة العياشية الرديثية.

المسلمين من سبقت له العناية، وخرج فيها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم للجهاد، وقتل فيها أبو جهل رأس أهل العناد، فبلغت الشهداء من السعادة أوفر نصيب، وقلبت أعداء الله في القليب، ووجدوا ما وعدهم ربهم من العذاب الأليم، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، قال الشاعر:

يا أهل بدر لقد طابت مآثركم ... وقد علا قدركم في أرفع الدرج

فزتم بغفران أوزار وحسن ثنا ... على المدى نشره من أطيب الأرج

يكفيكم في علاكم قول مادحكم ... هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

فيا لها من ليلة بت وقد أشرق بدرها،وسما قدرها، أذهبت عن العيون الهجوع، لاشتغالها برؤية القناديل والشموع، وأما الشموع فقد ملأت الأرجاء بالنور، ومحت بضوئها ظلمة الديجور، وقد دقت طبول الأفراح، وزالت عن القلوب الأتراح، وأحضر السكر المذاب، وأذيب في الماء للوراد، وملئ به البواطي والحلل، وسقي به جميع الطوائف وأهل العمل، فشرب كل منهم أوفر نصيب، فكانت ليلة من صفائها أقصر من جلسة الخطيب، وقضينا الأوطار من مشاهدها المبتهجة، وعدة المسير إليها ثمان ساعات واثنتا عشرة درجة، انتهى كلام الشيخ البكري رضي الله عنه.

فسرنا نطوي المراحل، ونتفي الرواحل، إلى أن رعت الغزالة نرجس الكواكب، وصلى المكتوبة كل راجل وراكب، إلى أن نزلنا بقاع.

البزوة والناس بقرب المزار في فرح ونشوة، من رجال ونسوة، وهو قاع لا يظفر غائصه بقاع، ولا يرى المسافرون نظيرا له في البقاع، ونزلنا بعيد المغرب، ولا يرى من الناس إلا مضطرب ومطرب، إلى أن تفجر ينبوع الفجر، وقبض كل متهجد في مصلاه جائزة الأجر، فشمرنا الذيل لقطع بسيط البزوة، وكم فيه من غدوة وسروة، فهو حقا قاع صفصف، ومهمه تفنف، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ولا تجد فيه إلا

السماء سمتا، ولله در القائل:

قد سلكنا القاع المديد الذي م أضحى مضافا دون[1] البقاع لبزوة
فهو قاع لا نبت فيه تراه عين سار وكم لنا فيه سروة

فأعاننا الله على قطع مسافته، وكان لنا في طي مراحله وإتمام مفازته، فسرنا وبلغنا أول سبيل، وقلنا مستظلين بظله الظليل، حتى وصلنا الركب فسرنا وبتنا غربي مستورة، حيث تراءت لنا بخلوة مشهورة، فرأينا هلال ذي الحجة، أبين وأصفى من الحجة، ليلة السبت ثاني عشر يناير من شهور العجم وهي قرية وبها بئر كبيرة مطوية بالحجر المنحوت إلا أن الرمل قد غلب عليها ونحوها عمارة قليلة وبها قبر يزار عليه بناء واسم صاحبه الشيخ يحيى قالوا انه شريف من أهل اليمن.

ثم ارتحلنا من منزلنا ذلك وخلفناه، وواليا المصاحبة غيره فعزلناه، فجد بنا السير، وكادت المطايا من سرعتها تحكي الطير، حتى أوصلتنا قرب الظهر رابغ، وكم لها علينا من فضل شائع سابغ، ووجدنا بها الأركاب المصري والشامي قد خيموا، فإذا الشاميون على الرحيل قد صمموا، فنقضوا أخبيتهم، وعانقوا أرديتهم، فارتحلوا ملبين، وللسير مزمعين، ووجدنا واديه قريب من العهد بالسيلان، وجلسنا للصلاة في ظل النخيل والفسلان، وجاء ركبنا فاخذ الناس منازلهم، فالتحقنا بأصحابنا وأناخوا رواحهم.

ورابغ قرية فيها نخيل وآبار كثيرة في واد يأتي إليه السيل من بعيد تزرع فيه مفاثي كثيرة ودخن وذرة وهو من أخصب أودية الحجاز ثم اشتغل الناس بغسل ثيابهم والاغتسال، والتنظيف وشراء النعال، توجد هناك معدة للمحرمين إلا أنها في

---

(١) في الرحلة الناصرية بين.

الغالب غالية.

ولما حان للشمس أفول، شمر الركب المصري الذيول، فقام وارتحل، وعن رابغ انتقل، وبتنا هنالك وفي غد تهيأنا للإحرام، فاغتسلنا وأزلنا ما في أزالته فضل ورغبة من الشعث، وألقينا التفث، وأحرنا الإحرام، فارتحلنا ضحى الأحد ثاني الشهر إلى أن وازينا[1] مهيعة، وتراءت أبنية الجحفة، اتحفنا هدايانا بأكمل تحفة، فقلدنا وأشعرنا، وجللنا وتجردنا، فركعنا وأحرمنا ملبين، بالحج مفردين، وللفرض الكفائي ناوين، وحافظنا على استحضار النية، وواصلنا الإحرام بالتلبية، واتبعنا فيها السنة السنية، وتابعنا السير بها صارخين، غير مفرطين، ولا مفرطين، مستبشرين آمين، مسرورين مطمئنين، ولبث الناس في ثياب إحرامهم، كأنهم نشروا من قبورهم بأكفانهم، يزفون[2] ويهرعون للموقف.

وصرنا كأموات لففنا جسومنا بأكفاننا كل ذليل لمولاه
لعل يرى ذل العباد وكسرهم فيرحمهم رب يرجون[3] رجاه
ينادونه لبيك لبيك ذا العلى وسعديك كل الشرك عنك نفيناه
ولو كنت يا هذا تشاهد حالهم لأبكاك ذاك الحال في حال مرآة
وجوههم غبر وشعث رؤسهم فلا رأس إلا للإله كشفناه
لتزداد روعا من خضوع لربنا وما كان من درع المعاصي خلعناه
وذاك قليل في كثير ذنوبنا فقد طالما رب العباد عصيناه
إلى زمزم زمت ركاب مطايانا ونحو الصفا عيس الوفود صففناه

(١) في نسخة ان رأينا.
(٢) في نسخة يرفلون.
(٣) في نسختين ويرجون.

نـؤم مقامـا للخليـل معظـما ... إليـه اسـتبقنا والركـاب حثثنـاه
ونحـن نلبـي في صـعود ومهـبط ... كـذا حالنـا في كـل مرقـى رقينـاه
فكـم تَـشَزِ(١) عـال علتـه وفودنـا ... وتعلـو لنـا الأصـوات حيـن علونـاه
نحـج لبيـت حجـه الرسـل قبلنـا ... لنـشهد نفعنـا في الكتـاب وُعِـدناه
دعانـا إليـه الله عنـد بنائـه ... فقلنـا لـه لبيـك داع اجبنـاه
أتينـاك لبينـاك جئنـاك ربنـا ... إليـك هربنـا والأنـام تركنـاه
ووجهـك نبغـي أنـت للقلـب قبلـة ... إذا مـا حججنـا أنـت بـالحج رمنـاه
فما البيت ما الأركان ما الحجر ما الصفا ... ومـا زمـزم أنـت الـذي قـد قـصدناه
وأنـت مُنانـا أنـت غايـة سـؤلنا ... وأنـت الـذي دنيـا وأخـرى أردنـاه
إليـك شـددنا الرحـل نخـترق الفـلا ... فكـم فدفـد في الـسواد(٢) خرقنـاه
كـذلك مـا زلنـا نحـاول سيرنـا ... نهـارا وليـلا عبنـا مـا أرحنـاه
إلى أن بـدا أحـدى المعـالم مـن منـى ... وهبـت نـسيم للوصـال(٣) نـشقناه
ونـادى بنـا الحـادي البـشارة والهنـا ... فهـذا الحمـى هـذا تـراه(٤) غـشيناه

وسرنا وجاوزنا الرمال، التي تتيه فيه الأركاب كالجبال، وأخذنا بطن هرشاء ونزلنا بعيد المغرب شرقي السيل وغربي قُدَيْد وهي قرية غالب أبنيتها حيشان وفيها قهاوي وفواكه تباع ولا ماء بها إلا ما يسقى من بعيد ثم ارتحلنا منه ومررنا وقد متع النهار بالمشلل ويسمى اليوم بعقبة السكر.

---

(١) في نسخة شرف.
(٢) هكذا في الرحلة الناصرية وفي نسخة فكم فدفد صعب سواد وفي ثلاث نسخ فكم شدّ شدّ في السواد وهو أصوب.
(٣) في نسخة وهبت لنا ريح الوصال وفي ثلاث نسخ وهبت ريحها للوصال.
(٤) في نسخة قتار وفي ثلاث نسخ آثاره.

قال الإمام أبو سالم وأكثر الناس خصوصا المصرية يجلبون السكر من مصر بالقصد ليشربوه هناك ويؤثرون في ذلك أثرا لا أصل له يزعمون أن رمل ذلك المحل انقلب للصحابة سكرا فشربوه وهي عقبة في جبل صغير فيها رمل يتعب الإبل [مع كثرة التلاحي وشدة التلاحم، وإفراط التزاحم، وعدم التعاطف والتراحم، وفيها قيل:

كم جبل منتصب للشقا ... ما جره الجمال إلا انكسر

وكان في الركب يُرى مبتدا ... فما له من بعد هذا خبر][1]

وقد سوى البناء في جانبيها والتقطت أحجارها وبني مسجد صغير بأحد جانبيها وبينها وبين خليص نحو من ثلاثة أميال.

وذكر السيد السمهودي أن هناك بالمشلل مسجدا للنبي صلى الله عليه وسلم على يسار الذاهب إلى منى ولعله هو هذا المبنى هناك اليوم فقد دخلناه وزرناه وتبركنا بالآثار المضافة له صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ومجد وعظم فبلغنا الكديد قبل الظهر ونزلنا في قبة عظيمة بإزاء بركة عظيمة تحت القرية وفي خليص هذا عين تجري وأبنية وقهاوي وسوق حافلة وقد سيق الماء في قنوات محكمات من العين يفجر عنها[2] ويبرز في مواضع للسقي والوضوء إلى أن خرج الماء إلى البركة المذكورة وكانت عميقة يغرق فيها من لا يحسن العوم ويخرج الماء من البركة إلى مزارع قريبة من البلد رجل حرثهم الدخن ويكثرون من المقاثي وماء هذه العين أحلى وأعذب إلا أنه سخن ونمنا هنيئة ريثما يحين وقت الصلاة فتوضأنا وصلينا الظهر وتلاحق الركب وسقى الناس واستقوا وركعنا بمسجد هناك فوق البركة

---

(١) ما بين القوسين ساقط من الرحلة العياشية.

(٢) في نسختين يجري.

ينسب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد تهدم وامتلأ أوساخا وصار إصطبلا للدواب فأنا لله وإنا إليه راجعون لقد ضعف الدين وقلت الرغبة في الخير حتى يكون بهذه المثابة المكان الذي دخله سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم وصلى فيه وكان من حقه أن يذهب ويفضض وقد أشرت بذلك لأمير الحج المصري ووعد بإصلاحه والله يوفقنا وإياه.

وسرنا في غيضة كبيرة ذات أشجار ملتفة من أثل وغيره وفي خلالها فدادين يزرع فيها المقاثي والدخن وغير ذلك ونزلنا بين العشاءين في بسيط من أشجار برية من السيال وغيره ثم منه قبيل الفجر ومررنا بالثنية التي يهبط منها إلى عسفان أسفارا والطريق فيها مبنية ملتقطة أحجارها كعقبة السكر إلا أن هذه أطول منها وأسهل وبأحد جانبيها مسجد فلما خرجنا من العقبة وصلنا عسفان ضحى وفيها سوق وآبار من جملتها البئر التي يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها وماؤها حلو غياة وشربنا منه تبركا بآثاره صلى الله عليه وسلم واستفاض ذلك على ألسنة العوام ولم أقف عليه في شيء من التواريخ التي بأيدينا وعثرنا عليها والله اعلم بحقيقته وبه مسجد ولم أدر ما أصله فسرنا وقطعنا تلك المفاوز كلها من أرض تسمى ببرقة وهي أرض طيبة ذات مزارع ووادي العميان إلى أن أنخنا بمر الظهران بعد العشاء ويسمى وادي فاطمة ووادي الشريف ووجدنا به الشامي والمصري خيما ويفور نزولنا رحل الشامي وتبعه المصري آخر الليل وهو واد كبير فيه قرى متعددة ذات نخيل وبساتين وعيون تجري وأعظمها القرية التي ينزل بها الحاج وفيها سوق وعين كبيرة وبساتين مؤنقة، وجدنا بها الثمار مزهوة، فالقلوب بالنظر لنضارتها من الأحزان مجلوة، مع ما غمرها من السرور بقرب الديار، ومشاهدة الآثار، ففرح الناس، وتزايد الإيناس، وأعبق عليهم بأرجه الأريج، وعرفه المتكاثر البهيج، شجر

الكادي[١]، باستنشاق[٢] الحاضر والبادي، فغمر عيقه كل نادي، ولما بلغنا عام تحة هذا الوادي، قلنا بعريش هنالك وجرى ذكر الكادي في النادي، وسألنا عنه صاحب العريش وأخبر أن شجره كشجر النخل وبعث من أتانا بشيء من أوراقه وإذا فيها رائحة طيبة جدا وأوراقه عريضة، وأنواره وميضة، فسبحان من يخص من يشاء بما شاء.

تكملة قال الإمام البكري رحمه الله تعالى في عد المراحل من بدر إلى هنا ما نصه ثم سرنا من بدر إلى قاع البزوة وتسمى طرق النجحان، ثم إلى عالج وجبل القرود ومكان يسمى ودّان، ثم نزلنا بسبيل محسن المشهور، وتنزهنا في خضرة أعشابه وسرحه المعطور، قال الشاعر:

قد شكا لي بعض المحبين يوما ظمأ الماء قلت ذا غير ممكن
كيف تشكو الظمأ وتجزع منه وبهذا السبيل أحسن محسن

ومدة المسير منه ثمان عشرة من الساعات، وعشرون درجة محررة بالميقات، ثم سرنا منها إلى بستان القاضي، ونسينا بقرب الديار تعب السير الماضي، ثم نزلنا برابغ محل الميقات، وتجردنا عن لبس المخيط بصدق النيات، وأحرمنا بالعمرة والحج، عملا بقوله الحج العج والثج[٣]، وأهللنا بالتلبية لعلام الغيوب، وسألنا الله تعالى غفران الذنوب، ورأينا حفائر ماء تنبع، ومزارع بطيخ يتنوع، ومسجدا قديم الأثر، ويسمى ذا الجحفة كما ورد في الخبر، وهو محل إحرام المصطفى، صلى الله عليه وسلم زاده الله شرفا، قال الشاعر:

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وفي أربع نسخ اليكادي ولعله الفادي.
(٢) في الرحلة الناصرية باشراق استنشاق والأصوب فاستنشق.
(٣) في نهاية ابن الأثير أفضل الحج العد والثج وفي الرحلة العياشية الحج والعمرة والثج.

تجرت لما أن وصلت لرابغ وليت للمولى كما حصل الندا
وقلت إلهي عندك الفوز بالغنى وأني فقير قد أتيت مجردا

ومدة المسير إليها ست عشرة ساعة بالتمام، وعشرة[1] من الدرج ثابتة الأحكام، ثم سرنا إلى الجربنات ونزلنا بطارق قديد، الذي لا يحل في حرمه للمحرم الصيد، وإرجاؤه واسعة المجال، كثيرة الوعر والرمال، إلا أنها تبشر بقرب البلاد، وهي مواطن الأمجاد، قال الشاعر:

قد نزلنا بطارق لقديد ودخلنا حماك نرجو الحماية
فتفضل على عبيد وفود منك يرجو دفع العنا والعناية

ومدة المسير إليها سبع عشرة من الساعات، محررة بالميقات، ثم سرنا إلى عقبة السويق، وهي عقبة عالية الرمال في الطريق، ثم منها إلى خليص الشهيرة، وبعها فسقية من الماء كبيرة، يخرج منها إلى الديسة، ويحترز فيها من اللصوص أصحاب النفوس الخسيسة، ثم خرجنا من مدرج عثمان، إلى قرية عسفان، وبها البئر التي تفل فهيا سيد البشر، صلى الله عليه وسلم وهي بئر من يشرب من مائها زال عنه الضرر، قال الشاعر:

أن عسفان تسامت رفعة وعلت قدرا على كل القرى
وبها بئر النبي المصطفى خير من صلى وصام وقرا
فإذا جئت لها كن محسنا فعسى تحسب من أهل القرى

ومدة المسيرة إليها زاي في العدد، معلومة في العدد، ثم سرنا منها إلى جبل العميان، الذي تجتمع فيه الفقراء بقصد الإحسان، ونزلنا بالوادي، وهو نهاية سير

---

(١) هكذا في الرحة الناصرية وجميع النسخ وفي الرحلة العياشية عشرون.

البوادي، وهو واد خصيب، يرى فيه طالب النزاهة أوفر نصيب، أغصانه زاهية، قطوفها دانية، وأطياره ناطقة، وجداوله دافقة، ومزارعه تنبت من كل زوج بهيج، ويفوح من أزهارها كل عرف أريج، وهي زائدة الابتهاج، وعلى كل حديقة سياج، فلو رآه مصري من الناس، نمي الروضة والمقياس، به عشش تسكنها عرب البوادي، وبأرضه ينبت شجر الكادي، قال الشاعر:

يا حبذا واد فسيح الفضا … أريجه قد عطر النادي
كم فيه من باغية قد زكت … وفيه زهر الفل والكادي
وكم ثمار وزروع به … والماء فيه ينعش الصادي
قلت لخلي حين شاهدته … ولاح لي نور السنا بادي
هل دار ليلى[١] قد تدانت لنا … فقال لي أنك بالوادي

ووصوله خمس عشرة ساعة في السير، وخمس من الدرج بالتحرير، ثم سرنا إلى سبيل الجوخي المعروف، ورأينا جنان مكة دانية القطوف، ثم مررنا بمساجد ميمونة بالعمرة، وقد اقترن لسماء سموها كوكب الثريا بالزهرة، ولاحت لنا أعلام الديار، ومشاهد المشاعر والآثار، ووصلنا ثنية كدا، وبعدها المعلى التي بها مشاهد أهل الهدى، وكنا عند خروجنا من عدم الوصول خائفين، حتى تلقتنا هواتف البشائر لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين، فدخلنا من باب السلام، وشاهدن البيت والمقام، وطفنا طواف القدوم، وذهبت عنا الهموم، وجئنا إلى محل الصفا، وسعينا في طلب الوفا، ولما تم سعينا بالطواف، وحفتنا من عناية الله الألطاف، أقمنا بمكة بالإحرام، إلى سابع ذي الحجة الحرام، انتهى كلام البكري.

ولنرجع إلى تعداد مراحلنا، وذكر منازلنا، ولما اطمأن المنزل بنا بالوادي،

---

(١) كذا في الرحلتين العياشية والناصرية وفي جميع النسخ هذه ليلى.

ولاحت لنا من أعلام القرب الهوادي، رحلنا آخر الليل سحرا، وما جعلنا سوى شد الحمولة وطرا، فسرنا ونسمات الوصال تهب علينا، وبشائر التلاقي تترادف إلينا، وظفرنا بمسرة ما ظفر بها مسرور، ولا طوى كشحه عليها مصرور، وقلنا بالقلوب والقوالب، الحمد لله الذي أدنانا وأنالنا المطالب، وبلغنا جميع المآرب، وبلغنا سَرِف[١] ضحى وبها قبر[٢] أم المؤمنين ذات النقية الميمونة، الهلالية السيدة ميمونة، رضي الله عنها وأرضاها، بمقاصير فراديس الجنان حباها، توفيت بهذا الوادي، وكان من غريب الأنفاق، الذي ليس للأذهان إليه انسياق، أن بهذا الوادي بنى بها سيدنا صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها وكان تزوجها بمكة وهو محرم في عمرة القضاء وبنى بها بسرف في رجوعه وعلى قبرها بناء، ومسجد فزرناها خارج البناء، معظمين لرحمتها، راجين حسن بركتها، وزار من معنا من الحرم معظمات للمحرم، وركعنا في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم هنالك، وتجاوزنا تفري المسالك، إلى أن جئنا التنعيم وقد متع النهار حيث المسجد المنسوب للسيدة عائشة رضي الله عنها بني في المكان الذي أحرمت منه بالعمرة مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ومن ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها وهو أدنى الحل حتى صار يطلق على المكان اسم العمرة تسمية للشيء باسم ما يقع فيه فنمنا هنالك واسترحنا، وطبنا واطمأننا، وقمنا وتوضأنا، وفي مصلاه صلى الله عليه وسلم ركعنا، فسرنا وتجاوزنا المكان المسمى بالزاهر ويسمى جنان مكة وبه آبار وبه قبر يذكر انه قبر الصحابي الشهير الإمام المشهور أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر رضي الله عنها.

قال الإمام أبو سالم فقد صح انه مات بمكة بعد الحج فقيل أنه دفن خارجها

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وفي نسخة فوصلنا إلى العمرة وفي ثلاث نسخ بياض.

(٢) في الرحلة الناصرية قبة.

بوصية منه كراهية أن يدفن في البلد الذي هاجر منه فمن قائل أنه بهذا الوادي ومن قائل أنه بالوادي الذي بطرف المحصب وهو الذي شهره كثير من الناس إلا أنه ليس هناك قبر ينسب إليه قال وقد زرناه في هذا المكان بحسن النية وأكثر الناس اغتسل بهذا المكان لدخول مكة اقتداء بمن قال إن هذا هو ذو طوى الذي بات به صلى الله عليه وسلم واغتسل فيه واستحب أكثر العلماء الاغتسال فيه والتحقيق ما عليه كثير من المؤرخين أن ذا طوى أمام هذا وليس بينه وبين مكة واد آخر هو الوادي الذي وراء قيقعان وبأسفله الموضع المسمى بالشبيكة حيث الثنية السفلى التي يخرج منها الحاج فأعلى هذا الوادي هو ذو أطوى وأسفله هو الشبيكة انتهى ونزلنا ذا طوى ظهر الأربعاء خامس ذي الحجة الخامس والعشرين من يناير وبتنا به في مسرة أعظم بها من مسرة، لم تدع من العناء ذرة، ويا لها من مبرة، نولت كل قلب قرارا وكل عين قرة، فلما صلينا الصبح اغتسلنا غسلا خفيفا كما هي سنة المحرم لدخول مكة بذي طوى وبللنا بذلك غلة الجوى، فارتحلنا آمين أم القرى، ودخلنا من باب المعلى، وهو الثنية العليا التي دخل منها المصطفى سيد الآخرة والأولى، عليه أفضل الصلاة والسلام وإنماهما وأعطرهما وأزكى وهي المسماة بكدا بالفتح وقد بالغت الولاة في حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة ومع ذلك ففيها صعوبة ومنها يشرف على مقبرة مكة المسماة بالحجون وهي أحدى المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض كما ورد في الحديث.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فلنرجع إلى تعداد مراحلنا من العقبة إلى مكة المشرفة ولما أن قربنا العقبة دخلناها بشرهة عظيمة ونزاهة كبيرة والحجاج قد شاك جميعهم السلاح التام وقامت الصيحة والتنادي وارتفع حس البارود وصوت البنادق إلى أن دخلنا منزل العقبة فخيمنا فيه البيوت قرب الركب المصري إذ وجدناه هناك وأقمنا فيه ما كتب لنا في نشاط عظيم وتسوق قوي وفيها سوق لا يكاد أن يحصى ما فيها من

أنواع البز والثياب والأمتعة والأطعمة وأنواع الخير من كعك وخبز وأنواع الطبائخ بتابل وغيره من أبزار منوعة الأجناس ومفترقة الأصناف فناقص العقل إن دخل السوق كاد أن لا يرجع بدرهم عنده غير أن الله مكن العقول وأثبتها فلم تكترث بها هنالك لما غلب من شوق الحبيب ومحبته عليه الصلاة والسلام فلم تعتبر شيئا إلا الوصول إليه ومشاهدة أثره صلى الله عليه وسلم فخف عليها كل ما تشاهده من مشاق السفر ووعثه وكذا تغيب عما تشاهده من الملذوذات فطابت النفس بما قصدته وأرادته من التنقل في منازل القرب ومراتب الإشهاد ومقامات السعود والحضور والاستبداد بما فيه الغنيمة العظمى والفوز بحضرة العزيز الغفار لما به من الموبقات التي بها ل الإنسان يتعامى.

حاصله أننا أقمنا بها في عزة ومنع وسرور وجذل وفرح وهناء إذ أعظم شيء مذلة الأعراب الذين صدوا الحاج في العام الذي قبلنا وقد أصابه خزي وذل حتى إن الإنسان يأخذ بعض ما لهم فلا يستطيع أن يتكلم لما رأوا من شوكة الركب المغربي وقوته فجزاهم الله جزاء وفاقا لأنهم أخذوا ركب الحجاج الجزائري والطرابلسي بل أخذوا منهم كيت وكيت من الدراهم وبذلك خلوا سبيلهم ولولا عطاؤهم ذلك وإقامة أمير مصر ما جاوزوا العقبة ولا مروا عليها بل فضل الله وجاه النبي صلى الله عليه وسلم انعطف عليهم وإلا لهلك كلهم أو جلهم فكل ما كان رحمة بهم فلما علم الحجاج أي ركبنا ما جاز عليهم أرعدوا وأبرقوا وترجوا واتعظوا فقاموا على ساق واحدة ورمية متحدة فما ملكت أنفسهم إلا القتال غير أن أعراب العقبة سكنت شوكتهم وطوي بساطهم وأنسد سبيلهم علما منهم أنهم لا يستطيعون مقاومة هذا الركب لا سيما وأن فيه أفاضل وصلحاء وعلماء فالحمد لله.

نعم أودع الناس في القصر ودائعهم وبضائعهم لوقت الرجوع فلما ظعن الركب

المصري وانفصل عن محله ظعنا في أثره بعد ملء سقايتنا فإن مياه العقبة بين بين إلا أن بعض الآبار فيه ماء عذب وهو بندر عظيم يكاد أن يكون في أسواقه مثل المدينة فيه يشبهها في الارتفاق به والاستعداد منه للزاد فترى الحاج كأنه جدد السفر لحصول الاستراحة فيه حسا فلا تعمل نفس ما فرق فيه من قرة أعين فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأبصار فلا ترى فيه عوجا ولا أمتا يوم نزولها يتبع الداعي ما كتب له من الملذوذ والبز المتنوع وكذا الفواكه فيه صنوان وغير صنوان تساق من غزة وأطرافها من نواحي الشام فيشتري منها القانع والمعتر كل على حسب قدره وقوة زاده وضعفه على أن أهل الأموال في نزهة وتنعم فتجد أحدهم يشرب ماء النيل إلى مكة المشرفة ويحضهم إلى الرجوع.

وقد ذهبت أنا والفاضل الأخ سيدي أحمد الطيب الزواوي إلى الكخية أعني خليفة الأمير لأمر يتعلق بأمر أصحابنا بل بالركب جميعه لأن شيخنا الولي الصالح، والقطب الواضح، سلطان العارفين، وخاتمة المحققين، شيخ المريدين، الشيخ محمد الحفناوي بعث معنا مزبورة ليكون مع الحجاج فلما وصلنا إليه قام إلينا وعظمنا غاية التعظيم ومع ذلك هو في رفعة عظيمة ومرتبة منيفة ومعه عسكر عظيم لا يصل إليه الضعيف إلا بعد شدة كبيرة وانتظار قوي وأما نحن والحمد لله فبنفس سماعه بنا لقينا وأدخلنا محله الخاص به وذلك المحل الذي هو فيه يخطف الأبصار فلا يكاد الضعيف يطمئن به ويسكن في محله لاختلاف الألوان وكثرة الأواني المزخرفة فجلسنا عنده ساعة إلا والطعام حضر قرب الاصفرار فأتوا بالأطعمة المختلفة والطبائخ المتنوعة في الموائد المستحسنة لا يكاد أن يحصى ما عليها من الأواني فأجلسنا عليها وألح علينا في أكلها.

حاصله هذا الأمر في السفر فكيف هو في الحضر نعم فما عندنا إلا الصبر وطلب

عوضه في الآخرة وهذا وأنا ظعنا منه على خير وعافية ومنة وفضل من الله قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون.

ولما انفصلنا عن بندر العقبة ووقفنا على الحصن الذي فيه العسكر نجم الأعراب دائرة بالحصن على عادتهم من اجتماعهم مع كونهم بسلاحهم تأمين للسلاح ينتظرون فرصة أو غفلة من الحاج يأخذون ما بدا لهم خلسة ومكرا أو تتخلف بعض الرواحل فيأتون إليها ظاهرين قهرا ونحن والحمد لله سلمنا من ذلك كله إذ الركب معه هيبة عظيمة لا يستطيعون ذلك فتخلفنا على العادة من التخلف شفقة على ضعفاء الركب أنا وسيدي محمد الشريف الطرابلسي ومن معه من أصحابه وكذا سيدي أحمد الطيب قل أن ينفرد عنا وذلك من توافق الطبائع ونحن كذلك من المشي بالتدريج على شاطئ البحر في آخر الركب فما علمنا أحدا من العرب وراءنا علما منهم لا قوة لهم بنا خفية أو ظاهرا إلى أن وصلنا شاطئ البحر قرب الزوال قبل وصولنا إلى ظهر الحمار فتوضأنا وصلينا الظهر ثم ركبنا بغالنا فسرنا ساعة وإذا ببعض الإجمال لأصحاب سيدي محمد الشريف المذكور وقفت من شدة السير وكثرة الحمل فذهبنا ساعة معها ثم خلفناها وأشرفنا على ظهر الحمار وفيه نخل على شاطئ البحر ولا بأس به وفي وسطه آبار طيبة الماء عذبة من أحسن المياه فسقت الناس إبلهم وملأت سقاياتهم فلم ننزل بطرف النخل وإنما ينزل فيها الحاج بعد الرجوع ووجدنا ثمت آخر المصري بل جميع الركب لم يستقيموا على المشي وإنما ينتظرون استقامة الأقطار ورجوع كل إلى موضعه ثم صعدنا العقبة التي بعد الآبار وفيها طريقان كما سبق وهي صعبة الصعود غير أنها ليست طويلة جدا والحمد لله وإلا هلك جلسه أو بعضه فلما صعدنا بعد الظهر في حر عظيم نزلنا في وسع كثير ورحث قوي فوق العقبة لما علمت أن المغربي يمشي في النهار بخلاف المصري فانه يمشي ليلا.

وهذه المرحلة قصيرة ومع قصرها أنها شديدة الحر والخوف من الأعراب موجود فان شوكتهم هناك قوية إذ طريقة ضيقة وقد تنزل الأعراب في زمان الثمرة فيه فلما مر أكثر الليل وإذا بالركب ارتحل ليلا فسرنا بعض الليل إلى طلوع الفجر [فسق من كان على الخيل والبغال لنستعد لصلاة الصبح حسبما هو العادة منا فلما طلع الفجر][1] وتنفس الصبح صليناه ثم ركبنا إلى وقت الضحى ونزلنا إلى صلاة الضحى كذلك كل يوم ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى الشرف وقد ذكر وصفه الشيخ أعني سيدي أحمد بن ناصر.

ويسمى هذا المحل الآن أم العظام نزلناه عند وقت العصر ثم بتنا فيه على خير وعافية ثم ظعنا آخر الليل والحمد لله ولم تكن مرحلة أطول منها فإن الإبل أكثرها يموت في هذه المرحلة لطولها وشدة تعبها قطعنا منها على خير وعافية فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى مغار شعيب بعد الظهر وفيها نخل عظيم وغيضة كبيرة وماء جار فلا يجري ماء إلا هنا وفي عيون القصب في جميع مراحل الدرب وقد تقدم أخبار مدين فيما سيق وفيها بعض الخصب للدواب وللإبل نعم الحجاج يتأنسون في هذا المنزل كأنهم حصلت لهم راحة وسرور فان خاصة من توجه إلى بيت الله الحرام يشاهد أنوار النبوءة والرسالة في أرض الحجاز فيتيسر عليه حمل بعض الأثقال فإذا تجلى ربه على قلبه سبحانك مما حصل لي في الخيال من بعض التوهمات في التجلي نعم نودي في سره يا موسى المحبة أني اصطفيتك على الناس برسالتي أي الإلهام إذ لم ينقطع بالنبي صلى الله عليه وسلم وإنما انقطع به رسالة الوحي وقال رسالة الإلهام أيضا في سره وأني اصطفيتك على الناس بكلامي أي نداء الحق يا أيها الحبيب ويا أيها العبد فخذ ما أتيتك من التوجه إلى الله وكن من الشاكرين حيث أسعدك التوفيق

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

للتوجه للأماكن الشريفة دون من يساويك في البشريات فإن الأواني تتشرف بما فيها من سر الملك والملكوت، ونسيم الجبروت، وكذا بالمعاني قال الشاعر:

قلب بذكر الله أضحى روضة ... وواحد باللهو صار مزبلة
ما منبت الورد كنبت غيره ... ولا شذا المسك كريح البصلة
لو سقي الحنظل شهدا دائما ... ما أنبت الحنظل إلا حنظلة

وقال أيضا:

ومن حضر السماع بغير قلب ... ولم يتحرك فلا تلم المغني[1]

قلت هذه المنزلة شذاؤها طيب وأنوارها بينة فالعارف تجده فيها منشرح الصدر طيب الوقت منبسط الظاهر والباطن لأن آثار المحبوب حاصلة فيه إلا من أصابه زكام محبة الدنيا فهو لا يشم شيئا من هذه العواطر الإلهية والروائح النبوية وذلك معلوم في الشاهد ثم ظعنا منها ليلا أيضا على ما أسلفناه إلى أن وصلنا عيون القصب وفيها ماء حار عذب قريب من البحر وهو كثير القصب وذكر وصفه شيخنا سيدي أحمد بن ناصر وكذا ذكر المسجد الذي يزار هناك فنزلنا به عن صلاة العصر ونزلنا على أكمل الخير وأتم العافية وارتحلنا أيضا ليلا ثم كذلك على ما علم منا[2] من جد السير على شاطئ البحر إلى بلوغ بندر المويلح وقد نزلنا عند الظهر والله اعلم وهو بندر عظيم كثير الأرزاق ثم أن أسواقه تامة وفيها ما لا يحصى من أنواع النبات والأطعمة المختلفة والملابس المزخرفة والطبائخ المنوعة وعلف الدواب كثير وفيه مرسى قوية النفع وأن هذا البندر أعظم بنادر الدرب نفعنا وأسرعها لقضاء الحاجة

---

(١) كذا في ثلاث نسخ وفي واحدة لا يلم وعلى كل حال ففي الشطر خلل من جهة الوزن ولعل الرواية ولم يطرب بدل ولم يتحرك.

(٢) في نسخة لنا.

فلا تعلم نفس ما يوجد فيه من منافع الخاصة والعامة فلا حرج إلا في قلة الفلوس وضعف اليقين وعدم الصدق في التوجه مع الحق ومع الخلق فالذي زلزلت أرضه بالبهتان والكذب والخيانة وعدم الحياء من الله ومن الناس قل أن تصحبه السلامة في دينه ودنياه نعم هذا البندر فيه آبار كثيرة ومياه عظيمة مفترقة وفيه نخل كثير وبساتين متعددة وكذا زروع لا تحصى وهو حصن قوي عامر بالعسكر وبالبيوت الكثيرة والديار المتعددة.

حاصله قد سكن فيه من شاء[1] بنية الإقامة وإن الحاج يضع فيه أمتعته إلى الرجوع من الحج يتزودون به إلى مصر وقد وضع أصحابنا ما فضل عنهم من الزاد وما لا يحتاجون إليه من الأمتعة وكل ذلك بأجرة ثم أقمنا فيه ما كتب في أكمل حال وأتمه وما معنا إلا البركة والحمد لله على ذلك وقد ظهر فضل الله علينا وعلى أصحابنا وتمت عندنا النعمة فلله الحمد لله والمنة نعم انفصلنا عنه في عافية فسرنا على شاطئ البحر ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى آبار السلطان وهو محل عظيم ينشرح فيه الصدر وتلتذ به الأعين وتنبسط إليه النفس فلا ترى أحدا إلا اطمأن قلبه به غير أنه كثير السراق من متلصصي الأعراب فينبغي للإنسان أن يحتاط فيه بمزيد الحذر غاية جهده وهذا المحل كان لا ماء فيه وإنما حفر آباره الأمير إبراهيم إذ هو الذي تسبب فيه وكمل ذلك أخوه بوصية أخيه المذكور كما تقدم في كلام شيخنا المذكور ويسمى هذا الموضع دار أم السلطان وماؤه عذب سخن سريع الانفصال كما سبق ثم ظعنا منه سائرين ومررنا بالمضيق الموسوم[2] بشق العجوز وسرنا عن يميننا وعن يسارنا جبال سلمى وكفافة ومررنا بقبر الشيخ مرزوق المتبرك به دائما وعليه أعواد دليل عليه فيزوره من يعرفه ثم كذلك فنزلنا ببندر الأزلم بين الظهر والعصر وفيه ثلاث

---

(١) في أربع نسخ قد ساكن فيه ما شابه أن يكون مدينة.

(٢) في نسختين المرسوم.

آبار كبار محكمة البناء وماؤها غزير إلا أنه مر يصلح للإبل فقط ولضرورية الناس من غسل ونحوه ولا يسيغه إلا المضطرون وبتنا في ذلك المحل في أكمل حال ثم ظعنا منه وسرنا بين جبلين في مضائق وعقبات صغار إلى أن وصلنا إسطبل عنتر قرب العصر وفيه ثلاث آبار وماؤها حلو إلا أنها قليلة الماء يستقيه الناس للشرب غير أنه لا يكفيهم فلا تكاد الإبل تطمع فيه ثم ظعنا منه ومررنا بوادي الأراك وهو واد واسع كثير الأراك الأخضر الناعم وبعده مضائق بين جبال صعودا إلى أن وصلنا بندر الوجه عند العصر والله أعلم وفيه حصن حصين في خرف واد كبير بين جبلين كبيرين والناس نازلون أطرافه إذا كان ليس الوقت وقت سيول وإلا ارتفعوا عنه وفيه آبار والتي فوق البندر أحسن من التي تحته وفيه داخل البندر بئر ماؤها عذب طيب [وفي أعلى الوادي ماء بين جبلين يسمى الزعفران إلا أنه قليل الماء كما تقدم عن شيخنا وماؤه طيب](١) غاية ثم ارتحلنا من الوجه صبيحة ونزلنا الأكره بين المغرب والعشاء على حرف الآبار فسقى الناس إبلهم ودوابهم ثم إن ماءه لا يكاد أحد يسيغه لحرافته مرارته إلا بعض الآبار فأني قد وجدت فيه ماء يكاد أن يكون عذبا من جهة المشرق وهو بئر قريب من الغيضة في وسط الوادي.

وقد حكى لنا بعض الناس من الركب انه وجد بئرا ماؤها عذب طيب وذلك يستغرب في هذا الموضع وهذا المنزل أشد منازل الدرب وأصعبها مرارته ماله وكثرة حره وسخونة ريحه فيشتد ذلك على الحجاج حتى يهلك كثير منه بالعطش وأن ماءه خبيث أخبث شيء في هذه المراحل فترك ماله متعين لأنه مضر فلله الحمد على سلامتنا منه.

ثم ارتحلنا إلى أن وصلنا إلى الدركين قرب العصر وهو منزل الحاج المصري

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

وسمي بذلك بئر درك أعراب مصر وأعراب الحجاز فان ما بعده من أعمال الحجاز إذ تتغير بعد ذلك البلدان ويتضح أمر الحجاز وتباين الجبال ما بعدها لما قبلها ويشتد شبهها لجبال مكة لسوادها.

وفي هذا المحل غياض من شجر الطلح وهي من أنواع الكلأ الذي ترعاه الإبل كثيرا إلا أنه لا تترك للرعي لأن المحل مخوف تغير فيه الأعراب إلخ ما ذكرناه آنفا.

ثم ظعنا منه إلى أن نزلنا الحوراء عند العصر وتفرق الناس في مياهها وهي حفائر على ساحل البحر يحيط بها ديس كثير وفيها ملوحة قوية وقريب العهد بالحفر أجود من غيره وهو مكثر للإسهال لا سيما مع الإكثار منه وهو مفرط في علة البطن كماء الاكر والأزلم وعجرود ومن أمثال الحجاج لا رجال إلا رجال الحوراء ولا جمال إلا جمال الدورة أي الرجعة من مكة وفيه الآن آبار قد حدثت أحدثها بعض الناس وهي بعيدة عن ساحل البحر وماؤها أطيب من القديمة وأجود وعليها ينزل المصري في عصرنا هذا وكذا سائر الأركاب وقد علمنا عذوبة مائها أن لم يطل جدا وإلا خبث كالقديم.

ثم ظعنا منه آخر الليل فصلينا الصبح مع جماعة الفضلاء في الوادي المضيق ثم سرنا في تلك المضائق إلى الوادي المسمى الآن بوادي العقيق بل تسميته بوادي العقوق أولى لتلصص أعرابه وجرأتهم على الناس بالسرقة ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى النبط بين الظهر والعصر فيه آبار أربع محكمة البناء بالحجر والصخر وماؤها عذب حلو طيب غزير لا ينقطع مدده.

وفي هذا المنزل تنشرح النفس وتمرح فيه لطيب مائه وحلاوة مكانه وطلاوة منظره وقربه من الأماكن الشريفة والمآثر كالينبع ونحوه ثم ارتحلنا منه أيضا ليلا أي

آخره ثم سرنا كذلك إلى أن دخلنا وادي النار وهذا الوادي قد وافق فيه الاسم المسمى إذ لا يخلو من شدة تقع للحاج فيه من عطش وموت ومرض وهو واد كبير قد انطبق عليه الجبلان من النبط إلى الخضيرة فلا ينفذ فيه الهواء غالبا لأن الهواء إذا تحرك بالرياح انطبق عليه الجبلان فينعكس الريح إلى ما وراءه وتحدث الحرارة والسموم في الهواء فينشأ الهلاك منه ولا ماء هناك من النبط إلى الينبع فإذا قبح الهواء مع الحرارة مات من الناس ألوف مؤلفة في أسرع مدة فيأخذ الرجل الماء فلا يضعه من يده حتى يموت وقد صار ذلك في رجوعنا.

نعم اشتد بنا العطش أنا وجماعة من الفضلاء كثيرا قرب وصولنا إلى النبط وإذا بأعرابي أتانا بقربة ماء عذب وأظنه من ماء المطر بارد كأنه من ماء الثلج وسقى جميعنا لوجه الله العظيم ولو طلب الدراهم لأخذ منها كثيرا لقرب الموت والهلاك منا فاستغربنا حال الرجل وما صدر منه إلينا من غير طلب شيء ولو دعوة خير إذ عادة الأعراب لا يعطون شربة الماء إلا بفلوس كثيرة لا سيما عند العطش ونحن والحمد لله قد وقع بنا فضل عظيم وجود كريم.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا الخضيرة أوان العصر وهذا المنزل لا ماء فيه أصلا وبتنا فيه على أحسن حال وأتمه وارتحلنا منه آخر الليل ثم كذلك إلى أن صلينا الصبح وقطعنا الأمكنة المسماة بسبع وعرات فخرجنا إلى متسع من الأرض وبلغنا إلى ينبع النخل بين الظهر والعصر في حر شديد ووجدنا المصري نازلا هناك فنزلنا حذاءه الفلالي والجزائري والفزاني فلما خيمنا البيوت تفرقت الناس على المياه وشراء علف الدواب وما يحتاجونه من الزاد إذ سوقه عظيم ونخله كريم واستبشر الناس بوصولهم إلى هذا المحل لأنه أول بلاد الحجاز بالعمارة وفيها قرى كثيرة ومزارع ونخل وعيون جارية وهو انتهاء موضع وصله صلى الله عليه وسلم وفيه أخبار

المدينة ومكة وغيرهما والحاج إذا وصل هناك كأنه وصل إلى مكة.

وهذا المحل تزهي فيه النفوس وهو روضة من رياض الله تعالى تصلح للمنقطعين وللغرباء والمساكين وهي باب من أبواب الله تعالى يتيسر فيها الذهاب إلى المشرق والمغرب لأنها مرسى وفيها أسواق كثيرة فلا تكاد تنعدم فيها الخيرات، وتقضي فيها جميع الحاجات، وفيها غالب الحبوب والثمرات، وكذا الجزيز أعني الدلاع وجميع الأقوات، والمشتهات فأقمنا فيها ما شاء الله ثم ارتحلنا منه مع المصري قرب الزوال إلى قرب الاصفرار فنزل الركب المغربي ومعه أهلنا وأنا قد وقع لي غيظ من أجل ظلم الحجاج بعضهم بعضا فأقسمت بالله أني لا أبيت معهم فسرت مع الركب المصري راكبا على بغلتي مع بعض أصحابنا وهو الحاج يوسف إلى أن شرفنا على بدر بعد صلاة الصبح وعند طلوع الشمس هبطنا بين الكديتين من الرمل ثم مر بنا على الحجارة المجتمعة التي يظنونها اليوم أنها قبور الشهداء وليست هي وإنما قبور الشهداء ناحية القرية فوق منزل الركب وقد زرناها والحمد لله فلما نزل الركب المصري ذهبت أنا وصاحبي الحاج يوسف الشيباني إلى قرب القرية لنستظل بظل جدار المدشر فجلسنا هناك ننتظر الركب المغربي إلى أن وصل ونزل أهل الركب المصري قرب الجبل وبينما أنا كذلك وإذا بأخينا في الله سيدي محمد المحفوظي قد رآني عند السقائف التي تشرب فيها القهوة فأخذ بيدي وذهب بي إلى شيالة المصري ودخلت خيمته ففرح بي فرحا شديدا فقام فجعل لنا الغداء وتكرم علينا غاية وأخذت في القيلولة عندهم وكل ذلك أنا والحاج يوسف المذكور إلى أن صلينا الظهر وزال حر النهر فذهبنا إلى أصحابنا وأهلنا فنزلنا ذلك اليوم وأقمنا الذي بعده وزرنا فيه قبور الشهداء ضحى فاجتهدنا في الدعاء عندها إلى أن حصل لنا وجد عظيم تكاد النفس تزهق من شدة ما تجلى لها من الأنوار التي هي حاصلة منه صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه الذين قاتلوا هناك رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقد قيل أن صوت الطبل الذي وقع به النصر للنبي صلى الله عليه وسلم يضرب هنا ويسمعه من خصه الله بتلك المزية العظمى وقد سمعته في الحجة الأولى وفي الثانية وهذه على شك إلا أن بعضهم يقول هو حوافر الدواب تضرب بأرجلها فتسمع كالطبل وقال بعضهم الريح تهب وتلتقي مع بعض الأجرام الخاوية فيردها حائط الجرم فيسمع صوتها كالطبل وهذا من التأويل المرجوح استبعادا لأن يبقى صوت الطبل إلا الآن إعجازا لقدة الإله بل ذلك سائغ وواقع غير مستبعد وهو من معجزاته صلى الله عليه وسلم الباقية إلى الآن غير أن بعض الأكابر الثقات اعترفوا بها وصدقوا بذلك يقينا وبعضهم يقول إنما هو تخيل بعضهم ينكر أصله ويقول بنفيه بل الحق الذي اجتمع عليه أهل الخير قاطبة وأنه واقع قد سمعه خاصة كل ركب بل كاد أن يكون أجماعيا.

نعم قد سمعت ممن يوثق به أنه سمعه الناس في غير أبان الحج فلم يبق إلا تسليمه أو التصديق به.

نعم الذي يحتاط بنفي ذلك عن نفسه لا أنه يقول لا أصل له أو يؤول أن طبل الناس من المصري يتأخر في الطريق فيسمع صوته فيظن الناس أنه طبل القدرة ولو كان الأمر كذلك ما وجد صوته إلا يوم دخول الركب البندر وقد سمعناه يوم الإقامة بعده.

نعم الصوت شاهدناه في ذلك المحل قطعا كما شاهدنا الأنوار تبرق جهة المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وإن قال بعضهم أنها أبراق تلمع لأن الحجاز تكثر فيها الرعود والإبراق غير أنه وإن احتمل ذلك فالحق أن البرق والنور متباينان فلا يلتبس أحدهما بالآخر أصلا وفوق كل ذي علم عليم.

وبدر هذه قرية عظيمة حلوة طيبة روضة من رياض البلدان من رآها يتمتع بنظرها ويشاهد فيها أنوار الجلال، ولوائح الجمال، كأنه صلى الله عليه وسلم مستقر فيها لم يغب فصورته صلى الله عليه وسلم وصور أصحابه هناك تشاهد لدى المحبين فتنبسط النفس هنالك أتم انبساط فهي تمرح في تلك الرياض، وتتردد في تلك الحياض، فما زالت قائمة على أصول التجليات، والمشاهدات، لآثار النبوءة فتجد العارف بالله منشرح الصدر، مستنير السريرة، منور البصيرة، عالي الهمة، قوي المحبة، تعلوه أنوار، وتنفتح له أسرار، وتنكشف له أمور فينسى كل قريب له، ومحب لديه، بما شاهد فكأنه عروس فبدر من أعياد العارفين، ومواسم المقربين، في ضيافة حبيبه صلى الله عليه وسلم ونزول في مقعد صدق عند مليك مقتدر يطمئن قلبه بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكيف لا وهو محل النصر من الله وأن ملائكته قد قابلت أعداء الله هنالك فلا تعلم نفس ما حصل لمحبيه صلى الله عليه وسلم.

وأن هذه القرية قد توطنها الأشراف ونزلوا بها من قديم الزمان وفيها أهل السنة وكذا الزيدية(١) أعني الخوارج الظاهرية وهم في الاعتقاد قدرية وفيها نخل كثير وبساتين وماؤها طيب حلو عذب وفيه أيضا بركة تكفي الأمصار العظيمة فضلا عن الأركاب وهي مستمدة من عين هناك وفي بدر توقد النيران الكثيرة والنزهة القوية وهي أزيد من كل بندر بشيء كثير ثم انفصلنا عن هذا المحل على خير وعافية ومنة وفضل عظيم بعد انفصال المصري عند الظهر ومررنا بواد ثم كذلك إلى وقت العصر فصلينا العصر بعد خروج ذلك الوادي فسرنا في أرض متسعة واسعة سهلة طيبة غير أن الهواء تقوى علينا ثم كذلك إلى بعد العشاء فنزلنا والبعض خيم

---

(١) في ثلاث نسخ الزيود.

البيوت والبعض إلى أن طلع الفجر وتنفس الصبح ارتحلنا في فرح وسرور ونشاط كبير فرحا بقرب الوصول والوصال، إلى الأماكن الشريفة وحضرة الاتصال.

نعم تقوى علينا شذاء القرب من الرب الكريم فتشنفت الأحوال والنعوت، فربحت تجارة الحاج بمجاورة اللهوت، ثم كذلك إلى أن وصلنا قاع البزوة وهي محل نزول الركب عند الزوال فوجدنا المصري إذًا راحلا وقد أدركنا آخره فلم ينزل ركبنا هناك بل جاوزنا سائرين آخر المصري ذاهبين معه إلى وقت المغرب فنزلا وبتنا والحمد لله في عافية وسرور بقربنا مكان الإحرام والمصري سائر على حاله إلى قرب طلوع الفجر فارتحلنا منه آخر الليل ثم كذلك مجدين السير إلى منزل يقال له مستورة وهي بلدة طيبة ووصفها كما ذكره شيخنا سيدي أحمد بن ناصر.

ثم ارتحلنا منها أيضا فجد بنا السير ليلا وسرنا في الليل إلى وقت الضحى فقربنا منزل رابغ نعم دخلنا وادي رابغ من جهة المغرب عند قوة حر النهار قرب الزوال [فدخلنا رابغ ووجدنا المصري قد خيم فيه ونزلنا فوقه قبل الزوال][1] وبعض الركب يستظل بالنخل والبعض بالبيوت إلى أن حان وقت الظهر فصلينا الظهر ثم أقمنا نستعد لأحوال الإحرام، وكثير من الركب لا يعرف أحكام الإحرام، فصار جميعنا معشر الطلبة نعلمهم فرائض الإحرام، وسننه وشرائطه وموانعه والناس كلهم ذكور وإناث في غسل واغتسال، وغسل ثياب وموانع الإحرام في انتقال، حتى قرب وقت العصر فآن إحرام الكل فشمرنا عن ساعد الجد، ليتأهب جميعنا لما فيه الكمال بالكد، ورمينا ما كنا بصدده من مجاورة الضد، ونبذنا ما كنا عليه من مجاوزة الحد، بل طوينا مسافة الإعراض، ومتابعة الدنيا وما فيها من الأغراض، وسعينا لما فيه رضاه، وفعلنا ما أمرنا به وارتضاه، وأزلنا ثياب الحياة، ولبسنا ثياب الممات،

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

وحنطناها كالكفن، وأيقظنا العيون والجفن، وقصدنا بالإحرام الانسلاخ، من طبائع الاجباح التي هي كالسباخ، فوجهنا النفوس لعلام الغيوب، وما مسنا في ذلك من لغوب، ولبسنا الأزرار والردا، وتركنا ما طغى منا واعتدى، وأزلنا أيضا المخيط والمحيط، ليتسع الوارد علينا وينبسط، ويتحلى كلنا بالرضى وما به الإنسان يغتبط، فالحج قصد للمولى، وارتباط وترق لمراتب العلى، بعد غسل القلب من الأدران، ويطلب حينئذ المحرم غاية الغفران، ويتهيأ للوصول إلى ما به الامتنان، سمعا وطاعة لما فيه رضى الرحمان، فصلى المحرم ركعتين، على نوعي الكونين، فبالتكبير لم يبق فيه قلبه أحد الثقلين، فلما استوي قائما في حضرته، قال لبيك اللهم لبيك وسعديك في فضله ورحمته، فقال له الرب جل جلاله تفضل عليك الإله بمنته، ثم تجلى بما هو أعلى فتدلى له ربه وهو في منصته، فكان أقرب إليه، من ريقه في فيه، قربا من سطوته، فصار محرما بإحرام البشر، وهو في الحقيقة غيب نفسه عما لا يعتبر، وعن الأكوان بمشاهدة المكون ولكُنْهِ الذات يحتمر، فأناخ نفسه ليحمل عليها أعباء التكليف، ويشد عليها أحمال الحقيقة مع الهودج من التعريف، فجمع بين الذكر والتذكر، والسعي والتفكر، والمعرفة والشكر، متوجها لبيت الله الحرام، بالشوق والعشق وقوة الغرام، فركب مركوب العز والتقوى، ونال من الله الفوز والقرب والغاية القصوى، حينئذ قد زالت بشريته، وانبسطت عليه روحانيته، فإذا نطق نطق به، فيه يسمع ويبصر به، هذا هو الإحرام على التحقيق، وصاحبه معزول عن التعويق.

نعم هذا صاحب الإصابة والسعد والتوفيق وهذا رابغ، مشتهر وسائغ، وروضة العز والدنو والقرب، وفيه المشاهدة والمجاهدة والحرب، والإغاثة من كل شدة وكرب.

هذا وانه قرية عظيمة كثيرة المزارع والمقاثي والنخل والمياه وسوقها عظيمة

وفيها النعال الكثيرة مستعدة للبيع قبل أوانه، مدخرة لزمانه، غير أنها غالة الأثمان، وبعد امتثال الناس أوامر الرحمان، انفصلنا في غاية المنة والفضل والشكر لله تعالى لما وصلنا إلى ميقات الإحرام فلم يعقنا عائق، ولا أرهقنا شيء مانع غير لائق، فانفصل الكل بالتلبية والإحرام، مع الخضوع والخشوع والدعاء لجميع الأنام، بالتقشف والتذلل للرب الكريم شعثا غبرا منكثين الرءوس، فرارا من غضب الله والمقت والباس والبوس، يطلب جميعنا رحمة المنان، والمغفرة والعفو من الرحمان، قد أصابنا شدة الحر، حتى انسلخ الجلد عن الرأس والظهر، فما أرعوى أحد بذلك، ولا رجع وانزجر بها هنالك، لعل الله أن ينظر إلينا بعين الرحمة، ويغمس جميعنا في بحر النعمة، حشاه من كريم أن لا يمن على وفده بجنة الرضوان بذهابه وعوده ووقت انفصالنا عنه بعد صلاة العصر بمدة بل قبل الاصفرار سائرين فصلينا المغرب ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء كذلك ساعة طويلة نزلنا فبتنا خير مبيت وأقمنا ليلا فارتحلنا في مدة من الليل ننتظر الصبح إلى أن صليناه ثم كذلك وكان ذلك اليوم يوم حر شديد بحيث لا يقدر الإنسان أن يقف للشمس حتى أصاب الحر كثيرا من الناس فحملهم ذلك على أن غطوا رؤوسهم لأن الدين يسير ولن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه والله تعالى يقول: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ إلا جماعة الأفاضل فلم يغط أحد رأسه وهو الفاضل سيدي احمد الطيب ومثله سيدي أحمد بن حمود وسيد محمد الشريف الطرابلسي والفقيه سيدي أحمد عياض وسيدي محمد بن خشوش[1] رحمه الله وأصحاب الجميع كالأشراف منا وكذا أهل وطننا فلو غطينا رءوسنا ما بقي أحد إلا غطى رأسه وأما أمير الركب فقد غطى رآه وكذا جميع من كان معه من كبار الركب وبالجملة فلما اشتد الحر علينا غطى جل الناس رؤوسهم لقيام العذر بل كاد أن يكون ما فعلناه من عدم التغطية أن يكون منهيا عنه نعم ثم سرنا كذلك في تلك

---

(١) كذا في نسخة وفي أخرى بخشوش وفي نسختين بوخشوش.

الرمال أول النهار غير أن فيها حرا عظيما من طلوع الشمس إلى غروبها إلى أن نزلنا قديد وهي قرية غالب أبنيتها حيشان وقهاوي وفواكه تباع ولا ماء فيها إلا ما يسقى من بعيد نزلنا عند الظهر وما خرجنا من تلك الرمال القوية الواسعة التي تتيه فيه الأركاب بعض الأحيان إلا بمشقة عظيمة.

وقد بتنا في قديد ثم ارتحلنا منه آخر الليل سائرين إلى طلوع الفجر فصلينا الصبح في جماعة ثم ركبنا وسرنا كذلك إلى عقبة السكر فصعدناها وهي صعبة على الجمال والرجال لا سيما من صعدها في زمان الحر غير أن من علم قرب الوصول إلى مكة المشرفة هان عليه أمر ذلك وسهل عليه تحالها وأشرفنا على الكدية التي بها البناء المعلوم وفيها أبنية كثيرة نعم من وصل هناك شم رائحة الجوار واستراح من التعب بل الإنسان يغيب عن حسه إذا وصل إلى ذلك الموضع ويتقوى عليه شذاء تلك الأماكن العالية والمواضع الطيبة فلا تجد أحدا إلا انبسط وجهه وانشرح صدره وتمكن قلبه واطمأن بالله صدره وطابت بذلك نفسه ويتجلى البيت انخشع[1] قلبه وتتزاحم الأركاب وتتلاحم حتى لا ينعطف بعضهم على بعض رحم الله الجميع بمنه وكرمه.

وقد زرنا ذلك المحل وقد قيل فيه مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم ولما هبطنا تلك العقبة سرنا في طريق ذات أحجار كثيرة وأوعار صعبة بينها وبين خليص ثلاثة أميال فسرنا غير بعيد إلى أن دخلنا على خليص وفيه عين جارية قوية ساقيتها مبنية محكمة البناء لا تجد أعظم منها بناء وفيها بركة عظيمة عميقة يعطب فيها من لا يحسن السباح لعظمها ومنها تجري ساقية إلى أرض الحراثة وفيها مزارع ومقاثي وبساتين وأكثرها الدخن وفيها قرية حلوة طيبة لا يكاد الإنسان يحزن فيها بل داخلها منبسط

---

(١) كذا في نسخة وفي ثلاث نسخ ويتجلى البيت انخشع وفي أخرى يخشع.

على الدوام إذ يغلب آثاره صلى الله عليه وسلم فيها ويتقوى شهوده بتحقيق النظر فيها ما أعذبها من قرية وما أحلاها من منزلة وأسعده من موضع كأنه صلى الله عليه وسلم خيم هناك فترى الأنوار ساطعة واللوائح مشرقة، ولوامع النبوءة منبلجة، وسر الكائنات صلى الله عليه وسلم يلاقينا بالرحب والتكرمة والتحية الطيبة والأوصاف السنية صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم فقد زال الحجاب عن الخاصة من خلقه فشاهده محسوسا طالعا في فلك الأقبال، وأزهى نوره في عوالم الوصال، تغدر الحجاج خماصا وتورخ بطانا بالتمتع بالنعيم الشريف، الذي لا يكيف، فلا يدرك إلا بذوق مثله وفي خليص تتنعم النفس برؤية من الكمال التام والشفاعة الكبرى صلى الله عليه وسلم وحينئذ ترى الوجوه تتلألأ نورا إذا هب عليها نسيم الوصل فيتعطر شذاه قرب المنزل فتكون النفس شائقة خافقة فيردها قفص البدن فيحصها اللطيف القوي فيحتئذ تنظر الوعد الرباني، والفتح الصمداني، ساعتئذ أن لم يصبها وابل فطل.

وقد نزلنا خليص عند الضحى الأعلى إلى وقت الظهر فصلينا فيه جماعة وبين الظهر والعصر انفصلنا من خليص وارتحلنا منه إلى أن حان وقت العصر فصلينا جماعة ثم كذلك إلى قرب المغرب أشرفنا على العقبة التي يصعد منها إلى الثنية التي يهبط منها إلى عسفان عند المغرب والطريق فيها مبنية ملتقطا أحجارها كعقبة السكر إلا أن هذه أطول منها وأسهل وبأحد جانبيها مسجد.

فلما خرجنا العقبة وصلنا عسفان ومررنا كذلك عند العشاء سائرين غاية الناس أن بعضهم شرب من ماء عسفان تبركا بآثاره صلى الله عليه وسلم إذ قد قيل أن ماء بئرها كان مرا فتفل فيه صلى الله عليه وسلم فصار حلوا طيبا وماؤها عذب كماء خليص وان كان سخنا وهذه البئر التي تفل فيها صلى الله عليه وسلم سمعنا بها قبل

وليس ذلك من ألسنة العوام فقط كما قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر بل سمعناه من أهل العلم بل من كتب التاريخ نقلناه وفي خليص مسجد ولا أدري أنه للنبي صلى الله عليه وسلم أو لا وسرنا ليلا وقطعنا تلك المفاوز بل لم انفصلنا عن خليص في ليلة مقمرة بعد صلاة العشاء بأمد سمعنا النساء يصرخن ولهن صوت التولول كان عروسا تزف لزوجها وصوت البنادق والبارود وغير ذلك من أصوات الناس [التي تدل على الفرح فلما سألنا عن السبب قالوا نوره صلى الله عليه وسلم هو الذي يلوح ويلمع](1) فلما نظرنا أبصرنا نورا يلمع ويلوح جهة اليسار نحو المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام يلمع كالبرق وهو يخفض غير انه ليس كالبرق لأن له لونا يخالف سائر الألوان كأنه حديث عهد من ربنا طري»(2) النزول، ليتم سرور الحاج ويستبشر بالقبول، ويترقب كرامة النزول، فلا أقل أنه من كرامة الحاج وان احتمل أن يكون من البرق لكثرة رعود أرض الحجاز نعم الرعد بين وعلامته ظاهرة وآثاره سحاب وتغير في الهواء بالتحرك وان لم يكن معه مطر.

وأما ما وقع هذه الليلة فلا رعد ولا ريح ولا حركة ولا تغير في الهواء بل ولا سحاب أصلا ولا غيم بل السماء صاحية وليس فيها شيء من السحاب أصلا وإنما هو النور الذي تواتر نقله عن الحجاج قديما وحديثا لا مجال لجحوده فهو من فضل الله الذي يجب الإقرار به إذ ليس خاصا بأحد حتى يقع للإنسان فيه شك أو طروق احتمال خوفا من الاستدراج أو تمكن به النفس الأمارة وقد اتفقت كلمة الناس من القرون الماضية والعلماء السالفة والصلحاء الخالية والأولياء السابقة والعامة والخاصة أنهم يرونه وأنهم يعرفون حال البرق فلم يحصل لهم شك أنه ليس هو بل أطبقوا على أنه نوره صلى الله عليه وسلم فمن طرّق الاحتمال فيه فقد طرق الاحتمال

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة طوري.

فيما لا يخفى انه نور لأن البرق لا يلازم جهة المدينة المشرفة وإنما يختلف بحسب الجهات وهذا لا يرى إلا من جهة طيبة كما شاهدنا في غير هذه الحجة وهذا معلوم عند الحاج سابقا ولاحقا فلا يخفى أمره والله اعلم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده ثم أعلم لما سرنا كذلك إلى مغيب القمر نزلنا وبتنا مفترقين وأننا تهنا أعني الركب شيئا قليلا عن الطريق غير أننا سبقنا أول الركب فلما قرب طلوع الفجر أرتحلنا وسرنا إلى أن صلينا الصبح في جماعة فقطعنا المفاوز وبعد الضحى الأعلى دخلنا الشجر القريب من الجبل المشرف على وادي فاطمة يسمى جبل العميان الذي يجتمع فيه الفقراء لقاصد الإحسان نزلنا بالوادي وهو نهاية سير البوادي عند الزوال بل قبله بقليل نعم الحر في ذلك النهار قوي عظيم كأن النار اضطرمت في الأرض واشتعلت فيها بحيث لا يستطيع أحد أن يصل إلى الماء وإلى السوق فلما تحرك نسيم الرواح، [واستبشرت الناس بالأرواح، أذهب علينا ريح التلاقي بالغدو والرواح][1]، لم يبق لنا نص ولا تعب لما ذاقته الأرواح، من لطائف الوصل بالمحبوب، وقرب مشاهدة جوار[2] علام الغيوب، لا خير في أوقات الحياة سوى وقت رؤية آثار المحبوب، فتزاحمت الواردات الإلهية على القلوب، فزال السدد عن أقفالها من غطاء الحُجُب، فلا يسمع المحب حسيسن اعتراض النفس، وفي ذلك الوادي ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين لا سيما فتوحات الجبار، ترد هناك على الإنسان من غير اختيار، فليس على مثله للإنسان اصبطار، أن رحمة الله قريب من المحسنين بلا افتخار، وفي هذا الوادي مياه كثيرة، وعيون جارية، وبساتين مشهورة، ومزارع قوية وفواكه مختلفة، نعم بقينا هناك إلى أن حان وقت العصر فصليناه جماعة ثم تأهبنا للرحيل فلما حان وقت العشاء ارتحلنا من الوادي بفرح وسرور بالوصول

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة بيت.

إلى بيت الله الحرام، وكل ما أصابنا من تعب ونصب كطيف المنام، فلما حصل المطلوب، وبلغنا غاية المأمول والمرغوب، استبشرنا برسوم الحرم وزوال الكروب، بفضل الله قرب النائي والصعب، إذ لولا ذلك ما تيسر بالكد والحرب.

ثم سرنا كذلك بنية الخشوع[(١)] والإنابة، والخشية والخضوع والمهابة، إلى طلوع الفجر وصلينا الصبح جماعة ثم ركبنا وسرنا إلى أن وصلنا قبر السيدة ميمونة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وقد تزوجها في هذا الوادي كما سبق فزرناه بنية خالصة من غير دخول للروضة إذ أدب من يزور نساءه صلى الله عليه وسلم لا يدخل محل البناء بل يزورهن من خارج كأنهن حال حياتهن رضي الله عنهن وعلى قبرها بناء ومسجد فعظمناها من خارج وفي ذلك مصلى للنبي صلى الله عليه وسلم فمن وفق يركع فيه.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى التنعيم صبيحة قبل الشروق وفيه مسجد لعائشة رضي الله عنها كما سبق ذكره وفي ذلك المكان يحرم الناس بالعمرة في المواسم وغيرها ثم سمي هذا المكان [باسم ما يقع فيه توسعا ومجازا[(٢)] وهو أدنى الحل فيطلق عليه اسم العمرة لأن المحرم بالحج أو العمرة لابد أن يحرم من الحل وأدنى الحل هذا المكان][(٣)] ثم سرنا فوصلنا إلى الزاهر وقد قيل انه ذو طوى فيغتسل فيه استجابا داخل مكة والحق إن ذا طوى هو القريب لمكة وليس بينه وبين مكة واد آخر وهو الوادي الذي وراء قعيقعان وبأسفله الموضع المسمى بالشبكة حيث الثنية السفلى الذي يخرج منه الحاج فأعلى الوادي هو ذو طوى فزرنا التنعيم ثم سرنا إلى أن وصلنا

---

(١) في ثلاث نسخ بإسقاط بنية الخشوع وفي واحدة كذلك بالإنابة.

(٢) في ثلاث نسخ تمجزا.

(٣) مابين القوسين ساقط في نسخة.

ذا طوى وقت الضحى فقرّت⁽¹⁾ الناس على الاغتسال من غير نزول فخيم بعض الناس الخيام للستر في الغسل فخيمنا خيمة لا فاغتسلنا نحن والأصحاب غسلا من غير ذلك خشية قتل بعض الدواب حسبما هو غسل المحرم فلما اغتسلنا ركعنا ركعتين للضحى ووظيفة الطهارة لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني ومن أحدث وتوضأ ولم يركع فقد جفاني ومن أحدث وتوضأ وركع ولم يدع فقد جفاني ومن أحدث وتوضأ وركع ودعا ولم أجبه فقد جفيته وأنا لست برب جاف فرك كل منا ركعتين من وظائف الوضوء ومنهم من صلى الضحى أعني الذي يلازمها فلما حصل كل فضيلة ذي طوى قام الركب على ساق الجد والحزم لدخول مكة المشرفة فركب من ركب ومشى من مسى فاستقبلنا جبل قيقعان وصعدنا إلى الثنية قاصدين أم القرى أعني مكة ودخلنا من باب المعلى.

وهي الثنية العليا التي دخل منها صلى الله عليه وسلم سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلاة والسلام وإنماها وأعطرها وأزكى هي المسماة بكداء فتح الكاف.

وقد بالغ الولاة في حفر هذه الثنية وتنقيتها من الأحجار حتى صارت كأحد الأزقة ومع ذلك ففيها صعوبة ومنها يشرف الإنسان على مقبرة مكة المسماة بالحجون وهي إحدى المقابر التي تضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب لأهل الأرض كما ورد في الحديث عنه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) في ثلاث نسخ فتقرت.

تنسيق ورفع عبد الكافي غفر الله له
منتدى أهل الحديث

المكتبة الصوفية

الرحلة الورثيلانية

الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار

تأليف

سيدى الحسين بن محمد الورثيلاني

المجلد الثاني

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

تنسيق ورفع عبد الكافي غفر الله له
منتدى أهل الحديث

مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة
ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧
ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة
E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

المكتبة الصوفية

الرحلة الورثيلانية

الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار

تأليف

سيدى الحسين بن محمد الورثيلانى

المجلد الثانى

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
٢٥٩٢٢٦٢٠-٢٥٩٣٨٤١١ / فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

الورثيلاني، الحسين بن محمد السعيد ، 1713-1779
الرحلة الورثيلانية الموسومة بنزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار /
تأليف سيدى الحسين بن محمد الورثيلانى
- ط 1 – القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية 2006
ج2: 24 سم
تدمك :1-372-341-977
ا- التصوف الاسلامى
ب- العنوان

ديوى 260

رقم الايداع : 2007/22520

المجلّد الثّاني

دخولنا مكة المشرفة

زادها الله تشريفا وتعظيما وتكريما

فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس ترحة، وأزالت عن الجفون كل فرحة، فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب والنصب كأن النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منحه الله بل الأرواح قد تجلى عليها ربها فخرت صعقة مغشية عليها فغيبها عن الأكوان كلها بمشاهدة مكونها ومن جملة من غابت عنه هذا الغيب فلم تكترث بما أصابها من الهم والمشقة فلما هب نسيم جوار الحبيب عليها أيقظها وأشهدها رسوم مكان الوصال، ودلائل الحضرة وسواطع الانتقال، فعلمت بيت الرب، وتعلق به الجبح واللب، سدل كل حبيبت سوى هذا الحبيب وراءه، فأقام كاس الجوار وأداره[1]، وصار شذاؤها انتظاره، فهبطنا منحدرين إلى أن وصلنا قرب البيت فدخلنا المجسد من باب بني شيبة، فأفاض الله علينا من جوده كرامة وهيبة[2]، فظفرنا بالأمن والأمان والسلام من باب السلام.

ثم أقول كما قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه فشاهدنا البيت العتيق الذي تزيح أنواره كل ظلام وقد تدلت أستاره، وأشرقت أنواره، وقد شمر البرقع عن أسافله، حتى لا يكاد الطائف يناله بأنامله، يفعلون به ذلك من أول تقدم الوفود، ولا يطلقون أستاره حتى تعود.

قال الإمام أبو سالم وقد قلت في هذا المعنى، وأبديت فيه تشبيها غريب المبنى:

---

(١) في نسخة وقضى كل حبيب أوطاره وأقام كأس المحبة وأداره.

(٢) في نسختين بإسقاط كرامة وهيبة وفي أخرى من جوده وفضله وكماله.

فكأنـــــه لمـــــا بـــــدا متـــــشمرا والطـــائفون بـــه جميعـــا أحـــدقوا
ملـــك همـــام نـــاهض للقـــاء مـــن قـــد زاره ولـــه إليـــه تَـــشَوُّقُ
فتبـــادر الغلـــمان رفـــع ذيولـــه حتـــى إذا رجعـــوا أطلقـــوا

قال ومن رأى أكابر الملوك عند قيامهم، وتشمير الغلمان لفاضل الذيول عن يمينهم وشمالهم، علم غرابة هذا التشبيه وحسن موقعه، وأنه واقع في موضعه، وعلم ما بينه وبين من شبهه بهند وليلى، وانه لم يجد وصفا ولم يحسن قولا، فلما وقعت عليه أبصارنا، وافتضح ما أكنت من الشوق إليه أسرارنا، قطعنا التلبية لما رأيناه، وقلنا من الدعاء ما رويناه، وتجلت لنا الكعبة الشريفة، ورأينا جماعة الناس بها مطيفة، فيا لذلك المنظر الذي ملأ القلوب مهابة، والعيون جلالة تسكن لها الرياح الهابة، ولما تطوفنا من الجرد قبل ما تطوفنا به عقدا نظيما، رفعنا أيدينا وقلنا اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما، بعد أن بسملنا وسلمنا وصلينا وهللنا وطبنا، وللحجر الأسعد يممنا، ولم نقدم على تقبيله شيئا، ولا التحفنا من ظلال غيره فيئا، وقبلنا يمين الله في أرضه، والشاهد لمن قبله في يوم عرضه.

إلى سـيد الأحجـار في الحـرم الـذي قـضى الخـالق البـاري بتعظـيم شـأنه
حثتنا مطايـا الـشوق والـسوق في الفـلا فجـاءت بنـا إنـسان عـين زمانـه

وطفنا بالبيت سبع طوفات، للقدوم نوينا هذه الحركات، فأتممناه ولم نبال بها لنا في تقبيل الأحجار من الازدحام، والمورد العذب كثير ازدحام، وبعده أوقعنا ركعتين خلف المقام، وعدنا للبيت فوقفنا بالملتزم، وشربنا من ماء زمزم، ودعونا في ذلك كله بالأدعية المأثورة، ونظم كلماتها المنثورة، فعاودنا بالحجر بالاستلام، ناوين سنة السعي كما ورد عنه عليه الصلاة والسلام، فخرجنا لقضاء شعيرة السعي من باب الصفا، كما روي عن معدن الصفا، وبدأنا بها الله به بدا، فارتقينا على الصفا، ووقفنا،

وللكعبة الشريفة استقبلنا، فهللنا وكبرنا، فوشينا الصحف بالدعوات المأثورة إلى أن قال وسعينا بين الميلين الأخضرين سعيا رفيقا سديدا[1] انتهى.

ثم اعلم أننا خيمنا بوادي سيدي أبي طالب والمسجد الحرام وذلك الوادي تحت أبي قبيس فذهبنا كما سبق إلى المسجد فدخلنا من الباب المذكور، وقلنا الدعاء المأثور، عند رؤية الكعبة حسبما ذكره شيخنا آنفا فلما دخلنا المسجد بالذكر الوارد فيه قصدنا المطاف لطواف القدوم فبدأنا بتقبيل الحجر مع الزحمة العظيمة من الرجال والنساء فاكتفى الكثير منا بالتكبير ومعي جماعة كثيرة تكاد أن لا تحصى أطوف بهم علمتهم كيفية الطواف ومن الحجر البدء إلى السبعة الأشواط وكان البدء من الحجر الأسود غير أن من قبله أمرته بالبدء من مكان يحاذيه ولا يتم الشوط إلا من ذلك المكان الذي به البدء وكذا أمر المقبل للحجر الأسود للرجوع إليه إذ ربما رجع منه مقهقرا فينقض له الشوط حسبما يفعله الجهال فطفت بهم طوافا كاملا بشروطه وانتفاء موانعه مع الدعاء الوارد فيه أعلمهم إياه ولما رأى أهل مكة فعلي ذلك تغيروا وقالوا ألم تعلم أن أهل مكة لا ينتظرون إلا هذا الموسم فقالوا طف لنفسك واترك الناس فقلت أنا أطوف بهم وأعلمهم وانتم خذوا الأجرة منهم فلما كملنا الأشواط السبعة صلينا ركعتين خلف المقام وبعد الفراغ منهما أقمنا بالملتزم لأن الدعاء به مستجاب بعد أن شربنا من ماء زمزم وسألنا الله فيه ما شاء الله ثم مشينا للحجر قمنا من قبله. ومنا من كبر عنده لكثرة الزحمة فذهبنا للسعي في حر عظيم وأزدحام قوي فبدأنا بالصفا وصعدنا درجها إلى أن رأينا لكعبة كما هو السنة فدعونا الله بالدعاء الوارد فيها فمررنا كذلك إلى المروة ثم كذلك إلى تمام السبعة فلم نكمل السعي حتى اشتد علي الحال فظننت عدم التمام فكملته راجلا بمنة الله والفضل من السلام لأن محل

---

(١) في نسخة المأثورة وسعينا سعيا مشكورا.

السعي محل شوق عظيم وازدحام عميم.

وأقول كما قال شيخنا ما نصه ولو أيقظ الله الأمراء لمنعوا الناس من التسوق فيه أيام الموسم لكان في ذلك نفع كثير وأجر كبير فلما قضينا الوطر من العسي نزلنا بذلك الوادي ثم أننا أكترينا دارا مع أصحابنا معلومة طريقها والله أعلم من المروة غير أن أهلي ما دخلوها إلا بعد الرجوع من عرفة ونحن بتنا في ذلك الوادي أي أهلي وأصحابي وأما أنا فقد بت في الحرم والله أعلم وبعد ذلك اليوم هو يوم الذهاب فيه لمنى ثم إلى عرفة ثم إلى مزدلفة في الرجوع.

نعم حين نزلنا مبكة طفنا نهارا أي الرجال وأما أهلي النساء وكذا نساء من يحجب من الركب أي المخدرات طفن طواف القدوم ليلا فبعد ذلك اليوم عند صلاة العصر ارتحلنا إلى منى اليوم الثامن من ذي الحجة فانفصلنا عن مكة في ازدحام عظيم من كثرة الأركاب.

وفي ذلك اليوم قتل لي جملا طيبا قل نظيره سيدي محمد ابن سيدي خروف تلميذي فنزلنا بمنى قرب مسجد علي أي استندنا لحائطه من جهة اليمين بينه وبين الجبل الذي فوقه وهذا المسجد الدعاء فيه مقبول مستجاب وورد فيه فضل عظيم، وثواب جسيم، والصلاة فيه كذلك فصلينا فيه المغرب والعشاء وإن بعض الأركاب من المصري والشامي والعراقي والمغربي لم يرحل إلى نصف الليل أو الثلث الأول ثم ارتحلوا إلى عرفة فترك الكل الفضيلة وهو النزول هناك إلى شروق الشمس على ذلك الجبل فلما تحرك الكل إلى الرحلة وقع الكلام في ركبنا بالرحلة ليلا فتشاورنا على المبيت ثم مرة أخرى تحركوا ظنا منهم أن من رحل ليلا ليدرك المبيت في عرفة لأنها ليلة شكثم أن الجميع ارتحل فارتحلنا. فلما خرجنا من مزدلفة ووصلنا بينها وبين عرفة طلع الفجر أي بين العلمين فوجدنا أكثر الأركاب هناك نائمين أو الكل والله

اعلم وبطل ظننا الذي أنهم ارتحلوا ليدركوا الوقوف ليلا في عرفة فوصلنا ضحى مسجد نمرة الذي ينبغي الجمع بين الظهرين فيه بالقصر ولو لأهل مكة أي لغير أهله فنزلنا ثم كذلك إلى قرب الزوال فاغتسلنا أيضا الوقوف بين ذلك المسجد ومسجد عرفة فامتلأ المسجد ناسا وكذا مراحه واشتد فيه الحر بحيث لا يقدر أحد أن يضع رجله على الأرض عند الضحى وورد علي رجل ضرير فقيه عظيم يحفظ أكثر الشراح وهو مالكي من جزيرة العرب أعني البحرين فلما سألته عن أكثر أهلها فقال مالكيون نعم مسائل الفقه كلها أوجلها على طرف لسانه ليس يبغي إلا رضاء الله تعالى فجدير على أنه من أهل الفضل والكمال ووعدني بالملاقاة بالمسجد الحرام ثانيا فلما حان وقت الظهر صلينا في زحمة عظيمة يكاد الإنسان أن يموت من شدة الحر وأن العرق علينا يسيل فلا تجد أحدا إلا كاد أن تزهق روحه فصلينا خلف واحد من الأئمة ونوينا القصر وصلى هو بالإتمام من علم منا لما فرغ أعاد جميع أهل بلدنا وهو أننا نوينا القصر ونوى هو الإتمام فلما اختلفنا في النية بطلت صلاتنا ثم أعدناها جماعة جمعا وقصرا ثم حثثنا مطايانا للوقوف بعرفة إلخ.

فلنرجع إلى ما ذكره شيخنا ونصه والله اعلم بما نال وفد الله من الطرب والفرح، ونسيان العناء والترح، لما عاينوا تلك المشاهد، وشاهدوا تلك المراسم والمعاهد، فلا ترى إلا ضاجا بالذكر، وصارخا بالدعاء بالسر والجهر، كما قال قائلهم ولله دره:

ومـا زال وفـد الله يقـصد[1] مكـة	إلى أن بـدا البيـت العتيـق وركنـاه
فـضجت وفـود الله بالـذكر والـدعا	وكـبّرت الحجـاج حـين رأينـاه
وقـد كـادت الأرواح تزهـق فرحـة	لمـا نحـن مـن عظـم السـرور شـهدناه
تـصاحفه الأمـلاك مـن كـان راكبـا	وتعتنـق المـاشي إذا تتلقـاه

(١) في الرحلة الناصرية يطلب.

وطفنـــا بـــه سـبعا رملنـــا ثلاثـــة وأربعـــة مـــشيا كـــما قـــد وُعِـــدْناه
كـــذلك طـــاف الهاشـــمي محمـــد طـواف قـدوم مثـل مـا طـاف طفنـاه
وسـالت دمـوع مـن مـآقي[1] جفوننـا على مـا مـضى مـن أثـم ذنـب كـسبناه
ونحـــن ضـــيوف الله جئنـــا لبيتـــه نريـد القـرى نبغـي مـن الله حـسناه
ينـادي[2] بنـا أهـلا ضـيوفي تباشروا وقـروا عيونـا بـالحجيج أضـفناه
غـــدا تنظـــرون في جنـــان خلـــودكم وذاك قـــراكم مـــع نعـــيم ذخرتـــاه
فـــأي قـــرى يعلـــو قرانـــا لـــضيفنا وأي ثـــواب فـــوق مـــا قـــد أثبنـــاه
وأبـــدانكم قـــد طهـــرت مـــن ذنـــوبكم ومـــا كـــان مـــن ريـــن القلـــوب غـــسلناه
وكـــل مـــسيء قـــد أقلنـــا عثـــاره ولا وزر إلا عـــنكم قـــد وضـــعناه
ولا نـــصب إلا وعنـــدي جـــزاؤه وكـــل الـــذي انفقتمـــوه حـــسبناه
ســأعطيكم أضــعاف أضــعاف ضــعفه فطيبـــوا نفوســـا فـــضلنا قـــد أفـــضناه
رفعــت لكــم مــا لم تــر العــين مثلــه ولا علمـــت نفـــس مـــا قـــد رفعنـــاه
فيـــا مرحبـــا بالقـــادمين لبيتنـــا إليّ حججـــتم لا لبيـــت بنينـــاه
عـــلي الجـــزآ منـــي المثوبـــة والـــرضى ثـــوابكم يـــوم الجـــزآ نتـــولاه
وجـــاهي وأجـــلالي وعـــزي ورفعتـــي وجـــودي ومـــن قـــد أمّنـــا مـــا رددنـــاه
فطيبـــوا وسروا وأفرحـــوا وتبـــاشروا وتيهـــوا وهيمـــوا بابنـــا قـــد فتحنـــاه
ولا ذنـــب إلا قـــد غفرنـــاه عـــنكم ومـــا كـــان مـــن عيـــب علـــيكم سترنـــاه
فهـــذا الـــذي نلنـــاه يـــوم قـــدومنا وأول ضـــيق للـــصدور شرحنـــاه

ولما كان اليوم الثامن هو يوم التروية وزالت الشمس طفنا فخرجنا لمنى إذ الـ

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وفي جميع النسخ عموم.
(٢) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية ونادى.

الخروج وقتئذ بقدر ما يدرك به الظهر كل على قدر حاله فإن المراد بقولهم يدركون بمنى الظهر أي يدركون أواخر الوقت المختار ويكره التراخي عن ذلك إلا لعذر كما يكره التقدم قبل ذلك ومن خاف خروج وقت الظهر قبل أن يصل إلى منى صلاها في الطريق وتردد مالك في قصره وإتمامه واستحسن سند القصر.

تنبيه الطواف يوم التروية ذكره أبو الحسن قال أبو الحسن في مناسكه وإذا كان اليوم الثامن ويسمى يوم التروية طاف سبعا بعد الزوال ثم يتوجه إلى منى ملبيا والسنة أن يخرجوا بقدر ما يدركون بمنى الظهر وكذلك ذكره خليل في مناسكه ونصه ثم إذا كان اليوم الثامن ويسمى يوم التروية فإذا زالت الشمس منه طاف بالبيت سبعا ثم يخرج من مكة إلى منى ملبيا وفي مناسك ابن هلال ابن حبيب وغيره إذا مالت الشمس يوم التروية فطف بالبيت سبعا ثم أركع ثم أخرج إلى منى وكذا في مناسك ابن فرحون.

وإنما ذكرت هذا لأنا لما أردنا الخروج إلى منى وأنكر بعض أن يكون الطواف وقتئذ عن أهل المذهب ولعله اغتر بما حكاه ابن المنير والدماميني وابن حجر عن مالك من أن الحاج لا يتنفل بطواف بعد طواف القدوم حتى يتم حجه فإن ذلك غريب ذكره الحطاب[1] في مناسكه ومررنا بمسجد العقبة ودخلناه وصلينا فيه ودعونا الله تعالى وكان نزولنا بمنى شرقي مسجد الخيف قريبا من بابه الشرقي وصلينا بمسجد الخيف الظهر وكذلك العصر خارج القبة التي التواتر أنها موضع خيمة مولانا علي كرم الله وجهه.

واجتمعت هناك بالشيخ محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن مفتي الهند وهو

---

(١) في رواية الجلاب.

رجل عالم له تآليف على رجال البخاري واختصر البخاري في مجلد خدف الأسانيد والمكرر وهو ضرير كبير السن به مرض ملازم بيته ويوم النحر قدمناه من منى للإفاضة ولما رجعنا إلى منى التقينا محفة وبها رجل كبير مستلقى ولما لحق بنا الأخ الشقيق الصالح سيدي محمد الأخصاصي أخبرني أنه هو وأخبرني ولده الشيخ محمد انه شرح نخبة ابن حجر عشرين كراسة وله تأليف في الرد على الروافض وهو رجل صالح محقق فيما ذكروا وسألناه عن المسافة بيننا وبين الهند فقال أربعون يوما في البحر وأربعة أشهر أو ستة في البر وأن بلده هو السند وبينه وبين الهند ثلاثون يوما انتهى.

ولما صلينا العصر وجلسنا في مناخنا هنيئة إذ أخبرني بعض أصحابنا أن أهل تونس زعموا أنهم رأوا الهلال ليلة الثلاثين والراؤن له سبعة أحدهم من طلبة العلم وسألنا عنهم لنستخبر رؤيتهم فنكون على يقين من أمرهم فوجدناهم ذهبوا مع الذاهبين لعرفة لأن الأركاب كلها ذهبت كما هي للجبل ولم ينزل أحد بمنى سوانا وجماعتنا وهذه السنة عياذا بالله أميتت منذ أزمان.

وقد ذكر ذلك الكثير من المرتحلين كالعبدري وابن رشيد ومن بعدهما وذكروا أن الخوف يمنع من المبيت هناك بعد ذهاب الاركاب وقد من الله علينا بإحياء هذه السنة ولم تفتنا في حدة من الحجات ولله المنة والحمد ولما طرق أسماعنا ما ذكر من الخبر عن التونسيين اجتمع رأينا على الذهاب وقتئذ لعرفات فنستيقن الخبر فرحلنا وقتئذ وبلغنا نمرة وقد غاب الشفق وبتنا بإزائها فإذا بخبر الرائين خبر سجاح، ثم اضمحل مدارج الرياح، ولا هدي علينا في ذلك على ما شهر في المذهب ونقل التادلي والجزولي عن ابن العربي انه يلزمه الهدي ولم يحك غيره في سقوط الدم خلافا ومن تورع فليهد ولا حرج عليه فيه ونزل بإزائنا الشيخ عبد القادر بن أبي بكر مفتي

الحنفية وأتاني ضحى مع ولدين صغيرين له وسألته عن البناء القائم الآن بمسجد الخيف ونمرة وأخبر انه بناء قايت باي ولما زالت الشمس أفضنا علينا الماء للإحرام واغتسلنا غسلا خفيفا وتلك سنة هذا الغسل وجمعنا بين الظهرين مع أصحابنا ومن انحاز إلينا من أهل الافاق باذانين وبأقامتين وتقدمنا إلى المنوقف ووقفنا تحت الجبل الذي عليه القبة المنسوبة لآدم عليه السلام والخطيب لم نر له شخصا ولا سمعنا له صوتا وإن لم يكن بالبعد منا لكثرة الازدحام واختلاط الأصوات، مع اختلاف اللغات، وتباين الرغبات بأصوات التلبية لاشتراك الكل فيها ولا سبيل لأحد إلى تغييرها ووقفنا على إبلنا وأرحنا بغالنا اغتناما لبركة سنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ولم نزل في موضعنا ذلك واقفين مستغفرين مكبرين مهللين داعين إلى أن غربت الشمس تحققنا أنا أخذنا جزءا من الليل فإذا الإمام نفر ونفر الناس ونفرنا معهم في زحمة محفوفة بالألطاف، مصحوبة من الله بالمواهب والإتحاف، ولم نر أحدا نفر قبل ذلك في سنتنا هذه وإن كانت الجمالون والأعراب تنفر قبل ذلك في غير هذه السنة والحمد لله على ذلك فانصرفنا بين المأزمين بلا كلفة ولا تعب ولما وصلت إلى الشعب ملت إليه ففعلت كما به فعل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم سرنى آمّين المصلى بالمزدلفة فبلغناها بعد مغيب الشفق فجمعنا بين العشاءين ونزلنا فبتنا فيها فتفرق للقط الجمار هناك من أراده من الناس قلو شاهدت يا هذا تلك الحال وما عليه الناس في جبل عرفات، ووقوفهم بتلك العرصات، لَهَالَكَ ذلك المشهد الذي هال أمره، وعجز عن وصفه زيد البيان وعمره، إذ ترى الملوك في مقام الافتقار والذلة، والفقراء في محل الاضطرار والقلة، والجميع يرغبون في المغفرة من الرحمان، ويطلبون الرحمة والعفو من العفو الرحيم الحنان المنان:

جــــاؤا بأحمــــــال أوزار تـــــؤدهم ... منهــا جبـال وحــسن الظــن وطاهــا

فــــسأل لمـــا رأى الرحمـــان ذلـــتهم ... طوفـــان عفـــو وغفـــران فغطاهـــا

فكم دموع تدفقت، وكم ضلوع تحرقت، وكم نسمات هبت، وكم سحائب رحمة صبت.

فكم حامد كم ذاكر كم مسبح وكم مذنب يشكو لمولاه بلواه
وكم خاضع كم خاشع متذلل وكم سائل مُدّت إلى الله كفاه
وساوى عزيز في الوقوف ذليلنا فكم ثوب ذل في الوقوف لبسناه
ورب دعانا ناظر لخضوعنا خبير عليه بالذي قد أردناه
ولما رأى تلك الدموع التي جرت وطول خشوع مع خضوع خضعناه
تجلى علينا بالمتاب وبالرضى وباهى بنا الأملاك حين وقفناه
وقال انظروا شعثا وغبرا نراهم اغثنا أجرنا يا إلاها عبدناه
وقد هجروا أموالهم وديارهم وأولادهم والكل يرفع شكواه
إلي فأتي ربهم ومليكهم لمن يشتكي المملوك إلا لمولاه
ألا فاشهدوا أني غفرت ذنوبهم ألا فانسخوا ما كان عنهم نسخناه
فقد بدلت تلك المساوي محاسنا وذلك وعد من لدنا فعلناه
فيا صاحبي من مثلنا في مقامنا ومن ذا الذي قد نال ما نحن نلناه
على عرفات قد وقفنا بموقف به الذنب مغفور وفيه محوناه
وقد أقبل الباري علينا بوجهه وقال ابشروا فالعفو فيكم نشرناه
وعنكم سمحنا كل تابعة جرت عليكم وأما حقنا قد وهبناه
أقلناكم من كل قد جنيتم ومن كان ذا عذر إلينا عذرناه
فيا من عصى من يا أسا لو رأيتنا وأوزارنا تُرمى ويرحمنا الله
وددت بأن لو كنت حول رحابنا وترجو رحيما كلنا قد رجوناه
وقمنا إليه تائبين من الخطا وغفراننا من ربنا قد طلبناه

أمرنـــا بـــذاك الظــن والله حــسبنا عليــه وهـــذا في الحـديث نقلنــاه

عليــه اتكلنــا واطمأنـــت قلوبنـــا لمـا عنـده مـن وسـع عفـو عرفنـاه

فطـــوبى لمــن ذاك المقـــام مقامـــه ويـــشراه في يـــوم التغـــابن بـــشراه

يـــرى موقفـــا فيـــه الخـــزائن فتحـــت ووالى علينـــا الله منهـــا عطايـــاه

وصـــالح مهجـــوار وقريـــت مُبْعـــدًا فـــذاك مقـــام الـــصلح فيـــه أقمنـــاه

ودارت علينا الكأس بالوصل والـرضى سُـقينا شرابـا مثلـه مـا سُـقيناه

فإن شئت تـسقى مـا سقينا عـلى الحـيا فَخَـلِّ الـوَنَى واحلـل محـلا حللنـاه

وفيـــه بـــسطنا للـــرحيم اكفنـــا وقـــال كفيـــتم عفونـــا قـــد بـــسطناه

واعتقنـــا كـــلا واهـــدر مـــا مـــضى وقـــال لنـــا كـــل العتـــاب طوينـــاه

وإبلـــيس مغمـــوم لكثـــرة مـــا يـــرى مـــن العتـــق محقـــور ذليـــل خزينـــاه

عـــلى رأســـه يحثـــو الـــتراب مناديـــا بأعوانـــه ويـــلاه ذا اليـــوم ويـــلاه

وأظهـــر منـــه حـــسرة وندامـــة وكـــل بنـــاء قـــد بنـــاه هـــدمناه

تركنـاه يبكـي بعـد مـا كـان ضـاحكا فكـم مـذنب مـن كفـه قـد سـلبناه

وكـم مـن منـى نلنـا بيـوم وقوفنـا وكـم مـن أسـير للمعـاصي فككنـاه

وكـــم ذا رفعنـــا للإلـــه مـــسائلا ولا أحـــدا ممـــن نحـــب نـــسيناه

وخصـــصت الأبـــاء والأهـــل بالـــدعا وكـــم صـــاحب نـــودي بـــه ودعونـــاه

كـــذا فعـــل الحجـــاج هاتيـــك عـــادة ومـــا فعـــل الحجـــاج نحـــن تبعنـــاه

فظـــل حجـــيج الله لليـــل واقفـــا فقيـــل انفـــروا فالكـــل مـــنكم قبلنـــاه

فلـما سـقط قـرص الـشمس نفـروا وكشفوا عن وجوه الاستبشار واسفروا

الهنـــــــا الهنـــــــا وعـــــــدتنا منـــــــك الهنـــــــا

فـــــإن تجـــــد برحمـــــة فكـــــم مـــــضى عنـــــا العنـــــا

ولما أصبحنا بالمزدلفة، وصارت القلوب على حصول الرحمة والمغفرة مؤتلفة، غير مختلفة، وأسفر الفجر عن وجه الغرض، وأدينا من صلاة الصبح الحق المفترض، غلسنا الرحلة، ونادى منادي النقلة.

أفيضوا وأنتم حامدون إلهكم	إلى مشعر جاء الكتاب بذكراه
وسيروا إليه واذكروا الله عنده	ذكرنا كما رب العباد هداناه

ووقفنا به إلى الأسفار، وما تركنا من الدعاء وحميد الأذكار، فسرنا حتى جئنا بطن وادي محسر وهو وادي النار فأسرعنا وحركنا دوابنا وهو أول ما تحاذي البركة الخربة التي على يسارك أن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى وترتفع بك الأرض وبهذا عرفه أعلم أهل عصره بالمناسك خليل المكي المالكي حسبما نقله عنه البلوي في رحلته إذ سأله عن حده والإسراع فيه مشروع ذهابا وإيابا فمضينا كما نحن على الطريق الكبرى التي تشقّ منى إلى أن أتينا جمرة العقبة حين الطلوع بُعَيْدَه ورميناها بسبع حصيات من أسفلها مكبرين مع كل حصاة كما كنا راكبين غير راجلين كما هو السنة عن سيد الأولين والآخرين، عليه أفضل صلاة المصلين، وأزكة سلام المسلمين، فعدنا لرحالنا ومناخنا، ونحرنا هدايانا، ودعونا لحلاقنا، أخينا ووديدنا الحاج عبد القادر فحلفنا فسرنا إلى مكة فاتيناها على هيئتنا، من ثياب إحرامنا، فطفنا للإفاضة ووجدنا البيت مفتوحا والناس على ظهره يكسونه ولما قضينا فريضة الطواف، عرض لي وفي المطاف، الأخ الحاج أبو عزة المراكشي وحث علي في الدخول للبيت فامتنعت تأدبا وتعللت له بالزحمة وقال لا زحمة بداخله وهو فارغ منبسط وما ترى من الزحمة لا يتعدى بابه ولا يتجاوزه الآن وإذا بأمير الحاج المصري إبراهيم أبو شنب واقف بالباب وخاطبه قائلا أن فلانا ذا واقف بالباب يبتغي الدخول للبيت وأشار إلي وفرح بي ورحب، وهش واطرب، وتقدمت وأخذ بيدي وأطلعني من غير كلفة ولا زحمة فدخلت

البيت وعلاني من الهيبة ما الله به عالم فركعت به ركعتين لناحية الباب مواجهه غافلا عن السنة بأن اجعله خلف ظهري لما علاني من الخجل، والدهش والوجل، ودعوت بما أمكنني وحضر لي من الدعوات، معمما ومخصصا أهل المحبة والقرابات، ولم تطل مدة فتحه وإنما يفتحونه هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة وليس بيوم دخول عام وإنما يدخل القيم وأمير الحاج المصري وأتباعهما المعينين في ذلك ولا ينصب سلم للدخول وإنما يدخل من تكلف الصعود بمعين أو بخفة أعضاء وعلى الباب أحد خدام الأمير يمنع الناس من الدخول إلا أن الناس يكاثرونه فإن منعوا من جانب دخلوا من جانب وربما يتعامى عن البعض ويحصل لكثير من الناس في ذلك المكان سوء أدب من ضرب وشتم بألفاظ ينزه المكان عنها فالاولى عدم الدخول إلا لمن تيسر له ذلك عفوا وصفحا من غير إيلام ولما دخلت إليه المرة الثانية في حجتنا هذه إلى أن قال ركعت فيه إلى الجهات وجعلت الباب أولا خلف ظهري وكبرت في نواحيه وأجلت النظر في نواحيه وطوله وعرضه وسمائه وأرضه طلبا للتحقيق وإن كان الأولى خلاف ذلك إلا أن الأمر سهل إن كان لطلب العلم والوقوف على حقيقة الشيء ولم تزايلنا في ذلك السكينة والوقار، والإعظام والإكبار، والإجلال، والابتهال، والله يغفر لنا ويتقبل.

وأما لطلب التفرج والتنزه فلا بل يستشعر الداخل عظمته وحرمته وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عجبا للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قبل السقف ليدع ذلك إجلالا لله تعالى وإعظاما ما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها صلى الله عليه وسلم والبيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود ونقضوا منها من جهة الحجر مقدار السلم ولما فرغنا من الطواف ركعنا خلف المقام وأكثرنا من شرب ماء زمزم ولم نسع لأنا سعينا أثر طواف القدوم كما هو السنة.

تنبيه قال الإمام أبو سالم وكثير من العوام يظن أنه يلزمه سعير آخر أثر الإفاضة وبعض المتفقهة أفتى من لم ينو فرضية القدوم بإعادة السعي اغترارا بظاهر قول المختصر ونوى فرضيته وإلا فدم والتحقيق أن من شروط السعي وقوعه أثر طواف أي طواف كان وكونه فرضا إنام هو واجب يجبر بالدم ولا يلزم منه بطلان السعي ومعنى الفرضية كونه يتوقف عليه صحة السعي لا كونه فرضا في نفسه وهذا القدر يعلمه كل من له أدنى معرفة بالمناسك وإذا كان كذلك فلا إعادة على من سعى أثر طواف القدوم ولو لم يستحضر نية فرضيته إذ كان عالما بذلك فإن نية الإحرام كافية في الحج لأنه عبادة واحدة ولا يشترط فيه إفراد نية لكل جزء منه كالصلاة وتميز الفرائض من غيرها أمر مختلف فيه في كونه شرطا في صحة الصلاة أم لا والحج أوسع من الصلاة ولا إعادة عليه أيضا لو جهل فرضية طواف القدوم لأن الشرط كما تقدم هو وقوعه أثر طواف وهذا واقع أثر طواف فإن كان عالما بالتلازم بينهما فلا دم أيضا إذ ذلك القدر هو المعبر عنه بالفرضية وإلا قدم وهذا ما حققه بعض المشائخ وأدلة ذلك يطول سردها وكثير من المتفقهة لا يحقق المسألة هذا التحقيق ويشغب على الناس بإلزامهم الإعادة ويقول لا بد من إفراد نية لطواف القدوم أنه فرض وإلا بطل السعي والعجب كيف يجعلون نية الفريضة شرطا في صحة السعي ولا يجعلونها شرطا في صحة الطواف ذي النية فتكون نية الفرض في ركن شرطا لركن آخر لا له والشرط إذا لم يؤثر عدمه في محله فكيف يؤثر في محل آخر فشد يدك على ما ذكرنا من التحقيق ولا تلتفت إلى من طريقه التقيد بظواهر ألفاظ المختصر والله تعالى اعلم انتهى كلامه.

قلت وفي مناسك الشيخ يحيى الحطاب أما تقديم طواف صحيح على السعي فقال ابن عبد السلام انه متفق عليه فلو سعى من غير طواف لم يجزه ذلك السعي بلا خلاف ولا يشترط كون ذلك الطواف الذي يتقدمه واجبا بل ذلك من الواجبات

التي تجبر بالدم فيجب عليه أن يوقعه إن كان في حج أثر طواف القدوم أو أثر طواف الإفاضة وإن كان في عمرة أثر طواف عمرة فإن أوقعه بعد طواف الوداع أو بعد طواف التطوع إعادة ما دام بمكة فإن لم يعاوده حتى بَعُدَ عن مكة لزمه الهدي باتفاق انتهى.

وقال والده في شرح المختصر بعد نقول فعلم مما تقدم أن معنى قول المصنف ونوى فرضيته إلخ أن الطواف الذي يقع بعده السعي يجب أن ينوي فرضيته بأن يكون طواف الإفاضة أو طواف القدوم في الحج أو طواف العمرة فإن أوقعه بعد طواف لا ينوي فرضيته كطواف الوداع أو طواف تطوع كمن أحرم بالحج من مكة وطاف وسعى فإنه يؤمر بإعادته بعد طواف واجب فإن لم يفعل حتى تباعد فعليه دم وقول المصنف وإلا فدم فيه مسامحة لأن ظاهره أنه لا يؤمر بالإعادة وليس كذلك.

ولما فرغنا من الطواف وتوابعه جلسنا للاستراحة في أخريات المسجد واشترينا خبزا وسمنا وعسلا فأكلنا ورجعنا لمنازلنا بمنى وصلينا بها الظهر كما فعل المصطفى صلى الله عليه وسلم وقيل إنما صلى الظهر صلى الله عليه وسلم بمكة على قول الأكثر وكان نزولنا إزاء ثبير قرب الغار الذي أنزلت فيه والمرسلات على النبي صلى الله عليه وسلم وخبره مذكور في الصحيح وقد بني عليه بابه محوط شبه مسجد صغير والناس يقصدونه للصلاة فيه والدعاء وهو في أصل جبل ثبير بينه وبين مسجد الخيف رمية حجر وكان نزولنا بهذا المحل إيثارا للقرب من هذا المكان وقرب المسجد مع كونه أنظف وأوسع واستر وأمكن للإنسان في حاجته والناس يتحامون من القرب من الجبل تقية من أذى السراق فيستجير بعضهم ببعض ويفرون إلى الدخول في غمار الناس ولا يبالون بما نالهم في ذلك من وطء الأقدام وتقطيع الحبال وتعفن الأرجاء واستنشاق الروائح الكريهة ونحن استسهلنا أمر السرقة في جانب

هذه المضار وكذلك فعلنا في كل ما مضى من الحجات والله يعيدنا إليه الكرات بعد الكرات وقد ذبح بمنى في ذلك اليوم والذي بعده من الغنم ما أكسب الغني والفقير، وكفى البصير والضرير، وأغنى الوراد والمستوطن فامتلأت الطرقات وأفنية المنازل باللحم وأما الجلد والساقط والأكارع فلا ترى أحدا يأخذها ضيافة الله الملك الحق الذي لا يقدر أحد على كفاية الخلق سواه فقد ورد من أفاق الأرض أصناف من الخلق لا تحصى أغنياء وفقراء فأكل الكل من ضيافة مالكهم وتزودوا ما قدروا وفضل ما أعجز الطير والوحش والهوام. قال أبو سالم فاقسم لقد مررت بهذا المكان بعد سنة أو قريبا من ذلك في قفولي من الطائف فوجدنا فيه عدة كثيرة من الغنم قد يبست جلودها على لحومها وعظامها لم تمس إلى أن صارت مثل الخشب من يبسها والمرجو بل المحقق من كرم الملك الوهاب ذي الطول كما عم وفده بالضيافة المحسوسة التي صيرت الفقير كالغني في أيام الضيافة كذلك أو أعظم منه ضيافته المعنوية بالمغفرة وقبول الدعاء وأجزل المثوبة لعباده فوق ما يخطر بالبال، وما ينال بقياس ومثال، فما سعدنا به من رب كريم منعم متفضل وهاب، جواد محسن متطول لا إله إلا هو مالك الملوك ورب الأرباب، ولا يهلك على الله إلا هالك نسأله سبحانه أن يعمنا بفضله وكرمه، ويتحفنا برضوانه، ويعاملنا بإحسانه، آمين وبتنا بمنى تلك الليلة في نعمة كاملة، ورحمة من الله شاملة، وانقضى ذلك النهار وقد عيدنا، وعلينا مناسك الحج وشيدنا، وفوق أمانينا أعطينا.

بَلَغْتِ يا نفسي المُنَى في مِنَى[1] وقد أزال الله عنك العَنَا
فاستنفدي وسعك في حمده وشيدي منك بناء الثنا[2]

ثم في الغد عمرت الأسواق، وكثرت الأنفاق، وأخرجت البضائع ذوات

(١) في نسختين بمنى.

(٢) في نسخة واسلكي جميل الثناء وفي الرحلة الناصرية في جهده وبقاء بدل بناء.

الأثمان وصنوف التجارات وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان في ذلك الزمان وأكثر التجار يقولون إن من اشترى شيئا من منى وجعله في تجارته وجد بركته، وظهرت له ثمرته، ولا يبعد ذلك فانه موسم شريف، ومحل بركة وتشريف، يأتيه الناس من كل فج عميق ليشهروا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وقد عمهم الله فيه من أمر دنياهم وأخراهم بغاية الإنعام، ولما زالت الشمس توضأنا فخرجنا لرمي الجمار من غير تراخ ولا توان مبتدئين بالأولى التي تلي مسجد الخيف ثم بالوسطى وختمنا بالعقبة فوقفنا أثر الأولين بقدر الإمكان، مجتهدين في الدعاء لنا ولعامة المسلمين وخاصتهم وسائر الأحبة والإخوان، وما نسينا أحدا في ذلك المكان.

ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر وأهل الشام في إيقاد المصابيح وأتخاذ المصانع منها وصور الأشجار والأخبية وإكثار الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجو وفي ذلك نزهة للأبصار، وتسلية للأفكار، ومجال للاتعاظ والأذكار، والقبول والإنكار، فنزل جميع أصناف العباد، وحشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق في النهار فساطيطه المؤنقة، وبالليل مصابيحه المشرقة.

قال الإمام أبو سالم وبالجملة فليالي منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم فرح وسرور لأهل الإيمان، ومناهل رحمة ومغفرة من الله ورضوان، ومحال بركة وعافية وأمان، يتجلى فيها الحق لوفده بصفة الجمال، جزاء على رضاه قبل ذلك بتجلي الجلال، فهناك يستصغر المرء ما قاسى في طريقه من الشدائد، في جنب ما حصل له من النعيم والفوائد، انتهى.

فلما أصبح الناس في اليوم الثالث أخذوا في الرحيل متعجلين، فمن تعجل في

يومين، فلا آثم عليه، ومن تأخر فلا آثم عليه، لمن اتقى وتعجلت الأركاب وطويت الأخبية، ونقضت القنب والأبنية، ولم يبق إلا جماعتنا وبعض أهل البصرة والإحسا نزلوا تحت الجبل، على بعد منا ولواء السلطان المكي تعجل، وكان من عادته إلا يتعجل، وبتنا وحدنا ولم نر والحمد لله بأسا وبتنا آمنين أين ما كنا والله يختم بخير واغتنمنا الصلاة بمسجد الخيف في هذا اليوم منفردين بعمارته دون غيرنا من أهل الأفاق.

نكتة وهذا المسجد أعني مسجد الخيف يسمى مسجد علي قيل أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من بناه وهو موضع منزل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم في حجة الوداع.

قال الإمام أبو سالم وطول هذا المسجد من المحراب إلى الباب الذي يقابله أربعمائة قدم وعرضه ثلاثمائة وأربعون وبوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها أربع وعشرون قدما ورأيت في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاط النبي صلى الله عليه وسلم وصحن هذا المسجد كبير إذ المسقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف ومن سائر الجوانب غير مسقف قال وقد رأيت قبل هذا في إحدى سواري هذا المسجد مكتوبا ما أظن أن صورته هذا:

أيها الغائبون بالله جودوا[١] لغريب بدعوة إن قدمتم
كان من قبل ههنا مثل ما قد كنتم حاضرا كما قد حضرتم

وتحته مكتوب ما نصه[٢]:

قد حضرنا بذا المكان وغبتم وشهدنا به كما قد شهدتم

---

(١) كذا في الرحلتين العياشية والناصرية وفي نسخة القادمون وفي غيرها القائمون.

(٢) هذه الزيادة مع البيتين الذين بعدها موجودة في نسخة وفي الرحلتين العياشية والناصرية.

وذكرنـــاكم بكـــل جميـــل فاذكرونـــا بمثلـــه إن حـــضرتم

ووجدت في سارية أخرى بيتا مفردا وهو:

إن في الجنـــة نهـــرا مـــن لـــبن لعـــلي وحـــسين وحـــسن

قال وقد صدق قائله إلا أنه تشم منه رائحة التشيع وإن هذا النهر خاص بهم رضي الله عنهم ويمن والاهم دون غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم وهو مذهب الرافضة ومذهبنا معشر أهل السنة أنه لهم ولغيرهم من الصحابة وصالحي الأمة رضي الله عن جميعهم وجعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين انتهى.

ولما زالت الشمس من اليوم الرابع ارتحلنا من منى ورمينا الجمار بلا زحمة بعد الزوال وأرغمنا انف الشيطان بقذف تلك الحصيات التي تكونت من طينة الوبال.

قـد رميت الـشيطان في يـوم حجـي بجـــمار بطاعـــة الرحمـــان

وعجيـــب أن لم يكـــن قـــد تلظـــى وهـــي سبعون جمـــرة بالعيـــان

وملنا إلى مسجد الكبش فزرناه ثم بعده، مسجد العقبة أتيناه، وهو المكان الذي بايع فيه الأنصار رضي الله عنهم بيعة العقبة فهو من المساجد المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم المتبرك بها وهو معدود من الأماكن التي يستجاب فيها الدعاء وهو في الشعب تحت جمرة العقبة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى فسرنا فجئنا المحصب فنزلنا به بإزاء مسجد عائشة فصلينا به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقدنا رقدة.

ثم ذهبنا للعمرة وأحرمنا بها من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف وقلة الرفيق بعد أن اغتسلنا لإحرامها هناك مع من لم يغتسل بالمحصب من أصحابنا واتينا مكة فطفنا ووطيء إنسان على بنصر رجلي اليسرى ولا أظنها إلا انكسرت وأتممت

الطواف وأنا أحجل ولم أقبل الحجر مباشرة في أكثر الأشواط.

هـل أنـت إلا إصـبع دَمِيـتِ وفي سـبيل الله مـا لقيـت

وخرجت إلى السعي وسعيت من الصفا إلى المروة ومن المروة إلى الصفا على رجلي وتعبت جدا فعجزت عن إتمامه راجلا فأتيت بدابة فركبت وأتممته راكبا وأتيت المنزل الذي اكتريناه ورقدت رقدة وأصحابنا بمكة يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة ثالث فبراير وأقمنا بها بعد قضاء النسك تسعا، وفي هذه المدة في تلك العرصات نجول ونسعى، ودخلنا البيت الشريف كما قدمنا فتمتعنا بإجالة النظر في نواحيه، حرصا على تحقيق مبانيه، كما قيل:

وَرُدَّتْ إلى البيـت الحـرام وُفُودُنـا تحـن لـه كـالطير حـنّ لمـأواه
وطفنـا طوافـا للإفاضـة حولـه ولـذنا بـه بعـد الجمار وزرنـاه
ومـن بعـد مـا زرنـا دخلنـاه دخلـة كأنـا دخلنـا الخلـد حيـن دخلنـاه[١]
ونلنـا أمـان الله عنـد دخولـه كـما أخـبر القـرآن فـيما قرأنـاه
فيـا منـزلا قـد كـان أبـرك منـزل نزلنـاه في الـدنيا وبيـت وطئنـاه
تـرى حجـة أخـرى إليـه ودخلـة وذاك عـلى رب الـورى نتمنـاه
وإخواننـا مـا كـان أحـلى دخولنـا إليـه ولبثنـا في حمـاه لبثنـاه[٢]
وإخواننـا اوحـشتمونا هنـالكم فيـا ليـتكم معنـا أوان حققنـاه
نطـوف بـه والله يحـصي طوافنـا ليـسقط عنـا مـا نـسينا واحـصاه[٣]
وبـالحجر الميمـون لـذنا فإنـه لـرب الـسما في الأرض للخلـق يمنـاه

---

(١) في الرحلة الناصرية كأنا دخول الخالدين دخلناه.

(٢) في الرحلة الناصرية وبتنا في حماه لبثناه.

(٣) كذا في الرحلة الناصرية وفي جميع النسخ واخطأناه.

نقبلـه مـن حبنـا لإلاهنـا فكـم لثمـة طـول الطـواف لثمنـاه
علـى لثمـة للشعث والغبر رحمـة فكـم اشـعث أغـبر قـد رحمنـاه
وذاك لنـا يـوم القيامـة شـاهد وفيـه لنـا عقـد وعهـد عهـدناه
ونـستلم الـركن الـيماني رحمـة[1] ونـستغفر المـولى إذا مـا لمـسناه[2]
وملتـزم فيـه التزامنـا لربنـا عهـودا وعفـو الله فيـه لزمنـاه
وكـم موقـف فيـه يجـاب لنـا الـدعا دعونـا بـه والفـضل فيـه نوينـاه
ولمـا قـضينا للإلـه مناسـكا ذكرنـاه والمطلـوب منـه سـألناه
فمـن طالـب حظـا لـدنياه مـا لـه خـلاق بـأخراه إذا الله لاقـاه[3]
ومـن طالـب حسنى بـدنيا لدينـه[4] وحـسنى بـأخراه وذاك يوفـاه[5]
وآخـر لا يبغـي مـن الله حاجـة سـوى نظـرة في وجهـه يـوم يلقـاه

---

(١) في الرحلة الناصرية سلمناه.
(٢) في الرحلة الناصرية طاعة.
(٣) في الرحلة الناصرية خلاقا لاخراه.
(٤) في الرحلة الناصرية يوقاه.
(٥) ف. الـ حلة الناصـ ية بدنياه ناويا.

ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة شرفها الله تعالى

منها الدار التي ولد فيها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اتخذت الآن مسجدا ومزارا عظيما تفد إليه الوفود من كل ناحية أيام المولد النبوي هذا على ما علم مما وقع من الاختلاق في كتب السير في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأنواء وعلى انه بمكة فقيل بالشعب وقيل بالمحصب إلى غير ذلك من الأقوال ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده صلى الله عليه وسلم فيترجح القول بأنه في مكة بقضية عادية وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده وأن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله والعجب أنهم عينوا محلا من الدار مقدار مضجع وقالوا انه موضع ولادته صلى الله عليه وسلم.

قال شيخنا أبو سالم ويبعد عندي كل البعد تقييد ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف في كونه بمكة أو غيرها وعلى القول بأنه فيها ففي أي شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار، بعد مرور الأزمان والإعصار، وانقطاع الآثار، والولادة وقعت في زمان الجاهلية وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة لا سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي لصرف اعتنائهم رضي الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذب عنها بالسنان واللسان وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام ومن مساجده عليه الصلاة والسلام ومواضع غزواته ومدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك في

المشاهد الجليلة فما بالك بما وقع في الجاهلية لا سيما ما لا يكاد أن يحضره أحد إلا من وقع له كمولد علي رضي الله عنه ومولد عمر ومولد فاطمة رضي الله تعالى عن جميعهم فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان وذلك مولد فلان وفي ذلك من البعد أبعد من تعيين مولده صلى الله عليه وسلم لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم فقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وإن كانوا أهل جاهلية وأما مولد غيره ممن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بنفسه أو أحد أهل بيته وحاصل الأمر أن هذه الأماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية رعاية لتعظيم قدر من أضيفت إليه صلى الله عليه وسلم فليستحضر الزائر في قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة وعظمة تلك النسبة ولا يشغل قلبه بصحة النسبة وضعفها لوجودها في الخارج ولو عدمت في نفس الأمر لرعاية تعظيم الموجودة على النسبة له أثر كبير في الجلب والدفع نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته وشعائره تعظيما يوافق أمره ومن المزارات أيضا مولد فاطمة رضي الله عنها والنفس أميل إلى صحة هذا المكان أكثر من غيره ومنها البيت البيت الذي سكنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع السيدة خديجة رضي الله عنها وولدت فيه الأولاد وفيه توفيت ولم يزل صلى الله عليه وسلم مقيما به حتى هاجر ومنها مولد علي رضي الله عنه ومنها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبقربها حجر في جدار فيه كأثر المرفق يقال أن مرفق النبي صلى الله عليه وسلم غاصت فيه لما استند إليه والناس يتمسحون به ويتبركون ومنها دار الخيزران عند الصفا فله فيها صلى الله عليه وسلم تردد وإقامة ومنها مسجد العقبة الذي بايع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الجن ومنها مسجد إبراهيم بعرفة وهو غير الذي يصلي فيه الإمام ولا يعرف اليوم ومنها مسجد الكبش بمنى الذي نزل فيه فداء إسماعيل عليه السلام ومنها مسجد بأجياد

يقال له المتكأ قيل أنه صلى الله عليه وسلم اتكأ هناك ومنها مسجد العقبة حين بايع الأنصار ومنها غار جبل ثور الذي اختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه في هجرتهما وصرح القرآن بذكره في قوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ ﴾ وجبل ثور على ثلاثة أميال من مكة إذا مر السالك إليه فيما بين الخندمة وأبي قبيس وهو وراءهما وأما من مر بأسفل مكة حتى يدور إليه بأضعاف ذلك وعليها يسلك من مر راكبا مع بعدها لتوعر القريبة وهو جبل منقطع عن الجبال التي حوله ذاهب في الهواء مشرف على كل ما حوله من الجبال مكسو جلالة ومهابة صعب المرتقى غاية وارتفاعه في السماء نحو من ثلاثة أميال والغار في أعلاه من الناحية الموالية لمكة وهو من عجائب آثار قدرة إلهه تعالى وله بابان بابه الأصلي الذي دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه من ناحية الغرب وهو صغير جدا ملاصق بأرض الغار وهو شق صغير بين صخرتين عرضه نحو ثلاثة أشبار وارتفاعه أزيد من شبرين.

قال أبو سالم ولقد خيل لي عند ما رأيته أن أحدا لا يمكنه الدخول منه فأيست من الدخول منه حتى رأيت من هو أعظم مني جثة قد دخل منه فتحاملت ودخلت من ذلك الشق مع مشقة وترتيب أعضاء من تقدم إحدى اليدين إلى المنكب وإتباع الرأس لها وإرسال اليد الأخرى مع الجنب.

ولقد طال تعجبي من معرفة الناس بكون غارا واسعا من داخل فهو إن لم يكن معروفا عندهم قبل ذلك معهودا فالأقرب أنه بالوحي أو إلهام من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم لأن العادة تكاد تقطع بأن مثل ذلك لا يكون كهفا متسعا من داخل إذ هو صخرة واحدة منقطعة عن غيرها منكفئة على أخرى منقورة في وسطها قدر قامة الإنسان ارتفاعا وسعة نح العشرة أذرع ولولا عظم الصخرة وتواتر الخبر

بأنه كذلك من قديم الدهر لتوهم أنها صخرة نقرت في وسطها ثم قلبت على أخرى بصنع آدمي وأما الباب الأخر فإنه إلى ناحية المشرق وهو واسع يدخل منه الإنسان ويخرج كيف يشاء وزعموا أنه مفتوح بصنع الآدمي وأن سبب فتحه أن شخصا تكلف الدخول فلم يقدر على الخروج وكرهوا تغيير الباب الأصلي بتوسعته ففتحوا هذا الباب من الناحية الأخرى لخروج هذا الشخص وليدخل منه من لم يقدر على الدخول من الباب الأصلي.

وبإزاء هذا الباب المفتوح مصطبة محوط عليها بأحجار شبه مسجد مفروش برمل والناس يصلون فيه ويصلون أيضا في داخل الغار وفوق الغار في قنة الجبل غار كبير واسع تحت صخرة عظيمة مفتوح من جوانبه محوط عليه بأحجار شبه مسجد آخر يجلس فيه الناس ولا أدري ما أصله وفيه منظر رائق يشرف منه الإنسان على بلاد كثيرة قال ولم أر في تلك الناحية جبلا أعلى منه إلا جبل اكرى الذي يصعد منه إلى الطائف.

وقد ذكر بعض من ألف في أخبار مكة وجبالها أن من زار هذا الغار وكان به حزن آلمه وسأل الله إذهابه أذهبه الله عنه ولا يحزن بعد ذلك وكأنه اقتبس ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾. انتهى.

ومنها جبل حراء وفضله مشهور وفيه الغار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحنث فيه قبل النبوءة وفيه نزل الوحي أول ما نزل وفيه نزلت سورة اقرأ كما في الصحيح وهو جبل متوحد بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها وعلى رأس قبة.

قال أبو سالم ترى هذه القبة من المسجد الحرام والغار في أعلاه من الناحية الغربية الموالية لمكة وهو مع صعوبته قد سويت طريقه وأزيلت الأحجار المتعرضة

من غالب طريقه وبني ما يحتاج للبناء فيها حتى أن الدابة يمكنها الصعود براكبها إلى أعلاه وفي أعلاه شبه مسجد على باب القبة يصلى فيه والغار أسفل من القبة بين صخرات هنالك وهو صغير جدا يسع ثلاثا أو أربعا فيما أظن ويصلي فيه الناس للبركة وقد جلسنا هنالك هنيئة وباب الغار متنكب إلى ناحية الشمال.

قال وقد كنت أسمع قبل هذا ورأيته منصوصا أن الجالس في الغار يرى الكعبة ولذلك اختار النبي صلى الله عليه وسلم التحنث فيه لأن النظر إلى البيت عبادة فتجتمع له فيه أنواع العبادات التي لا تكاد تجتمع فيه غيره وهذا لا يصح إلا أن أريد المحل الذي هو فيه فإن البيت قبل أن يتكنفه البنيان العظيم قد يظهر من الخارج وأما من الغار فلا.

قال وأخبرنا شيخنا أبو مهدي أنه خرج ذات مرة للتحنث بهذا الغار وكان يخرج إليه بهذا القصد قبل ذلك وخرج إليه في هذه المرة مع ثلاثة من أصحابه من الهنود وكان اثنان مقيمين معه والثالث يتردد عليهما بما يحتاجون من ماء وطعام.

قال كان معي بداية المجتهد للحفيد ابن رشد أطالع فيها أحيانا فبينما هو ذات يوم في الغار وصاحباه في القبة والثالث تحت صخرة هنالك إذ عرض في السماء عارض غيم وبرق ثم أرزم الرعد وأتى بأمر هائل ما رأيت مثله قط فلم أشك أنه الموت ولزمت مكاني وطبت نفسا بشرف البقعة فقلت حبذا لقاء الله تعالى في هذا المكان وألزمت نفسي حضور القلب منتظرا حلول القضاء حتى انكشف ذلك وخرجت من الغار فإذا صاحباي اللذان في القبة قد ماتا وأحدهما جالس على هيئته لم يتغير منه شعرة والآخر شاقط قد سال الدم من بعض منافذه فلم أر منظرا أهول ولا أفزع من ذلك فالتمست الثالث من أصحابي فوجدته تحت صخرة وقد سلمه الله تعالى فبعثته إلى مكة ليعلم أصحابنا فبقيت هنالك وحدي منفردا معهما في الليل

فلم أر أمرا أفزع ولا أوحش من ذلك ولا أعظم واشق علي من الحال التي كنت عليها في الغار فيما جاءني الناس مع صاحبي حتى كدت أهلك غما فاحتملنا صاحبينا وذهبنا فمن ذلك الوقت ما رجعت للتحنث إلا أن أذهب زائرا ثم أرجع.

قال أبو سالم والانفراد عن الناس لاسيما في المفازات والمغارات البعيدة عن العمران لا يقوى عليه إلا من أيد بروح القدس وكانت له همة عالية وسقطت من قلبه مخافة غير الله تعالى فإن الإنسان دني الطبع لا يحتمل وحشة الانفراد لا سيما إن نزلت به ملمة وهو منعزل عن الناس فإن عيشه يتكدر وحاله يتغير وتضيق نفسه وتخرج من معتادها فربما يتلف من ذلك أو يذهب عقله وأما من كان قلبه متعلقا بالله لا يلتفت إلا إليه في السراء والضراء فذلك هو قرة عينه ولو انطبقت السماء على الأرض ما زاده ذلك إلا تلذذا بما فيه لأنه في تلك الحال يقوى تعلقه بربه وانحياشه إليه وتنتفي الخواطر المشتتة له في أودية الأغيار وأي شيء هو طلبة المريد وبغيته إلا هذه الحال ولذلك قيل مواسم الفاقات أعياد المريدين.

قال ولا أظن أن شيخنا في ذلك الوقت كان من أهل هذه الحال لما غلب عليه من محبة العلوم الرسمية وصرف بعض الهمة إليها يدل على ذلك استصحابه لكتاب بداية المجتهد ومن كانت هذه حاله وإن كانت محمودة لا يقوى على تحمل واردات القدر الخارجة من باب القهر المتلفقة بمروط الجلال والهيبة لتعلق قلبه بأمرو وخيالات وعلوم هي في الحقيقة وسائل فإذا تجلى الحق بصفة القهر ذهبت الوسائل وحق الحق وبطل ما كانوا يعلمون فيفجأ القلب أمر غير معهود له ولا مألوف ولا متصور قبل ذلك فلا تسأل عما يكابده من ألم الغربة والوحشة والخروج عن المألوف نسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا ويؤيدها بنور المعرفة عند كل وارد وعند واردات القهر خصوصا ويشهدنا اللطف المصحوب بها ويغرقنا في بحار التلذذ بمشاهدته

حتى لا نحس بذلك وعافيتك أوسع لي يا أرحم الراحمين انتهى.

ومنها الجعرانة وهي موضع بين مكة والطائف وهي إلى مكة أقرب بكثير بينها وبين مكة ثمانية عشر ميلا ومنها كانت عمرة النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة حين قسم غنائم حنين كما في الصحيحين وذكر المحب الطبري عن الواقدي أن إحرامه صلى الله عليه وسلم بالعمرة منها كان ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة.

قال المجب الطبري ومنها يحرم أهل مكة كل عام في ليلة سابع عشرة من ذي القعدة وذلك خلاف ما ذكره الواقدي.

قال القاضي تقي الدين الفاسي مؤرخ مكة في شفاء الغرام وما ذكره الطبري يخالف ما أدركنا عليه أهل مكة فإنهم يخرجون من مكة في اليوم السادس عشر من ذي القعدة ويقيمون السابع عشر بالجعرانة ويصلون المغرب بها ليلة الثامن عشر ويحرمون ويتوجهون إلى مكة وهو يلايم ما ذكره الواقدي.

قال الحطاب وعلى ما ذكره القاضي تقي الدين أدركنا عمل أهل مكة.

قلت ولا أدري متى أنقطع عمل أهل مكة هذا فإنهم الآن لا يحرمون منها ولا تكاد تجد أحدا يعلم أنها من مواقيت العمرة إلا من مارس كتب الفقه وأما العوام فلا يطلقون أسم العمرة إلا على التنعيم ومكانها وادي أفيح كثير العضاه وماؤه شديد الحلاوة غزير وبها بئران عظيمتان مطويتان بالحجر المنحوت وعنده دوحات عظيمة وعلى شفير الوادي مكان مسجد يقال أن منه أحرم النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن فضائلها ما يروى أنه أحرم منها بالعمرة ثلاثمائة نبي ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم فحص موضع مائها بيده المباركة فانبجست فشرب منه وسقى الناس ويقال انه غرز فيه رمحه فنبع ومنها مسجد التنعيم حين اعتمرت عائشة رضي الله عنها وفي مكة غير هذا من المساجد التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثار مشهورة عند أهل مكة قد تطاولت عليه الأعصار ووجدنا التنصيص على اشتهارها في القرون الماضية من كثير من المؤرخين والمرتحلين مع العلم بعدم اشتهارها في القرن الأول والثاني وما يقرب منهما فتزار بالنية المتقدمة وبنية من دخلها وتبرك بها من المسلمين من لدن تلك الأعصار إلى الآن وقد علم اختلاف الأئمة في القديم والحديث في تنزه هذه الآثار والمشاهد التي لم يرد بها خبر صحيح بمكة والمدينة والقدس وميل أكثرهم لا سيما المالكية إلى عدمن التقييد بذلك لما علم من شدة حرصه على الإتباع فقد ورد أن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ارتحل إلى المسجد الأقصى فلما دخله لم يزد على أن صلى فيه ركعتين ودعا ورجع من يومه ولم يقف إلى الصخرة ولا إلى غيرها من الآثار والمشاهد الكائنة هناك مع كثرتها إذ لم يصح في الحديث إلا إتيانه للصلاة فاقتصر على ما صح عنده ولم يعرج على غيره والكل إنّ شاء الله تعالى مصيب، ففاز من الأجر بأوفر نصيب، قل كل يعمل على شاكلته، وحسن نيته وصفاء طويته.

انعطاف إلى ما كنا بصدده وهو أننا لما صلينا الظهر والعصر في المسجد المشهور وهو مسجد نمرة توجهنا إلى محل الوقوف والمشاهدة، ومكان التضرع والمساعدة، زاد الاشتياق إلى الجليل، والتعلق بكل حبيب وخليل، فأصاب الناس شدة الحر والوهج، حتى كاد أن يذيب الأكباد والمهج، فتفرقت الناس على رفع أحمالها، وسلكت مسالك جمالها، فركب من ركب ومشى الماشي والغريب، وساق الإبل كل أجير ونقيب، وقد انفصل الجميع بالتوجه والأدب، إلى محل الاعتراف ...

من فيض القرب، وعند ذلك تظهر زفرات المحبين، ولوعة المخبتين والمشتاقين، فحركها ريح السعادة لمأوى الرضي والتوفيق، إن لم يصبها وابل فطل من رضى مولاها بالتحقيق، نعم كادت النفوس ترجع إلى أصولها، وتتنور بنور المعارف في تنقلاتها، فقذف ما بها ما سكن فيها حين تحرك، وأزعجها تلاقي الأرواح في ذلك الفلك، ثم القوالب والأجباح تابعة، والصفقة السعيدة رابحة، فشمروا لما وصلوا، وأهلوا لما به أهلوا، فدخلنا محل الوقوف بالذل والمهابة، والروع والخوف والإنابة، والدعاء والتضرع والاضطرار لتقع الإجابة، فوقفنا راكبين، لسنة نبينا صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء والتابعين، غير أن الركوب على الإبل أفضل، اقتفاء به صلى الله عليه وسلم وأجمل، وأنا وقفت على بغلتي وكذا أخي في الله سيدي أحمد الطيب ومثله سويداء القلب سيدي أحمد بن حمود وإنسان غين قلبي سيدي محمد الشريف الطرابلسي وقد وقفنا عند الأحجار قرب الجبل وأما تحت الجبل ففيه الزحمة الكثيرة التي تمنع الإنسان الدعاء فألزمنا الدعاء لأنفسنا سرا وجهرا عموما وخصوصا مجتهدين غير مقصرين لعل الله يقضي حوائجنا الظاهرة والباطنة، وأن يجعل هممنا عالية ونفوسنا كاملة، وأن يطهرها من التعلق بسواه، لتكون مطمئنة به وصاحبها معتصما بمولاه، فألزم الكل التضرع والابتهال، واللجأ والاضطرار والتنقل من حال إلى حال، فعم الله الجميع بالعفو والمغفرة والمنة والأفضال، وكيف لا والموسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم وجميع الأنبياء ومن خص بالإرسال، وكذا أهل الوقت من أهل التصريف والخضر وإلياس ومن نعت بالكمال، فاستمر جميعنا إلى تحقق الغروب والخطيب يخطب، وبدعائه تقضى الحوائج[1] وتنفرج الكُرب، ريحانة[2] أو عرفة موضع جود وكرم ورحمة ووسع تعم الحاج وغيره كالمتسوقين والمتنزهين لأنها فيها

---

(١) في نسختين بياض.

(٢) في نسخة بياض.

قوم لا يشقى بهم جليسهم وهو محل عظيم لا يغضب فيه الرب تعالى وإنما ينظر بالرحمة إلى أهل السعادة من أوليائه فتصيب جميع من فيها وأن الله يغفر الذنوب الكبائر والصغائر لأهل عرفة وانه يعطي عنهم التبعات ويتولاهم بالخصوصية وإن الواقف بها يستأنف العمل فهو كيوم ولدته أمه.

وهذا كله نص عليه الفاسي في شرح دلائل الخيرات وأن الشيخ زروق رجح القول بالتكفير بالحج للصغائر والكبائر خلافا لابن عبد البر ومن تبعه القائل بأن الكبائر لا تغفر إلا بالتوبة أو بفضل الله تعالى لأن التكفير خاص بالصغائر وهذا القول خلاف المعتمد وإن قال بعض انه مجمع عليه لأن من فضل الله تعالى أن تغفر الذنوب بأعمال الصالحات وهو من فضل الله قطعا إذ لا مانع عقلا ونقلا لا سيما وقد نص عليه غير واحد وانه روي في ذلك أحاديث صحيحة فلم يبق إلا الجزم به أو ترجيحه ويعضد هذا ما وقع لنا من المرائي الحسنة التي لا شك فيها إذ لا يمكن إفشاؤها وفي التلويح، ما يغني عن التصريح، وفي الإشارة، ما يغني عن العبارة.

ثم أن من فضل الله علي أني نزلت على بغلتي ونويت رؤية الخطيب الذي يخطب بها لتعلق همتي به وتاقت نفسي أيضا لسماع كلامه وهو لا تمكن رؤيته لازدحام الناس عليه ربما قاصده أن احتمل المشي إليه والاجتماع به مات أو أنكسر وذلك معلوم بالعيان إلا من سبق إلى مكان قبل اجتماع الجموع فيها فتوجهت إلى موضعه ورأيته فدخلت الصف الذي يليه والناس حوله بالأعمدة يضربون من يريده فلما توجهت إليه ودخلت من حوله وإذا بالناس تركوا لي ممرا إليه وفرجة لديه إلى آن وصلت إلى الضرابين بالأعمدة فأتى إلي واحد منهم فأخذ بيدي إلى أن بلغ بين إليه وسلمت عل ركبته وسمعت كلامه أعني خطبته وتبسم في وجهي وانبسط ولم ينقبض وهو رجل شريف كبير السن وكلامه عليه حلاوة وطلاوة يعلوه نور وهو أجمل خلق الله قدا

وخدا بياضه مشرب بحمرة وسيع الوجه يتلألأ نورا قد شاب فلم تبق فيه شعرة سوداء والله أعلم ولو حواجبه لا يسأم الناظر فيه فعلمت أن الله نور بصيرته وطهر سريرته وأعلى همته فوجدت قلبي حين رأيته بل أخذ مجامع قلبي وان الله أسعدني برؤيته فلما قضيت مآربي منه رجعت إلى موضعي واشتغلت بالدعاء إلى أن تحقق الغروب لأخذ جزء من الليل لأنه ركن يبطل الحج بتركه بخلاف الوقوف نهارا فانه واجب يجبر بالدم فنفر جميعنا بعد المغرب وتحقق الأخذ من الليل والإمام قد نفر قبلنا غير أنه لا يخرج من عرفة إلا بعد تحقق الليل.

نعم قد وجدنا قلوبنا في ذلك المحل وأننا شاهدنا فيه أمرا عظيما لا يمكن التعبير عنه إذ يعلم الإنسان من حاله آثار الوجود والقرب من الحبيب فعممنا بفضل الله تعالى بدعائنا القريب والبعيد والخالص والعام لأن الوقت واسع فمنّ الله تعالى بفضله وكرمه وجوده أن جعلنا من أهل ذلك الموقف فنفرنا راكبين وماشين بين المغرب والعشاء متفرقين لا يعرف أحد صاحبه إلى أن وصلنا بعد العشاء مزدلفة فحط الجميع رحالهم إذ السنة هو ذاك فجمع الله بين المعارف والأقارب وصلينا المغرب والعشاء إذ السنة التأخير فبتنا هنالك في نعمة شاملة، وزحمة كاملة، ورفعة عظيمة، فحمدنا الله على ذلك، وشكرناه على ما هنالك، فلله الكمال والتمام فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا مغسلين كما هو الأثر والسنة وصلينا الصبح والتقطنا الجمار الجميع من الحصا ثم كذلك إلى قرب الأسفار وصلنا المشعر الحرام على أكمل حال وأتمه فوقفنا به وقفة عبد خاضع، وذليل خاشع، انصدع القل بالشوق إليه، والعشق لديه، فكل من له الفقه التاما نوى بوقوفه منا الوجوب إذ بعض المذاهب يقول بوجوبه والورع ينوي به الخروج من الخلاف حسبما ذكروا ذلك في قراءة البسملة في الفرض ناويا الخروج من الخلاف.

فإن قلت قراءة البسملة في الفرض مع نية الخروج من الخلاف وكذا نية الوجوب بالوقوف بالمعشر الحرام مخالف لمذهب مالك والقائل به ممن يقتدي بمالك فكيف يمكن الجمع بينه وبين هذه المذهب.

قلت لا أشكال في ذلك والله اعلم لأن مذهب مالك كراهة البسملة واستحباب الوقوف بالمشعر الحرام فما هذا إلا كونه احتياطا مع نفي الخلل بفعل ذلك فالحاصل أن الاحتياط في الشيء مع كونه غير موجب للخلل في نفس العبادة هو من قواعد مالك إذ مذهبه مبني على سد الذرائع والاحتياط فهو من لازم مذهبه وإن كان ليس صريحا من مذهبه وإنما تكره البسملة في الفرض إذا نوى أنها آية من الفاتحة جزما فذلك مكروه على مذهب أمامنا وأما أن نوى الخروج من الخلاف احتياطا فإن مالكا لا يقول بكراهته بل لو سئل لقال بكونه حسنا وكذا نية الوجوب في الوقوف بالمشعر ومثلهما في الفقه كثير.

فلما وقفنا وجدنا أمير مصر واقفا هناك داعيا مستقبلا المحل المذكور وهو من طرف المزدلفة من جهة منى فسألنا الله تعالى في الوقوف به سؤال مضطر ذليل خاضع[1] وكل من رآنا من الركب وقف معنا وسألنا عن ذلك الموضع فأخبرناهم به وانه يستحب الوقوف عنده وانه من شعائر الحج ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ووقفنا عنده وقوف قربة وطاعة إلى طلوع الشمس وانتشارها فسألنا الله تعالى قبول حجنا وإخلاص سعينا وربح تجارتنا وزال الحجاب عن سرائرنا والدخول لحضرة الله والتمتع بالنظر لوجه الله تعالى والموت على حسن الخاتمة بمنه وكرمه وأن يجعل البركة في ذريتنا وأن يرزق الأخذين عنا بالعلوم والمعارف الإلهية والفتوحات اللدنية والمواهب الربانية والأخلاق المحمدية والتخلق بأوصاف الله تعالى التي يجوز

---

(١) في نسخة سؤال اضطرار وذل وخضوع.

التخلق بها والتعلق بجميع أسمائه والخروج عن الأكوان بمشاهدة المكون وإتباع الشريعة ونهج الحقيقة والتأدب بالآداب الأشياخ ومواساة الإخوان وموادتهم على لسان الشريعة والنصيحة للأمة المحمدية بان يجعل الكبير أبا والصغير ابنا والمساوي أخا وتعليم الجاهل بالرحمة والشفقة وأخذ العلم بالتواضع وحرمة الأولياء وحسن الظن في جميع المسلمين عند عدم المخالطة وإلا فسوءه حتى يظهر خلافه والتسليم للفقراء فيما لم يكن مجمعا عليه والتصديق بأحوال أهل الله تعالى من مواجدهم ومواردهم وخرق العادة في حقهم إذا كان مغلوبا مطلقا أو كان متبعا للسنة هذا وإن المشعر الحرام موضع عظيم لا يكاد يخفى فضله على كل مسلم فضلا عن الأتقياء.

ولما وصل وقت الأسفار سرنا منه إلى أن وصلنا إلى بطن محسر وكثير من الناس لا يعرفه وقد شغفت بالسؤال عنه فلم أجد من يعرفه بالعيان نعم لما توجهنا إلى الطلوع إلى منى رأينا الناس يسرعون فيه بالمشي فلدناهم في ذلك فأسرعنا فيه فذلك هو والله اعلم.

قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه وهو وادي النار وأسرعنا وحركنا دوابنا وهو من أول ما تحاذي البركة الخربة التي على يسارك أن مررت بطريق الأركاب وأنت ذاهب إلى منى حتى تأخذ في الطلوع إلى منى وترتفع بك الأرض وبهذا عرفه أعلم أهل عصره بالمناسك خليل المكي حسبما نقله عنه البلوي في رحلته إذ سأله عن حده والإسراع فيه مشروع ذهابا وإيابا فمضينا كما نحن على الطريق الكبرى التي تشق منى إلى أن أتينا جمرة العقبة ورميناها بسبع حصيات من أسفلها مكبرين مع كل حصاة كما كنا راكبين غير راجلين كما هو السنة عن سيد الأولين والآخرين عليه أفضل صلاة المصلين وأزكى سلام المسلمين انتهى.

انعطاف فسرنا إلى قرب منى فتسارعنا كالناس المسارعين في وادي النار فعلمت

أنه هو وإن لم نعرف الحدود ثم كذلك إلى أن وصلنا جمرة العقبة فرميناها كما قال شيخنا بالتكبير إلخ.

فرجعنا فمن عنده هدي ذبحه ثم حلقنا كما هو السنة ثم ذهبا إلى مكة في غير وقت الفضيلة وهو قرب العصر لطواف الإفاضة وهو ركن فطفنا ذلك الوقت فوجدنا باب الكعبة مغلقا لأنه يفتح ذلك اليوم غير أنه عند الزوال فمن أسرع أدركه ومن لا فلا ونحن أشغلنا أمر الأهل فمنعنا من المشي ذل الوقت غير أن الأركان قد تمت وان فاتني الدخول ذلك الوقت فقد دخلناها مرة أخرى والحمد لله إذ دخلت في الليل غير أن الزحمة كثرت على الباب فلما دخلت الكعبة وجدت فيها فسحة عظيمة وهي مملوءة بالناس والزمان زمان الحر وركعت ركعتين وجعلت الباب وراء ظهري ثم ركعتين ركعة لكل جانب منها وقد علاني من الهيبة ما لا يعلم به إلا الله فينبغي للإنسان أن يصحبه الإجلال والهيبة النورانية والعظمة والابتهال والخشية والتذلل والمسكنة فيعتقد أنه ضيف ربه وأن الرحمة قريبة منه هناك فلا ينبغي أيضا النظر إلى السقف إلا للعلم به فيخف الأمر كما ذكره شيخنا المتقدم حاصله يستحب الدخول إليها إلا إذا كانت زحمة فلا يليق دخولها بل تركه أولى هذا كله إذا كان فيه السلامة من الأذية للمسلمين وإلا فيحرم نعم الحال يحمل الإنسان على أكثر من هذا وقد حصل لي عند الدخول أمر عظيم لا أستطيع التعبير عنه إذ ورد علي حال عظيم وابتهال قوي وقد طال بقاؤنا فيها حتى قضينا حوائجنا على التمام والوفاء فالله يتقبل منها ومن كل من كان معنا بمنه وكرمه إذ يحدث عند الدخول أمر عظيم لا يمكن التعبير عنه غير انه لا ينبغي رفع البصر فيه إلى السقف بل يستشعر الداخل عظمته وحرمته وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت عجبا للمرء المسلم إذا دخل الكعبة كيف يرفع بصره قِبَل السقف ليدع ذلك إجلالا وإعظاما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فما خالف نظره موضع سجوده حتى خرج منها صلى الله عليه وسلم.

والبيت الآن على ثلاثة أعمدة من العود ونقضوا منه من جهة الحجر مقدار السلم ولما فرغنا من الطواف ركعنا خلف المقام وأكثرنا من شرب ماء زمزم عند ذلك وأني شربته بنفس اشتياق قذفت منه طعم الحليب السحن ولقد سألت عن ذلك من ظننت فيه الذوق أخبرني بذلك ولا سعي بعد طواف الإفاضة [لمن قدم السعي عند طواف القدوم ونحن قد سعينا عنده فلا سعي بعد طواف الإفاضة][1] وكثير من الجهال يعيد السعي وهو عذاب من غير فائدة إذ الأول كاف حاصله أن السعي لا بد وأن يكون بعد طواف وأما كونه بعد طواف واجب فيجبر بالدم وكثير من المتفقهة يعتقد أن من لم ينو الفريضة أعاد السعي كما حكاه الإمام أبو سالم وليس كذلك إذ شرط صحة السعي أن يكون متوقفا على الطواف وأما كونه واجبا فيجبر بالدم إذ كونه بعد طواف شرط وكونه بعد الفرض واجب فيجبر بالدم فإن من سعى بعد طواف القدوم صح ولو لم يستحضر نية الوجوب لأن نية الإحرام كافية إذ النية عند الأجزاء غير شرط كما في الصلاة. وبالجملة فإن علم التلازم بين السعي والطواف فلا دم وإلا فدم إذ الفريضة هي العلم بالتلازم بين السعي والطواف إلخ ما ذكره انتهى.

وقد ذكر الشيخ يحي الحطاب وكذا والده في شرحه على المختصر أن من سعى بعد طواف الوداع أو طواف تطوع يؤمر بإعادته إن كان بمكة وإن تباعد لزمه الهدي وقوله ونوى فرضيته أي فلا بد أن يكون السعي بعد طواف ينوى فرضه كطواف القدوم وطواف الإفاضة هذا معناه وإن كان هذا غير ظاهر منه أنظر الشيخ إبراهيم الشبرخيتي وغيره.

ولما فرغنا من الطواف استرحنا ساعة في أخريات المسجد بل صلينا المغرب فيه وقد خالفنا السنة لأنه من السنة أن يأتي الإنسان قبل الزوال فيطوف ويرجع ويصلي

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

الظهر بمنى كما هو فعل النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل إنما صلى الظهر بمكة وكان نزولنا في منى بسفح الجبل وراء المسجد الكبير قرب مسجد محوط أعني غارا يشبه المسجد الصغير والناس يزورونه ويصلون فيه وقد زرته والله اعلم انه الغار الذي نزل فيه والمرسلات وخبره مذكور في الصحاح(١) واسم الجبل تبير انظر رحلة شيخنا سيدي أحمد بن ناصر وإنما نزلنا هناك لقرب المسجد والاستخلاء والتستر وإمكان المشي إلى الجمرات لقلة الخلق فيه ولقد جمع الله فيه أصناف الخلاق ما لا يعد ولا يحصى وكذا ما ذبح في منى من الهدايا فلا تعلم(٢) الغني والفقير وهي ضيافة عظيمة لا يقدر على القيام بها إلا خالق هؤلاء الخلق لقد كثر اللحم وانتشر حتى استغنى الخاص والعام فضلا عن الفقراء ومنى زمان الحاج آية عظيمة تدل على وحدانية الله وعظيم كبريائه وكذا مكة إنها متسع الحاج بلغ ما بلغ وكذا مسجدها فانه يسعهم للصلاة وكل ذلك من الخوارق المستمرة إلى قيام الساعة فالسعيد يحصل له اليقين التام والمعرفة الكاملة من اعتبار تلك الجموع ومن كفايتها ماء وطعاما وحطبا وعلفا وسعة(٣) وفواكه وبز(٤) التجارة فكيف يتوهم عاقل ثبوت الكمال لغيره تعالى وأنّى يصح لمتكبر أن يقول أنا أو لذي جاه أن يقول قدرت أو لغني يقول ما ملكت أو ذي سلطان يقول عندي عساكر فلم يبق إلا التوكل على الله والاعتماد عليه فإن العاقل تضمحل نفسه عند رؤية ذلك هيبة وإجلالا وعظمة وحينئذ يرى سطوة البارئ عز وجل(٥) فينطق المعتبر قهرا وغلبة بقوله سبحان الملك الخلاق إلا له الخلق والأمر له الملك وله الحمد هذه الضيافة الحسية ما أشد وسعها إذ الغني ذلك اليوم إن سخا صار من ملوك الجنة

---

(١) كذا في جميع النسخ ولعله صحيح البخاري كما في السطر الأخير من ص٣٩٨.
(٢) في نسخة ما عم.
(٣) في جميع النسخ سيعة.
(٤) في نسخة بزر.
(٥) كذا في نسخة وفي غيرها بياض.

والفقير صار غنيا فيه فالضيافة المعنوية أعظم لأنها المغفرة الشاملة، والرحمة التامة، والنعمة العظيمة، والمثوبة القوية، بحيث يكون كل أحد مغفورا له، ومنعما عليه ومقربا منه، ومحبوبا لديه وآخذا بيده، إذ ما كل موضع من تلك الأماكن الشريفة، إلا له خاصية عظيمة، في الغفران والاستجابة وكل ذلك فضل من الله تعالى نسأله سبحانه أن يعمنا فضله، ويتحفنا برضوانه، ويعاملنا بإحسانه، وقد انقضى عنا يوم العيد وبتنا تلك الليلة في منى في نعمة شاملة، وبركة عظيمة، وعلينا منار الحج.

بلغت يا نفسي المنى في منى وقد أزال الله عنك العنا
فاستنفذي وسعك في حمده وشيدي منك بناء الثنا

ثم عمرت الأسواق، وكثرت الإنفاق، وأخرجت البضائع ذوات الأثمان وصنوف التجارات وتزاحم الناس على الشراء رجاء بركة ذلك المكان في ذلك الزمان وأكثر التحار يقولون من اشترى شيئا في منى وجعله في تجارته وجد بركته وظهر له ثمرته ولا يبعد ذلك فانه موسم شريف ومحل بركة وتشريف يأتيه الناس من كل فج عميق ليشدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معدودات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام وقد عمهم الله فيه من أمر دنياهم وأخراهم بغاية الإنعام ولما زالت الشمس توضأنا فخرجنا لرمي الجمرات الثلاث بلا مهلة ولا توان مبتدئين بالجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف ووقفنا عندهما وقوفا ظاهرا بينا سائلين الله تعالى حوائج الدنيا والآخرة مبتهلين متضرعين لله عز وجل إذ المطلوب الوقوف عند الأوليين مقدار سورة البقرة عند الأولى وفي الثانية دون مقدار آل عمران وإن لم نقف كذلك فقد وقفنا قريبا من ذلك عند الأوليين ثم سألنا الله الرحمة والعافية والتوفيق لنا وللأحبة ولجميع المسلمين عامهم وخاصهم لا سيما القريب لنا في الله وفي الدم.

قال شيخنا المذكور ولما كانت الليلة الثالثة[١] بالغ أهل مصر وأهل الشام في إيقاد المشاعل[٢] والمصابيح واتخاذ المصانع منها وصور الأشجار والأخبية وإكثار الرمي بالمدافع و البنادق والمحارق المرتفعة في الجو وفي ذلك نزهة للأبصار، وتسلية للأفكار، ومجال للاتعاظ والأذكار، والقبول والإنكار، منزل جميع أصناف العباد، وحشر إليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية، ومبانيه أحسن الأبنية، تشرق في النهار فساطيطه المؤنقة وفي الليل بالمصابيح المشرقة.

قال الإمام أبو سالم وبالجملة فأيام منى غرر في أوجه الزمان، ومواسم الفرح وسرور لأهل الإيمان، ومناهل رحمة ومغفرة من الله ورضوان، ومجال بركة وعافية وأمان، يتجلى فيه الحق لوفده بصفة الجمال، جزاء على رضاهم قبل ذلك بتجلي الجلال، فهنالك يستصغر المرء ما قاساه في طريقه من الشدائد، في جنب ما حصل له من النعم والفوائد، انتهى.

وفي اليوم الثالث أخذ الناس في الرحيل والتجهيز للانتقال إلى مكة لقوله تعالى: ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ وتعجلت الأركاب وطويت الأخبية، ونقضوا الأبنية، وفي تلك الأيام لا تقع صلاتنا إلا في مسجد الخيف الذي نزلنا حذاءه وهو المسمى بمسجد علي قيل أن علي بن أبي طالب أول من بناه وهو موضع منزل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم في حجة الوداع.

قال الإمام أبو سالم هذا المسجد من المحراب إلى الباب أربعمائة قدم وعرضه ثلاثمائة وأربعون وبوسط المسجد قبة مثمنة كل ثمن منها أربعة وعشرون قدما ورأيت

---

(١) في الرحلة الناصرية الثانية وهو الأصوب.
(٢) لا توجد هذه الكلمة في الرحلة الناصرية.

في بعض التواريخ أن في محل هذه القبة كان فسطاط النبي صلى الله عليه وسلم وصحن هذا المسجد كبير إذ السقف من مقدمه نحو أربعة من الصفوف ومن سائر الجوانب غير مسقف قال وقد رأيت قبل هذا في أحد سواري هذا المسجد مكتوبا ما أظن أن صورته هكذا:

أيها الغائبون بالله جودوا لغريب بدعوة أن قدمتم
كان ما قبل هاهنا مثل ما قد كنتم حاضرا كما قد حضرتم

وتحته مكتوب ما نصه:

قد حضرنا بذا المكان وغبتم وشهدنا به كما قد شهدتم
وذكرناكم بكل جميل فاذكرونا بمثله إن حضرتم

ووجدت في سارية أخرى بيتا مفردا وهو:

إن في الجنة نهرا من لبن لعلي وحسين وحسن

قال وقد صدق قائله إلا أنه تشم منه رائحة التشيع وان هذا النهر خاص بهم رضي الله عنهم وبمن والاهم دون غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم وهو مذهب الرافضة ومذهبنا معشر أهل السنة أنه لهم ولغيرهم من الصحابة وصالحي الأمة رضي الله عن جميعهم وجعلنا ممن أحسن من تابعيهم آمين انتهى.

فلما رمينا الجمار الثلاث عند الزوال وأرغمنا بها أنف الشيطان. زرنا المساجد أحدها فوق العقبة ولا تعرف ما اسمه والثاني مسجد في الشعب وأظنه الذي نص عليه شيخنا في رحلته ونصه وملنا إلى مسجد الكبش فزرناه ثم بعد مسجد العقبة أتيناه وهو المكان الذي بايع فيه الأنصار رضي الله عنهم بيعة العقبة فهو من المساجد المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم المتبرك بها وهو معدود من الأماكن التي

يستجاب الدعاء عنده وهو في الشعب تحت الجمرة بيسير على يسارك وأنت ذاهب من مكة إلى منى قال فسرنا فجئنا المحصب فنزلنا بإزاء مسجد عائشة وصلينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء ورقدنا رقدة ثم ذهبنا إلى العمرة وأحرمنا لها من التنعيم لتعذر الجعرانة من شدة الخوف وقلة الرفيق انتهى.

هذا وأن شيخنا المذكور نزل المحصب للسنة وتأخر عن التعجيل ليحصل الفضيلة المتروكة والناس في زماننا قد تركوا ذلك كله إلا من شذ من الناس لكثرة الأذية والخوف من اللصوص وقد زاد الفساد والظلم والتعدي من الأشراف وغيرهم من أصحابهم فلا يكادون يرجعون عن التعدي بل على أقل شيء يقتلون عليه العبد ولقد قتلوا صاحب أخينا في الله سيدي محمد بن قسوم الريغي على شربه الماء.

حاصله أني دخلت على سلطان مكة المشرفة في داره في منى في بعض الإبل ذهبت للحجاج أغار عليها العرب فاستأذنا في الدخول عليه أنا وجماعة من الفضلاء فأذن لي منفردا في الدخول وحدي ومن معي بقي عند باب الدار ينتظرون ما أرجع به فلما دخلت عليه وجدته جالسا على فرش مرتفعة مواجهها باب طاق ينظر الأركاب ويعتبر ومعه أشخاص قليلة فلما قربت منه تحرك عن موضعه فقبل كتفي وقبلت كتفه ثم قال ما تريد قلت الجمال لأن العرب أغاروا عليها عند البئر الفلاني وقلت له ألم تعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.

نعم لما سمعني قلت كلكم راع وكلكم الحديث وقد فرح بي وسر سرورا عظيما لما علم أني صاحب علم وانبسط وجهه انبساطا كاملا فتحرك وجدا وقال نعم فإن دخلنا مكة نأتكم بالإبل التي ضاعت لكم واعتذر لي بان قال ما ضيع الأحكام إلا

الأشراف فإن أمرهم قد قوي علي وعلى غيري أو كلاما هذا معناه والله اعلم وقد سألني عن وطني ونسبي فأجبته بما حاصله أني من عمالة الجزائر وأني شريف فلما أردت الانفصال سألني الدعاء له ولذريته وقام وودعني توديع الحبيب لحبيه وهذا السلطان اسمه مساعد وأما الحجة الأولى فقد كانت في ولاية أخيه السلطان مسعود وهذا كله يرشد إلى أن الزمان قد زاد في الظلم والتعدي نعم الحج قد كاد أن يكون ساقطا من الظلم من الولاة وأصحابهم والعرب والظلم الكبير من الشيالين زادوا في الارتياش للظلام والشكوة.

تتمة قد دخلنا مكة وسكنا دارا بالكراء أنا وأهلي وأما أصحابنا الفضلاء سيدي أحمد بن حمود وسيدي أحمد الطيب وسيدي أحمد الشريف الطرابلسي وأصحاب كل قد أكترى كل واحد دارا لنفسه مع أصحابه وإنما يكون اجتماعنا في المسجد الحرام وقد لزمته أيامي هناك فلا أخرج إلا لأمر مهم لا بد من الخروج إليه وأني دخلت الكعبة كما ذكرنا أولا والله اعلم أني لقيت صاحب السعد الكامل في الطواف وفي بعض الجمرات تقبل الله من جميعنا ثم بعد ذلك أتينا بالعمرة من التنعيم لتعذر الجعرانة من الخوف كما سبق مع اغتسال جميعنا هناك وأحرمنا بها وقضيناها ليلا بسعيها وطوافها وحلاقها والحمد لله على التمام ولله در شيخنا حيث قال:

وَرُدَّتْ إلى البيت الحرام وُفُودُنا ... نحن له كالطير حنّ لمأواه

وطفنا طوافا للإفاضة حوله ... ولذنا به بعد الجمار وزرناه

ومن بعد ما زرنا دخلناه دخلة ... كأنا دخلنا الخلد حين دخلناه

ونلنا أمان الله عند دخوله ... كما أخبر القرآن فيما قرأناه

إلى أن قال:

وكم موقف فيه يجاب لنا الدعا ... دعونا به والفضل فيه نويناه

ولما قضينا للإله مناسكا ذكرناه والمطلوب منه سألناه
فمن طالب حظا لدنياه ما له خلاق بأخراه إذا الله لاقاه
ومن طالب حسنى بدنيا لدينه وحسنى بأخراه وذاك يوفاه
وآخر لا يبغي من الله حاجة سوى نظرة في وجهه يوم يلقاه

قال شيخنا المذكور ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة شرفها الله تعالى:

منها الدار التي ولد فيها صلى الله عليه وسلم وقد جعلت الآن مسجدا ومزارا عظيما تفد إليه الوفود من كل ناحية أيام المولد النبوي هذا على ما علم مما وقع من الاختلاق في كتب السير في مولده صلى الله عليه وسلم هل هو بمكة أو بالأنواء وعلى انه بمكة فقيل بالشعب وقيل بالمحصب إلى غير ذلك من الأقوال ولا أدري من أين أخذ الناس تعيين هذا المحل بالخصوص اللهم إلا أن يثبت أن تلك دار والده أو جده صلى الله عليه وسلم فيترجح القول بأنه في مكة بقضية عادية وهي أن ولادة الإنسان في الغالب في منزل والده وأن أريد بالشعب شعب أبي طالب الذي انحاز إليه مع بني هاشم وبني المطلب في قضية الصحيفة فلا يبعد ذلك لأن هذه الدار قريبة من الشعب من أسفله والعجب أنهم عينوا موضعا من الدار مقدار مضجع وقالوا انه موضع ولادته صلى الله عليه وسلم.

قال شيخنا أبو سالم ويبعد عندي كل البعد تقييد ذلك من طريق صحيح أو ضعيف لما تقدم من الخلاف من كونه في مكة أو غيرها وعلى القول بأنه فيها ففي أي شعابها وعلى القول بتعيين هذا الشعب ففي أي الدور وعلى القول بتعيين الدار فيبعد كل البعد تعيين الموضع من الدار مع مرور الأزمان والأعصار، وانقطاع الآثار، والولادة وقعت في زمان الجاهلية وليس من يعتني بحفظ الأمكنة لا سيما مع عدم

تعلق غرض لهم بذلك وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي لصرف اعتنائهم رضي الله عنهم لما هو أهم من حفظ الشريعة والذب عنها بالسنان واللسان وكان ذلك هو السبب في خفاء كثير من الآثار الواقعة في الإسلام ومن مساجده عليه الصلاة والسلام ومواضع غزواته ومدفن كثير من أصحابه مع وقوع ذلك في المشاهد الجليلة فما بالك بما وقع في الجاهلية لا سيما ما لا يكاد أن يحضره أحد إلا من وقع له كمولد علي رضي الله عنه ومولد عمر ومولد فاطمة رضي الله تعالى عن جميعهم فهذه أماكن مشهورة عند أهل مكة فيقولون هذا مولد فلان وهذا مولد فلان وذلك من البعد أبعد من تعيين مولده عليه الصلاة والسلام لوقوع كثير من الآيات ليلة مولده صلى الله عليه وسلم وقد يتنبه بعض الناس لذلك بسبب ما ظهر من الآيات وإن كانوا أهل جاهلية وأما مولد غيره ممن ولد في ذلك العصر فتكاد العادة أن تقطع بعدم معرفته إلا أن يرد خبر عن صاحب الواقعة بنفسه أو أحد من أهل بيته وحاصل الأمر أن هذه الأماكن اشتهرت بين الناس فتزار بحسن النية لعظم قدر من أضيفت إليه صلى الله عليه وسلم فليستحضر الزائر في قلبه عظمة من نسبت إليه الأمكنة وعظمة تلك النسبة ولا يشغل قلبه بصحة النسبة وضعفها لوجودها في الخارج ولو عدمت في نفس الأمر لرعاية تعظيم الموجودة على النسبة له أثر كبير يعني الجلب والدفع نسأله تبارك وتعالى أن يجعلنا ممن يعظم حرماته وشعائره تعظيما يوافق أمره وقد مر قريبا ذكر باقي المزارات التي تزار في مكة.

ذكر من لقيتهم في الحرم المكي من الأئمة

الشيخ أحمد المخيلي[١] الشافعي والشيخ عبد الله بن سالم البصري الشافعي والشيخ محمد تاج الدين مفتي الحنفية وابناه الشيخ عبد المحسن والشيخ عبد المنعم والشيخ عبد القادر بن أبي بكر الحنفي المفتي كان تولى الفتوى قبل والشيخ محمد أكرم الهندي والشيخ مصطفى بن فتح الله الحموي المكي الشافعي وله تآليف على التاريخ ذكر فيه علماء الحادي عشر وصلحاءه وأدباءه وملوكه وشعراءه أطلعني على سفر منه ذكر فيه المحمدين فقط ولم يكمل إلى الآن وله رحلة إلى اليمن ولقي الوالد وأخذ عنه وجعل له ترجمة والشيخ محمد بن عبد الباقي الإسكندراني المالكي والشيخ إدريس بن أحمد الصعدي الشافعي وهو نسبة إلى صعدة بلدة باليمن والشيخ عبد الرحمن السندي والد أكرم والشيخ عبد الكريم الهندي.

وفي عام ستة وتسعين التقينا بمكة وأكرمنا بها الشيخ الحسين العجمي[٢] والشيخ الحسين الحنفي المكي وأهدى لنا عكازا من الخيزران والشيخ علي اليمني والشيخ عبد الله اليمني وهما من أصحاب سيدنا الوالد رضي الله عنه وطلعا معنا إلى جبل أبي قبيس فجلسنا هنالك سويعات للدعاء ومشاهدة البيت العتيق والمسجد الحرام ومكة كلها قعيقعان وغير ذلك من الأمكنة العظيمة وزرنا هناك وليا مدفونا بروضته عليه بناء بأحجار وهناك بيت فوق شعب بني هاشم قالوا من حوله وحياله انشق القمر له صلى الله عليه وسلم وزارا معنا غير ذلك جزاهما الله خيرا انتهى.

وأما من أجازه في مكة فأنظره في رحلته وكذا من لقيه فيها وأما من لقيته فيها فقد

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية النحلي.

(٢) الرحلة الناصرية العجيمي.

لقيت كثيرا من الفضلاء الآجلة والبدور الأهلة وكذا زيارة المواطن فقد زرت مقبرة مكة كالشيخ ابن حجر الهيتمي شارح الهمزية وكذا قبر زوج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وكذا الأماكن المذكورة في مكة.

وأما الغار الذي اختفى فيه صلى الله عليه وسلم وكذا غار تحته أي غار حراء فإنما زرناهما بالنية فقط عن بعد وكذا الجعرانة.

تتمة أذكر من أخذ عليه شيخنا سيدي أحمد بن ناصر فأقول قال عن شيخنا الأنصاري وهو عن أبي محمد بن طاهر الحسني وأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن الدلائي والشهاب أبي العباس المقَّري التلمساني.

أما الأول فأخذه كذلك عن غير واحد ومن أجلهم أبو العباس أحمد بن علي المنحور الفاسي وهو عن جماعة منهم أبو محمد عبد الرحمن بن علي بن أحمد القصري المعروف بسقين والعلامة أبو الحسن علي بن هارون المضغري وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن اليسينني وأبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن يحيي الونشريسي الفاسيون وهم أربعة أخذوه عن حافظ المذهب في عصره أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي وزاد سقين عن أبي العباس أحمد زروق الفاسي وزاد عبد الواحد عن أبيه أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي التلمساني ثم الفاسي مؤلف المعيار المعروف في النوازل.

وأما الثاني والثالث فأخذاه عن أبي عبد الله محمد بن قاسم القيسي الشهير بالقصار وهو عن اليسيتنني وغيره والسيتنني عمّن تقدم وعن الفقيه أبي العباس بن علي الزقاق الفاسي وهو عن أبيه علي بن محمد الزقاق وزاد الثالث وهو الشهاب المقري فأخذه عن عمه إمام الفتوى بتلمسان بالمغرب ستين سنة أبي عثمان سعيد المقري وهو عن أبي عبد الله محمد بن محمد التنسي وهو عن أبيه الحافظ أبي عبد الله

محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني وقد انتهت الطرق باعتبار ما وقفنا عليه إلى خمسة أعيان من أعلام فاس وتلمسان الإمام ابن غازي والشيخ زروق والعلامة الونشريسي والمحقق الزقاق والحافظ التنسي أما ابن غازي فعن جماعة من أجلهم أبو عبد الله محمد بن قاسم القوري اللخمي المكناسي والمحقق النظار أبو العباس أحمد المزدغي وأبو زيد الكاواني أما القوري فعن الجاناتي وأما المزدغي والكاواني فعن أبي مهدي عيسى بن علال وأبي القاسم التازغدري والجاناتي وابن علال فهما عن العبدوسي الفاسي وهو عن القوري الفاسي صاحب التقييد على المدونة المنسوب لأبي الحسن الصغير وعن شيخ الرسالة والمدونة أبي زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي والقوري عن شيخ الإسلام أبي الحسن الصُغَير بضم الصاد المهملة وفتح العين المعجمة وتشديد المثناة التحية وهو وابن عفان الجزولي عن الشيخ أبي الفضل راشد ابن أبي راشد الوليدي الفاسي وعن شيخ المدونة الأعرج صاحب الطرر على المدونة وهما عن أبي محمد صالح الهسكوري الفاسي وهو عن أبي موسى المومناني وأبي القاسم بن البقال وهم عن خلف ابن عبد الملك بن بشكوال وهو عن ابن عتاب وأبي الوليد ابن رشد والقاضي أبي بكر ابن العربي وغيرهم.

وأما الشيخ زروق فعن القوري وعن عالم الصلحاء وصالح العلماء أبي زيد عبد الرحمن الثعالبي الجعفري مؤلف شرح ابن الحاجب وغيره وعن أبي العباس حلولو شارح المختصر وغيره وعن قاضي الجماعة الرصاع التونسي شارح حدود ابن عرفة وغيره والثلاثة الرصاع والثعالبي وحلولو أخذوه عن النظار البُرْزُلي مؤلف النوازل المشهورة وزاد الثعالبي عن العلامة محمد بن خلفة الأُبّي مؤلف إكمال الإكمال والحافظ أبي الفضل ابن مرزوق الحفيد زواد حلولو عن ابن ناجي شارح الرسالة والمدونة وزاد الرصاع عن ابن عقاب التونسي وزاد الرصاع أيضا مع الثعالبي عن عبد العزيز بن موسى بن معطي العبدوسي الفاسي والجميع ما عدا العبدوسي عن أبي عبد الله محمد

بن عرفة الروغمي التونسي وزاد البرزلي عن قاضي الجماعة أحمد بن حيدرة التونسي وأما العبدوسي فعن أبيه أبي عمران العبدوسي بسنده المتقدم وأخذه الإمام ابن عرفة والقاضي ابن حيدرة عن جماعة منهم قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري التونسي شارح ابن الحاجب وهو أخذه عن جماعة منهم العلامة المعمر(١) والإمام المجتهد محمد بن هارون التونسي شارح ابن الحاجب ومختصر المتيطية وهما أخذاه عن جماعة منهم ابن هارون القرطبي ثم التونسي وهو عن أبي القاسم ابن بقى القرطبي وهو عن محمد بن عبد الحق الخزرجي القرطبي وهو عن ابن فرج مولى ابن الطلاع.

وأما الحافظ الونشريسي فعن جماعة أعلام أجلهم أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني التلمساني وولده أبو سالم والعلامة محمد العبادي التلمساني وأخذ أبو العباس عن أبي الفضل قاسم المذكور عن إمام المغرب وقطبه الحافظ المطلق أبي الفضل محمد ابن مرزوق الحفي التلمساني وهما أخذاه عن أبي عثمان سعيد العقباني وزاد الحفيد عن أبيه وعن العلامة المحقق أبي محمد عبد الله بن محمد الشريف التلمساني عن الإمام ابن عرفة بسنده المتقدم وأما العقباني وابن عرفة أيضا فأخذاه عن أبي عبد الله محمد بن سليمان السطّي وزاد العقباني عن التلمسانيين أبي زيد وأبي موسى ابني الإمام وهما أخذاه عن جماعة منهم ابن تميم اليفرني وهو والحافظ السطي عن أبي الحسن الصغير.

وأما والد الحفيد ابن مرزوق فعن والده الإمام الجليل ابن مرزوق الخطيب وهو عن السطي بسنده وعن العلامة ابن راشد البكري القفصي شارح ابن الحاجب وهو عن العلامة المجتهد شهاب الدين أحمد ابن إدريس القرافي مؤلف الذخيرة وغيرها

(١) في الرحلة الناصرية بإسقاط وهو أخذه عن جماعة منهم العلامة المعمر.

وهو[1] عن القاضي ناصر الدين الأبياري وعن العلامة النظار أبي العباس ناصر الدين ابن المنّير الاسكندراني وثلاثتهم أخذوه عن إمام التحقيق وفارس الإتقان أبي عمر جمال الدين عثمان بن أبي بكر ابن الحاجب وهو أخذه عن العالم الراسخ شمس الدين أبي الحسن الأبياري بكسر[2] الهمزة وسكون الباء الموحدة بعدها مثناة تحتية وهو أخذه عن أبي طاهر إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف الزهري من ذرية عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وهو عن الإمام الكبير أبي بكر الطرطوشي.

وأما العلامة عبد الله الشريف التلمساني فعن والده الإمام النظار التلمساني وهو عن ابني الإمام أبي موسى وأبي عيسى وعن الحافظ السطي بسنده المتقدم وهو عن الرزلي[3] وهو عن أبي الحسن الصغير بسنده.

وأما أبو الحسن الزقاق الفاسي فعن القوري وعن الحافظ العبدري الغرناطي المعروف بالمواق وهو عن جماعة منهم الإمام القاضي محمد بن محمد بن السراج الغرناطي وهو عن فرج ابن قاسم بن أحمد بن لب الغرناطي أيضا وهو عن أبي عبد الله المعروف بابن أبي بكر المالقي وهو عن الحافظ الكبير أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير وهو أخذه عن جماعة منهم القاضي الجليل أبو عبد الله ابن غازي الأنصاري السبتي والقاضي أبو الخطاب السكوني وهو عن أبيه أحمد بن خليل وهو وابن غازي عن إمام الشورى أبي الفضل عياض ابن موسى اليحصبي مؤلف التنبيهات وغيرها وهو عن شيوخ المذهب أبي عبد الله التميمي السبتي وقاضي الجماعة بقرطبة أبي الوليد ابن رشد القرطبي مؤلف البيان والتحصيل والمقدمات وغيرها والإمام أبي عبد الله

---

(١) في الرحلة الناصرية بإسقاط هو.

(٢) في الرحلة الناصرية بفتح وهو الأصوب كما في التاء.

(٣) في الرحلة الناصرية البرونين.

ابن الحاج القرطبي صاحب النوازل وغيرها والقاضي أبي بكر ابن العربي الأشبيلي مؤلف القبس وغيره والإمام ابن عتاب القرطبي أيضا وبالإجازة مثله.

وأما الحافظ التنسي فعن جماعة منهم الحافظ أبو الفضل ابن مرزوق الحفيد وهو عمن تقدم ومن جملتهم العلامة عبد الله بن محمد الشريف التلمساني وهو عمن تقدم وعن الإمام القباب وهو عن قاضي الجماعة أبي عبد الله القشتالي صاحب الوثائق وهو عن أبي الحسن ابن سليمان القرطبي وهو عن أبي عمر ابن حوط القرطبي أيضا وهو عن أبيه وهو عن الإمام الجليل أبي الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الحفيد مؤلف بداية المجتهد ونهاية المقتصد وغيره والحافظ البرزلي عن أبي عبد الله بن سعيد بن زرقون مؤلفا لأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار وغيره فالأول وهو الحفيد أخذه عن أبيه عن جده وعن الإمام النظار المجتهد القوي[1] الباع في تحقيق النظر أبي عبد الله محمد بن علي التميمي المازري مؤلف شرح التلقين وغيره والثاني وهو ابن زرقون أخذه عن القاضي أبي الفضل عياض.

جامعة، مشارق أنوارها لامعة قد انتهت الطرق إلى أعلام الطبقة وشيوخ الفتيا وأئمة الشورى الإمام المازري وأبي الوليد ابن رشد وابن الحاج وأبي بكر الطرطوشي وابن العربي وأبي محمد ابن عتاب والقاضي ابن عيسى التميمي أما الإمام المازري فعن أبي الحسن علي بن محمد اللخمي مؤلف التبصرة والمحقق النظار أبي محمد عبد الحميد المعروف بابن الصائغ مكمل تعليقة التونسي وهما عن أبي إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي مؤلف التعليقة على المدونة والعلامة ابن محرز القيرواني مؤلف التبصرة وهما عن الإمامين أبي بكر بن عبد الرحمن وأبي عمران الفاسي وهما عن شيخي المذهب وموشي طرازه المذهب أبي محمد عبد الله ابن أبي زيد مؤلف الرسالة والنوادر

(١) في الرحلة الناصرية المديد.

والمختصر وغيرها وأبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي وزاد أبو بكر بن عبد الرحمن عن أبي القاسم الغافقي الجوهري المصري وزاد أبو عمران الفاسي عن وهما أبي عبد الله المعروف بالوشاء المصري وهما أعني الوشاء والجوهري أخذاه عن أبي إسحاق ابن شعبان المعروف بالقُرْطي[١] بقالف مضمومة وراء ساكنة وطاء مهملة بعدها ياء النسبة المصري مؤلف الزاهي ومختصر ما ليس في المختصر وهو عن أحمد الصدفي المصري المعروف بالزياتي[٢] وهو عن رابع المحمدين أبي عبد الله محمد ابن عبد الحكم وهو عن أبيه وابن القاسم وأشهب وابن وهب.

وأما الشيخان الراسخان أبو محمد ابن أبي زيد وأبو الحسن القابسي فأخذاه عن أبي ميمونة ابن إسماعيل الفاسي وعن الأبياني بكسر الهمزة والموحدة المشددة المكسورة بعدها مثناة تحتية وزاد ابن أبي زيد عن الحافظ أبي بكر محمد بن اللباد القيرواني وعليه عمدته وعن أبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي أما أبو ميمونة ابن إسماعيل المذكور فأخذه عن جماعة منهم الحافظ ابن عبد الله ابن أبي مطر وهو أخذه عن محقق المذهب أبي عبد الله محمد بن المواز مؤلف المختصر المعروف بالموازية وهو أخذه عن محمد ابن عبد الحكم وابن الماجشون واصبغ والحارث بن مسكين والأخيران أخذاه عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب.

وأما الثلاثة أبو العباس الأبياني وأبو بكر ابن اللباد وأبو العرب التميمي فأخذوه عن الإمام المجاب الدعوة أبي زكرياء يحيى بن عمر الأندلسي القيرواني مؤلف اختصار المستخرجة وعن الحافظ المقدم أبي جعفر المعروف بابن الصواف وعن أحمد بن محمد الأشعري المعروف بحمديس القطان وثلاثتهم أخذوه عن الإمام أبي سعيد

---

(١) في الرحلة الناصرية القهري بقاب مضمومة وراء ساكنة وهاء مهملة بعدها ياء النسبة.
(٢) في الرحلة الناصرية الزيات.

عبد الله بن سحنون القيرواني مؤلف المدونة وتسمى أيضا المختلطة وهو أخذه عن علي بن زياد التونسي وأبي أشرس وابن غانم وابن القاسم وأشهب وابن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وعبد الملك بن الماجشون.

وأما زعيم فقهاء وقته أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد وأبو عبد الله أحمد بن الحاج فأخذاه عن جماعة منهم ابن زرقون[1] القرطبي وعن أبي عبد الله محمد بن فرج مولى الطلاع مؤلف كتاب الشروط وكتاب الأحكام وهما أخذاه عن أحفظ الناس للمدونة ابن اقطا وهو أخذه عن ابن حدُّون القرطبي وعن الشيخ ابن الشقاء القرطبي أيضا وهما أخذاه عن ابن المكوي مؤلف كتاب الاستيعاب في المذهب وهو عن أبي بكر اللؤلؤي القرطبي أيضا وعن ابن مسرة مؤلف كتاب النصائح فاللؤلؤي أخذه عن أبي صالح المعافري القرطبي والثاني وهو إبراهيم عن أبي عبد الله ابن لبابة وعن ابن عبد الملك ابن أيمن القرطبي والثلاثة أبو صالح وابن لبابة وابن أيمن أخذوه عن ابن عتبة ابن أبي سفيان مؤلف العتبية ويقال لها المستخرجة أيضا وعن ابن وضاح القرطبي وعن أبي زكرياء يحيى ابن مزين القرطبي مؤلف المستقصية وغيرها وعن النظار ابن مطروح الأعرج والأربعة أعني العتبي وابن وضاح وابن مزين وابن مطروح أخذوه عن يحيى بن يحيى الليثي القرطبي وعن أبي عبد الله أصبغ بن الفرح المصري وزاد الثلاثة سوى ابن مزين عن الإمام سحنون وزاد ابن مطروح وابن مزين عن فقيه الأندلس أبي محمد عيسى بن دينار القرطبي صاحب الأسمعة وهو وسحنون وأصبغ ويحيى عن ابن القاسم وزاد ابن وضاح عن القاضي أبي عر والحارث بن مسكين المصري وعن الفقيه أبي مروان عبد الملك بن الحسن المعروف بزونان وعن عالم الأندلس أبي مروان عبد الملك بن حبيب مؤلف الواضحة وغيرها والأولان ابن

---

(١) في الرحلة الناصرية رزق.

مسكين وزونان أخذاه عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب والثالث وهو ابن حبيب أخذه عن أصبغ بن الفرج وعن الغازي ابن قيس وعن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون وعن مطرف وابن الماجشون وعبد الله بن نافع وعبد الله بن عبد الحكم.

وأما شيخ الشيوخ أبو بكر الطرطوشي فأخذه عن النظار المعروف بالباجي الأندلسي مؤلف المنتقى وغيره وهو عن أبي الأصبغ ابن سهل القرطبي مؤلف الأعلام بنوازل الأحكام ومن طريق القرويين عن مكي القيسي ومن طريق العراقيين عن أبي الفضل ابن عمروس البغدادي أما ابن سهل فعن القطان بسنده وعن شيخ المفتين ابن عتاب القرطبي ولازمه واختص به وعن الفقيه أبي بكر يحيى بن محمد الغساني القليعي أما ابن عتاب فأخذه عن جماعة منهم القاضي أبو المطرف ابن بشير المعروف بابن الحصار ولازمه واختص به وكان يفخر به وعن أبي بكر عبد الرحمن بن أحمد التجيبي المعروف بابن حريبيل فالأول وهو ابن بشير أخذه عن قاضي الجماعة ابن ذكوان وهو عن ابن اصبغ البياني وهو عن ابن وضاح والثاني وهو ابن حريبيل التجيبي المذكور فأخذه عن الخشني مؤلف كتاب الاتفاق والاختلاف في المذهب وهو أخذه عن أبي بكر بن اللباد وأبي جعفر أحمد بن أبي نصر الهواري وهما أخذاه عن يحيى بن عمر ومحمد بن عبدوس ومحمد بن سحنون وجميعهم عن سحنون.

وأما القليعي فأخذه عن محمد بن عبد الله بن أبي زمنين بفتح الزاي والميم وكسر النون البيري مؤلف كتاب المتخب في الأحكام وهو عن ابن مسرة بسنده.

وأما أبو محمد مكي فعن شيخيه ابن أبي زيد والقابسي بسندهما.

وأما ابن عمروس فعن البغدادي المعروف بابن القصار مؤلف عيون الأدلة في الانتصار للمذهب وعن عبد الوهاب البغدادي مؤلف التلقين والمعونة وغيرهما وهو

أخذه عن الحافظ ابن الجلاب مؤلف التفريع وهو وابن القصار وعبد الوهاب أخذوه عن الأبهري مؤلف الشرح لمختصر ابن عبد الحكم وهو عن الليثي البغدادي مؤلف الحاوي وعن أبي عمرو محمد بن يوسف وعن ابن الجهم المعروف بابن الرواق مؤلف كتاب مسائل الخلاف والحجة لمذهب مالك وشرح المختصر الصغير لابن عبد الحكم وهو وأبو الفرج وأبو عمرو أخذوه عن سهيل بن حماد البصري وهو أخذه عن أحمد ابن المعدل البصري وهو عن ابن الماجشون ومحمد بن مسلمة.

وأما المعافري الإشبيلي فأخذه عن الطرطوشي بسنده وعن ابن العربي وهو عن ابن عتاب بسنده أما ابن عتاب فعن أئمة بسنده.

وأما محمد بن عيسى التميمي السبتي فعن النسيلي وابن عبد الرحيم ابن العجوز وعن الغساني القرطبي أما النسيلي فعن فقهاء سبتة إبراهيم بن يربوع السبتي وابن غالب الهمداني السبتي وهو عن ابن أبي زيد أخذ عنه جميع كتبه بسنده وابن يربوع وهو الهمداني أخذ عن الباجي وهو عن ابن لبابة وابن أيمن بسندهما.

وأما أبو عبد الله ابن العجوز فعن أبي محمد عبد الرحمن وهو عن أبي إسحاق التونسي بسنده وعن أبيه أبي عبد الرحمن عبد الرحيم السبتي وهو عن ابن أبي زيد بسنده.

وأما أبو علي الجياني فعن ابن عبد البر مؤلف الكافي والاستذكار والتمهيد وغيرها وهو عن ابن المكوي بسنده وعن ابن القاضي القرطبي وهو عن جماعة منهم ابن الفخار البيري وعن ابن أصبغ البجاني بموحدة فجيم مشددة أما ابن الفخار فعن ابن سلمة مؤلف مختصر الواضحة وهو عن ابن مروان الهمداني القيرواني وهو عن ابن عبدوس وهو عن سحنون وأخذ ابن مروان أيضا عن سحنون وعن ابن عبد الحكم

أما مجاهد ابن أصبغ فعن سعيد البجاني وهو عن المغامي الدوسي من ذرية أبي هريرة رضي الله عنه وعن ابن ميسر بفتح السين المهملة فالمغامي عن يحيى بن يحيى وابن حبيب وابن مزين وغيرهم بسندهم وابن ميسر أخذ عن ابن المواز بسنده.

جامعة من المدنيين الإمام الثقة المغيرة المخزومي وابن دينار الجهني مولاهم وابن مسلمة وابن مطرف اليساري وابن الماجشون وابن نافع مولى بني مخزوم ومن المصريين عبد الرحمن ابن القاسم العتقي وأشهب وابن وهب وابن عبد الحكم ومن الأفريقيين ابن زياد التونسي وابن اشرس الأنصاري وابن راشد القيرواني ومن الأندلسيين الغازي ان قيس القرطبي وأبو عبد الله ابن شبطون ويحيى بن يحيى الليثي وجميعهم أخذوه عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس وهو أخذ عن الزهري وربيعة ويحيى ابن إسحاق الأنصاري وأبي نمر الليثي والعلاء بن يعقوب مولى الحرقة والحرقة فخذ من جهينة وأبي عبيدة حميد الطويل وأبي عبد الله الثقفي وأبي عثمان بن ميسرة مولى المطلب ابن حنطب المخزومي وهؤلاء عن أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم ابن يدرس مولى حكيم بن حزام وأبو عبد الله المنكدر التيمي القرشي وأبو إسامة مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأبو نعيم وهب بن كيسان مولى ابن الزبير بن العوام وهؤلاء عن جابر بن عبد الله وزاد بن وهب عن عمر بن أبي سلمة ومنهم أبو عبد الله نافع وابن دينار موليا ابن عمر وهما عن سيدهما ومولاهما عبد الله بن عمر وزاد نافع عن أبي سعيد الخدري وأبي لبابة رضي الله عنهما ومنهم سلمة بن دينار مولى بني ليث وهو عن سهل الساعدي وكذا ابن شهاب الزهري أيضا ومنهم سعيد بن أبي سعيد واسمه كيسان مولى بني جندع وهو عن الكعبي ومنهم نعيم بن عبد الله وهو عن أبي هريرة والجملة من الصحابة المذكورين تلقوه عن سيد الكونين وجمال الثقلين أبي القاسم سيدنا ومولانا ونبينا محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وعظم ومجد وهو عن

الروح الأمين جبريل عليه السلام عن رب العالمين جل جلاله وتقدس كماله انتهى ما نسب لجامعها وصاحب سلسلتها سيدي عيسى بن محمد الثعالبي.

انعطاف الأماكن التي ينبغي زيارتها بمكة خلاف ما تقدم دار الأرقم[1] التي اختفى فيها النبي صلى الله عليه وسلم وبها كان إسلام عمر رضي الله عنه وخبرها مشهور في السير وهي الآن مسجد قرب الصفا ومنها موضع بسوق مكة يسمى المودع يقال أن فيه ودع النبي صلى الله عليه وسلم أهل مكة في حجة الوداع لما أراد الخروج إلى المدينة وهو مكان مشرف تظهر منه بعض أستار الكعبة وليس في أسواق مكة محل تظهر منه الكعبة إلا هذا فيقف الناس للدعاء وقريب من هذا المكان رباط ينسب للشيخ عبد القادر الجيلاني يسكنه الفقراء وله أوقاف وبه قبور تزار لا أتحقق أصحابها ومنها مسجد الجن وهو بأعلى مكة بجانب الطريق بين الدور فيه شجرة يأوي إليها الفقراء ويستظلون فيه وهو المكان الذي جاء فيه الجن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا ومنها شعب أبي طالب الذي انحاز إليه هو وبنو هاشم وخبره مشهور في السير ومنها جبل أبي قبيس يشرف منه على مكة كلها والمسجد والبيت وفيه مغارة يقال أن بها قبر آدم عليه السلام والحجاج يشترون من مكة رؤوس الغنم المشوية ويصعدون إليه يأكلونها ويزعمون أن من فعل ذلك أمن من وجع الأسنان والرأس ومنها قبة على الجبل الذي على يسار الذاهب إلى الشبيكة يقال ان فيها مولد عمر رضي الله عنه ومنها محل في الجبل المشرف على المحصب على يمين الذاهب إلى منى يزعم أهل مكة أن به قبر عبد الله بن عمر رضي الله عنه فيخرجون إليه في إحدى ليالي ذي القعدة أظنها الثالثة عشرة رجالا ونساء كبارا وصغارا يبيتون هنالك عامة ليلتهم.

قال أبو سالم وسألت أهل العلم بمكة عن ذلك فأخبروني أنهم لا يعلمون لذلك

---

(١) في ثلاث نسخ دار اختصار الأرقم.

أصلا ومن جملة خرافاتهم المتعلقة بتلك الليلة في ذلك أنهم يأخذون معهم نوى التمر فيدفنونه بالأرض في ذلك الجبل تلك الليلة ويزعمون أن من دفن شيئا حصل له في تلك السنة[1] بعدده ريالا أو دنانير وأغرب من ذلك ما حكى لي بعض أصحابنا تصديقا لزعمهم ذلك أن الشيخ علي بن الجمال الشافعي وكان من فقهاء مكة المعتبرين خرج مع بعض أهل مكة في بعض السنين إلى هذا المحل فلما رأى فعلهم ذلك أنكره ثم انه جمع شيئا من النوى حتى جمع نحو المائتين فدفنها ثم وجد سبعا أخرى ودفنها وهو في ذلك كالمتلاعب فلما كان وقت الموسم بينما هو جالس في المسجد الحرام إذ جاء شخص من أهل العراق يسأل عنه حتى وجده فناوله صرة كبيرة وقال له أن جماعة من طلبة الإحساء كانوا يقرءون هنا عندك قبل ذلك وقد جمعوا لك هذه الدارهم بقصد التبرك منك وقد سلموا عليك وهذه مائتا ريال قال فوقع في نفسي تصديق ما زعموا وأني كنت دفنت مائتي نواة ثم قلت وأين السبعة التي دفنتها بعد ذل فلم أرم مكاني حتى رجع إلى ذلك الشخص وقال لي يا سيدي وهذه سبعة أخرى قد تبعني بها شخص بعد ما فارقت الجماعة وقال لي أوصلها إلى الشيخ قال فتعجبت من ذلك ومن موافقته للحال والله اعلم.

ولأهل مكة في هذه الليلة أيضا عمل مولد كبير في مشهد العيدروسي رضي الله عنه عند الشبيكة يجتمع هناك جماعة من أولاده وإتباع السالكين على طريقه ويعملون هنالك سماعا وقراءة وتلاوة ويجتمع فيه خلق كثير وقد فرش المشهد كله وما حوله وأعدت للحاضرين أطعمة وأشربة ويستكثرون هنالك من المصابيح فهو من المشاهد المشهورة بمكة والمزارات المعظمة وبيتهم له صيت ومكانة عند الخاص والعام.

وأما المقابر فالحجون كله مزارات وأشهر المزارات فيه قبة أم المؤمنين السيدة

---

(١) في الرحلة الناصرية الليلة.

خديجة رضي الله تعالى عنها وقبة فيها قبر الفضيل بن عياض وغير ذلك ومحوط فيه قبور كثيرة لأئمة من العلماء الغرباء قال أبو سالم قرأت على حجر فيه هذا قبر الإمام أبي القاسم القشيري وهذا غريب إلا أن يكون قد نقل بعد موته إلى هنالك ولم نر أحدا من المؤرخين ذكر انه مات بمكة.

وقد رأيت في طبقات الإمام تاج الدين السبكي التعريف بولد أبي القاسم القشيري وذكر انه توفي بمكة المشرفة فعلمت أن القبر قبره لا قبر أبيه رضي الله تعالى عنهما وعلى حجر آخر قبر أبي حامد بهاء الدين السبكي وجماعة كثيرة وأسفل الحجون بجانب الطريق قباب كثيرة غالبها للشرفاء أمراء مكة ومنها قبة سامية يقال لها قبة أبي طالب وعوام الغرباء يظنونه أبا طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبعضهم يقول أبو طالب المكي وإنما هو أمير مكة المتأخرين من أشرافها من آل نبي نمر اسمه أبو طالب قالوا كان في حياته شجاعا مقداما فاتكاً دوخ بلاد الحجاز وقهر عربانها غاية القهر وأهل نجد وتهامة إلى الآن يؤرخون بعهده فيقولون كان هذا في زمان أبي طالب وكان سفاك للدماء ومع ذلك كان حسن السيرة ولم يكن أحد يأتيه بالولاية لما هو عليه من الفتك والبطش إلا أن بعض أهل الكشف كان يقول هو مظهر من مظاهر أسمائه تعالى القهرية أقيم في مقام الجلال فلما توفي ظهرت له كرامات كثيرة وصار قبره من أعظم المزارات.

فمما ظهر منها أنهم قالوا جلس جماعة من القراء حول قبره يقرءون القرآن قرب موته كما هو عادتهم وبين أيديهم شمعة تضيء بليل فوقعت إلى الأرض فانطفأت فتحيروا فلم يجدوا من يوقدها لهم فانشق القبر عيانا فخرج منه وأوقد لهم الشمعة فرجع ومنها أن بدويا خرج من مكة بقفص عنب فلما وصل إلى قبره تذكر حاجة بمكة فوضع القفص ورجع فجاء سارق ليأخذه فيبست يده والتصقت بالقفص وبقي

واقفا عنده حائرا إلى أن جاء البدوي فلما رأى ذلك قال على حسب نيته واعتقاده جاذْ يا أبا طالب جاذْ يا أبا طالب جاذْ يا أبا طالب جاد يا أبا طالب أطلقه الآن وقد قضيت حاجتي وانطلقت يد السارق وذهب.

ومن المزارات قبر الولي الصالح القطب الشهير الذكر عند أهل مكة وأعرابها سيدي عمر العرابي وغالب السائلين بمكة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه وأهل البادية تسمع الرجال منهم والنساء يقولون شيء لله يا عرابي وهو عندهم عظيم القدر شهير الذكر وحق له ذلك فانه كان من أئمة الطريق رضي الله تعالى عنهم.

ومن الأماكن التي لا ينبغي للمجاور أو من معه نفس من الزمان إهمال زيارتها والورود عليها مدينة جدة وما بها من المشاهد كالمحل الذي يقال أنه فيه قبر أمنا حواء وممن جزم أن قبرها بها ابن خلكان في ترجمة ابن قلاقس الشاعر وذكره أيضا في ترجمة أخرى على أن جدة في نفسها من أعظم البقاع فقد ورد ف فضلها وفضل المقام بها والرباط فيها عدة آثار نقلها أهل الأخبار وهي مدينة كبيرة ممتدة مع ساحل البحر نحو ميلين في كلا طرفيها حصار متقن البناء فيه مدافع كثيرة وعسكره لا يفارقه.

قال الشيخ أبو سالم وقد رأيت في الحصار الغربي منها ما يستغرب وصفه من المدافع طولا وكبرا وقد رأيت فيها مدفعا له خمسة أفواه بصنعة غريبة وفي مرساها سفن كثيرة كبار وصغار وغالبها معمول بالشريط بصنعة عجيبة ليس فيها مسمار، وهي مع ذلك كبيرة المقدار، متباينة الأقطار، واسعة الإنحاء تحمل أضعاف ما يحمل غيرها من السفن وأسواق البلد ممتدة مع جانب البحر وغالبها أخصاص واسعة مفتحة إلى البحر وإلى ناحية البلد فيها قهاوي ومجالس حسنة يبالغ أصحابها في كنسها وتنظيفها ورشها بالماء وفيه جلوس غالب أهل البلد وقد اتخذوا فيها أسرة كثيرة منسوجة بشريط المسد بصنعة محكمة ومسجدها الكبير من أجل المساجد فيه أعمدة

من الساج مخروطة على هيئة أعمدة الرخام المخروط صليب عودها يحسبها من لم يتأملها رخاما أحمر.

قال وأخبرني شيخنا أبو مهدي انه يقال أن أعمدة ذلك المسجد جلبت في صدر الإسلام من كنيسة بأرض الحبشة عندما افتتحها المسلمون قال وقد شاهدناه في هذه الخطرة من العافية التي بسطها الله تعالى في الطرق والقرى والأمان التام ما قضينا منه العجب فمن ذلك أنا لقينا عيرا في ليل مظلم تحمل أحمالا من البر الهندي والقماش الرفيع نحوا من عشرين جملا وطلبنا أحدا من أصحابها نسأله عن أخبار البلد فلم نجد معها أحدا وذهبنا نحوا من ميل فوجدنا أصحابها في قهوة مستريحين وأخبرونا أنها لو ذهبت كذلك إلى مكة لم يتعرض لها أحد وأخبرونا بعجائب من مثل ذلك وقعت في أيام الأمير زيد ووالده محسن.

فمن ذلك أنهم زعموا أن رجلا جاء إلى السلطان محسن فقال له أني وجدت في البلاد الفلانية حملا من البز في الطريق فقال له ومن أخبرك بأنه من البز فقال له مسسته برجلي فأمر بقطع رجله وقال له لِمَ منسسته برجلك إلى غير ذلك من أمثال هذه الحكاية لا نعلم صحيحها من سقيمها.

ومن لطيف ما شاهدناه من أمان هذه الديار وعافيتها أن المسافرين من مكة إلى جدة ومن جدة إلى مكة يكترون الحمير للركوب ولا يذهب صاحب الدابة معها فإذا ذهب المكتري إلى المحل الذي ذهب إليه أرسل الحمار ولا عليه فيه ولا يأخذه أحد إلا ربه إن كان في ذلك البلد أو نائبه ولكل واحد من أصحاب الداوب نائب في غير البلد الذي هو فيه يعرف دابته ويقبضها حتى يكريها ممن يرجع إلى البلد الذي هو فيه وهناك من فاره الحمر ما يقضي العجب من سرعتها.

قال ولم أر أسرع مشيا من حمر الحجاز ولا أوطأ مركبا ولا أقل لغبا من السرعة المفرطة في المشي فلقد كنت أنظر وأنا راكب إلى أطرافي هل يتحرك فيها شيء مع الإسراع في المشي فلا يكاد يتبين حركة شيء منها مع أن مركوبي من أجادوها فلقد أخبرت انه كان حمار عند رجل من أهل مكة يصلي المغرب بجدة فيركب عليه ويصلي الصبح بمكة وهي مسافة القصر تحقيقا وهم يتغالون في ثمن ما هذه صفته منها فيبلغ الحمار مائة دينار ذهبا. وقد رأيت حمارا عند فقيه الحنفية الشيخ الزنجيل رافقنا عليه من المدينة إلى مكة تقتحمه العين فأخبرت أنه اشتراه بقريب من ذلك الثمن.

ومنها بلد الطائف فإن فيها مزارات كثيرة ويمر إليها على طريق الحاج إلى منى ثم إلى مزدلفة ثم إلى بسيط عرفة والطريق من مكة إلى الطائف فيها قهاوي يستريح المارة بالنزول فيها واشتراء المحتاج من طعام وعلف كما ذلك أيضا بطريق جدة ويسلك مع طريق الساقية التي من أصل الجبل إلى عرفات ثم إلى المشاعر ثم إلى مكة ومنها تأتي المياه إلى مكة في هذه الأزمنة بعد اندثار الأخرى التي تأتي من الجعرانة.

وقد ذكر المؤرخون أخبر العينين معا وأن التي من الجعرانة من عمل بني أمية وهذه من عمل بني العباس وهي من صدقات زبيدة بنت جعفر المنصور إلا أنها ما وصلت إلى مكة إلا في دولة بني عثمان ملوك العصر من الترك.

قال أبو سالم وقد شاهدنا في بنيان هذه الساقية ما يدل على فخامة ملكهم وقوة اعتنائهم بأمر الحرمين فكلما مررنا غلوة أو غلوتين وجدنا عينا منها مفتوحة عليها بناء وثيق ووجدنا الفعلة في وقتنا جادين في إصلاح ما وهي من بنائها وكسر ما تهور من أرجائها وهي صاعدة مع وادي نعمان الأراك بفتح النون الذي أكثرت شعراء العرب فمن بعهدهم من ذكره وهو واد عظيم افيح منحدر من جبال نجد به أدواح يانعة يصافحها نسيم نجد فتهتز أغصانها طربا وتميل إلى أن تلثم أفواه الأزهار الغضة

الناعمة الملتفة بجانبي ذلك الوادي وقد كساه الخصب من مروط الزهر ألوانا وعمّم رؤوس هضابه أقاحا وأرجوانا.

قال فلم نزل نسايره صاعدين إلى أن قربنا من جبل أكرى فعدلنا يمينه مع بعض تلك الهضاب وآوانا الحر إلى قهوة بأصل الجبل بين صخور عظام حولها ماء صاف يجري على حصباء كالزبرجد عذب بارد سهل التناول للصادر والوارد قال فما رأينا فيما سلكنا من بلاد الحجاز مكانا أشبه ببلادنا منه فلما زالت الشمس وتوضأنا للصلاة أخذنا في صعود الجبل العظيم الذي لا يماثله في عظمه جبل من جبال تهامة وسلكنا في طريق تميل مع الهابطة من أعلاه وغالب الطريق في هذا الجبل قد نقي من الصخور العظام ونضدت الحجارة فيه بناء وثيق مصفح على ممره ويقال أن ذلك من عمل بني العباس لكثرة اعتنائهم ببلد الطائف ونزول ولاة الحجاز منهم به وقد أثرت السيول مع طول العهد في أماكن كثيرة من هذا الجبل فخربت بناءه وكثرت للسالك عناءه.

قال ووجدنا في هذا الجبل أشجار عظيمة من العرعار وغيره من أشجار بلدنا فأنسنا بذلك غاية ورأينا القرود به تصيح وتثب في أعالي تلك الصخور فتعجبنا من ذلك فأخبرنا أنها توجد في ذلك الجبل وما سمعنا قط أنها بأرض الحجاز وإنما يقال أنها تجلب من الشام والروم إلى مصر والحجاز وقد لقينا في صعود هذا الجبل مشقة ونزلنا عن الدواب وارتحلنا أوعاره وأغواره كرها وما كدنا نصل أعلاه حتى تمكن وقت المغرب وصليناه وتلففنا بثيابنا لشدة البرد وتعجبنا من صنع الله تعالى وبديع قدرته فقد قاسينا أول النهار من شدة الحر وسمومه ما كادت العظام منه تذوب وتفطر القلوب وكابدنا من شدة البرد آخره ما ارتعدت المفاصل منه وكلت القوى عنه.

قال ثم وصلنا إلى قهوة هنالك ونزلنا بها بعد العشاء فدخلنا محلا أوقد أصحابنا فيه نيرانا عظيمة فاصطلينا بها عامة ليلنا من شدة البرد وحدنا الله تعالى على ذلك وكان

هذا في أبان الحر الشديد ولذلك خلفنا ثيابنا بمكة ولم نلبس منها إلا ما يوافق الوقت وقضينا عجبا من شدة الحر والبرد في المكانين المتقاربين قال ثم ارتحلنا من ذلك المكان قرب صلاة الصبح وهبطنا عقبة هنالك وهي دون التي طلعناها بكثير إلا أنها وعرة وسلكنا في شعاب ذات مياه غزيرة ونبت ملتف إلى أن خرجنا إلى قرن الثعالب الذي هو ميقات أهل نجد بإزائه قرية ذات مزارع وأشجار من أنواع الفواكه حولها واد يسيل ماؤه وتجاوزناها قرب الطلوع وسلكنا بين تلول هنالك في صعود وهبوط واستواء إلى أن وصلنا بلد الطائف وهي وقصور في مستو من الأرض تحيط به جنات من نخيل قليل وأعناب كثيرة وفواكه مما يشتهون وقصدنا المسجد الأعظم.

ومن الأماكن التي تزار ببلاد الطائف البلد نفسه فقد وردت آثار تدل على فضله وانه منقول من الأرض المقدسة نقله جبريل عليه السلام بإذن الله تعالى وورد في الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم حرم عضاه وَجّ[1] وهو الطائف وهو عند الشافعية كحرم مكة لا يقطع شجره وكفاه هذا هذه فضيلة شارك فيها الحرمين الشريفين.

ومنها قبر ترجمان القرآن حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما وهو في قبلة المسجد الأعظم من يمناه وعليه بناء فخم وحوله على يسار[2] الداخل من الباب قبر البطل الهمام والليث المقدام فارس بني هاشم سيدنا محمد بن الحنفية ابن أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وفضائله مشهورة وسبب انحيازه هو وابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى الطائف مذكور في التواريخ وبإزاء

---

(١) كذا في الرحلة الناصرية وهو الأصوب كما في نهاية ابن الأثير وتاج العروس وأما جميع النسخ ففيها حرم أمورا كما في مكة.

(٢) في الرحلة الناصرية يمين.

قبر ابن عباس قبر يقال انه قبر عبد الله الطيب الطاهر ولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والناس يتبركون به بهذه النية.

ومنها المسجد الأعظم نفسه فانه في محل نزول عسكر النبي صلى الله عليه وسلم عند محاصرة ثقيف بعد غزوة حنين وفي صحن المسجد مسجد صغير يقال انه منزل النبي صلى الله عليه وسلم في الحصار المذكور وفيه محل يقال انه محل قبة أم المؤمنين أم سلمة بفتح اللام وقبة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما وخبر حضورهما معه صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة وانه اتخذ لكل واحدة قبة ومصلاه صلى الله عليه وسلم بين القبتين مذكور في كتب السير وهناك محال متعددة فيها آثار في الصخر الصلد كأثر ظلف الغزالة والناس يتبركون بها ويقولون أنها أثر غزالة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسلمت عليه في ذلك المحل ولم نر لذلك ذكرا في شيء من كتب السير.

ومنها مسجد على شفير الوادي بأعلى البلد فيه شجرة كبيرة لها أصلان متقاربان بينهما مثل ممر الشاة يقال أنها الشجرة التي اعترضت للنبي صلى الله عليه وسلم في طريق له فانشقت شقين حتى مر بينهما وخبرها مذكور في بعض الأحاديث.

قال أبو سالم ولم أر من ذكر أنها بهذا المحل ولا إنها باقية إلى الآن وأظن أن حديثها مذكور في معجم الطبراني الصغير والله تعالى أعلم.

قال وفي هذا البلد أسواق حافلة يحضرها الناس من أطراف نجد ويجلب إليها من الحبوب والثمار والزبيب والعسل ما قضينا العجب من كثرته بحيث يخيل لنا أنا لم نر مثل ذلك في الكثرة في أسواق الأمصار العظيمة وذكر في رجعته هذه أنه طلع لهم الفجر بمنى قال فدخلت مسجد الخيف وصليت فيه الصبح وليس به داع ولا مجيب وقد كان في وقت الموسم ربما لا يجد الإنسان أين يضع جبهته من الأرض أحيانا لكثرة

الزحام قال وتأملت بسيط منى وشعابه وتبينت سعتها وامتدادها وكانت في أيام الموسم ربما يخيل إلى الناظر ضيقها لكثرة الخلق ومن رأى منى وما حولها من الأماكن في غير أيام الموسم علم حسن تشبيه من قال من أراد أن ينظر إلى الدنيا بعد انقراض أهلها فلينظر إلى منزل الركب بعد ارتحاله.

ومنى في أيام الموسم هي الدنيا بأسرها قصور عالية وأسواق حافلة وجنود مجندة وملابس فاخرة وأطعمة شهية ومراكب هنية وبضائع غير معدودة ومتاجر ثمينة إلى أنواع العبادات من تكبير وتهليل وصلاة وقراءة ونحر وذبح وإطعام طعام ورمي جمار وما الدنيا محمودها ومذمومها إلا ما ذكرنا ولا تمر على ذلك كله إلا ثلاثة أيام حتى لا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا فلا ترى في منازلهم إلا عظاما نخرة وخرقا بالية وفضلات منتنة وغثاء أحوى وقتاما أغبر تسفيه الرياح وتذروه وهذا هو المثل الحقيقي للدنيا فليعتبر أولو الأبصار من سكان البادية والأمصار انتهى كلامه.

ومزارات مكة كثيرة جدا بل أعظم المزارات ومحط آمال الراغبين ومنتهى سير الأملين ومناخ همم العارفين وغاية منية الشائقين وقبلة العابدين ووجهة المعتبرين وإليها تفد الوافدون ومسقط رأس سيد العالمين صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه أجمعين فيا لها من بلدة ما أعز سناها فَأَهْوِنْ بالطريف والتليد في الاحتماء بحماها جنة من دخلها كان من الآمنين ومن نحا نحوها من الفائزين ولله در الإمام أبي علي اليوسي رضي الله تعالى عنه وأرضاه وأناله منه بغاية مناه إذ يقول وما أحسن ما يقول في وداع وفد الله:

أحجاج بيت الله سيروا وأبشروا ... بما لم ينله رائح ومبكر
وطيروا عَجَالَى فوق أجنحة القطا ... وأجنحة الشوق المبرح أطْيَرُ

إلى أن قال:

لقد ضاع دهري في المقام بمغرب / ومطلع وحي الله يرجى وينظر
أَنْهِنِهُ نفسي في السباق إلى العُلَى / فتشمس عن ذاك الرهان وتنفر
وأسمو بها عن روضة الغي والهوى / فيقعدها صلصالها المتكدر
وأدفع عنها في الوغى لاجيرها / فتنهك أجناد الهوى وتكثر
فهل لي من صوب من الغيب باهر / يشيعها فيما تروم وينفر
وهل لي من ريح تثير ركائبي / إلى روضة فيها النبي المبشر
عليه صلاة الله ما انسجم الحيا / بروض ورضوانٌ من الله أكبر
وأصحابه الغر الذين تألفوا / على الله في الدين القويم وشمروا
خصوصا أبا بكر رفيقَ نبيه / وصاحبه وهو الكبير المؤثر
وأيضا أبا حفص وكان محدثا / يكشف أحلاك الدجى وينور
فيا روضة فيها لنبي محمد / سقاك من الغيث السجيم المكرّر
ويا روضة تزهو بشمس منيرة / وبَدْرَيْنِ مُلْتَاحَيْنِ فيها وتزهر
دعاك غريب أوثقته بمغرب / مساوي المساعي والقضاء المقدر
فهل تسمح الأيام فيك بزورة / ويُشْفَى غليلٌ في الفؤاد مسَعَّر
وهل تنجز الدين الذي مَطَلْتُ به / فتكفى بقايا ذنبها وتكفّر
فيا رب تحرم عبيدك سُؤله / وأبلغه ما أبلغت من تتخيَّر
وقد جاء سعيا بالحشا إذ تعذرت / عليه خطاه وهو أشعث أغبر
سألتك بالمختار أحمد أنه / لأنفَسُ عِلْقٍ في المطالب يُذْخَر
عليه صلاة الله ثم سلامه / ورضوانه ما فاح روض معنبر
وأصحابه والال ما ذر شارق / فأجلى الدياجي ضوءه المتفجر

ذكر خروجنا من مكة المشرفة

بعد قضاء المناسك كلها والإتيان بالعمرة على تفصيلها والإحرام بها من مكان الإحرام فقد تم ذلك على الوجه الأكمل تقبل الله منا جميع ذلك وأننا مكثنا في مكة ما مكثنا أعني المدة المعلومة كما قيل.

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس

إذ مدة إقامتنا في مكة نحن مشتغلون بالطواف والذكر والنظر في الكعبة على أكلم حال وأتمه ليلا ونهارا والحمد لله تعالى على ذلك وقد انفصلنا من مكة عند الظهر والبعض عند العصر أما أحمالنا وأهل بيتنا فعند صلاة العصر إذ ودعوا البيت عند ذلك الوقت وأما أنا فقد ودعته ذلك الوقت ظنا مني الانفصال ثم ظهر لي بعض الشئون لا سيما المحب في الله والأخ من أجله سيدي محمد الشريف الطرابلسي فانتظرته إلى أن صلينا المغرب فودعت التوديع بقلب حاضر فلما كمل الوداع، وتم الانتفاع، واشتاق الروح وأصابه الاتساع من ألم الفراق، واضطرمت نار الشوق في الفؤاد وأصابه حر الاحتراق، فركبنا وانفصلنا والحمد لله فوصلنا إلى موضع الخيام عند العشاء أو بعدها بقرب وخرجنا من أسفل مكة من الموضع المسمى بكُدى بضم الكاف وهو الموضع الذي خرج منه النبي صلى الله عليه وسلم إذ يستحب الخروج منه وهو باب الشبيكة ونزل الركب هناك في منزله المعلوم ينتظر كمال الرفقة والعالم بالأحكام كلها يخرج من كدى اقتداء به صلى الله عليه وسلم في حجته على أن ابن رشيد ذكر في رحلته عن بعض الأئمة أن الخروج إلى عرفات من الثنية السفلى أيضا فروي عن الحافظ أبي محمد بن أحمد الأندلسي قال كداء الممدودة هي بأعلى مكة عند المحصب حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذي طوى إليها أي صعد إليها وكدى بالضم والتنوين بأسفل مكة عند ذي طوى بقريب من شعب الشائعين

والشعب بكسر الشين وذلك عند قعيقعان حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلى المحصب إلى أن قال بات صلى الله عليه وسلم بذي طوى ثم نهضْ إلى أعلى مكة فدخل منها وفي خروجه إلى أسفل مكة ثم رجع إلى المحصب.

قال أبو محمد الأندلسي الظاهري أخبرنا بذلك أحمد بن محمد العذري عن كل من لقي بمكة من أهل المعرفة بمواضعها من أهل العلم بالأحاديث في ذلك قال ابن رشيد وإنما سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الطريق محلقا شبه الدائر لأنه لا يحصل التيامن في النزول والدخول إلى مكة والخروج عنها إلا كذلك فتأمله والله تعالى اعلم.

قال الشيخ أبو سالم وما نقله ابن رشيد عن ابن حزم الظاهري من أن خروجه صلى الله عليه وسلم إلى عرفات من كدى لم أر من ذكره من أهل السير والحديث مع شدة تتبعهم لأفعاله صلى الله عليه وسلم في حجته لما جمعت من معالم الشريعة وقواعدها وحضور جمع من المسلمين لم يجتمع مثله قط في حياته صلى الله عليه وسلم ومثل هذا لا يخفى من أفعاله في ذلك المجمع العظيم فقد حفظ من أفعاله صلى الله عليه وسلم في تلك الحجة الجلي والخفي حتى مباله صلى الله عليه وسلم في الشعب قبل الوصول إلى المزدلفة فكيف يخفى هذا على أئمة الحديث والسير مع أن الحافظ أبا محمد ابن حزم مغرما بجميع الغرائب مع سعة اطلاعه ووفور علمه وكثرة حفظه الذي لا ينكره له موافق ولا مخالف فقد ذكر بعض الأئمة أنا أبا محمد ابن حزم ساق حجة الوداع في كتابه الذي أفرده لحجة الوداع لا يمكن أن يسوقها كذلك حتى بعض من حضر لكثرة ما جمع ومبالغته في التتبع للطرق وجمع الروايات وترجيحها وهو أهل لذلك والمذكور عند سائر المحدثين أنه صلى الله عليه وسلم لم يزل من يوم دخوله مكة نازلا إلى أن ارتحل ذاهبا إلى منى يوم التروية وبعد أن يرتحل من الأبطح وينحدر إلى

مكة ثم يخرج من كدى ثم يصعد إلى كداء فينزل منها إلى الأبطح فيذهب إلى منى من غير حاجة أكيدة لما في ذلك من المشقة الفادحة الحاصلة من تحليقه بأمكنة متعددة حتى يعود إلى المكان إلي ارتحل منه ومثل هذا ليس من الأفعال الجبلية ولو فعله صلى الله عليه وسلم لكان يه أقوى دليل على مشروعيته وتأكيد العمل به ولسأله أصحابه عن السر في ذلك لمخالفته للعادة مخالفة قوية ولو كان كذلك لنقل نقلا مستفيضا وصار من أفعاله المطلوبة وليس هذا مثل إدارته ناقته في محل لخفة الإدارة وقد تكون لغرض أقتضاه الحال مثل قصد العدول إلى ناحية أو إرادة تكليم أحد فدارت الناقة لأجل ذلك وذلك كثير ما يقع للإبل ومع ذلك فقد نقل فليتأمل ما ذكرنا والله تعالى اعلم انتهى.

انعطاف وهو أننا نزلنا في محل الركب مع نزول المصري أي المغربي على ناحية وهو على ناحية ثم أن أمير الحاج المصري أي حسين باي مملوك عمر باي وهو رجل صالح محسن عاقل ومع ذلك انه أراد أن يتخلف المغربي وراء المصري قهرا إذ العادة السابقية أن الركب المغربي يتخلف في الطلعة وفي الرجعة يسبق على أن المصري لما تقوى وكثر فيه الظلم من الجند وضعف الرك المغربي جعلوه وراءهم ذهابا وإيابا نعم لما تقوى ركبنا كثر نحو المصري غاية المصري كثر فيه الإبل والخدام فتشعب[1] أمر المغربي فاجتمع رأي جميعهم على السبق أعني الفلالي والجزائري والطرابلسي لا سيما أن سلطان فزان هو الذي قدم بنفسه قد اشتهر بالعدالة فاتفق أمرهم على التقدم بل تعاهد الجميع على ذلك غير أن الفزاني تأخر في مكة وكذا الفلالي فلم يسبق إلا ركبنا الجزائري غير أنه قوي قوة عظيمة لو اتفقت كلمته إلا أنه وقع فيه النزاع لأن الشيخ سيدي محمد المسعود نجل الشيخ سيدي الموهوب نجل البركة سيدي محمد الحاج

(١) في نسخة تقوى.

سهل الحكم لين العريكة يترك الناس على هواهم فلما حان وقت الظهر وإذا بالناس ارتحلوا خوفا من سبق المصري لأن أميره يبعث إلينا ويقول بالذهاب جميعا إلى متزل الينبع أما أنا وأمثالي فقد رضينا بذلك وأما باقي الركب فلم يرض إلا بالسبق ولو أدى ذلك إلى الفتنة العظيمة بين المسلمين فارتحلوا وما بقي إلا العبد الضعيف لأن من اكتريت منه قد هرب بالجمال فلم يترك إلا أربعة منها ومع ذلك أنها ضعيفة وقد دخل المصري إذ الجمال إذا هرب ودخل الصري تعذر وجدانه فلم يبق في المنزل إلا خيمتي وعزمت على المشي في المصري ولم يبق معي إلا سيدي أحمد بن حمود بيلغته مع سيدي أحمد الشريف الطرابلسي وأصحابه كانوا متأخرين في مكة بأحمالهم فوقع بنا أمر عظيم ثم إن فضل الله علنيا إذ جاءنا واحد من الجمالين الذين هربوا فمسكناه وربطناه وإذا بواحد من أصحابه قد استغاث به ليسرحه فلما ذكرنا له الحجة قال سبحان الله أكرى لكم واكرى لنا ثم إن واحدا من أصحاب عسكر المغربي من الجزائري أتى ليسرحه منها قهرا لكونه جعل له رشوة فلما عرفني وعلم بحالي رجع عليه و (١)

ودخل المصري نعم لحقه ومسكه وقال له لا بد أن تأتي بالجمال الذي هرب للشيخ وهو يوم قد اشتد فيه الحر ونحن نبحث في المصري عليه أنا وولدي وذلك الشخص فأصباني عطش عظيم قد بلغ بي حد الموت فلما رآني بعض من المصري علم بحالي فسقاني سقاه الله من حوضه صلى الله عليه وسلم فأحياني ثم أدخلني لخيمته حتى زال عني ذلك فرجع إلى ذلك الجزائري أسعده الله دينا ودنيا فذهب بي إلى خيمة عسكر المصري(٢) أعني بيت كاخيتهم وهو رجل مسوسي(٣) قد فرح بي فرحا شديدا وأمر بالبحث عن جمالي وقال لا تذهب به إلى أمير المصري فانه تغير شديدا على تقدم ركب

(١) بياض في جميع النسخ.

(٢) في ثلاث نسخ المغربي.

(٣) في نسخة رجل لا بأس به.

المغربي فقالوا له لا تبقى إلا خيمة الشيخ فقال لا بأس عليه ثم أنهم أتوا إلي بجملين في محل جمالي قالوا وأما هو فلم نجد له خبرا وذلك عند وقت العصر فذهبنا إلى الخيمة فرفعنا الأهل والدبش على تلك الجمال وذهبنا منفردين ثم لحقنا الركب الفزاني ثم ذهبنا كذلك إلى أن صلينا المغرب بعد مرورنا بالتنعيم ولم نزل كذلك في أثر الركب الفزاني حتى مضي وقت العشاء بمدة فوجدناه نازلا فنزلنا معه ثم صبيحة تلك الليلة ظعنا معه إلى أن بلغنا وقت الضحى الوادي الشريف المسمى الآن في ألسنة العوام بوادي فاطمة فنزلنا فيه بخيامنا[1] بعد أن أردنا اللحوق بركبنا الجزائري منفردين فلما سمع السلطان الفزاني بعث إلينا فكلمنا فقال بعد زوال الحر عن وقت الظهر نرتحل ونسير ليلا إلى أن نلحق بالركب في عسفان ثم لم يخلف الوعد كذلك فظعنا عند الظهر ولم نزل كذلك إلى أن قرب الصبح وإذا بزوجته أي السلطان المذكور توفيت فنزلوا في الغيضة المعلومة بين عسفان والجبل فلما دفنوها ارتحلنا عند الضحى.

ثم سرنا كذلك إلى أن اشتد الحر فوصلنا عسفان فنزل فأردنا الذهاب إلى الركب في خليص فتشاورنا مع السيد الشريف الطرابلسي فقال إلى أن الفراغ من الغذاء فلما فرغنا من شغله ارتحلنا مع خيمتين للشريف المذكور مع أصحابه متقلدين بالحديد نحو الأثنتي عشرة بندقة فذهبنا إلى ان طلعنا الثنية التي بعد عسفا فوجدنا فيه سبالة فشربنا وتوضأنا وصلينا الظهر ولم نزل كذلك ذاهبين في الطريق المعلومة فعند العصر رأينا جموعا من العرب أصابنا منها خوف شديد لأنهم لا يغادرون أحدا إلا قتلوه وأخذوا ما له وذلك معلوم ضرورة فاستعددنا لهم مع الخوف الشديد غير أن أصحابنا من طرابلس فيهم قوة وشجاعة إذا حلفوا بالله تعالى أنكم لا ترون شيئا إلا بعد موت جميعنا ولم نزل كذلك سائرين وهم بمرأى منا ومسمع فبعيد ساعة زمانية إلا ورجل

---

(١) في نسخة فخيمنا.

انفصل منهم جاءنا نذيرا ومحذرا منهم فقال اجمعوا أمركم ولا تهملوا حالكم وأظهروا شوكتكم فان العرب قد استعدوا لكم وأرادوا شركم وقال حسبنا الله ونعم الوكيل أو كلاما هذا معناه فعلمنا انه رجل صالح مع الاحتمال انه منهم أو من غيرهم فالذي دلت عليه القرائن انه منهم ثم تركناه وانفصلنا عنه متوقعين أمرهم ومتخوفين شوكتهم فهم أكثر من أن يحصوا غير أن الله تفضل علينا بقوة اليقين في قلوبنا فلم نستنشق منهم رائحة خوف نعم لم يتحرك إلينا أحد ولا التفت إلى جهتنا شخص فهم على حالهم ونحن على حالنا بعد أن صلينا العصر جماعة فلم نزل كذلك إلى أن صلينا المغرب فرأينا النار بعدية فظننا أنه عمارة خليص فلم نزل كذلك إلى العشاء فقربنا العمارة ولم نزل كذلك إلى أن وصلنا إلى الساقية الكبيرة التي تخرج من خليص فوجدنا ركبنا نازلا بإزائها وفرحوا بلحوقنا فرحا شديدا وقالوا ما نزلنا إلا منتظرين أمركم لا سيما من انفرد عن رفقته منقطعا عنها وهم جماعة انقطعوا معنا يأكلون ويشربون في رحلنا نحو الثلاثة أيام إلى أن بلغنا إلى خليص فتلاحقت الناس وتم الأمر واجتمعت الأحباب.

ثم ان الركب صار مقيما ذلك اليوم إلى أن صلينا الظهر فظعنا بعد صلاة الظهر بعد السقي والاستقاء ودفنا من مات هناك وهو الحاج عبد الله بن الحاج الشباني وقد جعلني وصيا على أولاده ولم يكن له ابن وإنما له بنات فوجدنا عند زوجته طفلا جعل الله فيه البركة ولم نزل سائرين إلى أن بلغنا عقبة السكر وفيها بناء وقد كتب في بعض أحجاره أن أقبح الناس من أتى إلى الحج بامرأة وكتب في أخرى أن أقبح الناس من أتى بلا زوجة ففهمنا منهما أن القبيح إذا كان قادرا ولم يأت بزوجته فعليه الذم المكتوب وأما الذي لا يقدر وأتى بها فعليه الذم المسطور وهو كذلك ونحن والحمد لله ذهبنا بأهلنا ولم نر ما يخل بديننا ومع ذلك قد علم قلة زادنا وضعف حالنا نعم لما تفضل الله علينا سرنا سيرة الملوك وذلك كله بفضل من الله ومنة ولم نزل كذلك

سائرين إلى الصبح ثم إلى قرب الظهر فنزلنا وبتنا فيه ولما أن أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه ونزلنا رابغا وهي قرية كبيرة ذات أسواق ونخيل كثير وواد عظيم.

ثم ظعنا منه والنفس مسرورة إلى أن نزلنا مستورة وأكثر الناس يسمونها قاع البزوة وأظن أنهما مكانان متباينان ثم ظعنا منه فنزلنا بدرا وهي قرية عظيمة ذات أسواق ومساجد ومياه ونخل كثير وأتى الناس إلى الركب من كل فج عميق إذ اجتمعت الأركاب كلها هناك وأقاموا فيه يوما صحيحا في شرهة عظيمة ونزهة كبيرة وهي بدر التي ذكرها الله في القرآن وهي مزارة عظيمة لا سيما قبور الشهداء ثم ارتحلنا منه بعد صلاة الظهر قرب صلاة العصر وسبقنا الركب المصري بل وقع الازدحام في الوادي المعلوم فكثيرا لا يجد الإنسان فرجة يخرد منها غير أن المصري لا يستوي ذاهبا إلا بعد صلاة المغرب لأنه حينئذ يسوّي الأقطار ويتسع الطريق ولم نزل كذلك سائرين في الليل الراكب راكب والماشي ماش على أن أكثر الناس من الفلاحين ومن لا قصد له في زيارته صلى الله عليه وسلم يذهب من بدرا إلى الينبع حاصله نحن سائرون في الليل في ذلك الوادي وفيه قرى كثيرة ذات بساتين وانه قد وجد فيها شجر الموز وقيل انه يصلح فيها ويثمر ولم نزل راكبين كذلك سائرين في الوادي وفي تلك الخيوف فلم يكن أشد حرا من تلك الخيوف بل في بلاد الحجاز.

ثم كذلك إلى أن نزلنا القرية المعلومة التي ينزل فيها الركب وهي جديدة وفي هذه القرية مسجد جامع له بناء متقن تجرى العين من تحته من بناء الأمير رضوان رحمه الله تعالى وكم له في طريق الحجاز من مآثر ومعالم تدل على همته ثم ظعنا منه عند الظهر ثم ذهبنا على الطريق المعلومة وهي الوادي ولم نزل كذلك ولم نزل كذلك إلى أن وصلنا مسجد الغزالة وهي من الأمكنة التي صلى فيها النبي صلى الله عليه وسلم وهو المسمى عند المؤرخين بمسجد عرق الظبية فزرناه وسألنا الله تعالى فيه كل ما يصلح دينا ودنيا.

ثم صعدنا كذلك مع الوادي إلى وقت المغرب فبتنا إلى الصبح ومررنا ببناء عظيم وأظنه ما نقله شيخنا المذكور ونصه أتينا الروحاء وقت الظهيرة وتفرق الناس بأشجارها ولوقت الظهر ينتظرون ووجدنا بئرها لا ماء به وحوله بركة معطلة وبإزائها مسجد وثيق البناء صحيح وصلينا به الظره ولو قيض الله تعالى لذلك الموضع من يعمره لكانت فيه أعانة للحجاج لكن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وقد ذكر السيد السمهودي قريبا من البئر مسجدا من مساجده صلى الله عليه وسلم ولا أدري هل هو المبني الأول أو غيره.

ثم سرنا وصلينا العصر بِمَلَل بعد ما تجاوزنا السيالة ومررنا على شرف الروحاء وهو المكان المسمى الآن بقبور الشهداء وقد ذكر بعض الناس أن الشهداء الذين سمي بهم المكان قوم قتلوا هنالك ظلما.

وقد ذكر السمهودي أيضا مسجدا من مساجده صلى الله عليه وسلم بشرف الروحاء قال أبو سالم وكان هناك مكان محوط عليه بحجارة شبه مسجد يزوره الناس وأظنه هو وفي شرف الروحاء آثار آبار معطلة وبيان داثر وقد كانت في القديم هناك قرية ولم يبق بها الآن شيء من ذلك وأخبرنا أن وراء الجبل بلدا خاليا فيه آبار وبعض نخيل وأظنه أنه السقيا فإنها قريب من شرف الروحاء فلما تجاوزنا شرف الروحاء سرنا ورأينا هلال المحرم ليلة الاثنين حتى مغيب الشفق وأهل طيبة على مشرفها أزكى السلام وأطيبه رأوه ليلة الأحد انتهى.

فأقول لم نزل سائرين إلى أن بلغنا قبور الشهداء عند الظهر فوجدنا الركب المصري نازلا هناك ومررنا سائرين كذلك إلى أن صلينا المغرب ونزلنا إلى الصبح بل قبل طلوع الفجر ظعنا مبكرين عازمين نهارنا وليلنا دخول المدينة المشرفة فسرنا نهارا وليلا فتراسلت الناس أفواجا، وتتابعت بحور الأركاب أمواجا، كأنها البحر في

سيرها، أو البرق في خفة أمرها، ولم يسأم الناس مما لقوا من النصب والتعب لشدة الفرح، الذي استولى على الترح، وقد خف بعض ذلك بل أزاله من أصله وإذا عمرت القلوب بالمسرات، ذهلت الأجسام عما تلاقي من المضرات، وإذا تنعمت بروح القرب الأرواح، لم تبال بما حصل من المشقة الأشباح، وأي مسرة أعظم من الدنو من دار الحبيب الرسول صلى الله عليه وسلم، وأي لذة أهنأ وأتم من رؤية حضرته صلى الله عليه وسلم والوقوف عند روضته التي هي غاية المنى والسؤل، فلعمري لقد انتعشت الأجسام بعد ما ذبلت، وطلعت شمس الأفراح بعد ما افلت، وانبسطت أنوارها من القلوب إلى الوجوه فأشرقت، وسرى أجلالها وأعظامها من الأفئدة إلى الرؤوس فأطرقت، وظهر أثر النشاط والمراح في الركائب فأسرعت، وخبئت من دون حاد ولا سائق وأوضعت، وكأن ما ينالها من سموم النصب ولهيب التعب نسيم السحر، وكأن عرفها السائل مع الأعناق بليل المطر، لا تلوي إلى سمرة خضراء، ولا تألو ما أسرعت في موماة غبراء.

قال أبو سالم وعند ما شاهدت من صنيعها الغريب ما شهدت ترنمت، فوق الأكوار وأنشدت:

خليلي ما للعيس في سيرها تعدو ... ومن قبل اعيت من يسوق ومن يحدو
أظن لها علما يقينا بأنها ... لقبر رسول الله قد أصبحت تغدو
لذلك لم تجزع لحر أصابها ... كما جزعت بالأمس إذ مسها الجهد
فلا تعجبوا من علمها باقترابها ... وليس لها بالدار من قبل ذا عهد
ففضل رسول الله في الكون ظاهر ... اقرت به العجماء والحجر الصلد
وأنوار أرض حلها قد تلألأت ... أحست بها الأبصار والعظم والجلد
دنت فدنت أعلامها فبدا لنا ... من الشوق في الاحشاء ما لم يكن يبدو

عليهــا مــن الرحمــان أزكــى تحيــة تــدوم دوامــا مــا لأخــره حــد
تكــاد مــن الأشــواق أرواحنــا لهــا تطــير ولم تجــزع وأن نالهــا كــد
ولــولا الــذي قــد عافهــا مــن جسومنا لطــارت ولكــن الجســوم لهــا قيــد
وكنــا نظــن القــرب يــذهب بعــض مــا بهــا فــإذا بــالقرب زاد لهــا الوجــد
ولم لا وآن الوصــــل محكــــم ذكرهــــا غــدا ناســخا مــا كــان يقــرأه البعــد
أنــــاح لنــــا الرحمــــان فيهــــا إقامــــة بخــير إلى أن يحــوي الجســد اللحــد
بجــاه حبيــب الله أفــضل مــن بــه توســل مــن لم يغنــه الجــد والجــد
عليــه الــصلاة الله مــا دام وصــله يزيــد لــه شــوقي إذا ذكــرت نجــد

ولم نزل كذلك بصواعق الشوق ترتعد الجوارح منها وتطش، ولا تشاهد العين إلا مشاهدة الضمير فجناح العشق له ريش[1]، والزوار في كل واد يهرعون، وإلى الارتقاب في كل مرقب يسرعون، ليشاهدوا بعض تلك القباب، فتمتع العين قبل تتمع الجسم بالدخول من الباب، وأول مكان ترى منه قبابها وأسوارها، وتشاهد منه بالبصر والبصيرة أنوارها، الجبل المسمى بمفرح، إذ لا يبقى بعد الصعود إليه همّ مبرح، فتسارع الناس عند الدنو منه لصعوده، وتباشروا برؤية منزل الرسول وشهوده، فلم يتخلف عن الصعود إليه، إلا من لا قدرة له عليه.

قال شيخنا المذكور عن شيخه أبي سالم وفي ذلك قلت هذه الأبيات، ذاكرا لبعض المعالم التي هي للقرب من أصدق الآيات:

يــا صــاحبي نلــت المنــى فاستبــشر ودنــوت مــن دار الرســول الأطهــر

---

(١) في الرحلتين العياشية والناصرية ولم نزل ذلك اليوم في أرغد عيش. وأن كان تباريح الشوق غير خال من الطيش، فلا تسمع الأذان إلا ذكر الحبيبة مسكن الحبيب، ولا تشاهد الأعين إلا مشاهد تمتّ إليها بنسب قريب.

وبـدت معـالم طيبـة لـك فاسـتمع أوصـافها مـن صـادق لـك مخـبر
هـذا مفـرح كاسـمه وكأنـه ياقوتـة رشـت بـذائب عنـبر
وأمامـه البيـداء يـسطع نورهـا لبـصائر الـزوار هـل مـن مـصر
وعـلى يمينـك قـد بـدا عـير يُـرَى بـالقرب كـالثور العقـير الأعفـر
وانـخ ركابـك بـالمعرس انـه لمبـارك وبمائـه فتطهـر
واحـد الركـاب مـع العقيـق منعـا عينيـك في ذاك المكـان النـير
يـا حبـذا أُحُـدٌ نـراه يحبنـا ونحبـه جبـل جميـل المنظـر
فكـأنما هـو حلـة مـن عـسجد صـبغت جوانبهـا بمـسك اذفـر
وإذا اتيـت لحـرة غربيـة وعلـوت غاربهـا علـوّ مـشمّر
ودنـا النقـا وبـدا المـصلّى فـاغتبط بـالقرب مـن أصـل المفـاخر وافخـر
وأتـرك قبـا مـن عـن يمينـك واجعلـن سـلعناغ فـديتك في الجنـاب الأيـسر
واصـمد تجاهـك يعترضـك مهنيـا بطحـان دون مناخـة والعنـصر
مـا بعـد ذا إلا الـدخول لطيبـة بـسكينة تمـشي بـدون تكـبّر
يهـديك للحـرم المكـين شـذاه مـن بـاب الـسلام أدخلـه دون تـصبّر
وعـن الـصلاة عـلى النبـي مـسلما مهـما قربـت لـداره لا تفـتر
واعلـم بانـك أن وقفـت مـصليا مـا بـين روضـة سـيدي والمنـبر
في روضـة مـن جنـة متقلبـا مـن[1] أرضـها في طـاهر ومطهـر
تغشاك مـن رحمـات ربـك نفحـة تحظـى بهـا دنيـا ويـوم المحـشر
فلأنـت بيـنهما يقينـا واقـف مـا بـين جنـة عدنـه والكـوثر
فـإذا وقفـت أمـام وجـه نبيـه حيّـاك بالرضـوان منـه الأكـبر

---

(١) في رواية هي.

فهنـاك تـستحلي البـصيرة إن صـفت اصـل الجـمال بـدا بـأعظم مظهـر
فــترى العــوالم كلــه بجمالهــا وجلالهـا حـضرت بأقـدس محـضر
أصـل الوجـود ومنبـع الجـود الـذي عـمّ المظـاهر في جميـع الأعـصر
نــور الإلــه بــه استتار عبـاده دنيـا واخـرى ذي المحيّـا الأزهـر
محمــود كـل الخلـق أحمـد حامـد ومحمــد بمقــام حمــد أشــهر
صــلى عليــه الله خـير صـلاته والآل والأصـحاب أكـرم معـشر

لما تجاوزنا جبل مفرح بمسيفة قطعناها دون مين، وصلنا إلى منتهى أبعد الحرمين، وهو حرم الشجر الذي هو بريد في بريد، وحده طرف البيداء التي بها الهموم تبيد، وقطعناها بفرح وسرور، ونشاط وحبور، وجئنا قبيل الزوال ذا الحُلَيفْة قد نسي كل ألف من شدة السرور ألفه، وهي البطحة المباركة المكينة، وميقات ساداتنا أهل المدينة، وبها المعرس الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتعريس فيه، فنحن في ذلك نقتفيه، واغتسل من أصحابنا من أراده هنالك وتوضأت وصلينا بمسجد ذي الحليف وبالمعرس أيضا انتهى.

انعطاف إلى ما كنا بصدده وهو أننا سرنا بالليل إلى طلوع الفجر فقربنا المدينة المشرفة ثم كذلك إلى الإشراق بل إلى الضحى دخلنا المدينة المشرفة ونزل الركب المغربي عند الباب الذي يذهب منه إلى جبل أحد وتخلف أكثر أصحابنا ومعهم ولدي محمد حتى ظننت أنه نام في بعض المواضع وخفت أن يأخذه اللصوص فكنت اسأل عنه فأخبرت أنه تخلف مع الأصحاب راكبا على فرس الشيخ سيدي محمد المسعود وهو راكب على بلغتي إذ هو مريض قد أشرفه المرض على الموت وأوصاني على أهله وأولاده بأن أكون لهم حافظا ومراعيا إلى أن يصلوا مدكال فبرئ والحمد لله ثم بعد وصول ولدنا.

حاصله لما أشرفنا على المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام غشينا نور غظيم وبهاء قوي لا يخفى عن أهل الذوق السليم والطبع المستقيم إلا من حجب بالحجاب الجسماني والهوى النفساني ونزغات الشيطاني وأقول كما قال شيخنا المذكور ولم نزل يومنا هذا في حل وارتحال، وانتقال من حال إلى حال، حتى إذا لاحت حدائق النخيل من المدينة والقباب، وتلك المآذن في الحرم الشريف على باب، تذكرنا قول القائل ولقد صدق من قائل[1]:

ولما رأينا رَسْمَ مَنْ لم يدع لنا ... فؤادا لعرفان الرسوم ولا لُبّا
نزلنا على الأكوار نمشي كرامة ... لمن بان عنه إن نلمّ به رَكْبا

انتهى.

ولما استقر بنا المنزل، واجتمعت فيه الأصحاب والأهل، ذهبنا إلى الحرم الشريف، والمسجد المنيف، إلى أن وصلنا فدخلنا من باب السلام، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، ولقد تاه القلب في الجلال، والبهاء والكمال، وانبسط علينا النور في الحال، وكنا في التنقل في مراتب التجلي أعز انتقال، فاطمأن الفؤاد وطاب الحمد والثناء على الوصول إلى روضة المتعال، فبلغ القلب مناه فغاب عن الأكوان بكامل البدور وقمر العز فتنزه عن سواه غير أني خفت بل تيقنت أني لست أهلا لمشاهدة الرسول، ولا ممن يتأدب بأدب الفحول، نعم الفضل والمنة على الأصاغر لا يزول، فتوجهت إلى الموضع الذي صلى فيه الرسول، وهو القريب من العمود المخلق لأنه ليس بمجهول، فركعت تحية المسجد ومع ذلك أني في مرض ونحول، وهو مرض الإسهال وتقوى علي السقم غير أن القلب مني قوي يجول في العالم العلوي يسري وبالعلوم اللدنية يقول، فلا يكاد يرجع بل يتيه ويتعالى في الارتفاع فهو بعيد عن التنزل

---

(١) في هامش الرحلة الناصرية وهو أبو الفضل الجوهري حيث قرب من المدينة المنورة.

والنزول، فلم يمر علي زمان أحلى من هذا الزمان، ولا استقررت بمكان أحلى من هذا المكان، فذلك الوقت هو عيد الأرواح، وجنة الأشباح، وبستان الفؤاد يزهر بالأقاح، وحور المعارف قد حليت بحلل الألمع والألماح، فيها لها من صفقة قد علت وقامت بالأرباح، فليس لذلك الزمان ثان، ولا لذلك العصر أوان، بخ بخ على زيارة الحبيب، والأشراف على رحيم قريب، حريص عليكم بالمنى، رءوف بالغنا، رحيم بالهنا، لطيف بالسنا، شفيق يودنا، هنيئا مريئا لنا، إذ قال مرحبا وأهلا وسهلا بوفودنا، وهو أكرم من تكرم من أنبيائنا ورسلنا، حاشاه أن يحرم تلك الوفود والزوار منا ومن أصحابنا، بل ما عنده من خزائن الكرم لضيافه تقتنى، فانه أجل أن يمنع بعض الناس بسوء فعله وما حصل له من العنا، نعم بسط رداء كرمه لجميع من أتاه فلم يخب أحد مما تمنى، فحقيق وجدير قد حصل للناس كلهم الغاية القصوى والمنى، وكيف لا والله يقول حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم فليس إلا الفرح والحبور والهنا، لأن كل أحد من الواقفين لديه تيقن من نفسه أنه حصل له منه صلى الله عليه وسلم ما به القصد والمعتنى، هذا وإن العبد ذهب للقبر الشريف، والمحل العظيم المنيف، يستنشق سباحة طلعته، صلى الله عليه وسلم وكريم نشأته، وطيب ذاته الكريمة وجميل هيئته، لأنه صلى الله عليه وسلم حي في قبره الشريف وانه روضة من رياض الجنة ينظر القاصدين إليه بأن يكمل الكاملين، ويغسل المتلوثين، فكل يعامله على حسب نيته، ويرفعه على حسب همته، فلما توجهت إليه أقول كما قال شيخنا المذكور.

ما نصه فركعنا بمصلى النبي صلى الله عليه وسلم بإزاء العمود المخلق الكائن فيه روضة الجنة، وعظمت عليّ من الله المنة، فتقدمت إلى الحجرة الشريفة، البهية المنيفة، ولما واجهت الضريح، وعدلت عن حديث النفس إلى البيت الصريح، وأفصحت عما في النفس أي إفصاح، وألححت أي إلحاح، أخذت الدموع في الانحدار، ومناداة البدار البدار، على ذلك الحال الأول، من توالي العبرات والعهد الذي ما تحول:

خَـــلِّي الـــــدموع لوقتهــــا يــــا مقلتـــــي وتمتعـــــي
وتغنمـــــي طيـــــب اللقـــــا ورِدِي لذيـــــد المـــــشرع
هـــــذا الـــــذي يـــوم القبـــا م مـــــة راح خـــير مـــشفع
هـــــذا الـــــذي إن جـــــاد أزْ م رَى بـــــالغيوث الهُمَّـــــع
فترقبـــــي خِلَـــــعَ القبـــــو م ل مـــــع النَّـــدَى المتنـــوّع
وأنـــــا الكفيـــــل إذا م رحلـــت مـــن البكـــا أن تـــشبع

فزرنا أكرم نبي وأفضل رسول، وسلمنا عليه وعلى صاحبيه الفائزين من قربه بأعظم مأمول، وأسنى رسول.

وصـــلنا إليـــه واتـــصلنا بقربـــه فللـــه مـــا أحـــلى وصـــولا وصـــلناه
وقمنـــا وســـلمنا عليـــه وانـــه ليـــسمعنا مـــن غـــير شـــك شـــككناه
ورد علينــــا بالــــسلام ســــلامنا وقـــد زادنـــا فـــوق الـــذي نحـــن زدنـــاه
كـــذا كـــان خلـــق المـــصطفى وصـــفاته بـــذلك في الكتـــب الـــصحاح وصـــفناه
ومـــن كـــان وَصَّى بالـــسلام لأحمـــد فَبُـــشْراه بَلَّغْنـــا الـــسلامَ ونُبِّئنـــاه
وثـــمَّ دعونـــا للأحبـــة كلهـــم وكـــم مـــن حبيـــب بالـــدعاء خصـــصناه
وملنـــا لتـــسليم الإمـــامين بعـــده فـــإنهما حقـــا هنـــاك ضـــجيعاه
ومتعـــت بـــذلك الحـــرم وكرعـــت في مناهـــل الفـــضل والكـــرم

انتهى.

نكتة وفائدة قد فعلنا ما أمرنا به وامتثلنا طبق ما نحن بصدده تقبل الله من الجميع ولله المنة فأيام إقامتنا بمسجده صلى الله عليه وسلم أن لازمنا الصلوات الخمس فيه والحمد لله ما صلينا صلاة في غيره وبالجملة فقد لازمت المسجد النبوي للصلاة

ولغيرها فلا نخرج منه إلا لما لا بد منه كالأعراض البشرية وزيارة البقيع وغيره من المزارات ولما استقر بن الحال خرجنا لزيارة البقيع مع البعض من أصحابنا من المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

قال شيخنا المذكور.

ذكر المشاهد التي زرناها بالمدينة المنورة إلى أن قال خرجنا إلى زيارة أهل البقيع، ذوي المجد الأثيل والقدر الرفيع، رضوان الله تعالى عليهم وتتبعنا الأماكن المشهورة إلى أن قال ودعونا الله عند كل مشهد بما نرجو الله قبوله لنا ولإخواننا وأحبائنا الحاضرين والغائبين ومشائخنا نسأل الله تعالى أن يعود ببركة ذلك علينا وعليهم في ديننا ودنيانا وقد استوفى السيد السمهودي في تاريخ المدينة ذكر المشاهد الظاهرة بالبقيع أحسن استيفاء فليراجعه من أراد تحقيق ذلك.

ولنذكر بعض المشاهد ممن زرناه وإلا فمقبرة المدينة لا مقبرة على وجه الأرض أشرف منها بالإجماع فهي خارجة من الخلاف الذي في تفضيل المدينة على مكة إذ لا نعلم مقبرة على وجه الأرض مثلها دفن فيها من سادات هذه الأمة وأفاضلها من الصحابة خصوصا الخلفاء وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم وأولاده وأكابر أهل بيته وسادات التابعين وتابعيهم بإحسان فهم آل زمرة تحشر مع النبي صلى الله عليه وسلم فيهم خلفاؤه وأعمامه وعماته وبناته وولده إبراهيم وأزواجه وأكابر أهل بيته والجم الغفير من أصحابه وأنصاره وأولادهم وأتباعهم فلا يشك مسلم أن ليس في امة النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من الزمرة التي تبعث من المدينة.

وقد روي عن الإمام مالك رضي الله عنه انه قال دفن بالمدينة أكثر من عشرة آلاف من الصحابة وبها شهداء أحد وليس في غزواته صلى الله عليه وسلم أكثر من

هذه الغزوة شهيدا وبها شهداء الخندق وبها شهداء الحرة وليس فيمن استشهد بعد النبي صلى الله عليه وسلم أكرم منه شهيدا وكم فيها من مآثر ومشاهد يعلم بعضها بالنظر في تأليف من ألف في فضلها فأول من يلقاك من المشاهد إذا خرجت على باب المدينة المسمى بباب البقيع قبة فيها صفية بنت عبد المطلب عمة النبي صلى الله عليه وسلم على يسارك وأنت ذاهب في الزقاق الذي وسط البقيع إلى ناحية المشرق وإن ملت إلى اليمين مع سور المدينة فهناك مسجد صغير قيل انه موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج يستغفر لأهل البقيع وقيل هو زاوية دار عقيل بن أبي طالب التي دفن فيها وفيها دفن أكثر أهل البيت روي عن خالد بن عرفجة قال كنت أدعو ليلة إلى زاوية عقيل فمر بي جعفر بن محمد فقال لي: أعن أثر وقفت هنا؟ فقلت: لا. قال: هذا موقف النبي صلى الله عليه وسلم، إذ خرج يستغفر لأهل البقيع.

قال المراغي وقد أخبرني غير واحد ان الدعاء هناك مستجاب فإذا مررت كذلك تحت سور المدينة يمينا إلى أن توازي قريبا من زاوية سور المدينة الذي فيه مشهد السيد إسماعيل فهناك على يسارك القبة الكبيرة المؤثلة في الهواء وفيها مشهد العباس ومشهد الحسن بن علي ومشهد أمه السيدة فاطمة الزهراء على المشهور رضي الله عنهم أجمعين. وقيل أمامهم لجهة القبلة ومشهد زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وكثير من أهل البيت وبين هذا المشهد وزاوية دار عقيل مشاهد متعددة إلى جهة المشرق ومنها مشهد أمهات المؤمنين يروى أن فيها أمهات المؤمنين كلهن ما عدا خديجة وميمونة رضي الله تعالى عن جميعهن وهو في قبلة المشهد المنسوب لعقيل ومنها المشهد المنسوب لعقيل وفيه قبر ابن عمه أبي سفيان بن الحارث روي أن عقيل ابن أبي طالب رأى أبا سفيان بن الحارث يجول بين المقابر فقال يا ابن عمي مالي أراك هنا فقال أطلب موضع قبر فأدخله داره فأمر بقبر فحفر في قاعتها فقعد عليه أبو سفيان ساعة ثم انصرف فلم يلبث إلا يومين حتى توفي ودفن فيه ومنها مشهد يقال أن فيه بنات النبي

صلى الله عليه وسلم كلهن رضي الله تعالى عن جميعهن ما عدا فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها وهو قرب مشهد عقيل ولا شك أن من مات من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم في حياته كان في قبة قرب قبر عثمان بن مظعون لما ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مات عثمان بن مظعون وضع عند رأسه حجرا قال اعلّم به قبر أخي وأدفن فيه من مات من أهلي وهذا المشهد قريب من ذلك.

ومنها مشهد سيدنا إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم فيه قبره وقبر عثمان بن مظعون فقد جاء في الحديث أن أول من دفنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع عثمان بن مظعون فلما توفي ابنه إبراهيم قالوا يا رسول الله أين نحفر له قال عند فرطنا عثمان بن مظعون وفي الحديث ما يدل على أن بنات النبي صلى الله عليه وسلم هناك فقد روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما لما ماتت رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألحقي بسلفنا عثمان بن مظعون والثابت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحضر ابنته رقية لغيبته ببدر وانه حضر ابنته أم كلثوم وزينب قال السمهودي أصل المروي في الطبراني وأرد في أحداهما ثم قال والظاهر إنهن جميعا عند عثمان بن مظعون لقوله عليه الصلاة والسلام لما وضع الحجر عند رأس عثمان بن مظعون اعلّم به قبر أخي وأدفن إليه من مات من أهلي رواه ابن ماجه بفتح الجيم مخففة والحاكم وفي ذلك المشهد أيضا قبر فاطمة بنت أسد أم علي رضي الله عنه كما حققه السيد واستدل لذلك بأحاديث ثم قال وهذا صريح في مخالفة ما عليه الناس اليوم في المشهد المنسوب إليها في فم زقاق أقصى البقيع من شرقيه بل ليس من البقيع وفي هذا المشهد قبر عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقد روي عن حميد بن عبد الرحمن قال أرسلت عائشة إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنهما حين نزل به الموت أن هلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أخويك فقال ما كنت مضيقا عليك بيتك إني كنت عاهدت ابن مظعون أينا مات دفن إلى جنب صاحبه.

وفي المشهد أيضا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه روي عن ابن دهقان قال دعاني سعد بن أبي وقاص فخرجت معه إلى البقيع وخرج بأوتاد حتى إذا أتى موضع زاوية دار عقيل الشقية الشامية أمرني فحفرت حتى إذا بلغت باطن الأرض ضرب فيها الأوتاد ثم قال إن هلكت فأدلهم على هذا الموضع يدفنوني فيه فلما هلك قلت ذلك لولده فخرجنا حتى دللتهم على ذلك الموضع فوجدوا الأوتاد فحفروا له هنالك وفي هذا المشهد أيضا قبر عبد الله بن مسعود فقد روي ابن سعد في طبقاته ان ابن مسعود رضي الله عنه قال ادفنوني عند قبر عثمان بن مظعون وفي المشهد أيضا قبر خنيس بن حذافة السهمي زوج حفصة قبل النبي صلى الله عليه وسلم فقد روي أنه دفن عند عثمان بن مظعون وفيه أيضا قبر أسعد ابن زرارة رضي الله عنه.

قال السيد السمهودي بعد ذكره لما تقدم مبسوطا بأدلته فينبغي السلام على هؤلاء كلهم عند زيارة مشهد سيدنا إبراهيم معه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على القول بأنها بالبقيع وهو الأرجح انتهى.

قلت وقد تقدم إنها في قبة العباس مع ابنها الحسن وذريته وهو الأولى إن شاء الله تعالى قاله أبو سالم.

ومنها مشهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه بموضع يسمى حش كوكب في أقصى البقيع من ناحية المشرق عليه قبة عظيمة هائلة وفي قبلته خارجه محوط من خشب مخروط فيه قبر النقشبندي رضي الله عنه ومنها مشهد ينسب لحليمة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم شامي مشهد عثمان إلى جانب الطريق عليا قبة لطيفة.

ومنها مشهد الإمام مالك رضي الله عنه إذا خرجت من باب البقيع كان مواجه

لك على يمين زقاق البقيع الذي يشق وسطه وإلى جانبه يقال أنها لنافع مولى ابن عمر وقيل لنافع القارئ وقيل لبعض ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنهم ومنها المشهد المنسوب لفاطمة ابنة أسد بأقصى البقيع وقد تقدم عدم ارتضاء السيد لذلك قال عند ذكره لهذا المشهد والظاهر انه مشهد سعد بن معاذ الأنصاري رضي الله عنه ومن المشاهد القريبة من البقيع وليست منه مشهد سيدنا إسماعيل بن جعفر الصادق وهو كبير يقابل مشهد العباس في المغرب وهو ركن سور المدينة هناك وبني قبل السور فصار بابه من داخل المدينة والمسجد الذي بجانب المسجد لزين العابدين وعرصة المسجد داره والبئر التي بين الباب الأول والمشهد بئره وقد ذكر انه يتداوى بها.

وقال شيخنا أبو سالم وهناك بئر أخرى في الرحبة الواسعة التي هي خارج المشهد يقال أنها هي التي يستشفى بمائها.

غريبة قال شيخنا أبو سالم في رحلته لما قدم ركب أهل العراق وكان غالبهم روافض بل كلهم وكانوا يكثرون زيارة مشهد السيد إسماعيل رضي الله عنه كغيره من مشاهد أهل البيت وكانوا يأتون إليه أفواجا فلما ينقطع زائر منهم أيام إقامتهم بالمدينة قال فبينما نحن ذات يوم جالسون إذ جاءت طائفة منهم فيهم بعض من يشار إليه منهم فزاروا وسلموا وكان من جملة سلامهم إن قالوا السلام عليك يا سيدنا إسماعيل وبالغوا في تعظيمه إلى أن قالوا نشهد أنك على دين أخيك موسى يعنون موسى الكاظم رضي الله عنه ونشهد أنك غير مخالف له متبع لطريقه في هذيان كثير.

وسبب ذلك والله اعلم أن الرافضة قبحهم الله منهم طائفة تقدم إسماعيل على أخيه ويقولون أنه الإمام بعد أبيه وأنه أحد الأئمة الأثني عشر المعدودين عندهم يعتقدون فيهم العصمة وهذه الطائفة تسمى الإسماعيلية وكثير منهم بأرض اليمن الآن لهم مذاهب ينتحلونها وآراء في العقائد يعتقدونها ومن سوى هؤلاء الروافض

يعتقدون الإمامة لأخيه موسى الكاظم رضي الله عنه ويعتقدون أن أخاه لا ينازعه في ذلك ويرون إن الإسماعيلية كاذبون عليه مفترون في ادعائهم الإمامة له ولأجل ذلك ينزهون إسماعيل عن مخالفة أخيه رضي الله تعالى عنهما ومن علم أحوال هؤلاء الأئمة من أهل البيت وأسلافهم وأولادهم رضي الله عنهم وعلم ما كانوا عليه من تعظيم السنة ووفور العلم وتعظيم أصحاب جدهم صلى الله عليه وسلم علم براءة ساحتهم من كذب هؤلاء الأرجاس وأفترائهم عليهم أحاديث ما أنزل الله بها من سلطان، ولا جاء في سنة نبيه بيان، ولما خرجت الطائفة المذكورة من المشهد وجاءوا إلى البئر الخارجة وقفوا عليها وترحموا ودعوا وقال لهم كبيرهم أن هذه البئر هي التي دخل فيها الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه فغاب عن أعين الناس إلا الآن وهم يظنون أنه قد مات أو كلاما هذا معناه فقضينا العجب من حمقهم وقبح اعتقادهم في آل البيت الذي آل بهم إلى تنزيههم عن الموت وذلك معتقد الروافض بأجمعهم في الإمام الثاني عشر من أئمتهم وهو محمد بن حسن العسكري رضي الله عنه يعتقدون أنه إلى الآن حي وانه هو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان الموعود به في الحديث الصحيح أنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا قلت والعجب كل العجب من متابعة بعض أهل التصوف في ذلك لهم حسبما نقله سيدي عبد الوهاب الشعراني عن بعض مشائخه وانه اجتمع به وأخبره بمقدار عمره وانه جاوز السبعمائة سنة إذ ذاك بل في كلام بعضهم ما يشير إلى أن الشيخ محيي الدين يقول بذلك ولولا الإطالة لنقلت كلامهم في ذلك والعلم عند الله تعالى فإن صح عن هؤلاء الأئمة أنهم قالوا ذلك فنحن ممن يعتقدهم ويجزم بصدقهم فيما يقولون لأنهم خيار الأمة إلا أنا نكل العلم إلى الله تعالى في فهم ما ورد عنهم في ذلك إذ ليس في الشريعة قاطع يدل على كذب الروافض في هذه المسألة بخصوصها وإن كانوا كاذبين في غيرها وموافقة بعض أئمتنا الصوفية لهم في ذلك من جهة الكشف لا يقدح في كمال منصبهم لعدم القاطع في كذبهم ولا يدل

أيضا على صدق الروافض فيما سوى ذلك مما تبين كذبهم فيه وافتراؤهم فإن موافقة المحق للمبطل في جزئية لا دليل على بطلانها لا يدل على صدق المبطل فيما سوى ذلك ولا على كذب الصادق فيما سوى ذلك وقد وافق كثير من الأئمة المحققين أهل الكشف الصادق آراء الفلاسفة في جزئيات مما ادعوه لم يقم الدليل على بطلانها كما وافق كثير منها أيضا الجم الغفير من المحققين من علماء الظاهر أهل الكلام فالا يشكل عليك ما تجده في كلام أئمة الطريق رضي الله عنهم موافقا للفلاسفة تارة وللروافض أخرى فذلك لا يقع في كلامهم غالبا إلا فيما لم يقم دليل على بطلان قولهم فيه وان فرض فيما سوى ذلك وما أبعده من جلالة منصبهم فهو مؤول قطعا فشد يدك على ما قررنا وهذه الفائدة ساق الله تقريرها في هذا المحل ولم يكن تستطيرها قبل ذلك لنا ببال انتهى.

ومنها مشهد على يسارك وأنت مار في زقاق البقيع يقال انه لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقد ذكر السيد السمهودي المشاهد كلها التي ذكرناها إلا هذا والذي نسب لحليمة فلم يذكرهما ولا أدري هل حدث بناؤهما بعده أو لم يتضح له صحة نسبتهما لمن ذكر مع أن السيد السمهودي قد ذكر أبا سعيد فيمن دفن بالبقيع وروى عن عبد الرحمن ابن أبي سعيد قال قال لي أبي يا بني أني قد كبرت وذهب أصحابي وحان موتي فخذ بيدي فأخذت بيده حتى جاء إلى البقيع فجئت أقصاه مكانا لا يدفن فيه فقال يا بني إذا هلكت فاحفر لي هاهنا فإذا ثبت أن قبره أقصى البقيع فلا يبعد أن يكون هذا قبره.

وأما قبر حليمة فقال لم أر أحدا ذكر أنها دفنت بالبقيع والله تعالى اعلم وعلى كل حال فيزار كل مشهد نسبة إلى الله أو إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ولو لم تصح نسبة المشهد إليه فإن لمجرد النسبة أثرا في حصول البركة.

ومن المشاهد التي تزار بالمدينة وليست بالبقيع ثلاثة أحدها مشهد مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري وهو من شهداء أُحد رضي الله عنهم ومشهده غربي المدينة بلصق السور من داخله وعليه قبة قديمة البناء ومحله من سوق المدينة القديم روي عن أبي سعيد رضي الله عنه أنه قال أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من نقل من شهداء أُحد إلى المدينة أن يدفنوا حيث أدركوا فأدرك مالك بن سنان عند أصحاب العباء أي الذين يبيعون العباء في طرف الحناطين ولابن زبالة فوافوه في السوق فدفن عند مسجد أصحاب العباء وهنالك كانت أحجار الزيت ثانيها مشهد ذي النفس الزكية وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم أجمعين وهو أخو السيد إدريس أول أهل البيت قدوما إلى المغرب وعامة شرفاء أهل المغرب من نسله إلا شرفاء سجلماسة فإنهم من نسل النفس الزكية استوطن أسلافهم الينبع فقدم جدهم منه إلى المغرب في السابعة والله اعلم ومشهده بناء في جوف مسجد كبير شرقي سلع وفي قبلة المسجد منهل من عين الأزرق وهذا هو المستفيض بين أهل المدينة.

قال السيد وذكر سبط ابن الجوزي أن كثيرا من الناس كان قد بايعه فخرج على المنصور بعد حبسه لأبيه وأقاربه فجهز إليه المتصور عمه عيسى بن موسى في أربعة آلاف وذكر قتله عند أحجار الزيت أي عند مشهد مالك بن سنان وأن جسده دفن بالبقيع إلى أن قال وثالثها مشهد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو بأُحد فهذه المشاهد هي المعروفة بالمدينة فينبغي لزائرها أن يزورها ويسلم على أصحابها ويتوسل بهم إلى الله تعالى في بلوغ مآربه.

نكتة مما ينبغي لزائر المدينة الإكثار من الصلاة في المسجد النبوي فقد روى الإمام أحمد والطبراني في الأوسط ورجاله ثقاة عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه من

صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتب له براءة من النار وبراءة من العذاب وبريء من النفاق ولفظ الصلاة وإن كان شاملا للفرائض والنوافل فالظاهر من الحديث خصوص تلك بالفرائض بدليل زيادة الطبراني لأن الفوات فيها أظهر ولا يبعد إلحاق النوافل الموقته بأوقات معلومة بها كالوتر وركعتي الفجر وأن ألحقت بها الرواتب أيضا والضحى والتهجد خصوصا عند من لا يرى التحديد فيها كالإمام مالك رضي الله عنه اتسع الفضل ورجي حصول ذلك الفضل لمن أقام ولو يوما واحدا وحافظ على تلك الصلوات في المسجد النبوي كحجاج المغرب فإنهم في بعض السنين لا يقيمون إلا يوما واحدا فليتنبه لهذه الدقيقة وليحافظ عليها من قصرت إقامته بالمدينة ليحصل له هذا الفضل العظيم الذي فيه خير الدنيا والآخرة وأما من تطول إقامته بالمدينة ثمانية أيام فانه يحصل له هذا الفضل بالفرائض دون النوافل كأهل الشام فإنهم يتأخرون بالمدينة غن الأركاب المغربية والمصرية ويتسع مجالهم في المدينة وينتفعون بالمشاهد من غير منازع ولا مدافع فيقيمون العشرة أيام فأكثر ويتمتعون بمشاهد تلك البقاع ونصبت الأسواق، واتسعت الأرزاق، وقسمت الصدقات، وكثرت الارتفاقات.

وبالجملة فلا ينتفع أهل المدينة بركب انتفاعهم بأهل الشام فإنهم يقدمون بتجارات كثيرة وطعام وزيت وأشربة يبيعونها بالمدينة عند قدومهم ويدخرون ما بقي إلى الإياب فيبيعون كل ذلك بالمدينة.

قال أبو سالم لأهل المدينة عند قدومهم عادة مذمومة وهو انه لا تبقى مخدرة من النساء شريفة كانت أو وضيعة إلا خرجت تباشر البيع والشراء بنفسها ولهن في ذلك الوقت على الرجال أتاوة يؤدونها لهن يبتعن بها ما أحببن من اللائق بهن من طيب وشبهه وربما لا تقنع أحداهن من زوجها إلا بالخميس دينارا فما فوقها فقد حكي ان

امرأة بعض المدرسين بها أعرفه طلبت منه في ذلك اليوم ما تخرج به إلى السوق على العادة فدفع لها عشرة دنانير ذهبا فاستقلتها وذهبت من شدة الغضب فرمت بها في المرحاض وأتلفتها عليه وقالت أمثلي يخرج إلى السوق بهذا المقدار فلم يملك من أمره إلا أن ذهب وتسلف خمسين دينارا فدفعها لها وهذه حسرة عظيمة وذل للرجال الذين جعلهم الله قوامين على النساء فلا ينبغي لذي همة أن يرضى بذلك بيد أن نساءهم يبالغن في الستر الظاهر بحيث لا يبدو من المرأة ولو مغرز إبرة حتى من أطرافها يلبسن الخفاف السود ويترفعن ويسدلن من أُزُرِهِنّ ما يكون نهاية في الستر إلا أنهن يكثرن من الطيب عند الخروج فيوجد عرف الطيب منهن من مسافة فيكون ما سترنه ظاهرا بدينه باطنا وبهذا فسر بعض العلماء قوله صلى الله عليه وسلم رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة لأن الحكم في الآخرة إنما هو للحقائق ومن هذه صفته من النساء وان اكتست في الظاهر فهي في الحقيقة عارية لأن حقيقة التعري إبداء ما حقه أن يخفى كما ان التستر إخفاء ما لا ينبغي أن يظهر ولا خفاء أن عطرة المرأة من أعظم زينتها وألذ ما يشتهي منها وقد أمرت بإخفاء ما هذا سبيله من أوصافها فإذا ظهر منها ذلك فهي في الحقيقة عارية وإن اكتست فإن من العورات ما لا تواريه الكسوة ولا يواريه إلا تركه رأسا أو الخلوة ككلام المرأة فالصحيح أنه عورة كذلك عطرها فلا يواريه إلا تركه ولذلك جاز لها الطيب المؤنث وهو ما ظهر لونه وخفي ريحه لأن اللون تستره الثياب بخلاف الريح فلا يستره إلا الترك رأسا أو عدم الخروج فليتأمل. انتهى.

ذكر المساجد التي تزار بالمدينة لنسبتها للنبي صلى الله عليه وسلم فمنها مسجد قُبا وهو المسجد الذي أسس على التقوى في أصح الأقوال وقيل هو مسجده عليه الصلاة والسلام كما ورد في حديث وجمع بأنه يطلق على كل منهما وينبغي زيارة هذا المسجد ويختار كونها يوم السبت كما ورد في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي مسجد قبا كل سبت راكبا أو ماشيا وكان عبد الله يفعله يعني ابن عمر

رضي الله عنهما وورد في فضل هذا المسجد أثار كثيرة منها ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لو كان مسجدنا هذا بطرف من الأطراف لضربنا إليه أكباد الإبل وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لأن أصلي في مسجد قبا ركعتين أحب إلي من أن آتي إلى بيت المقدس مرتين لو يعلمون ما في قبا لضربوا إليه أكباد الإبل وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه الحمد لله الذي قرب منا مسجد قبا ولو كان بأفق من الآفاق لضربنا إليه أكباد الإبل وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال الصلاة في مسجد قبا كعمرة إلى غيرها من الأحاديث والأخبار وقد أتيناه فدخلناه وصلينا في مصلاه صلى الله عليه وسلم سجدة الضحى وهو إلى حرف الاسطوانة التي في الصف الموالي لمحراب المسجد عن يمين المصلي فيه وهناك أماكن أخر ذكر أنه عليه الصلاة والسلام صلى فيها منها في رحبته ومنها في زاويته الشرقية من الصف الأول.

وقد ذكر السيد السمهودي ذلك كله وبينه أحسن بيان وخارج المسجد من قبلته موضع يسمونه مسجد علي قال السيد لعله مسجد دار سعد بن خيثمة فقد ورد انه عليه الصلاة والسلام اضطجع فيها وتوضأ من المهراس الذي فيها قال وفي قبلته أيضا دار كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه الصلاة والسلام لما قدم قبا قلت ولعل موضعه مسجد صغير آخر لم نجد من يسميه قاله أبو سالم.

وقريب من مسجد قبا كناسة كبيرة من شرقيه يقال إنها مسجد الضرار ودخلنا الحديقة التي فيها بئر اريس وشربنا من مائها وتوضأنا منه ومنها مسجد الجمعة وهو في طريق قبا نحو ميل أو أقل من مسجد قبا على يمين الذاهب من المدينة على الطريق التي تمر بين النخل ومن مر على طريق الحرة الغربية فهو عن يساره فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من قبا في هجرته أدركته الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن الوادي وهي أول جمعة صلاها عليه الصلاة والسلام بالمدينة وهذا المشهد اليوم

في منخفض من الأرض قد أحاطت به حدائق النخل من أكثر جهاته وفي شماليه أطم خراب قيل أنه محل عِتْبَان ابن مالك رضي الله عنه وفيه أثر مسجد صغير غير مسقف يقال انه المكان الذي صلى به صلى الله عليه وسلم من بيته ومسجد الجمعة في مستبطن الوادي الذي يحول بينه وبين قومه إذا سأل ومنازل قومه في غربي الوادي على طرف الحرة ومنها مسجد الفضيخ وهو مسجد صغير شرقي مسجد قبا على شفير الوادي على نشر من الأرض مرضوم بحجارة سود.

فقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني النضير فضرب قبته قريبا من مسجد الفضيخ وكان يصلي في موضع مسجد الفضيخ ست ليال وسمي مسجد الفضيخ لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أُتِيَ بفضيخ وهو فيه فشربه وقيل غير ذلك ويعرف الآن بمسجد الشمس. قال السيد ولا أعرف سبب هذه التسمية ومنها مسجد بني قريظة قرب حرتهم الشرقية غلى باب حديقة هناك وعنده خراب أبيات شمالي الحديقة من دور بني قريظة وأطم الزبير بن باطيا القرظي داخل في هذا المسجد ففي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه لما نزل بنو قريظة على حكمه فلما كان قريبا من المسجد قال عليه الصلاة والسلام للأنصار رضوان الله تعالى عنهم أجمعين قوموا إلى سيدكم وليس المراد مسجد المدينة لأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن بها بل مسجد بني قريظة كما أشار إليه الحافظ ابن حجر رضي الله عنه وأخطأ من زعم أن لفظ المسجد غلط وهذا المسجد كبير عليه حظيرة من حجارة قريب من القامة وفي زاويته الغربية الشمالية دكة كبيرة هي موضع منار المسجد قبل انهدامه فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في بيت امرأة من الحضر وأن المكان الذي صلى فيه هو موضع هذا المنار.

ومنها مسجد مشربة أم إبراهيم عليه السلام فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام صلى في مشربة أم إبراهيم وسميت بذلك لأن مارية ولدت سيدنا إبراهيم بن نبيا صلى الله عليه وسلم فيها وكان النبي صلى الله عليه وسلم أسكنها هناك فهي من أموال مخيريق التي هي من صدقاته صلى الله عليه وسلم وهذا المسجد شمالي مسجد بني قريظة قريب من الحرة الشرقية ومنها مسجد بني ظفر من الأوس شرقي البقيع بطرف الحرة الشرقية ويعرف الآن بمسجد البغلة فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد بني ظفر وانه أتى لبني ظفر في مسجدهم فجلس على الصخرة التي في المسجد ومعه عبد الله[1] بن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه وأمر صلى الله عليه وسلم قارئا فقرأ حتى أتى على هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾ الآية فبكى الحديث.

وعند هذا المسجد أثار في الحرة من جهة القبلة يقال انه أثر حافر بغلته صلى الله عليه وسلم وهناك آثار على حجر كأنه أثر مرفق يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتكأ عليه ووضع مرفقه الشريف عليه وعلى حجر آخر أصابع والناس يتبركون بها ومنها مسجد الأجابة وهو لبني معاوية بن مالك من الأوس وهو شمالي البقيع قريب منه على يسار السالك إلى العريض بإزائه تلول هي آثار قرية بني معاوية ففي صحيح مسلم من حديث عامر بن سعيد عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية حتى مر بمسجد بني معاوية دخل فركع ركعتين وصلينا معه ودعا ربه طويلا ثم انصرف إلينا فقال سألت ربي ثلاثا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة سألته أن لا يهلك أمتي فأعطانيها وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها وعن سعد بن أبي وقاص أنه كان مع النبي صلى الله عليه

(١) في غير الرحلتين العياشية والناصرية عبد الرحمن.

وسلم فمر بمسجد بني معاوية فدخل فركع فيه ركعتين ثم قام فناجى ربه ثم انصرف وعن محمد بن طلحة بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد بني معاوية على يمين المحراب نحو ذراعين قال السيد فليتحر ذلك مع الدعاء قائما.

ومنها مسجد الفتح والمساجد التي في قبلته وتعرف اليوم كلها بمساجد الفتح والأول هو المرتفع على قطعة من جبل سلع في المغرب يصعد إليه بأدراج شمالية وشرقية وهو المراد بمسجد الفتح عند الإطلاق ويقال له أيضا مسجد الأحزاب والمسجد الأعلى.

وفي مسند الإمام أحمد برجال ثقاة عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا في مسجد الفتح ثلاثا يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء فاستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين فَعُرِفَ البِشْرُ في وجهه قال جابر فلم ينزل في أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فأدعو فيها فأعرف الإجابة وروي انه عليه الصلاة والسلام مر بمسجد الفتح الذي على الجبل وقد حضرت صلاة العصر فرقي فصلى به صلاة العصر وروي انه عليه الصلاة والسلام دعا في مسجد الفتح يوم الأحزاب حتى ذهب الظهر وذهب العصر وذهب المغرب ولم يصل منهن شيئا ثم صلاهن جميعا بعد المغرب.

قال أبو غسان وسمعت غير واحد ممن يوثق به ان الموضع الذي دعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجبل هو اليوم إلى[1] الاسطوانة الوسطى الشارعة في رحبة المسجد قال السيد ومحل ذلك اليوم ما يقابل محراب المسجد من الرحبة لتوسطه فانه كان على ثلاثة أساطين بني المشرق والمغرب فمسقفه رواق واحد كما هو اليوم

(١) في الرحلة الناصرية الموالي إلى.

لكن غيرت أساطينه وذكر الدعاء الذي ينبغي أن يدعو به في ذلك الموضع وهو لا إله إلا الله العظيم الحكيم[١] لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا[إله إلا الله رب السموات والأرضين ورب العرش العظيم][٢] اللهم لك الحمد هديتني من الضلالة فلا مكرم لمن أهنت ولا مهين لمن أكرمت ولا معز لمن أذللت ولا مذل لمن أعززت ولا ناصر لمن خذلت ولا خاذل لمن نصرت ولا معطي لمن منعت ولا مانع لمن أعطيت ولا رازق لمن حرمت ولا حارم لمن رزقت ولا رافع لمن خفضت ولا خافض لمن رفعت ولا خارق لمن سترت ولا ساتر لمن خرقت ولا مقرب لمن أبعدت ولا مبعد لما قربت اللهم أنت عضدي ونصيري بك أحول وبك أصول وبك أقاتل اللهم يا صريخ المستصرخين والمكروبين ويا غياث المستغيثين ويا مفرج كروب المكروبين ويا مجيب دعوة المضطرين صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما واكشف عني كربي وغمي وحزني وهمي كما كشفت عن حبيبك ورسولك صلى الله عليه وسلم كربه وحزنه وهمه في هذا المقام وأنا استشفع به إليك صلى الله عليه وسلم في ذلك فقد ترى حالي وتعلم عجزي وضعفي يا حنان يا منان يا ذا الجود والإحسان أسألك من خير ما سألك منه عبدك وحبيبك محمد صلى الله عليه وسلم ويدعو بما أحب ويبغي أن يضم لذلك ما دعا به الشافعي عند دخوله على الرشيد في محنته فقد روى أبو نعيم من طريق الشافعي أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا به يوم الأحزاب وهو دعاء عظيم وان كان رفعه غير صحيح كما قال البيهقي وهو شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام اللهم أني أعوذ بنور قدسك وبركة طهارتك وبعظمة كلامك من كل عاهة وآفة وطارق الأنس والجن إلا طارق يطرق بخير يا رحمان اللهم أنت ملاذي فيك ألوذ وأنت غياثي فيك

---

(١) في الرحلة الناصرية الحليم.

(٢) ما بين القوسين ساقط من نسختين ومن الرحلة الناصرية.

استغيث يا من ذلت له رقاب الفراعنة وخضعت له مقاليد الجبابرة اللهم ذكرك شعاري ودثاري ونومي وقراري أشهد أن لا إله إلا أنت أضرب على سرادقات حفظك وقني رغبتي بخير منك يا رحمان.

قال وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ يوم الأحزاب شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم أن الدين عند الله الإسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد به واستودع الله هذه الشاهدة وهذه الشهادة وديعة لي عنده يؤديها لي يوم القيامة اللهم أني أعوذ بنور قدسك وعظيم ركنك وعظمة طهارتك من كل آفة وعاهة ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير اللهم أنت غياثي بك استغيث وأنت ملاذي بك ألوذ وأنت عياذي بك أعوذ يا من ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له أعناق الفراعنة أعوذ بك من خزيك ومن كشف سترك ونسيان ذكرك والانصراف عن شكرك أنا في حرزك ليلي ونهاري ونومي وقراري وظعني وأسفاري وحاتي ومماتي ذكرك شعاري وثناؤك دثاري لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك تشريفا لعظمتك وتكريما لِسُبُحَات وجهك أجرني من خزيك ومن شر عبادك واضرب علي سرادقات حفظك وأدخلني في حفظ عنايتك وجد علي منك بخير يا أرحم الراحمين انتهى.

قال وتسمية هذا المسجد بمسجد الفتح لأن الاستجابة وقعت به وجاء حذيفة بخير رجوع الأحزاب ليلا به فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وقد فتح الله عز وجل لهم ونصرهم وأقر أعينهم وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ابشروا بنصر الله وفتحه وقول ابن جبير إن سورة الفتح أنزلت به لا أصل له انتهى.

قلت إنما أنزلت بين مكة والمدينة في شأن الحديبية فرجع النبي صلى الله عليه

وسلم منها وقد حيل بينهم وبين نسكهم وكان الصحابة بين الكآبة والحزن فنزلت تسلية لهم وبشرى.

وأما المساجد التي في قبلته فقد روي عن سعد بن معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في مسجد الفتح الذي على الجبل وفي المساجد التي حوله.

قال السيد وهو ظاهر في أنها ثلاثة غيره فأحدها الذي يلي المسجد الأعلى يعرف بمسجد سلمان الفارسي وثانيها ففي قبلة هذا المسجد يعرف بمسجد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وثالثها في قبلة الثاني على طرف جبل سلع جانحا لجهة الشرق ويعرف بمسجد أبي بكر وهو أصغرها وفي باب المعروف منها بعلي ماجل ماؤه ينزل إليه بدرج وأهل المدينة يخرجون إلى هذه المساجد لقصد التفرج في أيام كثيرة ولهم يوم معلوم في السنة يخرجون إليها بالأخبية والأطعمة الكثيرة فيبيتون بها في لهو وطرب وهو يوم النصف من شعبان.

وقال شيخنا أبو سالم وقد خرجنا مرة لزيارة المساجد فوجدنا الأعلى منها مملؤا نساء ولم نتمكن من الدخول إليه وهن يطبخن فيه أنواع الأطعمة ونساء المدينة لهن عوائد مذمومة في الخروج إلى التنزه والتفرج في البساتين والأماكن المنفسحة ويسمون ذلك القائلة فيقولون نقيل اليوم في الموضع الفلاني وخروج الرجال لذلك أكثر فتكلف المرأة زوجها من النفقة ما لا قدرة له عليه ومن الأماكن التي هي في عدد المساجد ينبغي التبرك بها والصلاة فيها كهف سلع وهو كهف بني حرام فقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس به وكان يبيت به ليالي الخندق.

قال السيد السمهودي والظاهر انه المراد بما في الأوسط والصغير للطبراني من أن معاذ بن جبل خرج يطلب النبي صلى الله عليه وسلم فدل عليه في جبل ثواب فخرج

حتى رقي جبل ثواب فبصر به في الكهف الذي اتخذ الناس إليه طريقا إلى مسجد الفتح فإذا هو ساجد فقال فهبطت من رأس الجبل وهو ساجد فلم يرفع حتى أسأت به الظن فظننته قبضت روحه قال جاءني جبريل بهذا الموضع فقال ان الله تعالى يقرئك السلام ويقول ما تحب أن تصنع بأمتك قلت الله أعلم فذهب ثم جاء إلي فقال أنه يقول لا أسوءك في أمتك فسجدت فأفضل ما أتقرب إلى الله السجود.

قال السيد جبل ثواب لم أقف له على ذكر لكن وصفه الكهف بما ذكر ظاهر في إرادة الكهف المذكور بسلع على يمين المتوجه من المدينة إلى مساجد الفتح من الطريق القبلية بقرب شعب بني حرام فإن عن يمينه هناك مجرى سائلة تسيل من سلع إلى بطحان فإذا دخلها صعد يسيرا في المشرق وكان الكهف عن يمينه وأعلى منه في المشرق وكهف آخر لكنه صغير جدا فالأول هو المراد وإذا توجه من هذه السائلة طالب مسجد الفتح كان شعب بني حرام عن يمينه وهو شعب متسع به آثار مساكنهم وأثر مسجدهم الكبير الذي زاد عمر بن عبد العزيز في بنائه واختلف في صلاته صلى الله عليه وسلم بهذا المسجد بناء على أن تحولهم إلى هذا الشعب كان في زمانه عليه الصلاة والسلام فانه روي أنه كان في زمان عمر رضي الله تعالى عنه اهـ قال أبو سالم وأثر المسجد اليوم باق بأسفل الوادي إلا أنه لا بناء عليه وإنما عليه حظير صغير وهو لا يعرفه كثير من الناس ولا يوبه به كذلك الغار المذكور لا يعرفه كثير من الناس ولا يقصد للزيارة ومنها مسجد القبلتين وهو لبني سلمة وسمي مسجد القبلتين لأن القبلة حولت فيه.

قال السيد والأرجح أن تحويل القبلة كان بمسجد القبلتين والنبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي به وليحيى عن محمد بن الأخنس قال زار رسول الله صلى الله عليه وسلم أم بشر ابن البراء من بني سلمة في بني سلمة فصنعت له طعاما فآن الظهر فصلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه في مسجد القبلتين الظهر فلما أن صلى ركعتين أمر أن يوجه إلى الكعبة باستدار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة واستقبل الميزاب وهي القبلة التي قال الله فلنولينك قبلة ترضاها فسمي ذلك المسجد مسجد القبلتين وهو غربي بطحان وسلع قريب من العقيق في مكان مرتفع والطريق إليه في أكام سود من الحرة وشعاب ومنها مسجد السقيا اللاتي ذكرها في الآبار وليست السقيا التي بينها وبين المدينة مرحلة بل محل آخر بالحرة الغربية وهذا المسجد على يسار الذاهب إلى المدينة من العقيق في الحرة الغربية على طريق الحاج عندما يقرب من المساكن ويشرف على المدينة وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم عرض جيش بدر بالسقيا وصلى في مسجدها ودعاء هنالك لأهل المدينة ان يبارك لهم في مدهم وصاعهم وأن يأتيهم بالرزق من هاهنا وهاهنا.

قال السيد وقد تطلبت المسجد بهذا المحل فرأيت رضما على ربوة هناك فأرسلت إليه بعض العمال ليحفر عن أساسه فظهر تربيعه وبقية محرابه ومن جدرانه أزيد من نصف ذراع في دوره مبيضة بالفضة فيفي علي أساسه الأول.

قال الشيخ أبو سالم وهو اليوم مبني ببناء وثيق يأوي إليه الغرباء في بعض الأحيان خصوصا أيام الموسم فإن الركب المصري ربما وصلوا بالنزول في بعض السنين إلى تلك الناحية ومنها مسجد ذباب ويعرف اليوم بمسجد الراية وهو على جبل صغير قريب من سلع من شرقيه قريب من ثنية الوداع على يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على ذباب وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ضرب النبي صلى الله عليه وسلم قبته على ذباب يعني في غزوة الخندق والأرجح أن الخندق كان من ناحية ذباب قال السيد وقد رأيت لذباب ذكرا في أماكن كثيرة كلها متفقة على وصفه بأنه الجبل المذكور بحيث لا تردد

عندي فيه.

قال ولعل اشتهاره بمسجد الراية لقول الواقدي في وصف اصطفافهم على الخندق وكان يزيد بن هرمز في موضع ذباب يحمل راية الموالي وصفهم كراديس بعضها خلف بعض إلى رأس الثنية يعني ثنية الوداع.

ذكر جبل أُحد وما به أو بطريقه من المساجد النبوية وذكر مشهد سيد الشهداء حمزة ومن معه من الشهداء رضي الله تعالى عنهم

جرت عادة أهل المدينة شرفها الله تعالى بزيارة قبر سيدنا حمزة رضي الله تعالى عنه كل يوم خميس وربما باتوا هنالك ليلة الخميس في أغلب الأحوال.

قال شيخنا أبو سالم ولا أعلم لاختيارهم الزيارة في الخميس سببا إلا أن يكون ما ورد أن الأموات يعلمون بزائرهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده فلما كان يوم الجمعة يضيق المشي فيه بسبب الاشتغال بمقدمات الصلاة وزيارة البقيع ويوم السبت لزيارة قبا فلم يبق إلا يوم الخميس.

وزيارة أُحد والشهداء به من السنن المأثورة ففي صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أُحد بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات وفي حديث أبي داود خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نريد قبور الشهداء حتى إذا أشرفنا على حرة راقم فلما تدلينا منها فإذا قبور فقلنا يا رسول الله أقبور إخواننا هذه قال قبور أصحابنا فلما جئنا قبور الشهداء بأُحد على رأس كل حول فيقول سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وكان إذا واجه الشعب قال سلام عليكم بما صبرتم فنعم أجر العاملين وروي أن فاطمة رضي الله تعالى عنها كانت تزور قبر عمها حمزة رضي الله تعالى عنهما ترمه وتصلحه وقد علمته بحجر وروى الحاكم عن علي أن فاطمة رضي الله عنهما كنت تزور عمها حمزة رضي الله عنهما كل جمعة فتصلى وتبكي عنده وروى البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم زار قبور الشهداء بأُحد فقال اللهم أن عبدك ونبيك يشهد أن هؤلاء شهداء وإن من زارهم وسلم عليهم إلى يوم القيامة

ردوا عليه والمشهور أن الذين أكرموا بالشهادة بأُحد سبعون رجلا أفضلهم وسيدهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وروي أن مصعب بن عمير رضي الله عنه دفن معه ف قبر واحد وأن عبد الله بن جحش معهما قال السيد والصحيح أنه ليس معه أحد في قبره وأن مصعبا وعبد الله دفنا بقربه فيسلم على الثلاثة في مشهد حمزة رضي الله عنهم والمشهد عليه قبة عالية متقنة وبابه مصفح بالحديد وحوله بناء متسع فيه بئر وفيه أخيلة للوضوء متصلة بالسطح.

قال السيد والقبر الذي عند رجلي سيدنا حمزة رضي الله عنه والذي في الصحن ليسا من قبور الشهداء وباب المشهد في سائر الأيام مقفل لا يفتح إلا يوم الخميس يأتي القيم من المدينة بالقصد لذلك ولأهل المدينة موسم كبير في رجب يختلفون فيه لزيارة حمزة والشهداء رضي الله عنهم يأتي الناس إليه من أقطار الحجاز من مكة واليمن والطائف والينبع فيحشر هنالك خلائق لا يحصون يقاربون ما يجتمع في موسم الحج ويخرج أهل المدينة إلا القليل بأولادهم ونسائهم ويخرجون معهم المضارب الحسان والخيام الكبار ويخرج أمراء المدينة وعسكرها وتنصب الأسواق العظيمة هنالك يخرجون من أوائل رجب ويتلاحق الناس كل على قدر حاله فيتكامل خروجهم في اليوم الثاني عشر وهو اليوم المشهود عندهم ويوم الزينة فلا يبقى بالمدينة إلا أهل الأعذار ومن شاكلهم ويحصل هنالك في تلك الليلة من أنواع اللهو والطرب واللعب بأشياء كثيرة والرمي بالمدافع والمحارق ويبيت الناس طول ليلهم ويومهم في القراءة والزيارة حول القبر ويوقد هنالك من الشمع شيء كثير.

قال الشيخ أبو سالم وأصحاب شيخنا القشاشي هم المتولون لوظيفة القراءة حول القبر لا تنقطع القراءة في الليل بأجمعه والنهار بتمامه قال وكبيرهم شيخنا الملا إبراهيم رضي الله عنه معهم لا يفارق ذلك المحل وكيفية القراءة أن تجتمع جماعتهم كلهم فيبدأ

أحدهم فيقرأ جزءا فيستمع الباقون فإذا فرغ من جزئه أخذ الذي يليه في القراءة والآخرون يستمعون ثم كذلك سائر الليل والنهار.

قال وحكي أن بعض الفقهاء بالمدينة كان ينكر على أهل المدينة خروجهم إلى أحد في رجب ويقول لهم أن ذلك من البدع المذمومة لما يحصل في ذلك من أنواع اللهو والسرف في المطاعم وغيرها والتكلف في النفقات والخروج من المدينة بالأهل والأولاد والخيم الشبيه بشد الرحال بل هو مع ما في ذلك من التشبه بمواسم الحج في الهيئة واعتقاد القربة واعتياد يوم في السنة إلى غير ذلك من الأمور التي لا توافق ظاهر الشرع وكذلك الفقيه لا يخرج معهم إذا خرجوا ويشدد النكير عليهم في ذلك فبينما هو ذات يومن من الأيام التي تهيأ الناس فيها للخروج جالس في الروضة أو قريبا منها إذ غلبته عيناه فرأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدخل ويخرج من الحجرة ويقوم ويقعد كفعل المتهيئ للسفر وأثاث السفر معدة بين يديه فقال له يا رسول الله ما هذا الذي أرى أتريد الانتقال عنا والخروج من المدينة قال لا إنما أريد الخروج لزيارة عمنا حمزة مع أهل المدينة أو كلاما هذا معناه فانتبه الفقيه من نومه وتهيأ للخروج مع الناس فتعجبوا من ذلك وسألوه فأخبرهم بذلك ولا بدع فإن النبي صلى الله عليه وسلم تعلقا معنويا وموافقة روحانية لأمته في سائر شئونهم وتقلباتهم فيهتم بما يهتمون ويفرح بما يفرحون ويسوءه ما يسوءهم فما بالك بأهل المدينة الطيبة المطيبة وكل ذلك رحمة منه لهم ورأفة بهم وحنانا ولا يمنعه من ذلك كون بعض شؤونهم قد يلابسها ويخالطها خلاف المشروع فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته معهم على هذا الحال وفيهم المسيء والمحسن والطائع والعاصي بل المومن والمنافق فيعلم جاهلهم ويرشد ضالهم ويرفق بالشرير الأخلاق منهم حتى ينقاد ولم تحمله إساءتهم ولا عصيان بعضهم بل نفاقه على مفارقتهم والتخلي عنهم إذ لو تخلى عنهم لعوجل المسيء بالهلاك وخذل المطيع في طاعته ولم يبال الله بهم باله فكذلك حاله صلى الله عليه

وسلم مع أمته بعد موته وقد قال حياتي خير لكم ومماتي خير لكم الحديث فهو معهم صلى الله عليه وسلم في كل أطوارهم وتقلباتهم بمدده الرباني وسره الحقاني يستغفر لمسيئهم ويشفع له ويشهد لمحسنهم ويستوهب له من الله الزيادة ولا يخفى عليه شيء من أحوالهم ولا يغفل عنهم طرفة عين في كل شئونهم فلا يستبعد حضوره صلى الله عليه وسلم بروحانيته في محافل المسلمين ومواسهم ومحال اجتماعهم على أي حال كانوا فلو فارقتهم روحانيته صلى الله عليه وسلم الشريفة طرفة عين لضلوا عن سواء الطريق، ولهوت بهم الضلالة في مكان سحيق، فسبحان من منَّ به على عباده، وجعله برزخا بينه وبين أهل وداده، فما أرأفه بنا من إله إذ جعله رسولا إلينا، ورحمة علينا، نسأله سبحانه أن لا يخلينا من مدده صلى الله عليه وسلم طرفة عين آمين.

وتفهم من هذا ما يحصل من الاجتماع العظيم في محال بعض الصالحين واشتماله على بعض المناكر ومع ذلك يحضره الأولياء وأرباب القلوب من الصالحين فيشاهدون حصول مدده لكل زائر، وسرينا سره في كل حاضر، وذلك كمولد سيدي أحمد البدوي بمصر ومولد الإمام الشافعي وعند سيدي أبي مدين وسيدي أبي يعزى وسيدي أبي العباس السبتي بأرض المغرب وعند مولاي عبد السلام بن مشيش يوم المولد النبوي وغير ذلك من الأماكن الشهيرة المنسوبة لكثير من الأولياء شرقا وغربا.

فقد ذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في كثير من تواليفه عن جماعة من أهل الكشف أنهم يشاهدون النبي صلى الله عليه وسلم في مولد سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه وانه يحضره كل سنة مع اشتماله على كثير من الأمور التي لا تنبغي.

قال قد أخبرنا شيخنا أبو مهدي عيسى الثعالبي عن بعض مشائخه أن سيدي عبد الوهاب الشعراني عزم مرة على التخلف عن مولد سيدي أحمد البدوي وإن لا يذهب إليه لما يقع هنالك من المناكر فلما عزم على ذلك وقرب الوقت رأى في المنام

سيدي عبد العالي خديم الشيخ سيدي أحمد البدوي وخليفته من بعده فقال له مباسطا يا عبد الوهاب لا تنقطع عن زيارتنا ونحن نطعمك ملوخية والملوخية عن أهل المصر والريف من أشهى الأطعمة التي لا كبير مؤنة فيها فلما استيقظ عزم على المشي فذهب فكان من الأمر الغريب الدال على صدق الرؤيا لية وصوله لمكان الشيخ أتفق انه لم يطبخ أحد تلك الليلة في الزاوية كلها ولا في القرى التي حولها إلا الملوخية فكانت طعامه وطعام أهل تلك الناحية كلها في تلك الليلة والحكايات الدالة على أمثال هذا كثيرة من انتصار الأولياء لمن آذى من حضر محالهم أو انتهك حرمتهم ولو كان من أدنى ممن يستحق ذلك في باديء الرأي ومع هذا كله فلا يتخذ هذا ذريعة إلى الاستهانة بإقامة الحدود على من وجبت عليه في تلك المحال وإلى التغافل عن إزالة المناكر الواقعة هنالك لمن قدر عليها وإلى التعامي عن ذلك بل التنبه لذلك والاشتغال به لمن له قدرة عليه من أفضل القربات لمن حسنت نيته ولا يمنعه من ذلك ما يقع لبعض من تعاطي ذلك من الأمور التي هي كرامة لذلك الولي فإن ذلك في الغالب لا يقع إلا لمن لم تكن له نية صالحة في النهي عن المنكر وقصد بذل إظهار نفسه أو تنقيص ذلك الولي فإن فرض وقوعه لحسن النية فهو مما يزيده عند الله قربة ويقيم حرمة عبده المنسوب إليه المكان ولله في ذلك أسرار خفية لا تخفى على أهل القلوب الصافية.

قال وإلى مثل هذا التقرير يجنح شيخنا علامة الوقت سيدي عبد القادر الفاسي رضي الله عنه فين يأوي إلى قبور الصالحين من الجناة وقد يكون على أحدهم حد من الحدود فلا ينبغي إهماله وإن أخرج من المحل كان في ذلك هضم لحرمة الولي واستهانة بقدره عند العامة فليلخص من ابتلي بذلك عمله لله تعالى وليصدق الله في أمره فإن الله جاعل له من ذلك مخرجا والله الموفق انتهى.

تتمة مما يجب التنبه لمثل ما سبق ما يقع عند الصالحين في وطننا من المناكر

والمحرمات التي لا تحصى كثرة كاجتماع النساء والرجال الذين فيهم فتنة عظيمة فإن أكثر ذلك الشبان والشابات المتنعمات فمن شاهد ذلك تاه عقله وخاب سعيه وضل قصده وفسد مذهبه وقبح عمله إلا من حفظه الله وعصمه بقصده الرباني وسره النوراني وحبه الصمداني لأن روحانيته صلى الله عليه وسلم امتزجت به فلا يضره ما يقع في ذلك المكان من المناكر لأنه محجوب عن التلبس بها والإناطة بماهياتها وإن شاهدها بحواسه الظاهرة لأن قلبه مجذوب وممحو عن سواه فقالبه مشغول بالأحكام الظاهرة وقلبه منور بنور الحقيقة فتاه في حضرة المكون وإن إلى ربك المنتهى إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وذلك كالاجتماع ببجاية آخر رمضان فانه موسم عظيم يجتمع فيه العامة والخاصة وكذا يوم عرفة عند قبر القطب سيدي يحيى العيدلي فإن النساء والرجال يجتمعون هنالك وكذا عند الولي الصالح سيدي علي بن شداد وسيدي علي بن موسى بل وعند سيدي عبد الرحمن الثعالبي (نفعنا الله ببركاته آمين) في الجزائر وسيدي سعد السفري[1] بقسنطينة وفي جبلنا المثقوب وكذا قبر جدنا سيدي أحمد الشريف وقبر سيدي علي بن عبد العزيز وكذا مسجد حنيف وغيرهم من المواضع التي يكون الاجتماع فيها في الظاهر على الله وفي الباطن على شهوات النفس وخطرات الشياطين ووساوس اللعين فإن مفاسد تلك المجال أعظم من خيرها.

نعم قد شاهدنا من تلك الجموع حين كنا نجتمع معهم قوة الحب في الله والشوق لديه بل والله كنت شابا لا يخطر لي خاطر فاسد وإنما شغفت بحب الله وحب رسوله صلى الله عليه وسلم وغيري ممن له قوة نفس وشغف في النساء قد حصل له مقصوده من هؤلاء الجموع كما حكي لي عن بعض الطلبة من فساقهم وكذا بعض الفقراء المدعين بالكذب بيد أني لم أشاهد منهم ذلك.

---

(١) في نسخة الصفراوي.

وبالجملة فإن كان في تلك الجموع العلماء العاملون والصديقون والصالحون وغيرهم ممن له نصيب قوي في الله والرغبة لديه بأن يكون له تعظيم الشريعة وتعظيم أهلها فالغالب أن[١] من له نية صافية وقصد صحيح أفلح[٢] إذ الشوق رباني والحضرة الإلهية والدائرة نورانية فلا يخيب قاصدها إن صفا قلبه من اللهو والفساد فلا شك انه يفوز بنيته لأنهم من قوم لا يشقى بهم جليسهم فلا يقدح بما وقع فيه من المناكر لكثرة المجتمعين لأن روحانيته صلى الله عليه وسلم سارية في إسرارهم فلا يخلو محلهم ذلك من أهل التصريف ورجال الغيب فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين من الرحمة والأسرار النبوية والفتوحات [الإلهية لما علمت أن كل جمع يستحيل تواطؤه على الباطل لا بد فيه من الرحمة الإلهية والفتوحات][٣] النبوية[٤] والعلوم اللدنية والأسرار النورانية ولا يضرهم المخالف لهم في أفعالهم ومقاصدهم وأحوالهم الشريفة لأن جمعه صلى الله عليه وسلم لا يخلو من المنافقين والعاصين وكذا من الكفار غير انه لا يرضى بذلك وأن حصل له العلم بشيء من ذلك نهى عنه لأنه لا يقر على معصية وأما غيره قد يحصل لهم العلم بذلك فلا يجدون سبيلا للنهي أو للمنع أما لكثرة المجتمعين أو ذلك موكل لأرباب الولاية فإنهم المكلفون به أو قلوب الصالحين من ذلك الجمع غائبة عن ذلك المنكر.

حاصله كل سوق من الأسواق أو جمع من الجموع لا يخلو عن أهل اللهو والباطل لكن إن كانوا غير مقصودين فلا يلتفت إلى ذلك إذ النظر إلى من يصلح منهم فلا يخيب من له قصد صحيح وإن كان أهل اللهو هم المعتبرون فلا يصلح المجتمع

---

(١) في ثلاث نسخ من.
(٢) في ثلاث نسخ الفلاح.
(٣) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.
(٤) في نسخة الربانية.

بهم والقصد لديهم فاعلم هذا رحمك الله وأشدد يدك عليه حاصله الحق يدور مع أهل المحفل فإن كان الغالب فيهم أهل العلم والعمل والجذب الصحيح والصدق الصريح فقاصدهم يفوز من غير شك لأنهم العبرة وإن كان المحفل أعد لأهل الفساد ومن أجلهم وقع فلا شك أن قاصدهم خائب لا يفلح أصلا وان كان فيه أهل الخير فلا التفات إليهم إذ المقصود أهل اللهو وسطوة المجلس لهم فالأحوط عدم الاجتماع بهم وهذا هو الفارق بين المحفلين فالمحفل الأول ضوء شمسه تتزايد والمحفل الثاني شمسه منكسفة على الدوام والحمد لله على ما من الله به علي في هذا المقام.

قال شيخنا المذكور ما نصه ومن الأماكن التي ينبغي زيارتها في أُحد قبور الشهداء سوى قبر حمزة ومن معه وأماكنهم ليست معلومة العين على التحقيق لكنها معلومة الجهة فأما مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش فليسلم عليهما في مشهد حمزة كما تقدم وأما سهل بن قيس من بني سلمة فقبره دبر قبر حمزة شاميا بينه وبين الجبل وأما عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام ففي الموطأ أنهما في قبر واحد مما يلي المسيل قال الواقدي ومع عمرو بن الجموح قبر خارجة بن زيد وسعيد بن الربيع والنعمان بن مالك وعبد الله بن الحسحاس قال أبو غسان وقبرهم مما يلي المغرب من قبر حمزة نحو خمسمائة ذراع.

وقال السيد وقد تأملته فوجدته كذلك[1] بالربوة التي غربي المسيل الذي هناك ومجرى العين بقربهم من القبلة وقد روي أنا أبا أيمن مولى عمرو بن الجموح معهم أيضا وكذا خلاد بن عمرو بن الجموح فيسلم على هؤلاء الثمانية هنالك قال وأما بقية الشهداء فلا تعرف قبورهم والذي يظهر أنها قرب قبر الموضع المذكور وبقرب قبر حمزة رضي الله عن جميعهم وأسماؤهم مذكورة عن أهل السير.

---

(١) في الرحلتين العياشية والناصرية فوجدت ذلك.

وفضل جبل أُحد على الجملة معلوم مشهور فقد قال عليه الصلاة والسلام أنه يحبنا ونحبه وكان يأنيه وقال انه على باب من أبواب الجنة فترابه يستشفى به وقال الزركشي ينبغي أن يستثني من منع نقل تراب الحرم تربة حمزة رضي الله عنه أي المأخوذة من المسيل الذي به مصرعه لاطباق الخلف والسلف على نقلها للتداوي للصداع.

قال السيد وتربة صهيب أولى بذلك وللطبراني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأحد هذا جبل يحبنا ونحبه على باب من أبواب الجنة وهذا عير جبل يبغضها ونبغضه على باب من أبواب النار وعير جبل كبير على يسار ذي الحليفة وأنت خارج من المدينة وهو يقابل أُحدا إلى ناحية مكة من المدينة وأُحد إلى ناحية الشام.

قال السيد وسمي أُحد أُحدا لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هنالك أو لما وقع من أهله من نصر التوحيد ولا اسم أحسن من اسم اشتق من الأحدية بخلاف عير الذي هو اسم الحمار المذموم أخلاقا والحب في أحد من الجانبين حقيقة كما صححه النووي وغيره ولذا كان من جبال الجنة إذ المرء مع من أحب ولا مانع من وضع الحب فيه كما وقع التسبيح من الجبال وقد خاطبه صلى الله عليه وسلم مخاطبة من يعقل فقال لما أضطرب أسكن أُحدا ولا ينكر وصف الجماد بحب الأنبياء ما حنّت الأسطوانة لمفارقته صلى الله عليه وسلم حتى سمع القوم حنينها.

ومما ينبغي لزائر أُحد أن يأكل شيئا من نباته فقد روي عن زينب بنت نبيط وكانت تحت أنس بن مالك رضي الله عنهم أنها كانت ترسل أولادها فتقول اذهبوا[1] إلى أُحد فأتوني من نباته فإن لم تجدوا إلا عضاها فأتوني به فإن أنس بن مالك رضي الله

(١) كذا في جيمع النسخ وفي الرحلة العياشية ولائدها فتقول أذهبن إلخ وفي الرحلة الناصرية وليدتها فتقول أذهبي إلخ.

عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا جبل يحبنا ونحبه قالت زينب فكلوا من نباته ولو من عضاهه قال فكانت تعطينا منه قليلا قليلا فنمضغه انتهى.

لطيفة قال أبو سالم وقد وقع البحث بين الطائفة المالكية ونحن بالمدينة عما يقطع من نبات الحرم المنتفع به للأكل كالخبيرز وغيره فانه يؤتى به ويباع في الأسواق فهل يحل للمالكي ومن لا يرى جواز ذلك شراؤه وأكله فكنت أميل إلى الجواز إذا كان القاطع لذلك والبائع له ممن يرى جواز ذلك في مذهبه لأنه فعل ما يسوغ له شرعا لأنا نقول بأصابة كل مجتهد وإن كنا نرى أن غيره أصوب والممنوع عندنا إنما هو قطعه فلو وجد الإنسان منه شيئا مقطوعا بنفسه من غير أن يكون له سبب في قطعه جاز له الانتفاع به وهذا بعد القطع ووصوله إلى الأسواق بوجه سائغ لمتناول ذلك صار في حقنا كالمقطوع بلا سبب إذ لا سبب لنا في قطعه ولا يقاس النبات على صيد الحرم الذي هو ميتة لظهور الفرق بين الصيد والنبات والإجماع على حرمة صيد الحرم والخلاف في نبات حرم المدينة ولو فتح باب الامتناع من الشراء لأدى ذلك إلى فساد كبير وحرج في المعاملات بالامتناع عن ذبائحهم والشراء منهم والبيع لهم لوقوع الخلاف بين الأئمة في فروع كثيرة من الذبائح والصيد وأبواب الربا فيمنع البعض ما يجيزه غيره فلو كنا لا نشتري إلا ممن يتقي الربا على مذهبنا ويشترط في الصيد والذبيحة واللقطة ما نشترطه لأدى ذلك إلى ضيق وحرج وتضليل بعض الأئمة لبعض وهو بعيد من نظر الشارع فلما صح لنا الاقتداء به في الصلاة صح لنا أيضا في غيرها مما يقع فيه الارتباط بين الفعلين فإن البيع حقيقة متوقف حصولها على وجود فعل فاعلين من بائع ومشتر فلا يشترط في صحة البيع إلا كون كل فعل واحد منهما موافقا للمشروع في مذهبه ومعتقده وكذلك صلاة المأمون متوقفة صحتها على وجود فعل فاعلين هما الإمام والمأموم فإذا كل منهما ما تصح به الصلاة في مذهب إمامه

صحت الصلاة ولا يلزم كون الإمام فاعلا لما تصح به الصلاة في مذهب المأموم على المذهب المشهور.

قال وبعد أن كتبت هذا رأيت في نوازل البرزلي ما يدل على أن اجتناب مثل ذلك من الورع وتشتد فيه الكراهية عند بعد المأخذ ونص ما ذكر وقد سئل اللخمي عن تناول ما اختلف فيه الفقاء كشافعي رأى مالكيا غصب طعام فنقله أو عقد عقدا فاسدا في عين وخلطها وقال ملكت ذلك على مذهبي فهل ملكه ملكا صحيحا لا شبهة عليه فيه أم لا وهل يجو للشافعي أن يعامله بالشراء منه والأكل له أم لا فأجاب لا ينبغي لمن قلد الشافعي أن يفعل ذلك وهذا مما يتأكد فيه الورع وإن قلد مالكيا في هذا وأمثاله فلا بأس به وإن كان شافعيا مقلدا لمالك في هذا ولعل هذا مما تشتد فيه الكراهة لعبد المأخذ فيه البرزلي لظاهره أن العزيمة في هذا أرجح من الرخصة إلا أن يقال أن هذا مما تعارض فيه الخطر والإباحة فالورع تركه انتهى.

قال فقد ظهر من قوله لا ينبغي ومن قوله مما يتأكد فيه الورع أن لك سائغ لا ممنوع وهذا كله إذا لم نقل بجواز التقليد للمذاهب المختلفة مع القول بصحتها وأما إن قلنا به وهو قول جم غفير من المحققين منهم عز الدين ابن عبد السلام فقد ارتفع الأشكال واتضح المقال انتهى كلامه.

ومن فضائل أُحد ما روي عن جابر رضي الله عنه مرفوعا أن موسى وهارون عليهما السلام أقبلا حاجين فمرا بالمدينة فخافا من يهود فخرجا مستخفيين فنزلا أُحدا فغشي هارون الموتُ فقام موسى فحفر له ولحد ثم قال يا أخي أنك تموت فقام هارون فدخل في لحده فَقُبِضَ فحثى موسى عليه التراب. قال السيد وهناك شعب يعرف بشعب هارون يزعمون انه بأعلاه وهو بعيد جدا وبأعلى الجبل بناء اتخذه بعض الفقراء قريبا.

قال أبو سالم وقد شاهدت هذا البناء يوم طلوعنا إلى الجبل في الرجبية وهو صورة مسجد قريب منه موضع معد لماء المطر وهو في قبة[1] الجبل في مكان عال مشرف على المدينة وما حولها من البقاع فيه نزهة للناظرين خصوصا وقت طلوعنا إليه في فصل الربيع وبعض الناس يسمون تلك القبة قبة هارون قال وقد أخبرني بعض الناس أن بانيها رجل كان يتعبد هنالك واسمه هارون فسميت به ولم تزل إلى الآن يتعاهدها الناس للعبادة والخلوة وما أولاها بذلك فقد وجدت بقلبي عند الوقوف بها والصلاة هنالك ما لا مزيد عليه من الحلاوة والتلذذ بالعبادة وكيف لا ومستقبل القبلة فيها يكون الحرم النبوي بين يديه والقبة الشريفة بين يديه وبقاع المدينة المشرفة كلها تلقاءه ومكة تجاهه حتى أنه ليخيل عليه انه مشرف على الحرمين الشريفين وما بينهما وما فيهما من الأماكن المشرفة وعلى كل حال لم أر مكانا ينشرح فيه الصدر ويصفو القلب من الأكدار وتتجلى فيه عظمة الربوبية وجلالة النبوءة كهذا المكان ويقرب منه في ذلك جبل حراء وجبل ثور بمكة.

وفي أصل الجبل غار يزعمون ان النبي صلى الله عليه وسلم اختفى فيه ولا يصح ذلك ففي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما وجال الناس جولة نحو الجبل ولم يبلغوا حيث يقول الناس الغار إنما كان تحت المهراس انتهى.

وفي أعلى الشعب عند مضيقه من حيث يشرع في الصعود للجبل الموضع المسمى بالمهراس وهو مواضع منقورة في الجبل بين صخور عظيمة يجتمع فيه المطر فلما تخلو منه. ومنه غسل جرحه صلى الله عليه وسلم يوم أُحد كما في الصحيح وتحت المهراس بقليل موضع يقال انه موضع الصخرة التي نهض صلى الله عليه وسلم ليعلوها وجلس طلحة تحته رضي الله عنه وقال ابن هشام في السيرة بلغني عن ابن عباس رضي

(١) كذا في الرحلتين العياشية والناصرية وفي جميع النسخ قنة.

الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغ الدرجة المبنية في الشعب أي فليست هي الصخرة المذكورة.

ومن المساجد التي تزار في أحد المسجد الملاصق بأحد على يمينك وأنت ذاهب في الشعب إلى المهراس وهو صغير منهدم. قال السيد والناس يسمونه مسجد الفسح ويقولون أن فيه نزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ﴾ الآية ويقال، أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه الظهر والعصر يوم أُحد بعد انقضاء القتال وعن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في المسجد الذي بأُحد في شعب الخرار على يمينك لازق بالجبل.

قال أبو سالم وبين هذا المسجد ومشهد حمزة في البيداء التي هناك مسجد صغير مبني بالحجارة المنحوتة مرتفع عن الأرض أقل من قامة يصعد إليه بدرج غير مسقف ولا مرتفع الحيطان يقال له مسجد الثنية واحدة ثنايا الإنسان قال أن فيه كسرت رباعيته صلى الله عليه وسلم وهذا المسجد لم يذكره السيد السمهودي رضي الله عنه[١].

ومنها مسجد ركن جبل عينين الشرقي على قطعة من الجبل وهذا الجبل في قبلة مشهد سيدنا حمزة رضي الله عنه وهو الجبل الذي كان عليه الرماة يوم أُحد وموضع السجد هو المكان الذي طعن فيه سيدنا حمزة رضي الله عنه وقد روي عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الظهر يوم أُحد على عينين الطرق الذي بأُحد عند القنطرة. قال السيد يعني بالقنطرة قنطرة العين التي كانت هناك قديما.

ومنها أيضا مسجد الوادي على شفيره شامي جبل عينين قريب من المسجد قبله يقال انه مصرع حمزة رضي الله عنه وأنه مشى بطعنته من الموضع الأول إلى هذا الموضع

---

(١) في جميع النسخ زيادة وهي محل الورع الثاني.

فصرع وقد روي أن حمزة رضي الله عنه لما قتل أقام فيه موضعه تحت جبل الرماة ثم أمر به النبي صلى الله عليه وسلم فحمل من بطن الوادي ويسمى هذا المسجد أيضا بمصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال السيد وتسميته بالمصلى أما لكونه موضع مصلى الصبح على ما جاء في غزوة أحد أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه الصبح بموضع القنطرة وعليهم السلاح يعني قبل القتال وأما لما ورد من صلاته صلى الله عليه وسلم على حمزة.

ومن المساجد مسجد طريق السافلة وهي طريق اليمنى الشرقية إلى مشهد حمزة رضي الله عنه يقال انه مسجد أبي ذر الغفاري رضي الله عنه وروى البيهقي في شعب الإيمان عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه كان برحبة المسجد فرأى النبي صلى الله عليه وسلم خارجا من الباب الذي يلي المقبرة فخرج على أثره فدخل حائطا من الأسواق فتوضأ ثم صلى ركعتين فسجد سجدة أطال فيها وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال له أن جبريل عليه السلام بشرني انه من صلى علي صلى الله عليه ومن سلم علي سلم الله عليه وفي بعض طرفه ذكر السجود فقط وقال فسجدت لله شكرا قال السيد بعد نقله لما تقدم والأسواق قريبة من محل هذا المسجد فلعله مسجد السجدة المذكورة.

قال أبو سالم وفي الطريق إلى أحد أيضا عند آخر النخل مسجد صغير محوط عليه بأحجار يقال أن النبي صلى الله عليه وسلم جلس فيه للاستراحة بعد الرجوع من أُحد ولم يذكره السيد رحمه الله تعالى.

ومن المساجد التي ينبغي زيارتها والصلاة فيها مساجد مصلى الأعياد التي صلى النبي صلى الله عليه وسلم العيد فيها وقد ورد انه صلى العيد في أماكن متعددة

والمشهور منها الآن ثلاثة كلها غربي المدينة خارج الباب المصري بين الموضع المعروف بالمناخة وبطحان أحد يسمى مسجد مصلى العيد والآخر ينسب لعلي والآخر لأبي بكر رضي الله تعالى عنهما.

قال السيد ولعل سبب نسبتهما إليهما كونهما صليا فيهما العيد أبو بكر رضي الله عنه في خلافته وعلي رضي الله عنه لما حُصر عثمان رضي الله عنه ولا يبعد[١] أن يصليا في غير مصلى النبي صلى الله عليه وسلم وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى المصلى يستسقي فبدأ بالخطبة ثم صلى وقال هذا مجمعنا ومستمطرنا ومدعانا لعيدنا ولفطرنا واضحانا فلا يبنى فيه لبنة ولا خيمة وقد حمل بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم ما بين بيتي ومصلاي روضة من رياض الجنة على مصلى العيد فتتسع الروضة وفضل الله تعالى أوسع وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر فمر بالمصلى استقبل القبلة ووقف يدعو ومصلاه صلى الله عليه وسلم عند العلم الذي عند دار كثير بن الصلت وهناك أيضا مسجد ينسب لسيدنا عمر رضي الله عنه ولعل السبب كما تقدم وهذا آخر القول في المساجد المعلومة العين بالمدينة المشرفة وأطرافها وقد زرناها والحمد لله رب العالمين مع حسب الإمكان ويتقبل الله بالقبول التام.

(١) في الرحلة العياشية وإلا فيبعد.

ذكر الأبار التي ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة والاستشفاء بمائها

ولم نذكر منها إلا ما زرناه وشربنا من مائه وهي سبعة أولها.

بئر اريس كجليس نسبة إلى رجل من اليهود اسمه اريس وهو الفلاح بلغة أهل الشام وفي الصحيح خبر خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أبا موسى الأشعري خرج في أثره حتى دخل بئر اريس وتوسط فيها وكشف عن ساقيه وأن أبا بكر جاء ثم عمر ففعلا مثل ذلك ثم جاء عثمان وبشر الجميع بالجنة الحديث بطوله وفي الصحيح أيضا أن خاتم النبي صلى الله عليه وسلم كان في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان حتى سقط منه في بئر اريس فنزحت فلم يوجد وأما ما اشتهر على الألسنة أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها فقد قال العراقي في تخريج أحاديث الأحياء لم أقف له على أصل قال السيد ومن الغريب قول العز ابن جماعة في منسكه قد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيه وهذه البئر في حديقة غربي مسجد قبا قريبا منه وماؤها غزير يسنى منه إلى بركة في الحديقة وفي هذه الحديقة أنواع من الفواكه والأشجار وبها عنب كثير فلما يدخل أحد للزيارة في وقت العنب إلا ويشتريه ويأكله فيها حتى ظن بعض العوام أن ذلك من القربات وأهل المدينة يقصدون هذه الحديقة للقائلة فيها للتفرج والتنزه وقد جعل لمائها نفق من أسفلها على وجه الماء حتى يتصل ماؤها بالبئر التي يقال لها العين الزرقاء وهي في حديقة أخرى قريبة من بئر أريس وهي بئر كبيرة قد أمدت بمياه آبار متعددة منها بئر اريس فصارت متبحرة يشخب فيها ميزابان عظيمان من مياه غيرها من الآبار فاتخذت لها أسراب من تحت الأرض إلى أن خرجت إلى بطحان ثم إلى غربي المدينة فقسمت جداول فأدخل منها إلى المدينة ما احتيج إليه فأظهرت داخل المدينة في مناهل متعددة وبني لها بناء متقن يهبط إليها في

نحو ثلاثين درجة محكمة البناء متقنة الوصف واسعة المشي منها يستقي أهل المدينة كلهم لشربهم.

قال أبو سالم والذي رأيت منها ثلاثة مواضع أحدها شرقي المسجد بينه وبين باب البقيع في المكان المسمى الآن بالحارة[1] والآخر خارج باب السلام في الناحية الغربية عند سوق المدينة بالبلاط والآخر شامي المسجد بعيدا منه إلى ناحية باب الشامي وأما خارج المدينة فأخرجت في محال متعددة أيضا ثم لم تزل تقرب من وجه الأرض قليلا كما انحدرت في أرض المدينة إلى أن خرجت على وجه الأرض قريبا من الغابة شرقي مسجد رومة بينه وبين أحد وعليها هنالك مزارع وقد رأيت جدولا منها قريبا من مسجد الراية في طرف ذباب يهبط إليه في نحو ثلاث درج وهذه العين المباركة من أغزر العيون وأحلاها ماء وألذه بها جل انتفاع أهل المدينة ومنها كل السبيلات الموقوفة بالمدينة ومنها تملأ الدوارق التي توضع في الحرم الشريف للشرب وهي لا تكاد تحصى كثرة فما أعظم بركتها وأوسع نفعها ولقد شاهدت من يستشفي بمائها فيشفى وقد حملنا بعض مائها للاستشفاء ولله در القائل:

لئن قيل في زرق العيون شآمة ... فعندي أن اليمن في عينها الزرقا

وتسميتها بالعين الزرقاء من لحن العامة وصوابه عين الأزرق لأن مروان الذي أجراها لمعاوية كان أزرق العينين فلقب بالأزرق وكان أجراؤها لهذه العين بأمر معاوية لما ولاه المدينة وكان لمعاوية رضي الله عنه اهتمام بذلك فأجرة في المدينة وما حولها عيونا كثيرة قد دثرت كلها ولم يبق إلا هذه العين المباركة وقد اعتني بشأنها من قبل السلطنة فلها أوقاف معلومة وجرايات تأتي من عند السلطان ولها أمير معلوم وله خدام يتفقدون أحوالها على ممر الأزمنة ويصلحون ما وهي منها ولولا ذلك لدثرت

---

(١) في الرحلة العياشية الحرّة.

كغيرها من العيون.

قال الواقدي رحمه الله تعالى وكان بالمدينة على زمان معاوية صوافي كثيرة كان يجدّ بالمدينة وأعراضها ألف وسق وخمسين ألف وسق ويحصد مائة ألف وسق حنطة انتهى فهذا الذي كان يجدّه معاوية وحده فما بالك بما كان لغيره من الرعايا ووجوه الناس فقد كان للصحابة رضي الله تعالى عنه وأبنائهم في ذلك الزمان ضياع وقرى ومزارع كثيرة بالمدينة وما حولها وما أظن هذا العدد الذي كان يستغل لمعاوية رضي الله عنه بالمدينة قط يستغل في زماننا هذا من أرض الحجاز كلها مع سعة أقطارها ما عدا نجدا فإن بها مزارع كثيرة وبهذا نعلم نسبة زماننا هذا إلى الأزمنة الماضية في سعة الأرزاق وكثرة الخلق مع ان اهتمامهم في ذلك الوقت بالدين كان أكثر من اهتمامهم بالدنيا فأنت ترى كيف انبساطها عليهم وأما الآن فالاهتمام كله بالدنيا ولم يبق من الاهتمام بالدين إلا ما نسبته إلى الاهتمام بالدنيا نسبة الفلك الأعظم إلى الجزء الذي لا يتجزأ وهذا أعظم دليل على قرب انقراض الدنيا واستبدال عمرانها بالخراب وأنهارها بالسراب فإن عمرانها إنما هو بأسباب الدنيا ووالدين[1] وأنت ترى ما آل إليه أمرهما معا فنسأل الله تعالى الخروج من الدنيا بلا محنة ولا بدعة آمين.

قال السيد ومن الغرائب ما ذكره الميورقي في فضائل الطائف عن شيخ الخدام بدر الشهابي[2] انه بلغه أن ميضاة وقعت في عين الأزرق بالطائف فخرجت بعين الأزرق بالمدينة انتهى.

قال شيخنا أبو سالم ولعل هذه الحكاية وأمثالها هي السبب في اعتقاد كثير من جهلة الحجاج أن العين الزرقاء أصلها من مكة وأنها هي التي جاءت إلى مكة من

---

(١) في الرحلة العياشية والبنين.

(٢) كذا في الرحلة العياشية وفي الرحلة الناصرية الشهاب وفي جميع النسخ التهامي.

ناحية عرفة من جبال وراءه ويقولون أنه لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم من مكة تبعته فهي التي ظهرت بمر الظهران ثم بخليص ثم ببدر ثم بالخيوف كلها إلى أن وصلت المدينة ويصممون على ذلك حتى أني رأيت بعض من هو معدود من الفقهاء يعتقد ذلك فقلت له كما قال الإمام أبو بكر بن العربي رضي الله عنه في مسألة الصلاة على النجاشي حيث قال بعضهم رفع له حتى رآه فصلى عليه أن الله تعالى على ذلك لقادر وأن نبينا صلى الله عليه وسلم لأهل لذلك وفيما صح من معجزاته صلى الله عليه وسلم والآيات الظاهرة على يديه غنية عن انتحال ما لا أصل له وبطلان كون هذه العين من مكة أوضح من أن يذكر فانه لم يكن في زمانه صلى الله عليه وسلم بعرفة ولا بمكة ولا بالمدينة عين تذكر على هذا النعت ولا ما يقرب منه وإنما أجريت هذه العيون بعد ذلك بأزمان.

الثانية بئر البُصة بضم الباء وتخفيف الصاد المهملة كما هو الدائر على ألسنة أهل البلد وقال صاحب القاموس انه بالتشديد كأنه من بص الماء بصا رشح وأن روي بالتخفيف فمن وبص يبص وبصا وبصة كوعد يعد وعدا وعدة إذا بلغ أو من وبص لي من المال أي أعطاني فقد روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء وأبناءهم ويتعاهد عيالهم قال فجاءني يوما فقال هل عندك من سدر أغسل به رأسي فإن اليوم الجمعة قلت نعم فأخرجت له سدرا وخرجت معه إلى البصة فغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه وصب غسالة رأسه ومراقة شعره في البصة وهذه البئر قريبة من البقيع على طريق قبا في حديقة نخل على طرف بطحان وماؤها أخضر وهناك بئر أخرى صغيرة.

قال المطرزي والناس يختلفون فيهما أيتهما بئر البصة والصغرى هي التي تلي أطم مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ورجح السيد أنها الصغرى حاكيا

عن غيره في الأطم المذكور انه الذي يقال لبئره البصة قال والكبرى لا تنسب للاطم لبعدها منه وقد ابتني بقرب الصغرى مسجد واتخذ لها درج ينزل فيها إليها وقد شربنا من مائها أي الكبرى وغسلنا رؤوسنا اقتداء به صلى الله عليه وسلم والمنة لله وحده.

الثالثة بئر بضاعة بضم الموحدة على المشهور وحُكي كسرها وفتح الضاد المعجمة وأهملها بعضهم وبالعين ثم هاء غربي بئر حا إلى جهة الشمال فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم انه يستقى لك من بئر بضاعة وهي يطرح فيها ما يكره من النتن فقال الماء لا ينجسه شيء وفي رواية إلا ما غلب على ريحه ولونه وطعمه وعن سهل بن سعد بصق النبي صلى الله عليه وسلم في بضاعة وسقيته بيدي منها وعن سهل أيضا بئر بضاعة قد بصق النبي صلى الله عليه وسلم فيها فهي يتنشّر بها ويتيمن قال المجد في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بئر بضاعة فتوضأ من الدلو وردها إلى البئر وبصق فيها وكان إذا مرض المريض في أيامه يقول اغسلوني من بئر بضاعة فيغسل مكأنما نشط من عقال.

وقالت أسماء بنت أبي بكر كنا نغسل المرضى من بئر بضاعة ثلاثة أيام فيعافون وهي في حديقة كبيرة ذات نخل أقرب أبواب المدينة إليها باب الشامي عن يمين الخارج منه قليلا وحولها مسجد وبركة ماء.

الرابعة بيرحا بفتح الموحدة وكسرها وبفتح الراء وضمها وبالمد فيهما وبفتحهما والقصر فيعلى من البراح وهي الأرض المنكشفة وقيل بئر أضيف إلى حاء من حروف الهجاء وهو اسم رجل أو امرأة أو مكان وخبرها في الصحيح وأنها كانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب وهي اليوم في حديقة صغيرة قريبة من سور المدينة شماليه بينهما الطريق وأقرب أبواب المدينة إليها باب البقيع وهي بينه وبين الباب الشامي.

قال السيد والظاهر أن بعضها اليوم داخل السور وقد دخلناها والحمد لله وشربنا من مائها وسقيت الحاضرين معنا من أصحابنا رجاء للبركة وأكلنا من خضرها المسقي بمائها.

الخامسة بئر رومة بضم الراء وبالهمز ودونه وفي الحديث نعم القليب قليب المزني فاشتراها عثمان فتصدق بها وورد أيضا نعم الحفيرة حفيرة المزني يعني رومة وعنه صلى الله عليه وسلم من يشتري رومة فله مثلها في الجنة وكان الناس لا يشربون منها إلا بثمن فاشتراها عثمان فجعلها لله وكانت لرجل من غفار أو مزينة أو ليهودي اسمه رومة فنسبت إليه وهي بئر جاهلية روي أنه استقي منها لِتُبَّع لما نزل بقناة وهي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال وهي بعيدة من المدينة وإلى الجوف أقرب والطريق إليها على مساجد الفتح ثم يعدل يسارا إلى ناحية مسجد القبلتين ثم يمر تحته أسفل منه قاصدا العقيق فهي هناك وبقربها مزارع فزرناها وشربنا من مائها واستقينا منها ما شربناه مدة.

السادسة بئر اليسيرة من اليسر ضد العسر وتعرف الآن ببئر العين بكسر فسكون وهو لغة الصوف الملون وهي معروفة بالعوالي مليحة جدا منقورة في الجبل وعندها سدرة فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء بني أمية بن زيد فوقف على بئر لهم فقال لهم ما اسمها فقالوا عسيرة فقال لا ولكن اسمها اليسيرة وبصق فيها وبرّك فيها وروى ابن سعد في الطبقات عن عمر بن أبي سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم سماها اليسيرة وأن أباه أبا سلمة غسل بعد موته بين قرنيها وقد زرتها والحمد لله وشربت من مائها وهي في عوالي المدينة قريبا من مسجد بني قريظة وعلى بابها حديقة كبيرة حسنة(١).

---

(١) في الرحلة العياشية السادسة هي بئر غرس والسابعة هي بئر اليسيرة.

السابعة بئر غرس بضم فسكون وقال المجد بفتح فسكون وضبطه بعضهم بالتحريك كشجر وهي بئر شرقي قبا على نصف ميل من مسجدها إلى جهة الشمال وقد ورد أن رباحا غلاما للنبي صلى الله عليه وسلم كان يستقي من بئر غرس مرة ومن بئر السقيا مرة ولابن حبان في الثقات عن أنس انه قال ايتوني بماء من بئر غرس فأني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها ويتوضأ. ولابن ماجة بسند جيد عن علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنا مت فاغسلوني بسبع قرب من بئر غرسر وكانت بقبا وكان يشرب منها وفي رواية لم تحلل أوكيتهن وكانت البئر لسعد بن خيثمة وروي انه عليه الصلاة والسلام توضأ وأهرق بقية وضوئه فيها وروي أيضا أنه قال رأيت الليلة أني أصبحت على بئر من الجنة فأصبح على بئر غرس فتوضأ منها وبزق فيها وأهدى له عسل فصبه فيها وقد جعل لها درج ينزل إليها منها وحولها حديقة وبجانبها مسجد وقد زرتها والحمد لله فهذه الآبار السبعة هي المشهورة اليوم عند أهل المدينة وقد نظمها الزين المراغي فيما أنشد عنه السيد في بيتين وهما:

إذا رمت آبار النبي بطيبة ... فعدتها سبع مقالا بلا وهن
اريس وغرس رومة وبضاعة ... كذا بصة قل بير حاء مع العهن

قلت وبقي بئران أخريان يتبرك بهما، إحداهما بئر السقيا فقد ورد أنه عليه الصلاة والسلام كان يُسْتَعْذَبُ له لماء من بئر السقيا والسقيا هذه هي آخر منزلة النقا على يسار السالك على بئر على وهي بالحرة الغربية وحولها بركة عظيمة لورود الحاج أيام نزولهم هنالك والثانية بئر زمزم وهي قريبة من السقيا على يمين الطريق حتى زعم بعضهم أنها بئر السقيا وهي بئر مليحة في حديقة نخل حولها بركة وبناء وسميت زمزم تشبيها لها بزمزم في التبرك بها ونقل مائها للآفاق ولم أقف على هاتين البئرين أما زمزم فوعدنا الأخ سيدي أحمد الاخصاصي أنه يقدم معنا إليها يوم خروجنا ولم يقدر لنا لك فتأسفنا

أسفا عظيما أنا لله وإنا إليه راجعون وأما السقيا فلم يكن لي بها علم إذ ذاك والسقيا هذه غير السقيا المذكورة في الحديث في قول الراوي لقيته بِتَعْهِنَ وهو قائل السقيا بل تلك مكان قريب قرب شرف الروحاء.

وقد عدّ السيد رحمه الله آبارا متعددة سوى هذه ثم قال فمن ذكر أنها سبعة فقط قصور منه وإنما اقتصرنا على ذكر ما شاهدناه وزرناه منها وشربنا من مائها.

ومن المواضع التي يتبرك بها بالمدينة تربة صعيب فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بالحارث فإذا هم روبى فقال مالكم يا بني الحارث روبى فقالوا أصابتنا يا رسول الله هذه الحمى فقال فأين أنتم عن صعيب قالوا يا رسول الله ما نصنع به قال تأخذون من ترابه فتجعلونه في ماء يتفل عليه أحدكم ويقول باسم الله تراب أرضنا بريق بعضنا شفاء لمريضنا بأذن ربنا. ففعلوا فتركتهم الحمى قال طاهر بن يحيى العلوي عقب رواية ذلك عن أبيه صعيب وادي بطحان دون الماجشونية وفيه حفرة مما يأخذ الناس منه وهو اليوم إذا وبي إنسان أخذ منه قال ابن النجار وقد رأيت أنا هذه الحفرة والناس يأخذون منها وذكروا أنهم قد جربوه فوجدوه صحيحا قال وأنا سقيته غلاما لي مريضا من نحو سنة تواظبه الحمى فانقطعت عنه من يومه وذكر هو كالمطري ان ترابه يجعل في الماء ويغتسل به من الحمى.

قال السيد فينبغي أن يفعل أولا ما ورد ثم يجمع بين الشراب والغسل. قلت وقد وصلت إلى وادي صعيب إلى موضع هذه الحفرة وأخذنا من ترابها واستصحبناه معنا لبلادنا بقصد التداوي.

قال أبو سالم وقد نص غير واحد على جواز نقله للتداوي كماء زمزم للتبرك ولم يزل على ذلك عمل الناس قديما وحديثا. قلت والخلاف في نقل تراب الحرم وأحجاره

والكيزان المصنوعة من ترابه معلوم مشهور والورع ترك نقله لاحتمال خصوصية الاستشفاء به لأهل الحرم وإمكان حمل الحديث عليهم والعلم عند الله وقد ذكر أيضا الاستشفاء من الحمى بتراب مشهد حمزة انتهى.

ومما زرناه موقف وقف فيه النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة ومشربة أم إبراهيم ونخيل سلمان الفارسي وقصة النخيل مشورة في الصحيح وغيره وفيه آيات باهرة، ومعجزات ظاهرة، والله تعالى يوفقنا ويعننا بمنه ويمنه آمين وهو المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم انتهى كلام شيخنا المذكور فانه حسن لأنه مشتمل على فوائد ونكت مستحسنة لا يملها ذو الذوق السليم والطبع المستقيم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فأني قد زرت المدينة المشرفة ثلاث مرات وشاهدنا تلك المشاهد المذكورة على الجملة لضيق مدة الإقامة فيها وإنما يحصل كمال التفتيش والبحث على المواضع المنورة والأماكن المشرفة بمجاورة المدينة المنورة واستيطانها على الدوام فلا يزول الاشتياق إلا بطول المكث فيها لما علمت أن المسافر لا تقر عينه بالبلدان حال كونه مشتغلا بالسفر وشئونه فإن القلب واحد لا يمكن تعلقه بأمور مختلفة لا سيما أضداد المعتني به يعلم ذلك من شد أزاره لتحقيق المراتب ونعوت المقامات لأن الضد لا يجتمع مع ضده نعم قوة الفضل من الكريم الوهاب وشفاعة أفضل الخلق على الإطلاق، ومنة الغني الخلاق، أمطرت سحائب الفتح فإن لم يصبنا منه وابل فطل.

فلما استقر بنا القرار في مدينة الرسول وشاهدنا تلك المشاهد النبوية الفردانيا الصمدانية القدسية الروحانية المحمدية الأحمدية ظهرت لنا معالم الأنوار، ونتائج النبي المختار، وثمرة الود وكشف الأستار، وحضرة القهار، فانعكس في قلوبنا

روحانيته عليه الصلاة والسلام فامتزجت بقوالبنا وظهر نوره صلى الله عليه وسلم على الأجباح، فناط متمكنا منا بعلم الأرواح، فغاب منا عالم الصفات في محو صفاته صلى الله عليه وسلم فاستعقب ذلك سريان آثار اللهوت، فتمكن في المحل الذي هو الناسوت، فلم يبق لوجود الخلق أثار لأن سطوة الحق لا يبقى معها غيره إذ كل شيء ما خلا الله باطل.

ولذلك طبقات الطبقة الأولى مشاهدة الأفعال والثانية مشاهدة الصفات والثالثة مشاهدة الذات فمن شاهد من الحق تجلي الأفعال اضمحلت أفعاله لأفعاله وكذا من تجلي الحق [عليه بأوصافه اضمحلت أوصافه لأوصافه ومثله تجلي الذات فمن تجلى الحق عليه][1] أيضا بذاته اضمحلت ذاته فلم يبق لسواه أثر فهذا مقام المحو والفناء لأن الكون كله ظلمة فمن لم يشاهد الحق فيه أو معه أو قبله فقد أعوزه وجود الأنوار، وغابت عليه شمس المعارف في كنه الكون من غير قرار، فالحق سبحانه لا يثبت معه شيء فالوجود وجود واحد بل جميع الموجودات متحدة فلا أصل لها بل هي مستمدة من عين الوجود وبالجملة صاحب المحو يغيب فعله في فعله ووصفه في وصفه وذاته في ذاته تبارك وتعالى فإذا قوي عليه حال الشهود نسبت إليه شطحات حتى ينطق عن حاله، وعن قوة شهوده وإثبات اتصاله، ومحو انفصاله، برعود الهيبة والجلال فيقول في حضرة الحق والكمال وعالم الأمر وهو قوله إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فتتجرد الروح عن مادة الاستعداد فيقول صاحب الشطحات أنا الحق لكونه مغلوبا في حاله، ومضطرا في مقاله، فتكون الشريعة قائمة عليه وعلى منواله، فإن العارف بالله تعالى يقول رامزا لهذا المقام أعني ابن مالك ما نصه:

وذو ارتفاع وانفصال أنا هو ... وأنت والفروع لا تشتبه

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

أي الضمير المرتفع أي الغائب عن الأكوان بوصوله إلى المكون وانفصاله عن الخلق واتصاله بالحق أنا هو إذ هو محو محض وفناء صرف وأن صاحب الصحو رجع إلى ظاهر الشريعة فيقول في حال صحوة وأنت والفروع أي الصديقون لا تشتبه أي لا تلتبس لأن الصديق لا يلتبس بالزنديق، فإن ما خامر القلوب فعلى الوجه يلوح آثاره، الأسرة تدل على السريرة، وأن الناس أيضا حوانيت مغلقة فإذا تكلم الرجلان تبين العطار من البيطار، ما كان فيك ظهر على فيك، كل إناء بما فيه يرشح، ولأن الكلام صفة المتكلم، ويعرف صدق الرجل بثلاث عند مغاضبته أن لازم الحق واتصف بالصدق فلهو ذاك وإلا فليس هناك انتهى.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه المرء مخبو تحت لسانه فإن تكلم فمن حينه وإن سكت فمن يومهم انتهى.

هذا وإن شطحات العارف تقوي ما ذكرناه وتؤيد ما أصلناه نعم شطحه على قدر غيبته عن الأكوان وقوة اتصاله بالمكون لأن عالم الأرواح بقدر تمكنه وسريانه في عالم الملك والملكوت وكذا ما دونه من عالم الجبروت تتقوى بصيرته وتتجلى أنواره فتتدلى له العلوم الإلهية، والمواهب الربانية، والواردات الجسمانية، فتضمحل نفسه وتتلاشى أحواله فيغلب عليه الشهود وتتراكم عليه الرعود والصواعق من زواجر الخوف وسرادق الهيبة ولوائح الجلال فيكون كله بكله فلا يرى في حضرته سوى محبوبه فإن التفت عنه زل قدمه وسقط حضه فيترامى جذبا ويملتئ عشقا ويكتسي معرفة فيتغذى بتجريد التوحيد وتجريد التفريد فينادي بلسان الحقيقة إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين وحينئذ تكون عنده مفاتيح الغيب فيعرف مسالك البر أعني الشريعة وطرق البحر أعني الحقيقة ثم يثمر بثمرات التجلي بأوصافه ويتخلق بمعاني أسمائه ليكون طاهر القلب بالتعريف، وجميل الظاهر، بالتكليف، فتنطبق عليه الصفة

المشبهة فيحسن (١) فاعلها بأدبار المحن، وإقبال المنن، فيظهر فيه اللهوت، ويضمحل منه الناسوت، فإذًا تنوب أوصافه عن أوصافه وأفعاله عن أفعاله وذاته عن ذاته ووجوده عن وجوده فليس له ثبوت في عالم الحق فإن استولى عليه ذلك بالمدد ارتقى في المراتب، وتعالى في الدرجات والمواهب، وبحسب ذلك تكون مراتب الأولياء وذلك من بحر المعارف وعليها تبنى الشطحات والأمور الربانية الروحانية والأوصاف الملكية وأهل الديوان لا تخلوا أحوالهم ومددهم ومواردهم ومعارفهم ومواجدهم من هذا البسط لأن بسطها إنما يكون من الحقيقة الأحمدية والدائرة المحمدية والنقط النبوية فإن الحروف قد جاءت لمعنى وهي الأعضاء المكسوة بالتكاليف وكلها في جمع الجمع أعني الحقائق ثم إن الأفعال المتصرفة والمنصرفة إنما تكون في مساجد الرفع وهي الشريعة فمن لا شريعة له لا حقيقة له ومن لا حقيقة له فشريعته رسم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون وعند ذلك تناديه حقائق الأكوان إنما نحن فتنة فلا تكفر فإن ترقى نادته هواتف الحق الذي تطلبه أمامك وإن إلى ربك المنتهى.

نعم والله يقول ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ﴾ وباب كل شيء بين فأبوابها الحقائق السلوك والترقي(٢) وأخذ العهود وإلا فتنعكس شمسه وينكسف نوره لأن ثدي المعارف لا يثبت ولا يتقوى إلا بغذاء الأرواح فالرضاع عندهم حولين كاملين فإن تصفية النفس وتنوير القلب إنما يكون بالفطام من الهوى ومن الغيبة عن السواء غير أن صاحب التربية لا بد وأن يكون خاليا عن التلوين(٣) منعوتا بنعوت التمكين ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ

---

(١) هنا بياض في نسختين وفي نسختين لم ينبه عنه وفيهما فيحس ولعله الأصوب.

(٢) كذا في نسخة وفي ثلاث التربي.

(٣) كذا في جميع النسخ.

ﭐلۡمُنكَرِۗ﴾ الآية بيد أن المطمئن يداوي المتحرك.

وقد قال أبو علي الثقفي لو أن رجلا بلغ العلوم كلها وصاحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بشيخ عارف أو أخ ناصح أو مفت محقق وإلا فلا تَعۡبَأَنَّ به فليس من الله في شيء انظر القشيري ولذا قال بعضهم من لم يكن له شيخ كان الشيطان شيخه لأن النفس كثيرة التلبس عظيمة الخدع والمكر توهم الإنسان أنه صادق وهو كاذب وانه موف بعزمه وهو ناكث إلى غير ذلك من أوصافه الذميمة وهذه العلوم من خزائن الغيب تنبع في القلوب وتظهر في الفهوم من غير مفتاح بل هي لدنية وهيبة صمدانية فردانية إلهية ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا رأي حكمة أعظم من هذه فتكون على حسب الفضل قل بفضل الله وبرحمته وأهل هذا الشأن يسرعون بالجواب، لزوال الحجاب، لفتح[1] رب الأرباب.

تتمة إنما ذكرت هذا الكلام، من فتح الرحيم العلام، إذ هو فيض إلهي من خزائن الغيب، وعطاء الغيب، فأعرضت عن ذكر التحفة التي ذكرها شيخنا المذكور لما فيها من التشابه ووشحت هذه النبذة بما يقرب للإفهام، ولا تزل فيه الأوهام، وقد علمت أن عجائب القرآن لا تنقضي وقد قال شيخنا المذكور ما نصه.

قال الإمام أبو سالم.

لطيفة أخبرنا الشيخ شهاب الدين رئيس الموقتين بالمدينة المشرفة أن والده لما كان في الأسر تكلم مع راهب من رهبانهم فقال له الراهب أنكم معشر المسلمين تزعمون أن كتابكم لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فقال له الشيخ تاج الدين نعم نقول بذلك فقال له أين تجد في كتابكم أسمي فقال له ما اسمك فقال له كَبَك فأخرج له تاج

---

(١) في نسخة بفتح.

الدين المصحف فأراه ما بعد الراء من قوله ما شاء ركبك فتعجب الراهب من ذلك وصدق بأن في الكتاب كل شيء قال وهذه فراسة قوية وهداية سنية من الشيخ رضي الله عنه ولا شك أن في الذكر كل شيء ولكن لا يهتدي إلى ذلك إلا من خصه الله تعالى بالفهم الرباني والعلم الإلهي.

قال وقد ذكر لي بعض الناس أنه رأى منصوصا وقوع هذه الحكاية لغيره قلت ويحتمل أن يكون هذا الراهب أخذ هذه الحكاية ممن سبقه إليها ممن تقدم وثبتت في ذهنه وأبرزها في معرض الاختبار للشيخ أو أقترحها من غير ثبوت سلف فيها ويكون من وقع الحافر على الحافر والله تعالى اعلم.

قال من نظير ما تقدم من اشتمال القرآن الكريم على أخبار كل شيء حتى علم الحدثان والوقائع ما أخبرني به شهاب الدين أحمد بن التاج أن ملك بلاد الروم السلطان سليم أحد ملوك الترك وهو أول داخل منهم لمصر وتملكها من يد السلطان الغوري سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة كان سبب تملكه لها انه لما تملكت بلاد الشام حدثته نفسه بالتملك على بلاد العراق إذ هي أصل منشأهم ومساكن أسلافهم التركمان فخرج من بلد اصطنبول التي هي قاعدة ملكهم فلما وصل إلى الشام بعساكره تعذرت عليه العلوفة لغلاء حصل في تلك الناحية فاحتاج إلى الميرة والتزود من مصر فكتب بذلك إلى الغوري يستأذنه في الامتيار من بلده وكان الشاه ملك عراق العجم في ذلك الوقت لما سمع بتحرك السلطان سليم كاتب الغوري وكانت بينهما صداقة يطلب منه أن يشغله عنه وأن يثبطه ما استطاع وصادف ذلك من الغوري غيرة من السلطان سليم وأنفة من تملكه بلاد الشام وخشي أن اتسع ملكه أن يستولي على مصر ومصر إذ ذاك هي أم البلاد الإسلامية وملكها أعظم الملوك لانتقال الخلافة العباسية من العراق بعد واقعة التتار إلى مصر وعند ما طلب السلطان سليم من الغوري الميرة

تعلل له بان ذلك لا يمكن في هذا الوقت لغلاء الأسعار واعتذر له بأعذار ضعيفة ففطن سليم لما قصد وعلم انه إنما أرادِ تعويقه عن المسير إلى العراق فحدثته نفسه بالركوب إليه وصرف العنان عن غزو العراق إلى غزو مصر فاستشار في ذلك من كان بحضرته من العلماء وذكر لهم عذره وأن الغوري منعه من التزود من بلده وهو محتاج إلى الزاد فكلهم قال إن ذلك لا يبيح لك قتاله لأنه ملك بلاده ولم يخلع لك يدا من طاعة ولا بادأك بحرب فكيف يحل لك الهجوم عليه في بلاده ومحاربته بلا سبب وكان من جملة العلماء الحاضرين المحقق ابن الكمال باشا وأصغرهم فقال له أيها الأمير أنه يباح لك غزوه في كتاب الله أنك تدخل مصر في هذه السنة فقال له وكيف ذلك فقال له لا أفتي بين يدي هؤلاء الأئمة وهم مشائخ الإسلام حتى تؤجلهم سبعا لينظروا ويتدبروا فإن الله تعالى يقول: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ فكيف لا تكون هذه النازلة في كتاب الله تعالى الذي فيه تبيان كل شيء فقال لهم سليم أني أجلتكم سبعا عسى أن تجدوا أو يتبين لكم ما قال. فقالوا كلهم أيها الأمير ما كان جوابنا الآن هو جوابنا بعد سبعة فقال ابن الكمال لا بد من التأجيل وقصده والله اعلم إظهار مزيته عند الملك وأنه اهتدى لما عجزوا عنه بعد التدبر والتلوم إذ لو أبدى ما عنده في المجلس لربما أدعى أن ذلك يمكن الاهتداء إليه بالتأمل والتدبر فأجلهم الأمير سبعا فلما انقضت جمعهم فسألهم فقالوا له جوابنا فيما مضى جوابنا الآن فقال له ابن الكمال أيها الأمير أنهم ليقرءون في كتاب الله العظيم إنك لتدخل أنت وجنودك هؤلاء مصر في هذه السنة إلا أنهم لا يهتدون لفهمه فقالوا أين هو فقال قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾ فضحكوا وقالوا أين هذا مما نحن فيه فقال لهم أن قوله تعالى ولقد في قوة لفظ سليم بحساب الجمل فإن كل واحد من اللفظين مائة وأربعون عدده فتكون إشارة الكلام سليم كتبنا في الزبور من بعد عشرين وتسعمائة أن الأرض يرثها لأن الذكر عدده بدون أداة التعريف ما تقدم

قال والأرض في الآية الكريمة على قول كثير من المفسرين هي أرض مصر والعباد الصالحون في هذا الوقت هم جنودك إذ لا أصلح منهم في عساكر المسلمين بأقطار الأرض لإقامتهم سنة الجهاد وفتحهم أكثر البلاد النصرانية وهم على مذهب أهل السنة والجماعة وغيرهم من عساكر البلاد أما ممن فسدت عقائدهم كأهل العراق وأكثر اليمن والهند وأما ممن ضعفت عزائمهم عن إقامة شعائر الإسلام كالمغرب وأما ممن استولت عليهم الدنيا كمصر وبالغ في تقرير هذا المعنى وسر السلطان سليم بقوله وسلم له الفقهاء حسن الاستنباط ولطف الإشارة إلا أنهم قالوا له إن هذا لا يكفي في إباحة قتال من لم يخلع يدا من طاعة ولا حارب أحدا من المسلمين وإن كانت الإشارة القرآنية تدل على أن هذا سيكون فلا بد من إظهار وجه تعتمده الفتوى الفقهية فقال ابن الكمال أيها الأمير أما هذا فهو أيضا متيسر وذلك بأن تبعث إلى السلطان الغوري وتقول له أني لما قدمت إلى هذه الأوطان ولم يتيسر الغرض الذي قدمنا لأجله عزمنا على التوجه للحجاز لأداء فريضة الحج وليس لنا طريق ولا تزود إلا من بلادكم فأردنا أن تأذن لنا في المرور ببلادكم والتزود منها فانه لا محالة مانعك وصادّك عن المرور ببلده فإذا صدك عن حج البيت جاز لك قتاله وصار محاربا فاستحسن الفقهاء رأيه في ذلك لأن الحيل في مذهبهم سائغة، وانتهاج طريقها عندهم شريعة شائعة، فكتب السلطان سليم إلى الغوري في ذلك فراجعه الغوري بجواب سيء وصرح بمنعه وصده وانه لا يشرب من نيل مصر جرعة ماء إلا أن مشى على ظهور الموتى إلى غير ذلك من التهديد فتقوى حينئذ عزم السلطان سليم على غزو مصر وتهيأ لذلك فكان ما كان من استيلائه عليها ومحو الدعوة الغورية من مصر وإنحائه وقتله أكثر العلماء والصلحاء والخليفة العباسي وكثير من أرباب المناصب وكان أمر الله قدرا مقدرا فعظمت بذلك مكانة ابن الكمال عنده وخيره فيما شاء من الولايات فاختار الفتوى فتولاها وحسنت سيرته فيها وتصدى لنشر العلم وتعظيم أهله والله يتقبل منه

آمين.

ونظائر هذه الحكايات والاستنباطات كثيرة يتعاطاها أربابها على أن التسلق على مصل هذا وتعاطي فهمه من القرآن مما لا ينبغي إلا لذي بصيرة نورانية يصدق كشفه فتحه وإلا فالهجوم عليه ببضاعة العقل خطر فإن الواقع قد لا يكون كذلك فيؤدي إلى نسبة شبه الكذب لخبر الله تعالى وأن بالفحوى والإشارة والقرآن ينزه عن مثل ذلك فإن الله تعالى ما أنزله على عبده لهذا وإن كان موجودا فيه وإنما أنزله هدى وموعظة وذكرى لأولي الألباب فاستعمال الفكر في معانيه التي حض الله عليها ورسوله أولى من استعماله في أمثال هذه الأمور التي لم يرد عن الشارع ولا عنّ السلف الصالح اعتبار جنسها في أمثال هذه الأمور وأن اعتبرها بعض السلف لكن في غير هذا الجنس كاستخراج ابن عباس رضي الله عنه تعيين ليلة القدر من بعض آيات سورته وأما المتأخرون فمنهم من اعتبره في هذا الجنس كاستخراج بعضهم فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ابن أيوب من قوله تعالى: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ إلا أنه أمر نادر لا ينبغي أن يعتمد وذو الحال الصحيح، والكشف الصريح، لا ينبغي أن يقتدي به والله الموفق للصواب اهـ وإياك وأن تقفو ما ليس لك به علم فتقع في مهواة لا قعر لها من العطب حذرا حذرا.

ومن التقينا به بالمدينة خطيب الحرم الشيخ إسماعيل قرأنا عليه حديث إنما الأعمال بالنيات فأجازني ونص إجازته أحمد الله سبحانه ونسأله أن يصلي ويسلم على نبيه وأشرف خلقه مولانا محمد وآله وصحبه وإتباعه وأحبابه أخذت قراءة القرآن والحديث عن العارف بالله تعالى الشيخ علي الشمولسي[1] عن الشيخ الحلبي صاحب السيرة عن القاضي شَمْهَوُرش عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد أجزت الشيخ

(١) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة الشبراملسي وفي الرحلة الناصرية الشمولي.

العارف بالله تعالى أحمد بن محمد ابن ناصر أن يروي بهذا السند الشريف العالي المنيف حديث سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ككتاب البخاري وغيره من الكتب وقد قرأ علي حديث إنما الأعمال بالنيات نفع الله تعالى به المسلمين وجعلني وأياه في بركة سيد المرسلين آمين. إلى أن قال ومن عادة أهل المدينة أيضا في كل ليلة جمعة أن يجتمع الناس بعد صلاة العشاء في آخر أروقة المسجد النبوي الموالي لصحن المسجد فتأتي جماعة من المنشدين فينشد كل واحد قصيدة أو قصيدتين بصوت رخيم، وتطريب وتقسيم، والناس محدقون ولهم إتباع يردون عليهم مثل ما تقدم في ليلة المولد إلا أنهم لا يحتفلون لذلك في ليلة الجمعة كاحتفالهم لليلة المولد ولا قريبا منه.

ومن عادته في يوم الجمعة الخروج للبقيع ووضع الرياحين الكثيرة على القبور خصوصا المشاهد المعلومة فيكون عندها أضغاث من الرياحين ويؤتى به إلى الحجرة الشريفة أيضا ويلقى من طيقان الشبابيك إلى داخلها فلا يزال هنالك حتى يذبل ويذوى ويخرج في كناسة الحجرة ويقتسمها الأغوات بينهم مع باقي الشمع الذي يوقد داخل الحجرة وما يتساقط من الطيب فيجمعون ذلك فيهدون منه لأصحابهم وللأكابر ويبعثون منه إلى من يهاديهم من أهل الآفاق.

ومن عادتهم يوم الجمعة أن يكنس المسجد النبوي كله ويؤتى بأغطية من ديباح أسود مخوص بالذهب فتعلق على أبواب المسجد ويؤتى برايتين سوداوين من ديباج مخوص أيضا فيركزان عن يمين المنبر وشماله وتكسى درج المنبر من أعلاه إلى أسفله ديباجا من ذلك النعت ويعلق أيضا على أبواب الحجرة الشريفة فإذا كان قبل الزوال بقريب من ساعتين طلع المؤذنون على المآذن فيبتدئ مؤذن الرئيسة بالذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقراءة آيات من القرآن فإذا فرغ تلاه صاحب السليمانية على نحو من ذلك ثم لا يزالون كذلك يتناوبون الذكر والصلاة على النبي

صلى الله عليه وسلم والتلاوة على المآذن كلها إلى أن يخرج الإمام بأثر الزوال يقتسمون الوقت بذلك فإذا قرب دخول الإمام قام احد المؤذنين على سرير المؤذنين فينشد ما شاء الله فإذا دخل الإمام ورقي المنبر أذن المؤذنون دفعة واحدة داخل المسجد على السرير الذي في وسط المسجد وكيفية أذانهم انه يبتدئ رئيسهم فيقول الله أكبر الله أكبر فيقوله الآخرون بعده دفعة واحدة ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله مثنى فيقولونه أيضا بعد فراغه منه دفعة واحدة وهلم جرا إلى آخر كلام المؤذن وأما الخطابة فهي كالإمامة موزعة بين فقهاء المدينة لكل واحد مقدار معلوم من الأيام على قدر حصته التي يأخذها من جامكية الخطباء فمنهم مقل ومكثر وذلك إما بالوراثة من أسلافهم أو بالشراء من الولاة وهو الغالب ومنهم من تدور نوبته في كل شهر مرة ومنهم من لا تصل إليه النوبة إلا مرة في السنة ومنهم بين ذلك على حسب أنصبائهم في المال المأخوذ على ذلك.

ومن عادة المدرسين بالمدينة أيضا تعطيل القراءة في المكاتب والتدريس يوم الثلاثاء ويوم الجمعة ويقرءون فيما سوى ذلك من الأيام خلاف عادتنا في المغرب من التعطيل يوم الخميس ويوم الجمعة.

قال شيخنا أبو سالم وكنت أيام أقرائي بالحرم الشريف يكلفونني القراءة يوم الخميس فيشق ذلك علي لكونه خلاف المعتاد لدينا ولخروجنا في ذلك اليوم لزيارة أحد وغيره من المشاهد فطالبتهم كل المطالبة أن نعوض الخميس بالثلاثاء فأبوا كل الإباءة فجريت على عادتهم كما قيل:

إن جئت أرضا أهلها كلهم ... عور فَغَمِّضْ عينك الواحده

قلت ولا أدري ما السبب في تعطيل الثلاثاء والخميس والجمعة فسببها مشهور قلت والسبب في ذلك كما في شراح الرسالة أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما

أطال في بعض أسفاره اشتاقه أهل المدينة فلما سمعوا بأيابه تلقاه الناس رغبة وشوقا فتسابق إليه الصبيان فيأتوا معه ليلة الخميس والجمعة فأجازهم جائزة وأنهم لا يقرءون يوم الخميس ويوم الجمعة إلى صبيحة يوم السبت وهذا حاصل معناه.

ثم قال شيخنا المذكور ومن عادتهم أيضا في الحرمين الشريفين التهنئة بالشهر أي شهر كان خلاف المعتاد لدينا بالمغرب فإن التهنئة عندنا إنما تكون بالأعياد وما شاكلها ولديهم لا بد من التهنئة في أول يوم من كل شهر فيذهب كل واحد إلى من له عليه حق بولاية أو شيخوخة أو صحبة حتى يهنئه بالشهر في منزله ولله در القائل:

أن الأهلة في السماء مناجل ... بطلوعها تتحصّد الاعمارُ
أبدا يهنيء بعضنا بعضا بها[1] ... وطلوعها بأفولنا انذار

ومن عادتهم في إقامة الصلوات الخمس في الحرم الشريف تقديم الصلاة في أول الوقت ما عدا الصبح للحنفي فيؤخره إلى قرب الأسفار فيصلون الظهر أول ما تزول الشمس وما يقبل غالب الناس إلا بعد الصلاة فيذهبون بعد الصلاة إلى منازلهم لنوم القائلة وكان ذلك يشق على الغرباء قبل اعتيادهم لذلك فتكاد صلاة الظهر تفوتهم في المسجد لأنهم لا يتأهبون لها إلا بعد الأذان وليس بين الأذان والصلاة قدر يسع التأهب فمن لم يتأهب للصلاة قبل دخول الوقت فاتته الصلاة في الجماعة غالبا وذلك خلاف السنة في تأخير صلاة الظهر إلى ربع القامة أو أزيد للإبراد في شدة الحر فأنا لله وإنا إليه راجعون على تفويت الفضائل في أماكن قطب الأفاضل وأول من يصلي من الأئمة الشافعي ثم الحنفي إلا في صلاة المغرب فيتقدم الحنفي لضيق الوقت عنده كالمالكي ولا يؤم بالمدينة من الأئمة سواهما من أهل المذاهب إلا في الجمعة فيصلي صاحب النوبة على أي مذهب كان فيتناوب الإمامان الصلاة في المحراب النبوي فإن

---

(١) في ثلاث نسخ بمصابها.

صلى أحدهما فيه صلى الأجر في المحراب الذي على يمين المنبر الشريف وأما المحراب العثماني الذي في الصف الأول فلا يصلى فيه إلا في بعض أيام الموسم إن كثر الناس.

ومن عادتهم في الصلاة على الجنائز إدخال الجنازة إلى الحرم الشريف فيصلى عليها بالمسجد ثم يمر بها أمام الوجه الشريف ويوقف بها وقيفة ثم يذهبون بها إلى محلها من البقيع أو غيره إلا جنائز الروافض كالنخاولة فإنها لا يدخل بها المسجد ولا يؤتى بها إلى المواجهة بل يأتي بها أصحابها إلى خارج المسجد من ناحية الروضة ثم يرجعون ولقد أحسن من سن لهم ذلك من الولاة فحق من يبغض ضجيعي الرسول صلى الله عليه وسلم ورفيقيه في المحيا والممات أن يبعد عن حماه حيا وميتا قيض الله من يخليهم منها إلى تيهاء واريحاء آمين.

ومن عادتهم في الأملاكات أن يكون عقد النكاح بالمسجد الحرام فيأتي أكابر المدينة من أرباب المراتب والمناصب والخطيب فيجلسون صفين من المنبر إلى الحجرة الشريفة صف مستقبل القبلة وصف مسند ظهره إلى جدار القبلة وبإزاء الخطيب المتعاقدان فيشرع في الخطبة فيثني على الله بما هو أهله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم ثم يذكر المتعاقدين ويشير إليهما ويرضيان بذلك ثم يؤتى بأطباق الرياحين وتوضع بين الصفين وأطباق من اللوز والسكر ويفرق ذلك على الحاضرين ويقوم المنشد ينشد قصيدة أو قصيدتين في مدح النبي صلى الله عليه وسلم فيفترق المجلس ويقوم الحاضرون إلى المتعاقدين ويهنئونهما وهذه صورة أملاك كل ذي وجاهة ورياسة من أمير أو تاجر أو صاحب خطة وأما غيرهم فعلى حسب ما يتفق لهم فإذا كان ليلة الدخول أتي بالرجل ومعه جماعة كبيرة من أصحابه وأقاربه ومعهم الشموع حتى يوقف به على باب المسجد بعد العشاء الأخيرة فيدخل ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ويدعو فيخرج ثم يذهب به كذلك يزفونه إلى بيت المرأة في دار أهلها عكس

المعتاد في كثير من البلاد أن المرأة هي التي تزف إلى زوجها وأن الدخول في بيت الزوج وعند هؤلاء لما كانت العادة الدخول بالمرأة في بيت أهلها صار الزوج هو الذي يزف فإذا أصبح الزوج ذهب من بيت الزوجة إلى بيته وأخذ في إطعام الناس طعام الوليمة وجاء الناس لتهنئته وفي الليلة المقبلة تأتي الزوجة من دار أهلها إلى دار الزوج ولكل قطر عادة ولكل قوم سادة وعادة السادة سادة العادات.

ومن عادتهم في التعامل أنهم يسمون الأربعين مايديا[1] صرفا فيقولون عشرة أصرف وعشرون صرفا يعنون كل أربعين قيراطا من قراريط الفضة المسكوكة يعد صرفا كقولنا في بلادنا لهذا المقدار مثقالا ويقولون للدينار من الذهب شريفيا وسلطانيا ويقولون للريال المسكوك من الفضة ريالا وقرشا.

قلت وهذا خلاف مصر في القرش فانه أقل من الريال ويقولون للقيراط المسكوك محلقا وفي مصر يقولون له فضة ومؤيديا ويقولون للصاع الذي به التعامل ربعيا ويسمون الصروف المتقدمة إذا ذكرت مجموعة ذهبا فيقولون عشرون ذهبا وثلاثون ذهبا يعنون عشرين صرفا من غير قصد إرادة الذهب إذ التعامل بالذهب إنما هو بالدنانير وأجزائها.

ومن عادتهم في الشراء من الأعراب الذين يجلبون اللبن والجبن والسمن والغنم أن يشتري منهم قوم من الأعراب الساكنين بالمدينة وأطرافها ولهم اسم يختصون به كالبرغازين عندنا فيدخلونه الأسواق ويشتري منهم أهل المدينة وهذا من تلقي السلع المنهي عنه ولكنهم قد ألفوا ذلك واستمرت عليه عادتهم وألف ذلك القادمون أيضا لو أن أحدا من أهل المدينة أراد أن يشتري منهم لم يبيعوه إلا بأضعاف ما يشتريه

---

(١) كذا في الرحلتين وفي ثلاث نسخ وفي نسخة ميريا ولعله مؤيديا.

البرغازون فإذا جاء البرغازون أخذوه منهم بأقل من ذلك ويركنون إليهم ويميلون إلى قولهم ويعرفون كيفية المساومة معهم فلا يتعاصون عليهم لقرب الشكل من الشكل وغيرهم ليس بتلك المثابة فلا يكاد أحد يشتري منهم لجفائهم وغلظ طبائعهم فاستسهل الناس الشراء من البرغازين بربح قليل زيادة على ما اشتروا به من الأعراب واغتفروا التلقي لذلك اللهم إلا أن يكون الموضع الذي يحطون فيه ما يأتون به من اللبن وغيره معلوما عندهم لذلك ولا يقصدون سواه ولا يتعدون لغيره لبيع ما يأتون به من سوق أو حانوت أو دكان فيكون ذلك كالسوق لسلعهم فلا نهي إذًا إذ لا تلقي حينئذ لكون السلع بولغ بها سوقها ومحل بيعها وابتياعها.

ومن عادتهم في كراء الرواحل من القوافل الذاهبة إلى مكة والينبع أن بالمدينة رجالا يعرفهم غالب الجمالين فمن احتاج الكراء من أرباب الدواب أو أرباب السلع أتى إليهم فيعقدون لهم الكراء مع صاحبه ويتكلفون بما عسى أن يصدر من الجمال من غرر في الطريق بهروب أو مكر ويسمى أحد هؤلاء المخرج فلا يعقد أحد كراء إلا بحضرة أحدهم وجلوسهم في الغالب بباب المصري ويأخذون بذلك حلاوة من الجمال ومن المكري وذلك دأبهم بمكة أيضا.

وفواكه المدينة المشرفة في غاية الجودة خصوصا عنبها ورطبها وأما الخضر فأكثرها وجودا الجزر والباقلاء والملوخية والبامية والبصل واللفت والخضر البرية ليس فيها إلا الخبيز ولا يأكل أحد في تلك البلاد المسن القديم والشحم الغوي إلا أضرا به ما لم يكن حديث عهد بالبلد فإذا طالت إقامته في البلد تطبع بطبعهم.

قال أبو سالم وطبع ذلك البلد الشريف وهواؤه فلما يوافق أحدا من أهل مغربنا الأقصى ممن بلده ريف ذات مياه وخصب وإنما يوافق أمزجة أهل الصحراء كنوات وتفورارن وأهل السودان وذلك والله أعلم لفرط حرارة بلاد هؤلاء فقلما رأيت

أحدهم مريضا في تلك البلاد إلا مرضا خفيفا وقلما رأيت أحدا ممن بلده كبلادنا ريف وخصب إلا وقد ألظ به المرض إلا القليل ممن طالت إقامته جدا في البلد وتطبع بطبع أهلها قال من يوم قدومنا للمدينة كل ما تكلمنا معه من أصحابنا المجاورين يقول لنا استعدوا الحمى المدينة فلا بد لكم منها فإنها تحفة النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته لجيرانه لتمحيض ذنوبهم وكان بعض أصحابنا يتمغص من ذلك ويشق عليه سماعه منهم ويقول نحن نرجو أن تكون كرامة النبي صلى الله عليه وسلم لنا بغير ذلك فكان أولنا وقوعا في المرض وأطولنا إقامة فيه والله يغفر له ويكفر زلله قال ولا بعد ولا نكر في تسمية الحمى بتحفته صلى الله عليه وسلم لذلك أصل في السنة فقد ورد في بعض الأحاديث أن الحمى استأذنت على النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها أذهبي إلى الأنصار فإن لهم عينا يدا أو كما قال عليه الصلاة والسلام وروى الإمام أحمد وغيره برجال الصحيح عن جابر رضي الله عنه استأذنت الحمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال من هذه فقالت أم ملدم فأمر بها إلى أهل قبا فلقوا ما لا يعلمه إلا الله فأتوه فكشوا ذلك إليه فقال ما شئتم أن شئتم دعوت الله أن يكشفها عنكم وإن شئتم تكون لكم طهورا قالوا أو تفعل قال نعم قالوا فدعها وفي رواية وإن شئتم تركتموها وأسقطت بقية ذنوبكم انتهى.

ولا تحفة ولا كرامة لزائريه صلى الله عليه وسلم أعظم مما يطهرهم من الآثام وهل فارقوا الأهل والأولاد، وقطعوا الأغوار والأنجاد، وامتطوا ظهور النجائب، وفلوا بأرجلها ناصية السباسب، إليه صلى الله عليه وسلم ألا لتحط عنهم أوزارهم، وتغسل أدرانهم، فجزاه الله عن أمته، أفضل ما جرى به نبيئا عن قومه.

وقد حقق العارف الإمام ابن أبي جمرة رضي الله عنه أن المغفرة أعلى ما يناله العبد منه الله قائلا أن الرحمة وأن نال منها الإنسان ما عسى أن يناله فيمكن أن يبقى معها

بقية ذنب فيؤاخذ بها بخلاف المغفرة ولذلك أمتن الله بها على نبيه صلى الله عليه وسلم.

قلت فينبغي إذًا للعارف[1] أن يكون أهم ما لديه تعطي أسباب المغفرة من الله كصلاة التسبيح كل يوم مرة أو أسبوع أو شهر أو سنة أو مرة في العمر فقد ورد فيها ما يحمل الراغب في ربه، المشفق من ذنبه، على ان لا يدعها، لا يقدم عليها سواها، وأفضل أوقاتها ما بين الزوال وصلاة الظهر أن تأتي ذلك وإلا فسائر النوافل تصلى فيه أوقاتها من ليل أو نهار وتصلى تارة على ما رواه ابن المبارك رضي الله عنه وتارة على غيره من تقديم القراءة على الأذكار والجلوس للاستراحة قائلا الأذكار فيها قبل أن ينهض قائما وقبل التشهد فشديد الضنين عليها ولا يشغلنك عنها شاغل واستبشر بنعمة من الله وفضل أن وفقك الله وأهلك لتعاطيها ونشطك لها إذ لو أراد بك الأخرى عياذا بالله لثبطك عنها فتكاسلت وتوانيت ولا يزهدك عنها زاهد فإن العارفين بالله بالغوا في الحث والحض عليها والله يوفقنا وأياك.

ولنذكر هنا الأحاديث الدالة على الخصال المكفرة لما تقدم وتأخر من الذنوب جمع الإمام الحافظ ابن حجر في جزئه المسمى بالخصال المكفرة للذنوب المتقدمة والمتأخرة تيمنا وتبركا فأقول عن ابن حجر بسنده إلى حمران ابن أبان مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال دعا عثمان بماء فأكثر ترداد الماء على وجهه ويديه فقلت حسبك قد أسبغت الوضوء والليلة شديدة البرد فقال صب فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يسبغ أحد الوضوء إلا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ومسنده وأخرج أبو عوانة في مستخرجه على مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سمع المؤذن فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد

---

(١) في الرحلة الناصرية للعاقل.

نبيا وفي رواية رسولا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فقال له رجل يا سعد ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخرج أبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب يا عباس يا عماه ألا أعطيك إلا أمنحك ألا أخبرك ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره خطأه وعمده صغيره وكبيره سره وعلانيته عشر خصال أن تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة فإذا فرغت من القراءة في أول كل ركعة وأنت قائم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشرا ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا ثم تهوى ساجدا فتقولها عشرا ثم تسبح فتقولها عشرا ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا فذلك خمس وسبعون مرة في كل ركعة تفعل كذلك في أربع ركعات أن استطعت ان تصليها في كل يوم مرة فأفعل فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة فإن لم تفعل ففي كل شهرة مرة فإن لم تفعل ففي كل سنة مرة فإن لم تفعل ففي عمرك مرة انتهى.

وأخرج ابن وهب في مصنفه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا آمن الإمام فآمنوا فإن الملائكة تؤمن فمن وافق تآمينه تآمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأخرج آدم بن أبي إياس في كتاب الثواب له عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صلى سبحة الضحى ركعتين إيمانا واحتسابا كتب الله له بها مائتي حسنة ومحا عنه مائتي سيئة ورفع له مائة درجة أو مائتي درجة وغفر له ذنوبه كلها ما تقدم وما تأخر إلا القصاص.

وأخرج أبو عبد الرحمان السلمي عن أنس رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ إذا سلم يوم الجمعة قبل أن يثني رجليه فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس سبعا سبعا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأعطي من الأجر بعدد كل من آمن بالله واليوم الآخر وفي إسناده ضعف شديد جدا.

وأخرج الإمام أحمد رضي الله تعالى عنه في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأخرج أحمد بن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ليلة القدر في العشر البواقي من قامهن ابتغاء حسبتها فإن الله تبارك وتعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهي ليلة وتر تسع أو سبع أو خامسة أو ثالثة أو أحدى وعشرون.

وأخرج أبو سعيد النقاش في أماليه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من صام يوم عرفة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. مَنْ أَهَلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أو وجبت له الجنة أخرجه أبو داود عن أم سلمة من جاء حاجا يريد وجه الله فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفع فيمن دعا له أخرجه أبو نعيم عن عبد الله بن مسعود إذا خرج الحاج من بيته كان في حرز الله فإن مات قبل أن يقضي نسكه وقع أجره على الله وإن بقي حتى يقضي نسكه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أخرجه أبو يعلى وأحمد بن منيع عن جابر.

من صلى خلف المقام ركعتين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وحشر يوم

القيامة مع الآمنين ذكره القاضي في الشفاء. من قرأ سورة الحشر غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أخرجه الثعالبي وابن مردويه في تفسيرهما.

من علم ابنه القرآن نظرا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن علمه أياه ظاهره فكلما قرأ آية رفع الله بها للأب درجة حتى ينتهي إلى آخر ما معه من القرآن أخرجه الطبراني عن آنس.

وأخرج أبو محمد عبد الله بن محمد في فوائد الأصبهانيين عن أم هانيء وكانت تكثر الصلاة والصيام والصدقة فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه ضعفها فقال لها سأخبرك بما هو عوض من ذلك تسبحين الله مائة مرة فتلك مثل مائة رقبة تعتقينها متقبّلة وتحمدين الله مائة مرة فتلك مثل مائة بدنة مجللة تهدينها متقبلة وتكبرين الله مائة مرة وهناك يغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

مَنْ عَدَّ في البحر بعين موجة وهو يكبر غفر الله له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر وإن الأمواج لتحتّ الذنوب حتّا ذكره أبو الحسن الربيعي في فضائل الشام. وروي أيضا عن أنس عنه عليه الصلاة والسلام مدينة بين الجبلين على البحر يقال لها عكا من دخلها رغبة فيها غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن خرج منها رغبة عنها لم يبارك له في خروجه وبها عين تسمى عين البقر من شرب منها ملأ الله بطنه نورا ومن أفاض عليه منها كان طاهرا إلى يوم القيامة هذا حديث منكر جدا.

من قاد مكفوفا أربعين خطوة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أخرجه ابن مندة في أماليه عن ابن عمر.

من سعى لأخيه المؤمن في حاجة قُضِيَتْ له أو لم تقض غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وكتبت له براءتان براءة من النار وبراءة من النفاق أخرجه ابن الناصح في فوائده

عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ما من عبدين متحابين في الله وفي رواية ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان ويصليان على النبي صلى الله عليه وسلم إلا لم يفترقا حتى يغفر لهما ذنوبهما ما تقدم منها وما تأخر أخرجه أبو يعلى عن آنس من أكل طعاما ثم قال الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ومن لبس ثوبا جديدا فقال الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أخرجه أبو داود عن آنس وأخرج الحكيم الترمذي عن عثمان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال الله عز وجل إذا بلغ عبدي أربعين سنة عافيته من البلايا الثلاث من الجنون والجذام والبرص فإذا بلغ خمسين سنة حاسبته حسابا يسيرا فإذا بلغ ستين سنة حببت إليه الإنابة فإذا بلغ سبعين سنة أحبته الملائكة فإذا بلغ ثمانين سنة كتبت حسناته وألقيت سيئاته فإذا بلغ تسعين سنة قالت الملائكة أسير الله في أرضه وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وشفع في أهله قال الحكيم هذا من جيد الحديث وذكرتها لمناسبتها لما نحن بصدده من المغفرة رغبة أن يعمل بها من وقف عليها أو ببعضها فقد أجزت بها من أراد العمل بها من المؤمنين رجاء الثواب وحسن المآب.

ومن عادتهم إذا قرب زمن انقضاء الحر وأقبلت هوادي زمن البرد وظهرت البرودة في الهواء صباحا ومساء أخذوا يدثرون أبدانهم في الثياب الكثيفة التي تلبس في أيام البرد الشديد ويقولون أن البرد في أول أبانه يسرع فساد الأمزجة وهو أضر من البرد الشديد الذي يكون في وسط الشتاء ويقولون أن الناس يلبسون من غليظ الثياب في آخر الخريف ما لا يلبسون في صميم الشتاء وشديد الزمهرير.

قال شيخنا أبو سالم وكنا نحن لألفنا البرد الشديد في بلادنا نتلقاه بأبداننا ونعري

له أطرافنا فرحا بقدومه لما قاسينا من شدة الحر الذي لم نعهد مثله في قطرنا فكانوا ينهوننا عن ذلك ولا ننتهي ويقولون ليس هواء هذه البلدة وبردها كالتي تعهدون فكنا لا نلتفت لذلك ثقة بما نعهد في أنفسنا في بلادنا من الصبر على بردها الذي لا يكون برد هذه البلدة بالنسبة إليه إلا كنسبة زمان الاعتدال قال فكان ذلك مع قدر الله تعالى هو السبب في حصول المرض المتطاول لنا ولأصحابنا ويشهد لمقالهم في ذلك قول أمير المؤمنين مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه اتقوا البرد في أول أبانه وتلقوه في آخر أوانه فانه يفعل بالأبدان ما يفعل بالأشجار فأوله محرق وآخره مورق ذكره الزمخشري في كتاب ربيع الأبرار له قال ولقد صدقوا في ذلك خصوصا في تلك البلاد فان بدن الإنسان يكون مشتعلا حرارة ويبسا لغلبة الحر فإذا فاجأ البرد البدن في تلك الحرارة أضر به بخلاف البرد الذي يجيء في آخر الأبان فانه يصادف البدن قد سكنت حرارته والله أعلم.

ومن عادتهم أن لا يتولى خدمة الحجرة الشريفة والمسجد إلا عبيد أغوات موقوفون على ذلك لا يشاركهم غيرهم وشيخ الحرم هو كبيرهم والأغا بلغتهم كناية عن الخصي من العبيد واختاروا وقف الخصي دون غيره لكونه أطهر وأنزه وأكثر فراغا من الأشغال إذ لا أهل له ولا ولد يشتغل بهم وهو أبعد من دنس الجنابة ومباشرة النساء وهم عدد كثير قريب من الثمانين يزيدون وينقصون بحسب كثرة الراغبين في الوقف وقلتهم والأربعون منهم هم الكبار الذين يأتي رزقهم ومئونتهم من بيت المال وما زاد على ذلك إنما يرزقون من الأوقاف التي لهم بالمدينة أو مما يأتيهم من الهدايا والصدقات من أقطار الأرض ويسمى ما سوى الأربعين البطالين لأنهم إنما يستعملون في الأشغال التي هي خارج الحجرة والمسجد النبوي من الأعمال الممتهنة ولا يجلسون مع الأكابر في الدكة إنما يجلسون خارجها ولهم ضبط وسياسة كسياسة الملوك فلكل واحد منهم رتبة معلومة وشغل معلوم فإذا مر بالأصاغر أحد الأكابر

قاموا له كلهم وكذا الأكابر فيما بينهم فأكبرهم شيخ الحرم فهو يتجدد في الغالب أما في سنة أو سنتين أو أكثر ولا يأتي إلا من دار السلطان من عبيده ويليه النقيب ويليه المستسلم وهو الذي يتولى قبض الصدقات وما يهدى لهم أو للحجرة وبيده مفاتيح الحجرة وحواصل الزيت والشمع وبيده جميع ما يتصرف فيه الأغوات من مصالح المسجد ومن أوقافهم فإذا مات واحد من الأربعين دخل واحدج من البطالين في موضعه وهو من كان شيخ البطالين والترتيب في ذلك بالتقدم فمن تقدم مجيئه يقدم على من تأخر مجيئه ويس فيهم شافعي ولا حنبلي بل كلهم حنفية ومالكية على مذاهب ساداتهم الذين أوقفوهم وذلك لأن الشافعية والحنابلة لا يرون صحة وقف الحيوان ومن أوقف عبدا من الأغوات على الحجرة نسب إليه سواء كان من التجار أو من الأمراء أو العلماء فيقال أغا فلان وكلهم يبيتون في المسجد عدا شيخ الحرم والنقيب وأما الآخرون فلا يبيت واحد منهم بداره إلا لعذر بين من مرض أو نحوه ولكنهم جزاهم الله خيرا عن تعظيم المكان وتوقيره وتبجيله وكلهم أهل خير وبركة قد اختارهم الله لخدمة اشرف البقاع وشرفهم بالنسبة إلى اشرف الخلق صلى الله عليه وسلم ولله در الإمام البوصيري إذ يقول:

وإذا سخر الإله أناسا ... لسعيد فإنهم سعداء

ومن عادة الأغوات كل ليلة إذا فرغ الناس من صلاة العشاء ورواتبها قاموا بأيديهم الفوانيس الكبار وهي الفنارات عندنا مشعلة ليخرجوا الناس من المسجد فيأتون إلى المواجهة والصف الأول فيقف بعضهم أول الصف ووسطه وآخره فيخرجون كل من فيه فإذا لم يبق أحد بذلك الصف تكلموا بكلمة ذكر رافعين أصواتهم بها فينتقلون إلى الصف الذي يليه ثم كذلك حتى لا يبقى في المسجد أحد سواهم فيغلقون أبواب المسجد ويطفؤن المصابيح كلها إلا التي في مواجهة الوجه الشريف والتي داخل الحجرة فيخرجون من المسجد إلى الصحن وإلى الأروقة التي

بجانبه فيخرجون فرشهم من الحواصل فينامون هنالك ولا ينام أحد منهم في المسجد بل ولا يأتيه إلا من قصد منهم الصلاة.

ومنهم أناس على قدم صدق في العبادة وغالب نوم الصغار منهم في مؤخر المسجد ومن وراء المسجد في الناحية الشامية ميضاة كبيرة فيها بئر كبيرة واخلية وفتح لها باب إلى مؤخر المسجد ولا تفتح إلا ليلا بعد غلق الأبواب وتسرج فيها المصابيح لوضوء الأغوات وإزالة حقنة من احتاج إلى ذلك ليلا فإذا غلقت الأبواب هدأت الأصوات منهم وخشعوا فلا تكاد تسمع من أحد منهم كلمة فمن احتاج منهم إلى كلام أحد منهم كلمه كأخي السرار.

قال أبو سالم ولقد رأيتهم يبالغون في خفض أصواتهم بالليل حتى بالسعال والعطاس وتنزل عليهم السكينة وتلحقهم هيبة المكان وليس منهم مجرد استعمال لما يخالط قلوبهم من هيبة المكان.

قال ولقد أخبروني أنه لا يقدر أحد منهم بالليل أن يصل إلى الروضة وأطراف الحجرة والمواجهة إلا الأفراد منهم وأنهم ليسمعون بالليل قعقعة السقوف وفرقعة الشبابيك حتى يظنوا أن أحد أبواب الحجرة فتح وأن بعض السقوف وقع فلا يجدون شيئا من ذلك وذلك والله اعلم لتنزل ملائكة الرحمة على قبره صلى الله عليه وسلم أو قدوم بعض رجال الغيب للزيارة ويظهر أثر ذلك باللي لهدو الأصوات به وخلو المكان وأن كان تنزل الملائكة على قبره صلى الله عليه وسلم وغشيان الرحمة له لا ينقطع ليلا ولا نهارا. . .

قال ولقد شاهدت من الهيبة والعظمة في أحدى الليالي التي بتها في المسجد ما أعجز عن وصفه ولقد كنت اجتهد إذا عسعس الليل أن أصل إلى المواجهة واقف

للتسليم والدعاء فما أصل إلى ذلك حتى تكاد أوصالي تنقطع هيبة فإذا وصلت وسلمت وأردت إطالة الوقوف للدعاء كما كنت أفعل نهارا فلا أقدر فاخفف السلام والدعاء فارجع.

قال ولقد سمعت بعض ما ذكر من فرقعة السقف وما أشبه ذلك فملئت منه رعبا إلا أني كنت أشتغل عنه والتلهى عن سماعه بقراءة القرآن سرا فيها لها من ليلة هي عندي نتيجة عمري وفريدة أيامي فلئن كانت ليلة القدر خير من ألف شهر فهذه الليلة عندي كألف ليلة القدر اللهم لا أحصي لك ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك فلك الحمد على جزيل عطائك، ولك الشكر على سوابغ آلائك، فإذا كان بعد الثلث الأخير من الليل جاء رئيس المؤذنين ففتحوا له وصعد إلى المآذنة الرئيسية وإذن وشرع في الدعاء والذكر والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيقوم كل من في المسجد من الأغوات فيتوضئون ثم يصبحون كل ما في المسجد من المصابيح فإذا فرغوا من الأصباح وقرب الصباح فتحوا أبواب الحرم ولا يأتي وقت فتحها حتى يجتمع بأبواب المسجد جماعات كثيرة من المتهجدين ينتظرون الفتح فإذا فتحت الأبواب دخلوا مزدحمين وتسابقوا الصف الأول من الروضة فيما بين القبر والمنبر فمن سبق إلى موضع كان أحق به فإذا أراد القيام لحاجة كزيارة أو تجديد وضوء بسط نمرة له في محله فلا يجلس فيه أحد ولو أبطأ وكثيرا ما يعتدى في ذلك أقوام فيدخلون مع أول داخل من غير طهارة لقصد السبق إلى الموضع وتحجيره فإذا بسط فيه فروته أو منديله ذهب إذ ذاك إلى الطهارة وأسبابها وكثير منهم يبطيء في الطهارة فيحجر على الناس المحل وربما عرض لأحدهم حاجة في منزله أو في السوق فيترك النمرة في محله فلا يقربه أحد وأن أبطأ كثيرا وفي ذلك من الضرر على المصلين ما لا يخفى على أن في دخولهم مزدحمين واستباقهم إلى الروضة حتى ربما سمع لأقدامهم من شدة العدو دوي سوءَ أدب لا يخفى وربما يحتج لذلك محتج بقوله عليه الصلاة والسلام لو يعلم

الناس ما في الصف الأول لاستبقوا إليه فلا بد من تقييد ذلك بما لا يخل بأدب البقعة المطهرة وساكنها لقوله عليه الصلاة والسلام وأتوها يعني الصلاة وعليكم السكينة والوقار فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فاتموا.

قال والمراد بالمسابقة في الحديث المتقدم الاهتمام بشأنه والحرص على الصلاة فيه من غير عدو بالأقدام ومزاحمة بالمناكب.

وساداتنا الأغوات رضي الله عنهم وجازاهم خيرا لا يغفلون طرفة عين عن حراسة الحرم الشريف وتأديب من أساء فيه الأدب بلغط أو رفع صوت أو نوم ولو في قائلة إلا في مؤخر المسجد ومن وجدوه مضطجعا من دون نوم للاستراحة فإن مد رجليه إلى ناحية الحجرة زجروه وان استقبل القبلة بوجهه أو الحجرة من غير أن يكون مستدبرا لها تركوه ولا يغفلون عن حضور المسجد في ساعة من ليل أو نهار فإن خرجت طائفة جلست طائفة ولهم ديار وخدم وأتباع وضياع وخيل وسعة دنيا ولا يشغلهم ذلك عما هم بصدده من خدمة المسجد بل لبعضهم أزواج وسراري اتخذوها للتلذذ بما سوى الجماع وأحكامهم فيما بينهم منضبطة غاية الانضباط ولا يحكم فيهم سلطان ولا غيره ولا يولي عليهم ولا يعزل منهم إلا بأمر شيخهم ولا يرث معهم بيت المال شيئا إن مات أحدهم إنما يتوارثون بينهم ومن وجبت عليه عقوبة أو أدب منهم أدبوه من غير أن تكون لأحد عليهم ولاية كل ذلك تعظيما لجانب النبي صلى الله عليه وسلم أن تكون لأحد ولاية على عبيده وخدم حجرته الشريفة ولا يدخل معهم من العبيد الذين يُهْدَوْنَ من الآفاق إلا من رضوا إدخاله بمال يدفعه عنه سيده أو يدفعه هو إن كان له مال ومع ذلك يبقى في مرتبة الصغار المشتغلين بالخدمة الخارجة فإن رضوا حاله وحسنت أخلاقه تركوه حتى تأتي نوبته في الدخول في زمرة الأربعين وإن ظهرت منه خيانة أو سوء أخلاق أو سرقة أو شيء يشينه نفوه إلى حيث شاء من البلاد.

وبالجملة فلعبيد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وخدام مسجده جلالة قدر وعظيم منصب وسعة أرزاق وكرم أخلاق وهم أحقاء بذلك ولكبيرهم كلمة نافذة في المدينة وتصرف تام ويد مبسوطة وهو أحد عظماء الولاة بالمدينة تنفذ أحكامه وتمضى تصرفاته في القوي والضعيف والشريف والمشروف ويطأ عقبه الكبراء والأشراف.

وإذا كان أول رجب جعل الناس يقدمون من أقطار الحجاز واليمن كمكة والطائفة ونجد وجدة وما ولاها من أطراف اليمن لشهود الرجبية وزيارة سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه فما من يوم إلا وتدخل فيه قافلة من مكة ونواحيها ولم يزل الناس يتلاحقون فخرج أهل المدينة إلى أُحُد من اليوم الخامس والسادس من الشهر ورجعوا في اليوم الثاني عشر ولم يبق بالمدينة إلا القليل وخرج العسكر لحراسة الناس في الطرقات من المدينة إلى أُحُد كما تقدم شرح ذلك.

وبعد الرجوع من أُحد نزل الوافدون بالمدينة ينتظرون الرجبية وهي ليلة سبع وعشرين منه ليلة المعراج وقدم خلق كثير من الأعراب وكانت بالمدينة سوق عظيمة وامتلأ المسجد وجوانبه فما من يوم إلا ويزداد فيه الخلق كثرة فإذا كانت الليلة السابعة والعشرون تكامل حشر الناس فمن لم يدخل إلى المسجد من قريب من العصر قلما يجد موضعا لصلاة المغرب والعشاء فيغص المسجد بمن فيه ويفتح الحرم طول الليل ويبيت الناس في ذكر وقراءة وصلاة كل على حسب ما يسنح له إلى الصباح فإذا أصبح الناس أخذ الأعراب في التوديع فيسمع لهم حنين كحنين الإبل في المسجد وصياح وصراخ رافعين أصواتهم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والاستغاثة به فيرق قلب سامعهم ويحن ويشفق لهم على جفائهم وجهلهم فلا يأتي مساء ذلك اليوم حتى لا يبقى بالمدينة منهم إلا القليل وعسى الله أن ينفعهم بحسن نياتهم.

وإذا استهل شهر شعبان أخذت القوافل في الرجوع إلى مكة ويرجع غالب من جاء من أهلها ولا يبقى إلا القليل ممن يريد شهود رمضان بالمدينة.

ذكر بعض أودية المدينة التي تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها

فمنها وادي العقيق وهو أيضا من المواضع المباركة التي ينبغي زيارتها ففي الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بوادي العقيق أتاني الليلة آت فقال صل في هذا الوادي المبارك وروي مرفوعا العقيق واد مبارك وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه كان إذا انتهى إليه أن وادي العقيق قد سال قال اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك وإلى الماء الذي لو جاءنا جاء من حيث جاء لتمسحنا به وقال فيه عليه الصلاة والسلام هذا الوادي يحبنا ونحبه وهو واد كبير غربي المدينة وراء الحرة الغربية يأتي سيله من أماكن بعيدة وربما دام شهرا فأكثر وورى أنه صلى الله عليه وسلم ركب إلى العقيق ثم رجع فقال يا عائشة جئنا من هذا العقيق فما ألين موطأه وأعذب ماءه فقلت يا رسول الله أفلا تنتقل إليه قال وكيف وقد ابتنى الناس وعن أنس رضي الله تعالى عنه خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وادي العقيق فقال يا أنس خذ هذه المطهرة وأملأها من هذا الوادي فانه يحبنا ونحبه وعن سلمة قال كنت أصيد الوحش وأهدي لحومها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لو كنت تصيد بالعقيق لشيعتك إذا خرجت ونلقاك إذا جئت. وأسفله مما يلي الجرف هو المسمى بالعرصة إلى غربي رومة وما فوق ذلك إلى النقيع يسمى العقيق.

قال أبو سالم والمشتهر في زماننا بالعقيق من غربي رومة إلى ذي الحليفة قال عياض النقيع صدر العقيق وهما عقيقان أدناهما عقيق المدينة وهو أصغر وأكبر فالأصغر فيه بئر رومة والأكبر فيه بئر عروة والعقيق الآخر على مقربة منه وهو من بلاد مزينة انتهى. وسمي عقيقا لأن سيله عق في الجرف أي شق وقطع وقيل سمي بذلك لحمرة

موضعه.

قال السيد ومر تبع بالعرصة وكانت تسمى بالسليل فقال هذه عرصة الأرض فسميت العرصة ومر بالعقيق فقال هذا عقيق الأرض فسمي به وفي العقيق بئر عروة بن الزبير رضي الله عنه وهي من أغزر الآبار ماء وأعذبها وأحلاها وهي بئر شهيرة فيها أخبار وأشعار.

قال الزبير بن بكار رأيت الخرّاج من المدينة إلى مكة وغيرها ممن يمر بالعقيق يتخففون من الماء ويتزودونه من بئر عروة وإذا قدموا منها بماء يقدمون به على أهليهم يشربونه في منازلهم عن مقدمهم قال ورأيت أبي يأمر به فيغلى ثم يجعل في القوارير ويهديه إلى أمير المؤمنين هارون.

قال جابر الربعي فيها:

يعرضـها الأتي مـن النـاس أهلـه ويجعلهـا زادا لـه حـين يـذهب

وقال السري بن عبد الرحمن الأنصاري:

كفنـوني إن مـت في درع أروى واسـتقوا لي مـن بئـر عـروة مـائي

سـخنة في الـشتاء بـاردة م الـصيف سراج في الليلـة الظلـماء

وأنشد عبد الرحمن لأم يوسف وهو في غاية العذوبة والسلاسة:

عـلى سـاكني بطـن العقيـق سـلام وان اشـهروني بـالفراق وقـاموا

حظـرتم عـلي النـوم وهـو محلـل وحللـتم التعـذيب وهـو حـرام

إذا بنـتم عـن حـاجر وحجـرتم عـلى الـسمع أن يـدنو إليـه كـلام

فـلا ميّلـت ريـح الـصبا فـرع بانـة ولا سـجعت فـوق الغـصون حمـام

ولا انفقعت فيه الرعود ولا بكى   على حافتيه بالعشيّ غمام
فما لي وما للربع قد بان أهله   وقد فرضت من ساكنيه خيام
ألا ليت شعري هل إلى الرمل عودة   وهل لي بتلك البانتين لمام
وهل نهلة من بئر عروة عذبة   أداوي بها قلبا براه أوام
ألا يا حمامات الأراك إليكم   فما لي في تغريدكن مرام
فوجدي وشوقي مسعد ومؤانس   ونوحي ودمعي مطرب ومدام

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لما اقطع الناس العقيق وقف في موضع بئر عروة بن الزبير التي عليها سقايته وهو يقطع الناس ويقول أين المستقطعون فنعم موضع الحفيرة فاستقطعه ذلك خوات بن جبير الأنصاري فاقطعه تلك الناحية فاشترى عروة موضع قصره وبياره بعد وقت صدقت فراسة عمر رضي الله عنه في هذه البئر كما هو شأنه في كل ما يفترسه فيه وللزبير بن بكار أن النبي صلى الله عليه وسلم اقطع بلال بن الحارث المزني العقيق ولم يعمل فيه شيئا وأن عمر رضي الله تعالى عنه قال له إن قويت على ما أعطاك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتمله فما اعتملت فهو لك فإن لم تعتمله أقطعته بين الناس ولم تحجره عليهم وفي رواية انظر ما أطقت أن تقوى عليه فامسكه وأردد إلينا ما بقي نقطعه فأبى بلال فترك عمر بيد بلال بعضه وأقطع ما بقي للناس ولما دنا عمر رضي الله عنه من موضع قصر عروة وقف في موضع بئر عروة إلى آخر ما تقدم انظر كلام السيد فقد أشبعه وسيل العقيق عند أهل المدينة من أعظم المتنزهات من سالف الدهر ولشعرائهم الأقدمين فيه أشعار كثيرة مذكورة في كتب الأدباء.

قال شيخنا أبو سالم إمام المرتحلين في زماننا وقد حضرت بالمدينة سيله ثلاث مرات فخرج الناس على طبقاتهم ونصبت الخيام والمضارب بحافتيه وطبخت

الأطعمة الكثيرة مع سرور ولهو وطرب وأقاموا به يوما أو يومين وقد سال مرة سيلا عظيما منع الرفاق الواردين من مكة للرجبية عن الوصول إليها إلا بعد مدة قال وقد حضرني أبيات ونحن على شاطئه مع جملة من أصحابنا أولها:

جرى العقيق ودمعي كالعقيق جرى ... فلا تسل سائلي عما هناك جرى
الوجد اورى زنادا في الحشا فَصَلَى ... به الفؤاد فسال الدمع مبتدرا
اذكرني جريه جري السوابق في ... بين الكتائب في الميدان متعجرا
وظله والنسيم في جوانبه ... اطربني فسرى الأحزان حين سرى
أذكرني زمنا عند الذين بهم ... أفاخر الشهب في وسط الدجى سحرا
قومي وأهلي ومن البست بينهم ... شرخ الشباب نظيفا طينا عطرا
ما استبدلت منهم نفس المشوق سوى ... طيب بمجاورة المختار من مضرا
أكرم بذا بدلا ق فاز آخذه ... لو أنه في الشراء أدفع العمرا

ومن جملتها هذه

سال العقيق ودمعي ... سال كمثل العقيق
وسيله كالرحيق ... وأدمعي كالحريق
فلا تلم يا عذولي ... ولتسعدن يا رفيقي

ومنها وادي بطحان وهو الوادي المتوسط بيوت المدينة ودور الأنصار غالبها على حافتيه شرقا وغربا ولابن زبالة يأتي من الحالتين حالتي صعب على سبعة أميال من المدينة أو نحو ذلك ثم يصل إلى وادي جفاف شرقي مسجد قبا وأوله من الماجشونية ثم يمر كذلك إلى أن يمر غربي سور المدينة إلى طرف المصلى ثم يخرج إلى غربي سلع وقرب مساجد الفتح ثم يمر كذلك إلى أن يلتقي مع العقيق بالغابة حيث مجتمع الأسيال فقد روى البزار وابن أبي شيبة مرفوعا عن عائشة رضي الله تعالى عنها بطحان

على ترعة من ترع الجنة ويخرج الناس للتفرج فيه وعلى حافتيه منازل كثيرة لأهل المدينة قد جعلت لها شبابيك ومجالس إلى ناحية الوادي وعليه قنطرة كبيرة قرب المصلى وقلما يخلو أعلاه من ماء يسيل به نجلا يقوى إذا كثرت الأمطار ويقل إذا قلت.

ومنها وادي قناة وهو أعظم أودية المدينة سيلا فإن سيله يأتي من الأماكن البعيدة يروى أن تبع نزله فلما شخص منه قال هذه قناة الأرض فسمي به ويسمى أيضا بالشظاة. وفي القاموس أنه عند المدينة يسمى قناة ومن أعلى منها عند سد نار الحرة يسمى بالشظاة.

قال ابن أبي شيبة وادي قناة يأتي من وج أي وج الطائف، وقال المدائني قناة واد يأتي من الطائف ويصب في الارحضية وقرارة الكدر ثم يأتي بئر معونة ثم يمر على طرف القدوم في أصول قبور الشهداء بأُحد ثم ينتهي إلى مجتمع السيل بالزغابة.

وقال ابن ذبالة سيل قناة إذا استجمعت يأتي من الطائف وهو أحد فحول أودية العرب فيأتي من المشرق حتى يصل إلى السد الذي أحدثته نار الحرة بالمدينة وانقطع هذا الوادي بسببه ثم انخرق سنة تسعين وسبعمائة فجرى الوادي سنة على ما بين الجبلين وسنة أخرى دون ذلك ثم انخرق بعد السبعمائة فجرى سنة أو أزيد ثم انخرق سنة أربع وثلاثين وسبعمائة بعد تواتر الأمطار فجفر واديا آخر غير مجراه الذي هو على مشهد سيدنا حمزة قبليه وقبلي عينين وبقي المشهد وعينين في وسط السيل نحو أربعة أشهر لا يقدر أحد على الوصول إليهما إلا بمشقة وكان أهل المدينة يقفون على التل الذي خارج باب البقيع فيشاهدونه ولو زاد مقدار ذراع في الارتفاع وصل إلى المدينة ثم استقر في الوادي بين القبلي والشمالي قريبًا من سنة وكشف عن عين قريبة قبلي الوادي جددها الأمير ودي ثم دثرت وهذا الوادي هو الذي ورد في الصحيح في استسقائه صلى الله عليه وسلم أنه سال شهرا وأهل المدينة يخرجون إلى موضع أعلاه

من ناحية المشرق وراء الحرة فيقيمون فيه الأسبوع وأكثر.

وقد ذكر السيد من جملة أودية المدينة وادي رانوناء كعاشوراء ووادي مذينب مصغر مذنب ووادي مهزور بفتح فسكون آخره راء وهذه الأودية كلها ترجع إلى بطحان.

قال الزبير بن بكار ثم يلتقي سيل العقيق ورانوناء واذاخر وذي صلب و ذي ريش وبطحان ومعجب ومهزور وقناة بزغابة وسيول العوالي هذه تلتقي بعضها ببعض قبل أن تلتقي بالعقيق ثم تجتمع فيلتقي العقيق بزغابة عند أرض سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وذلك عند أعلى وادي أضم سمي به لانضمام السيول واجتماعها به.

قال الزبير ثم تمضي هذه السيول فتنحدر على عين أبي زياد والصورين في أدنى الغابة ثم يتلقاها وادي نظما ووادي نعمان أسفل عين أبي زياد ثم تنحدر وتلقى وادي ملل بذي خشب وظلم والجنينة ويلقاها من الغرب بواط والخرار ومن المشرق ذراوان ثم الأئمة ثم يلقاها وادي رمة من الشام ووادي برعة من القبلة ثم يلتقي هو ووادي العيص من القبلة ثم يلقاه وادي احجر ووادي الجزل الذي به السقيا والرحبة في نخيل ذي المروة ثم عمود في أسفل ذي المروة ثم يلقاه واد يقال له سفان حين يمضي إلى البحر عند جبل يقال له أزاك ثم يدفع في البحر من ثلاثة أمكنة يقال لها اليعبوب والنبجة وخفيف.

قال السيد وذكرنا في الأصل ما في كلام المطري من المخالفة لما ذكر وأن مصبه في البحر من ناحية اكرى في طريق المصري.

قلت وهو الوادي المسمى اليوم بالاكره على ألسنة الحجاج شرقي الوجه بينه

وبين الوجه مرحلة[١].

تتمة فلما لاح لنا لائح الافتراق، وانقدح زناد الاشتياق، تحركت الأحشاء، وذابت الأكباد وانهمرت العيون بالبكاء، وأصابت النفس العبرة فكادت ان تزهق الروح من شدة ما أصابها من ألم الفراق واضطرم القلب وانحراق من قوة ما وجد من عذاب البين ومفارقة الصديق الأمين صلى الله عليه وسلم فلم يوجد زمان أحلى وأعذب من زمان الوصول إليه ومشاهدة حضرته والتلذذ في محاسن روضته ولا أشهى من الوقوف بين يديه.

نعم ولا أصعب من يوم فراق دائرته وقد انغم القلب حزنا بل أعتل بعلة لا يعلمها إلا من وردت منه وخلقها عند قرب مفارقته فحرارة الجسم كادت أن لا تبرد وقلق القلب قد قوي وضل وهام فعز أن لا يهتدي.

وبالجملة فأمراض البين لا يعلمها إلا من شارك في هذا السبب وهو الذي أصابه ما أصابنا فعند ذلك ينتقي عند اللوم فلا مصيبة أعظم من هذه الآفات فأنا حيران وولهان، بكثرة الهموم والأحزان، وضرورة عند مفارقة الأحباب والخلان، نعم لما دنا وقرب السفر من المدينة المشرقة ظهر لي ترك السفر والرجوع في ذلك إلى الوطن ليزول عن الاشتياق بمجاورته صلى الله عليه وسلم فعزمت على المجاورة وسألت أولاد الفاضل الكامل ذي الحب والود في الله أولاد الشيخ الجملي إذ كان الشيخ صديقا لنا في الحجة الثانية عن المنزل أسكن فيه فقالوا نعم وفرحوا بذلك وسروا سرورا عظيما فذهبت لخيمتنا فأعلمت أهل الدار بذلك أعني النساء وقد أصابهن مرض شديد كاد بعضهن أن تصل إلى السياق وهي الحرة الجليلة الكريمة

(١) في نسختين ما نصه سقطت هنا ورقة ولم ينبه عن ذلك في غيرهما.

الطيبة النخبة الشريفة المتطلبة فإنها تقرأ نحو الربع وتحفظ بعض الأذكار كوظيفة الشيخ زروق وكانت تحفظ الصغرى للشيخ السنوسي وكذا بعض الرسالة لابن أبي زيد حاصله في غاية الأدب والفهم والفطانة بنت الشيخ الفقيه النزيه الفاضل الكامل صاحب الفضائل والفواضل الشريف تحقيقا سيدي عبد الله بن رحاب من أولاد الشيخ سيدي رحاب المتوطن في أولاد دراج ومحلهم الولجة فوق قمر تحت جبل بو طالب مشهور عند الناس من غير التباس وقد حج معنا فلما أشرفت على الموت وجدت عذار عند الحجاج إذ لا يستطيعون مفارقتي واسمها عويشة وكذا أختها فاطمة زوج ابني والأخرى زوجتي بنت الشيخ الفاضل المحقق المتكلم العالم الصالح خطيب وقته وفريد عصره لا سيما في أصول الكلام سيدي المسعود بن عبد الرحمن جدها من قبل أبيها وهو منسوب للشيخ أبي محمد صالح الدكالي المعلوم في الكتب الذي أخذ عن الشيخ أبي مدين وعن الشيخ سيدي عبد القادر في القرن السادس ومحله بنو عيدل بلد الشيخ القطب سيدي يحيى صاحب الوظيفة المشهورة في وطنه وقد شرحتها والحمد لله وهو شيخ الشيوخ رزوق وقد قيل انه هو الذي ملكه مشارق الأرض ومغاربها نفعنا الله بهم وأفاض علينا من بركاتهم.

نعم لما ظهر ذلك عند الركب اجتمعوا ونادوا بالويل فقالوا والله أن أقام أقام جميعنا فلما رأيت شدة اتصالهم بنا وكثرة عويلهم علينا وقالوا إن خصه ما يوصله جمعنا له ما يبلغه إلى وطنه بل ما يغنيه علما منهم بأن الذي حملني على الإقامة قلة الزاد لا سيما وان الشيالة أعني أصحاب الإبل هربوا لي فقلت والله لا أقبل درهما من أحد إذ لا أحمل المنة وغاية أمري أقبل السلف لأني ملي في بلدي وعند ذلك ذهب سيدي عبد الله بن رحاب وسيدي أحمد بن حمود وكاتب الحاج ابن فانة شيخ العرب الذي هو محبنا سي عيسى فاشتروا لي ثلاثة جمال لحمل الأهل وعند ذلك ظعن الركب المصري والمغربي فتأخرنا عنهم لشراء حوائج الإبل وعلفهم لأن أبني محمد ذهب لذلك مع

ابن عمنا سيدي عيسى الشريف فلم يبق إلا خيمتنا فرفعناها وركب الأهل لأنهم ودعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلا فلما انفصلوا في آخر الركب خفّنا عليهم غير أن الله حفظهم وأنا بعض الأصحاب منتظرون ولدي وحين وصوله إلينا ذهبت لأودعه صلى الله عليه وسلم مع من كان معي من الحجاج فدخلت مسجده صلى الله عليه وسلم وقصدت قبره الشريف وعلتي قد زادت فلم أجد لها درياقا سوى الصبر.

نعم لم يبق مودع إلا المعظم المكرم الشريف الفلالي أمير الركب منها فوقفت بعض وقوف عند قبره ثم أني دخلت إلى الشيخ الصفي الودود النقي ذي الأحوال الصادقة والأنفاس الطيبة والأعمال الزكية والمواجد الإلهية والمعارف الربانية والعلوم اللدنية صاحب الأوراد والمريدين الشيخ السمان القرشي المدني إذ داره عند باب البقيع فوجدت الود الصدوق والخل الفاروق سيدي محمد الشريف الطرابلسي مع بعض أصحابه فأطعمنا خبزا ولحما وما أحسنه من طعام فلم أذق طعاما مثله ثم ودعناه عند ذلك توديعا تاما قويا إذ نظر إلينا نظر رحمة علمنا منه أنه سقانا بتلك النظرة إذ وجدت أثارها في الحين ثم أوصاني بشرح الصلاة المنسوبة إليه وهي صلاة عظيمة[1] تكاد أن تكون كصلاة الشيخ عبد السلام بن مشيش فعلمت أن الشيخ لاحظني بخاطره وإن كنت لست أهلا لشرحها ففتح الله بعلوم لا تكاد توجد في عصرنا ولا غرابة في ذلك وعند انفصالنا من داره رجعنا إلى توديعه صلى الله عليه وسلم وعظم علي أمر التوديع حتى علا صوتي وارتفع وكاد أمري إلى العويل بل أنوح عليه نياح الثكلى العديمة لولدها وكيف لا وهو أن فراقه أعظم المصائب ولم انفصل عنه إلا بصبر عظيم وهول جسيم وحزن شديد فلم أملك نفسي عند ذلك فعظمت المصيبة وعز الصبر غير أن تسليت بانتقاله من دار الدنيا وفراق أصحابه ثم خرجنا منه على أصلح حال ومنة

---

(١) في ثلاث نسخ غميضة.

عظيمة مع ما كان في القلب من مرض البين وحرقه واضطرام الفؤاد بسببه مسرعين في أزقة المدينة إلى أن خرجنا من الباب الذي يخرج منه الحجاج وإذا بالناس منها يقولون أن العرب يضرونكم ويؤذونكم لا سيما أني تخلفت منتظرا لحمل القول على الجمل فركب ولدي وكذا سيدي عيسى المذكور ثم لحقت بالأخ في الله سيدي محمد المحفوظي يريد المجاورة والإقامة بها فألححت عليه بالذهاب فامتنع فزجرته وقلت له تترك زوجتك خالية عن الزوج فأجابني بأني بعثت لها ما تنفقه حتى أرجع وان اختارت التزويج فلها ذلك وكذا البقاء ثم قهرته على المشي معنا فقال أعاهدك أني أقدم بعدكم من الينبع إلى الصعيد وإلى مصر فلم أقبل منه بل ذهب معي إلى أبيار علي ثم فر من هناك إلى الآن والحالة خرجنا منها مع الخوف والحرامية يتبعون وراءنا إلى أن وصلنا إلى الركب.

وبالجملة فأنا أقول في ذلك كقول شيخنا المذكور وأتمثل به ما نصه ولقد أحسن القائل:

ما اشتفت علتي وهذا فراقي	قد تحققته بسير رفاقي
هذه مهجتي تذوب دموعا	فانظروها تسيل من آماقي
كبدي تلظي وعيني تهمي	هكذا فليكن بديع الطباق
يا رسولا لنا أتى بكتاب	لم تُعَارَضْ آياتُه باتفاق
والكريم المعراج والبرق خلاني م.	طربحا إذ سار فوق البراق
والذي اقتص من قلوب غلاظ	أبت الحق بالسيوف الرفاق
يا مزيل الغماء أن جل خطب	يا شفيع العصاة يوم التلاقي
آن عن قبرك الشريف انصرافي	وانصرامي وما شَفَيْتُ اشتياقي
ولئن كنت قد بللت غرامي	بالتثام الثرى فعندي بواق

وقفة بي تجاه حجرتك الغمراء م ... سارت ممالك الآفاق
اتمنى أني بها أتملى ... في محل خلاه لي خلاقي
موقف لذلي خضوعي فيه ... حين أطرا تأدبي أطواقي
وتلذذت فيه حين تذللت م ... ونلت الأفراد بالأرفاق
معدن الخير مهبط الوحي مثوى ... خير هادي الورى على الإطلاق
كيف أسري من طيبة لسواها ... وهي عندي حديقة الأحداق
آه وَالَوْعَتي أفارق منها ... مثل هاذي الأنوار والأشراق
أنا عبد قد اثقلتني ذنوبي ... لم يَلِقْ بي إلا إليها أباقي
أترى يسمح الزمان بعودي ... فالأماني علالة المشتاق
لا يكن ذا الوقوف آخر عهدي ... بك يا منبع الهدى الدفّاق
فالكريم الوهاب ذو الفضل حي ... والذي عنده من الجود باق

ثم أني سرت مع بعض الأصحاب، والدموع في الأماق أي انسكاب، ومشينا وزاد التصبر ينهب، والقلق قد أطنب، في توقده أسهب، إلى أن قال وينشد:

لما ترحل ركبنا عن طيبة ... ووجدت عندي للرحيل محركا
أودعت في الحرم الشريف حشاشتي ... ورجعت لا أدري الطريق من البكا

قلت وأما نحن فقد انفصلنا بين الظهر والعصر وفقد كل واحد منا الأصطبار، وزال منا أيضا الاختيار، لأن العبد مجبور في قالب مختار، وإلا فكيف يفارق الخيار.

نعم الأرواح باقية في عوالم الأسرار، فلولا ذلك لانتقلت من الجسوم بالدثار، ولما نزلنا أبيار علي إذ هي أول منزلة بعد فراق المدينة الشريفة، وفارقنا تلك المعاهد التي على الكواكب منيفة، رأيت مكانه على الركب وأهله خمول خمود، وعلى مطيهم

وجمالهم حمول جمود، ذاقه هذا من ذاقه، وتحققه من لقلبه بعد الإيمان أدنى علاقة.

يــا لَـيْلَى مــا جئــتكم زائــرا إلا وجــدت الأرض تُطْــوىَ لي

ولا انثنــى عزمــي عــن بــابكم الا تعثــــرت باذيــــالي

ثم بتنا تلك الليلة وافترقنا عند المغرب لإتيان ما تتعشى به الإبل فصلينا المغرب في تلك البساتين إلى العشاء فرجعنا إلى الأخبية وبتنا خير مبيت إلى طلوع الفجر ظعنا وأعقل الركب المطايا، واستخرج خبايا شوقه لأهله من حنايا الزوايا، فسرنا مع العافية والسلامة من كل مكروه والحالة أني راكب على بغلتي مع من ركب على البغال من أصحابنا في شوق ووجد وحرق ونحن كذلك إلى أن وصلنا والله أعلم قبور الشهداء بين الظهر والعصر والركب المصري نازل هناك إذ سبق من المدينة ونحن ركب الجزائر وراءه وإن كان عادة المغربي السبق في الإياب وإنما سبقناه عند الينبع ثم خلفنا تلك المنزلة وسبقنا وتركنا الركب المصري هناك إلى أن تجاوزنا العشاء الأخيرة فنزلا في الوادي ثم أن الركب المصري سبقنا في الليل وأصبح في الصفراء وقد بتنا هناك في عافية ثم بكرنا قبل طلوع الفجر ووصلنا الصفراء عند الزوال ونزلنا وراء المصري لتعذر المرور في وسطه من شدة الضيق فبتنا هناك خير مبيت واستقينا من العين الكبيرة ورجعنا إلى خيامنا وبين هذه المنزلة وقبور الشهداء مسجد الغزالة وقد زرناه مرارا والحمد لله.

ثم أقام الركب المصري فيها إلى قرب الظهر ثم ارتحل المصري وارتحلنا بعده بعد الظهر وما ذكرناه من النزول وراء الركب بل نزلنا تحت القرية في القيلولة ثم ان الشيال الذي اكترينا عليه من مكة الذي هرب لنا ببعض الجمال وترك البعض في يدينا ولم يعتبره لشدة غلاء الفول وحصلت لنا مشقة عظيمة وكربة قوية إذ طلبناه في بدر عند الأمير فلم يتفق لنا الاستواء معه لكثرة فجوره وتحيله فاختفى في المصري فرارا مما

يلزمهم منا شرعا ثم اشتكيت لأمير مصر حاله حين نزلنا الصفراء فوعدني بالاستخلاص منه عند المدينة ولما وصلنا المدينة ذهبت إليه فأمرنا إلى كيخة الصوان[1] إذ هو الذي يحكم بين العرب وغيرهم فأمرني بترك الثلث من الكراء فلم أرض إلا بالربع فاختفى عند ذلك أيضا فلما شكوت له المرة بعد المرة أمرني بالذهاب إلى آغة عسكر المغربي فأمرني بترك الثلث أيضا وظننت فيه وفيمن سبق عدم نصحي فلم يكن الأمر كذلك بل نصحاني جازاهما الله خيرا ولما امتنعت هرب واختفى ولم أجد له خبرا إلا عند الصفراء فوجدته مارا ومسكته عند الظهر فضاقت حيلته ولم يجد سبيلا وأتى أهله لتسريحه فامتنعت من أطلاقه حتى آخذ ما أعطيت له وهو تسعون ريالا بوطاقة ولما حان وقت الظهر ذهبت للصلاة وخفت أن يهرب وتركته في خيمة الفاضل الكامل سيدي عبد الرحمن بن قري وأصحابه الحاج محمود والحاج بلقاسم بن دحمان اليعلاوي مسكوه فلما قاموا إلى الصلاة تركوه في يد شيال آخر فهرب منه فتبعه فاختفى فلم يلق له أثر واختفى في الركب المصري فأدرت أن أغرم الذي تفلت من يده ظنا مني انه هو الذي أفلته فأصابتني شفقة عليه حين رأيته يبكي ويحلف أنه ما تفلت منه اختيارا ثم لما ارتحل الركب المصري ولم يبق منه أحد وتبعه المغربي ولم يبق منه شخص وبقي العبد وابنه وتخلفنا لكثرة الدبش وقلة الأصحاب إذ منهم مريض ومن لا يستطيع الخدمة مع ضعف النساء ومرضهن فاحتجنا لكثرة اليد غير أن الله تبارك وتعالى عصمنا من تكشيط العرب وسبلهم لنا إذ كل من مر منهم يقول لنا شيلوا بسرعة واحفظوا أنفسكم.

ولما انفصل المرحول من مدشر الصفراء تخلفت مع بعض الناس من الركب الفلالي وقع بهم ما وقع بنا من التخلف غير أن المراحل شبقت ووصلت إلى الركب

---

(١) في ثلاث نسخ السيوان وفي نسخة الصيوان.

وتخلفت مع هذه الرفقة فبعضهم يمشي على الرجل وبعضهم على البغال وقد صحبوا السلاح والبنادق فلم يصبنا خوف ولا روع ونحن في جماعة من العرب في أطراف القرية فلم تقع لهم عين سوء علينا بل فرحوا بنا فرحا شديدا فمنهم من يطلب الدعاء ومنهم من يقول لا تخافوا فلا بأس عليكم ولا ضرر لديكم وشيعونا إلى أن برزنا عن بساتين العمارة وأرونا الطريق التي نسبق فيها الركب أحسن الله إليهم وأجزل لهم الثواب فمشينا سويعة من الزمان وإذا الركب قد سبقنا الأكثر منه فافترقنا لما دخلنا وسطه إذ كل ذهب إلى رحله فكنت أنا أطلب رحلنا فلم يتبين لي غير أني وجدت رحل الفاضل الأديب الود الصدوق الخل الفاروق سيدي محمد بن القاضي الملقب أبا وغثوش[1] أمير زواوة راكبا في محفة مريضا مرض الإسهال فلما وقع بصره علي فرح بي ورحب وضحك وسألته عن مرضه وحاله فأخبرني بأنه أشتد مرضه في المدينة وبعد خروجه منها ثم كذلك استمر عليه الحال بعد أن عزم أن يقيم بالمدينة المشرفة لظنه الموت فضيق عليه بعض الأصحاب بأن أمره بالعزم على السفر لعل الشفاء يحصل فخرج راجيا ذلك ومنتظرا ما هنالك فقلت له لا يكون معك إلا الخير والعافية إن شاء الله فقال متأسفا لا أظن السلامة أو كلاما يقرب منه فعاودته الدعاء بالبرء.

ثم قال احكي لك رؤيا أني رأيتها فقلت له وما هي[2] فقال أني رأيته صلى الله عليه وسلم وكنت أسأله الشفاعة أو كلاما هذا معناه وأعيد له ذلك المرة بعد المرة حتى قال لي أني شفعت فيك أو[3] أنك مغفور لك أو[4] لا تخف مما هو حاصل هذا المعنى فسرني

(١) في نسخة وعشوش وفي أخرى وعثوش.
(٢) في ثلاث نسخ وما هذه.
(٣) في نسخة و.
(٤) في نسخة و.

ما رأى وطمعت في البرء له بيد أني لما أخبرني بأنه صلى الله عليه وسلم بشره[1] بالمغفرة خلت موته ثم أني صحبته كذلك راكبا على بغلتي وهو راكب على جمله إلى بعيد المغرب وأتى علي[2] وقته فارقته ثم نحن كذلك نسير إلى العشاء بعدها بسويعات وزمان نزلنا قرب الاستشراف على المضيق قرب الجبل إذ لا يمكن سيره لصعوبة الطريق وكثرة الأحجار وضيقه بين الجبال فليشكر الله من خرج منه على عافية وسلامة وطيب وقت في نفسه ومع ذلك تكثر فيه فساق الغرب ومحاربوهم قل أن يخرج الركب سالمين منهم فبتنا فيه خير مبيت فلما قرب الصباح ظعنا منه ووصلنا المضيق الوعر والركب المصري قرب وصوله موضع النزول فسرنا في ذلك الوعر رويدا رويدا وخرجنا منه على سلامة وعافية ومع ذلك دارت العرب ببنادقها مع ضرب البارود في أطراف الركب فعلي النداء والصياح فانحجم أول أول الركب وربضوا[3] إلى أن وصل سلطان فزان في تخته مع أصحابه فسلم الحجاج وركبنا والحمد لله نعم كل من مر على هذا المضيق قل أن يسلم من المحاربين.

فلما اجتمع الركب سرنا على بركة الله وحسن عونه إلى أن بلغنا المنزلة التي بعد نقب علي وهي مشهورة ولما أن استقر بنا القرار في يوم حلا لا قر وفي تلك المنزلة شجر كثير وفيها بئر عظيمة بعث لنا الفاضل سيدي محمد السابق ذكره وهو ابن القاضي أنا والمحب في الله سيدي أحمد بن حمود وسيدي احمد الطيب لكونه أشرف على الموت فأوصى الجميع على حوائجه وحسبنا ماله وعلمنا به أين كان والحافظ له سيدي احمد بن حمود اد بيّنه[4] هو وقد وصيناه أيضا لأنه هو الذي يصون أموالنا وعند الظهر

---

(١) في ثلاث نسخ بشرني.

(٢) في ثلاث نسخ وتاغل.

(٣) في ثلاث نسخ ريضوا.

(٤) كذا في ثلاث نسخ وفي واحدة نوبه.

أخذت الناس في الرحيل والتأهب للسفر فصلينا الظهر وعند ذلك ظعنا منه على أتم حال وأبركه فتقدم المصري وتأخر المغربي من حيث هو فانفصل الجميع عن المنزلة نعم تخلفنا آخر الركب حسبما عادتي أنا وسيدي أحمد الطيب وسيدي محمد الشريف الطرابلسي صونا للذي يتأخر من ضعفاء الحجاج ممن ليس له مركوب كالدراوشة فربما يقع لهم الضعف فيكون جميعنا في عونه فسرنا آخر الركب رويدا رويدا إلى أن صلينا المغرب ثم كذلك إلى أن صلينا العشاء ثم كذلك إلى أن سرنا سويعة بعدها فاخبرونا بموت أن القاضي المذكور فاجتمعنا لتجهيزه ليلا وهي مقمرة فنزل الركب ذلك الوقت فحفرنا له وكفناه وصلينا عليه أي جميع من كان من الفضلاء في الركب وعلمنا قبره وهو بين تلك المرحلة ومنزلة الينبع وأصابنا بموته مصيبة عظيمة لم أنسها إلى الآن لأن ظننا أن يرجع إلى بيته سالما ينتفع به العامة والخاصة غير أنه لما تاب وقبلت توبته مات بمرض البطن فهو شهيد وفي طريق الحج وانه غريب فكل واحد من هذه الثلاثة تقتضي الشهادة لأن الشهداء غير شهداء القتل معدودون وقد حصر عدهم الشيخ اليوسي في حاشيته على كبرى السنوسي ولقد أجاد في ذلك وما ظننت أحدا أنه ذكرهم كذلك فأنظره وكذا الشيخ إبراهيم الشبراخيتي في الجنائز في شرحه لمختصر خليل ثم ارتحلنا آخر الليل وظعنا من ذلك المحل وتبعنا المصري وعند صلاة الصبح أشرفنا على الغيضة الملتفة بشجر أم غيلان القريبة من الينبع فإذا أنا في التغليس بعد صلاة الصبح جماعة وما فاتتني ركعة والله اعلم في جماعة منذ خروجنا من بلادنا إلى أن رجعنا إلى بيوتنا وذلك مع الفضلاء في أكثر الأوقات والحمد لله وإذا برجل أتاني على رجليه زي الأعراب غير انه ليس عليه آثار السفر تشم منه رائحة الولاية فلما دنا مني أصابني منه الرعب والفزع ومع ذلك أسير مع أصحابي الفضلاء الذين أسير معهم على العادة المألوفة والحالة أني مشتغل في ذلك الوقت بالوظائف والأذكار الواردة بعد صلاة الصبح نعم أخذتني شبه سِنة وأنا راكب على بغلتي متفكر في أمر الجمال التي

تركها الشيال في يدي بأن أسلمها أهلها فصعب علي شراء الفول وكذا القيام بها إذ شغلني أمرها أتم شغل بل تشوش خاطري غاية فلم أجد مسلكا من ذلك فكلما أمشي إلى الظلام وأرباب الدولة إلا ظننت انه ذهب ديني بل قال لي العارف بالله سيدي محمد الشريف الأخ المذكور لما ذهب مرة معي في شأن ذلك وأصابه من الجلوس بين يدي الملك ما أصابني فقال لي سلم في هذا الأمر وأتركه لله فأخذ ذلك الكلام بمجامع قلبي فكنت أسأل الله الخلاص منهم ولو بالموت أي موتهم نعم قلبي متعلق بذلك الرجل إلا أنه استولت هيبته وجلالته علي فلم استطع كلامه وأنا أسير وهو يسير معي ملاصقا ركبتي أظنها اليسرى فلما تمكن منه قلبي وملأت عيني من نظره من غير نطق مني إجلالا وتعظيما له علما مني أنه أحد أصحاب الوقت إذ يعلوه نور ونحن كذلك فإذا هو دفع لي مسواقا رقيقا يساق به مثل البغلة لراكبها كأنه عود الأراك أو من الريحان فلم أميزه لما فيه من اليبس فلما وصل إلى يدي شممت منه رائحة المسك بل أقوى رائحة وتلك الرائحة لا نظير لها كافورا أو عنبرا أو زبدا أو مسكا فهو أي ذلك العود يعبق شذاؤه وبلغت تلك الرائحة جميع جسدي فذاقها الجميع مني ذوقا معتبرا وعند مده ذلك العود فارقني بان قال لي خذ هذا ففهمت أن الله فرج عني إذ منذ دخلت مكة وأنا في كرب إلى الوقت الذي لقيني فيه ذلك الرجل الكامل فزال عني كل ذلك ببركته فعلمت أنه ما جاء[1] إلا إغاثة لي ثم أني أخذت ذلك العود في يدي مستحسنا لتلك الرائحة ومتعجبا منها ومنتظرا الخلاص من تلك الجمال فاستصحبته معي إلى أن نزلنا الينبع وأقمنا به ونزلنا قرب العين في عافية وسلامة فوجدنا كل خير في سوقه مع رخاء الأسعار والحمد لله.

وبعد ذلك اليوم بعت تلك الجمال دينا إلى أن وصلنا إلى مصر فسرني بيعها لأنها

(١) في نسخة فعلمت أن الله ما جاء به.

نعمة عظيمة وكأني بعدها متجرد فلم يشغلني شيء ولا همني أمر سوى ما أحمل عليه شئوننا وحوائجنا فطلبت الكراء فلم أجده فنويت الإقامة في الينبع بأهلي إذ ذهبت إلى شيخ الركب ليلا ليمهل بالرحيل من الينبع إلى طلوع الشمس ولعلنا نجد ما نحمل عليه بالبيع أو الكراء فرضي هو بالإمهال فلما سمع أكثر الركب بانتظاره أيانا تحزبوا أحزابا إليه وحركوه إلى السفر ليلا قاصدين سبق المصري إحياء لعادة الركب المغربي لأنه يتقدم في الرجعة فاجمعوا على ذلك ولو أداهم إلى القتال زعما منهم أنهم يستطيعون محاربته وذلك سخافة عقل وتصرف ببضاعة وهم وإن سلّمنا تأتّي الحرب منهم فلا نسلم دخولهم مصر إذ فيها أربعة وعشرون بابا وفوقهم الباشا الذي يأتي من مدينة أصطنبول كل عام ما استوفى أحد عامه إلا ذهب وأتى غيره مع القاضي وذلك دأبهم فالعسكر المصري الذي يذهب مع الأمير وقوته غير موجودة في عساكر(١) ما رأيناه وإن ركبنا المغربي من إسكندرية إلى أقصى المغرب ركب واحد إلا الركب الفاسي فانه يذهب في وسط المصري يمشي ليلا وأما المغربي فبالنهار نعم ما طلع ركب من المغرب قط أقوى من ركبنا ذلك العام وقد تعجبوا منه في مصر وفي طرابلس وقالوا فيهما أن هذه الإبل التي كانت في ركبكم لم تكن مولدة من النوق وإنما هي مجتمعة من الحطب أو الرمل حتى صارت في مصر كالمعز فلا تجد أحدا يسأل عنها لكثرتها وقد عم بيعها أرياف مصر وأطرافها من العرب وأكثرها بيع بالدين إلى الرجعة ولم يقتضوا من دراهمها إلا القليل.

نعم وافق الشيخ رأيهم فسافر معهم فبقيت أنا وأهل بلادي ممن شغله أمري بان تخلف معي كسيدي أحمد الطيب وجملة زوارة وسيدي أحمد بن حمود وجملة أهل بلادنا وسيدي محمد الشريف الطرابلسي وأصحابه وسلطان فزان وركبه إلى طلوع الشمس

---

(١) في نسخة زيادة غيره.

على أن شيخ سيدي محمد المسعود نجل الشيخ البركة سيدي محمد الحاج الدكالي المعلوم بعث لي جملا في الليل أحمل عليه جازاه الله خير ووقاه ضرا وجعل البركة في أولاده أعانني به فلما أصبح الله بخير الصباح وقع بيننا وبين ركب فزان شنآن لأن أهل وطننا فيهم الجفاء والغلظة وسوء الأدب وعدم أذعانهم للحكم وسلطان فزان رجل عدل قائم بالأحكام لا سيما أمور السياسة فثقل عليهم المشي جميعا وربما صرحوا بالقول لما يجدونه مما ذكرناه في أهل وطننا ومع ذلك فيه رغبة لصحبة الفضلاء منا فلم يكترث بما وقع من سوء الأدب من أصحابنا مع أصحابهم.

وأما الركب الجزائري فلا حكم عندهم أصلا ولا يقفون عند الأمر والنهي لا سيما أهل عامر فما فارقهم أحد في هواهم ألا أبغضوه وجعلوه عدوا وقد أصابتني منهم عداوة عظيمة من أجل أني آمرهم بالسنة والقيام بالأحكام الشرعية لا سيما السير بسيري الشيخ والنزول بنزوله وستر نسائهم لأنهن يذهبن مكشوفات العورات فيبدين زينتهن لكل الناس بل يتزين لأجل ذلك ليرعن من فتن بهن فأردت إقامة الحد عليهن وعلى أزواجهن فصارت لي فتنة عظيمة غير أني من عاداني منهم ببركة السنة لم يرجع إلى بيته فأظهر الله أمري فتطيروا وتشاءموا بعد ذلك وتاب من بقي منهم بعد أن هلك من هلك منهم والحمد لله على إظهار السنة النبوية وقد قال تعالى: ﴿ تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ الآية وقال أيضا: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ وقد قال تعالى في مثل أهل عامر ممن يريد الوصول إلى الله بالدعاوي الكاذبة والزخارف البينة والأباطيل المزينة ﴿ يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ﴾ وقال أيضا في شأن مثلهم: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ وقال أيضا: ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ وقد سمعنا أن بعض الفاسقات ممن يزعم الأحوال الربانية والمواجد الإلهية ممن استولى الشيطان عليهن وسولت أنفسهن لهن تتعرض بنفسها للرجال وتزعم أن من لم يوافقها في غرضها الفاسد ابتلي بمصيبة بل

قد تقول إن لم توافقني في غرضي أصابك كذا وكذا بان تعينه فيصير ذلك ويظن الجاهل المغرور المخدوع المخذول الشقي والعياذ بالله تعالى إن ذلك أمر رباني وكرامة منه تعالى لها وما هو إلا استدراج وقد قال تعالى: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ أي نأخذهم[1] إن كيدي قوي تحقيقا أنه إذا أخذ الظالم لم يفلته طرفة عين وقد سمعنا مثل هذا ممن يوثق به وكثير من الناس يحكيه فمنهم من يؤمن به ومنهم من يكفر به وأما التزين بالملابس الفاخرة والكحل والجوز استياكا والخضب بالحناء ولبس الحلي من الفضة وغيرها مع المشي في الأسواق واجتماع الشبان معهن ومن لا خير فيه والله يقول افعز عليه الصبر، وأحنى[2] عليه الكبر، فعظمت مصيبة فأمر مشهور لا يكاد يخفى على أوباش العامة فضلا عن الخاصة أما الجهال فيعتقدون أن ذلك من الدين معاذ الله ويأبى الله أن يكون ذلك دينا أو يكون الوصول إلى الله بحرام والحمد لله على عدم مسخهم أو يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء أي قطعة منها ويدلك على ذلك أنه تتجافى أنفسهم عن مخالطة أهل العلم ومباعدتهم إياهم فجمحت عن الاجتماع بهم فضلا عن الامتثال لأوامرهم واجتناب نواهيهم والله يقول: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ الآية.

وأما العلماء ممن فيه رائحة خير وحسن اعتقاد يقول فيمن هذا شأنه إذا اجتمع معهم ورأى المخالفة منهم أنهم من أهل التخريق والتلبيس عن أنفسهم إظهارا منهم للقبيح وإخفاء للحسن كما يحكى ذلك عن بعض الصديقين ممن سلف من أولياء الله تعالى فحشاهم أن يكونوا كذلك بل همه زنادقة خلته أنهم أباحوا المحرمات فقد تطبعوا بطبائع المرجية لأنهم يعتقدون أن لا آثم مع الإيمان فهذا أمر لا يليق بالعلماء بل

---

(١) في ثلاث نسخ نؤخرهم.
(٢) في ثلاث نسخ وحن.

يجب عليهم زجرهم والنكر عليهم ما استطاعوا لقوله صلى الله عليه وسلم إذا رأى العالم بدعة ولم يغيرها فعليه لعنة الله أو كما قال وقد قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ الآية والعلماء خيار من خيار وأمته صلى الله عليه وسلم خير الأمم والعلماء هم خيار الأمة ولذا كانوا خيارا من خيار.

وأما السلاطين فيجب عليهم النكير والتغيير باليد إذ وظيفة العالم اللسان ووظيفة السلطان اليد لكن لما سكت العلماء زاد الناس في البدع واتسع الخرق على الرافع.

نعم فإن من يقتدى به من أهل العصر ممن ينسب إلى العلم بل إلى الصلاح يجلس معهن ويظهر للناس ودهن ويعلم الناس أنهن صالحات قانتات يعني اللاتي ذكرهن في القرآن العظيم بل يزعمون أنهن من أهل الحضرة في اعتقادهم وبعضهن في غاية الجمال والحسن فيخاف على نفسه من زارهن من غير شك ومع ذلك تبقى هذه المزورة مكشوفة البدن بل تظهر محاسنها للشبان ومن لا خير فيه بل قصد أكثر الناس الغرض الفاسد أن وصل إليه حتى صار بعضهن مرصادا للزيارة فلما أتاني بعضهن لام علي من حيث أن أفضل العلماء خالطهن ليلا ونهارا وأظهر صلاحهن في مجالس العامة والخاصة وكيف بك يا قليل النية ويا كثير الحيلة أن لا تأتي إلينا وتكون معنا فقلت لهن لا يحل لكن الاجتماع بالأجانب والاختلاء بهم لقوله صلى الله عليه وسلم ما اختلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما وقال أيضا باعدوا بين أنفاس النساء وأنفاس الرجال وقال أيضا لو كان عرق الرجل في المشرق وعرق المرأة في المغرب أو العكس لتحانّا قلن في الجواب القلوب مع الله فلا علينا من الصور الظاهرة لقوله صلى الله عليه وسلم أن الله لا ينظر إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم فقلت لهن فإن لم يكن

لكن فتنة كانت الفتنة لمن أجتمع معكن فقالوا اللهم أهلكه وهذا كله ليس من السنة فأوصاف من هذا شأنه لا تعد ولا تحصى ولا تضبط ولا تستقصى فيجب أن نثني القلم إلى ما كنا بصدده وهو انه لم أصبح الله بخير الصباح رفع سيدي أحمد الطيب وسيدي أحمد بن حمود وأصحاب الجميع بل ظعن الجميع ممن كان في وطننا وأخذ في السفر والركب الفزاني لم يتحرك من موضعه يريد أن يضحي النهار ليقضي كل واحد حاجته من سوق الينبع فلم يذهبوا مع ركبنا الجزائري [ولا بقينا مع الفزاني ولا مع المصري بل انفردنا وحدنا فظعنا عند طلوع الشمس وانفصلنا وتخلف إخواننا في الله سيدي محمد الشريف وأصحابه مع الفزاني لأنه لا يليق به الجزائري][1] لما فيهم من الغلظة وسوء الأدب فلما غبنا عن الأركاب استقللنا أنفسنا ثم اجتمعنا وتقوى[2] بعضنا ببعض فسرنا كذلك في يوم حر لا قر وأن رأينا العرب انضم بعضنا إلى بعض فلم يستطيعوا الكرة علينا أبدا إلى أن وصلنا الخضيرة بأمن وعافية وسلامة فوجدنا الجزئري نازلا فيها فتعجبوا منا إذ بلغنا إليه قرب المغرب فظعنا منه بكرة وهذا الموضع لا ماء فيه أصلا فسرنا مع الركب إلى أن وصلنا إلى النبط بعد الزوال في يوم شديد الحر كادت النفوس أن تذهب من شدة العطش بل مات بعض الناس به ولما قربنا منزل النبط تحركت علينا ريح شديدة الحر مع حرارة الشمس بحيث من ذهب إلى رحله كاد أن يموت وأما من تخلف فلا تسأل عنه.

نعم تخلفنا في جماعة من الفضلاء في آخر الركب فأصابنا عطش شديد ونحن كذلك إلى أن أشرفنا على النبط فزاد بنا شدة الحر وقوة العطش وإذا بواحد من العرب لقينا بقربة من الماء فاسقى جميعنا ظنا منا أن هذا الشخص لم ير منا إلا الفلوس فشربنا الماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج فلا نعلم انه من ماء المطر أو من العيون التي في

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة والتقى.

الجبال فلما أتى عن آخرنا ارتقبنا منه أن يتكلم ويسأل الدراهم كما هي عادة عرب الحجاز أعني هَبَّ الريح فلم يطلب من أحد دعاء ولا سأل شيئا منه بل رفع قربته ولم يلتفت إلى أحد منا فعجب جميعنا منه ووقع في قلوبنا أن هذا الرجل من أهل الله وأنه من عباد الله الصالحة إذ يعلوه جلال وهيبة ونور فندم الكل من حيث أنهم لم يسألوا منه الدعاء ومع ذلك آثر بمائه العلماء من الركب وفضلاءه فزال ما بنا من العطش فنزل الركب قرب الآبار وازدحموا عليها لسقي الإبل وملء السقاية زحمة عظيمة حتى ظننا أنه لا يبقى فيها قطرة ماء بل بفضل الله يتزايد فاستقينا وسقينا وملأنا السقاية فزاد الماء من عنده الوسع لأن ماء الحوراء ليس بطيب وبعده الدركين المسمى الآن بالحنك لا ماء فيه وبعده الإكراه فماؤه أقبح وأقبح مرارة فمن شربه ربما أذاه وأوجب له المرض وعنده تتغير الوجوه وتسود قل أن يسلم الناس منه من الوخم أي المرض ومع ذلك أنه لا يحصل إلا بمشقة عظيمة من الحفر والاستسقاء بالأواني الصغار كالقدح وغيره فلا ينبغي للحاج أن يكثر الأكل في هذه المنازل لأن كثرته تستدعي الشرب الكثير والشرب الكثير من هذه المعاطن يؤذي كثيرا وربما أهلك وذلك مجرب صحيح وقلة الأكل تشد العصب وثاقا وتقوي الأعضاء فلا يظمأ صاحبها أبدا وضدها يرخي الأعضاء ويضعف البدن بل ربما أمرضه وبعده الوجه ماؤه عذب غير أنه قليل جدا فلا يكفي ماؤه عامة ا الركب أصلا وإنما يفترقون في الوادي الذي فوقه فيحفرون فيه حفائر وماؤه قليل فلا يحصل منه نفع إلا بطول المدة كعامة الليل والنهار بل ربما تشاجروا عليه فضعيف النفس أو الخدام أو الرفقة رجع منه خائبا فيكون ذلك سبب هلاكه وقد شاهدنا ذلك كله ولولا فضل الله علينا ما ملأنا السقاية ولا استقينا أصلا ولقد أحسن الله إلينا فلله الحمد والمنة.

ثم ارتحلنا من النبط ليلا وقد اجتمع فيه الركب الجزائري والفزاني والفلالي فلما ارتحل الكل اختلطت الأركاب فلا يعرف أحد صاحبه من كثرة الخلق ومن عادتي مع

سيدي أحمد الطيب وسيدي محمد الشريف وأصحابه ممن يركب على البغال أو الخيل إذا انفصل الركب نذهب جميعنا لتحصل لنا الصلاة في الجماعة وليستعين بعضنا ببعض حتى الغذاء نجتمع عليه من غير اعتبار الجميع فانتظر بعضنا بعضا فلم يوافق ذلك اليوم إلا سيدي أحمد الطيب فتخلفنا عن الركب فإذا برجل من الفضلاء من ركبنا تخلف رحله وهو مريض في كرمود على جمل والله اعلم أن زوجة ابنه راكبة أيضا في باسور فوقع الجمل في الأرض وأزال عنه الحوائج فلا عرفناه انتظرناه إلى أن استوى رحله وقام على جادة الطريق وإذا بالحجاج فأتونا فلم يقع لنا بصر على أحد ومع ذلك ضل علينا الطريق ثم ذهبنا مع سفح الجبل كذلك إلى أن سمعنا نباح الكلاب فقلت لسيدي أحمد يا حسرتنا قد هلكنا فقال كيف الفعل قلت له ها هي عمارة العرب ثم أني نزلت عن بغلتي وانثنيت إلى الجبل وبتعني سيدي أحمد ومن معه وأنا كذلك أتحسس من الركب فلم اسمع صوتا ولا همسا ثم كذلك إلى قرب انقطاع الجبل فتحسست منه أيضا فسمعت صوت سائقة الإبل وراء الجبل ففرحت غاية الفرح وبينما أنا كذلك إذ رأيت الركب يمشي فكان مشي الحجاج عن يمين الجبل ونحن عن يساره وهو على جمعهم إذا يشاء قدير فرجعت إلى سيدي أحمد الطيب فذكرت له الخبر بعد أن آيس من لحوق الركب فإذا ركبت بغلتي ودخلنا وسط الركب وكل هذا من بركة الصالحين لأن المنقطع عن الركب ما وصل قط سالما أبدا إلا من عصمه الله وصانه وذلك من الغرائب ونحن كذلك إلى أن نزلنا الحوراء بين الظهر والعصر فلما استقر بنا القرار وإذا بخبر عال ان الفاضل الكامل الحسيب النسيب شيخ الركب الفلالي سيدي محمدا جرحه العرب في النبط في آخر الركب وقالوا ما ضربوا إلا بندقة واحدة فجاءت فيه وهو رجل جميل شجاع حسن الهيئة راكب على فرس حمراء قال أصحابه لا يخاف أصلا فلم نذهب إليه ليلتنا تلك فسقينا واستقينا ظنا من الرحلة ليلا كما هي عادتهم فلما سمعنا بالشيخ المذكور انه في السياق انتظروه لطلوع الشمس ليدفنوه فلم يمت

صبيحة ذلك اليوم فذهبت إليه فوجدته قوي النفس كثير النهج فعلمت أنه قريب الموت غير انه يموت عن قرب فرجعنا فظعنا عند الضحى فنزلنا الدركين قرب الاصفرار وقد علمت أنه لا ماء فيه فبعد ذلك لحقهم الفزاني وظعنا منه إلى الأكره فنزلنا عند الظهر وإذا بخبر موت الشريف في الدركين ثم انه لما لحق بالركب الفزاني استطال العرب في آخره فسلموا منه وظننت أنهم قتلوا منه ونهبوه فظعنا منه إلى الوجه ووصلنا إليه والله اعلم بين الظهر والعصر فنزلنا تحت البرج وهو خال من العسكر وإنما يحفظه العرب فقط ثم أن الناس افترقوا على المياه في الوادي الذي أعلى البرج وأظنه المسمى بالزعفران فتبعه الناس إلى أعلى الوادي غير أنهم يخافون منهم خوفا شديدا لكن الناس طلعوا إليه بأسلحتهم وطلعت أنا وولدي محمد إلى أن هيأنا موضعا للسقي فرجعت إلى الخيمة قرب العشاء فلما ملئوا أسقيتهم رجعوا إلينا ليلا وان الفقيه الفاضل سيدي عبد الرحمن بن الزيعم العمري كان يسقي بغلته من البئر التي قرب الطريق فإذا بالحراميين أخذوا بغلته وذهبوا فأراد أن يمسك العرب فيها وأنا أريد أعانته فامتنع الشيخ من أعانته وكذا الكثير من الركب إذ خافوا منهم فذلوا وأن الفسقية التي تحت البرج مملوءة ماء فتركناها لأمير مصر بعدنا.

هذا وأنا ظعنا من الوجه صبيحة عند الأسفار فخاف الناس من العرب وأن العرب في بلاد الحجاز من عسفان إلى الينبع بلاد حرب ومن الينبع إلى الأكره بلاد جهينة ومن الأكره إلى ظبة بالظاء المشالة والباء الموحدة والهاء واد دون المويلح بلاد بلي ومنه إلى مصر بلاد الحويطات ومغارة الأعلوين وبني عقبة ثم ظعنا من الوجه وبلغنا اصطبل عنتر وبتنا فيه واستقت الناس منه ثم ظعنا منه صبيحة وسرنا كذلك إلى أن نزلنا الأزلم والله اعلم ليلا وماؤه حرف أي مر لا يصلح ولو لسقي الدواب ثم منه بكرة في آخر الليل ثم سرنا كذلك وبين هذه المنزلة والتي نصل إليها قبر سيدي مرزوق الكفافي والناس يزورونه وأنا لا أعرف قبره ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا آبار

دار أم السلطان والله اعلم عند العصر وبعد الظهر بسويعة وماؤه طيب من أحسن المياه فلا يكاد يوجد مثله في الدرب إذ هو محل طيب والأعراب كثيرة المكر فيه والخديعة قل أن يسلم الركب منهم ثم ظعنا منه في آخر الليل على خير وعافية إلى أن نزلنا بندر المويلح وأظنه قرب العصر وبتنا فيه ليلتين ووجدنا فيه ملاقية من مصر أتى بها بعض ملوك مصر ومعه عسكر عظيم فيه طعام كثير وبشماط كذلك ودقيق كذلك وفول أكثر الجميع وقد رخص يوم دخولنا البندركثيرا وبعد ذلك قد ارتفع غلاؤه فكأنه لم تكن ملاقية من مصر فاشترينا منه ما نحتاج إليه من دقيق وفول وبشماط ثم إن أكثر الشيالين هربوا على الحجاج فمنهم من فر بإبله ومنهم من تركها لغلاء العلف وقلة دراهم الكراء فهرب سيال سيدي أحمد الطيب بإبله فكان ما كان من قدر الله تعالى من احتياجنا إلى الكراء فأن أريد الكراء لحمل النساء وهو يريد الكراء له ولأصحابه فأتانا بعض الأعراب من البركة قد قدم مع تلك الملاقية فاكترينا منهم جميعا غير أننا خفنا منهم الخديعة والهروب كما كان ممن قبلهم فقال رئيسهم عهد الله لا أخذنا منكم درهما إلا بعد البلوغ إلى مصر فرأينا الفضل من الله تعالى والمنة فاكتري منهم جملين بأربعة عشر محبوبا فأحدهما ركب عليه امرأتنا في المهيأ والآخر ركب عليه ولدي مع زوجته في المهيأ أيضا وأحسنوا إلينا أحسن الله إليهم وجعل البركة لديهم فلم يقع منهم نفور ولا مشاجرة إلى أن وصلنا مصر فوفوا بالعهد أكرمهم بمنه وكرمه.

ثم ان سيدي محمد المسعود هرب شياله أيضا بإبله فبقي كذلك مطروحا في الأرض فظعنا آخر الليل على العادة المألوفة وتركنا المصري وراءنا فلما أخذ الناس في السفر سمعنا مناديا ينادي بان شيخ الركب لم يجد ما يحمل عليه فلم يلتفت إليه الركب بل ذهب جميعه وتخلف سيدي أحمد بن حمود وسيدي أحمد الطيب والعبد الزابر لهذه الرحلة مع أصحاب الجميع فرجعنا إلى منزل الركب فحططنا الرحال عند خيمة الشيخ فصلينا الصبح وانتظرنا من يكري له بعد سويعات كذلك إلى طلوع الشمس

وإذا بالشيخ قد اكترى لنفسه ولأصحابه والركب ذهب بأجمعه وتركنا وراءه فالبعض منا يقول ننتظر المصري لأنه يرتحل عند الزوال ومنا من يقول نذهب على بركة الله وحس عونه إذ نحن في جماعة كثيرة غير أن المحاربين إذا أتوا في كثرة فلا طاقة لنا معهم ثم وقع الاتفاق منا على المشي من غير تأخير ولا انتظار فعزمنا وارتحلنا ساعتئذ فظعنا منه فسرنا كذلك من غير بأس ولا خوف إلى أن وصلنا عيون الأقصاب فوجدنا ركبنا نازلا هناك فبتنا فيه خير مبيت ونحن لا سمن عندنا فاشترينا في هذا الموضع عكة سمن ونعم السمن هو ذوقا بل وضع الله فيه البركة العظيمة قد شاهدناها عيانا ونحن جماعة كثيرة.

وقد كان معنا في الزاد الفاضل الكامل سيدي علي نجل العالم الفاضل الخطيب المحدث سيدي عبد المؤمن البجائي الذي كان مفتيا فيها وسيدي علي هذا قد استوطن محروسة الجزائر وترك داره في بجاية أجزل الله خيره وجعل البركة في دينه ودنياه وكان لنا وله ولذريته بالخير والتوفيق والعلم والعمل والغنى والكفاف والزهد والعفاف إلى غابر الدهر ثم أن هذا السمن فيه خير عظيم وفضل جسيم وما شاهدنا ذلك إلا من الإحسان لإخواننا في الله مثل الود الصدوق والخل الفاروق ذي الفضائل والفواضل والمتوكل على الله الزاهد في الدنيا الراغب في الله سيدي الصالح الغربي[1] وقد شاهدنا فيه أمرا عظيما وكيف لا وهو تلميذ العالم العامل الورع لزاهد المتخلي عن الدنيا رأسا المتبتل المدرس المقتفي أثاره صلى الله عليه وسلم سيدي أحمد بن باباس الفليسي وقد أدركته وزرته في محله المعلوم وتبركت به وقد حصلت لي بركته والحمد لله وكذا ولده وقد صاحبته وجعلته أخا في الله وهو فاضل عالم متعبه زاهد ورع متمكن عارف منعزل في خلوته مدرس له كرامات عظيمة ومراءٍ طيبة قد زبرها تلامذته وقد

(١) في نسخة العربي.

رأى الله مرارا في النوم وكذا النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيدي المحفوظ وان سيدي الصالح هذا صهر الشيخ أيضا قد انفعلت سريرته له وظهرت آثار فضله عليه فلله الحمد على كونه من معارفنا وإخواننا في الله.

ثم ظعنا منه على بركة الله وحسن عونه إلى أنّ نزلنا مغارة سيدنا شعيب عليه السلام قرب العصر وهو قريب لمدين قال شيخنا ما نصه وأتاني رجل وبيده زيف فيه قليل عنب أسود وطرحه بازائي نحو عرجونين والله اعلم وقلت له أنت من مدين قال نعم وذكر أن العنب يطعم بمدين مرتين في العام وأكلت ذلك العنب ووجدته عنبا جديدا كان فيه قليل حموضة وهو طيب حلو وأكلت العنب الجديد في نصف مارس وذكر أبو سالم لما أنهم نزلوا هنا أتاهم الأعراب بأحمال كثيرة من العنب الأسود وهو غاية الحلاوة وبرمان كثير وبيع العنب أولا بدرهمين للرطل ثم صار بعد ذلك رطل ونصف بدرهم[١].

ثم ظعنا منه فنزلنا شرف بني عطية وهو الموضع المسمى أبا العظام كما ذكره شيخنا المذكور وأما الآن فيكنى أم العظام ولا ماء فيه بتنا فيه خير مبيت ثم ارتحلنا منه آخر الليل ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا بحفائر النخل فيه إحساء كثيرة في وسط حدائق النخل تحت ظهر الحمار وعلى ساحل البحر وبتنا فيه في أرغد عيش وأتمه ثم ارتحلنا منه ونزلنا بندر العقبة أظنه عند الزوال أو بعد الظهر وبتنا فيه ليلتين واستقينا من البئر التي في وسط القصر فاشترى كل من أصحابنا كل ما يخصه لأن فيه سوقا عظيمة تاتيها الناس من كل فج لا سيما الملاقية من الشام وقد بقي لي جمل بعته بثلاث ريالات أبي طاقة وقد اشتريته في المدينة المشرفة بما يقرب من خمسة عشر أبا طاقة أو بأزيد منه ثم ظعنا منه صبيحة ثم سرنا كذلك على شاطئ البحر إلى أن وصلنا العقبة فنزل كل من

---

(١) في الرحلة الناصرية بدرهم ونصف للرطل.

كان راكبا حتى النساء غير أن نساءنا ما نزلن في الطلعة ولا في الرجعة ولا أزيل عنهن الخدر فلله الفضل والمنة وكذا لم يصبهن ظمأ ولا نصب كثير ولا مخمصة وكذا أصحابنا فإنهم مرضى غير أن الله تفضل علينا فلم يبق أحد منهم وقد ركب الجميع مع العيش الرغد والماء الكثير ثم كذلك إلى أن نزلنا السطح عند القيلولة فلما حان وقت الظهر صليناه فاختلفت الحجاج فمنهم من يريد الارتحال ومنهم من يريد المبيت فراودناهم الاتفاق أنا والفاضل سيدي عبد الله بن رحاب فلم يساعدنا للارتحال سلطان فزان فارتحل جميعنا فلم يبق إلا ركبه ثم ارتحل وراءنا آخر الليل ونحن سرنا كذلك إلى الليل فبتنا ثم ظعنا آخر الليل ثم سرنا كذلك إلى أن مررنا ببئر العلائي المسماة الآن ببئر الصعاليك وتوضأنا وصلينا الظهر عندها وماؤها أقبح المياه غير أن فيه برودة وبئره طويلة كبيرة ثم تجاوزناها إلى الليل فبتنا خير مبيت ثم ظعنا ونزلنا النخيل عند الظهر وقربه والله أعلم ووجدنا به الملاقي وبيع فيه الفول برخص وكذا الشعير وسائر الأطعمة ثم بتنا فيه خير مبيت وماؤه كثيرا جدا فوجدنا فسقياته مملوءة فاغترف الجميع من واحدة فلم يؤثروا فيها شيئا.

ثم ظعنا آخر الليل وانفصلنا عن هذا البندر إذ فيه قصر عظيم وعمارة حوانيت ولما ذهبنا سويعة وإذا بولد خالي الفاضل الكامل الشريف نجل ابن عمنا سيدي عبد العزيز ابن سيدي محمد جدي من قبل أمي عم لأبي سيدي الحاج أحمد زروق هذا قد حج في زمان الشيخ عبد الباقي والخرشي وكان فقيها يحفظ العقائد الثلاث متنا وشرحا وكان يتعلم عليه ولد الشيخ عبد الباقي حين كان صغيرا وهو الشيخ محمد الزرقاني شارح الموطأ وشارح المواهب اللدنية وكان من أكبر المحدثين وقد سمعنا عنه حكاية عظيمة وهي انه كان يحضر مع والده مجلس الشيخ الخرشي وكان لا يقرأ الحديث إلا إذا حضر الشيخ محمد فتأخر عن الدرس ذات يوم فمسك الشيخ عن الحديث فقيل له ان لم يأت الشيخ محمد فلا تقرأ فقال نعم ثم قال أني سمعت رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقول لا تقرأ حديثي حتى يأتي الشيخ محمد وكان في عصره يسمى مالكا الصغير.

نعم سمعت انه كان يتعلم على جدي أول أمره[1] بأذن الشيخ عبد الباقي والده وانه ذات يوم في مجلسه ألقى الولد[2] على الجد مسألة من مسائل الأعراب وهي كل إنسان وضيعته وكل صانع وما صنع والجد وإن كان يعرف النحو غير أن أهل وطننا لا يشتغلون بالأعراب أتم اشتغال وإنما دأبهم الفقه وأصول الكلام وأما مسائل الأعراب والمنطق والتصريف والبيان والأصول فعلى طرف اللثام فلما لم يعرفه الجد أعرابا شافيا قام الولد أعني الشيخ محمدا فتفوه للجد وأساء معه الأدب لما علمت أن أولاد الأمصار والمدن ألسنتهم طويلة فلما سمع الشيخ عبد الباقي قام لولده فأدبه وزجره وقال له أكفف أو كلاما هذا معناه فلما رأى ذلك قال له دعه فانه صغير فقال الشيخ عبد الباقي لا أسكت فأنا أمرنا بالأدب مع الأشياخ أو كلاما هذا معناه وهذه الحكاية قد تلقيناها عمن قبلنا وأظن أن الشيخ الفقيه الفاضل سيدي الصادق الشوثري هو الذي كان يحكيها والله أعلم انه سمعها من الجد المذكور أو سمعها ممن سمع منه والله تعالى اعلم ثم أن السيد عبد العزيز هذا قد ترك في محل النزول طاجينا والله اعلم انه استعاره من بعض الناس فرجعت معه إلى المحل الذي نزلنا فيه فبحثنا عنه غاية البحث.

نعم لما رجعنا إلى منزله فبحث عنه فقلت له في أي مكان خبأته فقال قرب التنور غير أني غطيته بالرمل حين فرغنا من طبخ الخبز فبقينا نبحت عنه إلى أن خفنا على أنفسنا من متلصصة العرب فسرنا سيرا شديدا لعلنا نلتحق بآخر الركب وهو لا يقدر

---

(١) في نسختين أول مرة.

(٢) في نسخة بإسقاط ألقى وفي أخرى في مجلسه أو در على الجد.

على المشي والذي لحقناه أولا قافلة من غزة راجعة إلى بلدها أعني الشام فتأنسنا بها فسرنا بعد ذلك مع الجد في السير فلحقنا آخر الركب فتخلفت آخر الركب على عادتي وهو قد تقدم ليدرك مركوبه ثم سرنا كذلك إلى أن نزلنا وسط السبخة قرب المغرب في زمان قر آخر النهار وإلا فهو حر لا قر وهذه السبخة أعظم أمكنة الدرب وأصعبها لقلة الماء فيها وحرارة أرضها وقوة هوائها قل أن يسلم الحجاج فيها من العطب إذ تغلب شدة العطش فيها فما أقبحها من مكان وقد تركت منزلة وهي منزلة التيه منزلة قبل هذه وليس الخلاص من جميعها إلا بفضل الله تعالى وجوده وكرمه.

ثم منها آخر الليل وعند طلوع الفجر وقع الصياح والويل والنهب(١) في الركب فتأخر الأولون وتقدم الآخرون واختلطت الناس فلا تدري المصاب من غيره فإن الركب جيش بلا رأس وذهب بلا تقطير بل كل يسبق الآخر فإنهم في غاية الإهمال والتفريط والإفراط في القبح بحيث لا يقبلون نصح أحد ولا يقبلون كلام فاضل أو عالم ولا زجر أمير فهم فمي تيه البطلان مترددون وقد اشتد حمقهم وسفههم فظنوا أن الدرب يقطعونه في مدة قريبة فلو ملكوا أنفسهم لطاروا بها فكانت عاقبتهم الخسران والأخذ والسلب فدخلنا بعض المحاربين نحو الخمسة عشر فارسا فاخذوا جمالا من وسط الركب وعليها من الحوائج والذهب ما لا يعلمه إلا صاحبه وقد سمعنا من بعض الثقات ما يبلغ نحو ألفين وهذا الذي ضاع لبعض الناس من بسكرة وهو جندي أي تركي وغيره مما أخذ له وسلب عنه.

نعم بئس اليوم ذلك اليوم وذلك عند طلوع الفجر فلما صلينا الصبح جماعة تأخرت أسأل عما وقع في الركب فقالوا ضاع كيت وكيت فلما سرت خطوات وإذا بالأخ في الله سيدي أحمد الطيب رجع مشرفا نحو المنزل الذي ارتحلنا منه يغيث بعض

---

(١) في ثلاث نسخ التناهب.

أصحابه من زواوة إذ ترك غرارة مملوءة حوائج سقطت له حين أغارت الأعراب علينا فقلت له قد غررت بنفسك فلا بد أن أرجع معك فقال لي مكان قريب فقلت له ولا بد لأني لم أملك نفسي أن يرجع وحده فأخذت المكحلة من الأخ في الله سي محمد بن قسوم فذهبت معه فلما رآني سيدي محمد البهلولي ذهب معنا وكذا الأخ عاشور من أهل ابن ضيف الله ذهب معنا وظننا أن ذلك قريب فذهبنا مشرقين والركب مغرب إلى أن خفي علينا الركب بأميال كثيرة ومسافة بعيدة يستحيل الغوث فيها من الركب عادة فوجدنا الغرارة بما فيها ثم رأينا رجلا بعيدا عنا يحسبه الرائي انه حجر فوصلنا إليه فوجدناه مريضا فاخبرنا بان رجلا آخر بقي في منزل الركب مريضا فرجعنا إليه فرفعنا أحدهما على بغلتي والآخر على بغلة الشيخ سيدي أحمد الطيب وهما من زواوة ولم تصل إلى ذلك الموضع إلا بعد الضحى الأعلى فرجعنا فإذا الفرسان الذين سلبوا من الركب فتحولوا إلينا علما منهم أننا لا غوث لنا ولا حصن ولا مهرب سوى الله تعالى فتحولوا إلينا وداروا بنا دور الخاتم يمينا وشمالا ونحن واقفون ننتظر منهم الفوت(١) والتمكين فقلنا لبعضنا بعضا ليس إلا الموت ولا مهرب ولا حصن فهي سبخة عظيمة واسعة الأطراف خالية من الأحجار والشجر والمدر ذات الأرمال ومع ذلك فيها حرارة الشمس والحالة أنه لا ماء معنا وقد توقعنا مخائل الموت.

نعم الحاج عاشور عنده نحو السبعين وجها من البارود وكذا من الرصاص فقال لا تخلوا واضربوا قلنا لهم لا فائدة لكم عندنا ولا طائل يصاحبنا فنبهنا عليهم ليكفوا عنا وما زادهم ذلك إلا نفورا وتكبرا واستطالة فتوهموا أخذنا في سرعة فقلت له لا تسرعوا بالضرب فإن أحجموا عنا وتأخروا فيها ونعمت وإن بدءونا بالضرب فلا تضربوا إلا إذا اختلطوا معنا وهم أربعة عشر فارسا وما عندنا إلا ثلاث بنادق كبار

---

(١) في نسخة الموت.

طوال وبندقة صغيرة ويطغانا فداروا بنا يمينا وشمالا وليس عندنا ما يسلب إلا حوائجنا ويغلتان فلما توجهنا إليهم بالضرب تنحوا قريبا ثم تنادوا لبعضهم بعضا بالأغراء والأشلاء[1] والزعم فقالوا يردنا ثلاث بنادق ونحن في كذا وكذا فارسا فزعموا[2] بأنفسهم فتقدموا إلى و[3] الشيخ سيدي أحمد عند كتفي والمكحلة الصغيرة في يده فتوجه إلي واحد منهم أراد أن يضربني بقناته فتقربت إليه وتوجهت إليه باليطغان فهرب مني ثم داروا بنا دورة أخرى غير أنهم لم يتمكنوا منا بفضل الله تعالى وقوته ونحن معهم كذلك ندور حيث داروا حتى أيسوا منا فاجتمعوا فانفصلوا منا مشرقين والحالة إنا نسير نحو المغرب مع الالتفات إليهم سيرا رويدا إذ ربما رجعوا إلينا فارتفع عنا الخوف منهم وزال ونام خفنا زيادة الأعراب الذين لا طاقة لنا بهم فلما وصلوا إلى محل مرتفع بعيد منا اجتمعوا ونحن سائرون وإذا بطائفة أكثر منهم قد غشيت الطريق تحيرنا منهم وذهلت عقولنا من أجلهم فلما شاهدنا جمعهم تيقنا الموت وقلت حينئذ لسيدي[4] الآن متنا فكنت استغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم طالبا النجاة أو الموت على حسن الخاتمة.

فلما دنوا منا أردنا قتال من سبق منهم إلينا غير أن سيدي أحمد عرف بعضهم انه من زواواة فنهاني عن ذلك فإذا بهم أنهم رجعوا عن الركب إلينا لما سمعوا أننا تخلفنا فلما وصلوا إلينا حمدوا لنا السلامة ونزل صاحبنا الذي اكرى لنا إبله على هجين فركبت عليه وقد انتفع لونه قبل فركبت عليه إلى أن وصلت إلى بندر عجرود [وكذا

---

(١) في نسخة الأسلاء.

(٢) في نسخة فعزموا.

(٣) في نسخة بإسقاط واو العطف.

(٤) كذا في جميع النسخ.

سيدي أحمد الطيب قد ركب والذي ركّبه لم أعلمه الآن فنزلنا عجرودا][1] ضحوة فوجدنا فيه خيرا عظيما من الرزق وأما ماؤه فأقبح المياه يشوي الوجوه بئس الشراب.

نعم لما تركنا النابغة استعجالا أضر بنا العطش لولا أن الله تفضل علينا بقر لا حر في زمان الحر فقطعنا ذلك اليوم منه بعد قضاء مآربنا منه ومع هذا أن المحاربين رجعوا إلينا طمعا في آخر الركب الفزاني فلم يصيبوا منهم شيئا لشدة الحزم وسيدي محمد الشريف معهم فارتحلنا بعد الظهر وتركنا الفزاني هناك مبيتا[2] ونحن كذلك إلى بعد العشاء الأخيرة بسويعات والطائفة السابقة من المحاربين تبعنا في آثارنا أهلكهم الله فبتنا هناك إلى قرب طلوع الفجر ثم ظعنا منه ونحن سائرون طول النهار إلى أن مررنا على الدار الحمراء قبل الزوال فتعدى الناس فيه ثم ذهبنا كذلك والمحاربون في آثارنا ونحن في جماعة فيها الخيل و البغال ومعنا البنادق والسلاح فلم نكترث بهم إلى أن صلينا العصر فبقيت فرس الحاج يونس بن يلس المسيلي من قياد قصر الطير فتخلفنا من أجلها إلى أن رأينا الركب نازلا بعد العصر بكثير فخلفناها ولحقنا بالركب لنبعث جماعة من حجاج المسيلة ليأتوا بها فذهبوا فوجدوها قد ذهب بها المحاربون الذين في آثارنا فرجعوا خائبين فاعلموا الركب بتوقع الخوف منهم لأنهم لم يعارضونا ولم يزالوا معنا ليستعملوا الحزم.

نعم أكثر الركب أصابه عطش عظيم لما علمت ان ماء عجرود لا يغني عن العطش بل يزيد حرارة للقلب فيطلع ذلك على الجسد فينتقع لون الشخص ويتغير وصفه من شدة ما أصابه فيتكدر وقته وتضعف مهجته فلا يستطيع الهروب فترى المحاربين يتراكضون بين خلال الركب فإن رأوا محتزما قائما بنفسه خلوا سبيله وإلا

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في نسخة باتتا.

سلبوه. ولما اشتد بنا العطش ذهب أصحابنا ممن اكترينا منهم إلى قرب البركة فأتوا لنا بماء عذب وأظنه من ماء النيل فاحيونا به بعد قرب الموت جازاهم الله أحسن جزاء فنعم الناس هم فشربنا وشرب من معنا الأصحاب وفرقناه على المعارف ممن اضطر إليه فكانوا رحمة لنا ولأصحابنا أسعدهم الله دينا ودنيا فبتنا في ذلك الموضع قريبا من البركة إلى أن طلع النهار وتجلى فقطعنا منه متوقعين الخوف من هؤلاء المحاربين فنادى الناس بعضهم بعضا ليتهيئوا لهم فاجتمع أهل بلدنا من قسنطينة إلى الجزائر وجعلنا حومة واحدة وتأخرنا عن جملة الركب إلا أولاد عيسى وأولاد عبد النور وأولاد سعيد بن سلامة وأهل عامر ومن حذا حذوهم من أهل البلد قد سبقوا وصارت فرجة بيننا وبينهم وأنزلنا كل من عنده سلاح عن مركوبه فجعلنا البعض ميمنة والبعض ميسرة والبعض قلبنا والبعض آخرا والبعض أولا غير ان المتأخر أكثر والجميع دائرون بالإبل والقسمة هذه كقسمة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على خمسة قلبا وميمنة وميسرة ومقدما ومؤخرا ولذا قال البوصيري:

يجر بحر خميس فوق سابحة ... يرمي بموج من الأبطال ملتطم

فعلمنا أنه لا يصيبونا نعم لما رأونا محيطين بجميع الإبل خلوا سبيلنا وذهبوا إلى أول الركب فأخذوا منهم ما شاء الله ومن جملتهم الفقيه النزيه سيدي عبد الرحمن بن الزيعم العمري ومثله الشيخ المكرم سيدي أحمد بن خراز[1] الغرزولي وغيرهما وكلاهما بنسائهما فلم يضربوا شيئا وتركوهم فقراء مفلسين معدومين وسبب ذلك كثرة الإهمال وعدم الانتضال وفقدان القوة للقتال وكثرة النساء والصبيان والأوباش من الرجال فلم يهدتوا لأحد يرجعون لأمره فتراهم كالأمواج في البطحاء ولو كثر المحارجون لأخذوا جميعهم [فصاروا يُلْعَنُون من قوة عددهم وكثرة أموالهم وعدم

---

(١) في نسخة خزازي وفي أخرى حزاز.

الاستعداد][1] لدفع من أتاهم وأما نحن فقد حصلت لنا القوة والحمد لله.

نعم تأخر مرحول الشيخ عن الجميع فانتظرناه إلى أن دخل معنا والحمد لله على المنة والفضل.

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة وفيها عوضه لكثرة الاستعداد.

ذكر دخولنا مصر

فذهبنا كذلك إلى أن وصلنا البركة وهو منزل الركب المصري وتلقى الناس أهل مصر والمغاربة وأمراء الأجناد والأتراك خرجوا لملاقاة الركب فنصبوا الأخبية والخيام في سائر الطرقات وملئوا المحال بالأسواق من البركة إلى مصر ودخلنا القاهرة عند الضحى الأعلى مارين على قرب باب النصر ذاهبين ومارين إلى منزل الركب المغربي في بولاق غير أن ركبنا نزل بين بولاق والنيل في الطريق التي يسلكونها إلى إمبابة واستقررنا هناك أياما بخيامنا والبعض منا دخل المدينة المتجرد في الوكالة والمتأهل الغني في الديار والفقير المتأهل أيضا في الوكالة وبعد اليومين أو الثلاثة دخل الركب المصري القاهرة فتقصر العبارة عن أحوال النزهة من فرح وسرور لمن قدم سالما وحزن وكآبة وندبة عمن أتى خبره ميتا وأم الأسواق والأخبية والأطعمة المختلفة الأواني من الذهب والنحاس والفضة والملابس الفاخرة والخيل المسومة والرايات المفزعة والأسلحة القوية والرجال المزينة والنساء المخدرة والأسواق العامرة مما لا يحصى كثرة يكاد العقل يحيل فناءها وذهابها وانعدامها فلا تسأل عنها ومن عجائب ذلك أن أرزاقها أكثر منها فإن أهل وطننا بل سائر المغاربة يعلمون أنهم ليسوا من أهل الدنيا بل أموات بالنسبة إلى ما رأوا من زخارف من خرج من مصر بحيث لا يحيط ديوان بأنواع ذلك.

نعم الأعراض عنه والغيبة عن كله أولى ما يسلكه العاقل اللبيب إذ كل ذلك خيال محض فالوقوف عنده عطب وهلاك وقد قال تعالى ﴿

﴾ الآية وإنما هي غرور في غرور وخديعة ومكر وظلمة وإنما أنارها وجود الحق فيها وإلا لمات العارف بالحقيقة شوقا إلى محبوبه حتى يرى الكل جيفة ونتنا بل كل ذلك انتن في الحقيقة علما منه أنه يصد عن الحق بل الداخل في الحضرة الإلهية أقوى

نزاهة من هؤلاء المغرورين المخدوعين بالتخيلات الوهمية التي لا وجود لها أصلا وإنما هي عدم محض.

نعم دائرة المعارف تتسع بكثرة الاعتبار، في اختلاف الكائنات والصنائع بقدرة العزيز الجبار، ومن أجل ذلك اختاروا المدن الكبار، فكثرت الأئمة فيها وعز وجودها في القرى وانعدمت من البادية رأسا فعلمنا أن مجال الأنظار، كثرة الخلق في الأمصار، وفي كل شيء آية من الواحد القهار، فمهما رأيت غير الله دليلا كان نظرك رحمة وعزا ورفعة وأما ان نظرته اعتمادا وتعلقا كان نظرك هلاكا وعطبا ونقمة فالغير غير وهلاك أن نظرت إلى ذاته وإلا فخير وصلاح إن نظرته بنظر الحق إليه أو دليلا عليه قل انظروا ماذا في السموات والأرض فلا اقل أن الخلق رحمة في عين الحق وهلاكا في عين الباطل فلا تعتمد على سواه وقل حسبنا الله ونعم الوكيل وقل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون متعنا الله بالنظر إلى وجهه بمنه وفضله.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فقد نزلنا مصر في أحسن نزول غير انه وقع بين الركب وأهل البادية الذين اكروا لهم شنئان عظيم وفتنة قوية فأشلوا الأتراك والأجناد على الحجاج فما خرج منهم إلى السوق واحد إلا حبسوه وسجنوه حتى أنهم حبسوا أفاضل الركب من العلماء والصلحاء والطلبة والفقراء وأصحاب الشيخ كالعلام بل أرادوا حبس الشيخ فسلم والحمد لله وقد حبسوا ولد الشيخ سيدي أحمد الطيب ولكن لم يطل وكذا سيدي أحمد ابن بلقاسم وسيدي أحمد بن حمود.

نعم تفضل الله عنه فاخرجوه في ساعة وكذا ابن عمنا سيدي عيسى الشريف والفقيه سيدي بلقاسم بن الطيب وغيرهم ممن لا يحصى عددا غير أن والي بولاق يأخذ منهم شيئا قليلا ويسرحهم رحمة منه أهلكه الله ما أبعده من شقي ومع ذلك ما رد شفاعتي قط وما ملك مصر إلا المماليك الذين أسلموا فكل من ملك مصر إلا كان

مملوكا وحاكم بولاق هذا رجل كبير السن حسن الصورة عريض الوجه مشرب بحمرة طويل اللحية كثيف الحاجبين وقد دخلت عليه مرارا للشفاعة في المكروبين ممن كان في السجن إلا وسرحه بسرعة من غير مهلة ولا تراخ وكان اعتقاده فينا حسنا.

وسبب ذلك ان جماعة منا اكترينا من بعض الأجناد من الترك جمالا واقبضنا له الدراهم نحو نصف الكراء قائلا اشتري ما استعين به من الإبل وكنت السبب والواسطة غير أن الذي غرنا إظهار الود وحسن الاعتقاد وغاية الأدب فيسلم على يدي في اليوم كلما لقيني غير أني أعرف أهل مصر وغشهم فترى الرجل يظهر لك حسن الصنيع ويبطن لك الخديعة والمكر وهذا منهم.

نعم من خادعنا فالله انخدعنا له لا سيما أن بعض الفقهاء يصاحبه ويكثر الترداد إلينا مع فصدقناه به غير انه لم نثق بما صدر منه علما منا بالتباس أحوالهم واختلاط أمورهم والتباس صنيعهم فلما ساء ظننا فيه ذهبنا به إلى سلطان العارفين، وخاتمة الفضلاء المحققين، صاحب التآليف العظيمة، والتلامذة السنية، صاحب الأوراد، وسلطان العلماء ذوي المد والأمداد، شيخنا، وعمدتنا إلى ربنا، الشيخ على الإطلاق، والولي بالاتفاق، سيدي محمد الحفناوي فقلنا له هل تعرفه ومعه ولده أي الذي سألنا عنه فقال الشيخ إنما نعرف ولده فعقدنا عقدة الكراء عنده ولما أتينا من عند الشيخ أرانا بعض الجمال فاستحسناها غير أنها لشريكه وبعد ذلك أقبضت له جملا من بعض الكراء فذهب به إلى بولاق ونحن نازلون حينئذ بين بولاق ومصر فلما وصل به إلى محله رجع الجمل إلينا حينئذ فضلا من الله ورحمة بنا.

نعم بعد اليوم أو اليومين ذهبنا إليه فسألنا عنه في محله فلم يوجد له خبرا ولا أثر ثم مسكنا ولد الفقيه المذكور وعندنا ثم ذهبت إلى حاكم بولاق الذي الكلام فيه فدخلت إليه في المحكمة وكلمته في شأن ذلك وقد رحب بي وفرح فرحا عظيما حتى

تعجب الحاضرون ومن معنا إذ لم أره قط وسألناه عن قصة الرجل فقال قد مسكنا له جمالا هي بينكم وبعض الناس من مصر له دين عليه فأعطانا بعضها وبقي البعض بيده وأمرنا بالإتيان بذلك الولد الممسوك عندنا فأتيناه به فحبسه فقال إن كان الشرع أوجب عليه الغرم فيغرم فتركناه في يده ورجعنا إلى الركب فقومنا تلك الجمال وقسمناها على حسب الديون وارتحلنا فلما رجعنا سألناه عن قصة الرجل وصاحبه الفقيه قال هلك الكل ببركتكم فإنهم هربوا بامرأة فكان ذلك سبب هلاكهم وما دخلت عليه بعد إلا قضى حاجتي وأحسن قضاءها ويطلب مني الدعاء الصالح وقد حكم بقتل بعض المغاربة من بلادنا لكونه أتى بسكة جديدة مجردة مغشوشة فسرحه وقد سرحت من يده[1] كذا وكذا رجلا.

نعم لما حبس أصحاب سيدي أحمد الطيب ذهبت أنا وسيدي أحمد إليه ليسرحهم فوجدناه نائما في بيته لم يظهر إلى محكمته صبيحة وإنما وجدنا حاكما تحته الكاخية فسرح لنا سيدي بلقاسم بن الطيب ورجالا من زواوة قبل لحوق الكبير ونحن كذلك وإذا بتركي دخل علينا فأشار إليه بعض البدويين من المنصورة وكان لي عليه دين فقال له هذا هو الحاكم في الركب فلما قال له ذلك مسكني من يدي وأراد بي السجن فقلت له وهل لأحد علي دين حتى أسجن فيه فقال البدوي لا وإنما هو إذا مسكناه خرج ما كان في الركب من الإبل التي مسكها أهل الركب في ديونهم فامتنعت من الذهاب إلى السجن وهو يكرزني وأنا اتملص منه وصار ذلك الكاخية يقول له دعه فانه رجل صالح وعالم وشريف أو كلاما هذا معناه ثم قال أضمن ما كان في الركب فأعرضت عنه وجلست حذاء الكاخية فحاولني مرة ثانية للسجن أيضا فقال الكاخية ذره فانه رجل وحده وأما أصحابي فلا يقدر عليك أحد لأن الذي أرادك بسوء إنما أتى من مصر

---

(١) في ثلاث نسخ من نحو كذا.

ارتشاه البدوي ولا عمل عليه ولا يعرف حالك أيضا فلما أتى إلي ضربت به الحائط وخرجت في حالي ولم يتبعني أحد إلى أن وصلت إلى الركب وذلك فضل الله تعالى ورحمته بنا اللهم لا تشمت بنا الأعداء ولا تسلط عليها جبارا عنيدا ولا شيطانا مريدا ولا أحدا من عباد الله تعالى.

حاصله أن الوقائع التي وقعت بيننا وبين البدويين كثيرة يطول بنا استقصاؤها هذا وإن فضل اله تعالى ظاهر على الركب بحيث لا يستطيعون الإمساك منه ولا تسريح المربوطين الذين هم فيه فلما خفنا تفاقهم الأمر بيننا وبين الحكام ذهب من ذهب في البحر إلى الإسكندرية فلم يبق إلا العبد وسيدي أحمد بن حمود وسيدي عبد الكريم وسيدي محمد اليعلاوي وسيدي محمد الشريف الطرابلسي ذهبنا في البر على برقة وإما ولدي وأهلي فقد ركبوا في البحر مع من ركب فيه فافترقنا وعلى الله الاعتماد والتكلان لأني لا استطيع البحر وانتقلنا إلى انبابة فلما كنا على شاطئ البحر في توديع من ذهب في البحر ولانتقالنا إلى الموضع المذكور أتانا ذلك التركي الأول الذي أراد سجني في قضية أخرى أرتشاه بدوي آخر فلما رأيته أرادني اشليت عليه بعض أصحابي ليقتله فلما علم ذلك المتمرد خاف إذ هو منفرد ونحن في جماعة فصار يسلك مسالك الطلب فأعطاه سيدي أحمد بن حمود نصف ريال أبي طاقة وعليه البعد من الله فلا أظن انه مسلم إذ أكثر العسكر في مصر أنهم خوارج أو طغاة لا تعمى أبصارهم ولكن تعمى قلوبهم.

وقد حكي لنا أنهم يأتون إلى المستضعفين من الناس فيبيعونهم عبيدا أو يجعلونهم أسرى يخدمون في مدينة السويس إلى أن يموتوا أهلكهم الله أن لم يعلم هدايتهم[1] وهذا معلوم ضرورة في زمان هذه الحجة وسبب هذه الإهمال من الحكام والمترفهين

---

(١) كذا في جميع النسخ.

لأنهم في نعمة عظيمة لم يحبسوا أحدا فأباحوا الرقاب والنفوس ولم يعلموا بهذه الرذائل كالغش في الأسواق والسرقة في الطرق والدكاكين فصارت في النفوس أقبح الأوطان وأذلها للغريب مصر ومكة[١] فلا تجد أحدا من مصر إلا يحتقر المغاربة حتى كادوا أن يخرجوهم من الإسلام وطبائعهم منافية لطبائع أهل المغرب فلا نظر لعلمهم ولا لفضلهم فترى المغربي إذ تكلم تعصبوا عليه بالباطل ولو بالزور فلم ينفع فيهم إلا عدم مخالطتهم والانعزال عنهم فيتحاشى عن أسواقهم وما فيها فإذا اضطره أمر اختلس مقصوده اختلاسا يحفظه من المخالطة أو يتزيا بزيهم ليصرف عنه السوء والفحشاء الصادرة منهم وما تخفي صدورهم لنا أكبر وأعظم وذأبهم وديدانهم التحيل لأخذ أموالنا وسلب ما عندنا بمجرد الأباطيل والتظلم وإظهار المسكنة أن أفاده ذلك وإلا ارتشوا أصحاب الحكم ليأخذوا أموال المغاربة جهرة ظلما وعدوانا فما أقبحها من بقعة للحجاج والمغاربة غير أن سبب ذلك أن المغاربة تشيطنوا وتمردوا على الطريق وضلوا وأضلوا وهلكوا وأهلكوا والمتسب بالدعاوي الكاذبة والزندقة البينة أقواها ادعاء الكيميا وما حذا حذوها من كل مضل من غير تحقيق الدعوى كعلم الأوفاق وإخراج الخبايا والكنوز من الأرض وأقهار الظلام وأصراع ذي الجن[٢] وأخدام الروحانيين وقهر الأعداء وحبس السراق ومنعه من النفوذ وتفريق الأحباب وتقريب البعيد وإقصاء القريب وإقبال الملوك وأدبارهم وغير ذلك من دعاويهم فلما انتشر عليهم ذلك وعم الناس كلهم واتضح كذبهم وبطل تحيلهم وتصنعهم وقع بغضهم في قلوب الخاصة فما رأوا أحدا من المغاربة إلا غمضوا العين فيه وظنوا أنه من الفسقة المدعين المتلفين لأموال الناس بالباطل فالتبس عليهم الصديق بالزنديق فارتفع حسن الظن منهم في جانب المغاربة بحيث لا يعتقدون في أحد منا ولو بلغ

---

(١) في نسخة بإسقاط مكة.

(٢) في نسخة وصرع الجان.

الغاية مع الله وقد قال تعالى: ﴿ أني كنت دفنت مائتي نواة ثم قلت وأين السبعة التي دفنتها بعد ذل فلم أرم مكا ﴾ وهذا من الفتنة العامة[١] التي عمت المغاربة الظالم والمظلوم وقد قال تعالى أيضا: ﴿ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ بل تصيب الظالم وغيره وإنما أصابت المظلوم لسكوته عما يظهر من ظلم الظالم فصار ظالما بسكوته كا في التفسير إذا كانت لا غير زائدة أي غير صلة وأما إذا كانت صلة فالمعنى واضح أي ﴿ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ الآية أو أن غضب الله إذا يقوى على أهل الأرض لكثرة الفساق عمهم بالبلاء فيكون لأهل الفسق كفارة لهم ولغيرهم زيادة في مراتبهم وعلو مقاماتهم فافهم هذا فإن مشاهدة الأعيان توجب العلم والإيقان.

نعم أمر مصر غريب وعجيب في كل الأصناف والأنواع والأجناس مهما رأيت جنسا فيها إلا قلت أن هذا الجنس هو الذي في مصر فإذا رأيت العلماء قلت لا جاهل في مصر وإذا رأيت الأغنياء قلت لا فقير وإذا رأيت الأشياخ وأصحاب الأوراد قلت هم أهلها وكذا أهل الصنائع والحرف فما وردت قوما أو سوقا أو نزاهة إلا قلت أهل مصر موجودون فيه وهذا من عجائب مصر فإن كل من رآه العبد إلا قال هذا هو الموجود فيها لأن مصر تغني عن الغير ولا يستغني الغير عنها فهي رحمة لأهل التقوى ونقمة لغيرهم فهي مدينة الأنبياء والصحابة والتابعين والعلم وأهله بل فيها أهل الدائرة والتصريف فلا تخلو عنهم أصلا فكل من كان فيه طبع إلا وجد أهل طبعه أو صنعة إلا وجد أهل صنعته خيرا أو شرا وفيها عبرة لأهل البصائر فمن لم يفلح فيها لا يربح أبدا ولا يفوز أصلا لأن مددها قوي وخيرها دوي وليحذر الإنسان شرها وليغتنم بركتها فإن أهلها ظاهرون في الخير والشر والساعي فيها يجتني منهما على

---

(١) في نسخة العظيمة.

حسب استطاعته وقوته واجتهاده فكل بلدة ربما انقطع فيها الدواء إلا مصر فإن دواءها دائم الاتصال وكذا عللها دائمة الوصال فليتعجب منها المتعجبون وكيف لا وأنها ذكرت في القرآن كذا وكذا مرة فهي جنة لأهل الخير ونار في المآل لأهل الشر يحسبها المتأمل أنها جنة فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فإن أرزاقها أكثر من خلقها ومع كثرة أرزاقها أن من سد عليه الباب في الرزق يدور الأسواق والدكاكين والوكالات والمساجد فلا يجد لقمة يطعم بها نفسه وغير هذا من عجائبها وسأكتب إن شاء الله جملة من حسن المحاضرة وأما الإسكندرية فلم أدخلها قد وقد رمت زيارتها مرارا فلم تساعدني الأقدار وقال شيخنا ما نصه.

ذكر الإسكندرية وما بها من العجائب

ذكر الإمام السيوطي في حسن المحاضرة(١) عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله تعالى عنه انه قال وجاء رجال من أهل الكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم كتب فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شئتم أخبرتكم عما أردتم أن تسألوني قبل أن تتكلموا وإن شئتم تكلمتم وأخبرتكم قالوا بل أخبرنا قبل أن نتكلم فقال جئتم تسألوني عن ذي القرنين وسأخبركم عما تجدونه مكتوبا عندكم أن أول أمره كان غلاما من الروم أعطي ملكا فسار حتى ساحل البحر من أرض مصر فأبتنى عنده مدينة يقال لها الإسكندرية فلما فرغ من بنائها أتاه ملك فعرج به حتى استقله فرفعه فقال له انظر ما تحتك فقال أرى مدينتي وأرى مدائن معها ثم عرج به فقال له أنظر فقال قد اختلطت بالمدائن فلا أعرفها الحديث بطوله وقد أوردته في التفسير بالمأثور في سورة الكهف وأخرج ابن الحكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال كان أول شأن الإسكندرية أن فرعون اتخذ بها مصانع ومجالس وكان أول من عمرها وبنى فيها فلم تزل على بنائه ومصانعه إلى أن تداولها الملوك ملوك مصر بعده فبنت دلوكة بنت زبا منارة الإسكندرية ومنارة بوقير بعد فرعون فلما ظهر سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام على الأرض اتخذ بها مجلسا وبنى فيها مسجدا ثم إن ذا القرنين ملكها فهدم ما كان فيها من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم إلا بناء سليمان بن داود لم يغيره ولم يهدمه ما كان فيها من بناء الملوك والفراعنة وغيرهم إلا بناء سليمان بن داود لم يغيره ولم يهدمه وأصلح ما كان خرب منه وأقر المنارة على حالها ثم بنى الإسكندرية من أولها بناء يشبه بعضه بعضا ثم تداولتها الملوك من الروم وغيرهم ما من ملك إلا يكون له بناء يضعه بالإسكندرية يعرف به وينسب إليه قال ابن عبد الحكم ويقال أن الذي بنى

(١) تنبيه فقد وقع في النقل عن هذا الكتاب تقديم وتأخير واختصار وحذف في مواضع كثيرة.

منارة الإسكندرية قليوبطرة الملكة وهي التي ساقت خليجها حتى أدخلته الإسكندرية ولم يكن يبلغها الماء قال ويقال أن الذي بنى الإسكندرية شداد بن عاد[١].

ويقال أن بها مساجد خمسة مقدسة مسجد موسى عليه الصلاة والسلام عند المنارة ومسجد سليمان عليه الصلاة والسلام ومسجد ذي القرنين ومسجد الخضر أحدهما عند القيسارية والآخر عند باب المدينة ومسجد عمرو بن العاص الكبير رضي الله عنه.

وكانت الإسكندرية ثلاث مدن بعضها إلى جنب بعض وهي موضع المنارة وما والاها والإسكندرية وهي موضع قصبة الإسكندرية اليوم وهيطة[٢] وكان على كل واحدة منهن سور وسور من خلف ذلك على الثلاث مدن يحيط بهن جميعا واخرج ابن عبد الحكم عن عبد الله بن طريف الهمداني قال كانت على الإسكندرية سبعة حصون وسبعة خنادق وأخرج أن ذا القرنين لما بنى الإسكندرية رخمها بالرخام الأبيض جدرها وأرضها فكان لباسهم فيها السواد والحمرة فمن قبل ذلك لبس الرهبان السواد من نصوع بياض الرخام ولم يكونوا يسرجون فيها بالليل من بياض الرخام وإذا كان القمر أدخل الرجل الذي يخيط بالليل ضوء القمر في بياض الرخام الخيط في حجر الأبرة وكانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار وكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج أحد منهم من بيته ومن خرج اختطف وكان منهم راع يرعى على شاطئ البحر وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه فكمن له الراعي في موضع حتى خرج فإذا جارية فتشبث بها فذهب بها إلى منزله فانست به فرأتهم لا يخرجون

(١) في حسن المحاضرة زيادة نحو خمسة أسطر سقطت من الرحلة الناصرية ومن جميع النسخ وتتضمن رواية أخرى في بناء شداد مدينة الإسكندرية.

(٢) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية هبطة وفي حسن المحاضرة لقيطة.

بعد غروب الشمس فسألتهم فقالوا من خرج منا اختطف فهيأت لهمه الطلسمات بمصر في الإسكندرية وعن عطاء الخراساني قال كان الرخام قد سخر لهم حتى يكون من بكرة إلى نصف النهار بمنزلة العجين فإذا انتصف النهار اشتد وكانت الإسكندرية تسمى قبل الأسكندر رفودة وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة وعن الليث بن سعد قال كانت بحيرة الإسكندرية كرما كلها لامرأة المقوقس فكانت تأخذ خراجها منهم الخمر بفريضة عليهم وكثر الخمر عليها حتى ضاقت به ذرعا فقالت لا حاجة لي في الخمر أعطوني دنانير فقالوا ليس عندنا دنانير فأرسلت عليهم الماء فأغرقتها فصارت بحيرة يصاد فيها الحيتان حتى استخرجها بنو العباس فسدوا جسورها وزرعوا فيها ومن عجائب الإسكندرية عمود السواري وليس في الدنيا مثله قال صاحب المرآة وقد شاهدته ويقال أن أخاه بأسوان قال ابن فضل اله بظاهر الإسكندرية عمود السواري عمود مرتفع في الهواء تحته قاعدة وفوقه قاعدة يقال انه لا نظير له في العمد في علوه ولا في استدارته.

قلت وقد رأيت هذا العمود لما دخلت الإسكندرية في رحلتي ودور قاعدته ثمانية وثمانون شبرا ومن المتواتر عن أهل الإسكندرية إن من حاذاه عن قرب وغمض عينيه ثم قصده لا يصيبه بل يميل عنه وذكروا أنه لم تحصل إصابته لأحد قط مع كثرة تحريهم في ذلك وقد جربت ذلك مرارا فلم أقدر أن أصيبه وذكر لي بعض فضلاء الإسكندرية إنها كانت أربعة أعمدة على هذا النمط وكانت عليها قبة يجلس بها أرسطو صاحب الرصد وعن التنوخي قال كان بالإسكندرية صنم من نحاس يقال له شراحيل على خشفة من خشف البحر وكان مستقبلا بأصبعه القسطنينية لا يدري أكان مما عمله سليمان أو لإسكندر فكانت الحيتان تجتمع عنده وتدور حوله فتصاد فكتب أسامة بن الوليد بن عبد الملك يخبره بخبر الصنم ويقول أن الفلوس عندنا قليلة فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع الصنم ويضربه فلوسا فأرسل إليه الوليد رجالا أمناء فانزلوا الصنم

فوجدوا عينيه ياقوتتين حمراوين ليس لهما قيمة فذهب الحيتان فلم تعد إلى ذلك الموضع.

ومن عجائب مباني أرض مصر كما قال صاحب مباهج الفكر منارة الإسكندرية وهي مبنية بحجارة مهندمة مطلية بالرصاص على قناطر من زجاج والقناطر على ظهر اسطوانات[1] من نحاس وفيها نحو ثلاثمائة بيت بعضها فوق بعض تصعد الدابة بحملها إلى سائر البيوت من داخلها وللبيوت طاقات ينظر منها إلى البحر.

واختلف أهل التاريخ فيمن بناها فقيل أنها من بناء لإسكندر وقيل من بناء دلوكة ملكة مصر ويقال ان طولها كان ألف ذراع وكان في أعلاها تماثيل من نحاس منها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور معها حيث دارت ومنها تمثال وجهه إلى البحر متى صار العدو منهم على نحو من ليلة سمع له صوت هائل يعلم به أهل المدينة طروق العدو ومنها تمثال كلما مضت من الليل ساعة صوت صوتا مطربا وكان بأعلاها مرآة ترى القسطنطينية وبينهما عرض البحر فكلما جهز الروم جيشا رأي في تلك المرآة.

وحكى المسعودي أن هذه المنارة كانت في وسط الإسكندرية وأنها تعد من بنيان العالم العجيب بناها بعض ملوك اليونان يقال انه الأسكندر لما كان بينهم وبين الروم من الحروب فجعلوا هذه المنارة مرقبا وجعلوا فيها مرآة من الأحجار المشففة يشاهد فيها مراكب البحر إذا أقبلت[2] من رومة على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها ولم تزل كذلك إلى أن ملكها المسلمون فاحتال ملك الروم لما انتفع بها المسلمون في مثل ذلك على الوليد بن عبد الملك بأن أنفذ أحد خواصه ومعه جماعة إلى بعض ثغور الشام

---

(١) في حسن المحاضرة سرطانات.

(٢) في جميع النسخ انقلبت.

على انه راغب في الإسلام فوصل إلى الوليد وأظهر الإسلام وأخرج كنوزا ودفائن بالشام مما حمل الوليد على أن صدقه على ان تحت المنارة أموالا ودفائن وأسلحة دفنها لإسكندر فجهزه مع جماعة من ثقاته إلى الإسكندرية فهدم ثلث المنارة وأزال المرآة ثم فطن الناس أنها مكيدة فاستشعر ذلك فهرب في مركب كانت معدة له ثم بني ما تهدم بالجص والآجر.

قال المسعودي وطول هذه المنارة في وقتنا هذا وهو سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة مائتان وثلاثون ذراعا وكان طولها قديما نحو أربعمائة ذراع وبناؤها في عصرنا ثلاثة أشكال فقريب من الثلث مربع مبني بالحجارة ثم بعد ذلك بناء مثمن الشكل مبني بالآجر والجص نحو ستين ذراعا وأعلاها مدور الشكل.

قال صاحب مباهج الفكر وكان أحمد بن طولون بنى في أعلاها قبة من الخشب فرمتها[1] الرياح فبني مكانها مسجد في أيام الملك الكامل صاحب مصر ثم أن وجهها البحري تداعى وكذلك الرصيف الذي بين يديها من جهة البحر وكادا ينهدمان وذلك أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس فرمه وأصلحه وذكر ابن فضل الله في المسالك أن هذه المنارة قد خربت وبقيت أثرا بلا عين فكان هذا وقع في أيام قلاوون أو ولده.

قال ابن المتوج في كتابه إيقاظ المتغفل من العجائب منارة الإسكندرية التي بناها ذو القرنين وكان طولها أكثر من ثلاثمائة ذراع مبنية بالحجر المنحوت مربعة الأسفل وفوق المنارة المربعة منارة مثمنة مبنية بالآجر وفوق المنارة المثمنة منارة مدورة وكانت كلها مبنية بالصخر المنحوت على أكثر من مائتي ذراع وكان عليها مرآة من الحديث

---

(١) في حسن المحاضرة فهدمتها.

الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها جميع من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم فإن كانوا أعداء تركوهم فإذا قربوا منها ومالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن حتى يقع شعاع الشمس في ضوء المرآة فتحترق السفن في البحر عن آخرها ويهلك كل من فيها وكانوا يؤدون الخراج ليأمنوا بذلك من أحراق المرآة لسفنهم فلما فتح عمرو بن العاص الإسكندرية احتالت الروم بان بعثت جماعة من القسيسين المستعربين وأظهروا أنهم مسلمون وأخرجوا كتابا زعموا أن ذخائر ذي القرنين في جوف المنارة فصدقتهم العرب لقلة معرفتهم بخيل الروم وعدم معرفتهم بمنفعة تلك المنارة والمرآة وتحيلوا أنهم إذا أخذوا الذخائر والأموال أعادوا المنارة والمرآة على ما كانت فهدموا مقدار ثلثي المنارة فلم يجدوا فيها شيئا وهرب أولئك القسيسون فعلموا حينئذ أنها خديعة فبنوها بالاجر ولم يقدروا ان يرفعوا إليها تلك الحجارة فلما أتموها نصبوا عليها تلك المرآة كما كانت فصدئت فلم يروا فيها شيئا وبطل إحراقها والنصف الأسفل من عمل ذي القرنين يدخل الإنسان من الباب الذي بالمنارة وهو مرتفع عن الأرض مقدار عشرين ذراعا يصعد إليه من قناطر مبنية بالصخر المنحوت فإذا دخل من باب المنارة يجد على يمينه بابا فيدخل منه إلى مجلس كبير طوله عشرون ذراعا مربعا يدخل فيه الضوء من جانبي المنارة ثم يجد بيتا آخر مثله ثم مجلسا ثالثا ومجلسا رابعا كذلك قال ولقد عملت الجن لسليمان بن داود عليهما السلام في الإسكندرية مجلسا من أعمدة الرخام الملون المجزع كالجزع اليماني المقصول كالمرآة إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشي خلفها لصفائها وكان عدد الأعمدة ثلاثمائة عمود وكل عمود بثلاثمائة ذراع[1] وفي وسط المجلس عمود واحد يتحرك شرقا وغربا يشاهد ذلك الناس ولا يدرون ما سبب حركته.

---

(١) في حسن المحاضرة ثلاثون ذراعا وهو الأصوب وفيها هنا أيضا زيادة في العبارة.

ومن عجائب الإسكندرية السواري والملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ويرمون بالاكرة فلا تقع في حجر واحد منهم إلا ملك مصر وكان يحضر هذا الملعب ما شاء الله من الناس ما يزيد على ألف ألف رجل فلا يكون منهم أحد وهو ينظر في وجه صاحبه ثم أن قرئ كتاب سمعوه جميعا أو لعب لون من الألوان في ذلك الملعب رأوه عن آخرهم.

وقد حضر سيدي عمرو بن العاص رضي الله عنه هذا الملعب معهم في الجاهلية وذلك انه قدم لبيت المقدس في نفر من قريش لتجارة فإذا هم بشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس فخرج في بعض جبالها يسيح وكان عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه وكانت رعاية الإبل بينهم نوبا فبينما عمرو يرعى إبله وإبل أصحابه إذ مر به ذلك الشماس وقد أصابه عطش شديد في يوم شديد الحر فوقف على عمرو فاستسقاه فسقاه عمرو من قربة له فشرب حتى روي ونام الشماس مكانه وكان إلى جانب الشماس حيث نام حفرة فخرج منها حية عظيمة فبصرها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها فلما استيقظ الشماس نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو وما هذه الحية فأخبره الخبر عمرو وانه رماها بسهم فقتلها فأقبل إلى عمرو فقبل رأسه وقال قد أحياني الله بك مرتين مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية فما أقدمك هذه البلاد قال قدمت مع أصحاب لي نطلب الفضل من تجارتنا فقال له الشماس وكم ترجو أن تصيب من تجارتك فقال رجائي أن أصيب ما اشتري به بعيرا فأني لا أملك إلا بعيرين فأملي أن أصيب بعيرا آخر فتكون لي ثلاثة أبعرة فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم كم هي فقال مائة من الإبل فقال له الشماس لسنا أصحاب إبل بل إنما نحن أصحاب دنانير فقال تكون ألف دينار فقال له الشماس أني رجل غريب في هذه البلاد وإنما قدمت أصلي في كنيسة بيت المقدس وأسيح في هذه البلاد شهرا جعلت ذلك نذرا على نفسي وقد قضيت ذلك وأنا أريد الرجوع إلى

بلادي فهل لك أن تتبعني إلى بلادي ولك علي عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله أحياني بك مرتين فقال له عمرو وأين بلادك قال مصر في مدينة يقال لها الإسكندرية فقال له عمرو لا أعرفها ولم أكن دخلتها قط فقال له الشماس لو دخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها فقال له عمرو أو تفي لي بما تقول وعليك بذلك العهد والميثاق فقال له الشماس نعم علي عهد الله وميثاقه أن أفي لك وأن أردك إلى أصحابك فقال له عمرو كم يكون مكثي في ذلك فقال له شهرا تنطلق معي ذاهبا عشرا وتمكث عندنا عشرا وترجع في عشر ولك علي أن أحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يحفظك راجعا فقال له عمرو انظرني حتى أشاور أصحابي في ذلك فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس وقال لهم أقيموا حتى أرجع إليكم ولكم علي العهد أن أعطيكم شطر ذلك على أن يصحبني رجل منكم آنس به فقالوا له نعم وبعثوا معه رجلا منهم فانطلق عمرو وصاحبه مع الشماس إلى مصر حتى انتهوا إلى الإسكندرية فرأى عمرو من عمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها فأزداد عجبا ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم ولهم اكرة من ذهب يترامى بها ملوكهم وهم يتلقونها بأكمامهم وفيما اختبروا من تلك الاكرة على ما وضعها من مضى منهم أن من وقعت الاكرة في كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله وكساه ثوب ديباج ألبسه إياه وجلس عمرو والشماس مع الناس في ذلك المجلس حيث يترامون بالاكرة وهم يتلقونها بأكمامهم فرمى بها رجل منهم فأقبلت تهوى حتى وقعت في كم عمرو فتعجبوا من ذلك وقالوا ما كذبتنا هذه الاكرة قط إلا في هذه المرة أترى هذا الأعرابي يملكنا هذا ما لا يكون أبدا.

قلت قد ملكهم قسرا ودوخهم قهرا في فتح مصر وان ذلك الشماس مشى في أهل الإسكندرية وأعلمهم أن عمرا أحياه مرتين وانه قد ضمن له ألفي دينار وسألهم أن

يجمعوا له ذلك فيما بينهم ففعلوا ودفعوها إلى عمرو فانطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما حتى رجع هو وصاحبه إلى أصحابهما فبذلك عرف عمرو مدخل مصر ومخرجها وعلم منها ما رأى وعلم أنها أفضل البلاد وأكثرها مالا فلما رجع عمرو إلى أصحابه دفع إليهم فيما بينهم ألف دينار وأمسك لنفسه ألفا قال عمرو وكان ذلك أول مال تأثلته.

ومن عجائبها المسلتان وهما جبلان قائمان على سرطانات من نحاس في أركانهما كل ركن على سرطان فلو أراد أحد أن يدخل تحتها شيئا يعبرها من جانبها الآخر فعل[1].

ومن عجائبها عمود الأعياء وهما عمودان متلقيان وراء كل عمود منهما جبل حصى كحصى الجمار فمتى أقبل التعب النصب بسبع حصيات من ذلك الحصى فاستلقى على أحداهما ثم رمى وراءه بالسبع حصيات ويقوم ولا يلتفت ويمضي لطلبته قام كأنه لم يتعب ولم يحس بشيء.

ومن عجائبها القبة الخضراء وهي أعجب قبة ملبسة نحاسا كأنه الذهب الإبريز يبليه القدم ولا يخلقه الدهر.

ومن عجائبها منية[2] عتبة وحصن فارس وكنيسة أسفل الأرض وهي مدينة على مدينة وليس على وجه الأرض مثلها ويقال أنها أرم ذات العماد سميت بذلك لأن عمدها لا يرى مثلها طولا وعرضا انتهى مع بعض حذف وتغيير وتقديم وتأخير.

---

(١) هكذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية أن يدخل تحتها حتى يعبرها من جانبها الآخر فعل وفي حسن المحاضرة أن يدخل من جانبها شيئا حتى يعبر إلى جانبها الآخر فعل.

(٢) في حسن المحاضرة مينة.

قلت وما ذكر في الإسكندرية من الغرائب والأبنية والعجائب[١] لم يبق بها الآن سوى عمود السواري وغيره اجتاحه الدهر وأبلاه، واستأصله وأفناه، ولم يبق لها من الآثار إلا ما يذكر في الأخبار، والدوام والبقاء لله الواحد القهار، إلى أن قال.

ومن مزاراتها غير ما تقدم مشهد سيدي علي البدوري رضي الله عنه ومنها قبر الخزرجي مشهور هناك بنسبته ولا أدري هل هو صاحب المنظومة في العروض أو غيره وبازائه قبر الإمام الفاكهاني ومنها قبر الإمام الشيخ الصالح سيدي عبد الرزاق أجل تلامذة الشيخ سيدي أبي مدين رضي الله عنهما وأجل من نشر طريقه بعده وأخذها الناس عنه وقدره بين أهل الطريقة معروف ومنها زاوية[٢] أبي الحسن الشاذلي كان يأوي إليها هو وأصحابه وهي قلعة كبيرة في سور البلد الشرقي فيها بيوت متعددة ومنها قبر سيدي أحمد المناري وهو مشهور البركة وسبب تسميته بالمناري على ما قالوا أنه قدم البلد ومعه حمارة له وقال لهم أين أبيت فأشاروا كالمستهزئين به إلى المنارة فقال لهم بسم الله وصعد بحمارته إلى أعلاها فاجتمع الناس ينظرون متعجبين وهذا في حق أولياء الله تعالى يسير والله على كل شيء قدير وهو العالم بحقيقة الأمر.

لطيفة حكي أن السلطان سليم العثماني لما دخل مصر وجاء إلى الإسكندرية طلع ذات يوم إلى كوم مشرف على البلد وجاءه أهل الإسكندرية وقالوا يا سلطان إن بلدنا هذا قد استولى عليه الخراب كما ترى فنريد كمال جودك أن ترحمنا وتصرف نظرك إلى عمران هذا البلد فإن مكانته من مدائن العالم معروفة فعسى أن يرجع إلى بعض حاله الأول على يدك فسكت عنهم ساعة وهو مطرق ثم رفع رأسه إليهم وقال لهم إن هذه

---

(١) في الرحلة الناصرية بإسقاط والعجائب.

(٢) في الرحلة الناصرية قلعة.

البلدة قد نظر إليها الحق وقال لها كوني دكا(١) وأنا لا أقدر أن أعمر ما أذن الله في خرابه فانصرفوا عنه.

قال أبو سالم لقد نظر هذا الملك نظرة عارف وغاص بفكره الفائق في دقائق حكمة الله تعالى الجارية في مملكته فكأنه نظر إلى ما اشتملت عليه هذه المدينة من المرافق الدنيوية واكتنفها من أسباب العمران مع توسطها في الممالك الإسلامية وجمعها بين الأسباب البرية والبحرية والأجناس البدوية والحضرية فبابها الشرقي متصل بأرياف مصر التي هي مزرعة الدنيا التي لا نظير لها وبابها الغربي متصل ببادية برقة الفاصلة بين بلاد المشرق والمغرب فلا بادية في الدنيا تدانيها في اتساع الأقطار وطيب المرعى وصحة الهواء وبابها البحري مقابل لأرض الروم التي تجلب منها البضائع النفيسة فإذا كانت بهذه الحيثية فأسباب العمران متوفرة بها فلا موجب لخرابها إلا إرادة الحق ونظره إليها بعين الجلال لتكبرها واستعلائها على غيرها من البلدان وحق على الله أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه وإذا كان خرابها بكلمة كن من الله فلا مطمع للعبد في عمران ما أذن الله في خرابه.

ولعمري إن هذا نظر مصيب وفكر عجيب ولا عجب في ذلك فإن السلطان سليم رحمه الله كان معروفا بإصابة الرأي وثقابة الذهن وجودة التدبير في المملكة وبه فخمت دولة بني عثمان وهو المستولي على الممالك الشامية والمصرية والحجازية وما والاها من البلاد.

وبالجملة فهي من أمهات المدائن المذكورة في الدنيا وهي دار مملكة الديار المصرية قبل الإسلام وبها كان المقوقس الذي كان في زمانه عليه الصلاة والسلام وناهيك

---

(١) كذا في نسخة وفي الرحلة الناصرية وأما في الرحلة العياشية ففيها «كذا» وهو الأصوب وفي ثلاث نسخ «ددا» وفي هامش أحداها ما نصه لعله دثارا.

بفخامة ملك بانيها الإسكندر وشهرته واستلائه على الممالك.

وقد ذكر المؤرخون أخباره وأخبار بنائه لهذه المدينة وكيفية بنيانها وانه جعلها مديتين إحداهما تحت الأرض والأخرى فوقها ظاهرة وإن الماء يجري من النيل أيام فيضه حتى تمتلئ السفى ويستقي من في العليا من تحته وآثار ذلك باقية إلى الآن.

انعطاف إلى ما كنا بصدده وهي إقامتنا بمصر أكثر الشهر من صفر إلى أوائل ربيع الأول إلى العشرين[١] منه والله اعلم فإن مصر أمرها عظيم وحالها غريب كاد أن لا يوجد مثلها وقد ذكرت في القرآن في ثمانية وعشرين موضعا بين التصريح والتلويح لولا الإطالة لذكرتها تفصيلا ومن أراد ذلك فلينظر حسن المحاضرة وفيها من العجائب والغرائب وحسن الأخبار ونزهة الأنظار وغاية الاعتبار وشوارق[٢] الأفكار ما يغني عن اعتبار غيرها.

وقد ذكر السيوطي في هذا الكتاب حدها وقال ما نصه ومما هو معدود في كور مصر كورة القلزم على ثلاثة أيام من مصر خربت ومن أعمال مصر الجليلة [٣] الصعيد إلى أن قال

---

(١) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة من صفر وأوائل ربيع الأول إلى العشرين وهو الأصوب.

(٢) في نسخة وتنوير.

(٣) بياض في نسختين وفي غيرهما لم ينبه عنه ولينظر هذا الكلام في حسن المحاضرة فانه وقع هناحذف كبير.

ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة والسلام

أن آدم أوصى لأبنه شيث فكان فيه وفي بنيه النبوءة والدين وأنزل الله عليه تسعا وعشرين صحيفة وانه جاء إلى أرض مصر وكانت تدعى بابلون فنزل بها هو وأولاد أخيه فسكن شيث فوق الجبل وسكن أولاد قابيل فوق الوادي إلى أن قال.

ذكر من ملك مصر قبل الطوفان

نقراوس وكان عالما بالكهانة والطلسمات ويقال انه بنى مدينة أقسوس وعمل بها عجائب كثيرة منها أنه عمل صنمين من حجر أسود في وسط المدينة إذا قدمها سارق لم يقدر أن يزول عنها حتى يسلك بينهما فإذا سلك بينهما أطبقا عليه فيؤخذ وكانت مدة ملكه مائة وثمانين سنة إلى قال.

وذكر بعض من آلف في أخبار مصر أن سفينة نوح طافت بمصر وأرضها فبارك نوح فيها وأن أولاده سكنوا مصر ومن ولد ولده مصر بن بيصر بن حام وقد دعا له جده فأجيبت فيه دعوته وأسكنه الأرض المباركة وفي بعض التواريخ لما مات مصر بن بيصر كتب على قبره مات مصر بن بيصر بن حام بن نوح بعد الألفين وستمائة عام من الطوفان ولم يعبد الأصنام وهو الذي بنى أهرام دهشور إلى أن ملكها يوسف عليه السلام وهو ابن ثلاثين سنة ثم دخل يعقوب عليه الصلاة والسلام وولده مصر وهم ثلاث وسبعون نفسا بين رجل وامرأة فأنزلهم يوسف بين عين شمس إلى الفرما[1] وهي أرض ريقفية وخرجوا وهم ستمائة ألف وأن أولاد يوسف ثلاث وسبعون نفسا وخرجوا وهم ستمائة ألف أيضا ويعقوب عاش في أرض مصر ست عشرة سنة ومات ودفن في أرض كنعان فلملك مصر بعده فرعون وكان في عصر يوسف وأدرك يعقوب وهو قبطي من قبط مصر اسمه ظلمي وكان يكنى بأبي مرة من العمالقة واسمه الوليد بن مصهب[2] وكان قصيرا وقد مكث أربعمائة سنة لم يصدع له رأس وكان يملك ما بين مصر إلى إفريقية وكان يقعد على كراسيه مائتان عليهم الديباج وأساور الذهب إلى أن غرق مع جنوده وأما يوسف فقد مات في مصر وحمل إلى بيت المقدس

---

(١) في حسن المحاضرة الغرما.

(٢) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة مصعب وفي حسن المحاضرة مصعت.

بعد أن دفن بها نحوا من مائتين وعشرين سنة إلى أن قال.

ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مصر

منهم إدريس وإبراهيم الخليل وإسماعيل ويعقوب ويوسف واثنا عشر نبيا من ولد يعقوب وهم الأسباط ولوط وموسى وهارون ويوشع بن نون ودانيال وأرميا ولقمان على ما قاله بعضهم واختلف في نبوءته وأما من الصديقين فذو القرنين أي دخلها والخضر وفي نبوءتهما خلاف والقول بنبوءة الخضر حكاه أبو أحيان عن الجمهور وجزم به الثعلبي وقال ابن عباس ومحمد بن إسحاق انه نبي مرسل ونصر هذا القول أبو الحسن الرماني ثم ابن الجوزي وإن ذا القرنين دفن في الإسكندرية ومات بأرض بابل ثم حمل إليها وقد قيل أنه عاش ألف سنة وقيل ألفا وستمائة سنة وقيل ثلاثة آلاف سنة وأما النساء فقد دخلن مصر مريم وسارة زوج الخليل وآسية امرأة فرعون وأم موسى وقد قيل بنبوءتهن حكى ذلك الشيخ تقي الدين السبكي في فتاويه المعروفة بالحلبيات وقد قال ابن عبد الحكم يقال أن موسى عليه السلام قتل عوجا بمصر أعني عوج بن بيصر وكان طول سرير عوج ثمانمائة ذارع وعرضه أربعمائة وكان طول عصا موسى عشرة أذرع وطوله كذلك فضربه فأصاب كعبه فخر على نيل مصر وقد عاش ثلاثة آلاف سنة وستمائة سنة ولم يعش أحد هذا العمر وقد قيل انه ولد في عهد آدم وانه لما مات وقع جسده على النيل جبسرهم سنة.

ذكر عجائب مصر القديمة

وقد قيل أن عجائب الدنيا ثلاثون أعجوبة عشرة منها بسائر البلاد وهي مسجد دمشق وكنيسة الرها وقنطرة طنج وقصر عمان وكنيسة رومية وصنم الزيتون وإيوان كسرى بالمدائن وبيت الريح بتدمر والخورنق بالحيرة والثلاثة أحجار ببعلبك والعشرون الباقية بمصر وهي الهرمان وهما أطول بناء وأعجبه ليس على الأرض بناء أطول منهما وإذا رأيتهما ظننت أنهما جبلان موضوعان ولذلك قال بعض من رآهما ليس شيء إلا وأن أرحمه من الدهر إلا الهرمان فأنا أرحم الدهر منهما وصنم الهرمين وهو بلهوية ويقال بلهنيت وتسميه العامة أبا الهول والفيوم وهي مدينة دبرها يوسف عليه السلام بالوحي وكانت ثلاثمائة وستين قرية على كل قرية منها مصر يوما وليس في الدنيا بلد بني بالوحي غيرها وجبل الطير فيه أعجوبة لم ير مثلها وهي باقية إلى الآن ومنها النيل ومنها الإسكندرية مدينة على مدينة على ثلاث طبقات وليس على وجه الأرض مدينة على مدينة على هذه الصفة سواها وأما الأهرام فهي في زمان شداد بن عاد أي بنيت كما ذكره البعض وإلا فأهل المعرفة لم ينصوا عليها والذي بنى الأهرام سوريد ابن سلهوق ملك مصر وكان قبل الطوفان بثلاثمائة سنة وبناها لسبب فانظره في هذا الكتاب وعليها كتابة منقوشة تفسيرها بالعربية أنا سوريد الملك بنيت الأهرام في وقت كذا وكذا وأتممت بناءها في ست سنين[1] فمن أتى بعدي وزعم انه مثلي فليهدمها في ستمائة سنة وقد علم أن الهدم أيسر من البناء وأني كسوتها عند فراغها الديباج فليكسها بالحصر وأتى بعض الملوك لنقب كوة في الحائط فانفق عليه ألف دينار فوجد ما أنفقه فيه كذلك ولما فتحه المأمون أقام الناس يدخلونه فمنهم من يسلم ومنهم من يموت وقال بعض الشعراء وهو عمارة اليمني:

---

(١) في نسخة ستين سنة.

خليلي ما تحت السماء بنية ... تماثل في اتقانها هرمي مصر
بناء يخاف الدهر منه وكلما ... على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفي في بديع بنائها ... ولم يتنزه في المراد بها فكري

ومن عجائب مصر في الإسلام فتحها في زمان عمر مع كثرة القبط والروم وقلة العرب وكذا المسجد الجامع الذي بناه عمرو بن العاص وكذا جبل يشكر الذي عليه جامع ابن طولون يقال انه قطعه من الجبل المقدس ويشكر رجل صالح وإن هذا الجبل يستجاب فيه الدعاء وكان يصلي عليه التابعون وقد أشار ابن الصلاح على ابن طولون أنه يبني جامعه فيه.

ومن عجائبها أيضا في الإسلام فتح برقة إذ وجه عمرو بن العاص عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وصار ما بين برقة وزويلة للمسلمين والذي سكن طرابلس وهي برقة لواتة وتفرقت في هذا المغرب وانتشروا فيه ونزلت هوارة مدينة لبدة فسار عمرو بن العاص في الخيل حتى قدم برقة فصالح أهلها على ثلاثة ألف ألف دينار[1] يؤدونها إليه جزية على أن يبيعوا من أحبوا من أبنائهم في جزيتهم ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج وإنما كانوا يبعثون بالجزية إذا جاء وقتها انتهى من حسن المحاضرة بالمعنى ومن عجائب ما وقع في فتح مصر في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ذكره صاحب عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبي ما نصه.

ولما فتحت مصر في خلافة عمر رضي الله عنه استولى عليها عمرو بن العاص فلما دخل شهر يونيه وهو عندهم خير زمان أتى أهلها عمرو بن العاص وقالوا له أن النيل عندنا له سنة لا يفيض إلا بها قال له وما ذلك قالوا إذا انتصف هذا الشهر عمدنا إلى

---

(١) في نسخة ثلاثة آلاف دينار.

جارية بكر حسنة فأرضينا أبويها بالأموال وألبسناها الحلي والحلل فألقيناها في النيل فقال لهم إن الإسلام يهدم ما قبله فمكثوا ثلاثة أشهر والنيل لم يفض شيئا فأتى الناس إلى عمرو بن العاص وقالوا أن لم نفعل عادتنا أجدبنا فكتب عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأعلمه بذلك فأخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بطاقة وكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت تفيض بيا تفيض فلا تفض وإن كان الله الواحد القهار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك فأرسل البطاقة لعمرو بن العاص وقال له ألقها في النيل فألقاها يوم الجمعة فأصبحوا يوم السبت وقد فاض النيل في ليلة ستة عشر ذراعا وقطع تلك العادة من ذلك الوقت ولم يشاهد النيل فاض قط مثل ذلك المقدار إلا مرتين هذه الواحدة والأخرى في زمان موسى عليه السلام لما أهلك الله فرعون وكان عمر يقول الحمد لله الذي وافق مراده مرادنا في أشياء كثيرة أني قلت يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ وكسر الخاء هو المشهور من القراءات وقلت يا رسول الله لو صلينا لبيت الله الحرام فأنزل الله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ وقلت يا رسول الله أحجب نساءك فانه يراهن البر والفاجر فأنزل الله آية الحجاب.

قال كعب الأحبار وضع الله في الدنيا أربعة أنهار من الجنة نهر من عسل وهو النيل ونهر من خمر وهو الفرات ونهر من ماء وهو سيحان ونهر من لبن وهو والله اعلم جيحان ذكره في كتاب الهداية وكان عمر رضي الله تعالى عنه مر بعبد يرعى غنما فقال له يا راعي بعني شاة يريد اختباره فقال له العبد أني أجير وليس الغنم لي فقال له عمر قل لسيدها أهلكها الذئب فقال له العبد وأين الله فبكى عمر واشتراه وأعتقه لله وقال له أعتقتك لكلمة في الدنيا ولعلها تعتقك في الآخرة ولم يكن في الخلفاء من يهابه الخلق مثل عمر رضي الله تعالى عنه لأنه كان للأرامل كالزوج المقيم وللأيتام كالأب الرحيم

فلما توفي قال الناس ذهب تسعة أعشار من العلم.

ومن فضائل عمر رضي الله تعالى عنه أنه لم يستطل بلسانه قط على مسلم ما دام في الخلافة بل يعطي الشريف منزلته والوضيع منزلته ولا يخاف في الله لومة لائم ينزل نفسه في مال الدنيا منزلة رجل مسلم ما دام في الخلافة فقيل له أن الله تعالى أولاك على أموال المسلمين فخذ ما تقوم به ضرورياتك فيقول أني كولي اليتيم إن احتجت أكلت وأن استغنيت استعففت والذي قتل عمر هو العلج وكانت خلافته رضي الله عنه عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام مات وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وأما مدة خلافة أبي بكر فستتان وثلاثة أشهر وعشرة أيام ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة وغزواته اثنتان وثمانون غزوة حضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مشاهده كلها وهي تسعة وعشرون وثلاث وخمسون غزوة في خلافته وقال صلى الله عليه وسلم أخبرني جبريل عن فضائل عمر فقال لو حدثتك عن فضائل عمر ما لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ما نفدت فضائل عمر[1] وأن عمر حسنة من حسنات أبي بكر وكان صلى الله عليه وسلم قال لقد استبشر بإسلام عمر أهل السموات وأهل الأرض وأن الحق لينطق على لسانه وإن من أمتي محدثين وأن عمر منهم والله ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غيره وانه اجتمع باويس القرني وذلك بأخبار النبي صلى الله عليه وسلم وانه يشفع في مثل ربيعة ومضر.

وأما غزوات عمر على ما ذكره المؤرخون فثلاثمائة غزوة منها المشاهد النبوية كلها وهي تسعة وعشرون منها أربع للشام خرج فيها بنفسه ومنها واحدة لفتح بيت المقدس ومنها خمسون للروم ومنها مائتان وأربع وخمسون ببلاد فارس وبلاد الأعاجم

---

(١) كذا في نسختين وفي نسخة أخبرني جبريل عن فضائل عمر وان عمر حسنة إلخ وفي أخرى أخبرني جبريل عن خمسين عاما ما نفدت إلخ.

كل ذلك مع أصوات ورجفات لا تكاد تنضبط ولا تفي بذكرها المجلدات.

وأما عثمان فغزواته أربع وخمسون غزوة في البحر[1] وكان له في جميعها وقائع عظام ومحاصرات وحروب لأهل الكفر لا تكاد تنضبط بالذكر واللسان والذي في التاريخ غزواته مائة وعشرون غزوة حضر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع المشاهد النبوية إلا بدرا وبيعة الرضوان فانه لم يحضرها لعذر كان به إلخ ما ذكره في هذا الكتاب ويجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في عبد مناف وكان يلقب بذي النورين لأنه تزوج رقية وأم كلثوم بنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى إلى القبلتين وهاجر الهجرتين هجرة الحبشة وهي الأولى ثم هاجر إلى المدينة وفضائله لا تعد ولا تحصى ولا تضبط ولا تستقصى ولما كانت الليلة التي قتل فيها رضي الله عنه في يومها رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نومه وهو يقول يا عثمان فطرك غدا عندنا فقتل رضي الله عنه في ذلك اليوم وهو يوم الجمعة بعد صلاة العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر في أيام التشريق من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين من الهجرة وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة.

وأما علي رضي الله تعالى عنه فتولى الخلافة يوم موت عثمان وهو أول من أسلم من الصبيان وأول من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد معه المشاهد كلها إلا غزوة تبوك وأسلم رضي الله عنه وهو ابن تسع سنين شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وزوجه ابنته فاطمة الزهراء وبعث معها إليه لما أتته[2] خميلة ووسادة من جلد محشوة ليفا ورحيين وسقاء وجرتين فلما قتل عثمان أتى الناس إليه وقالوا لا

---

(١) في نسخة بإسقاط في البحر.

(٢) في نسخة بما اتته به.

بد لنا من إمام وأنت أولى بها فأبى عليهم فلم يزالوا به[1] حتى بايعوه بالمسجد وحضر طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص والأعيان كلهم ولم يتخلف عن بيعته إلا معاوية ومن كان معه من أهل الشام وإنما بايعه الناس لقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثرة علمه وفهمه وشجاعته وزهده وحلمه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت مني بمنزلة هارون من موسى وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم علي مني وأنا منه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا مدينة السخاء وأبو بكر بابها أنا مدينة الشجاعة وعمر بابها وأنا مدينة الحياء وعثمان بابها وأنا مدينة العلم وعلي بابها إلى غير ذلك مما قاله صلى الله عليه وسلم في شأنه وكان علي رضي الله عنه مشهورا بعلم قلبي أفاضه الله عليه بدعائه صلى الله عليه وسلم له فكان يستخرج من الحروف المقطعة التي في أوائل السور وقائع الغزوات ودقائق المغيبات وليس في العلوم الغريبة علم إلا وينتهي إليه رضي الله عنه وعلي استنبط النحو وأملى على أبي الأسود الدؤلي.

ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم له أكظم غيظك يا علي فيملأ الله قلبك نورا وصدرك علما وحلما ورحمة واستر عيوب الناس فيستر الله عيوبك في الدنيا والآخرة ولا تعير أحدا بما فيه فيبتليك الله ويعافيه جالس الفقراء فإن رحمة الله لا تفارقهم مجالسة الأغنياء تميت القلب وتنسي الموت ومجالسة الفقراء تحي القلب وتذكر ما عند الله من الفضل للسعيد ثلاث علامات قول الحق ولو على نفسه والرغبة في طاعة الله والفرار عن معصية الله وللشقي كذلك جمود العين وقساوة القلب وحب الدنيا وقال أيضا لا فقر أشد من الجهل ولا مال أكثر من العقل ولا ورع أحسن من الكف عن محارم الله ولا معيشة اهنأ من العافية ولا حسنة أعظم من البر وحسن الخلق ولا سيئة أشد من الحدة وسوء الخلق ولا عبادة كالتفكر في عبادة الله وقال أيضا كن

(١) في ثلاث نسخ عليه.

عالما أو متعلما ولا تكن الرابع فتهلك وهو الذي لا يعلم ولا يتعلم ولا يسمع ووصاياه له كثيرة لا تحصى.

وقال أيضا كيف بك يا علي إذا زهد الناس في الآخرة ورغبوا في الدنيا[1] وأكلوا التراث أكلا لما وأحبوا المال حبا جما الحديث قال اتركهم وما اختاروا واختار الآخرة لنفسي واصبر على مصائب الدنيا وبلواها حتى ألحق بك يا رسول الله قال صدقت اللهم أفعل ذلك به وفضائله لا تعد ولا تحصى بدليل أن الله باهى بعلي ملائكة السبع سموات إلى غير ذلك وهو الذي قتله ابن ملجم الخارجي إذ بن ملجم قال أنا أكفيكم علينا وأما البرك قال أنا أكفيكم معاوية وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرو بن العاص وهم رؤساء الإسلام وذلك أن عليا قتلهم يوم النهروان حتى كاد أن يأتي على آخرهم وهذه الطوائف كلها خوارج وافترقوا في الاعتقاد فكل على الضلال لا سيما من يعتقد ألوهية علي وقد قاتلهم وأحرقهم على ذلك فلم يرجعوا قيل دفن علي وهو أول إمام خفي قبره لأنه أوصى بذلك لعلمه أن الأمر يصير إلى بني أمية فيمثلون بقبره وقبور ذريته.

وقد اختلف الناس في موضع دفنه فقيل في زاوية جامع الكوفة وقيل في بقيع المدينة وقيل بالخيف من منى وقيل حمل إلى بلاد طيء في تابوت على ناقته والله أعلم بذلك كله وكيف كان وأما غزواته فثلاث وثلاثون غزوة حضر المشاهد النبوية كلها وقتل رضي الله عنه سنة ثمان وثلاثين من الهجرة وكانت خلافته أربع سنين وأربعة أشهر وثمانية أيام وأما البرك المتقدم فانه وصل إلى الشام في تلك الليلة وضرب معاوية في المسجد فأصابه على وركه وكان عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك فأخذه وأراد البطش به فقال له أخبركم أن عليا قتل في هذه الليلة فلا برئ

---

(١) في ثلاث نسخ في الأخرة.

معاوية قطع يده ورجله وأطلقه وكان على البصرة يزيد بن معاوية فلما دخل البصرة قتله وقال يولد للبرك ولا يولد لأمير المؤمنين ومن ذلك الوقت أمر معاوية باتخاذ المقصورة وأما ابن بكر فأخذه الناس وجلبوه إلى عمرو بن العاص فقتله بقتل خارجة.

وأما الحسن فقد بويع بعد موت أبيه ثم كتب لمعاوية إلى الشام إن حملت شرطي سلمت لك الأمر لما رأيت في ذلك من جمع كلمة المسلمين ثم اشترط عليه شروطا فقبلها معاوية وحملها له قيل انه أخذ منه مائة ألف درهم وقيل أربعمائة ألف دينار وقيل انه شرط عليه ان يمكنه بها في بيت مال المسلمين فمكنه وقد قال صلى الله عليه وسلم فيه ان أبني هذا السيد ويصلح الله به بين فتئين عظيمتين من المسلمين فلما أخذ المال خلع نفسه ورجع للمدينة فعوتب من أجل ذلك فقال اخترت الجماعة على الفرقة وحقن الدماء على سفكها والعار ولا النار ثم بعد ذلك كان يمشي لبيت الله الحرام على رجليه والنجائب تقاد بين يديه من كل جانب عشرين مرة يقول استحيي أن ألقى الله ولم أمش إلى بيته وقد خلع[1] عن ماله مرتين لله وعن نصفه ثلاثا وكانت خلافته ستة أشهر وستة أيام تتميما للخلافة التي أشار إليها صلى الله عليه وسلم فانه قال الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة ثم ترجع ملكا بعد ذلك فكانت خلافة الحسن تمام الثلاثين سنة بعده صلى الله عليه وسلم ومات الحسن رضي الله عنه ابن سبع وأربعين سنة.

فائدة لما بلغ عمر بن عبد العزيز الغاية في العدل والأنصاف والانتصاف حتى انه نزع ما في يد أقاربه من أموال السلطان وعزل من لا يراه أهلا لذلك أعطوا ألف دينار لخديمه الذي كان يأتيه بطعامه وشرابه وقت أفطاره على أن يلقي له السم في أكله وشربه فلما استقر في جوفه قال للخديم ما الذي حملك على هذا قال ألف دينار أعطيتها قال هاتها فاتاه بها فطرحها في بيت المال وقال له أنج بنفسك قبل أن يراك

(١) في نسخة انخلع.

الناس فيقتلونك بقتلي وكانت زوجه فاطمة بنت عبد الملك بن مروان تقول والله منذ ولي الخلافة ما اغتسل من جنابة وإنما نهاره في شأن الخلق وليله في عبادة الله.

ولما بلغ به الداء قال أجلسوني فأجلسوه فرفع يديه إلى السماء وهو مستقبل وقال إلهي أنك أمرتني فقصرت ونهيتني فعصيت ولكني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولما كان قبل موته بأيام بعث وفدا إلى ملك الروم فلما أتوه تلقاهم بالجميل إلى أن قال والله الرجل صالح وخير ملك في العرب كان يخاف الله تعالى والله تعالى لا يجمع بين خوفين على عبده ولقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لكان هو وليس عجبي من الرهبان الذين عبدوا الله في الصوامع ورؤوس الجبال وبطون الأودية وإنما عجبي من ملككم الذي صارت له الدنيا تحت قدمه لكن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر ومات وهو ابن أربعين سنة كانت سيرته كسيرة جده من أمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولقد وجدوا بطاقة مكتوبة بخط أبدع من خط العرب سقطت بردة فانكسرت تلك البردة فإذا فيها ورقة فيها بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله العزيز الجبار لعمر بن عبد العزيز من النار فوضعوها في أكفانه.

ولما توفي رحمه الله قال الفرزدق يرثيه:

أقول لما نعى الناعون لي عمرا	لقد نعيتم قوام الحق والدين
قد حان للرامسين اليوم من رمسوا[1]	بدير سمعان قسطاس الموازين
لم يلهه عمره عين يفجرها	ولا النخيل ولا ركض البراذين

وأما الدولة العباسية فأول من بويع فيهم السفاح واسمه عبد الله بن محمد بن علي

(١) هكذا في جميع النسخ وفي مروج الذهب «قد غيب الرامسون اليوم إذ رمسوا».

بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم سنة ثلاث وثلاثين ومائة فأخذ في قتل بني أمية ولم ينج منهم أحد إلا مستخفيا كعبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فر من العباسيين واستخفى ببلاد المغرب ثم قطع إلى الأندلس فقام في قرطبة سنة ثمان وثلاثين ومائة ملكا وملك الأندلس كلها وورث فيه الملك لبنيه وإخوانه فدامت خلافتهم أي بني أمية بالأندلس إلى سنة سبع وأربعمائة نحو الثلاثمائة سنة فظهر الشرفاء بنو حمود بالأندلس فيها سبع سنين فقام عليهم الثوار إلخ ثم بويع أخو السفاح أبو جعفر المنصور ولما كان بطريق الحج جاز بموضع يقال له الصافية فقال صفا أمرنا إن شاء الله وكان عابدا ناسكا بخيلا بالأموال إلا في النوائب وعند مستحقها ولما استقر الملك في يده بنى الخضراء أي قصره الجعفري.

ثم مات وولي ابنه محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور سنة ثمان وخمسين ومائة فكانت خلافته عشر سنين وتمكنت له الخلافة تمكينا عظيما وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبنى مدينة بين دجلة والفرات إلخ.

قال أهل التاريخ أن محمدا المهدي ليس هو المهدي الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي مني وأنا منه وقال صلى الله عليه وسلم يكون في أمتي المهدي يعيش تسعا أو سبعا يواطيء اسمه أسمي وأسم أبيه أسم أبي يملأ الأرض قسطا وعدلا قد تسمى بالمهدي محمد بن الحنفية وإليه انتسب جميع خوارج المشرق وقد اختفى في آخر عمره والمهديون كثيرون والثامن منهم هو المذكور المنتظر أجمع عليه العلماء آلف فيه محمد بن العربي الطائي كتابا سماه عنقاء مغرب في معرفة شمس الأولياء وقطب المغرب[1] وهو رجل محقق عارف مشهور في الولاية وهذا المهدي

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي كشف الظنون وبروكلمان عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب.

المنتظر هو المذكور في الأحاديث لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في أمتي المهدي يحثي المال لطالبه حتى لا تدع السماء في زمانه قطرة إلا صبتها ولا تدع الأرض نباتا إلا أخرجته حتى يتمنى الأحياء أن ترجع أمواتهم للدنيا وقال صلى الله عليه وسلم يكون اختلاف عند موت خليفة فيبايع الناس رجلا بمكة وهو كائن بين الركن والمقام وغير ذلك من الأحاديث المشهورة في ذكر الفاطمي المهدي وإنما ذكرنا هذا لئلا يظن أن المهدي واحد وقد قال صلى الله عليه وسلم لا مهدي ولا عيسى ومعناه لا مهدي كعيسى كقول القائل لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي أي لا سيف كذي الفقار ولا فتى كعلي هذا معناه.

[ثم بويع لموسى الهادي يوم مات أبوه وكان سنه أربعا وعشرين سنة بعهد من والده](1) وتوفي موسى الهادي ولم تكن ولايته إلا سنة وخمسة وأربعين يوما.

وبويع هارون الرشيد يوم موت أخيه موسى الهادي بولاية أبيهما لهما وولد لهارون الرشيد في تلك الليلة عبد الله المأمون فمات في تلك الليلة خليفة وتولى خليفة وولد خليفة في وقت واحد ومن حلمه وعفوه أن رجلا قام عليه في أطراف مملكته ومالت عنه كافة الخلق إلى ذلك الرجل فجهز له الجيوش وأنفق عليه الأموال العظام ولم يزل حتى أخذه بعد حروب كثيرة مات فيها أبطال هارون فلما أتي به إليه قال له هارون ما تريد أن أصنع بك الآن قال اصنع ما تريد أن يصنع الله بك بين يديه غدا قال هارون إنما أريد أن يعفو الله عني قال له وأنا أريد أن تعفو عني قال له قد عفوت عنك أذهب حيث شئت فلما خرج قال وزراءه هذا الذي أجرى عليك الفساد وقطع أبطالك وخسرت عليه أموالك حتى مسكته ثم أطلقته فأمر به فرد إليه فقال له يا أمير المؤمنين إن الملوك إذا عفوا لم يندموا فإن كان هؤلاء قد أندموك فلا تطعهم فإن الله لو

(1) ما بين القوسين لا يوجد إلا في نسخة واحدة.

أطاع الخلق فيك ما ولاك قال صدقت ثم أمر له بصلة من المال وصرفه على خير وكان شجاعا مجاهدا في الكفار وله وقائع عظيمة ومن يوم ولايته لا ينام حتى يوتر ولا يوتر حتى يصلي مائة ركعة وكل ليلة يتصدق بألف درهم.

وقد قال الغزالي لما هنأه العلماء في الولاية تخلف سفيان الثوري وكان أخا له في الله فكتب له هارون بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى أخي سفيان الثوري أما بعد فقد علمت أن الله تعالى آخى بين المؤمنين وكان فيما بيني وبينك مؤاخاة لم نصرم منك حبك، ولم نقطع منها ودك وأني منتظر لك، وقد علمت بفضل المحبة ولولا قلادة الإمارة لأتيتك وقد زارني جميع الناس وإخواني وأعطيتهم الجوائز السنية وأنني انتظرك وقد استبطأتك فلم تأتيني فكتبت شوقا مني إليك ولقد علمت فضل زيارة المؤمن ومواصلته فإذا ورد عليك كتابي هذا فالعجل العجل فلما وصل الكتاب للكوفة لسفيان كتب له في ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من العبد الميت سفيان بن سعيد بن منذر الثوري إلى العبد المغرور هارون الرشيد الذي سلب حلاوة الإيمان أما بغد فأني قد صرمت حبلك، وقطعت ودك، وخليت موضعك، وأنك قد جعلتني شاهدا عليك بإقرارك على نفسك بأنفاقك بيت مال المسلمين على غير حقه وانفدته بغير حكمة ثم أشهدتني وإخواني الذين شهدوا قراءة كتابك على نفسك (١) غدا بين يدي الله يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم فهل رضي بذلك الفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم والعاملون عليها والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل والأرامل والأيتام أم رضي بذلك بخلق من رعيتك فاعمل للمسألة جوابا، وللبلاء جلبابا، عند وقوفك بين يدي الملك العدل وقد سلبت حلاوة ا لعلم ولذيذ القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون

(١) هكذا بياض في نسختين ولم ينبه عنه في غيرهما.

ظالما وللظالمين إماما فجلست على السرير، ولبست الحرير[١]، وأسلبت الستور، وأقعدت الأجناد على بابك يظلمون ولا ينصفون ويشربون الخمر ويجلدون الناس عليها ويزنون ويحدون الزناة ويسرقون ويقطعون السارق وأنت شريكهم في ذلك كله لأنك لم تحكم عليهم ولابد من النداء غدا وامتازوا اليوم أيها المجرمون أي الظلمة وأعوان الظلمة فتتقدم بين يدي الله ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وأنصافك والظالمون حولك وأنت سائقهم إلى النار وقد جعلت حسناتك في ميزان غيرك وسيئات غيرك في ميزانك على سيئاتك بلاء على بلاء وظلمة على ظلمة واحتفظ بوصيتي اتعظ بموعظتي فأني قد نصحتك واتق الله في نفسك وفي رعيتك وأحفظ محمدا في أمته وأحسن الخلافة عليهم وأعلمهم أن هذا الأمر لو تركته لغيرك لم يصل إليك وهو صائر إلى غيرك لا محالة لأن الدنيا تنتقل بأهلها واحدا بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه ومنهم من خسر الدنيا والآخرة أني أحسبك ممن خسر الدنيا والآخرة ولا تكتب إلى كتابا بعد هذا فلا أجيبك عليه والسلام ثم دفعه للذي جاء به وهو عباد الطيالقي منشورا غير مطوي ولا مختوم فوقعت الموعظة في قلب عباد وخرج للسوق ولبس مدرعة صوف خشنة وعباءة ونزع ثياب الأجناد وألقاها على البرذوة وساقه[٢] خلفه إلى هارون فلما رآه الناس هزؤوا به وهو لا يبالي بقولهم فلما دخل على هارون صاح صيحة عظيمة وبكى هارون وقال انتفع الله الرسول وخاب المرسل ما لي وللدنيا مالي وملك يزول عني ثم أخذ الكتاب وجعل يقرأه ويبكي وينتحب فقيل له يا أمير المؤمنين قد اجترأ عليك سفيان فقال اتركوني يا عبيد الدنيا المغرور والله من غررتموه والشقي والله من اشقيتموه اتركوا سفيان وشأنه ثم لا زال يفتح كتاب سفيان ويقرأه وهو يبكي وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وأياما ولد بالري ومات بطوس

---

(١) في ثلاث نسخ الأثير.

(٢) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة أمامه.

وهو ابن سبع وأربعين سنة ومات سنة ثلاث وتسعين ومائة من الهجرة.

وبويع محمد الأمين يوم موت أبيه هارون الرشيد فلما استقرت له الخلافة ألقى[1] أخاه المأمون على كور خراسان وكانت ولايته أربع سنين وثمانية أشهر فلما صارت له الخلافة وبلغ ماله الفضل بن الزبيع أغرى أخاه المأمون في بلاد خراسان فخالف عبد الله المأمون على أخيه محمد الأمين فحاصره في بغداد وجرت بينهم وقائع عظام إلخ.

قال أهل التاريخ قتل الأمين وهو ابن ثمان وعشرين سنة فلم يشتغل بولاية إلا باللهو والطرب، واللذة واللعب، وهي علامة الخراب قال الشاعر:

إذا ترى ملكا باللهو مشتغلا فأحكم على ملكه بالزيل[2] والخرب

أو ما ترى الشمس في الميزان ساقطة إذ كان ذلك بيت اللهو والطرب

وبويع عبد الله المأمون وبايعه جميع العلماء والأمراء في كل بلد إلا الأندلس لبعده ولفضل البحر بينه وبينه وكان فقيها عالما لا سيما علم النجوم فانه لا نظير له فيه إلا أنه كان معتزليا يقول بخلق القرآن ويعاقب من لم يقل به ولم يكن في العباسيين أعلم منه وقد تبع شيخه أبا الهذيل البصري المعروف بالعلاف رئيس المعتزلة وفي ولايته أمر بأحضار أحمد بن حنبل بعد أن اختفى فدعا عليه فمات في ليلته.

وفي خلافة المأمون مات الإمام الشافعي وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف رحمه الله سنة أربع ومائتين وهو ابن أربع وخمسين سنة.

وبويع إبراهيم المعتصم بالله بن هارون الرشيد يوم موت أخيه عبد الله المأمون

---

(١) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة أولى.

(٢) في نسخة بالنقض.

بالموضع الذي مات فيه في غزوة بلاد الروم وكانت ولايته ثماني سنين وثمانية أشهر وكان أشجع الناس أعطاه الله قوة زائدة على الخلق وكان أميا لا يقرأ وقد رفع الحمار الواقع في الطين لقوته وشدة تواضعه وهذا الحمار لشيخ كبير السن فلما أخرجه غسل أطرافه وأمر له بأربعة آلاف درهم وهو يدعو له ومع ذلك أمر بعض خدامه به إلى أن أوصله إلى بيته وكان يجتمع عليه الأتراك ويلبسهم الديباج وغيرهم من العساكر مما لا يحصى عددا وفي سنة ست وعشرين ومائتين مات بشر الحافي رضي الله عنه ببغداد ومحمد بن كثير المدني وأبو دلف وعشرون من الأئمة وفيها مات المعتصم بقصده الخاقاني وكان قبض على الإمام أحمد رضي الله عنه وكان في سنجن أخيه المأمون منذ ثمانية وعشرين شهرا فأخرجه المعتصم وأقام له مجلسا للمناظرة وبقي ثلاثة أيام يراوده على القول بخلق القرآن فأبى فأمر بضربه فضرب ثمانية وثلاثين سوطا وسقط كأنه مغشي عليه فنخسه السياف برأس السيف فلم يتحرك فأيسوا من حياته ورموه فحمل لمنزله فاستفاق ولم يبرأ الضرب من ظهره حتى مات رحمه الله بعد سنين متطاولة.

قال ابن الجوزي ولد الإمام أحمد سنة أربع وستين ومائة وتوفي سنة أحدى وأربعين ومائتين ولم يمت حتى جعل كل من ضربه أو تسبب في ضربه في حل وحضر جنازته ثمانمائة آلاف من الرجال وستون ألفا من النساء وأسلم يوم موته نيف وعشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس وكان أكثر دعائه اللهم يا رب كل شيء بقدرتك على كل شيء أغفر لنا كل شيء ولا تسألنا عن شيء.

ولما مات المعتصم وتولى بعده الواثق بالله شدد على الإمام أحمد أكثر مما شدد عليه المعتصم إلى أن مات الواثق بالله وولي المتوكل على الله فأمر بإخراجه من السجن وأكرمه وقد شرب ثمانية وثلاثين سوطا وغشي عليه فبلغ الضرب ثمانين سوطا ولم يحس به فظنوا أنه ميت وهذه عادة الأكابر من أولياء الله تعالى ليعظم ثوابهم في

الآخرة.

وكذا ابن المسيب حلقت لحيته وربط إلى خشبة في ليلة باردة والماء يقطر عليه وسكنته علة البرد حتى مات وكذا ربيعة ضرب وحلقت لحيته وضرب ابن سيرين ومحمد بن المنكدر ومالك بن أنس ويحيى بن أبي كثير ووهب بن منبه وعبد الرحمن بن الأسود وابن أبي ليلى وثابت البناني وبهلول بن راشد وخلق كثير وذلك كله من غير جريمة ولكن بلاء من الله وكرامة لقوله صلى الله عليه وسلم نحن معاشر الأنبياء اشد الناس بلاء ثم الأمثل فالأمثل.

وبويع الواثق بالله واسمه هارون بن محمد بن هارون الرشيد وكانت خلافته خمس سنين وستة أشهر وهو الذي قطع القول بخلق القرآن وأظهر السنة وكان واسع المعروف متفقدا للرعية.

ومن وصية شيخه لا تدع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا وخذ الحق من الوضيع والرفيع وخذ من كل شيء أحسنه حتى من الكلب والخنزير والغراب فمن الكلب الإقرار بالمعروف ومن الخنزير البكور إلى المنافع ومن الغراب شدة الحذر إلخ.

وبويع المتوكل على الله بن جعفر المنصور فلما بويع قطع القول بخلق القرآن وأظهر السنة وصار يقتل المعتزلة حتى فقدت المعتزلة ولا لهم ذكر غير انه كان يكره عليا فكان ذلك سببا في قتله على يد ولده المنتصر وكانت خلافته أربع عشرة سنة وكان كثير الأكل كسليمان بن عبد الملك والحجاج وغيرهم حتى انه يأكل في اليوم مائة رطل من الطعام بالعراقي وفي أيامهم رجفت دمشق ومات بالهدم فيها خلق كثير وفيها أيضا انكفأت قرية من دمشق على أهلها فلم ينج منهم أحد وكذا زلزلت انطاكية فمات منها ما يزيد على عشرين ألفا بالردم وفي ولايته أيضا وقع حجر من السماء في ناحية

طبرستان وزنه ثمانمائة وأربعون مثقالا وقد غاص في الأرض أربعة أذرع وسمعت هدته على مسيرة ستة عشرة فرسخا وفيها أيضا خسفت ثلاث عشرة قرية من قرى القيروان فلم ينج منهم إلا أربعة عشر شخصا فأسكنهم أمير القيروان خارج المدينة وقال لهم أنتم من المغضوب عليهم فلا تدخلوا عندنا وفيها أيضا رجمت قرية من نواحي مصر بخمسة أحجار في كل واحدة خمسة أرطال وأحرقت كل ما مسته وكذا طائر أبيض دون الرخمة وفوق الغراب يصيح بلسان عربي مبين أيها الناس اتقوا الله إلخ وكذا سقط طائر أبيض على جنازة رجل يصيح بالفارسية إن الله يغفر لهذا الميت ولمن حضر جنازته وكذا زلزلت انطاكية فسقط فيها ألف وخمسمائة دار ووقع من سورها نيف وتسعون برجا ولما بنى قصر الجعفرية قال لأبي العيناء كيف ترى هذا القصر قال القصر في الدنيا وأنت تبني الدنيا في القصر وفي ولايته مات أحمد بن حنبل رضي الله عنه ودفن بباب حرب بالجانب الغربي.

وبويع المنتصر بالله بن جعفر المنصور سنة سبع وأربعين ومائتين وكانت ولايته ستة أشهر ولما رجع من حجه دخل الحمام ثم احتجم فحم فمات من فوره وقيل احتجم بحديدة مسمومة.

وبويع ابن عمه المستعين بالله بن المعتصم يوم موت المنتصر وذلك سنة ثمان وأربعين ومائتين.

وبويع محمد المعتز بالله ابن المتوكل على الله سنة اثنتين وخمسين ومائتين وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر أيامه أيام فساد وفتنة.

وبويع جعفر[1] المهتدي بالله سنة خمس وخمسين ومائتين وقد قطع الملاهي وقطع

---

(١) كذا في جميع النسخ والمشهور في كتب التاريخ ان اسمه محمد بن الواثق.

شرب الخمر من جميع بلاده وطاعته ونفى المغنين والمغنيات حتى لم يدع في أيامه منكرا ولا باطلا وكان يقول استحيي أن يكو في بني أمية عمر بن عبد العزيز ولا يكون في بني العباس مثله وكان يصوم الدهر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فلم يرد ذلك الأتراك فهربوا منه لما قطع عليهم الخمر وخالفوا عليه فهرب أهل الفساد إلى الترك وأهل الصلاح إلى المهتدي ووقع بينهم الحرب العظيمة واشتدت الفتنة وانقطعت الطرق وحاصروه في قصر الخلافة بعد ان قتل من المغاربة الذين معه خلق كثير وقتل من أبطاله نحو الأربعة آلاف فخرج المهتدي بالمصحف في يده يدعو إلى الحق وإلى نصرة الدين فغدره طبيع أخو بابك وأخوه حيا وحملوه إلى دار الخلافة وربطوا انثيبيه حتى قتلوه وكانت خلافته أحد عشر شهرا وأياما.

وبويع المعتمد على الله أحمد بن المتوكل على الله يوم قتل عمه المهتدي بالله فاستوزر ابن عمه الموفق بالله ولم يدع لنفسه إلا اسم الخلافة فلما مات الموفق بالله استوزر ابنه المتفضل بالله إلخ وكان مولعا بالطرب وآلاته والغناء ونغماته فانظر أنواعه في هذا الكتاب وقد قيل:

من لا يهيجه الروض وأزهاره ... ولا يسليه العود وأوتاره
فذلك فاسد المزاج ... فما لداء علته علاج[1]

فقال المعتمد أحسنت فكم هي إيقاعه وطرقه الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه والرمل الأول وخفيفه والهزج وخفيفه إلخ وما كان اشتغاله إلا بأمور اللهو.

وبويع المعتضد بالله واسمه أحمد سنة تسع وثمانين ومائتين وكانت ولايته ست سنين وستة أشهر وفي أيامه وأيام ابنه بعده صلحت الدنيا واخذ الناس بالملاطفة

---

(١) كذا في جميع النسخ فليحرر.

والرفق فارتفعت الحروب ورخصت الأسعار إلا انه كان شحيحا بخيلا وكان كثير الجماع فاعتل من ذلك ومات وفي هذه السنة وقعت زلزلة بمدينة [١] مات من أهلها في ليلة واحدة بالردم مائة وخمسون ألفا.

وبويع ابنه المكتفي بالله بمدينة السلام واسمه علي بن أحمد وكانت ولايته خمس سنين ونصفا[٢] قام عليه القرمطي ابن مهرويه[٣] فخرج على طريق الركب وأخذ الحجيج فخرج إليه المكتفي وأخذه وقتله شر قتلة وكان يحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويكرم ذريته ويحسن إليهم ولما قتل القرمطي مرض بالدرب ومات.

وبويع أخوه المقتدر بالله وهو ابن ثلاث عشرة سنة ولم يبايع أحد قبله أصغر منه سنا فقام عليه المرتضى بالله مع يونس الخادم ثم بقيت الخلافة له بعد هروب يونس الخادم أربعا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ثم قتله يونس الخادم بقتل المرتضى.

وبويع محمد القاهر بالله فكانت ولايته سنة وستة أشهر ولما ولي [٤] المقتدر وعذبها حتى ماتت ثم[٥] أخذ في ارتكاب الفواحش واستباح المحرمات مما لا يحل ذكره في الإسلام فقامت العامة مع الأجناد فخلعوه وسلبوا جميع الأموال واستباحوا دار الخلافة فكان بعد ذلك يطلب الصدقة على باب جامع بغداد بعد ست سنين ونصف نعوذ بالله من سوء القضاء.

وبويع أحمد الراضي بالله ابن المقتدر بالله.

---

(١) بياض في جميع النسخ.
(٢) كذا في جميع النسخ.
(٣) كذا في جميع النسخ.
(٤) بياض في جميع النسخ.
(٥) في نسخة بإسقاط وعذبها حتى ماتت ثم.

ثم بويع المتقي بالله وكنت خلافة الراضي ثلاث سنين غير شهر وخلافة المتقي ثلاث سنين وأحد عشر شهرا.

وبويع عبد الله المستكفي بالله فكانت خلافته سنة ونصفا.

وبويع أبو الفضل المطيع بالله ودام فيها ثلاثين سنة.

وبويع عبد الكريم الطائع بالله يوم خلع أبيه نفسه وذلك سنة أربع وستين وثلاثمائة وهو في سن الخمسين أكبر سنا من العباسيين ثم أصابه داء الفالج إلخ.

وبويع أبو العباس أحمد القادر بالله وكان كثير الدين والصدقة يحب الفقراء ويؤثر التبرك بهم ودام في الخلافة إحدى وأربعين سنة وثمانية أشهر توفي ابن سبع وثمانين سنة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة وله مصنفات في إقامة السنة وذم المعتزلة والروافض وكان يختم القرآن في كل جمعة.

وبويع ابنه القائم بالله وكان يحب الصالحين ويعز العلماء ويحترمهم غاية الاحترام وما تجرد من ثيابه لنوم منذ ولي الخلافة إلى أن توفي سنة سبع وستين وأربعمائة وكانت خلافته أربعا وأربعين سنة وثلاثة أشهر.

وبويع ابن ابنه المقتدي بأمر الله يوم موت جده وكانت أيامه طيبة وعمرت بغداد.

وبويع المستظهر بالله ابنه بأمر أبيه كان محبا للصالحين وقطع الظلم في زمانه جملة وأنصف المظلوم من الظالم لين الجانب مع الرعية يجري في الخير دائما فدامت خلافته خمسا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وتوفي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة.

وبويع ولده المسترشد بالله وكان شجاعا مهابا إلى أن قتلوه مكرا.

وبويع ابنه الراشد بالله جعفر بن المسترشد بالله إلى أن قتله القدرية ولما مات ترك بضعا وعشرين ولدا من الذكور.

وبويع بعده عمه المقتفي بالله وإنما سمي بذلك لأنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قبل خلافته بسبعة أشهر فقال له يصلك هذا الأمر فاقتف فكان لا يخالف السنة في أمر الملك وفي دولته زلزلت الأرض فمات فيها بالردم مائتا ألف وثلاثون ألفا وزلزلت مرة أخرى في حلوان[1] حتى تقطعت الجبال وهلك بها أكثر الخلق وزلزلت من الشام ثلاثة عشر بلدا منها ما هلك جميعه ومنها ما بقي منه القليل.

وبويع بعده أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بعهد أبيه له بذلك.

ومن عجائب ما رأى ليلة موت أبيه رأى ملكا في صفة شخص نزل من السماء وكتب له في يده أربع خاآت في الألفاظ الأربعة (أي يلي الخلافة سنة خمس وخمسين وخمسمائة) وكان ذا عدل وإنصاف خلافته إحدى عشرة سنة.

وبويع ابنه علي المستضيء بنور الله ولم يكن في الملوك العباسيين من يعظم العلوم مثله توفي سنة خمس وسبعين وخمسمائة وكانت خلافته تسع سنين ونصفا واحتجب عن الناس فلا يدخل عليه إلا وزيره.

وبويع ابنه أحمد الناصر لدين الله فبسط العدل وغير المنكرات وكسر آلات الملاهي والطرب وأزال المكوسات في جميع البلاد فكثرت الأرزاق ورخصت الأسعار وعمرت بغداد وسعد الخلق في أيامه ودامت خلافته سبعا وأربعين سنة إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وستمائة وهو ابن سبعين سنة وكان يدور بالليل في

(١) كذا في جميع النسخ.

الأسواق ويحرس البلد بنفسه وفي جميع البلاد عيون تستخبر الخلق في ظلم الرعية حتى ظن الناس أنه من أهل الكشف ثم أصابه داء الفالج فيه ستين سنة إلى أن مات[١].

وبويع ابنه الظاهر بأمر الله يوم موت أبيه وكان في سيرة أبيه فدامت خلافته ثمان عشرة سنة وصلته كثيرة لا سيما العلماء وحبس الأحباس على المدارس والمساجد وكان جنده ألف[٢] فارس وخطب له بالأندلس وبالمغرب الأقصى ثم هجم عليه حاجبه فقتله سنة ست وخمسين وستمائة.

وبويع بعده ابن عمه المستعصم بالله وهو آخر الخلفاء العباسيين العراقيين وكانت دولتهم خمسمائة سنة وعشرين سنة.

وبويع المستكفي بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله واستمر في الخلافة سبعا وثلاثين سنة وتوفي سنة إحدى وأربعين وسبعمائة.

وبويع المستعين بالله ونزل بالإسكندرية فبقي بها إلى أن مات بالطاعون سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

وبويع المعتضد بالله أبو الفتح وألقى في موضعه أخاه المستعين بالله واستقرت الخلافة للمعتضد حتى مات سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

وبويع المستكفي بالله العباسي بعد موت أخيه المعتضد سنة خمس وأربعين وثمانمائة.

قال الصفدي فكانت عدة ملوك العباسيين سبعة وثلاثين خليفة وكانت مدتهم

---

(١) كذا في جميع النسخ.
(٢) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة مائة ألف.

خمسمائة سنة وعشرين سنة كما سبق وأول من تسمى باسم الإضافة إلى اسم الجلالة المعتصم انتهى من عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان للعلامة الشيخ محمد الشاطبي باختصار من أبواب شتى والتقاط من نصوص فصوص الأسطار، مع التقديم والتأخير بحسب ما ظهر للأنظار، وذلك كقطرة من أقطار البحار، وإنما نقلت ذلك وأسسته هنا أي في رحلتي هذه تبركا بهم واغتناما، وتكريما لهم وتعظيما واتخذت ذلك بين بني أمية وبينهم سبيلا قواما.

وأما ملوك مصر وهم العبيديون الذين تسموا الفاطميين فسأذكرهم بعد إن شاء الله عند التحدث عن أحوال تونس إن يسر الله ذلك وهم ليسوا من ذرية فاطمة ولكن من ذرية علي وسبب تسميتهم بذلك في هذا الكتاب.

ومن عجائب ما قع في الأرض جزيرة الأندلس دارت بها البحور من كل جهة وليس لها إلا باب واحد من ناحية المشرق ووسعه مسيرة يومين.

ومن عجائب النيل أن جميع أنهار الدنيا تجري للمشرق أو المغرب ولا يجري للشمال نهر إلا النيل فانه يشق خط الاستواء ويسير إلى بلاد الحبشة إلى بلد كوكو إلى أسوان إلى مصر إلى أن يقع في بحر الروم من مدينة تِنِّيس ومدينة دمياط وإذا قل ماء جميع الأرض تقوى النيل وزاد وفاض فيخرج على الأرض عشرين ميلا وأكثر وأقل بحسب انخفاض الأرض وارتفاعها وفيه سمك كبير يمسح السمك بجناحيه ثم يلتقمه بفيه والنيل ينزل من جبال الذهب المجلوب منها التبر وتسمى جبال توتا ثم ينتهي إلى جبل الأركان إلى الزنج إلى الحبشة إلى مصر إلى البحر.

وأما صحاري هذه الجزيرة فعجائبها لا تسع هنا وقد شق هذه الجزيرة جبل درن وهو من أكبر جبال الدنيا الطرف الغربي منه متصل بالسوس والطرف الشرقي ينتهي

إلى قرب مصر وفيه معادن مختلفة من جميع أحجار الأرض وأجناسها وقد عمرت البربر هذا الجبل من أوله إلى آخره وأكثرهم من ناحية المغرب الأقصى وأحوال البربر من ملوكهم وقوادهم وعلمائهم وقضاتهم مما يبهر العقول.

وقد أدعى النبوءة من البربر ثلاثة صالح بن طريف، وعاصم بن جميل، وحميم بن من الله، وقد شرع لهم شرائع صلاتين غدوة وعشية وصوم الاثنين والخميس وعشرة أيام من رمضان وأحل أكل الخنثى من الخنازير وأمر بتذكية الحوت وحرم رؤوس الحيوانات كلها فقتله الناصر الأموي وقتل كل من معه ممن خالف السنة ثم أهلك الله الجميع والبربر قد تدينوا قبل الإسلام بأديان شتى فمنهم من تنصر ومنهم من تمجس ومنهم من تهود ومنهم من كان كالبهائم لا دين له وإنما أسلموا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ بعث عقبة بن نافع القرشي إلى إفريقية بعد أن فتحها المسلمون في خلافة عثمان بن عفان.

فنزل أرض القيروان فاختارها للعمارة وكانت لا يأويها إلا الوحوش والهوام فصار يقول لها أخرجي أيها الوحوش والهوم بإذن الله تعالى فبقيت أرض القيروان أربعين سنة لم ير فيها شيء من الهوام المؤذية ولا السباع العادية ثم شرع في بناء مدينة القيروان وقال لهم هذا أوسع لإبلكم وأمان عليكم من روم القسطنطينية وإفرنج الجزيرة الخضراء فتوجه عقبة إلى المغرب يستفتح مدينة بعد مدينة وهو يقاتل البربر فاقتتلوا قتالا عظيما فانهزم البربر فكان قتال المسلمين لهم ذريعا وانهزم البربر والمسلمون خلفهم بالقتل والسبي إلى أن وصلوا إلى البحر المحيط الغربي من بلد أسفي فأدخل عقبة قوائم فرسه في البحر ثم انصرف راجعا لا يقدر أحد أن يعترضه فلما وصل جبل أوراس بإفريقية قتله كسيلة ابن كمر الأوراسي ابن المصوار بموضع يقال له تهودة وذلك سنة ثلاث وستين من الهجرة.

ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بقوة دين البربر ما روت فاطمة عنه في قصة جاريتها التي أعطتها صدقة وهي معلومة وقالت لها أمضي إلى السوق من يقبل منك صدقة فأنيني به فمضت وهي تقول من يقبل صدقة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رجل مغربي أنا موضع صدقة آل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطته الصدقة وقالت له أجب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال السمع والطاعة فلما بلغ إلى الباب نظرت إليه فاطمة رضي الله عنها وبكت وقالت هذا رجل بربري وقد قال لي والذي رسول الله صلى الله عليه وسلم لكل نبي حواريون وحواريو ذريتي البربر يا فاطمة سيقتل الحسن والحسين ويفر أولادهم فلا يأويهم أحد إلى البربر فيا شؤم من فعل بهم ذلك وطوبى لمن أكرم ذريتي وأعزهم إذ إنهم سيقومون بهذا الدين على المنهج الواضح وكأني أنظر إلى البربر على الخيل الشهب على رؤوسهم العمائم والنصر أمام أربعين حتى يربطوا خيلهم بزيتون فلسطين ويقسمون الغربيات المنقيات ويبيعونهم بالدراهم والفلوس إلى غير ذلك مما روي عنه صلى الله عليه وسلم في جزيرة الأندلس وبحيرتها.

ومنها يخرج النيل الذي لا أعجب منه ولا أكبر منه نهرا في الدنيا وهو من عجائب صنع الله تعالى ويتفرع منه أنهار إلى بلاد النوبة وإلى بلاد جاوة وهي جزيرة وسط البحر قد دارت بها البحور من كل الجهات فمن المشرق بحر القلزم الأخذ من باب المندب على اليمين إلى مدينة الطور إلى عجرود ومن جنوبها وغربها البحر المحيط الذي لا يعلم أين منتهاه إلا الله تعالى ومن جهة الشمال بحر الخزر وهو بحر الإفرنج إلى بلد القدس من ناحية الشام وفي وسط هذه الجزيرة صحاري السودان الحاجزة بين السودان والبربر وقد قال صلى الله عليه وسلم إن بأقصى الأرض جزيرة يقال لها الأندلس سيكون فيها رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حيهم سعيد وميتهم شهيد ثم يتوارثها قوم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف والذي نفسي بيده

كأني أنظر إلى نسائهم كاشفات الرؤوس لا يدرون أين يهربون ولا يجدون مهربا[١].

ومن فضائلها ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جزيرة المغرب منقطعة يقال لها الأندلس يسكنها أقوام غرباء في آخر الزمان رباط يوم وليلة فيها يعدل عند الله عبادة خمسين سنة النائم فيها مع عياله على فراشه كالضارب منكم بالسيف بين يدي أو كالصائم القائم في غيرها فطوبى لمن أدركه أثر قدم فيها كأثر شهيد متشحط في دمه وشهداؤها أفضل الشهداء هي الجزيرة الخضراء الزهراء وأن الريح لتحمل أرواحهم إلى بيت المقدس إلى يوم القيامة فيبعثون مع النبيين إلى غير ذلك من فضائلها.

وإنها ذكرت هذه [يعني إفريقية][٢] لوجود النيل منها والنيل أعجب ما في مصر وقد ذكرت بعض عجائبها لأن كثيرا من عامة الطلبة بل الخاصة منهم لا يعلمون عجائبها أصلا لا سيما أهل بلادنا فإن علم التاريخ منعدم فيهم وساقط عندهم فيحسبونه كالاستهزاء أو اشتغالا بما لا يعني أو من المضحكة المنهي عنها فترى المتوجه منهم إلى الله يرى الكلام فيه مسقطا من عين الله تعالى.

نعم ليس من علم يذكر إذ[٣] لا طائل فيه أصلا بلا بنفس ذكره عندهم ينكر وكيف ذلك فإن علم السير إنما هو منه أي سير الأنبياء وشمائلهم ووقائعهم وبعوثهم وسراياهم وحججهم وخصائصهم وقصصهم وقد قال تعالى وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وإن في ذلك عبر وقد ورد أن تفكر ساعة أفضل من عبادة كذا وكذا نسة وقد قال صلى الله عليه وسلم حرفة العالم ستة أشياء إذا ذكر الله

---

(١) كذا في جميع النسخ.

(٢) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

(٣) في نسخة ليس من عالم إلا ويذكر أنه وهو الأصوب.

افتخر، وإذا ذكر نفسه احتقر، وإذا تفكر في آيات الله اعتبر، وإذا هم بمعصية أو شهوة أنزجر، وإذا ذكر عفو الله استبشر، وإذا ذكر ذنبه استغفر، ولا شك أن هذه الأخبار تكون موعظة للمعتبرين، وتذكرة للموقنين، وتبصرة للمتفكرين، فمرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ وهذا العلم يوجب للإنسان قوة في المحاسن وضعفا في القبائح وبه تعلو الهمة باتصالها بالمعالي من الأمور وتدنو بسفاسفها[1] وأكثر القرآن من هذا العلم فمن ذمه يخاف عليه الردة لأنه يسري إلى ذم القرآن إذا أكثره أخبار الماضين وأحوال المتقدمين من الجبارين الهالكين وأولياء الله الصالحين فلا تهمل أمرك منه وصحح علمك به غير انك أعتمد على صة الأنقال من الكتب الموضوعة في ذلك كهذا المختصر وكتب السيوطي وابن إسحاق والسيرة الشامية وغير ذلك من التآليف.

نعم ذكرت في هذا التأليف نبذة يستحليها المفتقر الذي لي له علم أصلا ويتقوى بها المستبصر وأني أزيد فيه أخبارا عند وصولي إلى إفريقية إن شاء الله تعالى.

فلنرجع إلى ما كنا بصدده فإن عجائب مصر لا يسعها ديوان وهو أننا ارتحلنا من أحواز بولاق فنزلنا أنبابة ومكثنا فيها أياما بين متردد إلى مصر وراجع إليها في قضاء الأوطار ووسعا للانتظار لمن يقصد البر من الحجاج وودعنا كل من يذهب في البحر وقد ذهب أكثر الحجاج فيه ولم تبق إلا حثالة قليلة فَهَمَّ شيخ الركب أن يذهب في البحر لما سمع أني راكب فيه فاجمعوا على أن لا أذهب فيه ثم تحولت إلى المشي معهم فتركت ما قصدت من الركوب في البحر وآخر من ودعته سيدي أحمد الطيب وجماعة من الفضلاء وأني سأذكر من ذهب معنا من الفضلاء تبركا بهم.

---

(١) في نسخة من الأمور والعبد من سفافها.

ولما قضينا حوائجنا من ذلك المحل والحالة أن النيل قد فاض وخفنا الانقطاع بسببه فظعنا لأنه يفيض على أرياف مصر كذا وكذا ميلا فلو تأخرنا لإصابتنا مشقة في القطع إذ لا يكون ذلك إلا من الزوارق أعني المراكب والسفن وأن الشيخ الفاضل الشيخ امنصير النجمي أتى إلينا فارتحلنا لقرب بلده الذي هو الرمل قرب كفر حمام وهو بين المنصورة وكرداسة وهي قرية من أرياف مصر وفيها مسجد جمعة وأما الشيخ امنصير[1] شيخ العرب فسكناه في الخيم قرب المدشر المذكور وله قوة وشوكة عظيمة على تلك الحال وهو السبب والواسطة في استخلاص مال الحجاج فما أخذه منهم فهو مباح قطعا وقد جرى مع الحجاج كثيرا جزاه الله خيرا وله عقل تام فإن تكلم أنصف وإن سكت أنصت وأعرف وإن تكلم فبحكمة فليس بإمَّعَة فلا يطوي الكلام غير أن ذلك سجية في بعض العرب فما أحلاه لو كان عالما عاملا غير جاهل فما أحسن العلم إن قارنه الحلم وما أقبح الجهل إن قارنه الظلم رضي الله عنه وأرضاه وجعل عاقبته خيرا وجعل البركة في ذريته فمكثنا هناك مدة قريبة تقرب من شهر وهو شهر ربيع الأول.

وقد حصل لي حال عظيم وهو حال المشاهدة إذ تقوى علي الشهود فغيب عني كل ما سواه من أجل رؤيا رأيتها هناك فاضمحلت الأغراض، وذهبت الأعواض، وزالت الأمراض، بجاهه صلى الله عليه وسلم وما بقي في نفسي أعتراض، وتقوى علي ذلك حتى عزمت على الصحاري والقفار، ونبذ الرجوع إلى البلد والدار، وترك الأولاد والعيال في يد العزيز الجبار، غير أن الله ثبت فؤادي ومكنني من عنده في علم اليقين حتى رسخ قدمي في الوثوق بالله إلى أن رجعت إلى وطني ليتم الوعد الرباني في نفع عباد الله العاجزين عن أنفسهم وعمن اتصل بهم ممن تعلق بهم فلم يخلقني الله

---

(١) ما بين قوله امنصير وبين قوله امنصير ساقط في نسخة.

لنفع نفسي فأن الأسباب تعذرت علي مباشرة بحيث يتولاها بعض أهل الرد من الله تعالى في السفر والحضر.

هذا وأني وعدت أن أذكر من ذهب معنا من فضلاء بلادنا من عمالة الجزائر ليتنور هذا الموضع بذكرهم ولتقع لهم الشفاعة فينا وفيهم ببركة من ذكر في هذه الرحلة منهم الفاضل العالم الود الكريم الولي الصالح الذي أخذ من كل علم بنصيب سيدي أحمد الطيب والفاضلان نجلاه سيدي محمد الكبير وسيدي محمد السعيد والفاضل أخوه سيدي بلقاسم وابن عمه الكامل في أحواله الفقيه سيدي الصديق وابن خاله الفاضل سيدي محمد السعيد ابن سيدي محمد الصديق والصالح المقبل على الله سيدي الهادي نجل الولي الصالح كما قيل الشيخ سيدي علي المنجلاتي الذي هو شيخ سيدي عبد الرحمن الثعالبي والعالم العلامة في كل الفنون على الإطلاق سيدي أحمد عياض وأخوه وابن أخيه وولده[1] والكل أدباء فضلاء والولي الصالح من غير شك سيدي الصالح الغربي[2] المتوطن وطن فجطولة والمحب للخير وأهله الفاضل الكامل محب الجميع سيدي علي البجائي المتوطن في الجزائر نجل العالم الفاضل المحدث النحوي الفقيه النزيه قاضي بجاية ومفتيها وخطيبها سيدي عبد المؤمن والعلامة بالتحقيق سيدي أحمد الصديق الخطيب معلم ولد السلطان في الجزائر مات في مصر حين رجوعنا من الحج يوم دخول الركب مصر أو بعده بيوم أو يومين والفاضل سيدي الحاج إبراهيم مات بعد رجوعنا من عرفة فاضلا عالما خيرا وأما العامة من الجزائر وكذا في زواوة فعدد كثير نفعنا الله بهم وجعل البركة في ذريتنا بجاههم فقد زاد خيرهم على الفضلاء المذكورين ومنهم الفاضل الخير الشريف سلطان زواوة سيدي محمد بن بوخثوش[3]

---

(١) في نسخة وولداه.

(٢) في نسخة العربي.

(٣) هكذا ورد هنا وانظر صحيفة ٥٣٥ وعدد ١.

وصهره من أولاد سحنون فانه فاضل من مدشر جمعة الصهريج من بني فراوصن وهو له دار في هذا المدشر ودار أخرى في قرية الصوامع من بني بوشعايب وقد ذكرته فيما مضى.

ومنهم بعض الفضلاء من أولاد الشيخ الولي سيدي مالك أظن أن أسمه سيدي السعدي[1] ومنهم الولي الصالح العالم الفاضل سيدي مهنأ الصنهاجي وقد مات في مصر رحمه الله كبير السن ظاهر الشأن.

ومن بني عباس الفاضل الفقيه سيدي محمد السعيد بن الطالب والفقيه الفاضل الشريف سيدي محمد بن رقية مع أصحابهما.

ومن أولاد القطب الولي الصالح الواضح سيدي يحيى العيدلي سيدي الشريف وسيدي أحمد بن علي ومن أولاد الولي الصالح سيدي محمد صالح سيدي المسعود وسيدي ابن بو ستة وسيدي محمد بن الفقيه ومن أولاد الولي الصالح سيدي يدير بن صالح الفاضل الحاج سيدي حمود ومن مدشرهم الفاضل سيدي محمد بن عثمان وابن عمه الفقيه الفاضل سيدي أبو القاسم بن الطيب ومن أولاد الولي الصالح العالم الفاضل وأظنه أنه شريف حسبما رأيته في طبقات الشرفاء لابن فرحون سيدي مصباح المعلومة مدرسته في مدينة فاس والفاضلان الفقيهان سيدي محمد وسيدي عبد الكريم نجلا الفقيه الكامل سيدي ابن المبارك وهما من بني يعدل وكذا جماعة من الفضلاء من قرية تفرج الحاج سيدي حمودة بن معزة وطالبنا سيدي أبو القاسم بن مدور.

ومن بني يعلى الفقيه الأديب نخبة الفضلاء نجل الولي الصالح ابن الولي الصالح

---

(١) في نسخة السعيد.

الزاهد العابد المتجرد المقبل على الله سيدي عبد الرحمن بن قَرِّي ولد الشيخ سيدي بركات ابن الشيخ سيدي محمد بن قري والفاضل القارئ سيدي أبو القاسم بن دحمان وجماعة منهم.

ومن زمورة جماعة من أحسن الناس وأفضلهم سيدي الحاج محمد القجوطي والحاج محمود بن طالب حسين وسيدي محمد منه.

وجماعة أخرى من بني فرفان ومن وطننا من بني ورثيلان الفاضل الورع العالم الفاضل سيدي أحمد بن حمود وابن أخيه سيدي الحسين والفقيه الخير الكامل الصدوق سيدي محمد اليعلاوي بن بطيح والفاضل سيدي يحيى والطالب بن الفقيه.

ومن أولاد الولي الصالح سيدي يدير بن الحاج الفقيه الفاضل ابن المسن المتعبد ذي النسك سيدي أحمد نجل سيدي محمد السعيد والفاضل سيدي محمد البهلولي منه أيضا وولد الشيخ الفقيه سيدي عبد الله بن سيدي أحمد بن علي [1] تلميذ سيدي أحمد بن حمود.

ومن أولاد سيدي الصالح الفاضل الناصح سيدي عيسى بن الحبيب سيدي محمد السعيد وابن عمه تلميذنا سيدي يحيى ومن أَقِفْسَار الفاضل الحاج عمر والفاضل سيدي أبو القاسم نجل الولي سيدي عمر بن موسى المتوطن في أرض [2] ومن قصر الطير الفاضل سيدي محمد بن قسوم والقائد الحاج يونس بن يَلَّس والفاضل الكريم سيدي عبد القادر وبعض من الكتافة وبعض الفضلاء من تفاطمة وبعض الفضلاء من أولاد موسى بن يحيى والفاضل المتعبد المقبل على الله سيدي

(١) بياض لم ينبه عنه في نسخة.
(٢) بياض في جميع النسخ.

محمد المداسي وجماعة كثيرة من قصر الطير بلاد ريغة ومن أولاد سيدي رحاب الفاضل الفقيه المتوجه إلى الله وقد تزوجت ابنته الفاضلة الحرة الجليلة الشريفة الطالبة عويشة وتزوج ابني محمد أختها الفاضلة الجليلة العابدة الطالبة فاطمة ماتتا في تونس رحمة الله عليهما وقد حج معنا سيدي عبد الله ابن رحاب وزوجه وولده سيدي محمد بن عبد الله والفضلاء أولاد صوشة وجماعة من أولاد دراج وجماعة من الزاب كلهم فضلاء من أولاد جلال وغيرهم.

ومن بسكرة الفاضل الكامل سيدي بركات نجل الولي الصالح الغوث الواضح سيدي عبد المؤمن شيخ الركب فيما مضى وجماعة من الفضلاء منها وكذا من سيدي عقبة.

وجماعة أخرى من قرية مدوكال لا سيما أولاد الشيخ محمد الحاج منهم الفقيه الفاضل الكامل الشيخ سيدي محمد المسعود أمير ركبنا وولده الصغير زوجته وابن عمه الفاضل سيدي أحمد بن إدريس مات رحمه الله في رجوعنا ودفن بعد ارتحالنا من مصر بمرحلتين في قصور الرهبان فدفناه في القصر الطرفاني الغربي الذي يواجه الحاج ذهابا وأنا الذي صليت عليه ومثله الفاضل الكامل المتواضع سيدي أحمد بن الجودي وجماعة مع الشيخ كلهم ممن يحب الخير ويسمع له.

ومن المسيلة أولاد الشيخ القطب الغوث سيدي محمد بن عبد الله بن أبي جملين والفاضل الكامل الأديب سيدي أحمد وولده وولد الشيخ سيدي أبي القاسم مشهور وجماعة كثيرة منها وكلهم فضلاء من الترك وغيرهم.

وأما أهل عامر فكثيرون وفيهم علماء فضلاء كملاء مقبلون على الله كالفاضل الفقيه سيدي عبد الرحمن بن الزيغم وسيدي محمد الصحراوي وسيدي عبد الرحمن

بن السخري وقد مات في الطريق وولده رجع وأهل الفضلاء فيهم كثيرون فإنهم لا يحصون كثرة رجالا ونساء صفاهم الله من البدع الشنيعة والخصال اللدنية بمنه وكرمه لتوافق دعائهم الواقع.

وجماعة من فضلاء أولاد إبراهيم وكذا من أولاد سعيد بن سلامة وكذا من أولاد عبد النور وولد الشيخ سيدي داود سيدي أحمد ومن قسنطينة كذلك وكذا أهل الخير والفضل والكمال أولاد خديم الله من بابور.

ومن بني سليمان جماعة فيهم المحب العارف المجذوب بالتحقيق المقبل على الله بالصدق والتصديق من بني بورمان سيدي سعيد فأني سمعت بنات فكره في الوعظ وطريق الحب بالبربرية سلب العقل يكاد أن يكون كلام ابن عطاء الله وإنما فاته لما كان كلامه بغير العربية وقد علم أن المجذوبين في عمالتنا هذه وإن كانوا عوامّ له كلام في المعرفة والمحبة والوعظ يحرك القلوب ويفتنها غير انه عليه كسوة البربر فالذي يفهمه يذوقه ذوقا معتبرا يسلب العقل.

وكذا جماعة من البليدة فضلاء كرماء وكذا من مازونة ومن غريس ومن معسكر وغيرهم.

ومن إخواننا الشرفاء الزابر لهذه الرحلة العبد الضعيف الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر احمد الشريف نجل الشيخ الولي سيدي علي البكاء البجائي هكذا ثبت بخط جدي وهو ثقة واصله والله أعلم من تفيلالت أي من شرفائها هكذا سمعنا من أسلافنا وهم عن أسلافهم وولدنا الفاضل محمد وزوجته المذكورة وكذا زوجتي المذكورة والأخرى الفاضلة الحرة عائشة بنت الفاضل الكامل سيدي السعيد نجل الشيخ المحقق لا سيما في علم الكلام وقد سمعت ممن سمع منه

انه رأى الشيخ السنوسي في نومه فقال وهو يضرب في رأسي وهو يقول أنت أولى بكلامي يا مسعود وقد كان حجة في علم الكلام في عصره بحيث لا نظير له فيه وقد سمعت ممن سمع من تلميذ العلامة سيدي محمد العياضي انه يتعلم عليه فقال قرأنا شهرا قراءة بحث و تحقيق من أول النهار إلى آخره من قوله فعلى العاقل أن يكثر من ذكرها إلى آخره وهو قراءة ساعة زمانية فإن قراءة الفصول قراءة تحقيق غايته يومان وهذا كله من منة الله وفضله عليه فالشيخ الخطيب سيدي المسعود ابن عبد الرحمن نجل الشيخ سيدي محمد صالح نجل الشيخ المعلوم غربا وشرقا سيدي أبي محمد الدكالي تلميذ أبي مدين الغوث مع الشيخ عبد القادر الجيلاني أفاض الله علينا من بركاتهم آمين وابن عمنا الفاضل سيدي الصديق وولده العالم العلامة تلميذنا سيدي محمد صالح وابن عمنا الفاضل سيدي علي الشريف والفاضل الكامل سيدي عبد العزيز نجل خالي سيدي محمد بن الحاج الشريف ومثله الفاضل الفقيه النحوي المتكلم المنطقي الحافظ لكل شيء لا سيما الشعر ابن عمنا سيدي أحمد الشريف ومثله الفاضل سيدي أبو القاسم الشريف وكذا ابن عمنا الكامل الفاضل سيدي عيسى الشريف.

ومن إخواننا في الله الفاضل العالم الصالح الصادق سيدي محمد البهلولي وبالجملة فأهل وطننا الخاصة والعامة أهل الفضل فقد ذهبوا من أغبولة ومن بني عفيف ومن بني أشبانة وأولاد الخلف وبني إبراهيم كالمقبل على الله الحاج يوسف ومن بني موسى جماعة ومن بني أحمد كذلك أعني عرشنا أولاد الحاج وعراصة لا سيما الفاضل سيدي أحمد مداح وابن عمه سيدي يحيى أحيا الله جميعنا على السنة النبوية وأماتنا وإياهم على الملة المحمدية بمنه وكرمه وكان لنا ولهم بالبركة في ذرية الجميع.

وإنما ذكرت هؤلاء في هذه المرحلة لعل الله أن يمن علينا وعليهم بعطف محمد صلى الله عليه وسلم عطفة من عطفاته تغني الجميع وليعلم الإنسان أن الزاد وإن كان ركانا في الحج وشرطا فيه فالركن القوي الرفقة المأمونة خصوصا الإخوان في الله فإنهم النافعون فلا بد منها وأحسن رفقتنا الأخ في الله والمحب من أجله العارف بالله المنفرد بالصدق في الأخرة بفضل الله تعالى سيدي محمد الشريف الطرابلسي النوفلي البلغيثي من المنشية ومعه جماعة من الفضلاء كالفقيه الفصيح سيدي محمد بن عزوز وولده سيدي محمد وغيرهما وفق الله الكل إلى صالح القول والعمل.

انعطاف إلى ما كنا بصدده فقد ظعنا من كفر حمام بعد اقتضاء بعض ديون الحجاج وشرائهم ما يخصهم من العلف والزاد والخيل وأخذ الخبير[1] وجميع ما يحتاجون إليه من جهازهم ومراكبهم وملابسهم وكنا نحن ننتظر سيدي أحمد بن حمود أن يأتي من مصر وكذا سيدي محمد الشريف وأصحابه وأصهاره من مسراتة وطن الشيخ زروق فلما قدموا ارتحلنا وذلك بعد ما حصل للحاج ضيق عظيم من شدة ما يعوزهم من العلف حتى أرادوا الارتحال بي وترك الشيخ أمير الركب فلم استطع ذلك لما بيني وبينه من المحبة في الله والتقرب من أجله فارتحلنا بعد أن مات من مات من الحجاج الرجال والنساء وفي تلك المرحلة مات الحاج الطيب بن بونشادة إذ كان كثيرا ما يعارضني في الأمور لما رآه مني من النكير على أهل البدع فلم يرض بذلك.

نعم أصابته غيرة وحمية على أهل بلده عامر غير أنه أتصل به المرض فتشاءم بنا فكأنه رأى ذلك منا كرامة فأتى إلي مرارا يطلبني في الحل وقد جعلته في حل غير أنه فات مني الدعاء على الأعداء في الحطيم والملتزم وعرفة وغيرها وكان هو من جملة من دعوت عليهم ولكن أسأل الله الهداية لمن علم أنه يهديه وإلا فيهلكه فكان من جملة

---

(١) في ثلاث نسخ الخبيز.

الهلكة وكذا غيره من عامر.

ثم أن الفقيه الشريف سيدي عبد الله بن رحاب ضاع له الجمال ودينه لم يقتضه فأراد التأخر إلى أن يقدم الفاسي فلم نتركه فتسلفنا من عند من فيه الخير من الركب فقدم والحمد لله على اتصال الرفقة فانفصلنا عن الشيخ امنصير فأعطاني فرسا في ديني الذي هو في المنصورة فلما رآه صاحبه يخلص أو رآنا على الطريق قدم فتحركت نيته فتركته فأتى أخوه جزاه الله خيرا فقال نحن تولينا مدينك وإن لم تركب عليها قتلتها فركبت عليها وتولى غريمنا ثم قدم معنا مودعا إلى أن دخلنا الرمل فبعث إلينا بعض الأجناد من المنصورة بعثه الباي خليل ليجبر أهلها على إعطاء دين الحجاج فأرادوا رجوع الركب فامتنعوا فقلت للشيخ أرجع أنت وبعض الناس وأنا أذهب مع الركب ساعة فنزل على الماء فلما انفصلوا عنا قالوا ما ليس لنا إلا المشي وعدم انتظارهم فمشيت معهم حتى سكن غضب أهل الركب فأمرت العلام بالنزول انتظارا للشيخ وأصحابه ممن ذهب إلى المنصورة فلما مر الثلث من الليل وإذا بمن ذهبوا إلى المنصورة رجعوا فأتوا ببعض ديونهم وأقتضى الشيخ امنصير شيئا من ديوني ولم يبق على غريمي إلى القليل.

فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا أيضا والشيخ امنصير وأصحابه معنا يودعوننا ويقتضي ما بقي له من أجرة اقتضائه الديون التي للحجاج فلما أراد الانفصال خادعه الحاج ساعد من أولاد موصلي والحاج ابن زكريا فصاح بنا يا فلان قد خدعني الحاج في عنايتكم فرجعت إليه أشليته عليه هو وأصحابه فلما رآني تقوى بي ورجع الشيخ أيضا لما سمع العراك فأراد الشيخ أن يضرب الحاج ساعد بالبشطولة فمسكناه وكذا الحاج ساعد أراد أن يضرب الشيخ فحجزنا بينهم فطاب قلب الشيخ الحاج امنصير ورجع طيب النفس سالم الخاطر جعل الله البركة في ذريته وكان لنا وله في الدنيا

والآخرة بمنه وكرمه فسرنا كذلك إلى الليل ثم ظعنا صبيحة إلى أن مررنا على القصر الذي فيه النصارى اعني الرهبان فلما وصلنا إلى باب القصر أشرفوا لينا فكلمناهم فكلمونا وسألونا عن مصر وكيف هي وعن حالهم فأجبناهم عما وقع بينهم وبين صالح باي الذي كان في الصعيد وقلنا لهم انتشب بينهم القتال وانهزمت طائفة مصر فأملوا زوارق أخرى فنزلنا القصر الطرفاني الخالي الذي دفنا به ابن سيدي محمد الحاج فبتنا فيه خير مبيت ثم ظعنا إلى الأجفار فوصلنا قرب الزوال بسويعات ثم ظعنا منه سائرين إلى الشمامة إلى أن وصلنا بعد مرحلتين والله أعلم إذ نزلنا قربها فبلغناها صبيحة وماؤها قبيح من أقبح مياه برقة يشوي الوجوه بئس الشراب إلا بعض الآبار فإن ماءها قرب م العذب وهي البئر التي تلي جهة المشرق وأنها تحت حجر فبتنا فيها خير مبيت إلى أن وصلنا معطن الجميمة فنزلنا فيه وجيمة على وزن كريمة وماؤها مختلف فبعض لا بأس به عذب وبعضه زعاق إلا أن أكثر الحجاج عنده الغنى وإنما يصلح للإبل وكذا ماء الشمامة إنما يصلح للجمال فقط إلا من اضطر لشربه.

وقال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر أن سانية قربها ماؤها عذب فأنا أعرفها والسؤال في حجتنا هذه متعذر لفقدان أهل برقة فإن المجاعة أجلتهم من وطنهم وكذا تعدي بعضهم على بعض حتى انه لا يطيق أحد النزول في برقة من غزو بعضهم لبعض فلا تجد أحدا تسأله عن المواضع فظعنا منه إلى أن بلغنا معطن المدار فاستقى الناس وسقوا إبلهم فإن ماءها طيب لا بأس به فرفعوا الماء ثلاث مراحل إلى جرجوب والعقبة الصغرى قبل معطن المدار بسويعات قليلة وفي الطريق ماؤها ملح أجاج فلا يشربه إلا الإبل ثم سرنا ثلاث مراحل إلى أن نزلنا جرجوب فسرنا مراحل كل مرحلة باسمها عند أهلها من بدوها إلى أن بلغنا معطن أم أقرب[1] وماؤه أيضا عذب طيب لا

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية المغرب وهو مغرب ما في صحيفة ٢٣٦.

بأس به.

قال شيخنا سيدي أحمد بن ناصر ما نصه.

تنبيه وتمر هذا البلد أحسن تمر رأيناه في البلاد المشرقية حلاوة ونقاوة وكبرا يشابه تمر بلادنا وليس منه ما يحمل في قفف صغار من سعف النخل تسع كل قفة منها أزيد من ربع القنطار ويبيعونها كذلك إلا بأوعيتها وأخبروا بأنها لا تباع إلا كذلك فمشتريها لا يحتاج إلى حبال للشد ولا غرائر للحمل بل يشتري حاجته منها فيعلقها على بعيره فمن الإبل من يحمل العشرين إلخ فظعنا منه إلى أن وصلنا العقبة الكبرى فصعدناها على الطريق الصعبة المعروفة المعتادة لسلوك الحاج منها غير أن السير على حسب قوة الإبل إلى أن خرجنا منها ثم كذلك إلى أن نزلنا الطرفاوي فوجدنا أرضه زهراء طيبة الأطراف منيقة النبات وأقام الركب فيه يوما ويوم الإقامة خرجت متنزها في البحر ومتفكرا في أمره ومتعجبا في صنع الله تعالى لما علمت أن رؤيته تفرج الغم وتزيل الهم وكذا رؤية الأشجار والأنوار والأزهار تشرح الصدر وعند ذلك قلت[1].

يا سائلا عن الطرفاوي تذكر ... رائحة النرجس فيه تعطر
فانه محل خصب للدواب ... يعلم ذاك من رآه بالصواب
وعذب مائه أيضا قد اشتهر ... عند الحجيج والظعين المستقر
وبحره يزهي جميع الناظرين ... وهو يفرج كروب الحازنين
فحسبه للمسلمين منزلا ... وماؤه[2] للواردين منهلا
والضرع عنده يدر أكثرا ... من غيره أجل ليس يمترى
فزرعه غير بعيد الخصب ... عمره يا رب به بالقرب

---

(١) تنبيه في هذه القطعة يوجد خلل في جميع النسخ.

(٢) في ثلاث نسخ وحبه.

بجاه من لبى وحج واعتمر وزار طيبة ومن بها استقر
فركبنا يا رب بالامان بلغه بالنعم والإحسان
فهو ذا يعم من في البحر من أخوان وحفظ من في البر
ثم الصلاة والسلام دائما على رسول الله خير من سما[1]
وآله وصحبه والتابعين وحزبه برحمة للمحسنين

قلت وقد نظمت سائر المعاطن ببرقة وبينت أوصاف مياهها غير أن الكراس الذي نظمته ضاع لي قرب الزعفران في يوم شديد البرد فرجعت أنا وسيدي أحمد بن حمود وسيدي محمد الشريف إليه فلم أجده فتحسرت عليه غاية لأني أشفيت العليل وأبردت الغليل في بيان أوصاف المياه وبيان المراحل والمنازل.

ثم ظعنا من الطرفاوي قاصدين معطن التميمي فسرنا أياما إلى أن مررنا على عين الغزالة بساحل البحر وأقول فيها كما قال شيخنا المذكور عين فيها ملوحة تسيح من سفح جبل وتصب في بحيرة كبيرة تحتها من البحر المالح بحذائها القصب والعريش وأنواع النبات المائي يوجد حولها صيد كثير عند خلو البلاد من كثرة المارة إلخ.

قلت وقد سمت أن الحوت كله غربا وشرقا إنما أصله منها وإنما يتخلق منها ولا علمت أن له أصلا من الشريعة أم لا.

نعم فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى معطن التميمي قبل أن يصل الركب إليه بعثنا إلى درنة ليأتوا لنا بالميرة منها وكذا الفواكه فأقمنا فيه يوما بتمامه مع يوم النزول إذ نزلنا فيه بكرة منتظرين ملاقاة درنة فلم يأت لنا خبر منهم لأنهم في هذا الزمن انقطعوا عن ملاقاة الركب لكثرة الفتنة بينهم وبين أهل مسراتة والبيخة فإن الحرب بينهم دائم إلا

(١) في نسخة: من انتمى.

أن هذا الزمن فيه العافية التامة وإنما فيها المجاعة العظيمة يموت الخلق فيها كثيرا لا سيما عرب برقة فقد حكوا لنا أن بعضهم لم يذق طعاما أربعة أشهر وبعضهم ستة أشهر وإنما يأكلون الحشيش والنبق وغير ذلك.

تنبيه وأعلام قال شيخنا المذكور ما نصه.

تنبيه ودرنة هذه قاعدة الجبل الأخضر مدينة على شاطئ البحر بينها وبين خانية مسيرة يوم في البحر ودرنة مدينة كبيرة فيها كثرة المياه والجنات والفواكه والأعناب وفيها السواني ذات أنواع من الثمار وبها أسواق وفنادق وامر المعاش فيها سهل والعمارة فيها كثيرة أخبرني من أثق به عام عشرة أن بها من أهل مسراتة خاصة ثمانمائة رامٍ ببنادقهم سوى ما فيها من غيرهم ولم تكن قبل بها العمارة وإنما أحدثت في حدود الأربعين والألف بناها الأندلس لما خرجوا من جزيرتهم ونزلوا في ذلك المكان وأعجبهم وآنقهم وفجروا أنهارا وغرسوا أشجارا وحفروا سواقي وبنوا وسكنوا وأسكنوا واستقلوا بأنفسهم ولم يكونوا تحت حكم أحد ثم إنهم طغوا واشتغلوا بالفساد ومدوا أيديهم إلى عمالة طرابلس في زمان عثمان باشا وغاظ ذلك أهل طرابلس ووجهوا لهم عسكرا وتقاتلوا معهم وأخذوهم وقتلوا من قتلوا ونفوا من نفوا ولم يبق منهم إلا أقل القليل واستولى أهل طرابلس على البلدة فهي تحت أيديهم.

قلت هذه درنة لم أرها وإن كانت قريبة غير أن الأركاب لا تدخل إليها لأنها ليست طريق الركب غير أن أسماعنا مملوءة من أخبارها فحصل لنا العلم بها وبأحوالها ضرورة فظعنا منه صبيحة فسرنا كذلك متوجهين إلى مفازة السروال وهي أشد مفازة في طريق الحج إذ سبعة أيام لا ماء فيها فكادت تزهق النفس من شدة ما استقبلها من العطش فإن العطش إذا أصاب الإنسان أسرع موته بخلاف صاحب الجوع فانه يطول.

فالحاصل أن هذه المفازة القادم عليها كالقادم على القبر فقد تقرر فيها الموت الأبيض فالتدمية البيضاء محققة فتحقق أمر الركب انه يسلك على طريق الجبل الأخضر لما علمت أنه لا ماء في السروال إلا إذا لطف الله بوجود الغدير فإنهم ينتظرونه كما ينتظرون ماء السماء فسرنا مراحال ونحن في تجاه الجبل والسير بحذائه بحيث يقرب سيدنا سفح الجبل غير أن الطريق وعرة وصعبة على الإبل إنما ألجأ إليها الضرورة.

فلما أن وصلنا تلك الشعب القريبة لجردس وتجاوزناها وجد الناس غديرات فيها ماء فأكثر الركب قد استقى منها غير أن الإبل أصابها عطش عظيم وقد غَبَّتْ كثيرا فلما ظعنا من ذلك المحل وجد الناس غديرا قرب النزول في التغليس فمنهم من مر عليه من غير علم به ومنهم من سمع به فأعرض عنه غير أن الذي ظهر للناس تزاحموا عليه بالإبل حتى غيروه وخوضوه فاختلط به الطين فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى جردس فنزلنا على الماء فتفرق الناس عليه وهو ماء قليل فتزاحمت عليه الناس ازدحاما عظيما فلم يستطع أحد شر ماء وقد تعذر علينا سقي الخيل وأما ملء القرب فمتعذر قطعا.

نعم بعض الناس قد استحيى منا فسقى الخيل وأعطى لنا ما نطبخ به وإلا فأكثر الناس قد بات بلا سقي ولا استقاء فلما تعذر الأمر قلنا لأصحابنا دعوا السقي إلى فراغ الناس منه فيتسع المجال بحيث تبقى الآثار منفردة خالية وكان الأمر كذلك فلما فرغوا من السقي وجدنا الوسع فسقينا واستقينا وشربنا وشربت الإبل وكذا الخيل وبقي الناس هناك بعضهم رفع وبعضهم تخلف لقضاء حاجته فلما سقينا وملأنا القرب لحقناهم فماؤه طيب عذب لولا أنه قليل يرشح رشحا وإنما يقضي الناس مآربهم بطول المدة.

وهذا الجبل واسع الأطراف كثير الشجر عام الخصب فخصبه لا نظير له فمرعاه قليل الوجود وكذا ماله أعني البقر والغنم فوالله يخاف الإنسان أن ينظر فيه لطول إقامته واتساع عرضه ضخم الجثة.

وقد قالوا هذا الجبل كثير السمن كثير العسل كثير اللحم كثير الزرع والخصب لو أن فيه عافية غير أن عربه يتعدى بعضه على بعض وهم متغلبون فالجبل لمن غلب منهم لا يرقبون في بعضهم إلًّا ولا ذمة وهم في أجلاء بعضهم بعضا إلى الآن وحتى الآن غير أنهم وجدناهم في مجاعة عظيمة ما وجد مثلها وقد أفناهم الجوع وإنما تحيرنا من أمر الشريعة هل وجب علينا إطعامهم وأحياؤهم أم لا فإن كثرتهم رفعت علينا الوجوب فإنهم كالجراد المنتشر فسقطت مخاطبة الشرع باستخلاصهم مما هم فيه سلمنا يجب فإنهم دام بهم ذلك فمن كلف نفسه وقع فيها وقعوا وهلك كما هلكوا.

رجوع إلى ما كنا بصدده وهو خروجنا من هذا الجبل إلى أن وقعنا في البحيرة لاقانا نجع من العرب وارد على عرب آخرين يأكل بعضهم بعضا فلما واجهناهم وإذا بهم أرجفوا وقفوا على خيلهم وأرادوا الانتصال والمقاتلة ظنا منهم أننا غير الحجاج فلما ركضوا من الركب إلى جهتهم اجتمعوا وتحيروا من أمرنا فلما علموا بنا وتيقنوا أمرنا قالوا لا علينا في الحجيج وإنما نريد من تعدى علينا من العرب قبل فاطمأن ما بيننا وسكن بعد ما حمي الوطيس واضطرم أمر الفتنة بيننا وبينهم والحالة أنهم مرتحلون بنسائهم وحريمهم.

نعم وجدنا عندهم الإبل ما أحسنها وقد اشتد سمنها وإبل الركب ضعيفة هزيلة فصاروا يبدلون.

نعم لما علموا اضطرار الحجاج امتنعوا من التبديل وصاروا إلى بيع فارتقى أمر

قيمتها فشفى الركب غليله منها فساروا معنا من الضحى إلى وقت العصر ثم انفصلنا عنهم وإن أخانا السيد محمد الشريف باع فرسه التي ركب عليها وأعطيت له فرسي يركب عليها لأني أتيت بفرسين فلما ركب عليها نحو اليومين أو الثلاثة تركها وقال أنها رقيقة لم استطع الركوب عليها فبتنا بعد الانفصال عنهم.

ثم ظعنا فنزلنا مدينة ابن غازي على شاطئ البحر وهي مدينة طيبة فلا بأس بها لكونها مرسى في قربها سبخة وفيها بساتين من ناحية أخرى وأرضها طيبة المزارع بلدة طيبة مباركة تصلح للمال غير أن العرب جاروا عليها وعلى أهلها وأنهم غير متفقين نعم حكم الباشا نافذ فيهم وأخوه هو الباي يحكم فيها وقد امتلأت بالعرب وهم أعداء فمنهم ملتجيء بها ومنهم قاصد لأخذهم فلم يرتقب من أهلها غير أن بعض أهلها سلم فيهم وتركناهم مهتمين بأمر الأخذ باتفاق رأيهم ورأي أهل المدينة على أن من خرج من حريم العمارة أخذوه وقتلوه وسلبوه ومن بقي في حريم المدينة وقع الشك فيه فمن نظر إلى أهلها كف ومن نظر إلى العداوة وخذلان بعض أهلها أراد افتراسهم والانتقام منهم فخلفناهم على هذا السبيل وبعد ذلك سمعنا أنهم لم يصر لهم بأس منهم ما داموا عندهم غير أن طائف ارتحلت منهم وظعنت معنا من الخائفين إلى أن وصلنا مسراتة وتورغة فتفرقوا في الأوطان على المعيشة والجوع يقتلهم ويميتهم فلم يفد فيهم إطعام الركب غير أن أهل الركب ضجوا منهم فكل خيمة يقف عند بابها الستون سائلا أن أكثر فتراهم يردونهم بالشتم واللعنة والخزي وبعضهم بالضرب فلا يكادون يسمعون لتضررهم من شدة جوعهم فنادينا في الركب ولعل الله يسخرهم فنقسمهم على حسب الطاقة والضعف لأن ذلك واجب علينا فلم يسمعوا لنا لقلة زادهم ومدينة ابن غازي قد غلا سعرها غلاء فاحشا بحيث لا يستطيعون شراءه وأما الميرة فكثيرة الوجود لأنها تأتي من بر التبرك إليها ومن أرض العرب لا سيما إفريقية والغلاء والرخص جندان من جنود الله يضعهما الله حيث شاء فلا فائدة

في كثرة الزرع ولا في قلته.

وبالجملة فأهل برقة يموتون بالجوع موتا كثيرا عند أبواب الديار وإنما شأنهم معهم غلق الأبواب فترى السائل الكثير يصيح على الباب بالطعام إلى أن يموت على عتبة الدار فهلك من أجله[1] كثير من الناس وقد خاصمتهم وقلت لهم من مات منهم فإثمه عليكم لوجوب مواساتهم بما عندكم وإن بقيتم مثلهم فإن أمر النفس في الشرع عظيم فيخاف على بلادكم الخراب والهلاك بسبب الصد عن هؤلاء الجياع وأما في الطريق فلم ينصف منهم إلا الكاملان سيدي أحمد بن حمود وسيدي محمد الشريف فيركبان الصغار ويطعمان الكثير مع قلة الزاد حتى أردنا الفرقة والقسمة من شدة مواساة سيدي أحمد بن حمود لهم فرضي بالقسمة من أجل تغير الرفقة إذ قالوا ما يأكله هؤلاء العرب فنحن أولى منهم إذ نحن في الصحراء فلا مغيث لنا إلا الله فإن انقضى ما بين أيدينا صرنا مثلهم فنفس الإنسان أولى.

نعم سلمنا الأمر له في الظاهر فلم يقع بنا إلا الخير والعافية والحمد لله وأقمنا في مدينة ابن غازي يومين لشراء الزاد وعلف الخيل والبغال غير انه غال كثيرا وأنا قد صليت الجمعة فيها مع بعض أصحابنا في مسجدها العتيق والله اعلم.

وقد دخلتها مرة أخرى في حجتي الأولى في الرجعة وكنت اجتمعت بقاضيها سابقا فوجدته منعزلا متغيرا حاله من شأن العزل فإن ذلك من الأمر القديم فمنهم من يحب الولاية ومنهم من يكرهها وأما العزل فبالاتفاق على بغضه ووجود الاغتنام عنده وأما أمر الدنيا فيحمد الله تعالى فلما اجتمعت معه وعظته وقلت له أحبك الله حيث أخرجك من النار وولى عدوك وفي الواقع حبيب لك من حيث ناب عنك

(١) في نسخة من أجل ذلك.

وأحل محلك في دار العذاب والهوان أو كلاما هذا معناه ففهمنا عنه أنه أراد أن نقول له ترجع إلى محلك فيفرح إذ أني أشرت له أولا بالقضاء والله اعلم حين اجتمعت معه في مدينة طرابلس وأقبلت علي جماعة ابن غازي كالقاضي الجديد والمحب في الله نجل الود الصديق والخل الفاروق سيدي عبد اللطيف وجماعة من رؤسائها من أولاد الترك وغيرهم فتفضلوا علينا بالضيافة الطيبة والزرع وشيء من الزاد على قد وسعهم.

وقلت ولولا الجدب والمجاعة لأغنوا جماعتنا بما نريد لأنهم في قوة الاعتقاد فينا وشدة حسن الظن في جانبنا وذلك وصف عمالة طرابلس فلما تبركوا بنا وبإتياننا لمحالهم واشترينا ما يخصنا من الزاد والعلف للخيل فطال بنا الأمر إلى أن عسعس الليل بتنا فيها.

وزرت الولي الصالح والشيخ الواضح الوحيشي وأدخلني ولده إلى داره وقبر الشيخ هناك فزرته وشاهدت عنده أمرا عظيما من الشهود والتجلي الذي لا يمكن التعبير عنه واجتمعت مع الفاضل الكامل الصالح سيدي (١) المغربي الذي استقر هناك بعد أن كان في مدينة درنة وعليه حلاوة الإيمان وطلاوته وعليه كسوة العارفين بالله فأحسن إليه سيدي عبد اللطيف المذكور وقد أشار علينا أنا وسيدي أحمد بن حمود بأن أمركم لا يكمل عند الله إلا بعد أن تزوروا المغرب(٢) فيكمل حالكم من هناك وقد كان ذلك من بعض العارفين قبله علينا أيضا فيقع الخاطر على الخاطر، كما يقع الحافر على الحافر، وهو من توارد الخواطر.

نعم قال ذلك لا بد أن يكون عن عجل تمم الله لنا الفائدة بمنه وكرمه ونحن على

---

(١) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

(٢) في نسخة المغربي.

ذلك من الناوين [لأنواع الخير من][1] حج وجهاد وزيارة وعلم وتعلم وإفادة واستفادة وأنواع الخيرات على اختلاف أصنافها وتنوع أجناسها فإن عشنا فعلنا وإلا كفتنا تلك النية كما ذكر ذلك صاحب المدخل أبو عبد الله ابن الحاج عن بعض الفضلاء المجتهدين في إتباع آثاره صلى الله عليه وسلم واقتفاء أحواله وقد قال صلى الله عليه وسلم يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله وقد علمت أن حكمة الجزاء بالخلود للمؤمنين في الجنة وبخلود الكافرين في العذاب بالنار هو انه على حسب نية كل من المؤمن والكافر فإن المؤمن لو بقي على الدوام في الدنيا ما أحب أن يسلب إيمانه وكذا الكافر ما أحب أن يسلب كفره فكل منهما ينوي التأبيد فيما حصل عنده فلا يبغي الانتقال عنه أصلا فجزاهم بالخلود في المحلين على حسب نيتهم وقصدهم وبالنية تنمو الأعمال وتزكو وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن نوم العالم خير من عبادة الجاهل لما علمت أن نوم العالم صيره طاعة بنيته مثل أن ينوي الاستراحة والنشاط لتحصيل الفرائض أو النوافل وقد يجب النوم كما إذا علم من نفسه انه إن لم ينم فرط في صلاة الصبح كما قاله الشيخ زروق بل يحرم قياما الليل على من هذا شأنه كما صرح به أيضا.

وقد حكى صاحب المدخل المذكور عن بعض الأشياخ أنه كان يتسبب في بستانه هو وبعض تلامذته وإذا بشخص يدق على الباب فأراد التلميذ. فتحه فقال له شيخه كيف نويت وما نويت فقال نويت فتحه فقال له الشيخ أجلس ففتح له الباب ثم صار يعدد له النيات التي قام بها إلى أن بلغ نحو الثمانمائة[2] وهو فتح إلهي ووهب صمداني ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وأي فقه أعظم من هذا وأي فتح أولى منه. وقد قال صلى الله عليه وسلم كما رواه البخاري في صحيحه إنما الأعمال بالنيات أي

---

(١) ما بين القوسين بياض في ثلاث نسخ.

(٢) في نسخة خمسم وعشرين نية.

صحتها وثوابها بالنية كذا قدره الجمهور فإذا علمت هذا علمت أن مقام العارف عوامل رفعه حسن النية وحسن تنميتها.

وقد قال الشيخ السنوسي أن أدنى الأولياء أفعالهم دائرة بين الواجب والمندوب وإنما ذلك بالنية وأما الخاصة فأفعالهم كلها واجبة وذلك ليس إلا بنذرها فمن حصل كيفية القصد وتنميته حصل له الخير الأعظم والمقصد الأسنى وذلك بشيخ عارف أو أخ ناصح أو مفت محقق أو بإلهام رباني ووهب رحماني تفضل الله علينا وعلى ذريتنا وطلبتنا ومن تعلق بنا من الأحباب به بمنه وكرمه.

انعطاف ورجوع إلى ما كنا بصدده فلما بتنا مع الأحباب في ابن غازي بكرنا صبيحة يومنا فوجدنا الركب قد ارتحل فأدركنا آخره وودعنا من يحبنا فيه إلى أن لحقناه فسرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى أجدابية وتجنبا سلوكا وهو معطن عظيم ماؤه عذب وأباره متقنة لا تكاد توجد في غير هذا الموضع وأما أجدابية فكانت عمارة وآثارها باقية إلى الآن وفيها آبار متفرقة كثيرة المياه أرضها طيبة أحسن الأرضين فيها خصب وزرعها طيب لا نظير له فيما علمت وأبارها سفح أحجار ماؤها عذب طيب سائغ شرابه فليس كماء الصحاري كأنه ماسىء الجبل والعيون وتلك الأحجار التي فيها الآبار متصلبة ليست رخوة فظعنا منها إلى أو وصلنا معطن المنعل باللام والميم ماؤه عذب جيد قل نظيره فلا تجد مثله إلا عزيزا فأقمنا فيه كما أقمنا في غيره إذ كل معطن إلا كانت فيه الإقامة مصلحة للإبل.

نعم هذا المعطن المفازة التي بعده أصعب المفازات فالمراحل بعده خمس لا ماء فيها طيب وإن وجد في سواق أو آبار قليلة فهو زعاق حرف مر يشوي الوجوه بئس الشراب لا يصلح إلا بالإبل.

وقد استقينا من اليهودية فلم يصلح ولو للدواب فلم تشربه وإنما تتجرعه فلا تكاد تسيغه وهذه اليهودية كانت مدينة ملكتها يهودية وكانت قرى كثيرة متقاربة فيها أثر بناء خال متراكم يدل على أنها كانت عمارة كثيرة واشتهر على ألسنة الحجاج أنها مدينة كانت ملكتها يهودية في عسكرها كذا كذا من الخيل وفي الرسالة القشيرية عن بعض الفقراء انه قال دخلت مدينة يهودية بالمغرب إلى آخر الحكاية.

ذكر أبو سالم أن تلك المدينة هي هذه إذ لا نعلم مدينة بأرض المغرب تسمى اليهودية إلا هذه والله اعلم بحقيقة ذلك إلى أن مررنا على معطن سماه شيخنا سيدي ابن ناصر وهذه المفازة ما أصعبها من مفازة فيها الحر الكثير فإن وجد فيها النسيم فنعمة من الله إلى أن وصلنا إلى معطن الأحمر فلم ننزل به غير أن من عطش سقى منه قدر حاجته وماؤه عذب طيب تتنعم فيه الأركاب ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى النعيم فما أحسن ماءه وأشده عذوبة وهو بارد وقل نظيره في المياه وزال العطش والهم والغم عن الناس وعن دوابهم لما مر أن المفازة التي قبله أعني الصراط صعب سلوكه في برقة فلا تجد أحدا إلا يشتكي منها فمن لم يستعد لها من معطن المنعل هلك والآبار بينها وبين النعيم كثيرة الوجود قليلة النفع مضرة بالناس من ملوحة مائها ومرارته وذلك يعلم بالذوق فماء النعيم عذب فرات زلال إلا انه لم ينفعل للهواء مع برودته فظعنا منه إلى أن وصلنا معطن الزعفران بينه وبين النعيم مرحلتان وبينهما معاطن على شاطئ البحر عذبة وأرض الزعفران ربوة طيبة خصبة فقل نظيرها في برقة منيقة زاهرة كثيرة الأنوار في الربيع يستحسنها الناظر فمن دخلها تأنس بها تصلح للاستيطان كنت أتمناها للسكنى فلا تعلم نفس ما في هذه الأرض من المنافع وهي رعي لمسراتة ينزلونها في الربيع فإنها تصلح كثيرا لغنمهم ومواشيهم.

حاصله كثيرا الخصب فمن هذا المعطن تشم رائحة طرابلس بل رائحة الوطن

فماؤه غزير عذب كثير مُنْهِم[١] طيب سائغ شرابه فظعنا منه فمررنا بمطراو ومطرا وماؤه غزير مستجم فيه ملوحة ميل إلى مرارة سقى المحتاج دوابه منه ثم مررنا ببئر حسان وحسان الآن اسم علم على موضع فيه مورد ماء قلما يوجد فيه ما يكفي الركب إلا في أزمنة الخصب وكان في الأصل اسم لعامل بعض ملوك بني مروان بعثوه لغزو إفريقية بعد موت عقبة بن نافع[٢] أمير إفريقية ومفتتحها وارتداد غالب إفريقية فنزل في هذا الموضع وبنى فيه قصورا تسمى قصور حسان وكان يغير من هناك على إفريقية وأقام بذلك المحل مدة وخبره مشهور مذكور في تاريخ فتوح إفريقية ثم مررنا بالمسيد[٣] معطن برملة على يسار السبخة به ماء لا بأس به غير انه به ملوحة ثم بالعريعرة[٤] معطن بإزاء السبخة بساحل البحر به ماء عذب فرات طيب غزير من أعذب المياه يقرب من ماء وجدناه بالتميمي هذا وإني تركت معطنا بعد بئر حسان وهو بئر الهويشا معلوم وهناك سبخة عظيمة مخيضة وفيها ماء ملح أجاج إلا بعض الآبار فلا بأس بمائها يعرفها الخبير والمتوطن ولا ينبئك بها مثل خبير.

ثم مررنا على قبر أبي شعيفة فزرناه والركب مار على طريقه لبلد ولي الله باتفاق، قطب العارفين على الإطلاق، أبي العباس سيدي ومولاي أحمد زروق وانصرمت مراحل برقة التي قيل فيها على ألسنة العوام حرقة أو[٥] غرقة لا برقة فلاحت لنا أعلام العمارة، وظهرت لنا من الدنيا الأمارة، وتنادى الحجيج البشارة البشارة، هذا أول[٦] العمران قد كشف لنا أستاره، فساروا مظهرين الفرح، ومسيرين الترح، ومخفين

---

(١) في نسختين منهمر وفي نسخة منسجم.

(٢) في الرحلة الناصرية عامر.

(٣) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية السميرة.

(٤) في الرحلة الناصرية العريرة.

(٥) في الرحلة الناصرية بإسقاط حرقة أو.

(٦) في الرحلة الناصرية اوان.

ذعرا[1] كأنهم لم يروا العمارة دهرا، بل المفاوز سهلا ووعرا، والدنيا يبابا وقفرا، يخيل لهم أن المباني والنخيل شيء ما عرفوه، وجالت الأفكار والأبصار في أرجائها كأنها أمر ما ألفوه، وكأنهم نشروا، ومن المقابر حشروا، وما أسرع انقضاء سفر تنقصته الليالي والأيام، فكيف بعمر مرت به الشهور والأعوام، فنسأل الله حسن الختام، بالموت على الإيمان والإسلام، والعفو والعافية على الدوام، ولما زرنا أبا شعيفة قصدنا نحو الإمام زروق.

هذا وتعداد المعاطن تبعنا فيها شيخنا المذكور أقول لما خرجنا من السبخة وخضناها وخرجنا من العوينات وتركناها وراءنا وقد انقضى علينا الزاد من أجل أننا آثرنا عرب برقة بالإطعام إيثارا قويا لكن من يعرف الله منا اعتمد على الله وتوكل عليه وقد علمت أن من توكل على الله فهو حسبه أن اله هو الرزاق ذو القوة المتين.

تتبع المشائخ وجدنا الفاضل الكامل العالم العلامة الفقيه الفهامة محبنا وغاية ودنا أخانا في الله وقد لقناه شيئا من أوراد أشياخنا رضي الله عنهم ونفعنا بهم وأفاض علينا من بركاتهم بمنه وكرمه سيدي محمد بن عامر مع الأخر في الله والمحب من أجله الحاج إبراهيم الشريف من شرفاء مسراتة ينتظروننا نحو اليومين لأنهم خرجوا بحسب عد المنازل من مدينة ابن غازي ومراحلنا فلم يعد ذلك العدد فينا لأن مشينا أقل من ذلك وضعف الإبل وهزالها وبعض الإقامة على المعاطن استراحة ونشاطا للإبل ومعهم جماعة من المحبين من مسراتة من الشرفاء وغيرهم بالطعام واللحم أعني والخبز ونوعا آخر يسمى عندنا بالفطير وعند بعض الناس يسمى بالسمن والتمر الجديد بان حملوا والله اعلم على الإبل فلما لقيناهم فرحنا بهم اشد الفرح من أجل المودة في الله والحب من أجله وجدونا على الجوع وغايته فأتوا إلينا بالخبز واللحم عند وقت الغداء

(١) في جميع النسخ ومخفين المساوي والتعب.

فاجتمع أصحاب الجميع سيدي أحمد بن حمود وسيدي عبد الكريم وسيدي محمد اليعلاوي وسيدي أحمد بن أبي القاسم والمؤلف لهذه الرحلة وأصحاب الجميع وسيدي محمد الشريف الطرابلسي وأصحابه فلما أكلنا وأكل من الركب من مر علينا وعند الليل قسموا ما حملوه بيننا وبين سيدي محمد الشريف وهو كثير جدا ففرقناه على أهل الركب فكل أخذ نصيبه وأما نحن وسيدي عبد الله بن رحاب فقد عمنا خيرهم جعل الله البركة فيهم وفي ذريتهم إلى يوم القيامة آمين وكان لنا ولهم بالغنى الظاهر والباطن وزوال الحجاب من رب الأرباب اللهم لا تجعل فيهم فقير دين ودنيا بمنك وكرمك.

فذهبنا كذلك إلى أن نزلنا في محل بعيد من الشيخ زروق غر انه قبالة قبره فبدأنا بزيارته قبل الزوال[1] فلما استشفينا منه عليلنا وأبردنا منه غليلنا جعلنا الله في زمرته وزمرة أولياء الله تعالى وكان لنا ولذريتنا وقرابتنا وإخواننا في الله وطلبتنا مغيثا شفيعا ولينا نصيرا وردع[2] به أعداءنا بمنه وكرمه وقد استضافنا الأشراف بمحالهم وكذا غيرهم وأما من أتى بالطعام والتمر للخيمة فلا يعد ولا يحصى لأن أحياءنا في مسراتة من الطلبة والعلماء والفقراء والحجاج والشرفاء وآغة الصبايحية ممن له مشيخة في مسراتة اللهم عمر مسراتة وكثر خيرها ورخص أسعارها وأمن أرضها وأحفظها من كل طارق يطرقها إلا طارق خير وأهد ولاتها وأرحم بهم الضعفاء بأن يكونوا رحمة لأنفسهم وللأمة المحمدية غيرهم وكن اللهم لهم على من ظلمهم ولا تكن عليهم يا أرحم الراحمين يا رب العالمين وأمنن علينا وعليهم بالنصر والعز والرفعة والعفو والعافية والبركة والمنة في الأزواج والذرية والأموال والرأي والاستقامة ودوام العمارة وأتباع السنة المحمدية وأحفظ وطنهم من المجاعة آمين.

---

(١) في ثلاث نسخ النزول.
(٢) في نسخة ذرأ.

ومررنا على أخينا في الله سيدي الحاج أحمد ودخلنا بيته حين ظعنا من الشيخ زروق واستضافنا وأحسن إلينا[١] وهو قد حج معنا وكذا محل سيدي محمد بن عامر ودخلنا مسجده الذي بناه جديدا وأحسن بناءه تقبله الله منه وأثابه على قدر نيته وحمدنا الله له ودعونا له بالعمارة بالعلم والعمل والدين وإظهار الشعائر الإسلامية فيه وتوفية الحقوق الإلهية والآدمية من غير مشقة ولا كلفة وأن يغنيه وذريته ومعينه غنى لا يتبعه فقر أبدا بمحمد وآله وقطب الزمان وحزبه.

حاصله أقمنا فيه بيومين فلما لم يحصل لي المقصود من الشيخ زروق ذهبت إليه في الليل ليكمل المرغوب ولعل الله أن يتم لنا المطلوب فأحسن إلينا وكيله أحسن الله إليه ثم ظعنا منه فودعنا من ودعنا من الأحباب فما أصعب منه أي من الفراق إذ لو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان فلم أعلم مصيبة أعظم من مفارقة الأحباب والإخوان والخلان والأصحاب فبتنا قرب ساحل حامد مبيت خير وعافية ثم ظعنا منه صبيحة فأشرفنا [٢] على وطن الساحل فلما دخلنا البدل وإذا برجل من معارف سيدي محمد الشريف لقينا بخبز ولحم وتمر جديد كثير الله خيره وأحسن إليه بمنه فعرضناه في الطريق فكل من مر من الحجاج إلا أكل وشبع وربما تزود فعم الخير كل الناس والناس في زيارة الحجيج كثيرون أفواجا بعد أفواج.

وعمالة طرابلس أهل اعتقاد ومحبة فأتانا الفاضل الكامل الفيه النبيه المحب سيدي سالم الفطيسي وإخوانه وجماعته يريدون الزيارة والتماس الخير منا فعزم علينا وعلى الفضلاء أصحابنا سيدي محمد الشريف إلى بيته رغبة واغتناما للبركة ومعنا جماعة من رؤساء الركب وفضلائه فأنزلنا في غرفة مقدما شيئا من الرطب والطعام

---

(١) في ثلاث نسخ وأحسنها.

(٢) بياض في ثلاث نسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

الخفيف كما هو ألسنة واللبن فلما وفينا ذلك مع حصول المقصود وسألناه الذهاب فقال حتى يتغدى جمعكم فألح علينا فلما علمنا قصده وقوة رغبته وافقناه على غرضه فانتظرناه إلى حصول مقصوده وتمام مطلوبه وهو لا بأس به في العلوم لا سيما مسائل الفقه وبعض مسائل النحو حاصله أنه عالم فاضل ففيه أخذ من كل فن بنصيب بل وجدنا فيه أكثر من الظن فلما حصل المقصود دعون الله لهم ولإخوانهم ولأحبابهم ولذريتهم أحسن الله إليهم وجزاهم عنا وعن المسلمين خيرا.

ثم زرنا القطب الصالح والغوث الواضح الشيخ عبد السلام الأسمر فانه مجاب الدعوة وقبره روضة وحريمه لا يتعدى عليه أحد فمن وصل إليه سلم ونجا أفاض الله علينا من نفحاته وقد رغبنا عنده فدعونا الله لنا ولأقاربنا والمسلمين والمسلمات ثم انفصلنا عنه سويعة لقينا رجل أظنه من أهل الوقت ومن أهل التصريف ثم لحقنا الركب نازلا على أطراف البلد فأتى إلينا جمع من طلبة العلم كالعلامة الفقيه ولد الشيخ سيدي سالم غير المذكور وقد اجتمعت معه في الحجة الثانية ومعه فضلاء وعلماء فتكلموا معنا في العلم بحسب ملكتهم وقوة بحثهم رضي الله عنهم وأرضاهم وكذلك من سبق ممن اجتمع معنا فعلماء طرابلس النحو فيهم القطر وشراحه وحواشيه تقل فيهم الألفية وشراحها وكذا يقل معهم المختصر وأما التوحيد فقليل الوجود فلا تجد من يحققه من مصر إلى وطننا هذا وما اشتغال مصر إلا بعلم المنطق أما طرابلس وعمالتها فقد ضاقت على أهلها المعيشة وما هي إلا بالكد والجد والسعي الكثير ومع ذلك فلا يستقرون على طائل فقد انعدم التدريس للعلم في طرابلس وقل الاشتغال بالعلم رأسا فلا تجد مجلسا فيه وكيف يتصور العلم فيها مع أن علماءها أفضل علماء الأوطان غير أنه لما انعدم التدريس منهم صاروا قاصرين لعدم أنفاق العلم فإن العلم يزيد بالإنفاق وينقص بعدمه فلما ضعف أمر البلاد قصر العلم بل كاد أن ينعدم العلم رأسا ومن أراد العلم فليذهب إلى مصر وإلى تونس أو إلى جربة مدرسة

الشيخ البركة سيدي إبراهيم الجمني فعلماؤها كثيرون غير أنك لا تجد مدرسا في العلم حتى يموت غيره وذلك أن ملوكها ليس لهم رغبة فيه أو أنهم لا وسع عندهم حالهم حال وطنهم وإلا فلم أجد وطنا مثلهم في الفهم والإقبال على الله وكذا فيهم الأسرار النبوية والأنوار المحمدية.

ثم ظعنا منه ومررنا بساحل حامد بعد أن ظعنا من زليتن وطن الشيخ عبد السلام وزرنا قبر العالم الفاضل المؤلف الصالح المشهور سيدي الشيخ ابن (١) عبد الصادق وقد رأيت تآليفه ما أحسنها وقد حررها أحسن تحرير وأتم تقرير وقد شرح ابن عاشر شرحا معتبرا يكاد أن يكون يغني وقد وضع كتابا في بيان البدع والرد على أهلها من عصره يكاد أن يكون المدخل فقد أحسن فيه إذ بين السنة وأظهرها وبين البدعة وأخمدها وكذا جعل شرحا على العزية أي على النظم الذي احتوى عليها فقد نظمها بعض أصحابه وما أحسنه من نظم فشرح هذا النظم ولما بلغنا محله بالغ في إكرامنا أولاده وجيرانه وما تركت زيارة هذا الشيخ ولا مقامه غير أن أولاده يتكلفون ضيافتنا وربما زادوا العلف لدوابنا ثم انفصلنا عن محله وصار يودعنا أولاده جعل الله البركة القوية والوسع والغنى والعلم والعمل في ذلك المحل إلى قيام الساعة بمنه وكرمه رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى الجبل فبتنا فيه وكان يطعم بعض المرابطين فيه العصيدة وهو مشهور بها وقد لقبوا بها فلم أرهم في هذه الحجة وإنما رأيتهم في الحجة الأولى وهما شيخان عظيمان مسنان في الإسلام فوجدنا عندهما عصيدة باللحم فأكل منها جميع الحجيج تبركا بهم فلما وصلت إليهما نظرا في وجهي ونحن في الطلعة فقال أحدهما للأخر هذا يقعد في مصر ويتعلم وذلك الذي في قلبي وقال الآخر يرجع

---

(١) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

وينتفع به المسلمون فانه قد ورث سر سيدي عبد الرحمن أقطال أعني المجذوب فوجدت سر الله فيهما ونحن لم يصلنا خبر موته غير انه مات تلك السنة في مصر بعد رجوعه من الحج ودفن فيها[١] وأما القبر الذي في تونس فقبر ثان فسموه بذي القبرين ولا يبعد حاله ممن هذا وصفه إذ لو كان ما روي عنه ذلك حال حياته لكان ما فعلوه مساعدا[٢] أو أنه وجد في القبر الذي في تونس فيها ونعمت[٣] وهو له قبول تام عند الناس وبركة عظيمة مجاب الدعوة لا سيما في دعاء الشر[٤] فانه مجرب بحصد الناس حصدا وقد اجتمعت به في صغري وبعد[٥] وكان يحبني كثيرا وقد دعا لي بالخير.

ومما أعجبني مما سمعته انه قدم إلى مسجدنا في حياة أبي وبات في المسجد وبت معه ولم يأكل طعام أحد إلا طعامنا ونمت معه إلى الصبح وهو مستلقى على ظهره فلم يرجع لسانه عن[٦] الذكر إلى أن طلع الفجر بات طربا من غير نوم إلى الصبح فلم يفتر عن ذكر الله تعالى وكان صاعقة الظلام والمحرومين[٧] وانه عزم عليه شخص وهو معلمنا في القرآن سيدي يوسف بن بشران هو والولي الصالح سيدي علي الصافي فلما بلغنا إلى داره وجدنا مائدة من النوع الذي يسمى المحمصة فأكلت أنا معه.وأما سيدي علي الصافي فصائم وأن الشيخ المذكور جعل السمن الكثير في القصعة فقال له الشيخ سيدي عبد الرحمن ما عندك من المعز أو الضأن فقال له اثنتان ليس إلا وكلام الشيخ عليه حلاوة وطلاوة فقال هذا الشيء في حقك كثير بل واحدة تكفي فقلت له يا

---

(١) انظر هذا الكلام في صحيفة ١٧٨.

(٢) في نسخة إذ كل ما روي عنه في حال حياته مساعد لما فعلوه.

(٣) في نسخة بإسقاط فيها ونعمت.

(٤) في نسخة في أعداء الشرفاء.

(٥) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

(٦) في نسخة يفتر عن.

(٧) في نسخة المجرومين.

سيدي عبد الرحمن ما اشد كثرة المال عندك لا سيما الذاهب والفضة وآلة الحرب فقال والله الذي كان عندي لم يكن عند سلطان الجزائر فقال والله يا بني أن الفتوحات والمنح لتأتي إلي من بلاد النصارى فان بعضهم لما أسرت شاهد مني أمرا عظيما وقد انعدم عنده الذكور فجعل لي فتحا كذا وكذا دينارا على انه إن ولد له ذكر ففتح الله له بالذكور فقلت له فلم تزكي مالك فقال بنفس وصوله إلي أعطيه لأخي ولأولاده فلا زكاة علي فقلت له هذا لا ينجيك من حق الله الذي أوجبه الله عليكم فقال لا ملك لي حتى تجب علي فقلت له أن رأيتهم منعوا الزكاة فلا تزد لهم شيئا فسكت عني إذ كنت بحاثا.

نعم وكل ذلك من الوهب الرباني والمنح الفرداني ثم أني تعجبت من مقالته الأولى التي قالها للمعلم فأن حملت كلامه على ظاهره من استعظامه ملكه اثنتين من المعز أو الضأن ثم بعد ذلك قلت في نفسي أن كلام أهل الله لا يفهمه إلا ذووه على أني فتح لي أن استعظام الشيخ ملك الاثنين ليس على ظاهره إنما هو الدنيا والآخرة فالجمع بينهما أمر كثير لا يليق بالمعلم المذكور ولذا قال واحدة تكفي يعني الآخرة وإن كان لا بد فالآخرة أولى جعلنا الله من أهلها.

أقول أيضا وقد اجتمعت معه في بجاية وكان يلازمها في رمضان وهي رباط وزيارة فمررت عليه ووجدته في حانوت الجفاف وإذا فالحلاق يحلق شعر رأسه فلما فرغ قبل الحلاق رأسه وسأله الدعاء ثم سألته الدعاء أيضا فقال لي أنت الذي تقرئ الطلبة هنا في رمضان فقال لي خذ هذه الرسالة أسردها علي وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب وإنما فيض إلهي فاض عليه فإن الله لا يتخذ وليا إلا وعلمه فلما قرأتها وجدت فيها أن فلانا قد بعث لك خمسمائة رطل من قطران لسفينتك التي استعددتها للجهاد والغنائم فقال في الجواب اللهم اسق القطران له وشبعه منه فتعجبت من كلامه فقلت

له أنه أعطاك وسألت له القطران فقال لي هذا جزاؤه فأعرضت عنه وذهبت وتعجبت من كلامه.

نعم فهمته على ظاهره ثم قلت في نفسي هذا سر من أسرار الله تعالى فلا يليق حمل كلامه على مقتضى الظاهر ففتح لي بعد ذلك أن المراد بالقطران الدنيا فكأنه قال اللهم شبعه منها حتى تتسع اتساعا يليق بمثله ولذا قال جزاؤه على أني رأيت عم أبي المقبل على الله بشراشرة(١) وكان يحبني في صغري ويتوسم في الخير العظيم ولم يمت حتى رأى النبي صلى الله عليه وسلم مرارا فقال لي أن الله أورثك سر هذا السيد فقلت له وكذا ماله فقال لا ففهمت أن كل من كان من آله صلى الله عليه وسلم يرزق كفافا لا وسعا ومال هذا السيد يكاد أن يكون مال عبد الرحمن بن عوف لأنه من الفيض وليس بكسبي أصلا فأسأل عن ذلك عالما بحقيقة أمره ولا ينبئك مثل خبير.

انعطاف ورجوع إلى ما كنا بصدده فأنه لما ظعنا من الجبل فارقنا الركب في جماعة من الفضلاء وثلاثة من العلماء وغيرهم من الشرفاء فتوجهنا نحو مسلاتة وهو وطن مشتمل على قرى كثيرة متفرقة وعلى زيتون عظيم لا تكاد تكون بلدة مثله فيه وزيتونه كثير الشجر عظيم الخلقة وعند كل شجرة حفرة عظيمة يجتمع فيها الماء في الشتاء ليشرب منه وما ذهب بنا إليه إلا أخونا في الله سيدي محمد الشريف فإن ملكه هناك ودار نزوله هناك في إبانه وله معصرة أيضا فيه وكذا إخوانه الشرفاء النوفليون لهم أملاك هناك وكذلك أولاد بلغيث الشريف وأما سكناهم ففي المنشية التي هي خارج باب مدينة طرابلس فوصلنا إلى هذه البلدة عند الزوال أو قربه بسويعات وبتنا فيها خير مبيت وإنهم أكرمونا غاية الإكرام فلما أصبحنا بخير الصباح انفصلنا عنهم مع شكرهم وحمد صنيعهم عمرهم الله إلى يوم القيامة فذهبوا معنا مدة ثم رجعوا عنا

(١) في نسخة بشراثره.

فرحين مسرورين بمبيتنا عندهم.

فسرنا كذلك إلى أن وصلنا محل اجتماع الطرق أعني طريق الركب والطريق التي تأتي من مسلاتة فوجدنا الركب قد سبق إلى وادي الرمل فلاقانا أخوان سيدي احمد الشريف أعني عمه وابنه وجميع إخوانه وأولاد أعمامه بتمر جديد ولحم وخبز وأظن معهم كعك وذلك طعام كثير فلحقنا بالركب عند نزوله فنزلنا منفردين نحن وإخواننا جماعة الطرابلسية ففرقوا الطعام لجميع الأحباب، وناولوه عامة الأصحاب، وأكرمونا غاية الإكرام، وسعوا إلينا بشوق واحترام، وبتنا في ذلك المحل مع جماعة كثيرة فلما أصبح الله بخير الصباح، تسابقت الناس للفلاح والنجاح، ما أحسنها من غدوة زهرة اللقاح، فاستوينا على ظهور الخيل بسرور من الصدر وجذل وانشراح، ترى الأفواج من الأحباب، والمشتاقين من الأصحاب، المرة بعد المرة يتبركون بالحجيج راغبين الدعاء بالغفران، والرضى من الرحيم الرحمان، فسكنت قلوبنا بعد اضطرابها، وفرج عليها بعد اكترابها.

وسرنا كذلك إلى أن أشرفنا على تاجوراء فخرجت الأفواج يتلقون الركب ويرغبون الدعاء كما سبق غير أن مطلوب الجميع السؤال عنا والرغبة فيما عندنا إذ لنا عندهم حظ وافر ورجوعنا لهم بشارة وسرور فلقينا جميع طلبة العلم من مدرسة الشيخ الفاضل، المدرس المحقق الكامل، لأنه في تاجوراء نبراس، سيدي محمد النعاس، وقد أدركته في الحجة الأولى وزرته في مقامه، وسمعت شيئا من كلامه، وكان فقيها مسنا في الإسلام نرغب منه الدعاء، ونطلب منه الحوائج واللقاء، بسط الله علينا وعلى إخوانه وذريته رداء ستره، ورحمنا وأياه في رمسنا ورمسه وقبره، وكان ابن أخيه هو المدرس وهو ممن يحبنا ويرغب فينا وكذا ولد الشيخ فسألت عنه فقيل لي انه مريض وهو راغب في رؤيتنا وما منعني من الوصول إلى المدرسة إلا كثرة الخلق إذ لا يسعهم

إلا قدرة الكريم ورحمة الرحيم فلقينا الفاضل المحب والكامل المقرب المفتي سيدي محمد بن المقيل وهو ممن يبالغ في إكرامنا أكرمه الله وأحسن إليه، وأمنه من كل فزع ورعب لديه، وسيرته معنا كسيرة أسلافه مع شيخنا سيدي أحمد ابن ناصر فانه لا يعز شيئا في جانبنا بل جانبنا أقوى من نفسه وأولى من روحه مع جماعة من طلبة العلم والشرفاء والعامة والخاصة لا سيما رؤساء حضرة طرابلس لا سيما العلامة المحقق والفهامة المدقق سيدي محمد بن العالم على الإطلاق والفاضل الورع بالاتفاق سيدي محمد العربي الفرجاني الشريف.

حاصله وهذه خلاصة طرابلس وخاصة حضرتها وكذا أولاد الشيخ الولي الصالح والبحر الطافح سيدي الصيد نفعنا الله به وأفاض علينا من بركاته قبل وصولنا إلى تاجوراء وأن شيخ الركب أيضا كان قريبا لهم قرب رحم لتقرر النسب بينهم وثبوت الود لديه فكانوا معه ذهابا وإيابا وذلك ديدان إسلافه وشأن أجداده مع أسلاف الشيخ أمير الركب وان ركب مدوكال لا ينزل إلا في هنشير الشيخ فرحب كرمهم وعرصة إطعامهم أوسع من فِناء أرضهم (بكسر الفاء) وهذا مشهور لدى الخاصة والعامة غير أن الدنيا كادت أن تقل عندهم فلم يبق إلا رفع هممهم وعلو منازلهم فجمحت أنفسهم أن ترى بغير كرم وعزت أن تعلم بغير سخاوة زادهم الله رفعة وقدرا وجاها وهداهم ووفقهم إلى أهدى سنن وأعز طريق بمنه وكرمه.

ثم لما توجهنا إلى آخر تاجوراء زرنا المحب في الله والأخ من أجله كريم النفس رحيم الغريب ذا الفضائل والفواضل فان عوامل رفعه دائمة العمل، وبناء جوده راسخ في الكمل، وكذا عوامل جزمه في الحب وحسن الظن والاعتقاد في الفعل المضارع والمشابه في التخلق والتعلق بالسكون والطمأنينة لله تعالى لا تتحول ولا تتبدل، سيدي عبد الحفيظ نجل الشيخ سيدي الصيد المذكور لأنه جده وقد سبق الود

بيننا في الحجة الأولى والثانية وهو زائد الإكرام لدينا حتى كاد أن يسلم أهله في جانبنا غير انه الآن كبر سنه ووهن عظمه وقربت منيته فتارة يغشى عليه وتارة ينتبه وقد ثقل سمعه وضعف بصره وانقطعت مادته وهو ملقى على الفراش، وربما أصابه التحرك والارتعاش.

نعم الآن قوي عند الله حظه وعلت مرتبته، وعظمت رفعته، بلا قدح ولا انتقاش وما أعلى رفعته وأعلى منزلته بموت ولده سيدي علي ظلما وعدوانا فعز عليه الصبر، وأحنى[١] عليه الكبر، فعظمت مصيبة ابنه، وثمرة كبده وقرة عينه، فليس ينساه على الدوام، إذ يكثر فيه اللهج وهو سبب في الاغتمام، فلم يكن يخدم عليه، ويجري بين يديه، إلا حفيده ولد بنته ولا شك أنه قريب عند الله رحيم الأمة ما دام فيهم مجاب الدعوة سريع الإجابة وقد ثبت العهد بيننا وبينه فلله الفضل والمنة فسألنا الدعاء منه وأخبروه بان هذا فلان قد أقبل من الحج ففرح وسر، ومسك على يدي وكر، فانهمرت عينه فعند ذلك كثر الدعاء منه وبها قد در، إلى أن أشفينا عليلنا منه وأبردنا غليلنا لديه فعلمنا أن نصيبنا من الله وافر، وحظنا لديه من الخير حاضر، وسعدنا نحوه سابق ظاهر، ثم انفصلنا من عنده، وقلوبنا ملتفتة[٢] لديه، ما أصعب الفراق، فإن ناره أشد من نار الاحتراق.

هذا وأن الخلق قد فاض علينا، وكثر لدينا، فغاب علينا من نعرفه والتبس لدينا الفاضل من المفضول فجدير أن من قصد الركب راغبا هو منهم إذ مقصود الجميع سؤال المغفرة لهم ولجميع الأمة رضي الله عنهم فما استقر بنا الحال ذهبت أنا وجماعة

---

(١) في ثلاث نسخ وحن.
(٢) في نسخة متعلقة.

من الفضلاء ونزلنا في دار الأخ في الله سيدي محمد المذكور[1] فأقبل علينا الناس بالبشرى لقدومهم ولقدومنا وأما أصحابنا فقد نزلوا تلك الليلة مع الركب وبعد ذلك أتى بهم إلى داره بخيولهم وإبلهم وأقام بجميعنا أكلا وشربا وعلفا بل تكرم على الجميع غاية الإكرام، واهتم بأمرنا غاية الاهتمام، فليس إلا الكسكس واللحم صباحا ومساء ومع ذلك أن الطعام كاد أن لا يشتري من كثرة غلائه فترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن القحط غمهم[2] وغشيهم ما غشيهم من الجوع.

نعم دخلنا في وقت جذاذ التمر فكثرت أنوع نعمه علينا فان النفس أخذت ما تشتهيه من الرطب والبلح والتمر والرمان الجيد والخبز الطري واللحم والسمن وأنواع الفواكه والمياه الباردة فشركنا الله على نعمه وسألناه أن يمن على أهلها بها على الدوام بفضله وكرمه وذلك كله بفرح وسرور.

ومع ذلك أن السلطان الأفخم، والأمير الأعظم، محب الصالحين، والعلماء العاملين، صغير السن، كبير الشأن كثير المن، السيد علي باشا قدم في الولاية على أقرانه، بفضل الله وامتنانه، فهلكت أعداؤه من غير حرب ولا قتال من أعوانه، وإنما كيدهم رجع عليهم فأهل الله عروته الوثقى، وأنهم جنة له وبهم الاستسقاء وبهم صعد في المعالي وارتقى، أمدنا بطعام وما ينوب الجميع من أدام وعلف فلم يرض أخونا سيدي محمد أن يكون طعاما لنا وإنما أطعمنا من عنده وأمدنا بمده رعيا للحلال إذ هو رجل أورع الناس، وأثبتهم للباس، صادق في المعاملات، خال من الشبهات، محافظ للأوقات، راع للميقات، في جميع أحواله، وسكونه وانتقاله، وكفه واشتغاله، ولا حرث إلا منقى، ولا زكاة عليه تبقى، ولا مطمع له في أحد غربا

---

(١) زاد في نسخة وهو الشيخ محمد الشريف النوفلي البلغيثي الطرابلسي.

(٢) في نسخة عمهم وفي نسختين عماهم.

وشرقا، يدق في الإخلاص، ويراعي مراتب أهل الاختصاص، فيحق به الاقتداء، ويعتبر في الإرشاد والاهتداء، ويسد باب الخلق إدبارا وإقبالا ومدحا وذما عليه سدا، يختار للصحبة أهل الحق ومن ينهض حاله، ويدل على الله مقاله، جدا واجتهادا، فما أحسنه خلة وصداقة وصحبة وودا، ورعاية واعتبارا ووددا، غير أن من لا يعلمه، وليس على الحقيقة يفهمه، يظن ضد ما ذكرناه فيه ويصد عنه صدا، وربما طغى لسانه، وتدلى عنانه، وقال ما سولت له نفسه وهد ما عليه من الصدق والتصديق بناؤه بسوء طويته وقبح ظنه وقوة حسده هدا، رضي الله عنه وقد اطعم كثيرا عند وصوله نحو السبعين مائدة من العيش كل مائدة تطعم كيت وكيت من الناس، وخيره ظاهر بلا التباس، يحصل منه بلا مشقة ولا كلفة ولا بأس، وربما من رأى ظاهره من انقباضه وعدم بسطه وإقباله قال بكون بخيلا، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وإنما هو كريم النفس تنزلا وتنقلا، غير انه يختار لإحسانه أصلا وفرعا وحالا ومآلا، وعلما وعملا وورعا وهيبة وإجلالا، فما أدقه في الباطن، وأعرفه بالكمائن، وأعلمه بالوقائع والضغائن، فنعم الرجل من يعتمد عليه، فيسلك وينتهي إليه، إذ هو حي دائما، متيقظا فاهما، لا يأمن النفس في مرعاها، يحق له التحقيق، ولا يسلك إلا أحسن طريق، فنمطه بين، وأخذه سهل لين، يكبر على المتكبرين، ويعلو على المتجبرين، وهو عبد للمتواضعين، وخديم لأهل الصدق والحق والتمكين، يرفع نعالهم، ويبلغ مأمولهم ويجبر عليلهم، ولأهل الحيرة والريب دليلهم، ليته ظهر للخلق بحقيقة ما عليه، وينجلي وصفه بين العامة من خلق الله في أرضه وسمائه، قد خفي بوصف الله، وظهر بنور الله، عزيز في الوجود، ونظيره في الخلائق مفقود، أحمد الله على معرفته، وأشكره أن جعلنا من أهل مودته، فليس يملك معنا شيئا بل يقدم نفوس الأخوان، عند الحاجة والاضطرار بلا امتنان، فلا يمن فعله، ولا يكثر لهجه وقوله، فقوله حق، وكلامه صدق، تقصر العبارة عن كماله بالنطق، حاله أحوال الصديقين،

ونعته نعوت المتقين، أدام الله أشراقه، وأدام إنفاقه، وأعز صعوده، وأرتقاءه، وجعل البركة في ذريته على الدوام، وأناله ما نال أبوهم بلا كد واهتمام، وإنما هو فضل من الله ورحمة مع إكرام واحترام، بمنه وكرمه.

أقول لما نزلنا في دار سيدي محمد الشريف النوفلي البلغيثي وكانت ثيابي رثة، بالية الجثة، متوسخة الأطراف، أضناها السفر وعدم التبدل فيها والاختلاف، أتى إلينا المحقق الفاضل، والأخ الكامل، سخي النفس، صادق عند الضر والبأس، الموفي بالعهود، ونظيره في الناس غير موجود، الأديب على الإطلاق، المحب بالاتفاق، مفتي الأنام، المبديء بالإحسان والسلام، فإذا أحسن أغنى، النخبة المختار الأسنى، فليس يرجع في وداده، فأن رأى محبا تقوى له في استعداده، فإن لم يصبه وأبله فطل من أمداده، وكذا أبوه وأجداده فهم رجب الكرام، ودار إحسان لأهل الإسلام، محلهم لأهل الله دار راحة ومقيل، السيد الشيخ محمد بن مقيل، كساني بثياب جديدة حائكا جديدا وقميصا كذلك وبشماقا وقلنسوة كساه الله وأولاده كسوة العارفين بالله تعالى وأدام علينا وعليهم ستره وحلّانا وإياهم بحلية أهل الإنابة من المتقين، ثم اعتنى بنا بالإحسان، وجد في أمورنا بالفعل واللسان، دائما لا يغيب عنا، وعلى الدوام يدور بنا، دوران الخديم بالسادات، مكنه الله وإيانا مع ذرية الجميع من أعلى الدرجات، فإن احتجنا شيئا وكان في دراه أعطاه، وإلا فمن السوق سأل عنه واشتراه، فلا يبخل بالطعام، ولا يغتم بكثرة المجتمعين من الأنام، واسع الموائد، كثير الفوائد، كريم بما تشتهي النفوس، وتلذ به الأرواح من المعاني والمحسوس، مادة الكتاب عنده في كل علم لا تعد ولا تحصى ومن أجل ذا وقوة هذا أهله رؤوس، فكل فن إلا وفيه عدة من الكتب متكررة، تراها تمد لك المرة بعد المرة، جعل الله داره مرسى، وحياة لكل علم وسنة تنسى، إذ إنهم قرى للضيف، ونزل لابن السبيل والضعيف، فيميزون بين الوضيع والشريف، لا قطع الله عنهم مادة الصيف والخريف، دائما له ولذريته من غير

مشقة ولا تكليف، وكذا الربيع والشتاء بلا تكييف، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان من الله عليهم بالفضل والرحمة بلا سبب ولا جد ولا كد ولا سيف، وكذا كان أبوه معي في الحجة الأولى، أغنى الله أولاده في الآخرة والأولى، فهم جُنة للغرباء، رحمة للأقرباء، وجُنة (بضم الجيم أي وقاية) لأهل الخوف والرعب وقانا الله وإياهم من أوصاف أهل سبأ، فإذا بتنا في داره جمع الخاصة من العلماء والفضلاء والأدباء والأساتيذ القراء، يكرم نزولهم، ويتفضل بالإحسان لديهم قاصدا حصول البركة منا لهم، وإزالة الوحشة عنا بهم، وحصول المدد لنا بسبب معرفتهم، وقوة انفعالنا بكيفية اجتماعهم، فإنهم كنوز تستعد لضرورية الأحوال، وتمتد عند الاضطرار بالنوال، فربما زال عنا النوم في تلك الليلة رأسا بإلقاء الفوائد بالحكم النبوية، والفوائد النقلية، والإفهام الوهبية، والعلوم اللدنية، والأشعار الأدبية، والحكايات السنية، والقصص الماضية، فيزهر المجلس بالأنوار، وكيف لا وهي روضة من المقربين الكمل والأخيار، تدور به كؤس العاشقين، ونفائس أهل المحبة من المتقين، وحلل المعاني والأذواق من ثياب العارفين، ولو تراها تقول هي جنة عدن يغشاها روح وريحان، وقد قال صلى الله عليه وسلم لا سَمَر إلا بالعلم والمسامرة التحدث بعد العشاء بالعلم والفهوم، والاعتناء بالعبودية بالذكر والقيام والتهجد لله الحي القيوم، فدام إحسانه معنا، وارتقى به أحوالنا، كان الله لنا وله بالإسعاد، ومن علينا وعليه بالإمداد، بفضل الله الوهاب الجواد.

وقد تزين مجلسنا بوجود الفاضل الكامل، والعبقري الهمام الكامل، نبراس وطنه، وفريد عصره، وحيد في وقته، وروع في حاله، زاهد في ماله، رقيب لأجله، فإذا تكلم أغرب، وبين وأعرب، لا نظير له في زمانه، متمكنا في المعالي في أوانه، طريقة الصفاء، وعهوده بالوفاء، فلا ينعكس أبدا، ولا ينتكس سرمدا، علمه بالميزان، ومجلسه بالأمان، فلا يلمز ولا يغمز بالهوان، يشم من الحقيقة، ويرتوي بالشريعة، فلا

يتبحر في إحداهما، ولا يتجاسر على أهلهما، حسن الاعتقاد، خال عن البحث والانتقاد، ينطق بالحسن والجمال، ويغض عن العيوب والسؤال، ريحانة العارفين، ويسلك مناهج المتقين، فابن أبي جمرة وصاحب المدخل ديانته، والقرآن والسنة هدايته، فلا يعلو عن أهل الهدى، ويتكبر عن أهل الاعتدا، وإن خالطهم فعلى طرف اللثام، وليس بجد واعتناء واهتمام، وإنما هي جنة لعرضه، ووقاية عن شره، وضره يصرفه لمن يشاء يكاد سنا برقه، فلا يزعم إذا تحدث، فيوفي بالعهد ولا ينكث، منور السريرة، قوي البصيرة ، عقله وافر كامل، وهو حافظ وناقل، لا يخلو عن حكمة وفائدة، ولا عن منة وعائدة، يراعي الإخوان، ولا يسرع بالهوان، ولذا لا ينكر الإحسان، ولا ينقطع عن السنة والاستنان، دائم الفكرة، قوي العبرة، حسن العبارة، يقنع بما وجد، ولا يختل إذا فقد، فيشكر الأنعام، ويرضى بضده بما يصيبه من الآلام، منذ عرفته يزداد لدي وداده، ويصعب علي ابتعاده، ما أحسنه وألطفه، وأرحمه وأرأفه، تقصر العبارة عن أوصافه، إذ الكرم والجود في معدن أسلافه، شريف النسب، قوي الأدب، السيد النوراني، الشيخ محمد العربي الفرجاني، أعز الله رفعته، وأدام نعمته، وأنفذ في الحق كلمته، ونفع به أمته، رضي الله عنه وأمد بالعلم ذريته، وأحسن في الخلق سيرته.

نعم اجتماعنا رحمة، وافتراقنا عذاب ونقمة، جمع الله بيننا في الجنة مع النظر إلى وجهه الكريم.

وقد اجتمعنا أيضا بالفاضل، والعالم الكامل، والسيد الجليل، والفقيه النبيل، ذي الإرادة والأوراد، والعدة والاستعداد، وذلك موروث عن الآباء والأجداد، الشيخ النوراني، والمحقق الصمداني، والسيد الفرداني، الشيخ محمد السوداني، كان الله له دينا ودنيا بمنه وكرمه.

وكذا اجتماعنا بمن له حلاوة في اللسان، الموصوف بالحفظ والإتقان، المشتغل دائما بتفسير القرآن، فريدة الأوان، وعائدة الزمان، العالم النوراني، السيد محمد الصكلاني، كما اجتمعنا معه قبل وكذا من أصحابنا، وقرة أعيننا وثمرة فؤادنا، ومن على الله وعليه اعتمادنا، المحب على الدوام، خير زماننا من الأنام، الفاضل الرباني، الصدوق النوراني، الود والخل والفاني، عن نفسه وعن كلية أحواله في حب المثاني، الذي هو جنتي وحرزي، سيدي محمد بن الشيخ البركة المعزي.

وكذا اجتمعنا مع العلامة النوراني، والفهامة الفرداني، الفاضل في تحقيق المباني، الفصيح البليغ في بيان المعاني، نظمه سلس عليه حلاوة، وجواهر ألفاظه لها طلاوة، وهو مقبول عند كل الناس، وخالص من الالتباس، كأنه خارج بلا كلفة، فيه التوحيد وأحكامه صرفة، الظاهر عليه فضل الباري، الشيخ المنور النوري، أمدنا الله وإياه بالعلم النافع حتى يصير الكل ضروري.

ومن أصحابنا أيضا الود الصادق، والخل في الله الرازق، وخيرة الناس والخلائق، نور إيمانه شارق، خديم الإخوان، عبيد الرحمان، ذو الجود والامتنان، وذلك بفضل الله المنان، فليست أفعاله إلا لوجه الخالق، بسيدي عبد الخالق، أذاق الله لنا وله حلاوة التقوى، وأدخلنا وإياه جنة المأوى.

وأما غير هؤلاء من الأشراف والمريدين والمحبين وطلبة العلم فلا أحصي عددهم ولا أؤدي حقهم ومَعَدَّهم كان الله لنا ولهم بالعطف والعناية آمين.

وممن بالغ في حبنا وأكرامنا، وتعظيم جانبنا، كاتب الحضرة السلطانية أيده الله وحفظه من شر الزمان، السيد محمد بن عثمان، لا خيب الله قصده، ومن كل خير أمده، آمين.

وممن بالغ في حبنا أيضا المعظم الأجل الأنفع محب الصالحين، والعلماء العاملين، وزير السلطان يوسف الكاخية فانه يعظم جانبنا، ويقضي حوائجنا، فلا يعز عليه شيء من أمورنا، جعل الله البركة في ذريته مع حفظه من كل طارق يطرقه إلا طارق خير.

وأما الأمير الفاضل، والمعظم الكامل، أيده الله ونصره، وأمده وأعانه، المجهاد في سبيل الله، المنصور بعون الله، الغالب والمحفوظ بالله، محبنا، وغاية ودنا، رفع الله قدره، وآمن بجاه النبي صلى الله عليه وسلم شره، خلد الله الملك في ذريته، وكان لنا وله بالتوفيق والحفظ في ولايته، أسعد الله أيامه، السيد علي باشا، أيقظه الله للسنة النبوية، وطهره من كل إثم وجريمة، وألهمه العدل والإنصاف، وطهارة النفس بالاستعفاف، فإنه قد أجاد في حبنا، وبالغ في تعظيمنا وإكرامنا وخدمتنا، وقد تركنا عنده فرسنا المراء وقد أحسن بها غاية الإحسان وقد تعجب الناس حين أخرجناها من داره، وذلك كله من حسن اعتقاده، وغاية وداده، بجده واجتهاده، وقد علمت منه أنه لا يحب مفارقتي وأنا كثير الحياء وإنما منعني من الاجتماع معه كثرة الحجابين وأهل الحضرة من الدولة أعني المماليك والقواد والعمال وغيرهم من رؤساء العسكر وأهل الوجوه من أهل البلد فمهما مررت عليهم إلا ظننت أني مكشوف العورة وإلا فهو صغير الرأس لين الجانب لا يتعاظم على جليسه مبسوط الوجه غير منقبض مرتب الكلام ولا يطيش بعقله ليس بلعان ولا سباب رحيم بالمؤمنين مقيل العثرات، ومقبل الشفاعات، غير انه لا تصل إليه الشكوى لقوة خفائه وعدم ظهوره فلا يصل المكروب إلى محله ولا المظلوم إلى موضعه وقد قلت له عند اجتماعي به فلا بد أن تجعل محله يصل إليك جميع الناس يبثون إليك شكواهم ولأن تنظر الظالم من المظلوم فتنصره والظالم تقهره والسائل تجود عليه والعالم تعزه وتوقره فترى الناس وما هم عليه من الظلم والهرج والمكر والخديعة والصدق والكذب والديانة وغيرها فتباشرهم وتتولاهم على ما هم عليه وأما الآن فلا يراك إلا أهل دولتك فربما أظهروا لك غير ما كان شرا أو خيرا

فتساعدهم فيهلك الناس أو تترك الأحكام بحيث تترك الناس على أغراضهم فتظن أن ذلك حلم بهم وشفقة عليهم وأنت راع وكل راع مسئول عن رعيته فلا تشتغل بشهوات النفس مع أزواجك وخدامك ومماليكك وتترك الناس على الإهمال فاتق الله في نفسك وفيهم وقم بحقهم وأزجر الظالم عن المظلوم وكن حليما عليهم بلسان الشرع إذ كل حق يضيع فأنت ضامن شرعا فلا يمسك تقصير وتفريط فسمع حينئذ ما قلت له.

وقلت له أيضا أنك أهملت العلم وأهله وقصرت في حقهم ما استطعت وقد فقد تدريس العلم من مدينة طرابلس بحيث لا ترى مجلسا من العلم إلا من ألهمه الله من الطلبة أن يدرس من غير أمر منك ولا معونة تكون لهم من بيت المال بسببك فرضيت أن يكون بيت المال تنتفع به وحدك ويأكله اليهود والنصارى ومن لا معنى فيه فإن أعطيت شيئا منه لمن يستحقه جعلته مزية عليه وأظهرته لديه وكل ذلك يصغي له لأنه ذو عقل ولب يحفظ ما ألقي إليه وأوصيته أيضا بأنك لا بد أن تبني مدرسة العلم وتحبس عليها أحباسا معلومة للمعلم والمتعلم كل بحسبه فرضي بذلك غير انه أراد أن يجعلها خارج المدينة لينزل فيه الغريب والفقير يعين الكل على ذلك ولا أدري أيدوم ذلك به أو ينساه غير أن جلساءه وقواعده غير مشتغلين بذلك والسلطان مذهبه على مذهب جليسه.

حاصله لا بأس به وهو يستمد الخير من أهله ويرغبه بأسبابه وأن العلماء أيضا يجتمعون معه كل يوم الاثنين أو يومين في الأسبوع إطلاعا على بعض الخصومات بين يديه وهم جماعة خيرهم الفاضل المذكور سيدي محمد السوداني وسيدي محمد العربي الفرجاني يبحثون عن الواقعة على الحق ما ظهر لهم مع حضور القاضي والمفتي وقد حضرت لهم مرة واحدة من غير قصد مني ولا منهم فانه أمر اتفاقي إذ بعث لي

السلطان رغبة فينا ومحبة في اجتماعنا فقدر الله بالاجتماع بعد الظهر إلى صلاة العصر فافترقنا ومرة أخرى بعث لي وسيدي محمد الشريف حين رجوعنا من الحج فجلس معنا وأوصيناه بتقوى الله تعالى والعلم والإعانة والاجتهاد في أمور المسلمين فقال لسيدي محمد أنت صعب وقد أهلكت الله بك فلانا وفلانا وسيدي محمد ساكت.

وبالجملة فإنه صاحب خير وإن له حسن اعتقاد في أهل الخير إذ قال لما تركت فرسي عنده وهي في داره فأتى النصارى إلى بلد طرابلس يأخذونه أو يهدمونه نعم لا طاقة لهم بذلك فاهتم الناس بالخروج إلى المنشية خوفا من ضربة المدفع والبونبة قال فقلت لهم والله لا خرجت إذ فرس الشيخ الفلاني عندي وأنا أخرج أو يمسني منهم الهلاك فمكثوا مدة على شاطئ البحر حتى أنزل الله الصلح بينهم والأمان التام وهذا كله ونحن في المشرق فرآها كرامة وإنما الشفاعة من أهل التصريف وأهل وطنه.

وقد قال بعض العارفين إذا أراد الله أن يتفضل عليك خلق الفعل ونسبه إليك كان الله لنا وله بالعافية التامة الدائمة الشاملة بمنه وكرمه مع التوفيق والرحمة والبركة في الذرية والموت على حسن الخاتمة على فراش العافية آمين.

ومدة إقامتنا في طرابلس مشتغلين بزيارة الأحياء والأموات فزيارة الأحياء أكثرهم زرناهم في دار سيدي محمد في زيارتهم لنا وأما زيارة الأموات فقد زرناهم في قبورهم بالوصول إليهم كالولي الصالح سيدي محمد بن سعيد وقد رأيت كلامه ككلام الشيخ محيي الدين سيدي عبد القادر وغيره من العارفين والشيخ الصيد وتكرم علينا أولاده بأكثر من طاقتهم والشيخ ابن جابر والشيخ المرغني والشيخ المعزي وقد أدركته وهو حي وانتفعت به أتم انتفاع وقد أوفيت الكلام عليه فيما سبق.

وكذا زرت الأشياخ الذين في المدينة وقد أخبرنا العلماء بهم ممن يعرف تاريخهم

وطبقاتهم وكذا من كان خارج المدينة بعضهم بالتفصيل وبعضهم على سبيل الجملة أفاض الله علينا من بركاتهم وجعلنا في زمرتهم وممن كان هناك الشيخ الحطاب أعني أبا الحطاب الذي حشى خليلا إذ له دار بمكة والأخرى بطرابلس ولذا نشأ ولده المحشي الحافظ مكيا.

ذكر خروجنا من طرابلس

حاصله أقمنا بها نحو السوقين في إكرام من أهلها وتعظيم لنا وللحجاج فظعنا على خير وخرج معنا أكثر أهلها من العلماء والطلبة الفقراء وأهل السنة وبعض رؤوس الدولة والأكثر من العامة وأعيان البلد من باب المدينة وخرج الركب صبيحة ونحن ننتظر بعض الحوائج والأشياخ الذين يصلون للتوديع من أهل المحبة والاعتقاد ليتم سعينا ونغتنم بركاتهم على الله أن يزيل الحجاب عن قلوبنا بجاههم عند الله وكذا أهل المنشية من المحبين جميع الأشراف والطلبة والفقراء وأهل الاعتقاد فخرجنا من طرابلس عند الضحى الأعلى فمنهم من رجع وأما أكثر العلماء من المحبين والفضلاء ركبوا معنا فمررنا بفرفاش بلدة فيها زيتون كثير فزرنا من فيها على الجمال والناس في أثارنا أتوا إلينا للتوديع من نعرفه ومن لا نعرفه جزاهم الله خيرا ووفق الله الكل إلى صالح القول والعمل.

ثم مررنا كذلك إلى وقت الظهر فصليناه عند بعض الصالحين عند شاطئ البحر وكان مجاب الدعوة تقضى الحوائج عنده ثم مررنا بزنزور بلدة واسعة فيها زوايا وأرض ومزارع وفيها مدرسة من أحسن المدارس التي في تلك السواحل وعلى بابها قبر رجل من الصالحين قريب العهد قيل انه يسمى بالعريفي.

قال شيخنا المذكور ما نصه[1] قال أبو سالم وأخبرني من أثق به أن هذا الصالح كان يجلس عند زيتونة عند قبره حين كان حيا فجاء رجل بعد موته فجلس في ذلك المحل وشرب فيه الدخان فلما نام ذلك الرجل في الليل جاءه ووقف عليه وضربه على

(١) في هذا النقل عن الرحلتين العياشية والناصرية حذف كبير يصعب تداركه هنا في أسفل الصحف.

رأسه وقال له مكان كنت أجلس فيه فجئت إليه فنجسته فأصبح الرجل أعمى وهذا يدل على خبثه أي الدخان وحرمته والأكثر على التحريم كالشيخ إبراهيم اللقاني وشيخه الشيخ سالم السنهوري وغيرهما من محققي المتأخرين من المغاربة.

ومن ألف في إباحته الشيخ أبو الحسن الأجهوري ورد كلامه الشيخ الففون ردا بليغا نقضه عروة عروة وكذا أباحه سيدي أحمد بابا التنبكتي السوداني وقد أخبره السكتاني أنه راجعه في كثير من أدلته عل الإباحة فلم يجد عنده تحقيقا أيضا قال وغاية أمره أنه ليس من أخلاق الصالحين وقال أيضا رأيت في شأنه نحوا من ثلاثين تأليفا بين محلل ومحرم ولا أرتضي شيئا منها وإنما مذهبه التوقف وعدم الجزم فيه قال ومن أظلم ممن قال إن الله حرم هذا أو أحله من غير نص شرعي أو قياس مقبول مسموع إلا انه جهلت الأحكام فيها إلى الآن وقد علم انه لا يجوز للمرء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه إذ لم يتضح فيه شيء بثلج له الصدر ويطمئن به القلب إلا أن بعض الصالحين يقول إني رأيت في درعة بلد الشيخ في النوم وتناولت شيئا منها ليلة الخميس عند اجتماع الطلبة فيها كما هي عادتهم زمان تعطيل القراءة إذ جاءني في عالم النوم رجلان بيد أحدهما حربة فأخذا يضرباني ويعذباني وأنا أعتذر لهما وأقول لهما لا علم لي بشأنه ولا يقبلان عذري وعذباني عذابا شديدا حتى استيقظت ووجدت أثر الضرب شديدا وبقيت من أجل ذل نحوا من سبعة أشهر مريضا ولا شك في صدق الرؤيا.

نعم أن غالب المتورعين من الفقهاء لا يستعملونه وإذا اختلف الفقهاء في حكم وكانت الصوفية في جانب واحد فالحق معهم لأن الله صفى قلوبهم من الأكدار فلا ينطقون إلا عن حق وصواب.

وأما علماء المشرق فيتساهلون فيه فضلا عن عوامهم فكثيرا ما يستعملونه في المساجد وهو شنيع كبير إذ يجب تعظيم المساجد وتقديسها من هذه الرائحة الكريهة

فانه يحرم كل ما يخل بتعظيمها ويقتضي اهانتها حتى الثوم والبصل مع الاتفاق على إباحتهما ولو اضطر إليهما الأكل للدواء إلا أن أهل المشرق في الغالب يخلون بتعظيم المساجد يأكلون فيها ويشربون ويحلقون رؤوسهم وينامون اهـ كلام الشيخ أبي سالم باختصار وتغيير.

ثم قال شيخنا قلت وأما شيخنا قطب الزمان وعلامة الأوان، الجامع بين الشريعة والحقيقة، إلى أن قال سيدي محمد بن ناصر نفعنا الله به وأعاد علينا من بركاته فطريقه فيه طريق المتورعين مع عدم التفوه فيه بشيء على أنه شديد النكير على متعاطيه ويأمر بالضرب بالنعال واليد لشاربه وأتى بعض الباعة يوما به فأمر به فأحرقت وغرم له قيمته ولا يترك أحدا يشربه في أماكنه ومحاله رضي الله عنه ويقول لا حظ لشاربه في طريقنا ولا يشم له رائحة أعاذنا الله من ذلك وهكذا رأي متحققي علماء الأمة والسنة اهـ كلامه باختصار.

فنعود إلى ما كنا بصدده فلما بلغنا زنزورا وإذا بمحب الصالحين وخادمهم الفاضل الكامل محبنا وغاية ودنا قائد عمورات قائد زنزور[1] مشهور بالفضل ورغبة في الخير وهي خير وقد بنى مدرسة عظيمة مربعة وفيها بيوت كثيرة ومسجد جيد وعرصة طيبة يستحسن ذلك جميع الناظرين فلا يكاد من يريد القراءة والتحنث بالعبادة أن يخرج منها وفيها طلبة القرآن والعلم وقد رتب لها مدرسها ويجري بعض المعيشة عليهم وقد حبس عليها أملاكا وأوقافا أكثرها المحاذي لها تقبل الله منه جميع ذلك بمنه وكرمه فعزم علينا فبتنا عنده مع جميع من ودعنا كسيدي محمد الشريف وسيدي محمد بن مقيل وجميع المحبين وقد تكرم وأحسن ضيافتنا وهو ليس له خدمة إلا على الزاوية المذكورة فانه يطعم من كان فيها إذ ليس له ذرية أصلا فبتنا عنده خير

---

(١) كذا في جميع النسخ.

مبيت إلى أن صلينا الصبح وانفصلنا عنه على خير وكرامة وحب وتعظيم فسألنا الله حسن الخاتمة وبلوغ المأمول[1].

فإن قلت كيف يفلح من بنى مدرسة من مال المسلمين ليته تركها عندهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في الزانية تتصدق ليتها لم تزن ولم تتصدق فكذلك هو ليته لم يأخذ مال الناس ولم يبن وقد سمعنا من المنكر عليه انه لم يقصد بذلك إلا التفاخر والمدح والرفعة عند أهل الدولة وإقبال الخلق عليه لا سيما من لا يعرف الأحكام ممن يظهر الصلاح ويدعيه فتجده يمد لسانه في مدحه وينسب له ما لا يليق بمقامه إذ يجب على أهل العلم زجره والرد عليه بأن يقولوا له لا تأخذ أموال الناس ظلما وإن أخذتها يجب عليك ردها لأربابها فإنها[2] في ميزانك وفي ميزان من ولاك فإن هو قبل فهو ذاك وإلا فليس هناك.

قلت الأمر كما ذكرت إلا أن العلماء ينبغي أن لا يثبطهم ويقعده عزائمهم عن هذه الفضائل فإن الظالم والمتسلط إذا حسنت نيته وأراد أن يبني قنطرة أو مسجدا أو غير ذلك مما فيه النفع الدائم والثواب المستمر غير انه يبنيه من مال المسلمين الذي لا يحل أخذه وعلم أنه لو لم يصرفه في أبواب الخير صرفه في المحرمات وأما رده لأربابه فلا كيف يحل لعالم أو صالح أن يقول لمن هذا وصفه فلا تفعل فإن المال ليس لك وأما ما تبنيه فويال عليك لأن من شرط الثواب أن يكون من مال الإنسان فترى من عزم على ذلك تقاصرت نيته وضعفت همته وبطل عزمه فكأنه أشلاه على إتلاف تلك الأموال في المحرمات وعامة الشهوات فيصير كمن بنى قصرا وعدم مصرا بل الحق أن علم أنه أي الظالم لا يرد الأموال لأهلها ولا يستحلها من أربابها أن يجعلها في سبيل

---

(١) في نسختين زيادة وقوة النفقة.

(٢) في نسخة لأن أثمها.

الخيرات ومصارف البركات ومغانم المثوبات فإن الحاصل من ذلك حصول بركة الدعاء من عامة المسلمين وخاصتهم وقد قال صاحب المدخل أن المدرسة إذا بنيت من مال حرام وجهلت أربابه فيجوز للعالم أن يأخذ منها بوجه العلم انتهى فترى أنه لو لم يكن ذلك الفعل لما توصل إليها ذلك العالم ولا كانت سبيل الخير.

وقد قال الشيخ عبد الكريم الزواوي في شرح الوغليسية ما هو حاصله أن المتبرع من الولاة بمال المسلمين الذي جمعه ظلما وعدوانا من غير وجه شرعي ثم صرفه في مصارف الخير لا سيما الدائم نفعه كالقناطر والأوقاف الجارية له أجر الدعاء وبركة النفع من المسلمين وثواب إدخال السرور عليهم وإن لم يكن ماله فترى الظالم يثاب من وجه ويعاقب من آخر فهو أولى من العقاب المحض والمحرم الصرف فليس لأحد ممن لا يعرف أحكام الشريعة ولا أصول الحقيقة أن يقول للظالم أياك أن تصرف تلك الأموال في باب الخير فانه مسدود عليك، ومغلق لديك، فيويسه من رحمة الله ويقنطه من كرمه فربما أنسد الباب على هذا القائل وكان من القانطين أراد أن يتورع، فشرب كأس الأياس وتجرع، هذا وأن صاحب النور يعرف ما يأتي وما يذر إذ رب معصية أورثتك ذلا واحتقارا، خير من طاعة أورثتك عزا واستكبارا، فلا كبيرة إذا واجهك فضله، ولا صغيرة إذا قابلك عدله.

نعم المال إذا جهلت أربابه سبيله سبيل الفيء إن كان منتظما بحيث يصرف في أبواب الخير وإلا فهو للفقراء والمساكين فإن فضلت منه فضلة تصرف في منافع المسلمين كما ذكرناه آنفا وإياك أن تسمع لمتفقهة الزمان، وصلحاء الأوان، الذين هم المعجزة عند الاختبار والامتحان، فإنك تراهم يتأسفون على صدور الخير باللسان، وقد تبت(١) أيديهم عن صنيع المعروف وموارد الإحسان، يذمون الكريم على كرمه،

(١) في نسخة تثبطت.

ويمدحون اللئيم على تكبره وأعظامه، فقضايا الحق على عكس أهل العصر، ومواطنهم ليست مواطن النصر، وقال صلى الله عليه وسلم لولا الحمقى ما عمرت الدنيا فناهيك بأهل الحقائق فشد يدك عليهم لا سيما المتمكنين في الشريعة رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل الجنة مثواهم.

انعطاف إلى ما كنا بصدده تعلم أن قائد عمورات المتحدث عليها لما انفصلنا عن محله وشكر صنيعه واغتنام البركة من أهل الفضل من المسافرين ومن أهل بلده ركب مركوبه بعد أن ودعنا من في المدرسة من الطلبة وأهل الفضل منها ومن أهل المحل يودعنا مع رؤساء من أرباب دولته وهو رجل كبير السن زاد لحمه وشحمه عن وضع الاعتدال ذهب معنا أميالا بالتشييع ومتأسفا على المفارقة بالتوديع غير أنه تحرك ليلعب على فرسه متمثلا لما عسى أن يكون مرويا عنه صلى الله عليه وسلم من ركب فرسا ولم يلاعبها أو لم يعرفها ففيه نزعة يهودية أو كما قال.

نعم لما مدها بالجري مع كاتبه سقط عنها وكان ملقى على الأرض ففزعنا منه وظننا انه مات أو كاد فلما وصلنا إليه وجدناه متيقظا نشيطا فقام من حينه فاختبرناه عن عزمه[1] ودينه فكان منه ما كان غير انه لم يتغير بالجنان فقلنا من حينه أمرك وصح مقصودك إذ من صنع معروفا فأصيب عنده كان مقبولا في معروفه ففرح وسر حسبما ورد في الحج أنه إذا كان مقرونا بالمصائب والمشاق عظم أجره عند الله وقبل وإلا فلا.

وقد ورد عن بعض الفضلاء وأظنه أبال الفضل النحوي أنه حج ورجع ولم ينكد ولم يصب في ماله ولا بدنه فعظم ذلك عنده وقال أن حجي لم يقبل فخطر ذلك في باله عند قربه من وطنه وهو في نواحي نفزاوة فلم يلبث إلا وخرج جمع من المحاربين وثلة

(١) في ثلاث نسخ حزنه.

من المعتدين فأخذوا ماله وسلبوا ما عنده فقال الآن تم الأمر وعظم الأجر وقبل الحج وقضي الوطر ففرح عند ذلك إلا أن كاتبه خاف منه وتروع قلبه إذ ربما عاقبه على ذلك فسأل الشفاعة منا أن يجعله في حل فكان الأمر كذلك وبعد ذلك بسويعات عند قربنا من بلدة السيد الفاضل سيدي عبد الخالق في الماية محل سكناه رجع عنا من كان يودعنا من أصحابنا وبقي البعض ثم قائد عمورات بعد الإلحاح في الدعاء له ولمن كان معه بالمغفرة والرحمة ودوام النعمة.

ثم مررنا بأهل الفاضل الكامل الأخ في الله سيدي عبد الخالق فنزلنا عندهم صبيحة فأطعمونا بالكسكس واللحم كثر الله خيرهم فدعونا لهم بقريحة قلب وقوة اهتمام وعزم ومعنا الذي يقول في طرابلس أنا قطب بمجرد لسانه وعلامة القطب ليست عليه وغايته أن يكون من جملة المؤمنين بل إذا سمعت قوله تقول انه صاحب التصريف الكامل غير أنه تعكر عليه بعض الحوائج ظاهرا وباطنا فلا يساعده إلا قيل أصله[1] أو أنه خفي علينا حاله فيتكلم قهرا ويطغى عليه أمر الوارد جهرا إلا أنه من لم تكن عنده شريعة فليس عنده دقيقة فضلا عن الحقيقة والحقيقة لا شريعة معها زندقة والشريعة لا حقيقة معها تعطيل وفسق وقد قال إمام دار الهجرة مالك من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ومن جمع بينهما فقد تحقق.

وقال الإمام عز الدين ابن عبد السلام كل حقيقة لا شريعة معها فهي باطلة وكل شريعة لا حقيقة معها فهي عاطلة[2] انتهى فإذا يجب عليك أن تنظر من تتخذه لدينك ولا تغتر بكل ناهق وناعق فتسلم في دينك وتكون من خاصة الله في عباده بعد حسن الظن في الله وجميع المسلمين فتعلى همتك وترفع منزلك وقد نزهنا هذا الإنسان عن

---

(١) كذا في نسختين وفي نسخة قبل بدل قيل وفي نسخة ما ادعاه.

(٢) في نسخة عاطلة... باطلة.

القطابة لعدم تمكنه وإنما سلط عليه اللبس والالتباس، فلم يفرق بين الحق والوسواس، وإذا زجرته زاد في العكس والانتكاس، ومع ذلك أنه يظن في نفسه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فتجد العلماء يضحكون عليه ويستهزئون به ويجعلونه مسخرة فبعضهم يرد عليه وينكر خصوصيته وبعضهم يوافقه ويساعده ليسلم من شره إذ يعتقد أن كل ما صار في العالم فهو على يديه ونحن اعتقادنا فيه أقل مما يدعي وأسلم مما يعتقدون فيه من الزندقة وما به إلا غلبة الحال والوارد مخلطا ومقترنا بطغيان النفس ووساوس الشيطان اللعين فمن يفرق بين الخواطر زل قدمه واللسان تابع لما هنالك واختل عقله ببعض الأطعمة والأشربة فصار في محل الإهمال فيتصرف بتلك البضاعة الضعيفة أو غلب عليه طبع السوداء فيتكلم جبرا، ويتحرك قهرا، ويصيح اضطرارا، فتتخيل له صور المغيبات، ويزعم انه يطلع على سر المنكونات، وما ذلك إلا الحكم الوهمي وانقلاب الطبيعة وتغيير حال الاعتدال وهذا معلوم عند أهل الطريقة.

نعم لا تزال طائفة ظاهرة على الحق ترد الباطل وتحقق الحق وما دام ذلك لا ينقطع الخير عن هذه الأمة ما زلتم بخير ما دام يرد بعضكم على بعض بشرط أن يكون الراد سالما من العلة النفسية وهتك حرمة المسلم بإظهار المعائب وإخفاء المحاسن وإنما يقصد القيام بالسنة وإظهارها وإخماد البدعة وإبطالها وليس حسدا وبغضا وعنادا وإسقاطا له من البرية ويسقط حظه عند الخليفة ولذلك ترى الكثير ردوا عن باب الله باعتراضهم على الخلق وإن كانوا محققين في أعتراضهم انظر الشيخ زروق في القواعد.

هذا وأني انفصلت عنه على خير وسلامة قلب وقد أشار لنا بإشارات بعضها يدق على الإفهام، ويعز عن الالتئام، فما وافق السنة قبلناه وما كان متشابها طرحناه عن الاعتبار، ووكلنا أمره إلى العزيز الجبار، إذ عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو

سبحان من أوقف العباد، فيما أراد، فمن نظر إلى الشريعة أعترض، ومن نظر إلى الحقيقة سلم وفوض، فمن أراد الجمع بينهما فليقم بالسنة والشريعة ظاهرا بلسانه إن كان عالما أو بيده إن كان سلطانا ويسلم بقلبه لعلم الله بالواقع والحقيقة فالاعتقاد بالقلب ولاية، والانتقاد به جناية، إذ لو كشف عن نور المؤمن العاصي لملا ما بين الخافقين وأحرق ما بين السماء والأرض فكيف بالمؤمن المطيع حاصله قد عز الطبيب الرباني، وذو الترياق الفرادني، بل قد أنعدم رأسا وإلا فالمؤمن لأخيه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وهذا الباب واسع المجال، رحب المقال، كثير التفعل والانفعال، فلا يسلم منه إلا أقل القليل، بفضل الوهاب الرحيم الرب الجليل.

ثم مررنا بالزاوية الغربية وهي بلدة عظيمة قد جمعت ووعت أجناس الخلق وأصنافه من العرب وأولاد الترك وقبائل شتى فلما فسد رأيهم وتقوى فيهم الإهمال وضعف فيهم حكم السلطان اضطرمت فيهم الفتنة وعظم فيهم الهرج وصاروا إلى القتال انقسمت عليهم الأعراب أو أن السلطان رأى لهم ذلك لأن فيهم العمال والقواد وأرباب الدولة وهذه البلدة[1] كثيرة النخل واسعة الأطراف قوية[2] الأكناف وقد كثر فيها أهل الخير من الصالحين أهل الإنصاف الأحياء والأموات ينبت فيها الصالحون كالشجر فلا تجد ناحية إلا وفيها فقراء والمزارات بحيث إن كل ناحية تجد فيها مزارا حيا أو ميتا فإن عليهم سيمة وعلامة تعرفهم بسيماهم وذلك معلوم بالضرورة وقد ودعنا جماعة من أصحابنا من طرابلس وبقيت معنا جماعة منهم كالأخ في الله سيدي محمد الشريف وأصحابه ثم تلاقينا عند صلاة الظهر بجماعة من المحبين وجم غفير من الصالحين ومن العلماء العاملين وجماعة من عامة المؤمنين كلهم راغبون في الخير ومشتاقون إلينا فإنهم وقفوا معنا وقوفا عظيما وقياما لائقا جزاهم الله عنا

---

(١) في ثلاث نسخ الدولة.

(٢) في نسخة قريبة.

أحسن جزاء فمنهم من تكرم علينا بالشعير والطعام واللحم ومنهم من أتى برؤوس من الضأن.

حاصله أنهم أهل كرم وود ومحبة واعتقاد زائد وأحوال صادقة وواردات ظاهرة ومواجد عظيمة بينة يظن الإنسان أن الخير مقصور على هذه الزاوية وهي بلدة ذات فواكه وأشجار ومزارع وعمارة كبيرة لا تحيط به العبارة وتقصر عليه الإشارة أفاض الله علينا بركة أهلها بمنه وكرمه ثم تلاحقنا بالركب فلم ندركه إلا عند العشاء وذلك مع أصحابنا من طرابلس وإخواننا من الزاوية حتى امتلأت الخيمة فلم تتسع لهم بل باتوا خارجها فأطعمنا الجميع بفضل الله تعالى وبتنا هناك معهم خير مبيت إلى الصباح فظعنا والأصحاب معنا إلى الضحى الأعلى فاستودعناهم الله واستودعونا كذلك فلما حان الانفصال وتقارب الرجوع والانتقال [تكدر القلب وتغير وحزن فأصابه قلق والله كادت الروح أن تزهق وهي تطير][1] وإنما مسكها قفص البدن فلو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان فعند ذلك تألمت[2] الأجباح، وبدا منا البكاء والصياح، فلم يبق شيء لدى الفراق من أنواع الأرباح، فعزت النفوس أن تذهب مغربة وكذا أنفسهم جمحت أن تذهب مشرقة فامتنع الجميع من المطاوعة أن تكون مفارقة فغربت شمس الاجتماع، وكسف نور المشاهدة والانتفاع، وإنما أقبل ليل البين وظلمة الأقصاء والانقطاع، تتجافى جنوبنا عن مضاجع الأنس وضاقت بنا الوحشة[3] في جميع البقاع، فربما أصيب البعض منا بالمرض، وبرهة من الزمن متصل بالقبض، هذا وإن الركب قد ذهب علينا وغاب عنا ونحن في التوديع فنرجع إلى ما كنا بصدده ثم بعد الفراق ذهبنا نلحق الركب فلم نلحقه إلا قرب الزوال فمررنا

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة وفيها عوضه وفقدت الروح الاصبطار.

(٢) في ثلاث نسخ تمالت.

(٣) في نسخة النفوس.

بالزوارة الشرقية فسقينا منها واستقينا وماؤها عذب بارد وتسمى الزوارة الكبرى.

قال شيخنا المذكور ما نصه وتسمى كوطي بضم الكاف وكسر الطاء المهملة وهي قرية أضخم من الزوارة الغربية وأكثر غابة وفي أهلها شجاعة وحدة[١] نفس وكانت طاعتهم للعرب مشوبة بعصيان ومنتهاها قرية ولول وبينهما عشرون ميلا وهما قريتان متشابهتان عذوبة ماء وخربا باء وولول هذا منتهى أرض الزوارات من ناحية المشرق وسميت بذلك لأن أقواما من الأعراب يعرفون ببني ولول نزلوا بها وكذلك تعرف في القديم بأرض بني ولول هي أكثر بقاع الأرض ظباء ولأهلها دربة في صيدها بإشراك ينصبونها لها تميزوا بذلك عن غيره وأما الزوارة الغربية فتسمى الصغرى وتعرف أيضا بوطن بلد المرابطين وهي قرية ذات نخل كثير باسق الارتفاع وماؤها في غاية العذوبة وقد استولى الآن الخراب على هذه القرية فليس العامر منها إلا بعض العامر وأمام هذه القرية بمقربة منها قصر يسمى وِزْدِر بكسر الواو وسكون الزاي وكسر الدال المهملة قد امتحى رسمه وبقي اسمه وتخرب أكثر البناء الذي يحف به ولم يبق من أهله إلا أناس قليلون وهذا الموضع المشهور أهله ببيع من يختار به من الحجاج وغيرهم النصارى ولم تزل الأركاب تحترس إذا مرت به خوفا من أهله وخوفهم على سرقة الرجال أكثر من خوفهم على سرقة الأموال فإذا جازوا ولم يفقدوا أحدا هنأ[٢] بعضهم بعضا بذلك وكان هذا الفعل كثيرا فيهم شائعا ذائعا فيما تقدم وأما الآن فقد قل ذلك لقلة العامرين به.

ومن هذه القرى كان الابتداء بسلوك منازل البربر المتمسكين بمذاهب الخوارج المستحلين لدماء المسلمين وأموالهم [وهذا المذهب هو الغالب على جميع البقاع التي

---

(١) في الرحلة الناصرية وغرة.

(٢) في رواية هنا (بغير همز) إلا نبّه.

بين طرابلس وقابس خصوصا أهل الساحل منهم فهم][1] بهذا المذهب المذموم يتقربون ببيع من يجتاز بهم من المسلمين إلى الروم فتجد الناس لأجل ذلك يتحامون الانفراد في قراهم ويجتنبون أيواءهم وقِرَاهم من بقايا الشرذمة الضالة التي قام بها أبو يزيد مخلد بن كيداد في إفريقية فانه لما أظفر الله به وأراح البلاد والعباد منه تفرقت أتباعه في الأقطار فسكنت هذه الشرذمة بهذه المواضع وسكنت طائفة أخرى بجبل بجاية وقسنطينة وما والاها إلى بونة ومالت طائفة أخرى إلى بلاد الجريد فاستوطنت نفطة ونفزاوة وما والاهما من البلاد وكلهم خوارج غلاة في مذهبهم مكفرون للعصاة على ما هو معروف من مذهب الخوراج[2] كمذهب المعتزلة في إشاعتهم[3] من إطلاقهم أسم الكفر على من واقع كبيرة ولم يتب منها فإن المعتزلة لا تسميه كافرا ولا مؤمنا وتسميه متوسطا بان توسطوا[4] في هذا بين مذهب أهل السنة ومذهب الخوارج والمتصلحون منهم يتهاسحون بثيابهم ثياب أحد ممن ليس على مذهبهم ولا يؤاكلونه في آنية وإن استقى عابر سبيل ماء من بعض آبارهم استخرجوا ماء البئر كله فهاحوه وثياب الجنب عندهم لا يقربها طاهر وثياب الطاهر لا يقربها جنب.

قال التجاني وقد شاهدت منهم من كان على طهر إذا أحب غسل ثوبه الذي اجتنب فيه يرفعه بعصا أو محجن ثم يلقيه في البحر فيخضخضه بعصاه ساعة ثم بعد ذلك يتناوله بيده ويوجبون على أنفسهم الغسل صباح كل يوم أجنبوا أو لم يجنبوا رجالا ونساء يتوضئون ثم يتيمون وقد شاهدت هذا منهم كثيرا ويشترطون في

(١) ما بين القوسين ساقط في الرحلة الناصرية.

(٢) في الرحلة الناصرية بإسقاط لا وفي نسخة ولكن يخالف مذهب المعتزلة.

(٣) في الرحلة الناصرية امتناعهم.

(٤) في الرحلة الناصرية وتسميه فاسقا على حكمهم بتخليده في جهنم وتأبيد عذابه وكأن المعتزلة بزعمهم توسطوا.

وضوئهم غسل الأيدي من الأكتاف إلى غير ذلك من أرائهم الواهية.

قال والأفعال التي حكينا عنهم منها ما شاهدناه وهو ما نصصنا عليه ومنها ما حكاه الشريف في كتاب المؤلف للجان ورأيت منهم أقواما قد نحلت من العبادة أبدانهم واصفرت ألوانهم باقين في ذلك على أصلهم الفاسد من تكفير العصاة وأظهروا شيخا يعرف بعبد الرحيم الزواوي وجميعهم يعظمه ويقدمه رياسة وسنا وصلاحا بزعمهم اجتمعت به فرأيته شيخا مجتهدا في العبادة حسن السمت إلا انه باعتقاده الفاسد قد ضيع أعماله وخسر حاله ومآله وتوسمت في أحد ممن وصل معه الطلب فتكلمت معه فوجدته قد شارك في طرف من العلم وأنجر الكلام معه من التحدث في أهل المعتقد إلى التحدث في مسألة المسح على الخفين في الطهارة فشنع بها على مثبتيها كثيرا وفاقا لمذهب الخوارج فذكرت له بعض الأحاديث الواردة في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فردها بالجملة وقال هذه أخبار آحاد لا يجب العمل بشيء منها قال وقد نص لنا سيدي أبو يزيد مخلد بن كيداد على بطلان ما كان من الأحاديث يناقض أصلا من أصولنا فلعنت النص ومن نصه.

وقد وافقت الخوارج على إنكار المسح على الخفين أضدادهم من الشيعة مستندين في إنكاره إلى ما رووه عن علي رضوان الله عليه أنه كان لا يرى المسح وذلك غير صحيح عنه فإن حديث التوقيت في المسح وهو حديث صحيح يروى وقد تغالى الشيعة في هذا واتخذوه شعارا حتى أن الواحد من غلاتهم ربما تألّى فقال برئت من ولاية أمير المؤمنين[1] ومسحت على خفي إن كان كذا وإلى هذا أشار الشاعر بقوله لما حبسه الحسن بن يزيد بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكان واليا على المدينة من قبل أبي جعفر المنصور فكتب له من السجن:

---

(١) في الرحلة الناصرية ولاة المؤمنين.

أشكو إلى الله[1] ما لقيت ... أجبت قوما بهم شقيت[2]
لا أشتم الصالحين جهرا ... ولا تشيعت ما بقيت
أمسح خفي ببطن كفي ... ولو على جيفة وطيت[3]

قال فأطلقه وأكرمه وأما الخوارج فوقفوا في إنكار المسح مع نص الكتاب ولم يروا نسخه بالسنة ورويت عن مالك رحمه الله في ذلك رواية شاذة لا ينبغي أن تحمل على ظاهرها وقد تأولها عليه من صححها عنه.

وبالجملة فالعلماء مجمعون على خلاف هذا القول وقد نصوا على تفسيق من قال به وقول هذا الزواري إن هذا من أخبار الآحاد ليس كذلك فقد نص العلماء على أن الحكم مما ارتفع عن رتبة خبر الآحاد وارتفع إلى رتبة التواتر اهـ كلامه.

وفي هذا المنزل أيابنا عام عشرة ودعنا من شيعنا من أهل المحبة من طرابلس وتذاكروا مذهب هؤلاء الخوارج فانشد الفقيه سيدي عبد السلام بن عثمان لنفسه كان الله له:

لقد قبح الله الزوارة كلها ... وألبسها من درن أربابها شينا[4]
وحق لمن قد جاور القبح أن يرى ... قبيحا خبيثا ليس تلفي له زينا
فيا رب دمرها دمارا مؤبدا ... ولا تبقين من كل أثارها عينا

وقال عبيد الله تعالى حسين بن محمد بن علي بين شرحبيل البوسعيدي أخذ الله

---

(١) في نسختين أحببت قوما بهم شفيت.

(٢) في نسخة أشكو إليك ما.

(٣) كذا في الرحلة الناصرية وفي ثلاث نسخ بياض وفي نسخة ولو على أني أموت.

(٤) في نسخة أنسبها من دون وفي أخرى وألبسها من درن.

بيده:

وتَــبَّرَهم تتبير عــاد وألبســوا سرابيـل خـزي كلـها انتحلـوا مينـا
ونظمهـم في سـلك عنقـا فـلا يـرى لهـم عقـب إلا وجرعـه حَينـا[١]
عـدا السـالكين منهج الحـق واقتفـوا سـبيل رشـاد واقتنـوا بينـهم[٢] لينـا

وقال أبو الحسن سيدي علي النجار[٣] الطرابلسي لطف الله به:

وأخـرجهم مـن أرضنـا وبلادنــا وأهلكهـم حتـى يقـال لهـم اينـا
وأخـزاهم خزيـا يكـون بجمعهـم محيطـا ولا وَفّي الإلـه لهـم دَيْنـا[٤]

وقال شيخنا سيدي أحمد المستوتي[٥] وفقه الله:

وزاد لأهليـه الخسـارة والـردى وأظلـم احـشاء وزاد لهـم رَيْنـا
سـوى منهم مـن كـان ذا سنة النبـي فـلا زال مـن تباعـه مقـرا عينـا

اهـ كلامه هذا وإن الزوارة إلى قرب جربة وأكثر جربة وجبال طرابلس إلى قابس إلى نواحي نفزاوة كلها على هذه المذاهب الفاسدة كاد أن يظهر أمرها في مدينة طرابلس إذ كلمتهم فيها نافذة وما ذلك إلا لكثرة مالهم وقد علت به منزلتهم أخلى الله منهم الأرض وأسقط حظهم عند المولى.

فلما خرجنا من الزوارات[٦] وحكمها تلاقينا مع أصحاب سلطان طرابلس في

---

(١) في نسختين إلا وفرعه فينا.
(٢) في الرحلة الناصرية منهم.
(٣) كذا في الرحلة الناصرية وفي ثلاث نسخ عبد النجار وفي نسخة عبد الجبار.
(٤) كذا في الرحلة الناصرية وفي ثلاث نسخ بياض وفي نسخة محيطا ولا أبقى منهم أبا ولا أبنا.
(٥) كذا في جميع النسخ وفي الرحلة الناصرية المشتوكي.
(٦) في نسخة زوارة.

هيئة عظيمة ونشأة كبيرة توجهوا من سلطان تونس القادمين بالهدية منها وهي هدية عظيمة قد سروا بها وإن ذهبوا بهدية إليه فهذه الهدية أكبر وأعظم وأجسم وأحلى وأكرم فلما عرفونا نزلوا إلينا وعظمونا وتبركوا بنا ويشرونا بوصول سيدي أحمد الطيب وأصحابه وولدي وعيالنا إلى تونس حرسها الله من أيدي الأعداء وشهوب[1] التبديد والعداء فسألناهم عن كيفية أحوالهم فقالوا خرجوا على خير وسلامة بعد أن عذبوا بانكسار المركب إلا أنه انفصل وتبدد بعد نزولهم منه في المرسى وإنهم سكنوا دارا في تونس ينتظرون قدومكم وأما سيدي أحمد الطيب فقد أنفصل إلى بلده استعجله الحجاج وأرادوا تعجيل الأوبة.

ثم مررنا كذلك إلى أن وصلنا إلى قصر الملح وهي سبخة قريبة منه تحمل منه السفن وملحها مفضل على سائر السباخ ومنها يمتار أهل البلاد النصرانية وكأنه طرف من السبخة التي بتوزر وأهل ذلك الموضع يزعمون أنهم إذا رفعوا ما على وجهها من الملح ووصلوا إلى تراب الأرض احتفروا فيه قليلا فوجدوا طبقة أخرى وكذلك إلى سبع طباق وهم يحفرون إلى الطبقة السابعة لأن النصارى يتغالون في شرائه منهم ويذكرون أن له عندهم منافع عديدة إلى غير ذلك انظر رحلة شيخنا المذكور.

ثم ظعنا من ذلك المحل فسرنا في بلاد النوائل وهي طائفة صعبة كادت أن تكون كالقبر فلا يمر عليه أحد إلا متروع إذا سلم منهم[2] ونحن قد وجدنا البعض منهم ظاعنين فلما رأونا فرحوا بنا وصاروا يلعبون على خيولهم طلبا للدعاء واغتناما للبركة إذ سمعوا بنا في غير هذه الجحة وعلموا بعض أحوالنا بأخبار مرابطيهم وأعلام

---

(١) كذا في جميع النسخ ولعله شُهُب.

(٢) في نسخة إلا جرّدوه.

صلحائهم أولاد مريم فإنهم أفضل الناس وأجودهم وأكرمهم وأعملهم وأهداهم ولهم همة عالية ورتبة زاكية فكأنهم لم يسكنوا البادية ولا يأكلون المتشابه ولا يأخذونه فضلا عن الحرام على غاية السنة والقيام بها فما رأيت أحدا أحفظ بها منهم ولا لصون دين الله أرفع منهم فإبلهم وماهم يرعى وحده في الصحاري من غير راع تلد[١] الناقة وحدها نحو الشهر والشهرين وهو في ربوة الصحاري لا يتعدى عليه أحد ومع ذلك أهل هذا الوطن ليس يوجد أظلم منهم ولا أعدى وهم سالمون وقد تكرموا علينا في الحجة الثانية وكذا في الطلعة في هذه الحجة وقد ذهبوا معنا في الرجعة الثانية من بيوتهم قرب الزوارات[٢] إلى أن بلغونا إلى قابس مسيرة ستة أيام أو خمسة ونحن في طعامهم وشرابهم وعلفهم إلى أن وصلنا إلى قابس بل زادوا رحلة معنا بعد قابس إلى روضة الشيخ سيدي مهمل[٣] وأما في هذه فوجدناهم بعداء عن بيوتهم متحيرين اشغلهم أمر الظلمة إذ تعدى عليهم بعض من أولع بالتغلب والتفرعن عن هؤلاء المتمردين المذكورين وسبب ذلك إنشاء العداوة والفتنة بين النوائل وورغمة فإن ورغمة من منتهى عمل تونس الشرقية والنوائل من منتهى عمل طرابلس الغربية فلما التقى الجمعان نشأ بينهم الحرب والفتنة والأخذ والموت فأنجلى النوائل من بلادهم أجلوهم من جهة المغرب وورغة ومن نحا سبيلهم من حليفهم ومن جهة المشرق العجيلات والزوارات[٤] وغير ذلك ممن يحالفهم فكان المرابطون أعني أولاد مريم والحمارنة مع ورغمة فوقع لهم بعض التعدي بسبب مجاورتهم ومحبتهم إياهم.

وأما الحمارنة فمن أجود العرب وأكرمهم نسبا لديهم وشرفا عندهم قد جعلهم الله

---

(١) في نسخة تترك.

(٢) في نسخة الدويرات.

(٣) في نسخة مهلهل وفي نسخة أمهذب.

(٤) في نسخة الدويرات.

برشاقة القد وحسن الخد وهيئة الركوب وزينة الملابس وسعة البيوت ولهم جاه عظيم عند سلاطين تونس فإن محلة الأعراض أعني محلة زواوة[١] التي تأتي إلى نواحي قابس على أيديهم والحكم فيها حكمهم.

حاصله قد دخلنا أرضهم متبركين بنا ومغتنمين ما كان لدينا[٢] فأنهم محل بركة أيضا قد نوينا زيارتهم أيضا فإن لهم أصلا في كل المعالي وكذا الحمارنة قد انعقد لهم لواء العز واشتهروا بأمر الفضل وقد علمت أن كل وطن إلا وجعل الله فيه نورا يستضاء به وسيفا يقهر به عباده فلا يزال العصر دائم الأمداد بهؤلاء القاهرين للعباد وإنما الفرق قلتهم وكثرتهم بحسب الزمان وأهله وإن انعدموا رأسا في وطن من الأوطان خرب وهلك وقد قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ فإن العلماء والفضلاء خيار هذه الأمة وهذه الأمة خيار الأمم ولذلك ارتفع المسخ أي مسخ الظاهر وأما مسخ القلب فقد بقي لم يرتفع فتجد طبائع الإنسان على طبائع الحيوانات فمنهم من يكون كالثعبان ومنهم كالخنزير ومنهم كالقرد ومنهم كالذئب فكل معصية تستدعي كسوتها لقلب فاعلها هذا إن لم يدم عليها وإلا مات على سوء الخاتمة والعياذ بالله لأن كثرتها تورث ذلك غالبا أنظر المدخل هذا وأنا مررنا ببلد الحمارنة إلى أن وصلنا إلى عرام فانه محل أجدادهم وموضع خزائنهم يسكنها من لا يقدر على البادية منهم.

وهي قرية طيبة ذات مياه عذبة ومزارع وبساتين ومن مات منهم دفن فيها وفيها مزارات كثيرة وروضات مبنية تراها كالنجوم في السماء ومررنا عليها صبيحة عند الضحى الأعلى فبات عندنا الفاضل الكامل الفقيه النبيه محبنا ومعتقدنا قاضي محروسة

---

(١) في نسخة زوارة.

(٢) في نسخة متبركين بهم... لديهم.

بسكرة فدفناه هناك وقد اجتمع عليه جمع كثير وجم غفير وذلك من علامات سعادة الميت ولذا قال أحمد بن حنبل بيننا وبينكم الجنائز وقد أسلم عند موته بين اليهود والنصارى ثمانية آلاف وقد انغلقت الدكاكين والأسواق شهرا لعزائه وقد صلى عليه من الناس نحو الثمانين ألفا وغير ذلك من فضائله جعل الله هذا القاضي من أهل الجنة وغفر لنا وله بمنه وكرمه ثم أن أهل عرام أتوا إلينا بالتمر الجديد اليابس والرطب بارك الله فيهم وجعل الصلاح في ذراريهم آمين يا رب العالمين.

ثم ذهبنا من عرام إلى أن وصلنا قرب قابس فبتنا هناك خير مبيت فطعنا صبيحة فنزلنا خارج قابس عند الباب الشرقي في فسحة عظيمة تُجاه (بضم التاء) أبي لبابة بعيدا منه من جهة البحر فلما قربنا النزول ذهبنا قبله على خيولنا لزيارة أبي لبابة الصحابي المعلوم وقد ذكرته في الطلعة وما قيل فيه عن ابن ناحي انه الصحابي المعلوم دفن هناك وعليه مدرسة عظيمة ومسجد كذلك فيه طلبة علم يتعلمون فيها وفيها أمام فاضل عالم عامل ممن يخشى الله ويتقيه وهو من خصوصية أصاحبنا قديما إذ عرفني في الحجة الأولى مع جماعة من الفضلاء منها وهو سيدي عمر إذ هو المدرس فيه وهو ممن يفهم عن الله ومتعلق بمن يراه من أهل الله زاده الله رفعة وقدرا وجاها ومنزلة اجتمعت معه في الطلعة وفي هذه مع صلحاء قابس وفضلائها وعلمائها وقد اجتمعوا معنا وطلبوا منا البحث في بعض النوازل من مشكلات الفنون وقوانين العلوم فاسفعتهم على ذلك بحس ما فتح لي من الوهب الرباني والمنح الفرداني فزادهم ذلك حسن ظن واعتقاد وعجبا من الله حيث لم ينقطع مادة الفتح والوهب اللدني لا سيما لما رأوا بعض المؤلفات لنا فزادهم تحركا لهممهم وتعاظما لمقاصدهم غير أنهم استقلوا مدة الإقامة عندهم ليشفوا عليلهم ويبردوا غليلهم فلم ترتفع وحشة الاتصال من قلوبهم خوفا من الفرقة فقالوا نعم الملاقاة لو طالت وهذا وصف كل من اجتمعت معه في كل بلد مكة والمدينة ومصر وطرابلس إذ الكل يتأسفون على عدم

طول المدة ويتحسرون على عدم قضاء الوطر والحاجة.

وقد اجتمعت أيضا هناك مع جماعة من الفضلاء وجم من النجباء أولاد الجمني الذين هم في نفزاوة فاستفادوا منا واستفدنا منهم.

وكذا بعض الفضلاء منهم من جربة القريبين لسيدي إبراهيم الجمني الكبير الذي أخذ عن الشيخ الخرشي وهو شيخ شيوخنا وكذا سيدي إبراهيم الصغير ولهم مدرسة في جربة عظيمة معلومة تكاد أن تكون من المواسم المعلومة غير أني ما دخلتها ولكن ناوٍ دخولها إن شاء الله وفضائل سيدي إبراهيم الجمني من زهده وورعه وتواضعه وتهجده ونصحه للطلبة وتحمله الأذى من خوارج جربة وصبره وتصبره على إظهار السنة وإخماد البدعة وغير ذلك من أخلاقه السنية كثير لا تعد ولا تحصى لا تضبط ولا تستقصى وقد انفعلت سريرته وأثرت همته في أصحابه الآخذين عنه كما هو مشهور عن أشياختنا كالعلاة الفاضل المحقق الكامل سيدي عبد الله السوسي ومثله سيدي يحيى بن حمزة وبعض الفضلاء من تونس ممن كان حيا الآن يحكي لي عنه أشياء عند أخذه علي بعض الفنون من العلم كالمعالم للإمام الفخر الرازي والفتوحات لابن عربي وعقيدة ابن الحاجب وقد ختمها علي وغير ذلك من العلوم أيده الله بنصره وهو كبير السن ظاهر الفضل والشأن.

وأما الصالح على الإطلاق، والعالم العارف بالاتفاق، سيدي موسى الجمني الذي تؤخذ الآن عنه[1] العلوم والفنون شتى تأتيه الطلبة من كل البلاد، وتشد إليه الرحال من جميع العباد، فقد ظهر فضله وانتشر علمه وثبت حلمه عند كل الناس في تل الأقطار، وتبين فضله في جميع القرى والأمصار، فحقيق به لأنه أهل لذلك،

---

(١) في ثلاث نسخ الذي كان حيا الآن تؤخذ عنه.

وموصوف بها هنالك، وقد قال صلى الله عليه وسلم ألسنة الخلق أقلام الحق وقد قال الشيخ زروق لكن إن كان ذلك فيك فاشكر الله على ذلك وإن لم يكن ذلك فيك فانهض لذلك وإلا سلب عنك ذلك فافهم أو كلاما هذا معناه.

نعم أني لم أره ولم اجتمع معه مع رغبة الجميع منا ومنه في الاجتماع والزيارة واغتنام البركة لأن زيارة الحي متفق على فضلها لما فيها من الفائدة والاستفادة والتربية بالهمة وغير ذلك من فوائدها بخلاف الميت فقد اختلفوا في زيارته فمنهم من أنكرها ومنهم من جعلها كالحي [غير انه للاعتبار ونزول الرحمة عند قبره فالراجح مطلوبيتها كالحي][1] وقد قال صاحب المدخل فإنهم قوم لا يشقى بهم جليسهم لأنهم أحياء في قبورهم يغيثون ويشفعون فيمن أتاهم وذلك معلوم عند أرباب القلوب فلا يمكن إنكاره ولا استتاره.

نعم مكثنا في قابس نحو اليومين واليوم الثالث ظعنا منه غير أن طريقنا وبعض الركب يريد[2] تونس وهو من كان من نواحي قسنطينة كأولاد عيسى وأهل ابن ضيف الله وأولاد إبراهيم وغيرهم جعلنا ركبا مستقلا وسيدي محمد المسعود وأهل الصحاري إلى قصر الطير ذهبوا ركبا مستقلا عن أن طريقهم توزر ونفطة إلى سيدي عقبة إلى بسكرة فقد اجتمعنا عند الارتحال وتوادعنا فعز علينا الافتراق، لوجود الاتفاق، ورحمة الارتفاق، فكلنا بالبكاء والتباكي والزعق والحزن، والكآبة على مصيبة البين، غين أن الله قدره وجعل كل واحد منا أخاه في حل غفر الله للجميع وتولاهم برضاه فذهبوا وذهبنا كل على طريقه هذا كله بعد الإقامة بقابس وزيارة من تحق له على الجملة والتفصيل من الأحياء والأموات لا سيما أبي لبابة وقد زرت شيئا

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

(٢) في ثلاث نسخ بإسقاط يريد.

من هذه الرحلة في مقامه اغتناما لبركته فكنت أملي على بعض فضلاء جربة وعلمائها وهو يكتب وما قطعنا عن ذلك إلا زيارة أهل بلدنا أعني زواوة الذين قدموا عسكرا في محلة الأعراض وقد نزلت هناك أمدهم الله بالتوفيق وأعانهم على سلوك الهداية بالتحقيق.

ثم إن بعض الناس ممن استوطن قابس من بني عباس وكان فاضلا كريما معتقدا محبا لنا تكرم علينا بأنواع من النعم فأتى بها إلى الخيمة مع أولاده يطلب لهم العلم والقرآن أيدهم الله به ومن علينا وعليه وعليهم بالفضل والامتنان آمين وكذا تكرم علينا غيره جزاهم الله خيرا وقرية قابس فيها مياه كثيرة وبساتين من نخل ورمان وعنب وتين وفواكه جمة فأنها بلدة عظيمة وعمارة متسعة وفيها أسواق كثيرة ودكاكين عظيمة كثيرة المساجد والمزارع كثيرة الحناء بحيث لا تساويها في ذلك بلدة وهي مشهورة بها حاصله أنها جمعت فأوعت أفاض الله علينا من بركات أهلها وجعلنا من أهل السنة بمنه وكرمه فانفصلنا عن قابس ومعنا الشيخ المسن في الإسلام الفاضل من الأنام الشيخ الحمروني وابن عمه يريدان توديعنا وتشييعنا إلى أن خرجنا وتباعدنا إلى قرب إشرافنا على روضة الشيخ سيدي مهمل فرجعا وأن لقلبهما ألتفاتات إلينا وحزنهما علينا كان الله لنا ولهما في الدين والدنيا آمين.

ثم مررنا كذلك إلى أن نزلنا بالمبيت قرب الشيخ المذكور فظعنا منه ومررنا عليه عند الضحى فصلى من صلاها وتغدى من تغدى فزار الجميع منا الشيخ المذكور وانفصلنا عنه ثم ذهبنا كذلك إلى أن قربنا القرية التي على شاطئ البحر فبتنا ومررنا عليها عند الضحى وهي قرية صغيرة وليس بها ماء إلا ماء المطر فلا يشربون ولا يسقون ولا يستسقون إلا منه فتعجبنا منها وفيها ماجن عظيم يجتمع فيه ماء المطر قل نظيره فالله يرحمهم بمطره ولا يقطع مدده عنهم آمين فمررنا عليها ذاهبين إلى مدينة

صفاقس فنزلناها بعد الزوال والله اعلم.

وفيها قبر اللخمي المعلوم الذي ذكره الشيخ خليل في الخطبة وهو الذي تنسب إليه مادة الاختيار وشهرته تغني عن ذكر طبقته وهي مدينة قديمة طيبة عليها سور جيد وفيها مسجد عظيم تجتمع فيه القراء والعلماء للتدريس وقد باحثت البعض في علم الكلام لأني وجدته مدرسا فيه فلم يستطع فهم الإشكال فضلا عن الجواب وعلى تقدير فهم الإشكال فلا يقدر على الجواب لضعف ملكته ثم انتقلت إلى مجلس آخر في الفقه غير أن صاحبه منصف فاقر بالعجز والتقصير وقد علمت أن لا أدري علم وهو جُنة (بضم الجيم) العالم أي حصن ووقاية له إذا وقع له ريب فلا ينافي العلم.

ثم انتقلت إلى مجلس آخر في النحو غير أنه تأدب معي وهو يقرأ ويسأل ويسمع مني وينقل إلى أن شاع أمري ذلك اليوم في مدينة صفاقس فصار الطلبة يخرجون إلى الخيمة يقصدون الاستفادة في العلم والاختبار على حسب قصد كل ولكل امرئ ما نوى ثم اشترينا بعض الكتب منها فاشتريت حاشية على البيضاوي من بعض أهلها غير أنها ليست للشهاب وإنما هي للقاضي زكرياء وقد أورد علي سؤالا المشترى منه في النحو أعني إعراب مالك يوم الدين على انه اسم فاعل أو صفة مشبهة وغير ذلك من وجوه أعرابه وهي مسألة عميضة غير انه لم يبسط نفسه معنا وإنما قصد التعجيز والعناد وإزالة بعض ما وقع لنا من البحث مع طلبة صفاقس فقلت له ريض نفسك لتسمع العلم فإن كنا عالمين فتستفيد منا وإلا استفدنا منك فبينت له بعض وجوه إعرابه فرآه حقا وإنما مراده استقصاء جميع أنواعه مع كونه غير متمكن من جميعها وإنما رآه في حواشي البيضاوي وقد رأيته بعد ذلك بجميع أنواعه مع تمام البيان فكنت على ذروة من علمه وشرافة بيانه.

هذا وإن في تلك المدينة مزارات كثيرة وزرناها على سبيل الجملة والتفصيل وزرنا

اللخمي من بعدُ وكذا الشيخ النوري وقد أدركت بعض تلامذة النوري وهو ضرير في الحجة الثانية كبير السن سبعي ضرير[١] ومدينة صفاقس على شاطئ البحر وفيها بساتين عظيمة وجنات كثيرة يستحيلها الناظرون ويستحسنها المسافرون جمعت بين البر والبحر تجتمع فيها الخيرات وتعمها البركات أفاض الله علينا من بركات أهلها وصنعة الكتان فيها كثيرة وهو معلوم عند الناس ومشهور لديهم.

نعم ظلم القواد والعمال أضر بهم وبأهل الساحل جميعا وأما أهل الخير فيه أي الساحل وأهل الصلاح والعلم الأحياء والأموات لا يضبط عدهم ولا يستقصى حدهم جعلنا الله في زمرتهم ومن علينا ببركاتهم آمين.

ثم ظعنا منها بعد ذلك اليوم وأهلها طالبون الإقامة منا والحجاج متعجلون فذهبنا عند صلاة الضحى وأما أول الركب فقد سار عند بيان الوجوه فسرنا كذلك إلى أن قربنا إلى قرية مشهورة فيها قصر عظيم وبناء جسيم حكيم البنيان متقن الصنعة عريض المتن له أبواب كثيرة طبقة على طبقة واسع المتن طويل البناء ولا اعلم من بناه وأظنه من بناء المتقدمين من الجهال وحوله قرية مستديرة به كثيرة الزيتون خارج عن العادة عدا ووسعا وكبر جثة طويل الفروع فلا تكاد أن ترى الشمس من خلاله وأظنها أنها سميت بجمال فبتنا دونها ومررنا عليها عند الضحى الأعلى فسبقنا الركب لننظر ذلك القصر فنزهنا فيه العيون وريضنا فيه الأفكار وفيه غاية الاعتبار قل نظيره فلا تحصى ما فيه من العجائب والغرائب ثم انفصلنا عنها متعجبين غير أن أهلها من الضعفاء يظهر ذلك من سوقهم وسيمتهم تشهد بذلك ثم سرنا كذلك إلى الليل فبتنا دون سوسة وتجنبنا طريق جمال وقد دخلتها في الرجعة من الحجة الثانية وجمال قرية عظيمة متسعة العمارة فيها سوق وحوانيت ولا سور محيط بها كجميع القرى الخالية

---

(١) في نسخة بإسقاط سبعي ضرير.

عنه وفيها زيتون كثير وبساتين عظيمة نفعنا الله ببركة أهلها آمين.

ثم نزلنا سوسة وهي بلدة طيبة قريبة من حاضرة تونس لها سور عظيم وبنيانه جسيم وهي محكمة منضبطة على شاطئ البحر فيها مرسى مثل صفاقس وفيها العلماء مثل الفاضل المحقق والعلامة المدقق الشيخ الهادي وقد سمعت قبل ذلك جواهر لفظه وفوائد بنات فكره مرتب القراءة في تعليمه من غير تلجلج ولا كثرة اختلاط مع تمام البيان ووضوح التبيان يده تجول في كل العلوم وله قوة وتصرف في سائر الفنون فقد سألت عنه فقيل لي أنه لا يخرج ولا أدري ما منعه منه ولو علم بي لخرج ولو بالتكليف وبعد ذلك سمع بي فتأسف على عدم الملاقاة وكان يسأل عنا كثيرا ويطلب الدعاء منا وهو مظهر لحبنا ومعتقد في جانبنا وقد اجتمعت معه في تونس لأن علي باشا أميرها اغتاظ عليه ومن عادته انه إذا ضاق على أحد من العلماء حبسه في المسجد للتدريس ثم انه يجري عليه النفقة وما يستحقه وإن كان صالحا أو عابدا حبسه في دار أو خلوة للعبادة وقد حبسه في جامع الزيتونة في الواقع وأما في الظاهر فلم يكن عليه آثار السجن وقد علمت ذلك ممن يقبل منه في تونس.

هذا وأن سوسة محل الصالحين والعلماء العاملين أحياء وأمواتا ظاهرة البركة بلدة طيبة [واسعة البساتين كثيرة الفواكه طعامها جيد وخبزها طيب][1] واسعة الأرزاق، حلوة المذاق، يستحسنها الناظر، ويتمناها المقيم والمسافر، تصلح أن تكون قاعدة من قواعد الملك فهي ظريفة شريفة، طيبة منيفة، تعدل جميع ما رأيناه، وهي أولى مما علمناه وأبصرناه، إلا أنها قد وقع الظلم على أهلها وسبب ذلك تبدل الدول فمنهم من يحبها ويتخذها حصنا ومنهم من يبغضها ويذلها فأزال منها جميع المعنى فقد أشرأبّ فيها أعناق الحجاج لشراء بزها لا سيما الكتان فقد اشتروا منه كثيرا هذا وأني لم أدخل مدينة

---

(١) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

عظيمة قوية البركة عظيمة في الزيارة لاحتوائها على طبقة العلماء المؤلفين واشتمالها على أهل الترجيح من المجتهدين كالإمام المازري وابن يونس وغيرهما فإن الوفود تأتي إليها من كل جانب وهي مدينة علم وبركة عظيمة.

وقد نقلنا من بعض المؤلفات ما نصه ويقال أن بإفريقية بلدة يقال لها المنستير مشهورة البركة غير أني لم أدخلها قط ورجوت الله أن لا يحرمني من بركة أهلها وأن يدخلني إليها مع النية الصالحة والهمة الرافعة وقد زرناها من بعد فظعنا من سوسة وبتنا قرب الحمام من غير دخول إليه ثم ظعنا منه ونزلنا في عمارة دون حمام الأنف وظعنا منه ثم مررنا بحمام الأنف عند الضحى فتحممنا فيه بنية التبرك والشفاء من كل سقم ووصم دينا ودنيا وحرارة مائه وسَخَنة من غير سبب حسي وإنما هو من الله تعالى ليس إلا.

وقد سمعت أن بعض الناس يحكي عن بعضهم أن الجنون التي أمرها سليمان عليه السلام بتسخين الماء فلم يستطيعوا خلافه غير أنهم لا يسمعون ولا يرون فظنوا بقاءه إلى الآن والذي رأيته في التفسير أن الجنون استمروا على العمل بعد موت سليمان سنة فعلموا به وتركوه أي العمل وهذا الحمام في غاية الإتقان فيه موضع معد للنساء وموضع آخر معد للرجال وهما مستوران.

نعم هو معلوم البركة والشفاء فتجد أهل العلل فيه دائما لا يخلو عنهم وقد سكن فيه بعض الناس غير أنه كثير الفتنة من كثرة النساء وهن يرعن من فتن نعم تونس من لم يكن على حذر فيها من النساء زل في مهواة الضلال وسقط في مفازة الهلاك فلما غسلنا واغتسلنا وقضينا وطرنا منه ذهبنا إلى تونس فنزلنا خارج السور قرب مقر العسكر واستقراره ونزوله أعني برجهم المعلوم وهي القصبة تحت المدفع قرب الشيخ الغوث الولي الصالح سيدي عبد الله الشريف أفاض الله علينا من بركاته وكان لنا

ولذريته بجاه محمد وآله آمين يا رب العالمين.

ذكر وصولنا إلى تونس

حاصله خيمتنا نزلت مع الركب وفيها أصحابنا وأنا قد ذهبت إلى الدار التي نزل بها ولدي مع زوجته حين خرجوا من البحر ينتظرون وصولي فقام الناس في تونس أعني الراغبين في الخير لضيافتنا بالكسكس واللحم كثر الله خيرهم بحيث تكرموا علينا غاية الإكرام وزادوا على المعتاد بشيء كثير حتى عم ركبنا وفضل داخل المدينة وخارجها.

نعم الشيخ البركة والمنور القدوة الشيخ الوحداني، والفيض(١) الصمداني، سيدي محمد الغرياني، زاد في الإكرام، بحيث خالف العادة في الإكرام، وقد أخرج كذا وكذا مائدة أغناه الله غناء الدارين وجعل البركة في ذريته.

حاصله أقبل الناس من كل ناحية بالإطعام والإكرام ما دمنا نازلين بتونس ثم إن أكثر العلماء والصلحاء ومن فيه رائحة خير يأتون بالطعام إلى دارنا ثم يذهبون بنا إلى بيوتهم قصد نزول البركة في محالهم من جميع من فيها حرسها الله آمين.

ومن اجتمعنا معه في بيته الفاضل الكامل، المفتي الحافظ الناقل، الفقيه السيد ابن محجوبة(٢) والعلامة الفاضل ولده محبنا سيدي محمد وهو ممن له زائد اعتقاد فينا، وعلى الدوام معتينا بجانبنا، وممن اجتمعنا معه أيضا الكامل على الإطلاق، الأديب بالاتفاق، ونظيره قليل عزيز، سيدي حمودة بن عبد العزيز، وقد أكرمنا أيضا وكان أبوه أيضا شيخنا سيدي محمد بن عبد العزيز وكان من المحققين وممن اجتمعنا معه من الحنفية الذي علت همته، ورفعت منزلته، وتحققت خصوصيته، العالم الفاضل الأديب

---

(١) في نسخة القطب.

(٢) في نسخة محجوب.

النحوي اللغوي المحدث سيدي حسن الترجمان.

وممن اجتمعنا معه أيضا وكان من الفضلاء والنجباء والأخيار العلماء محدثا فقيها نحويا أصوليا بيانيا منطقيا سيدي الكبير الشريف ومنهم أيضا الفاضل الفقيه النبيه الكامل المحدث الأصولي الكلاميين النحوي الناسك المجتهد سيدي أحمد بن عبد الصادق.

ومنهم من له التصرف الكامل والبسط الجليل المحقق والعلامة المدقق ذو الأبحاث الشريفة والنكت المنيفة والفوائد الظريفة والأدبيات المستظرفة المعقولي على الإطلاق سيدي صالح الكواشي(١) ومنهم الفقيه العدل والمحقق الفضل ذو الفضائل والفواضل المقبل على الله سيدي ناصر القابسي ونجلاه الفاضلان الأديبان الكاملان سيدي محمد وأخوه سيدي (٢) ومنهم الفاضلان الجليلان العالمان المتمسكان بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدي محمد الوسط وسيدي أحمد نجلا شيخنا وثمرة فؤادنا سيدي عبد الله السوسي [ومنهم النحوي (٣) اللغوي الفاضل النصوح سيدي أحمد السوسي](٤) ومنهم الحافظ الفقيه النزيه النبيه الخلاصة المرتضى والعالم الخالص الأحظى محبنا سيدي أحمد التجاني ومنهم الكريم على الإطلاق والفقيه بالاتفاق سيدي محمد المغربي.

ومنهم أيضا صاحب الأوراد، ذو الفضل والمدد والأمداد، المجد والمجتهد المعتني للاستعداد، المنور الزاهي، سيدي أحمد الباهين وكذا الفاضل ولده، والكامل

---

(١) في نسخة الكواش.

(٢) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

(٣) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

(٤) ما بين القوسين ساقط في نسخة.

الذي تهو فؤاده، الشيخ إسماعيل ومنهم الفقيه النبيه الجليل المحب سليل الأخيار ونخبة المتقين المقربين ذوي الأنوار سيدي نصر[١] وأما غير هؤلاء من العلماء فكثير والصلحاء والطلبة والفقراء وأهل النسبة والدين مما لا يحصى ضبطا فكثير وكذا العلماء وأهل الدولة فأوصافهم تجل عن العد والإحصاء وكذا المجتمعون في جامع الزيتونة للإقراء والتدريس فتقصر العبارة عنهم وعن عدهم[٢].

نعم الذي يأخذ العلم الظاهر من غير سلوك للطريق الجادة بأن يأخذ ما يتعلق بالحرف الدنية[٣] والصنائع الخسيسة من غير تمكين في الباطن كثير جدا فهي أما زندقة، أو دعوى غير محققة، فإن الجامع المذكور قد انتشرت عليه الأنوار، وانبسطت عليه الأضواء والمعارف والعلوم والأذكار، كاد أن يكون جامعا للفنون ومحتويا للعلوم فما أحسنه من جامع أكرم به الطلبة الباحثين فشمس أنوار الفهوم فيه مشرقة، وفوائده وعوائده محققة ومدققة، فهو جنة العارفين، وخلوة للمتعبدين الناسكين، ومزارة للراغبين المشتاقين، فالذائق لطعم الإيمان فيه لا يشتهي طعاما ولا شرابا ولا نكاحا لا تقر عينه إلا بتلك الأزهار، وتتفكه بأحسن الفواكه وألذ المشتهى من تلك الثمار، إذ فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين من محاسن العزيز الجبار، لا فيه غول من أسباب الدنيا، ولا نصب من العوارض والقواطع من المراتب العليا.

نعم أن سلاطين تونس وأمراءها وأصحاب الدولة فيها صرفوا هممهم إلى العلم وأقاموا منائر عزه فبنوا المدارس وأوقفوا الأحباس، وأعزوا العلماء وأغنوا للدرس الجلاس[٤]، فأسهموا كلا على قدر همته واشتغاله فإذا كان كل شيء على أصله وفصله

---

(١) في نسخة ناصر.

(٢) في نسخة وعن أوصافهم.

(٣) في نسخة الدنيوية.

(٤) في نسخة وعزوا من العلماء وفي نسخة وأغنوا بالدرس الجلاس فليحرر.

ومنواله فمن لم يصبه منهم كثير وصل إليه نزر قليل لمثل العلم فليعمل العاملون فمن تمكن من تونس ووجد معينا على العلم تعليما وتعلما بأن ساعده الزمان والإقبال فرجع من غير قضاء وطره . [1] انتهاب والانتحال[2] لا سيما إن وجد من يخشى الله ويتقيه وكان محققا للعلوم ومدققا للفهوم ناصحا للضعفاء من الطلبة فليشد يده عليه من غير عجلة بل يتوانى حتى تحصل له الملكة القوية في كل العلوم.

حاصله تونس نعمة لمن أقبل على الله واشتغل بما يعنيه علما وعملا وحالا فلا[3] يطمئن الصادق فيها من الوصول إلى الله تعالى وبلوغ المأمول لأن الإعانة في المعالي على حسب مخالفة النفس وشهواتها لا سيما موضع كثرت فيه اللذات وتواترت فيه الطيبات على قدر نبذها وطرحها من القلب تسرع إليه الإجابة بالوصول إلى مرضات المولى فيزول الحجبا عنه مقدار طرفة عين إذ الصديق من كثرت أعداؤه وشهواته فلم يبال بها.

نعم ولذلك كثرت فيها البله الذين لا يهتمون بأنفسهم ولا يميزون الجيد من غيره لغيبتهم عن حسهم فسلب الله لهم ما يجنون به على أنفسهم من عقل التكليف فلم يبق لهم إلا عقل التعريف فترى أهل العلم يتزاحمون ويتراكمون لديهم فيستمعون الإشارة منهم فضلا عن العبارة لديهم وقد شاهدت منهم أمرا عظيما.

وبالجملة فالعالم العامل أو صادق التوجه من الطلبة منور دائما مقبول عند الخاصة والعامة وأما من له حرفة بعلمه وغرض دنيوي لا سيما أن لاحظ الزنا واللواط فهو مكسوف الأنوار منعكس الحقائق في هذه الدار وفي تلك الدار فعلمه

---

(١) بياض ولم ينبه عنه في نسخة وفيها بدل انتهاب وانتحال فذلك محروم.
(٢) بياض ولم ينبه عنه في نسخة وفيها بدل انتهاب وانتحال فذلك محروم.
(٣) في نسخة بإسقاط فلا.

وبال عليه ونقمة من الله لديه وهذا اشتغاله بالعلم ليقال فقد قيل وإنما يسحب على وجهه للنار[1] إن لم تفضل الله عليه بالمغفرة لأن العاصي من المسلمين في مشيئة الله تعالى فلا ينفذ فيه الوعيد حتما لأن القدر الذي ينفذ فيه الوعيد حتما من الموحدين قدر مبهم[2] فيجب على كل مكلف اعتقاده.

تنبيه تونس قريبة الاستبا [3] طاعة ومعصية لكثرة أهلها وتيسير أسبابها فلا ينبغي لضعيف العقل وإن كان شابا أو صغير السن استيطانها ولا التغول في استقصاء أسواقها وحماماتها ودكاكينها بل ولا مقابرها فإن الفتنة قد عمت جميع محالها وتشعبت مواضع الخير بها فبدلت والعياذ بالله بالشر حتى استنكف أهل الجرائم عن مخالطة من سلم منها فتجده مشتت الذهن طائش العقل غائب القلب متحير الفكر ليلا ونهارا فعنوان قراءته في الظاهر فقط ولو وصلت إلى الباطن لأثرت فيه الخشوع والخشية لله تعالى إذ العلم إن قارنته الخشية فهو لك وإلا فعليك لكن ليس من شرط العلم العمل إذا العلم شريف والجهل مذموم وقد قال تعالى: ﴿ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ فمن وفق إلى العلم وفق إلى العمل لا تترك العلم لأجل عدم النهوض إلى مقتضاه فلينهض إلى لأن التوفيق إلى العلم والهداية إليه نعمة وأي نعمة أشرف منه فكل عمل بر بالنسبة إلى الجهاد كبزقة في بحر وعمل البر والجهاد بالنسبة إلى العلم كبزقة في بحر وقال صلى الله عليه وسلم الناس عالم ومتعلم وغيرهما همج وقال صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما وغير ذلك من فضائل العلم ولولا العلم وأهله لصب البلاء على تونس صبا لظهور المعاصي فيها من غير نكير غاية من مر على أصحابها يقول اللهم ألطف بصاحبها

---

(١) في نسخة في النار.

(٢) في نسخة قدر حرسهم.

(٣) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة قريبة الاستحصال طاعة إلخ.

وأرزقه الهداية أو كلاما هذا حاصل معناه.

وقد علمت أن العالم إذ رأى منكرا ولم يغيره فعليه لعنة الله[١].

نعم لتغيير المنكر مراتب أقلها تغيير القلب ولا بد من وجوده من هؤلاء الفضلاء حاصله نور العلم والطاعة على أنواعها أخمدت ما فيها من نار المعاصي رحم الله الجميع بمنه وكرمه وعلى قدر كثرة الناس يكثير فيهم المطيع والعاصي وقد رفع الله المسخ لوجود الذاكرين والمستغفرين منهم وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ الآية فإذا تمهد هذا فاعلم أن الذي تأنست به هو الفاضل العالم الموفق المنور حسن الخلق والخلق لا يسأم الإنسان من مخالطته ولا يمجه بطبيعته تعلوه البشرى إذا توجه إليك إذا ما خامر قلبه فعلى وجهه يلوح آثاره أَسِرَّتُهُ تدل على سريرته ينطق بالحق إذا تكلم فهو من أهل النصيحة والوفاء سيرته سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم رحمة لأهل زمانه وغيث في أوانه كريم النفس سخي الطبيعة لا يدوم إذا غضب فيرجع إذا استرجع آئس مما في أيدي الناس لا رغبة له في الدنيا إلا ما يعمر وقته بحيث لا يشغله عما هو فيه من بث العلم لمستحقه رحمة لابن السبيل ومحل للضعيف والغريب اعتقاده كامل في جميع المسلمين لا سيما من تحققت له الخصوصية وثبتت له الفضيلة والمزية فقد انسلخ عن جميع البشريات بانعكاسها روحانيات فهو بشر في ظاهره روحاني في باطنه إذ غاب عن الأكوان بمشاهدة المكون فكل ما يخرج منه دواء بلا لبس[٢] وإخلاص بلا عوض ليته ظهر بسرّ الأسماء والصفات.

وبالجملة ففضل الشيخ الغرياني علما وعملا وحالا وقبضا وبسطا وهيبة وأنسا

---

(١) في نسخة فهو ملعون.

(٢) في ثلاث نسخ نسخ دواهو بلا نفس.

وخوفا ورجاء وإجلالا وتعظيما ما عظمته الشريعة كثير لا يكاد يخفى على أعدائه «والحسن ما شهدت به الأعداء» وهو فقيه محدث نحوي تصريفي منطقي أصولي متكلم عروضي مفسر ليس فظا غليظ القلب وهو أيضا رحيم للأمة المحمدية لا سيما غرباء الطلبة يأخذ بيد الضعيف فإذا استغنى اندره وجحده غايته يقر بصلاحه وأما علمه فيجحده وهو كما قال الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد[1] ساعده رماني

وهذا شأن خبثاء الطلبة ولذا لم يظهر عليهم سر العلم ولا نور الولاية فتجد أكثرهم مكسوف الأنوار يخبط خبط عشواء، ويركب متن عمياء، فلم يقع للعلم أثر ولا للحكمة نور، ولا لفهمه طائل ولا نشور، وإنما يتجاذبون الألفاظ والأوضاع، وهم عن حضرة الله بالانقطاع، وما تخفي صدورهم أكبر وهذا معلم في جميع البقاع، ولو تراهم لقلت أنهم شياطين، في صورة العلماء العاملين، وإنما هم شياطين الإنس[2] يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا وانه علم ينتفع به فليس ثم إلا تلبيس وفتن، وتخليط ومحن، فاللسان لسان العلماء، والفعل فعل[3] المردة العظماء، إياك وصحبة من هذا وصفه فإن ضره أكثر من نفعه، وجره للفساد أكثر من رفعه، فلا تكن معمولا لهذه العوامل التي تقطع عن الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما العلم وسيلة إلى الوصول إلى الله وعامل في رفع النفس والهمة إلى حضرته وإلا خرج في سلك[4] أهل دائرته والوصول إلى التخلق بأخلاق[5] المقربين من أخيار أمته فأكرم

---

(١) كذا في جميع النسخ وقد رواه اللسان استد بالسين المهملة من قولهم استد الشيء أي استقام.
(٢) في نسخة زيادة والجن.
(٣) في نسخة والعمل عمل.
(٤) في نسخة وان لا تخرج في سلك وفي اخرى وإلا تخراج في سلك وأخرى والأخراء في سلوك فليحرر.
(٥) في ثلاث نسخ بأوصاف.

نفسك بتحقيق ما عليهم ثم اكسها بكسوة أسرارهم فإنهم بشر لا كالبشر من حيث الصفاء، والأخذ بالوفاء، والتخلق بالرحمة وعدم الجفاء، فإن الشيخ حقيق به هذه الأوصاف بلا خفاء.

فإذا علمت هذا علمت أن الشيخ تضلع من علم الشريعة وتمكن من علم الحقيقة كما يليق الله جعلنا الله من أهل وده وهو صدوق لنا والحمد لله على صحبة مثله ومعرفة نظيره فإن مثله يكون شفيعا مثلنا.

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الزمان

كان الله لذريتنا ولذريته وللآخذين عنا والآخذين عنه بهذه الأوصاف الطيبة وأمدنا وإياهم بإمداده الوهبية الربانية اللدنية الفردانية آمين آمين آمين يا رب العالمين.

على أن[1] شيخنا المحقق والعلامة المدقق الفقيه الأصولي النحوي المنطقي المتكلم الفرضي المحدث المفسر العروضي العبقري الهمام ذا الفضائل والفواضل المتصوف الزاهد المتخلي عن الدنيا الشاكر لفقدانها المشتغل بالله المقبل عليه المدبر عمن سواه القامئ بسنة نبيه الراغب فيمن تخلق بأوصاف المتقين الناصح لعباد الله العاجزين وهو ممن يصح الاقتداء به نظيره[2] سيدي عبد الله السوسي فكلاهما من فحول الرجال وقطبي[3] الكمال انفعلت سريرة أشياخهما فيهما وظهر فضلهم عليهما وأنبسط سرهم على أنفسهما فلا يبغضهما إلا شقي ولا يحبهما إلا سعيد تقي وق تفضل الله علينا بمعرفتهما وصحبتهما.

---

(١) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة ومثله.

(٢) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة لا نظير له.

(٣) فيها أيضا وقطب.

وكذا معرفة الفاضل الكامل العدل المقبل على الله بجميع شراشره المتبتل إليه بكليته المنيب إلى الله بجميع شئونه المتعبد على الإطلاق فلا يهمل أوقاته فإنه يعمرها بما ورد عنه صلى الله عليه وسلم تعميرها من ذكر وصلاة وتلاوة قرآن وتهجد وصيام فلا تراه إلا مقبلا على الله مطمئنا بذكره لا يفتر عن طاعة الله السخي بنفسه القوي بأنسه لا يبخل بالطعام وهو كريم لجميع الأنام صدوق في المحبة موف بشروط الأخوة يزيد في النسك والعبادة والتزود بزاد الأخرة وهو في غاية الخوف والمراقبة كرمت نفسه أن تسأم عن طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبة أهل الكمال من خيار الأمة المحمدية لا يعامل الكل إلا بصدق المحبة يغيث المضطر عند اضطراره ويؤثره على نفسه وعياله وأولاده ومن تجب نفقته عليه وقد تداين كثيرا أنفقه في محبة الله ومرضاته واستعان به على إطعام الطعام في مقامه وزاويته وهو مشهور في أهل قربه وولايته لا يستطيع أن يصد عن مكروب وملهوف في محنته سيدي محمد بن الحاج نجل البركة القدوة والرحمة للأمة والنعمة العظيمة سيدي أحمد المجذوب نجل الشيخ البركة سيدي عمر العجيسي ثم الزموري من مدشر بو عزيز قرية من قرى بني فرفان من وطننا نعم أن رأيت في فائق الأشراف أن عجيبة شرفاء والله اعلم.

ولا شك أن أوصاف الشيخ سيدي أحمد المجذوب وأولاده لا تكون إلا في الأشراف فإنهم في غاية الكرم أورث الله مقامهم لأولادهم بمنه وكرمه والفاضل سيدي عبد الرحمن قام مقام أبيه بلا شك في الله أنه يجعل البركة في جميعهم أكثر من أسلافهم وقبر سيدي أحمد المجذوب معلوم مشهور يزار له حرمة عظيمة عند ملوك إفريقية وأمرائها في جبل ماطر.

وبالجملة فيها من الأحياء والأموات ما لا يحصى ولا يعد، ولا يضبط ولا يحد، لا

سيما البله من أهل الإشارات فإنهم غابوا عن إحساسهم فلم يجدوا لأنفسهم أثرا، ولا لعقولهم خبرا، فلا تكليف عليهم، ولا حكم لديهم، إذ لا يحكم لهم ولا عليهم فإن عقولهم قد زالت بحقيقة ألاهية، لا أمور وهمية، ولا ماهية شيطانية، فإنهم غابوا في ذات المكون فلما تجلى لهم تلاشى كل شيء سواه عندهم فلم تبق لهم حركة تمييز، ولا أمر عزيز، فنفوسهم انتن عندهم من الجيفة بل طباعهم طبائع البهائم تراهم في المزابل والأسواق والأزقة ممتهنين محفورين لا ينظرون، وفي المهمات لا يشاورون، طبائعهم مناقضة لطبائع العقلاء فلا تجد أحدهم إلا منبوذا مطروحا ساقطا من أوباش الناس تكره نفوس أهل المروءة أن تنزل بساحتهم وتتعلق بأذيالهم وتتحاشى أن يكونوا في مجالسهم وهم أمناء لهذه الأمة لولاهم لوقع المسخ والعذاب غير أن الله تفضل علينا بهم وإن كان لا نفع فيه بحسب الظاهر إذ لم يبثوا علما ولا نشروا فهما ولا أصلحوا فسادا ولا درؤوا ضرا ولا جلبوا نفعا فإنهم عالة على الخلق معيشتهم تأتي بلا كلفة أفاض الله علينا من بركاتهم وسقانا من بحر فضلهم وجودهم فكملت لنا السعادة برؤيتهم والاجتماع بهم.

هذا وأن أولياء الله في تونس كالنجوم الأموات والأحياء وقد زرنا من يعتد بزيارته من الأموات كالأشياخ محرز بن خلف وسيدي علي بن زياد والشيخ المرجاني وما كان في الزلاج كابن عبد السلام وابن عرفة والبُرْزُلي وابن هارون وابن راشد القفصي ومغارة الشاذلي ومحل الأربعين من أصحابه وغيرهم من العلماء والصلحاء ممن لا يمكن أحصاؤه من المؤلفين وأرباب الأحوال العارفين.

وكذا زرنا الشيخ سيدي أبا سعيد الباجي والشيخ الغبريني ثم سيدي علي الحطاب وسيدي سالم الدباس[1] وأصحاب الشاذلي الظاهرين، وغيرهم من الأشياخ

---

(١) في نسخة التباسي.

والمريدين، وهؤلاء سلاطين البلاد، وعليهم في جميع الأمور يعتمد.

وكذا زرنا الفاضلة الصالحة المنورة التي يستجاب الدعاء عندها السيدة المنوبية وكان شيخنا سيدي عبد الله السوسي يزورها كثيرا ويغتنم بركاتها ليلا ونهارا أعاد الله من بركاتها وبركاتهم علينا وعلى ذريتنا وعلى جميع من تعلق بنا من الطلبة والجيران وكذا جميع الأصحاب والإخوان.

حاصله لا يمكن استقصاء ما فيها من النجباء والفضلاء والصلحاء ممن اجتمعنا معه وأجزنا بالأذكار والعلوم أيد الله الجميع بمنه وكرمه.

وقد مكثت فيها نحو خمسة أشهر ونيف وأنا في تعمير الأوقات بتدريس الفنون وضبط القواعد من العلوم فإن تونس قاعدة من قواعد العلم، ومدينة من مدن الفهم، غير أن أهلها ينكرون البراني، بلغ ما بلغ في القرب والتداني، فإن ما وقع بالإمام ابن مرزوق منهم أعني الأبي وغيره دائم فيهم إلى الآن أزال الله منهم ذلك، وطهرهم مما هنالك، من التنافس والحسد والبغض وحب الرياسة وعلو الصيت والأغراب على الأقران والأدعاء والتطفيف في الاعتقاد بأن يعتقدوا في أنفسهم الكمال وفي غيرهم النقص والتزخرف بالزخرف الغار والتلهي بالملاهي والخوض في المهلكات من الموبقات التي هي الكبائر والمسامرة في المبطلات والاشتغال بما لا ينبغي من الفضولات آمين يا رب العالمين.

وبالجملة فإن تونس خيرها عظيم، وحالها كريم، ووصفها نعيم، وطبعها نسيم، حلوة المذاق، عزيزة الفراق، كثيرة الاشتياق، قوية الأسواق، ممدودة الأرفاق، واسعة الإنفاق، جالبة الأرزاق، كثيرة الفواكه في جميع الأوقات بلا كلفة ولا مشاق، جامعة لأجناس الخلائق، فيها جميع الأصناف من أهل الحقائق، روضة للمطيع والعاصي،

والرحيم والقاسي، والمتيقظ والناسي، لكل أحد جليسه، ولكل محب أنيسه، فما تشتهي بين يديك، فزت فيها أن انتهيت عن حديك، وإلا طرحت في مزابل نفسك، وهوان جسدك وعهدك، فلا توافق فيها أمر نفسك وضدك، وإلا هلكت بقرينك وندك، كريمة للكرماء، طيبة لذوي الخشية من العلماء، مهلكة للفسقة والظلمة من الأرض والسماء، فلا تعجب من نَمِر ودها، ولا تفرح بسعودها، ولا تعتمد على جدودها، ولا تفتتن بحسن خدودها، ولا تغتر برشاقة قدودها، ولا تستحسن ما كان من قواعدها، فإن ذلك كله غرة، وبلية وضَرَّة، ومع ذلك لا تخلو عن بعض العدل إلى قيام الساعة كما أخبرته غير واحد من العلماء.

وقد قال صاحب الأدلة السنية النورانية على مفاخر الدولة الحفصية ما نصه:

الباب الثاني في التعريف بمدينة تونس وما يتصل بذلك: وهي مدينة إسلامية أحدثت عام ثمانين من الهجرة وكان أبو جعفر المنصور العباسي إذا قدم عليه رسول أمير إفريقية[1] يقول ما فعلت إحدى القيروانين يعني تونس تعظيما لها وهي اليوم قاعدة البلاد الإفريقية وأم بلادها وحضرة السلاطين من الخلفاء الحفصيين ومهاجر أهل الأقطار من الأندلس والمغرب وغيرهما فكثر خلقها واتسع بشرها ورغب الناس في سكناها وأحدثوا بها المباني والكروم والبساتين حتى بلغ ذلك النهاية حتى لا يوجد في غيرها وبينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام وبينها وبين البحر نحو أربعة أميال وبينها وبين قرطاجنة نحو عشرة أميال وبين تونس ومرساها بحيرة[2] يقال أنها كانت كثيرة الجنات والمياه والزروع [3] طيبة الفواكه فغلب عليها ماء البحر.

---

(١) في ثلاث نسخ رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) في نسخة جزيرة.

(٣) بياض في نسختن ولم ينبه عنه في غيرهما وفي نسخه بإسقاط الزروع وفي ثلاث نسخ الزرود وجملة العبارة موجودة في كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص٦.

ولمدينة تونس سور يدور بها ويقال أن دورها أربعة وعشرون ألف ذراع وجامعها مليح الصناعة حسن الوضع مطل على البحر بناه عبيد الله بن الحجاج هو ودار الصناعة سنة أربع عشرة ومائة وأنفذ إليها البحر وتونس في سفح جبل.

قالوا وهي دار علم وفقه وعلى نحو عشرة أميال منها نهر مجردة وهو على الطريق إلى المغرب ويقال أن من شرب منه قسا قلبه فأكثر الناس يجتنبون الشرب منه وسميت تونس لأن المسلمين كانوا لما افتتحوا إفريقية ينزلون بإزاء صومعة ترشيش ويأنسون براهب هناك فيقولون هذه تونس فلزمها هذا الاسم.

ونزل عليها عبد المؤمن بن علي سنة أربع وخمسين وخمسمائة فحاصرها ثم دخلها عليهم واختلفت عليها ولاة الموحدين إلى أن نزل عليها علي بن إسحاق الميورقي فحاصرها ثم ملكها وغرم أهلها مائة ألف دينار وعنف نوابه الناس في تقاضيها ثم أخرج عنها لما بلغه تحريك صاح المغرب إليها أبي عبد الله محمد بن يعقوب المنصور وولى عليه الهزائم كبير أصحابه المولى أبو محمد عبد الواحد المرة بعد المرة.

ومن تونس الشيخ علي بن زياد الفقيه صاحب مالك بن أنس رضي الله عنه وقبره بداره بباب المنارة ومنها الإمام العابد محرز بن خلف ذو المناقب الشهيرة وقبره بداره بداخل باب السويقة ويقال أن من تونس تقصم الجبابرة وينشد على ذلك شعر:

وكل جبار إذا ما طغى ... وكان في طغيانه يسرف
أرسله الله إلى تونس ... فكل جبار بها يقصف

ودور بحيرتها أكثر من أربع وعشرين ميلا وفي وسطها جزيرة تسمى شكلي في مقدار ميلين تنبت الكلخ وفيها أثر قصر خرب وتونس في سفح جبل يسمى أم عمرو بقبلي مدينة تونس جبل يعرف بجبل التوبة ما ينبت شيئا وهو المسمى اليوم بجبل

الزلاج ويقال أن القرية التي استطعم أهلها مدينة برقة وعن بعضهم أنها الجزيرة الخضراء وعن بعضهم الأيلة وبالقرب من رادس وادي ميلان وعليه القنطرة الشهيرة ضخامة واتساعا والتونسيون يزعمون أنها بنيت من مال رجل من المغرب كان يتكفف الناس ويتصدقون عليه ولا يعلمون حاله وسعة ماله إلى أن توفي فوجدوا له مالا ممدودا فأمر المولى أبو زكرياء رحمه الله أن يصرف في بنائها فابتنيت منه اهـ.

وقد قال أيضا ما نصه:

الباب الأول في حد المغرب وإفريقية وما ورد في فضلها: وذكر أهل التاريخ في كتبهم أن حد المغرب من ضفة النيل التي تلي بلاد المغرب إلى مغرب الشمس وحده مدينة سلا ينقسم أقساما فقسم منه من الإسكندرية إلى مدينة طرابلس إلى حد بلدة قسطيلية وهي التي يقال لها إفريقية ويلي هذه البلاد المذكورة من الزاب الأسفل المذكور وحد هذه البلاد مدينة تيهرت ويليها بلاد الغرب يقال أيضا أنها مدينة طنجة بل بلادها وحدها إلى آخر المغرب مدينة سلا وبلاد الأندلس من المغرب وداخلة فيه لاتصالها به [1] الأعظم الذي يسمى بحر الزقاق وحد إفريقية من مدينة طرابلس إلى مدينة طنجة.

ومدينة طرابلس مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر يضرب في سورها ماء البحر وهو من حجر جليل من بناء أول[2] ومن طرابلس إلى جبل نفوسة ثلاثة [3] ومن جبل نفوسة إلى القيروان ستة أيام.

---

(١) بياض في ثلاث نسخ وفي نسخة ويحيط بها من جهة البحر الأعظم.

(٢) في نسخة الأول.

(٣) بياض في ثلاث نسخ وفي نسخة مراحل.

ومدينة طنجة مدينة بالمغرب قديمة على ساحل البحر فيها آثار كثيرة كبيرة وبينها وبين سبتة في البر ثلاثون ميلا وفي البحر [١] وأول من افتتحها عقبة بن نافع وقتل رجالها وسبى من فيها وهي على شاطئ بحر الزقاق على القنطرة المعروضة إلى ساحل الأندلس التي لم يكن في العالم مثلها وكانت تمر عليها القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس فلما كان قبل فتح الإسلام طغي ماء البحر وزاد وخرخ من بحر المحيط إلى بحر الزقاق وأغرق هذه القنطرة وكان طولها اثني عشر ميلا واسعة المجاز اليوم في موضعها ثلاثون ميلا وتبدو هذه القنطرة لأهل المراكب يتحفظون منها ويقال أنها ستنكشف أخر الزمان وانه يجوز عليها الناس والله أعلم.

ومسافة ما بين طنجة والقيروان ألف ميل وهي طنجة البيضاء المذكورة في التواريخ وقيل إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله وإن ملوك المغرب من الروم وغيرهم [٢] من كانت دار مملكتهم والدليل عليه أن خراب طنجة إذا حفرت وجد فيها أصناف الجواهر.

وأما بلاد قسطيلية[٣] فإن مدنها مدينة توزر والحامة وقفصة ومدينة توزر هي أم مدائن قسطيلية وهي مدينة كبيرة عليها سور مبني بالحجر والطوب وفيها جامع محكم البناء وأسواق كثيرة حولها رياض واسعة فهي مدينة حصينة لها أربعة أبواب كثيرة النخل والبساتين والثمار إلا أن قصب السكر لا يصلح فيها وكذلك اللوز وحولها سواد عظيم من النخل وهي أكثر بلاد إفريقية تمرا وشربها من ثلاثة أنهار وتخرق من

---

(١) بياض في ثلاث نسخ وفي نسخة يوم وليلة.

(٢) بياض في ثلاث نسخ ولم ينبه عنه في نسخة بل حذف صاحبها لفظة من واوصل العبارة الموجودة بعدها بالتي قبلها.

(٣) في ثلاث نسخ وأما بلاد فلسطين قسطيلية.

الرمال كالدرمك رقة وبياضا ويأخذ[١] من مدينة توزر في بعض الأيام ألف جمل تمرا موقورة وأكثر فلا يعلم في بلد من البلاد مثل أثر حبها[٢] جلالة وحلاوة وبها الزنجبيل والمخبط [٣] ولا يعلم في قسطيلية إلا الرمال وسعر طعامها غال في أكثر الأوقات لأنه يجلب إليها وبينها وبين الحمراء مرحلة ووراءها صحراء في قبلتها لا يقدر أحد أن يدخلها.

ويقال أن بتلك الصحراء واديا يجري مجرى الماء من الرمل وهذا مستفيض وأهلها من بقايا الروم الذين كانوا بإفريقية قبل الفتح وكذا أكثر أهل قسطيلية ومنهم من العرب الذين سكنوها عند افتتاحها ومنهم من البربر الذين دخلوها في قديم الزمان عند خروجهم من بلادهم من فلسطين بالشام.

وأما ما ورد في فضل المغرب ما نقل عن سفيان بن عيينة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الشر عشرة أجزاء فتسعة بالمشرق وواحد بالمغرب والخير عشرة أجزاء فتسعة أجزاء بالمغرب وواحد بالمشرق وعن سفيان بن عيينة أيضا يروي أن بابا مفتوحا للتوبة مسيرة أربعين خريفا لا يغلقه الله تعالى حتى تطلع الشمس من المغرب وأن بالمغرب بابا مفتوحا للتوبة كما قيل رواية عامة وفي فضله قال الشاعر:

الغــــرب شيء[٤] عظـــــيم ولي دليــــــل عليــــــه
البـــدر يطلـــع منـــه والــــشمس تغـــرب فيـــه[٥]

---

(١) في ثلاث نسخ يخوض.
(٢) كذا في جميع النسخ ولعله أترجها أو اترنجها.
(٣) بياض في نسختين ولم ينبه عنه في غيرهما وفي نسخة بإسقاط المخبط ولعله المخيط كما في تذكرة داود الأنطاكي أو المخالطة كما في كتاب النبات والشجر للأصمعي وهو السبستان.
(٤) كذا في نسخة وفي ثلاث نسخ قصر.
(٥) هكذا ورد هذان البيتان هنا والمشهور:

وأما ما ورد في فضل إفريقية بما نقله الراوي قال روي عن عبد الله بن وهب مرفوعا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية في سبيل الله فلما رجعوا ذكروا شدة برد أصابهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن إفريقية أشد بردا وأعظم أجرا ويقال إن بإفريقية ساحلا يقال له المنستير المذكور شهر بالبركة وبإفريقية جبل يقال له (١) باب من أبواب جهنم وهذا الجبل هو المعروف بوسلات وفي الحديث يمر (٢) على ساحل إفريقية رجال حتى تسير الجبال بهم فيسمع دوي ويقال ما هذا فيرسلون من يختبر لهم الأمر فيرجع إليهم فيقال لهم هذه الجبال قد سيرت فيخرون لله سجدا فلا ينزع أطمارهم عنهم إلا أزواجهم من الحور العين وفي الحديث يحشر من إفريقية سبعون ألف شهيد وجوههم على صورة القمر ليلة البدر وعنه صلى الله عليه وسلم أن البرد الشديد والأجر العظيم لأهل إفريقية(٣).

وذكر القاضي زياد بن عبد المنعم(٤) قاضي القيروان في حديث رواه قال ينقطع الجهاد في آخر الزمان من البلاد ويعود إلى إفريقية وليضربن القبائل أكباد الإبل من جميع الآفاق إلى الجهاد بإفريقية لعدل إمامهم ورخص أسعارهم وذكر في حديث وليُبَاعَنْ بمصر قفيز بعشرة دنانير ثم ليباعن بخمسين دينارا من حرص الناس على الجهاد بإفريقية وكأني أسمع صرير المحامل على عتبة التيه إلى أرض إفريقية لطلب الجهاد والعدل فيها وليملكن أرض إفريقية رجل اسمه يوسف يعدل فيها اثنتين

الغــــــرب شيء ملــــــيح	ولي دليـــــــــل عليـــــه
البــــدر يرقـــــب منـــــه	والـــــشمس تجــــري إليــــه

كما في جذوة الاقتباس لابن القاضي.

(١) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

(٢) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة وفي ثلاث نسخ لمرا عوض يمر.

(٣) انظر هذه الأحاديث في معالم الإيمان لابن ناجي ج١ وص٣ ط. تونس سنة ١٣٢٠.

(٤) كذا في جميع النسخ.

وعشرين سنة.

ثم قال أيضا ما نصه:

الباب الأول في التعريف بأول من غزا إفريقية من الصحابة رضي الله عنهم وما يتصل بذلك: وأول من غزا إفريقية عمرو بن العاص ذكر الليث بن سعد[١] قال غزا عمرو بن العاص مدينة طرابلس وهي حد إفريقية على ما سبق سنة ثلاث وعشرين ونقل في سنة اثنتين وعشرين فنزل القبة التي على المشرف في شرقها فحاصرها شهرا لا يقدر منهم على شيء فخرج رجال من بني مدلج ذات يوم من عسكر عمرو يتصيدون في سبعة نفر فمضوا غربي المدينة حتى بعدوا عن العسكر ثم رجعوا فأصابهم الحر فأخذوا راجعين على ضفة البحر وكان لاصقا بسور المدينة ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور وكانت سفن الروم شارعة[٢] في مرساها إلى سور المدينة[٣] فنظر المدلجي وأصحابه فإذا البحر قد غاض وحصروا من ناحية المدينة ووجدوا مسلكا إليها من الموضع الذي غاض منه فدخلوا منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة فكبروا فلم يكن للقوم مفزع إلا إلى سفنهم ثم أقبل عمرو من جوف المدينة بجيشه حتى دخل عليهم فلم يفلت الروم إلا بما خف لهم في مراكبهم وغنم عمرو ما كان في المدينة ثم استشار عمرو بن العاص عمر بن الخطاب في غزو ملوك إفريقية فأبى عليه وقال له رد علي جيشي ثم غزاها بعده عبد الله بن أبي سرح كاتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

---

(١) في ثلاث نسخ سعيد وانظر هذه الحكاية في ص١٤٥.

(٢) في نسخة شاتية.

(٣) في ثلاث نسخ تميم.

قال الواحدي[١] عن عبد الله بن الزبير قال أغزانا ابن عفان إفريقية وبها بطريق يدعى بجرجير سلطانه من طرابلس إلى طنجة وأميرنا عبد الله [بن سعد] ابن أبي سرح وكان جملة من معه من المسلمين عشرين ألفا وكان جرجير في مائة وعشرين ألفا فالتقى المسلمون والكفار واضطرمت بينهما الحرب ومضاق بالمسلمين الأمر واختلفوا في الرأي عن ابن سعد فدخل عبد الله بن الزبير فسطاطه يفكر قال فرأيت جرجير على برذون أشهب خلف أصحابه منقطعا عنهم ومعهم جاريتان تظللانه بريش الطواويس من الشمس فأتيت فسطاط عبد الله بن سعد فقلت لحاجبه استأذن لي عليه فأبى وقال أمرني أن أحبس الناس عنه حتى يدعوني قال فدرت من وراء الفسطاط فرفعته فرأى وجهي فأومأ إلي بالدخول برأسه فدخلت وهو مستلق على فراشه يفكر ففزع من مدخلي فقال ما جاء بك يا ابن الزبير فقلت كُلُّ أَزَبَّ نَفُورٌ [٢] أي الأزب يظن كل شيء عدوا فهو شارد أبدا قال ما الخبر قال قلت رأيت غرة من عدونا فظننت أن تكون فرصة هيأها الله وخشيت الفوت فأخرج فأندب الناس فخرج فرأى ما رأيت فقال يا أيها الناس انتدبوا مع ابن الزبير فتسارعت جماعة فاخترت منهم ثلاثين رجلا من الفرسان وقلت لهم أني حامل فأحموا ظهري سأكفيكم ما أمامي إن شاء الله فحملت في الوجه الذي هو فيه ودبوا عني واتبعوني حتى خرقت الصفوف إلى أرض خالية [٣] بيننا وبينه فوالله ما حسب إلا أني رسول إليه حتى رأى ما في من أثر السلاح فثنى برذونه راجعا وأدركته فطعنته فسقط ورميت نفسي عليه وألقت جاريتاه عليه أنفسهما فقطعت يد أحداهما وأجهزت عليه ورفعت

---

(١) كذا في جميع النسخ ولعله الواقدي.

(٢) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة وفي نسخة ارب لي نفوز به قال ما الخبر وفي غيرها ارب وكل أزب نفور مثل من أمثال العرب ذكره الميداني وقال الأزب هو البعير الذي يكثر شعر حاجبيه فيكون دائما نفورا لأن الريح تضربه فينفر يضرب في عيب الجبان إلخ.

(٣) بياض في جميع النسخ ولم ينبه عنه في نسخة.

رأسه على رمح وجال أصحابه وحمل المسلمون في ناحيتي وكبروا فقتلوهم كيف شاءوا وثارت الكمائن من كل ناحية وسابت خيول المسلمين ورجالهم إلى حصن ارنيطلة[١] ومنعوهم من دخوله وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل والوعر فقتلوا انجادهم وفرسانهم وأكثروا منهم الأسارى حتى لقد كنت أرى في الموضع الواحد ألف أسير قيل له لما نزل المسلمون لقتال جرجير ابرز جرجير بنته وقد كانت من أجمل النساء فقال من يقتل عبد الله بن سعد فله نصف ملكي وأزوجه ابنتي فبلغ ذلك عبد الله بن سعد فقال أنا أصدق من العلج وأوفى منه بالعهد من يقتل جرجير فله بنته فقتله عبد الله بن الزبير فدفع إليه عبد الله بن سعد ابنته ويقال انه اتخذها أم ولد ابن الزبير.

وقيل لما نزل عبد الله بن سعد على المدينة فحاصرها حصارا شديدا حتى فتحها فكانت توضع بين أيدينا أكوام الذهب والفضة [فقال للأمارق[٢] من أنزلكم هاهنا فجعل رجل منهم يلتمس من الأرض حتى جاء بنواة زيتون فقال من أين هذا لأن أهل هذا البر[٣] ليس لهم زيت فكانوا يشترون منا وكان يسلم الفارس آلاف دينار ويسلم الرجل ألف دينار][٤] ثم قال لابن الزبير ما أحد أحق بالبشارة منك فامض فبشر أمير المؤمنين والناس فقال حبا وكرامة فقيل وصل من قسطيلية[٥] إلى المدينة في ثمانية عشر يوما وقيل في أربعة وعشرين يوما وانصرف العسكر بعد إقامته به ستة أشهر إلى مصر بعد أن صالحوا المسلمين على ثلاثمائة قنطار ذهبا يأخذونها منهم

---

(١) كذا في جميع النسخ.
(٢) في نسخة للاماريق وليحرر.
(٣) في نسخة البحر.
(٤) ما بين القوسين ساقط في نسخه.
(٥) كذا في جميع النسخ.

ويخرجون من بلادهم انتهى.

أقول أخبار إفريقية لا تضبط وفيها تواريخ لا سيما الأدلة البينة[1] النورانية على مفاخر الدولة الحفصية وكذا النبذة المحتاجة في ملوك صنهاجة ترى العجائب.

هذا وأني زرت فيما مضى مدينة ماطر وهي مدينة صغيرة ذات مزارع ويسكن في نواحيها العرب والبرابر من ناحية بجاية وجبالها والذي حذوها ودورانها هو المسمى بإفريقية وإلا فقد علمت حد إفريقية فيما سبق على أن عمالة قسنطينة من إفريقية إلى الجزائر إلى تلمسان ثم ما يحاذيها كلها إفريقية وكذا دخلت مدينة بنزرت فيما مضى وهي مدينة ظريفة طيبة شريف مليحة المرسى فيها بساتين لا سيما العنب وأنواع الفواكه وخير البر والبحر مجتمع فيها وأني زرت أيضا ولي الله على الإطلاق وصاحب البركة بالاتفاق، سيدي عبد الواحد مشهور بالزيارة، ومعلوم الصلاح والإنارة، أفاض الله علينا من بركاته، وجعلنا من أهل محبته وشفاعته.

وأني زرت أيضا تلك الجبال فان الناس يعتقدون فيها البركة كثيرا ولما مكثت في تونس مدة ثم جئت منها على أحسن الخيرات وأتم البركات نعم تركت أهلي هناك أخذا بخاطر من فيها من العلماء والصالحين ممن بالغوا في محبتي واشتياقا في أقامتي ناويا الرجوع إليها والتوطن فيها رغبة في نشر العلم وبثه لكثرة الآخذين فيها مع عدم الكلفة للطلبة الآخذين بخلاف وطننا فانه لا بد من كلفة الطلبة والإقامة بمؤنتهم وإلا انقطع مادة العلم غير أني أقول كما قال المأمون[2] حين بنى قصره بقرطبة المعلوم وصنع فيه جابية لم يسبق بمثلها ولما أكمله نام فأتاه آت في نومه وأنشد قائلا بيتين:

---

(١) كذا في جميع النسخ وقد مر في ص٦٦٩ السنية فليحرر.

(٢) المراد بالمأمون هنا يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة وقد بنى القصر المذكور بطليطلة لا بقرطبة حسبما ذكره ابن بدرون في شرحه على قصيدة ابن زيدون ص٢٧٧.

أتبنــي بنــاء الخالــدين وإنــما بقــاؤك فيهــا لــو عقلــت قليــل
أمــا كــان في ظــل النبــات كفايــة لمــن كــل يــوم يقتــضيه رحيــل[١]

فلما انتبه مرعوبا بكى بكاء عظيما وكان بارعا بليغا فأنشد يقول متمثلا لنفسه:

تــروح الليــالي بغــير الــذي غــدت وتحــدث مــن بعــد الأمــور أمــور
وتجــري الليــالي بــاجتماع وفرقــة وتطلــع فيهــا انجــم وتغــور[٢]
فمــن ظــن أن الــدهر يعطــي[٣] سروره فــذاك محــال لا يــدوم سرور[٤]
عفــا الله عمــن صــير الهــم واحــدا وأيقــن أن الــدائرات تــدور

ولم يعش بعد ذلك إلا أياما يسيرة.

ولما خرجت من توسن ودعني أكثر علمائها، وجم فضلائها، وعامة طلبتها، كالفاضل المحقق، والكامل المدقق، سيدي محمد الغرياني ومن لا يحصى عددا إلى سيدي عبد الله الشريف فاجتمعوا هناك فما أصعبه من فراق، وأضره من احتراق، فقد فقدت السلوى، لم أبث الشكوى، ولم أجد طبيبا بالدواء، إلا الصبر لذي[٥] القدرة

---

(١) في كتاب تنبيه المغترين للشعراني ط.مصر ١٣١٠ ص٤٦ عزا البيتين للشيخ عبد القادر الجيلي وروى مقامك عوض بقاؤك وروى البيت الثاني هكذا:

لقــد كــان في ظــل الأراك كفايــة لمــن كــان يومــا يقتفيــه رحيــل

وفي شرح ابن بدرون الأراك بدل النبات.

(٢) في كتاب المخلاة للعاملي ط.مصر ١٣١٧ ص١٢٦ ويطلع فيها النجم ثم يغور.

(٣) في العقد الفريد لابن عبد ربه ص٢٢٨ ط.مصر ١٣٢١:

ويطمــع أن يبقــى الــسرور لأهلــه وهــذا محــال أن يــدوم سرور

وفيه تقديم وتأخير في الأبيات.

(٤) في ثلاث نسخ يفضي وفي المخلاة باق.

(٥) في ثلاث نسخ لذوي.

والقوى، وما أحسن ما قيل:

وددت أن السبع البحار لي مداد   وأن جسمي دموعا كلها همل
لا تهدمنها وسيط ذلك الجبل   الهجر والبين والواشون والإبل
طلائع يتراءى بينها الأجل[١]

وقال الآخر:

ما راعني قط شيء مثل فقدهم   حتى اسقلت وسارت بالدمى الإبل
أني على عهد لم أنقض مودتهم   يا ليت شعري وبعد البين ما فعلوا

أقول لم استطع فراقهم غير انه لا بد من فراق، وإن كان في الفؤاد نار واحتراق، أيد الله الجميع بمنه وكرمه آمين وقد أنشد بعضهم فقال:

إن فتشوني فناحل الجسد   أو فتشوني فأبيض الكبد
ضعف وجدي وزاد في سقمي   إن لست اشكو الهوى إلى أحد
وضعت كفي فؤادي من   داء الأسى وانطويت فوق يدي
آه من الحب آه من كمدي[٢]   إن لم أمت في غد فبعد غد[٣]
كان على[٤] قلبي إذا ذكرتكم   فريسة بين يدي أسد

وقال الآخر:

ما اقتل البين للنفوس وما   أوجع فقد الحبيب للكبد

---

(١) كذا في جميع النسخ وفي نسخة بإسقاط طلائع يتراءى بينها الأجل.
(٢) في نسخة كف فؤادي بعقد غد.
(٣) في نسخة كمد.
(٤) في نسخة بإسقاط على.

عرضت نفسي من البلاء لها اضرم في[1] مهجتي وفي جلدي
يا حسرتي أن أموت معتقلا بين أعتلاج الهموم والكمد
في كل يوم تفيض معولة[2] عيني لعضو مات من جسدي

وقال الآخر:

وأرى المحنة ليسي ينفعها صبر ولا يفي بها الجلد

ويوم الموت أعظم منه وأعظم من الجميع يوم النشور وقد أنشد بعض فقال:

لو أنا إذا متنا تُرِكْنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنا إذا متنا بُعِثْنَا ونُسْأَل بعده[3] عن كل شيء

ثم سرنا بعد التوديع فمن واقف هنا ومن راجع بعد ومن مشيع لنا إلى سيدي علي الحطاب فبتنا عنده مع جمع كثير من تونس ومن تبربة[4] فكثر أنواع الأطعمة وأنواع الطبائخ بأن ذبح سبعة أكباش وثورا أهل تبربة ومن كان من أصحابنا من أهل تونس كثر الله خيرهم ووسع أرزاقهم بمنه وكرمه وأقول في نفسي وهؤلاء ما قال القائل (هو علي بن الجهم):

هي النفس ما حملتها تتحمل وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة وأكرم أخلاق الرجال التفضل[5]
ولا عار إن زالت على المرء نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

---

(١) في نسخة أضر.
(٢) في نسخة معزلة.
(٣) في نسخة بعدها.
(٤) في نسخة اتْبَرْبَا.
(٥) في الأغاني ج٩ وص١٠٤ وأفضل... التحمل.

وما المال إلا حسرة أن تركته ... وغنم إذا قدمته متعجل

وقال الآخر:

تحمل عظيم الذنب ممن تحبه ... ولو كنت مظلوما فقل أنا ظالم

فطوبى لمن أغفى من الليل ساعة ... سليم الفؤاد إن ذاك لناعم

فلما أصبح الله بخير الصباح ظعنا منه وودعنا من بات معنا وودعناهم والشوق يتزايد، والغرام يتعاهد، والصبر يتفاقد، فرجع الجميع إلى أن بقي الود الصدوق، والخل الفاروق، الحاج إبراهيم فودعنا ووصيناه على أهل دارنا وأكدنا عليه الوصية وأني تركت الصهر الفاضل والفقيه الكامل سيدي عبد الله بن رحاب وعمنا سيدي عبد العزيز ولذلك سكنت النفس، واطمأنت من كل فتنة الأنس، فاندفع حينئذ الضرر والبؤس، فانفصلنا عليهم أحسن الانفصال، والقلوب على أتم الاتصال، فلم يبق معنا إلا المحب الشيخ إسماعيل رحمه الله وغفر له والشيخ الفاضل والصالح الكامل سيدي الونيس ساروا معنا سويعات ثم بعد ذلك افترقنا وللقلوب ألتفاتات إلى الأحباب، وتقلب مع ضرب من الشوق إلى جميع الأصحاب، لكن الافتراق لا بد منه وقد قال القائل:

الله يعلم والدنيا مفرقة ... والعيش منتقل والدهر ذو دول

لأنت عندي وإن ساءت ظنونك في ... أحلى من الأمن عند الخائف الوجل

وكيف يفرح بالدنيا وزينتها ... والناس تحكم للأعداء بالإبل[1]

ثم سرنا كذلك إلى أن بتنا في تستور وهي قرية عظيمة تقرب من المدن الصغار، أهلها أهل سر واعتبار، وكرم وعز واقتدار، وفرح وسرور وابتشار، فأحسنوا إلينا،

---

(١) في نسخة بالأمل.

وتأدبوا لدنيا، وأجملوا ضيافتنا، وأحسنوها جزاهم الله عنا خيرا، ووقاهم بؤسا وضرا، وضاعت لبعض الأصحاب مكحلة صغيرة في الوادي فبعث شيخ البلد في استقصائها فردها من بعض الناس وأرسلها إلينا في مرحلة أخرى كان الله معهم وأقام الخير لديهم وجعل البركة في وطنهم كان كثير أهلها أهل الأندلس وأهل الأندلس مأمونون من الضر والقبح والبوس.

وهذه القرية لا سور فيها ذات بساتين ومزارع كثيرة وفواكهها[1] قليلة الوجود فلا نظير لها أبدا فمن رآها استعظمها وتعجب منها يستحليها الناظر، ويتمناها المقيم والمسافر، فلا يرضى بعد الخبرة بها أحد فراقا، بل يزداد المرء إليها اشتياقا، نعم الموت هاذم اللذات فالمقيم يسير به الموت، ويطلبه الأجل والفوت، وقد قال بعضهم:

ومن أعجب[2] الأشياء أنك قاعد ... على الأرض في الدنيا وأنت تسير
وسيرك يا هذا كسير[3] سفينة ... بقوم قعود والقلاع تطير
كذلك أيام الحياة بأهلها ... تمر وأمثال الرجال كثير
فلم يبق آثار لمن كان قبلنا ... يموت ويبقى مبعد وأثير
أتتهم مناياهم وصاروا إلى البلى ... ونحن بلا شك كذاك نصير

وقال الآخر[4]:

عش ما تشاء أليس الموت آخر ما ... ترجو ولا بد أن يأتي لك الأجل
هذا شبابك قد مرت بشاشته ... وفي انتهاز المنايا للفتى شغل

---

(١) في نسخة زيادة كثيرة.
(٢) في ثلاث نسخ عجب.
(٣) في ثلاث نسخ سير.
(٤) هذه الرواية مخالفة لرواية الثعالبي في العلوم الفاخرة ج١ ص١١٣.

كم قد مضى سلف في اثره خلف ... وكم مضت دول من بعدها دول

قضوا لباناتهم حتى إذا انقرضوا ... لم يبق إلا حديث كان أو مثل

فاندب حياتك يا رهن المهات فقد ... بدا بوفديك[١] آيات لمن عقلوا

ثم سرنا كذلك على أن وصلنا قرية تبرسق قرية ذات بساتين ومياه ومزارع كثيرة.

حاصله فيها زرع وضرع كثير وسوق في الأسبوع يأتي إليه الناس من بعد عامر ممتلىء فيه ما يباع كثيرا وقد لقينا ولد المحب في الله والأخ من أجله محب الصالحين والعلماء العاملين قائذ بنور قائد تلك القرية وأحوازها وما ينسب إليها وما عُدَّ[٢] منا غير انه هو في تونس وقدم ابنه على هذا المحل ونيَّبه[٣] عليه فبعث إليه لما أردنا السفر من تونس نعم أكرم نزولنا وأحسن إلينا في الضيافة إحسانا تاما وأعد لنا أجود الأطعمة وأطيب الطبائخ.

حاصله قام بضيافتنا قياما تاما وأحسن إلينا إحسانا كاملا من طعام وعلف إلا أني أصابتني الحمى وبت في مسجدها المعلوم الذي فيه الطلبة وأما أصحابي كلهم قد نزلوا في دار القائد وقد تأدب معنا غاية أحسن الله إليهم وحوى[٤] الخير لديهم آمين فظعنا منها صباحا بعد أن طلبنا الله له ولأبيه بدوام الخير والبركة والحفظ والغنيمة والسر في الذرية والأزواج والقرابة كان الله لنا ولهم بالعافية وعموم المغفرة والرحمة والعناية.

ثم سرنا كذلك إلى أن وصلنا إلى مدينة الكاف وهي مدينة متوسطة ليست كبيرة

---

(١) كذا في جميع النسخ ولعله بفوديك.

(٢) في نسخة قرب.

(٣) أي أنابه عنه.

(٤) في نسخة أجرى.

ALEXANDRINA
مكتبة

جدا ولا صغيرة فهي ملحية ذات مزارع كثيرة فهي حد مدائن تونس ولا مدينة بعدها وإنما هي الفصل بين تونس وعمالة الجزائر في زماننا هذا لأن قاعدة الملك مدينة الجزائر وقاعدة الملك تونس وغيرها من المدن إنما فيها القواد والعمال ليس إلا غير أن تونس تكاد أن تكون تحت ولاية الجزائر لما وقع فيها من الحرب العظيم والقتال الكبير الذي مات فيه أكثر الناس وقد مات فيه سلطان تونس أعني العلامة الفاضل والفهامة الكامل علي باشا وأولاده[١] محمد باي وأولاده ثم صار الملك لأولاد الكامل محب الصالحين والعلماء العاملين حسين بن علي رزق الله لهم العدل وأدام لهم الملك والمملكة مع التوفيق والهداية والرحمة والتوبة واللطف في السياسة والسيرة والرحمة لأنفسهم وللأمة المحمدية تمم الله لنا ولهم العافية بمنه وكرمه.

وهذه المدينة قد كان لها سور عظيم محكم البنيان متقن غاية وفيها قصبة عظيمة يكون فيها عسكر وفيها آغا يحكم في أهل الوطن غير أن سورها الآن أنهدم ولم يبق فيه إلا القليل ومع ذلك كثير الثلمات من وقعة سلطان الجزائر مع أهل تونس ذأمر بهدم بنائه لحكمة وهو امتناع كونه حصنا لأحد ففيها طلبة القرآن والعلم وعلماؤها لا بأس بهم.

وقد تكلمنا معهم في بعض مسائل العلم فوجدنا بعضهم على شرفة من الفهم غير أن الوطن خال من الاعتناء بالعلم لما فيه من شياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ومكرا وخديعة وغيرة وحسدا وظلما وعدوانا فإن أرادوا إهلاك أحد من العلماء وشوا به إلى أمير تونس وسعوا به إليه بقولهم إن فلانا أراد التهجريس[٢] إلى تونس وابنه في قسنطينة والجزائر وقد علمت أن كل شيء يكذبه

(١) كذا في جميع النسخ.
(٢) كذا في جميع النسخ.

السلطان إلا من يخلط عليه مهما سمع شيئا من أحد قبله كان حقا أو باطلا[1] وتيقن به وتوثق به فهم كالضرائر والتيوس وما أهلك الناس في تونس إلا هذا الأمر العظيم فهي لا نظير لها في هذه الصفة المذمومة التي حيرت الناس وشتبت أمرهم وأن أهل تونس أيضا معلومون بالخوز[2] والغدر والخديعة والمكر للسلطان فما أخذت تونس في الغالب إلا بهذا الوصف لأن أهلها مشهورون بالعكس والانتكاس والنقص والرفض والتخليط والألتباس من دولة الحفصيين إلى الآن ولولا الإطالة لذكرنا من أوصافهم نبذة ومن أخبارهم ووقائعهم وحروبهم وغدرهم ومكرهم ومخالفتهم للسلطان وتأخرهم عنه بعد مبايعتهم إياه وإظهار مودتهم له ثم ينقضون العهد ويجاوزون الحد ويمدون للعدو مدا جملة فيهلك الله جميعهم وكذا الأمير إذا طغا فيها كما تقدم.

حاصله أن الفجور والمعاصي والظلم والعناد إذا ظهر في تونس ابتلاهم الله بعذاب يعم جميعهم إلا من نجاه الله بفضله حسبما وقع ذلك بالباشا أعني علي باي حتى صار النهب والسلب والقتل والفتك في ديار تونس وهو بلاء عظيم وأمر مليم يكاد أن لا يقع إلا بالأمم المتقدمة والأعصر السالفة وسبب ذلك أن السلطان وأهل حضرته إذا اشتغلوا باللهو واللعب وصرفوا أموال المسلمين في شهواتهم المحرمة نادى الله عليهم بالويل والعذاب والهلاك فلم يراع فيهم الطائعين ولا أهل الفلاح من المتقين وقد قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل تصيب الظالم والمظلوم على من جعل لا من المفسرين غير صلة أي ليست زائدة لأن المنكر إذا اشتهر في الأمة ولم يغيره الناس وقع العذاب بالجميع لأن من شهد المنكر ولم يغيره فهو وفاعله سيان في الأثم ووقوع العذاب وقد قال الشاعر:

---

(١) في ثلاث نسخ زيادة إلا قبله.

(٢) أي المعاداة.

إذا تـرى ملكـا بـاللهو مـشتغلا فـاحكم عـلى ملكـه بالزيـل والحَـرَب
أو مـا تـرى الـشمس في الميـزان سـاقطة إذ كـان ذلـك بيـت اللهـو والطـرب

انعطاف إلى ما كنا بصدده وقد ضربنا خيمتنا خارج المدينة قرب الطريق التي تسلك إلى المغرب ولما سمع بنا أهل الفضل والعلم من المدينة خرجوا إلينا قاصدين التبرك والاستفادة وقالوا لنا لم لا تنزلون بالمدينة قلنا لهم قد نزل أصحابنا بدار الضيافة قال لهم النائبون عليها والقائمون بوظائفها من أصحاب المخزن هل أتيتم بأمر من السلطان إذ لا ينزل بها إلا من أمرنا بنزوله فيها وأنتم لما لم تكونوا مأمورين بالنزول فلا تنزلوا فقالوا لهم الله أولى وأحق أن تكونوا بأضيافه قائمين راغبين فلما ثقل عليهم الأمر خرجوا ومع لك أني لم أحضر ولم يسمعوا بي فشكرنا الله على ذلك وحمدناه على ما هنالك من عدم المبيت فيها وقد علمت ما في ذل العلماء للملوك على دنياهم وكذا تواضعهم للأغنياء على غناهم ومن الفضل والعصمة أن لا تجد موجبا للهلاك وسببا لغضب الرب فلما سمع المتول للضيافة ندم غير أن الله سخر العلماء والفضلاء من المدينة أتوا إلينا بطعام كثير حتى فضل عن الرفقة كثر الله أرزاقهم وقوى في العلوم مددهم وجعل البركة والعلم في ذريتهم آمين ورزق العز والهداية والتوفيق لأهلها فإن بعض المدرسين في المدرسة المعلومة فيها قد وشي به إلى السلطان تونس إذ قيل له إن هذا العالم وجماعة أرادوا أن يأخذوا بيد ابن يونس وأظنه كذب فرفعه إلى تونس حين كنا فيها فشفعنا فيه عنده ليرده إلى أهله فامتنع قال وإنما جعل له راتبا في تونس يدرس فيها وكان الأمر كذلك أصلح الله الكل.

ذكر دخولنا قسنطينة

ثم ظعنا منه صباحا فسرنا أياما في عافية إلى أن وصلنا إلى مدينة قسنطينة وهي مدينة في وطننا وقاعدة من قواعد بلادنا وإن لم يكن فيها السلطان ففيها نائبه السيد الباي وهي مدينة قوية ليست كبيرة جدا ولا صغيرة أيضا وعليها سور كبير وفيها أبواب ثلاثة باب الوادي وباب الجابية وباب القنطرة وفيها بويب صغير يخرج منه الآدمي وفيها أسواق كثيرة ودكاكين طيبة ومساجد للجمعة نحو الخمسة وبعضها في غاية الإتقان كمسجد الباشا في طرابلس وأظن أن صانعهما واحد وهذه المدينة مبنية على كهف وجرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك بل يموت قطعا وفيها قصبة عظيمة وعسكر من الترك بقدر حالها وباي سطوته عظيمة وحاله كبير وعساكره كثيرة تنفذ منها للجزائر أموال عظيمة من المغرم ومددها قوي وظلمها كثير وسعرها رخيص واسعة الأرزاق كثيرة الارتفاق ممدودة الإنفاق كثير فيها اللحم والسمن والقمح والتين ما أحسنها من زرع ودرع وضرع تأتيها القوافل من كل النواحي قليلة الفواكه كثيرة المزارع محصنة تحتها واد كبير وماؤه عذب منه يشربون إذ ينقلون ماءه إلى الديار وفيه يسقون ويستسقون ويغسلون ويغتسلون وعليه بنيت المدينة من قديم الزمان.

وقد سمعنا أنها من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام لم يطفأ لها سراج ولا استقر فيها أمير دائما هي لنائب السلطان وهي من إفريقية وأحسن عمالتها إذ لا توجد أرضا طيبة ولا ربوة عظيمة للمال والحرث أحسن منها فأنها لا يقل رزقها أصلا ولا يدوم فيها الغلاء لا تخلو عن العلم غير أن تدريسه فيها أنها يكون في بعض الأوقات كالشتاء وأول الربيع وأما سائر الأوقات فليس فيها العلم الغزير ولا انعدامه رأسا فليس يفقد جملة ولا يستمر كلية فولاتها لم يشتغلوا ببناء المدارس ولا بكثرة الأوقاف والأحباس

لما علمت أنها ضيقة وملكها ليس كملك تونس.

وقد سمعت من الفاضل الكامل السيد علي الخزناجي صاحب الرحمة والدولة الشاملة ذي اللطف[1] واللين وعدم الظلم المبين دولة محمد باشا الذي قتله غرناؤوط ليتولوا أمره فلم يرجعوا أصلا قَتَلُوا فتولاها علي أبو الأصبع بعد موت السلطان والخزناجي يقول أن ما يدخل تونس في يوم يعدل ما يدخل الجزائر في العام بل ما يدخل تونس أكثر بل قالوا إنما يدخل الجزائر في عام يدخل تونس في عصر يوم واحد إلى الغروب والله اعلم فلم تكفهم الأموال ولأن مادة البحر في الجزائر أوسع من مادة البر وعلى تقدير وجود الأموال فقد صرفها أهلها في شهوات أنفسهم كالملابس والمآكل والمشارب بل بنوا الحصون بها والأبراج والأسوار والثغور وأقاموا العساكر والنوبات في كل محل مخوف كثغر بجاية وجيجل والقل وبونة وغير ذلك مما يحتاج إليه الحفظ من العدو كذلك المحال التي طغت فيها العرب وزاغت فيها أهل البدو كتبسة وزمورة وبسكرة وحمزة وبُوغِني وسَبَا وكذا ثغور المغرب أمدهم الله بمدده وأيدهم بجنوده ونصرهم على العدو برا وبحرا وجوفا وقبلة مع التوفيق والعدل والاستقامة والفضل وحفظهم من الظلم البين وأزال منهم المناكر البينة والمعاصي الظاهرة والكبائر ليكونوا على ذروة الداوم وقصبة التمام وإلا فالظلم مهلك لصاحبه قل أن يسم صاحب الفجور ومظهر اللواط والزنا والخمور وقد قال صلى الله عليه وسلم لم يكن شيء أسرع بصاحبه كالظلم فكل واقعة من وقائع الهلاك إلا كان سببها الظلم والتعدي ما أحسن العلم إن قارنه الحلم وما أقبح الجهل إن قارنه الظلم.

وهذه المدينة غير خالية من العلماء ولا من الفضلاء والصلحاء غير أنها سريعة بأهل الصلاح فمن ظهر فيها بالقبول والفضل إلا أسرعت بهلاكه فيقبض ساعتئذ

---

(١) في نسخة الشاملة التي ذات اللطف وفي أخرى بإسقاط التي فليحرر.

وهذا معلوم عند أهلها إما لإساءة ظن أهلها فلا ينتفعون بمن ظهر فيهم أو لأنها كثيرة الملذوذات فقل فيها أهل الفضل من أصحاب الخيرات وإنما يظهر أهل الخير واستمرارهم للنفع في محل ضيق المعيشة كثير المحن قليل الإحسان والامتنان ومواهب الإله وإرادته إنما تكون لمن يستحقها ومن هو أهل لا وليس ذلك إلا للفقراء وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ فما ضاق محل بالمعيشة إلا ظهر فيها الفضل[1] والعناية وقد جرت عادة الله بهذا وما كثر رزق واتسع بمحل إلا كثر فيه الافتخار والتجبر والعناد وقل الصلاح والزهد والعبادة[2] لأن مخالفة النفس في ملذوذاتها أصل من أصول الطريق لا سيما من لم يجد الوسع أصلا كأرض تهامة أعني مكة وما حاذاها وكذا طيبة أي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وما قاربها فقد انعدمت فيها المزارع والأجنة وإن كثرت الأرزاق فيها فقد غلا سعرها فلا يصل الإنسان إلى شهوته إلا بعد موته ومشقته إذ ربما لا يصل إليها إلا بعد حتف أنفه وهلكته فكان طريق الآخرة فيها أسهل وسبيل الخيرات أيسر ما توجه الإنسان فيه إلى الله وإلى المقصود الأسنى إلا قلت خطواته ووصل بقرب فيزول الحجاب عن حضرة رب الأرباب في لحظة من الزمان فيكون مجذوبا في ذلك الأوان وقد قيل أن المجذوب يصل في ساعة ما لا يصله العابد والسالك في سبعين سنة.

حاصله أن كثرة المذاق، توجد للقلب النفاق، وقلة الأرزاق، تيسر الطريق إلى الله بالاتفاق، وذلك معلوم عند أهل الحقائق فقسنطينة لما كثر رزقها واتسع إنفاقها عسر الوصول فيها إلى الله لقلة المساعد، وكثرة المتكبر المعاند، وإن وجد فيها الصلاح فمن البله وقلة المعتني بنفسه فيها حتى لا يظهر فيها صالح أصلا وعلى تقدير ظهوره فتسرع فيه المنية لأنه عذاب وهلاك لمن خالف طبعه وأساء ظنه وقد قال صلى الله عليه

(١) في نسخه فما ضاق بالمعيشة إلا ظهر فيه أهل الفضل.

(٢) في نسخة العباد.

وسلم عن الله من عادى لي وليا فقد آذيته بالمحاربة[١] فيكون هلاكه وسرعته رحمة بأهل وطنه فلا يتأتى إظهار ولي فيها لأن ظهوره يكون سببا لرجوع أهل وطنه إلى الله فيكثر فيهم أهل الصلاح وذلك مناقض للحكمة الإلهية في أن الفراعنة المتمردة لا تكثر إلا في وطن كثر رزقه وضاقت حقوقه وانكسف نوره وإشراقه فتنتقل منه الأولياء ويدوم فيه أهل السمعة والكبر والرياء.

وقد علمت أن مثل هذا الوطن يقل فيه الحلال ويكثر فيه الحرام والمتشابه وقد قال صلى الله عليه وسلم من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى مع أن أهل الشهوات من أهل الملابس والمفاخر[٢] والأسرة والحلل قد صاروا إلى ما صاروا فقد أنشدوا شعرا (وهو منسوب للإمام علي كرم الله وجهه كما في ديوانه):

باتوا على قلل الأجبال[٣] تحرسهم ... غلب الرجال فلم ينفعهم القلل[٤]
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... واستودعوا حفرا يا بئس ما بدلوا[٥]
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة[٦] ... من دونها تضرب الاستار[٧] والكلل
فأفصح القبر عنهم حين سألهم[٨] ... تلك الوجوه عليها الدود ينتقل

---

(١) في نسخة بالحرب.
(٢) في نسخة الملابس الفاخرة.
(٣) في ثلاث نسخ اغلبتهم القيل وفي نسخة اغنت.
(٤) في ثلاث نسخ الآمال.
(٥) في الديوان «إلى مقابرهم يابئس ما نزلوا».
(٦) في ثلاث نسخ الأسور.
(٧) في الديوان محجبة.
(٨) سالهم بحذف الهمزة لغة في سأل بالهمز وفي نسخة سائلهم ولعله ساءلهم من المساءلة.

قد طال ما أكلوا يوما وما شربوا فأصبحوا بعد ذاك[1] الأكل قد أكلوا

نعم هي بلدة طيبة يستحليها الناظر، ويستحسنها المقيم والمسافر، فليست كثيرة الصفاء، ولا بعيدة الجفاء، ولا قوية الوفاء، عامتها بين اعتقاد وانتقاد، وخاصتها بين رغبة وغبطة وحسد وعناد، لا يتم الفضل فيها، ولا ينقص الحال ولا الكمال عند أهل الفضل منها، فالسب فيها كثير والقبح واللعنة جار في أسواقها لا يسكن اضطرامها أزال الله منهم ذلك ومحى فيهم ما هنالك، ولذا كثر الظلم فيها فهو مكفر لذنوبهم لأن المؤمن لا يخرج من الدنيا حتى لا تبقى عليه سيئة لأن كل تعب وظلم يقع له فهو كفارة له وأما الكافر فلا يخرج من الدنيا حتى لا تبقى له حسنة غير أن الولاة من الأمراء[2] تجب طاعتهم إذا كانوا يصلون ما لم يأمروا بمعصية فإن أمروا بها فلا يسمع منهم.

وقد قال في الأدلة البينة المذكورة ما نصه

الباب الخامس في وجوب طاعة ولاة الأمر في غير معصية وما في معنى ذلك: روى مسلم والبخاري من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال على المرء المسلم[3] السمع والطاعة. وعن ابن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية رواه مسلم. وروى البخاري من طريق أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعوا وأطيعوا وأن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة. وعن أبي هريرة

---

(١) في الديوان بعد طول.

(٢) في نسخة ولاة الأمر.

(٣) في نسخة بإسقاط المسلم خلافا لما في الصحيحين.

رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليك بالسمع [١] والطاعة في يسرك وعسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك رواه مسلم بن الحجاج. وعن عبد الله رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل قال في آخره ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يمينه[٢] وثمرة فؤاده[٣] فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر رواه مسلم. وروى البخاري[٤] ومسلم من طريق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها فقالوا يا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تأمر من أدرك منا ذلك قال أن تؤدوا الحق الذي عليكم وتسألوا الله الذي لكم. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني[٥] فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن عصى[٦] الأمير فقد عصاني. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من كره من أميره شيئا فليصبر عليه فأنه ليس أحد من الناس يخرج من السلطان شبرا فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية رواه البخاري ومسلم. وعن أبي بكر[٧] رضي الله عنه قال قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من أهان السلطان فقد أهان الله[٨] رواه الترمذي وقال فيه حديث حسن (غريب). وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك

---

(١) في صحيح مسلم السمع.
(٢) في صحيح مسلم يده.
(٣) في صحيح مسلم قلبه.
(٤) انظر رواية البخاري في كتاب الفتن.
(٥) في صحيح مسلم يعصني.
(٦) في صحيح مسلم يعص.
(٧) في صحيح الترمذي بكرة.
(٨) كذا في جميع النسخ وفي صحيح الترمذي من أهان سلطان الله في الأرض أهانه الله.

نبي من الأنبياء بعث إليهم آخر وأنه لا نبي بعدي وسيكون خلفاء فيكثرون قالوا فما تأمرنا قال فوا بيعة الأول ثم أعطوهم حقهم وأسالوا الله الذي لكم فإن الله سائلهم عما استرعاهم رواه البخاري ومسلم رحمهما الله وقد رويناه في صحيح البخاري عن جابر وجرير.

ومن الباب الخامس فيما يجب تعظيم ولاة الأمر وحقهم على رعيتهم ووجوب طاعتهم في غير معصية ما رويناه في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله قال بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة لكل مسلم.

ومن تأليف الشيخ الإمام صدر الدين الشافعي المآري[1] تكميلا للأربعين للشيخ زكي الدين أبي محمد عبد العظيم المنذري قال سئل كعب الأحبار عن السلطان قال ظل الله في أرضه من ناصحه اهتدى ومن غشه ضل وقال الفضيل بن عياض لو أن لي دعوة تستجاب ما صيرتها إلا في الإمام العادل لأني لو جعلتها لنفسي لم تجاوزني ولو جعلتها للإمام كان صلاح الإمام صلاح البلاد والعباد.

وقد قالت العلماء رضي الله عنهم أن طاعة الإمام هدي لمن استضاء بنورها والخارج من الطاعة منقطع العصمة بريء من الذمة وإن طاعة السلطان حبل الله المتين ودينه القويم وجنته الواقية وإياكم والخروج من أنس طاعة إلى وحشة المعصية ومن اسر غش السلطان ذل وزل ومن أخلص المحبة والنصح حل من الدين أرفع محل.

ثم اعلم أن أشرف الولاية وأعظمها ولاية أمور المسلمين لأنها موضوعة

---

(١) كذا في جميع النسخ.

للخلافة النبوية في حراسة الدين وحفظ منهاج المسلمين وتمكنهم في العلم والعمل وجعل الله بهداه الأرزاق ودفع المظالم إلى غير ذلك من الأمور التي يعظم نفعها ويعم قدرها مما لا يقوم به غير الإمام وشرح ذلك إن شاء الله حلوله[1] دارين دار الدنيا ودار الآخرة التي هي دار الحق وبالسلطان العادل قيام الدين وعلى قدر النعمة يكون وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي أو رسول أو ملك مقرب رواه أبو نعيم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لَعَمَلُ الإمام العادل في رعيته يوما واحدا أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام وخمسين عاما. ومن حديث أبن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة اهـ.

أقول وبالله التوفيق أن قسنطينة هذه قد اجتمعنا فيها مع الفضلاء والنجباء والصلحاء وأعيان الوقت السالمين إن شاء الله بسببهم من المقت منهم العالم الفاضل والصالح الكامل والورع العدل شيخنا وعمدتنا الولي الصالح والبدر الواضح سيدي يحيى اليعلاوي ومثله في الفضل والعلم والأدب النحوي اللغوي الفقيه سيدي أحمد الزين أما سيدي يحيى فتلميذ جدنا سيدي الحسين الشريف وأما سيدي أحمد الزين فتلميذ أبي ومثلهما صلاحا وعلما وحالا وورعا وفقها وفهما سيدي فرج وسيدي علي الزموري وسيدي خليفة الشارف وسيدي أحمد العلمي وسيدي عبد الله التومي وسيدي علي بن سعيد وسيدي السعدي الصدراتي وسيدي الطاهر بن بعداش[2] وسيدي مبارك بن بوقرانة وسيدي محمد الشليحي وسيدي محمد بن نزار وسيدي علي الشريف بن منصور والعلامة الفاضل الكامل سيدي علي الشريف الذي هو المفتي الآن وقاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي المنطقي البياني المحدث

(١) في نسخة خلود وفي أخرى حلو.

(٢) في نسخة زيادة الصدراتي.

المفسر صاحب الأبحاث الشريفة والفوائد المنيفة سيدي عبد القادر الراشدي ونظيره فيما ذكر أخوه سيدي علي أو أعظم منه حفظا واتقانا ومثله في العلم والفضل القاضي الآن سيدي إبراهيم الضربابن قاضي المالكية وكذا العالم على الإطلاق والأديب بالاتفاق سيدي شعبان بن[1] جلول قاضي الحنفية والآخذ من كل علم نصيب العلامة الكامل والفهامة الفاضل سيدي عبد العزيز الزادي ونظير من ذكر تحقيقا في العلم ويقينا في الفهم المدرس سيدي أحمد الزراري وهي الآن فيها أفاضل في العلم والصلاح والورع والزهد وقد اجتمعنا بهم في محل نزولنا عند الولي الصالح والقطب الواضح سيدي سعيد السفري[2] نفعنا الله به آمين فكل من كان في قسنطينة ممن فيه رائحة علم وفضل وخير وصلاح إلا اجتمع بنا ورغب فيما عندنا ونحن أكثر رغبة منهم فيهم.

وكذلك أعيان الحضرة السلطانية والمملكة الشرقية من الكتاب وأرباب الدولة من أهل العلم وكذا أئمة المساجد إلا ولد المحب الشيخ الفاضل الكامل سيدي بدر الدين ابن سيدي عبد الكريم الفغون[3] أمير الركب الحجازي[4] فأني ذهبت إلى داره واجتمعت معه هناك فقال لي وإنما لم أخرج إليك لأني ظننت أن تنزل بداري فقلت لو قدمت بأهلي لنزلت عندك.

نعم أشفقت عليك لكثرة الخلق معي وكان ذلك بعد صلاة الجمعة وذلك مع جماعة من العلماء وثلة من الفضلاء وعزة من الأدباء رضي الله عنهم وأرضاهم وكان لنا ولهم في الدارين.

---

(١) في ثلاث نسخ بإسقاط بن.

(٢) في نسخة الصفراوي.

(٣) في ثلاث نسخ بإسقاط الفغون والحجازي.

(٤) في ثلاث نسخ بإسقاط الفغون والحجازي.

وكذلك اجتمعت مع الفقيهين الفاضلين سيدي أحمد بن الأحمر والعلامة على الإطلاق والفهامة بالاتفاق سيدي أحمد بن وادفل وكذا مع الولي الصالح والفقيه الواضح المحلى بالفضل والقبول حسن الاعتقاد كامل الاجتهاد في العبادة والتصبر والصبر عن مصادمة الأوقات الغني عن التكلف والكلف والمشقات سيدي علي بن الكيرد وكذا صاحب الفضل والميل إلى الصلاح والفوز بالنجاح الراعي للأوقات سيدي محمد العنتري وغير هؤلاء ممن لا يعد كثرة من العامة والخاصة كالفاضل الأخ في الله سيدي الطيب الزراري وسيدي أحمد بن زبوش لأنهما ظاهرا الصلاح والفوز والنجاح فقد علمت أني لم أهمل التفصيل وإن أهملت البعض فقط في التجميل.

هذا وأني زرت الجميع على سبيل الجملة والتفصيل ممن أظهره الله وأخفاه من العامة والخاصة وأهل الحرف والاكتساب وأهل الصفة من التجريد والأسباب من أهل التمييز والبله ممن ظهر بالإشارات أو بأنواع النطق والعبارات في كل وطن ودخلته أو حاذيته أو رأيته أو ذكر لي إلا كنت زائرا لجميع ذلك وناويا لمن هنالك.

ثم أني لم أهمل الأموات وأني قصدت جميعهم في كل وطن مشيته وكل بلد أتيته إلا أن قسنطينة كل مسجد فيها من مساجد الصلاة إلا وفيه شيخ ولي صالح دفن في المسجد وينسب إليه ويقال مسجد فلان كسيدي أحمد بن عين الناس وسيدي أبي عبد الله الشريف وسيدي عبد المؤمن وسيدي الرماح وسيدي مفرج وسيدي عمر الوزان وسيدي عبد الكريم الففون وسيدي عبد اللطيف وغيرهم ممن لا يحصى عددا أفاض الله علينا من بركات جميعهم ومن علينا وعلى من انتمى إلينا من الذرية والقرابة والجيران بالأنوار والشفاعة والعطف منهم.

وأما سلطان العارفين سيدي سعيد السفري فقد نظمته ومن دفن من الصالحين في كدية عاتي من ظهر أمره واشتهر خبره وعلم قبره أو خفي إلا زرناه وسألنا الله

عندهم حسن الخاتمة والعافية ودوام العافية والشكر على العافية والغنى عن الناس وحسن العاقبة وزوال الحجاب عن حضرة رب الأرباب والدخول في الزمرة النبوية وأتباع السنة والموت على الملة ودخول الدائرة الربانية وكمال المعرفة وتمام النعمة وشمول العفو والمغفرة وغير ذلك ما يصلح للخليقة لأن الدعاء مخ العبادة ولو لم يكن فيه إلا إظهار الفاقة واللجا والاضطرار وإبداء العبودية وإحضار الرب والمسئول في الدنيا والآخرة لكان أمرا عظيما يجب الحمد عليه والشكر لديه أيقظ الله الجميع للسنة النبوية مع الاستقامة ظاهرا وباطنا آمين يا رب العالمين.

ثم ظعنا منه ناويا زيارة الود الصدوق والخل الفاروق سيدي أبي القاسم الزواوي الجالس في الباب فانه من الصالحين وحكايته مشهورة معلومة مع أهل الخير من رجال الغيب كما سمعت ذلك من الولي الصالح سيدي محمد العيدلي وكان هو الواسطة والرسول من رجال الغيب إليه وكان هذا الجالس في الباب خارجا في الرحبة منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب من كثرة الأوساخ فمن رآه ربما تغير قلبه مما فيه من الأوساخ ونتن الرائحة وهو لا يتحرك من موضعه ينتظر ما يجرى عليه من النفقة والصدقة من المحسنين من أهل الخير فلبث في ذلك مدة عظيمة ثم أمروه بالانتقال إلى قرب الباب خارجا فكان هناك كالحجر الصامت لا يتحرك أيضا منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب ومحقرات الحيوانات من الهوام والخنافس وغير ذلك فلبث فيه مدة أيضا وأظنه انه أيوبي الطريقة ولذلك صار محلا للبلاء ومستعدا للاذاية فلا يفهمه إلا ذووه فلما لبث مدة طويلة أمروه بالدخول إلى الباب والجلوس على الدكان الذي هو فيه وهو على ذلك الوصف من عدم التحرك والذباب والأوساخ عليه إلى آخر ما سبق فلما لبث أيضا مدة طويلة قالوا له تزوج وهو لم يكسب درهما ولا دينارا ولا ثوبا ولا خمارا غايته أن يكون مستور العورة يلقمه الناس باللقمات فيجعب من ذلك الأمر إذ لم يجد ما يقتات به فضلا عن التزوج لكن أمرهم من قوله تعالى إذا

أراد شيئا أن يقول له فيكون بين الكاف والنون وهو من عالم الأمر إلا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين والأولياء إذا أرادوا أغنوا وعزمهم أمضى من السيف فلما ثبت الأمر وتحقق الأذن أتت امرأة تسأله الدعاء وتشتكي بعض الأذاية ممن هو قريب لها فقال لها الجالس مع الشيخ هل ترضين بالنكاح فقالت وكيف لا أرضى به فأني مقطوعة الأحباب لا مسند لي إلا الله تعالى فقال لها ذلك الشخص المرسل تزوجي الشيخ فقالت رضيت وعينوا لها بعض الصداق وكان بعض الحاضرين هناك اشترى لها من عنده ما تحتاج إليه مما يصلح للزفاف ثم أن الشيخ أتت له ثياب حسنة ساعتئذ فأزال الثياب المتقدمة المتوسخة ولبس الفاخرة من الثياب فعقدوا على المرأة فذهبت وقالت إن لي دارا وما فيها من أحوالها[1] فلا تتكلف بشيء وقد ذهبت تستعد أمورا تصلح للزفاف والدخول فلما قرب الليل حملوه على مركوب لبيتها فزال عنه كل هم وغم وقد علمت أن مع العسر يسرا ومع الضيق وسعا وقد قال صلى الله عليه وسلم لن يغلب العسر يسرين فاليسر نكرة وهو غير الأول والعسر معرفة وهو عين الأول فالنكرة إذا أعيدت فهي غير الأولى والمعرفة إذا أعيدت فهي عين الأول فلم أجده في الباب[2] نعم سبق الود بيني وبينه الود القديم والعهد الصميم الذي لا ينقطع.

وقد سمعت هذه الحكاية من الرسول المذكور ومنه أيضا وهذا الرسول ممن أعرفه في صغري حياة أبي وقد أتى إلى محلنا زائرا وقد اجتمعت معه في دار الفقير الصادق المتقي الفائق ظاهر الصلاح معلوم النجاح الصبور لا يكاد يشتكي من قلة

---

(١) في نسخة زيادة ولوازمها.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية في «عسر» ومنه حديث ابن مسعود انه لما قرأ فان مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا قال لن يغلب عسر يسرين قال الخطابي قيل معناه ان العسر بين يسرين إما فرج عاجل في الدنيا وإما ثواب آجل في الآخرة وقيل أراد أن العسر الثاني هو الأول لأنه ذكره معرفا باللام وذكر اليسرين نكرتين فكانا أثنين تقول كسبت درهما ثم انفقت الدرهم فالثاني هو الأول المكتسب اهـ.

ذات يده المرابط محمد بن غرسة وزوجته فاطمة بنت خيشان وكلاهما من أهل الصلاح وقد شاهدت من هذا الفقير أمورا عظيمة وخوارق بينة وهو ممن يطلع على الغيب.

وقد سمعت منه أنه قال لي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقظة في مسجدنا في صلاة المغرب قال وقد صلى خلف والدك فقال نوره صلى الله عليه وسلم انعكس فيه نور السراج بل خفي فلما سلم الوالد من الصلاة خرجنا من الصلاة أردت أن آمر جميع من في المسجد بالقيام إليه صلى الله عليه وسلم فلم استطع النطق ثم كذلك إلى أن صلى الوالد الرواتب بعد المغرب فخرج من المسجد وخرج معه صلى الله عليه وسلم.

وأما زوجته المذكورة فقد شاهدت منها أمورا عظيمة وقد سمعت منها أنها قالت كنت أولا قد ملكني الحال وغلبني فالآن ملكته وغلبته وكانت تجتمع مع رجال الغيب وقالت أيضا فمهما صدر مني ما لا يحل من كلام أو إشارة أو رؤية إلا ويبعث الله لي أحدا من خلقه فلا أعلم انه من الملائكة أو صالح الجن يضربها[1] ضربا على قدر ما خالفت به فيكفر لها ذنبها وغير ذلك من أوصافها الممدوحة وخصالها الكريمة وكانت جماعة من أهل وطننا على هذا الوصف.

نعم هذا الرسول رأيته أيضا في أحواز قسنطينة كان يسأل عني من غير أخبار أحد بي فعزم علي الذهاب لداره لاجتمع مع أصحاب الوقت فمنعني مقدم القافلة فقال والله لا يذهب إلى مكان لأن والده قد أوصاني على حفظه والموضع الذي أتاني إليه هو ذراع الطبال فتأسفت عما فاتني منه وقد اشتدت رغبتي إلى المشي معه غير أن الرجل وصفه وصف البدوي وشعر رأسه قد غشي وجهه وكان أغم فلم يظهر عليه اثر

(١) كذا في جميع النسخ.

الصلاح لتقشفه وأهانته نفسه كاد أن يكون من الإسقاط فخاف علي من في القافلة فمنعوني منعا موزرا وأنا كنت أعرفه وأتيقن حقيقته فلم يتيسر لي غير أن ما في الغيب مفاتحه عند الفتاح قل بفضل الله وبرحمته ولعل عنايتهم كانت معنا وقوة بركاتهم حاضرة لدينا وسعدهم عامل في أحوالنا ونعوتنا سدد الله الجميع ووفق الكل إلى صالح القول والعمل.

انعطاف إلى ما كنا بصدده قد خرجنا وظعنا من سيدي سعيد السفري فودعنا جميع من كان في المدينة من أهل الخير والرغبة والفضل والمنة فرجع من رجع وذهب من ذهب إلى أن وصلنا عين ابن الحاج بابا فصلينا العصر بالعلامة المحقق والفهامة المدقق سيدي عبد القادر الراشدي.

وقد وقعت بينه وبين طلبة قسنطينة مخاصمة عظيمة ومنازعة كبيرة حتى رموه بالتجسيم بل بعضهم كفره ومن الإسلام أخرجه وذلك أمر عظيم في الدين وقد قال الشيخ زروق إدخال ألف كافر في الإسلام بشبهة إسلامية أهون عند الله من إخراج مسلم واحد إلى الكفر[1] بشبهة كفرية وكيف لا وهو أمر عظيم وذلك من تلامذته ومحبيه وهذه المسألة قوله تعالى لما خلقت بيدي فقال وهو في اليد أنها يد حقيقة ومع ذلك أنها ليست جارحة ولا جسما بل يستحيل ذلك لأنه يؤدي إلى الحدوث والإمكان وقدح في التأويل بالقدرة أو صفة زائدة يخلق الله بها الأشراف من الخلق لأن التأويل محوج إلى الدليل والخروج من الحقيقة إلى نوع من المجاز فلم يكترث بالتأويل إذ البقاء مع الحقيقة هو الأصل ولأن التأويل وإن كان صحيحا ففيه ابتغاء الفتنة وإنما تنتفي على التسليم لصحة التأويل وأن كان في علم الله كذلك لأن المصيب في العقائد واحد

(١) في نسخة بإسقاط إلى الكفر.

فقد اتفق أهل السنة قاطبة على نفي الجارحة وما يؤدي إلى الإمكان والحدوث و[1] التجسيم فمنهم من قال أن له يدا حقيقة فالعلم بها موكل إلى الله تعالى فلا يستلزم هذا التجسيم لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة فكيف يلزم به مع انه نفى التجسيم الذي يستلزم ما لا يليق به جل جلاله فأني أو كيف أو متى يلزمه وإنما هو تحامل عليه سببه الحسد والبغض والتنافس أو[2] إنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم بل وقد نسبوا له كثرة الرشوة وغير ذلك مما لا يناسبه بل سمعت من بعضهم انه قال صرح بالتجسيم غير ما مرة فقلت له حين اجتماعي بهم مجرد هذا الإطلاق لا يلزم عليه شيء إذ عليه أكثر الأمة ومنهم من أولها بالقدرة ومنهم من توقف فلما أراني الرسالة الموضوعة لهذا الكلام رأيتها منقحة سالمة من سوء الاعتقاد خصوصا التجسيم غايته يبطل أدلة المؤول ويصحح من يقول باليد حقيقة غير انه لا يعلمها إلا الله لكن هذا كله بعد نفي التجسيم وما يشعر بالإمكان والحدوث فقد بالغوا في تضليله إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان فسلم والحمد لله ونجا من شرهم غير أنهم أخرجوه عن الموضع المعد له من القضاء وصيروه لأنفسهم بالتعلق بمن تمكن من السلطان.

نعم قلبي سالم من جميعهم ومحب في جانبهم وراغب فيما عندهم ومعظم مما هو لديهم وقد قال خليل ولا عالمٍ مِثْلِهِ فإنهم كالتيوس فبينهم قدح وعلى غيرهم لا قدح ولا جرح فإن كانت الشريعة لم تقدح فيهم فكيف بمثلي أن يجعلهم غرضا لسهام الناس يرمونهم بالأغراض الخسيسة والخصال الذميمة طهرهم الله من تلك الأوصاف ونزههم من هذه الأخلاق الخسيسة.

---

(١) في ثلاث نسخ من.

(٢) في نسخة و.

ثم انفصلنا عن الجميع[١] بالتوديع مع التأسف على قلة الاجتماع وقصر المدة إذ ورد علينا عيد الأضحى فجعلنا الأوبة للأهل فبتنا في بئر البقرات ثم ظعنا صبيحة فمررنا على أولاد المحب الحاج بن أبي زيد بن أبي التقى فرغبوا في الرجوع إلى وطنهم وحضوا السؤال في ذلك جمع الله بينهم وبين وطنهم مع التوفيق والهداية.

ثم سرنا كذلك أياما إلى أن وصلنا زمورة فلما سمعوا بنا لقيان من بها من العامة والخاصة فرحين مسرورين ببنادقهم وغير ذلك من أنواع الفرح فكل يعزم علينا ويرغب في المبيت عنده إلى أن وصلوا إلى الفتنة والهرج بسبب ذلك غير أن أولاد عبد الواحد حملوني قهرا لأني قريب من مدشرهم فكانوا أمكن منا فبتنا عندهم خير مبيت كثر الله خيرهم وبعد غد بتنا في الحفرة في الذراع تحت القصبة في دارنا المعلومة فكثروا الطعام كالمدشر الأول أو أعظم وكذا أولاد أبي الهوشات فاجتمعنا مع فضلاء زمورة وخاصتها وعلمائها وأهل الفضل منها وكذا مع صلحائها كالفرومي والعلامة سيدي محمد السعيد بن قري وإمام الجمعة سيدي محمد الصغير والفاضل على الإطلاق والعالم بالاتفاق سويداء القلب وغاية الحب سيدي محمد بن عبد الله نجل الشيخ سيدي محمد المبارك والفضلاء أولاد البواب فإنهم صلحاء محبوبون راغبون في الخير:

ورغبــة في الخــير خــير وعمــل بريــزين (ولــيقس مــا لم يقــل)

وكذا أولاد الشيخ سيدي محمد المبارك وكذا أولاد سيدي خروف وكذا الفقيهان الفاضلان سيدي أحمد الشوثري وسيدي المبروك وجميع الفضلاء من الخاصة والعامة من جملة عرش بني فرفان قدموا إلينا ورغبوا في المبيت عندهم وسع الله أرزاقهم ووفقهم إلى ما تحبه ويرضاه وجعل مأوى الجميع جنة الفردوس العالية.

---

(١) في نسخة ثم عممنا الجميع.

وهذه البلدة كثيرة الأرزاق قوية الإنفاق طويلة البنيان كثيرة المياه فيها مزارع كثيرة أهلها أهل شوكة وتعد وظلم لبعضهم بعضا وهي قرية مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون فغالب أوقاتهم الفتنة بينهم والقتل لديهم التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها القاتل والمقتول في النار إذ قتالهم بلا تأويل وإنما هو مجرد تعصب وحمية جاهلية وأنفة شيطانية فلا يحكم عليها حاكمها أعني قائدها وكذا آغا برجها إلا بالمكر والخديعة في السوق أو في الطريق لقسنطينة أو الخروج للحرث فإنهم ربما أخذهم وربطهم في هذه المواضع حتى ينتقم منهم بالمال.

وقد علمت أن التخطئة بالمال في الحدود البدنية ممنوعة شرعا وأن أجازها البعض كالبرزلي فقد رد عليه جماعة حتى كادوا أن يكفروه غير أن ذلك في حق من يقدر على الحدود النفسية وأما من لا يستطيعها فيجوز من غير خلاف لأن المراد الزجر والمنع من الوقوع فيها لا يرضي الله باي أمر كان والنفس عندها المال أعظم من كل شيء وأي زاجر ومانع ومردع أخوف من المال.

وقد قال بعضهم يجوز للإمام أن يقتل الثلث من الخلق ليصلح الثلثان كما ذكره الشيخ عبد الباقي فالذي تميل إليه النفس وتستأنسه من غير خلاف التخطئة بالمال لمن لا يستطيع على الحدود البدنية والله اعلم.

فهذه البلدة كثيرة السمن واللحم والقمح والمياه الباردة والديار الواسعة والثياب الحسنة الرفيهة من الصوف والكتان وكل ذلك مناقض للخشية وأوصاف العبودية وإنما هو مثير للشهوات والمخالفات من إظهار المعاصي وقد كان ذلك فيها فتجد النساء الطيبات المتبرجات كأنهن في ليلة الزفاف بهن في الأزقة والعيون مكشوفات العورات باديات المستحسن منهن كالصدر الثدي وتحت الإبط والساق

والفخذ ومع ذلك أنهن أجمل خلق الله من رآهن من العباد فضلا عن أهل اللهو واللعب افتتن بهن إذ يفزع ويرعب عند رؤيتهن ومشاهدة محاسنهن غير محجوبات بل كلهم أو جلهم يفتخرون بذلك فقد ضلوا وأضلوا فلا يسمعون أن وعظتهم ولا يرجعون إن ذكرتهم وقد اشتدت القسوة على قلوبهم وهي أشد قسوة من الحجارة وقد ألفوا ذلك من آبائهم وأجدادهم قبح الله رأيهم[1] فإن أنكرت عليهم أو تغيرت بسببهم ربما عادوك ورموك بما لا يليق بك وهذا ظاهر منهم بيّن إلى الآن وفقهم الله إلى زوال ذلك والتنزع عما هنالك وإلا أخلى الله منهم الأرض.

حاصله أهل هذه البلدة متصفون بالبدع الشنيعة والأحوال الخسيسة من الرذائل المنهي عنها شرعا وزادوا مع ذلك أنهم لا تأخذهم الأحكام إذ يأكلون التراث أكلا لما ويحبون المال حبا جما فلا تجد أحدهم إلا متمسكا بالعوائد المحدثة وأحكام الطاغوت والله يقول والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

نعم اتخذوا رؤساء جهالا فأفتوهم بغير علم فضلوا وأضلوا فأنكحتهم ومعاملاتهم جلها مبنية على على أحكام الطاغوت فلم يتصفوا بالحق وإنما الغالب عليهم الباطل وقد اعتنيت بهم اعتناء عظيما ليرجعوا إلى السنة وترك البدعة فلم يرجع منهم إلا القليل وعلى تقدير رجوعهم فلم يزالوا متمسكين ببعض العوائد فصاروا يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعضه يريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا مكننا الله منهم ومن غيرهم لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ فيتمحضون للسنة المحمدية بمنه وكرمه حاصله أوصافهم وطبائعهم خارجة عن طرق أهل الصلاح فلا تحسن معاشرتهم ولا السكنى معهم لأن الطباع تسرق الطباع والمرء على دين خليله

---

(١) في ثلاث نسخ زيادة ليترك.

فلا يبكون من خشية الله ولا يتباكون من خوف الله فلا ترى فيهم صاحب حال رباني ولا ذا وارد إلهي فلا يخرج معهم إلا صديق لا يبالي بهم أو زنديق[١] يكون على هواهم وقد رأيت وطنهم لأنهم لا يأتيهم الولي الصحيح[٢] صاحب المبحة بالصدق والدين والملة بالحق وإن جاءهم فلا ينتفعون به وعلى تقدير النفع فمقصور على الدنيا وإنما الكثير ورود الزنادقة وأهل الدعاوي الكاذبة الذين يريدون[٣] التوصل إلى الأغراض الفاسدة فكثيرهم جليسهم الفسقة من الرجال ومن يخدع من النسوان حتى ينفضح وينكشف إذ المرء إن سكت فمن يومه وأن تكلم فمن حينه ما كان فيك ظهر على فيك كل إناء بما فيه يرشح.

وبالجملة فاسأل الله تعالى أن يمن علينا وعليهم بالتوفيق والهداية والمغفرة والتوبة الصادقة العامة لكلهم.

نعم لا نزال نطلب الله تعالى الرجوع لجميعهم إلى الله والإنابة إليه والله يقول إن تنصروا الله ينصركم ولينصرن الله من ينصره.

وقد انفصلنا عن وطنهم مع الدعاء لهم وقد وددت والله أن يكونوا على أحسن طريق وأكمله مع زال الخصال المناقضة للشريعة المحمدية وسلكنا طريق أبي خميس فوجدنا أكثر الأحباب منتظرين من وطننا ووطن بني يعلى إذ فرحوا بقدومنا وسروا برجوعنا العامة والخاصة أحياهم الله على السنة وأماتهم على الملة المحمدية فاستفرغت الوسع في الدعاء لهم والسؤال عن كمية أحوالهم لا سيما أصلاح ذات بينهم كان الله لنا ولهم في المُقام والرحيل وفقنا وإياهم إلى صالح الأعمال وحسن النية بالتمام والكمال

---

(١) في نسخة فلا يخرج منهم صديق ينكر عليهم إلا زنديق.

(٢) في نسخة الصالح.

(٣) في نسخة الذين قصدهم.

فامتلأ الوعر والسهل والغيضة وغيرها بالناس الذين رغبوا في رؤيتنا واغتنام البركة منا من كل فج عميق لتشهد أحوالنا وتقتبس أنوار أصحابنا[1] إذ الحاج مجاب الدعوة أربعين يوما بعد وصوله إلى داره فضلا عن ملاقاته في الطريق بروح وريحان لمن جاء بالصدق والتصديق بالوعد الحق رحم الله الجميع بمنه وكرمه وعصمنا وإياهم من عذاب النار وهول القبر والحشر والنشر والميزان والصراط إلى الجنة يا ارحم الراحمين يا رب العالمين.

هذا وأني مررت على موضع الأولياء والصلحاء ومعدن الخير والبركات مستقر القطب الواضح سيدي الجودي العلمي وأولاده وكذا محل أولاد سيدي مالك وأولاد الشيخ البركة سيدي محمد بن قري أفاض الله علينا من بركاتهم وجعلنا في زمرتهم وزمرة أوليائه بمنه وكرمه.

فلما بلغت ضريح الولي الصالح والكوكب الواضح سيدي محمد بن يحيى عزم علي أهل مدشر قترات برمتهم عزما بتلا قطعا فاجتمع من وطن بني يعلى وبني ورثيلان ما يكاد أن يكون سوقا كبيرا فذهب الكل إلى المدشر المذكور فبتنا فيه وقد ذبحوا ما يكاد أن يخالف العادة عمرهم الله إلى يوم القيامة وعمر سوقهم على لسان الشريعة المحمدية رضي الله عنهم وأرضاهم وهي ضيافة عظيمة إذ فيها المئون من الخلق.

وقد لقينا المحب في الله والأخ من أجله العلامة الفاضل والمحقق الكامل المدرس الفقيه الصالح سيدي الحسن نجل الشيخ سيدي أحمد زروق بن مصباح إذا أراد أن يضيف الكل فأهل المدشر المذكور قاموا بالكل كثر الله خيرهم وجعل البركة حاضرة

---

(١) في نسخة ليشهدوا أحوالنا ويقتبسوا أنوارا لأصحابنا.

لديهم آمين. فلما أصبح الله بخير الصباح صنع أهل مدشر أهل أغلاذا نصلاح طعاما فزاد الخلق بحيث لا يكفيهم إلا الخالق غير أنهم لما أخرجوا الطعام جعل الله فيه البركة العظيمة أظنه ولو اجتمع عليه الناس كلهم لفضل عنهم.

وأن الولي الفاضل والصالح الكامل الفقيه الأجل سيدي عبد الرحمن بن قريب لما رأى الخلق والطعام خجل من كثرة الخلق وقلة الطعام فقلت له لا تخف فإن الطعام صُنِعَ لله تعالى وفرحا بوفود زواره واغتنام بركة المجتمعين فحضرت بركة من اجتمع حتى بقي الطعام وتعجب من حضر وهو ليس من بركتنا وإنما ذلك من بركة المجتمعين الحاضرين وبركة صانعيه فلا تعلم نفس ما كان من الخير في هؤلاء الجموع الآتين بنية صالحة وهمة عالية وقلب سليم من كل إثم وكذا بركة من رجع من عند النبي صلى الله عليه وسلم ومن بيته الشريف.

فمررنا على دار الولي الصالح المحقق الورع المدقق سيدي بركات وزرت الصالحة الطيبة الحرة الفاضلة صهرتي زوج سيدي بركات نفعنا الله به آمين وأفاض علينا من بركاته.

وكذا مررت بدار الأخ المذكور سيدي الحسن ودخلت بيته اغتناما بغبرة الراجع من بيت الله وحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الله البركة فيه وفي ذريته إلى قيام الساعة بمنه وكرمه.

ثم انفصلنا من جبل بني يعلى على خير وحسن اعتقاد ورغبة في الحب في الله والشوق من أجله فكيف لا يفلح الجميع جعلنا الله في أوليائه ﴿ الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ الآية.

وسرنا إلى أن وصلنا الوادي فلقينا أهل إيلمماين قاطبة مكنهم الله من الخيرات وهداهم إلى سبيل النجاة ووفق كلمتهم إلى طريق السنة المحمدية ففرحوا وسروا وأظهروا ذلك بضرب البارود حسبما فعلى أهل زمورة وبنو يعلى فسألنا الله لهم ولنا العافية التامة والمغفرة العامة الشاملة ثم انفصلنا عنهم فلقينا جميع من كان بعرشنا من بني أحمد أجمع وأما بنو عشاش فقد لقينا جمع منهم إلى بني يعلى والكل فرحون مسرورون.

وبالجملة فالجموع من وطننا رجالا ونساء هذا يتصل بنا وهذا ينفصل عنا إلى أن وصلنا إلى مقامنا ودارنا ليلة الجمعة وليلة العيد ويوم عرفة عام ١١٨١ أحد وثمانين ومائة وألف فلما أصبح الله بخير الصباح اجتمعنا كالعادة لصلاة عيد الأضحى قرآنا من لم يرنا عند الوصول[١] فتمت النعمة وعظمت المنة علينا وعلى جميع الناس لا سيما الضعفاء من الناس الذي لا يقدرون على الوصول إلى حقوقهم كالمستضعفين من الرجال والنساء فسألنا الله لنا ولهم المغفرة والتوبة الصادقة والرحمة الكاملة والمنة العظيمة واتفاق الكلمة على الطريق المحمدي والعصمة من الفتنة فإن أشر الشرور في وطننا الفتنة والقتال بينهم فليس أمر أشر من هذا.

نعم الشيطان استولى عليهم ولم يترك لهم حقا إلا بدلوه وغيروه بأن جعل لهم رسوما وحدودا لا يتعدونها فلما جئت إليهم ففسخت لهم أحكامه ونقضت رسومه وأبطلت عهوده بان رددتهم[٢] إلى الشريعة المحمدية والأحكام النبوية فلم يملك نفسه الملعون أن يصبر وتغير ونادى بالويل والثبور على أصحابه والحسرة في ناديه المنكر والرجوع عن تلك الخصال التي أسسها لكم هذا العَبْدُ المبطل لأحكامي وأحكامكم

---

(١) في ثلاث نسخ بإسقاط عند الوصول.

(٢) في نسخة رددتها.

فما لنا إلا العداوة معه ومع عرشه غير أنهم لا يستطيعون التفوه بهذا لأنه شريعة ودس لهم اللعين دسائس آخر بان قال لهم عندكم طلبة وعلماء تمسكوا بهم وكونوا على رأيهم وعظموا علماءكم كما عظمه أهل وطنه لينشيء العداوة وما علموا بهذه الدسيسة فقاموا من غير أذن من أهل ولا نور نبوي عندهم فوافقوهم على هواهم فعظموهم في الظاهر وليس مرادهم إلى نبذ الأحكام الشرعية وإسقاطها رأسا أو أنها تكون على وفق رؤوس الجهال ليضلوا أنفسهم ويضلوا غيرهم فعند ذلك انشئوا الفتنة وأضرموا نارها والعياذ بالله أخمد الله كيد اللعين وأبطله بمنه وكرمه.

ثم انه بعد ذلك تأتي إلينا الوفود من كل وطن تارة ألفا وتارة أكثر من ذلك نحو الألف وأربعمائة ثم كذلك على حسب القلة والكثرة إلى أن انقطعوا في مدة طويلة نحو الشهرين جعله الله حجا مبروزا، وسعيا مشكورا، وتجارة لن تبور، وصير جمعنا جمعا مرحوما، وتفرقنا تفرقا معصوما، وكان لنا ولهم بالاستقامة ظاهرا وباطنا من غير فتنة مضلة ولا محنة دينا ودنيا آمين يا رب العالمين.

خاتمة ينبغي لنا أن نذكر شيئا من شروط قيام الساعة ليكون الناظر فيها على حذر وليستعد لها أيضا ما يصلح أن يكون زادا فقلت وعلى الله اعتمدت.

قال صاحب كتاب الجمان في مختصر أخبار الزمان ما نصه ولنختم إن شاء الله هذا التأليف المختصر بالعلامات التي تكون بين يدي الساعة إلى انقراض الدنيا واعلم انه لا خلاف بين أهل العلم أن مبعثه صلى الله عليه وسلم من علاماتها الكبرى لقوله تعالى وخاتم النبيين ثم انشقاق القمر من علاماتها الكبرى وأما الصغرى فكثير ذكرها صلى الله عليه وسلم في أحاديث[1] كثيرة مختلفة.

(١) في نسخة وأما الصغرى فقد ذكرت في أحاديث.

وأما العلامات الكبرى فثمانية قال الله تعالى فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فبعث النبي صلى الله عليه وسلم وانشقاق القمر ونحن ننتظر الستة وهي الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والزلزلة والدخان.

وأما الصغرى فقد قال صلى الله عليه وسلم إذا غاب الحق وظهر الباطل وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا وظهرت البدع واستبيحت الفواحش وأكل الربا وخرج النساء متبرجات وحبست الزكاة وقلت الصدقات وأهين العلماء وأكرم الشعراء فحينئذ تحبس السماء مطرها وتحبس الأرض عطرها وترفع البركات وتقل الأرزاق ولا تنال المعيشة إلا بالشبه فيأتي زمان يكون فيه قوم يصلون ويقرؤون القرآن ويتمردون على الرحمان لا تجاوز قراءتهم حناجرهم أقوالهم أحلى من العسل وأفعالهم انتن من رائحة البصل قلوبهم مسودة وسرائرهم خبيثة يكون فيهم عمال ظلمة وشهد يشهدون الزور وحكام يشربون الخمر ويجلدون عليها ويأتون الفواحش ويحدون عليها يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية الغش فاكهتهم والغيبة مجالستهم يرفعون في المساجد بحديث الدنيا أصواتهم قوم لا يرحم غنيهم فقيرهم ولا يوقر صغيرهم كبيرهم يشيدون البناء (١) يكون فيه الأمير كالأسد والقاضي كالذئب والتاجر كالثعلب والفاسق كالكلب والمؤمن كالشاة ثم بكى صلى الله عليه وسلم وقال يا لها من شاة بين أسد وذئب وثعلب وكلب عندها يتوقى الناس (٢) بهم الأرض ويوقع الله الفتنة بين الخلق فيقتل بعضهم بعضا ويسبي بعضهم بعضا فينتقم الله من الكل وهو دليل انقراض الدنيا.

---

(١) هكذا بياض في ثلاث نسخ وفي نسخة ويأتي زمان.

(٢) بياض في ثلاث نسخ وفي نسخة لم ينبه عنه وفيها إسقاط عندها يتوقى... بهم الأرض.

ثم قال صلى الله عليه وسلم زمان لا تتم فيه تجارة الرجل ولا تنجح حوائجه إلا بالإيمان الكاذبة وأولئك هم الخاسرون الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم قال صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة إذا رأيت الناس يوم عيدهم في زيهم فحدث نفسك بأن ذلك كاه خرقة تبلى ولحم يأكله الدود يا أبا هريرة لولا أن الله خلق الموت وكتبه على العباد لادّعت الناس كلهم الربوبية ولولا جهنم ما سجد لله ساجد وقال صلى الله عليه وسلم يذهب الصالحون الأول فالأول وتبقى حثالة كحثالة التمر والشعير لا يبالي الله بهم في أي واد من العذاب أهلكهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال لما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع مسك بيده حلقة الكعبة وهزها وبكى بكاء شديدا فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه مم بكاؤك يا رسول الله فقال وكيف لا أبكي وهذه آخر حجة لي وقد أبكاني فراق الكعبة وتوديع المسلمين يا أبا بكر ليبلغ الحاضر منكم الغائب عني إن مثلكم كمثل ورق بلا شوك إلى سبعمائة سنة ثم تكون أمتي ورقا وشوكا إلى تمام مائة سنة ثم تكون أمتي شوكا بلا ورق أن تركتهم لم يتركوك وإن فررت منهم جذبوك لا ترى فيهم إلا سلطانا جائرا وغنيا بخيلا أو عالما راغبا في الدنيا أو عابدا مرائيا أو فقيرا كذابا أو تاجرا فاجرا أو صانعا خائنا أو شيخا غافلا أو شابا فصيحا أو امرأة لا حياء لها.

قال عكاشة صف لنا ذلك الزمان يا رسول الله فقال زمان يكون فيه المؤمن ذليلا والفاجر عزيزا تركب فيه الفروج السروج وتأكل الأم من فرج ابنتها فإذا شاعت المنكرات وقلت الطاعات أرسل الله القحط على الأرض ثلاث سنين يزرع الناس ولا يحصلون شيئا فيخرج الدجال وله شراب وطعام يفتن به الناس يغرس بيمينه ويجني بيساره وتضرب البقرة وتلد في يومها فيفتن الناس فينهض إليه أهل التوحيد

ويحاربونه ويسألون النصر من الله تعالى فينزل عليهم عيسى ابن مريم عليه السلام وأهل التوحيد قد اجتمعوا على الإمام المهدي فيقتل عيسى عليه السلام الدجال وتنهزم جنوده والمؤمنون خلفهم فلا يختفي كافر خلف حجر ولا خلف شجر إلا ناداه ذلك يا ولي الله تعلم فإن خلفي عدو الله إلا شجر الغرقد فإنه يكتم عليهم وهي شجرة العوسج وعيسى عليه السلام في ذلك اليوم على فرس كميت أصهب طويل والدجال على حمارة كأنها الكلب إذا لهث لهثت اجراؤها في بطنها تضع رجلها مد بصرها والإمام المهدي رجل شريف عالم ناسك صالح إذا ظهرتا العلامات يبايعه الناس رغما على أنفه وهو كاره وعلامته كسوف القمر ثلاث ليال في شهر واحد ولم يشاهد ذلك قط يكسف ليلة ثلاثة عشر وليلة أربعة عشر وليلة خمسة عشر فيبايعه الناس ويخرجون لقتال الدجال وينزل عيسى فيقتله على باب بيت المقدس بالشام ومع المهدي يومئذ ألف مقاتل من المؤمنين فإذا انهزم الكفار أخذ الفاطمي أموالهم ويخرج إلى رومة فيفتحها في أيام ابن مريم عليه السلام وهي أربعون سنة اليوم فيها كالساعة والشهر يوم والسنة شهر لا يعدو في أيامه شيء على شيء.

وقال وهب بن منبه وعلامة خروج الدجال تهب ريح كأنها ريح عاد وصفته رجل طويل عريض الوجه مطموس اليمنى مكتوب بين عينيه كافر بالله يخرج من قرية بالمشرق يقال لها سرادين[1] يطوف الأرض شرقا وغربا كلمح البصر يخرج إليه الخضر عليه السلام من مدينة يثرب يقول له إلى أين يا ملعون يا كذاب يا ساحر فيقتل الخضر ويقسمه على نصفين ثم يحييه ثم يقتله ولم يستطع أن يحييه ثم يأتي المدينة فترميه الملائكة بالنيران فيفر إلى بيت المقدس فترميه الملائكة بالنيران فيخرج لناحية الشام فيلقاه عيسى عليه السلام فيقتله ويرفع الله البلاء عن أهل الأرض.

---

(١) كذا في ثلاث نسخ وفي نسخة سراديب أو سراديف ولعله السرداب كما في تاج العروس.

قيل يا رسول الله المسلمون في زمانه يعبدون الله قال يصومون ويصلون وهم في غاية الهم والغم فإذا قتل الدجال أرسل اله على المشركين ريحا عقيمة تقتلهم ولا تضر أهل الإيمان وينزل الله مع عيسى تسعين ألفا من الملائكة وعلى رأس عيسى يومئذ عمامة خضراء وفي يده حربة وقد تقلد سيفين وهو يقول جاء الحق وزهق الباطل يأمن زمانه جميع الخلق وترعى الغنم والذئاب وتلعب الغلمان بالحيات وتحج المرأة وحدها من أقصى الأرض ويظهر الله تعالى للخلق كنوز الأرض فلا يبقى فقير على وجهها والإمام المهدي مع عيسى يومئذ يقيمان دين الله ويتبعان سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فبينما الناس في تلك النعمة الشاملة إذا يأجوج ومأجوج قد خرجوا على الأرض حتى لا يجد الطائر موضعا خاليا يلقي فيه أفراخه فيأتون بيت المقدس ويرمونه بالسهام فيقاتلهم عيسى عليه السلام والإمام المهدي في بيت المقدس وهم يرمون المؤمنين حتى تعمل سهامهم الظل على الخلائق فيدعو عليهم عيسى عليه السلام ويؤمن المهدي ومن معهما من المسلمين فيرسل الله عليهم ريحا عاصفة تهلكهم فإذا ماتوا انتشر الناس وتكمل الأربعون التي لعيسى عليه السلام في الأرض فإذا أراد الله قبض روح عيسى عليه السلام أرسل الله ملك الموت في صفة شاب حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له عيسى عليه السلام من أنت أيها الشاب فيقول عبد الله تعالى أردت أن أسيح معك في الأرض فيخرج عيسى عليه السلام وملك الموت إلى المدينة من بيت المقدس ومعهما الإمام المهدي فيأتون المدينة ويصلون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول ملك الموت يا روح الله أحي لنا بعض الموتى فأني رأيتك في بني إسرائيل تحيي الموتى بأذن الله تعالى لنسألهم فيقول عيسى أو كنت أنت في بني إسرائيل فيقول نعم ورأيت آباك آدم وإدريس ونوحا وهودا وإبراهيم وموسى وسليمان وجميع بني آدم فيقول له من أنت يا هذا الذي رأيت جميع بني آدم فيقول له أن أحييت لنا بعض الأموات أعلمتك من أنا فيناديهم يا أهل القبور قوموا بأذن الله

فتنشق الأرض ويخرج ثلاثة أناس وجه أحدهم كالقمر ليلة كماله والثاني كلون الزعفران والثالث كالنار فيسألهم عيسى من أنتم وما حالكم فيقول الأول يا روح الله كنت في الدنيا فقيرا صابرا ولربي في كل حال شاكرا، فلما مت وجدت عند الله الغنى الاكفى ونسيت الدنيا وكربها فطوبى للمتقين، وويل للمتكبرين، [1] ويقول الثالث يا روح الله كنت في الدنيا من أهل الكفر والعصيان ملكتني الغفلة عن الموت وانستني شقوتي ذكر الله تعالى فها أنا اليوم لا الاقالة أجدها ولا العقوبة أفارقها فيقول عيسى عليه السلام عودوا إلى قبوركم الله أعلم فيسقطون موتى كما كانوا أول مرة وتبتلعهم قبورهم ثم يأتي عيسى عليه السلام وملك الموت إلى الروضة الخضراء عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلمان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسألان الله من فضله ثم يقول ملك الموت لعيسى عليه السلام يا روح الله إنما أطلعتك على هؤلاء الموتى لتعلم أن الموت لا ينجو منه مخلوق حي أبدا ولو نجا منه أحدا لنجا منه صاحب هذا القبر يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يغيب ملك الموت فيأتي بمشمة من الجنة في أسرع من طرفة العين رائحتها تسل الأرواح وتطير نحو باريها فإذا رآها عيسى في يده أعجبته بحيث لا يملك نفسه عنها فيقول له ملك الموت يا روح الله أنا ملك الموت وهذه المشمة أمرني الله أن اقبض روحك بها فيأخذها عيسى ويشمها وهو يعلم أن الموت فيها لكنه لا يقدر أن يمنع نفسه فإذا شمها سقط ميتا للأرض فيغسل عيسى عليه السلام ويدفن في الموضع الذي خلف أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبة الخضراء فإذا فرغوا من دفن عيسى عليه السلام وخرجوا من عنده وجدوا رائحة تلك المشمة قد انتشرت في الأرض وسارت بها الرياح في جميع الأرض رائحتها كأطيب ما يكون من المسك الاذفر فلا يشمها مؤمن على وجه الأرض إلا اقتلعت عروق قلبه فمنهم

---

(١) بياض في جميع النسخ وفي هامش نسخة ما نصه بياض قدر سطرين.

من يموت من ساعته ومنهم من يومه ومنهم من بعد أيام قليلة ولا يجد تلك الرائحة كافر ولا منافق ولا عاص فإذا مات الأخيار وبقي الأشرار ارتفع القرآن وصارت الخلائق يموج بعضها في بعض كالبهائم لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيأمر الله الشمس أن تطلع من مغربها ويأمر اسرافيل ليلة الجمعة بالنفخ في الصور وهو تمام الدنيا والملك والدوام والبقاء لله الواحد القهار.

وفي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يغزو سبعون ألفا من بني إسحاق مدينة جانب منها في البر وجانب منها في البحر قال ابن جُزي[1] في كتاب تنافس الحكمة له هي القسطنطينية وبنو إسحاق هم بنو العيص بن إسحاق ولد لإسحاق ولدان يعقوب واليعص فالعيص هو الأصفر ذريته هم الروم وسموا بني الأصفر لصفرة كانت في وجه العيص ومن ظن الروم هم النصارى فقد غلط وإنما الروم الترك الذين أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامهم فكان يقول اتركوا الترك ما تركوكم فإن الساعة لا تقوم إلا وأن أكثر الناس الروم.

ثم قال الإمام بن جزي في قوله تعالى ﴿ الم غلبت الروم في أدنى الأرض ﴾ أي في بيت المقدس والشام وكان ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه وقوله تعالى ﴿ فِي بِضْعِ سِنِينَ ﴾ أي بضع العشرات وهو سبعون أسبوعا وهي ثلاثمائة وخمسون سنة[2] فلما انقضت غلب الروم المسلمين وانتزعوا من أيدي المسلمين أكثر ثغور الشام وقواعدها ثم انتهم الأغزاز من بلاد المشرق من بلاد فارس فأخرجوهم من جميع الثغور وافتتحوا جل بلاد أرمينية وتمت مدة الروم من بلاد الشام سنة تسع وأربعمائة وهو قوله تعالى: ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾.

---

(١) في ثلاث نسخ ابن جرجي.

(٢) كذا في جميع النسخ.

وقال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود إذا اتبعوا الدجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى عليه السلام يقتلهم على آخرهم وذلك أن اليهود ليس لهم رجعة عن دينهم لأن الله تعالى قد غضب عليهم فلا ترجى لهم رحمة أبدا بدليل قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ إلى قوله ﴿ نَصَٰرَىٰ ﴾ وقال تعالى: ﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ فالمغضوب عليهم اليهود و الضالون النصارى فالضال ترجى هدايته والمغضوب عليه ميئوس منه.

وقال صلى الله عليه وسلم يخرج الدجال في أمتي يمكث فيهم أربعين يوما فيتبعه من يهود أصبهان سبعون ألفا عليهم الطيالسة والدجال أجلى الجبهة ممسوح العين عريض المنخر يقول للناس أنا ربكم الأعلى والرب سبحانه ليس بأعور ثم يرسل الله ريحا من قبل الشام تقبض كل من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ويبقى أشرار الخلق لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فيأمرهم الشيطان بعبادة الأوثان حتى لا يبقى على الأرض مؤمن فيأمر الله اسرافيل فينفخ في الصور [نفخة الصعق فيموت كل مخلوق قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ ثم ينفخ نفخة][1] البعث فإذا هم قياما ينظرون فيأمر الله مناديا ينادي أيها الناس هلموا إلى ربكم فيجمع الخلق كلهم في صعيد واحد ثم يقول أخرجوا ابعث النار فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وذلك قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾.

(١) ما بين القوسين ساقط في ثلاث نسخ.

صلاة التسبيح مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم[1] عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس يا عباس يا عماه إلا أعطيك إلا أمنحك ألا أحبوك ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه خطأه وعمده صغيره وكبيره سره وعلانيته عشر خصال أن تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة فإذا فرغت من القراءة في أول كل ركعة وأنت قائم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع وتقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر عشر مرات ثم تقوم وتقولها عشر مرات ثم تسجد وتقولها عشر مرات ثم تجلس وتقولها عشر مرات ثم تسجد وتقولها عشر مرات فمجموع ذلك خمس وسبعون مرة في كل ركعة تفعل ذلك إلى تمام الأربع ركعات فإن استطعت أن تفعل ذلك في كل يوم فافعل وإلا ففي كل جمعة وإلا ففي كل شهر وإلا ففي كل سنة مرة وإلا فمرة واحدة في العمر فإن الله يغفر لك ذنوبك كلها.

شعر في فضل صيام التطوع:

أيا راغبا فضل الصيام تطوعا ... عليك بأيام روتها الأوائل
فعدتها سبع من العام كله ... ففي صومها للصائمين فضائل
ففي النصف من شعبان جاءت مناقب ... من الخير والإحسان هي شوامل
فمن قام في ليل وأصبح صائما ... تلقى أمانا لم تصبه القوافل
ومن قعدة خمس وعشرين فاحتفظ ... به انه يوم جليل وفاضل
ومن حجة يوم أتى وهو ثامن ... وتاسعه أيضا كذلك حاصل
وثالث أيام المحرم انه ... جليل وعاشوراء فيها أقاول

(١) قد أورد الشيخ هذه الصلاة في صحيفة ٥١٤ برواية مخالفة لهذه الرواية فليحرر.

صلاة التسبيح مروية عن النبي صلى الله عليه وسلم[١] عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمه العباس يا عباس يا عماه إلا أعطيك إلا أمنحك ألا أحبوك ألا أفعل بك عشر خصال إذا أنت فعلت ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه خطأه وعمده صغيره وكبيره سره وعلانيته عشر خصال أن تصلي أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة فإذا فرغت من القراءة في أول كل ركعة وأنت قائم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خمس عشرة مرة ثم تركع وتقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر عشر مرات ثم تقوم وتقولها عشر مرات ثم تسجد وتقولها عشر مرات ثم تجلس وتقولها عشر مرات ثم تسجد وتقولها عشر مرات فمجموع ذلك خمس وسبعون مرة في كل ركعة تفعل ذلك إلى تمام الأربع ركعات فإن استطعت أن تفعل ذلك في كل يوم فافعل وإلا ففي كل جمعة وإلا ففي كل شهر وإلا ففي كل سنة مرة وإلا فمرة واحدة في العمر فإن الله يغفر لك ذنوبك كلها.

شعر في فضل صيام التطوع:

أيا راغبا فضل الصيام تطوعا عليك بأيام روتها الأوائل
فعدتها سبع من العام كله ففي صومها للصائمين فضائل
ففي النصف من شعبان جاءت مناقب من الخير والإحسان هي شوامل
فمن قام في ليل وأصبح صائما تلقى أمانا لم تصبه القوافل
ومن قعدة خمس وعشرين فاحتفظ به انه يوم جليل وفاضل
ومن حجة يوم أتى وهو ثامن وتاسعه أيضا كذلك حاصل
وثالث أيام المحرم انه جليل وعاشوراء فيها أقاول

(١) قد أورد الشيخ هذه الصلاة في صحيفة ٥١٤ برواية مخالفة لهذه الرواية فليحرر.

وجد في أصل نسختين من النسخ المعتمد عليها في التصحيح ما نصه

انتهت الرحلة المباركة تأليف الشيخ الصالح، والقطب الواضح، شيخ الطريقة، وإمام أهل الحقيقة، شمس العقول، الجامع بين المعقول والمنقول، ذي النور الرباني، والوبه الصمداني، الشيخ سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني، بلغنا الله وأياه جميع الأماني، وكان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان عام ١١٨٢ اثنين وثمانين ومائة وألف رزقنا الله خيره وخير ما بعده ووقانا شره وشر ما بعده آمين نسختها للشيخ المذكور من مسودته مريدا التقرب والتزلف لديه والاغتراف من بحر علمه وسره وأنواره والفيض من بركاته عطفه الله علينا عساه أن يذوقنا من ذواقه سقانا الله من بحر سره وأنواره وأفاض ذلك علينا وعلى ذريتنا إلى غابر الدهر ومال ذلك على الله بعزيز على يد كاتبها العبد الفقير الذليل الحقير المقر بالعجز والتقصير سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي دارا ومنشأ غفر الله له ولوالديه ولأشياخه ولأحبابه ولجميع قرابته ولجيرانه ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وجد في أصل نسختين من النسخ المعتمد عليها في التصحيح ما نصه

انتهت الرحلة المباركة تأليف الشيخ الصالح، والقطب الواضح، شيخ الطريقة، وإمام أهل الحقيقة، شمس العقول، الجامع بين المعقول والمنقول، ذي النور الرباني، والوبه الصمداني، الشيخ سيدي الحسين بن محمد السعيد الشريف الورثيلاني، بلغنا الله وأياه جميع الأماني، وكان الفراغ من نسخها ضحى يوم الاثنين الفاتح لشهر شعبان عام ١١٨٢ اثنين وثمانين ومائة وألف رزقنا الله خيره وخير ما بعده ووقانا شره وشر ما بعده آمين نسختها للشيخ المذكور من مسودته مريدا التقرب والتزلف لديه والاغتراف من بحر علمه وسره وأنواره والفيض من بركاته عطفه الله علينا عساه أن يذوقنا من ذواقه سقانا الله من بحر سره وأنواره وأفاض ذلك علينا وعلى ذريتنا إلى غابر الدهر ومال ذلك على الله بعزيز على يد كاتبها العبد الفقير الذليل الحقير المقر بالعجز والتقصير سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي دارا ومنشأ غفر الله له ولوالديه ولأشياخه ولأحبابه ولجميع قرابته ولجيرانه ولجميع المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس

كلمة للمصحح ٣

ترجمة المصنف ٥

ذكر خروجنا من بسكرة ١٢٤

ذكر وصولنا إلى طرابلس ١٦٧

ذكر خروجنا من مصر ٣٧٧

دخولنا مكة المشرفة ٤٥٢

ذكر المشاهد التي ينبغي للحاج أن يزورها بمكة شرفها الله تعالى ٤٧٣

ذكر من لقيتهم في الحرم المكي من الأئمة ٤٩٦

ذكر خروجنا من مكة المشرفة ٥١٨

ذكر جبل أُحد وما به أو بطريقه من المساجد النبوية ٥٥٣

وذكر مشهد سيد الشهداء حمزة ومن معه من الشهداء ٥٥٣

ذكر الآبار التي ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم تفل فيها أو شرب من مائها أو توضأ فيها فاكتسبت بذلك فضلا على غيرها فصارت مقصودة بالزيارة والاستشفاء بمائها ٥٦٨

ذكر بعض أودية المدينة التي تسيل إذا كثرت الأمطار فيخرج أهل المدينة للتنزه بها .. ٦٠٤

ذكر دخولنا مصر ٦٤٠

ذكر الإسكندرية وما بها من العجائب ٦٤٨

ذكر من نزل مصر من أولاد آدم عليه الصلاة والسلام ٦٦٠

ذكر من ملك مصر قبل الطوفان ٦٦١

ذكر من دخل من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مصر ٦٦٣

ذكر عجائب مصر القديمة ....:.............................. ٦٦٤

ذكر خروجنا من طرابلس ٧٣٤

ذكر وصولنا إلى تونس ٧٦١

ذكر دخولنا قسنطينة ٧٩١

مكتبة الثقافة الدينية

٥٢٦ شارع بورسعيد / القاهرة

ت . ٢٥٩٢٢٦٢٠ ـ ٢٥٩٣٨٤١١ فاكس : ٢٥٩٣٦٢٧٧

ص.ب ٢١ توزيع الظاهر ـ القاهرة

E-mail : alsakaalDinaya@hotmail.com

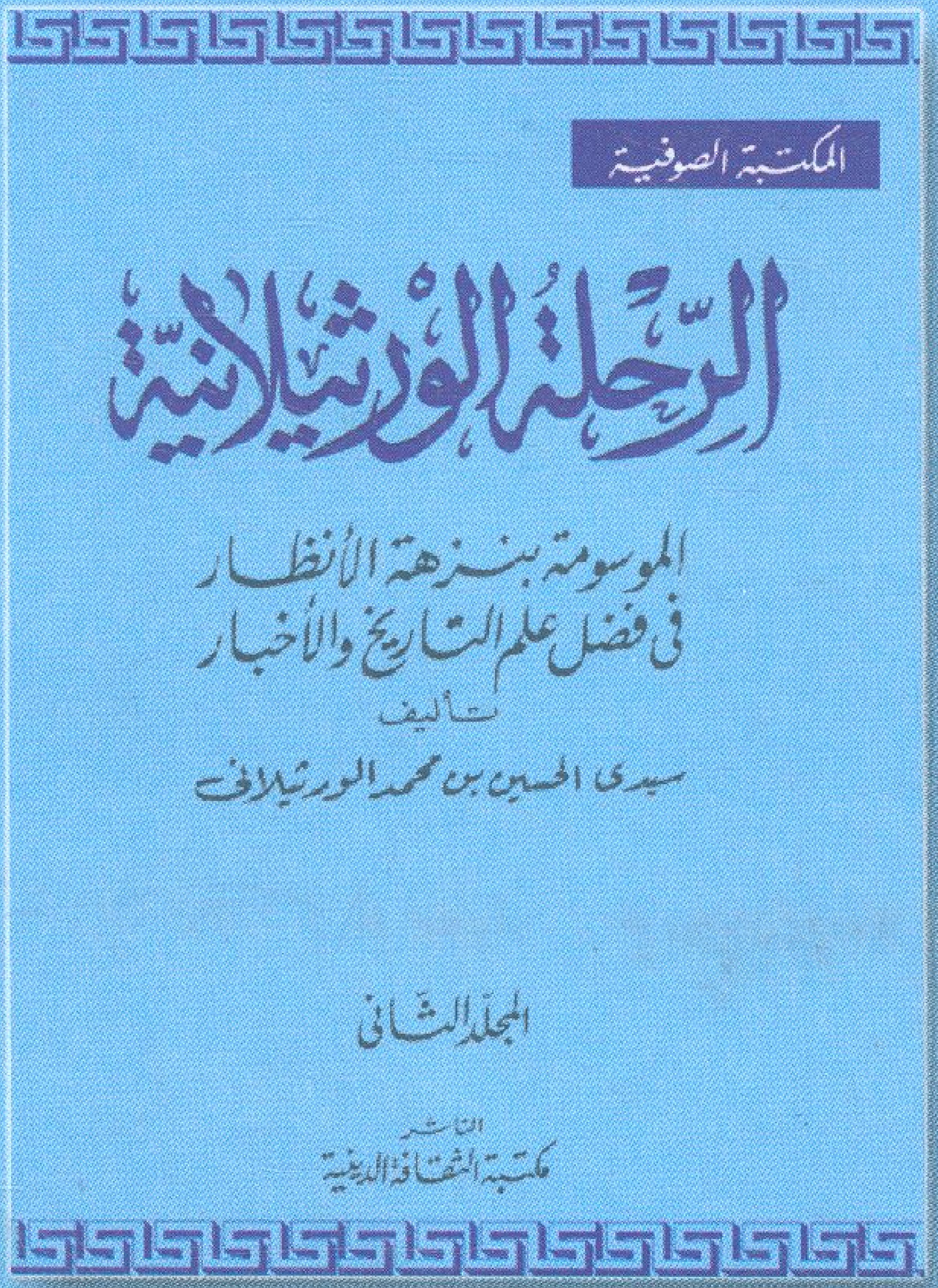

Bibliotheca Alexandrina
0667275

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بورسعيد - القاهرة
ت: ٢٥٩٢٢٦٢٠ - ٢٥٩٣٨٤١١
فاكس: ٢٥٩٣٦٢٧٧ ص.ب: ٢١ توزيع الظاهر
E-mail:alsakafa_alDinaya@hotmail.com